الدُّرَرُ النَّاجِيَة

في شرح

القَصِيدَةُ التَّائِيَّة

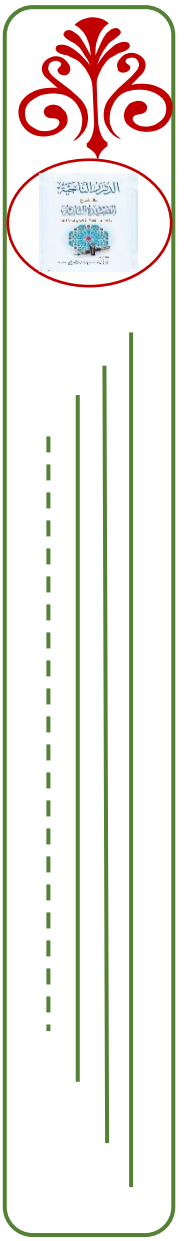
للإمام أبي إسحاق الإلبيري تـ ٤٦٠ هـ



كتبه:

أبو أسامة حشير بن أحمد الشرعبي حفظه الله





بسم الله الرحمن الرحيم



حقوق الطبع محفوظة

١٤٤٧هـ

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لله نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِيْنُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِن شُرُورِ أَنفُسِنا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا الله وَحَدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ النساء: ١

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ آل عمران: ١٠٢

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ الأحزاب: ٧٠ – ٧١

أَمَّا بَعْدُ: فَهَذَا شَرْحٌ لِمَنْظُومَةِ أَبِي إِسْحَاقَ الإِلْبِيرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى. يَسَّرَ اللهُ تَعَالَى تَدْرِيسَهَا مِنْ تَارِيخِ ٢٣ ذِي الحِجَّةِ ١٤٤٥ هِجْرِيَّةٍ، وَانْتَهَيْنَا مِنْهَا بِتَارِيخِ ٤ صَفَر١٤٤٦ هِجْرِيَّةٍ، عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

وَقَدْ كَانَ الاعْتِمَادُ فِي أَبْيَاتِهَا عَلَى بَعْضِ النُّسَخِ التِي عَدَدُ أَبْيَاتِهَا (١١٥)، وَفِيْهَا اخْتِلَافٌ فِي بَعْضِ الأَلْفَاظِ مع النُسْخَةِ الأَصْلِيَةِ، وَهِيَ مُتَقَارِبَةُ المَعْنى عُمُوْمَاً

وَقَدْ أَحَبَّ بَعْضُ الإِخْوَةِ تَفْرِيغَهَا، فَفَرَّغْتُهَا وَعَدَّلْتُ عَلَيْهَا، مَعَ بَعْضِ الزِيَادَاتِ،

وَجَزَى اللهُ خَيْراً مَنْ أَفَادَنِي أَوْ نَبَهَنِي فِي هَذا الشَّرح، وَّأَخُصُ بِالذكرِ، الأخ فهد البرهمي، حَفِظَهُ اللهُ وَعَافَاهُ، وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَنْفَعَ بِذَلِكَ.

وَهَذِهِ الْقَصِيدَةُ تُعْرَفُ بـ (الْمَنْظُومَةِ التَّائِيَةِ)، وَتُعْرَفُ بـ (مُنْظُومَة الْآدَابِ).

ترجمة الناظم رحمه الله

إبراهيم بن مسعود بن سعيد، أبو إسحاق التُّجيبي الإلبيري: شاعر أندلسي أصله من أهل حصن العقاب. اشتهر بغرناطة وأنكر على ملكها كونه اسْتَوْزَرَ ابنَ نَغْزِلَة (اليهودي) فنفي إلى إلبيرة. وقال شعراً في ذلك. فثارت صنهاجة على اليهودي وقتلوه. له (ديوان - ط) صغير، عن مخطوطة في مكتبة الأسكوريال (رقم ٤٠٤) وشعره كله حكم ومواعظ[1].وَكَانَ نَاصِحًا مُنَافِحًا. وَكَانَ فِي زَمَنِهِ بَادِيس صَاحِبُ غَرْنَاطَةٍ قَدْ اتَّخَذَ وَزِيرًا لَهُ اسْمُهُ اسْمَاعِيلَ، وَكَانَ يَهُودِيًّا وَوَضَعَهُ عَلَى جَمْعِ الْأَمْوَالِ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ حَرِيصًا عَلَى نَشْرِ مُعْتَقَدَاتِهِ فِي الْخَفَاءِ، وَكَانَ صَاحِبُ ذِكَاءٍ، وَمَكْرٍ، وَدِهَاءٍ، وَكَانَ يُؤَسِّسُ لِلْكِيَانِ الْيَهُودِيِّ فِي غَرْنَاطَةٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَكَانَ أَبُو اسْحَاقَ نَاصِحًا مُحَذِّرًا، فَحَذَرَ بَادِيِّسَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَمِمَّا هُوَ فِيهِ، فَأَشْهَرُ شِعْرِهِ قَصِيْدَتُهُ فِيْ تَحْرِيضِ صنهاجة على ابنِ نَغْزِلَّة اليهودي، ونصحه لباديس، وهي قصيدة طيبة رأيتُ من المناسبِ ذِكرَها.

وفيما يلي نص القصيدة:

ألا قلْ لِصَنهَاجة أجْمَعين ... بدورِ النَّدى وأُسد العرينْ

لـقـد زَلَّ سيـدُكم زلَّـةً ... تَقِرُّ بها أعينُ الشامتين

تخـيَّر كـاتـبَـه كـافـراً ... ولَو شاء كان مِن المسلمينْ

فـعَـزَّ الـيهودُ بـه وانـتخَـوا ... وتاهُوا وكانُوا مِنَ الأرذلِينْ

ونَالُوا مُنَاهُم وجازُوا المدَى ... فحَانَ الهلاكُ ومَا يشعُرونْ

فـكـم مُسلِمٍ فاضـلٍ قانتٍ ... لأَرْذَلِ قِرْدٍ مِنَ المشركينْ

---

(١) "الأعلام" للزركلي ج١ صـ٧٣.

وَمَـا كـان ذلك مـن سَعيهِم ... ولكِنَّ مِنَّا يَقُوم المعِينْ
فَهَـلا اقتـدَى فيهـم بالأُلَى ... مِنَ القادة الخِيرة المتقينْ
وأنزلهُمْ حـيـث يَسْـتَأهِـلُـون ... وَردَّهُمُ أسفَلَ السافلينْ
وطـافُـوا لـدَيْنَا بِـأَخـراجـهـمْ ... عليهم صَغَار وذل وَهونْ
وقَـمُّوا المـزابَل عَـن خـرقَة ... مـلَونـــةٍ لِـدِثارِ الَدفـينْ
ولـم يَـسْتَخـفُّوا بـأَعْلامِنا ... ولم يَستطيلُوا عَلى الصالحِينْ
وَلا جَـالسُـوهُم وَهُـم هُجْنة ... وَلا واكَبُوهُم مَعَ الأَقربين
أبـاديس أنت امرؤ حَـاذِق ... تُصيبُ بظنِكَ نفس اليَقِينْ
فكيْفَ اختفَت عَنْك أعْيَانهمْ ... وفي الأرضِ تُضربُ مِنْهَا القُرونْ
وكَـيفَ تُحِبُّ فراخَ الزنَا ... وَهُمْ بَغَّضوكَ إلَى العَالمينْ
وكـيفَ يَتِمُّ لَكَ المُرتقَى ... إذَا كُنتَ تبْني وهُم يَهْدِمُون
وكـيفَ استنمت إلى فاسِقٍ ... وَقَارنتَهُ وهْوَ بِيسَ القَرِينْ
وقـد أنزل الله في وَحْيِهِ ... يحَذِّر عَن صُحْبَةِ الفاسقينْ
فـلا تَتخذْ مِنْهُم خَـادِمًا ... وذرْهُمْ إلى لعنَةِ اللَّاعِنين
فَقد ضجَّتِ الأرضُ من فِسْقِهِمْ ... وكادَت تميد بِنَا أَجمَعِينْ
تـأمَّـلْ بـعيْنيك أقـطارَهَـا ... تجدْهِمْ كِلابا بَهَا خاسِئِينْ
وكـيفَ انفَـردْت بتَقْرِيبهم ... وَهُمْ في البلادِ مِنَ المُبْعَدِينْ
عَـلَى أنكَ المَلِكُ المـرتضَى ... سَلِيلُ المُلوكِ مِنَ المَاجدِينْ
وأن لَكَ السَّبقَ بيْن الورى ... كما أنتَ مِنْ جِلة السّابقينْ

وَإنـــي احتللْتُ بـــغرناطَة ... فكُنْتُ أراهُمْ بِهَا عَابثِينْ
وقـــدْ قَـسَّمُـــوهَا وأعمالَهَا ... فمنهُمْ بكل مكَانٍ لَعين
وهُـــمْ يـلبَسُونَ رَفِيعَ الكِسَا ... وأنْتُمْ لأَوْضعها لابسُونْ
وهـــمْ أمْنَاكُمْ عَلى سِرِّكُم ... وكيف يكونُ خَؤُون أمينْ؟
ويـــأكـــلُ غـــيرُهُم دِرهمـــا ... فَيُقْصَى ويدْنَوْن إذْ يأكلون
وقـــدْ ناهضُوكُـــمْ إلى رَبِّكمْ ... فما تَمْنَعُونَ وَلا تنكِرونْ
وقـــدْ لابَسُوكُـــمْ بـــأسْحارِهِم ... فما تَسْمَعُون ولا تُبصِرُونْ
وهـــم يَذبَحُـــون بـــأسْواقهَا ... وأنْتُمْ لأطرافِهَا آكِلُون
وَرخـــمَ قِرْدهُـــمُ دارَه ... وأجرى إلَيْها نَمِير العُيُونْ
فـــصَـــارت حَـــوائجُنَا عـــنْـــدَهُ ... ونحْنُ على بَابه قائمُونْ
ويَضحَكُ مِنَّا وَمنْ دِينِنَا ... فإنَّا إلى ربِّنا راجعُونْ
ولـــوْ قُلْت في مَـــاله إنَّهُ ... كما لِكَ كُنْتَ من الصَّادِقين
فَـــبَادِر إلى ذَبْحِـــه قُربَـــةً ... وَضَحِّ بِه فَهْوَ كَبش سمين
وَلا تَرْفَع الضَّغط عن رَهطه ... فقَد كَنَزُوا كُلَّ عِلْقٍ ثمين
وَفرّقْ عِدَاهُم وخُذْ مَالَهُمْ ... فأَنْتَ أَحَقّ بما يَجْمعُونْ
وَلا تَحْسَبَنْ قَتْلَهُمْ غَـــدرَةً ... بَلِ الغَدْر في تَركِهِم يَعْبَثُون
وقَـــد نكثوا عَهْدَنَا عندَهُمْ ... فكيْفَ تُلامُ عَلَى النَّاكِثِينْ
وكـــيف تَكُونُ لَهُم ذمَّـــة ... وَنَحْن خُمُول وَهم ظَاهِرونْ
ونَـــحنُ الأَذِلةُ من بَينِهِـــم ... كَأَنَّا أَسَأنا وهمْ محسِنُونْ

فـــلا تَـــرْضَ فِينا بـــأفْعَالهـــمْ فأنْتَ رَهِين بِمَا يفْعَلوُنْ
وراقِـبْ إِلَهَـــك فِي حِزْبـــهِ فَحِزْبُ الإله هُمُ الغَالِبُونْ[1]

فاشتهر هَذَا الشّعْر وثارت صنهاجة على الْيَهُود فَقَتَلُوهُ وَعظُم قدر أبي إِسْحَاق.[2]

وَفِي ملازمته سُكْنى الْعقَاب يَقُول:

أَلِفْتُ العُقَابَ حَذَارِ العِقَابِ وَعِفْتُ المَوَارِدَ خَوْفَ الذُّبَابِ
وَأَبْغَضْتُ نَفْسِي لِعِصْيَانِهَا وَعَاقَبْتُهَا بِأَشَدِّ العِقَابِ
فَكَمْ خَدَعَتْنِي عَلَى أَنَّنِي بَصِيرٌ بِطُرُقِ الخَطَا وَالصَّوَابِ
فَلَسْتُ عَلَى الأَمْنِ مِنْ غَدْرِهَا وَلَوْ حَلَفَتْ لِي بِأَيِ الكِتَابِ[3]

روى عَنْ أبي عَبْد اللَّه بْن زمنين وَغَيره، وَكَانَ من أَهْلَ الْعلم وَالْعَمَل شَاعِرًا مجودًا وشعره مدون وَكله فِي الحكم، والمواعظ، والإزهاد، ومسلكه سلك أَبُو مُحَمَّد بْن الْعَسَّال الطليطلي، وَكَانَا فَرَسَيْ رهان فِي ذَلِكَ الزَّمَان صلاحًا، وَعبادَة. وَقد حدَّث أَبُو إِسْحَاق وروى عَنْهُ ابْن أُخْته، وَأَبُو مُحَمَّد عَبْد الْوَاحِد بْن عِيسَى، وَأَبُو حَفْص عُمَر بْن خَلَف الهمدانيان الإلبيريان، وَغَيرهم.[4]

---

(١) "ديوان أبي إسحاق الإلبيري" صـ٨٩.دار قتيبة.

(٢) "المغرب في حلى المغرب" ج٢صـ١٣٣ دار المعارف. ط.الثالثة.

(٣) المصدر السابق.

(٤) "التكملة لكتاب الصلة"، ج١ صـ ١١٩، و"تاريخ الإسلام" ج٣٠صـ٤٩٨.

❁ قال القاضي عياض -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أصْحابِ أَبِي عَبدِ اللهِ ابنِ أَبِي زَمَنِين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَرَوَى عَنهُ كُتُبَهُ، وَكَانَ فَقِيهًا مُعَظَّمًا فِي وَقتِهِ، وَعَلَيهِ تَفَقَّهَ عَبدُ الوَاحِدِ بنُ عِيسَى بنِ الهَمدَانِي فَقِيهُ غَرناطَةَ. وَرَوَى عَنهُ كُتُبَ ابنِ أَبِي زَمَنِين. وَتُوفِي عَبدُ الوَاحِدِ هَذَا سَنَةَ أَربَعٍ وَخَمسِمِائَةٍ، وَقَد رَأَيتُهُ أَنَا رَحِمَهُ اللهُ. (١)

مولده، ووفاته: ٣٧٥ - ٤٦٠ هـ / ٩٨٥ - ١٠٦٧ م. (٢)

ومن قصائده الطيبة الجميلة منظومته التائية وهي من أجمل القصائد في بابها وقد اعتنى أهل العلم بحفظها وشرحها.

وفيما يلي نص قصيدته التائية كما في ديوانه



(١) "ترتيب المدارك وتقريب المسالك" ج٨صـ:١٦٢.

(٢) "الأعلام" للزركلي. ذكر الوفاة فقط، و"معجم الشعراء العرب"

نص المنظومة التائية

تَـفُـتُّ فُـؤَادَكَ الأَيَّـامُ فَـتّـا ... وَتَنحِتُ جِسمَكَ السّـاعَاتُ نَحتا
وَتَـدعـوكَ المَـنـونُ دُعـاءَ صِـدقٍ ... أَلا يـا صـاحِ أَنـتَ أُريـدُ أَنـتـا
أَراكَ تُحِـبُّ عِـرسًـا ذاتَ غَـدرٍ ... أَبَـتَّ طَـلاقَـهـا الأَكـيـاسُ بَـتّـا
تَـنـامُ الـدَهـرَ وَيْحَـكَ في غَـطـيـطٍ ... بِهـا حَـتّـى إِذا مِـتَّ انـتَـبَـهـتـا
فَـكَـم ذا أَنـتَ مَخـدوعٌ وَحَـتّـى ... مَـتـى لا تَـرعَـوي عَـنـهـا وَحَـتّـى
أَبـا بَـكـرٍ دَعَـوتُـكَ لَـو أَجَـبـتـا ... إِلى مـا فـيـهِ حَـظُّـكَ إِن عَـقَـلـتـا
إِلى عِـلـمٍ تَـكـونُ بِـهِ إِمـامًـا ... مُـطـاعًـا إِن نَـهَـيـتَ وَإِن أَمَـرتـا
وَتَجـلـو مـا بِـعَـيـنِـكَ مِـن عَشـاهـا ... وَتَـهـديـكَ السَـبـيـلَ إِذا ضَـلَـلـتـا
وَتَحـمِـلُ مِـنـهُ فـي نـاديـكَ تـاجًـا ... وَيَـكـسـوكَ الجَـمـالَ إِذا اغـتَـرَبـتـا
يَـنـالُـكَ نَـفـعُـهُ مـا دُمـتَ حَـيًّـا ... وَيَـبـقـى ذُخـرُهُ لَـكَ إِن ذَهَـبـتـا
هُـوَ العَضـبُ المُـهَـنَّـدُ لَـيسَ يَـنبـو ... تُصـيـبُ بِـهِ مَـقـاتِـلَ مَـنْ ضَـرَبـتـا
وَكَـنـزٌ لا تَخـافُ عَـلَـيـهِ لِصًّـا ... خَفيفُ الحَملِ يوجَدُ حَيثُ كُنتا
يَـزيـدُ بِـكَـثـرَةِ الإِنـفـاقِ مِـنـهُ ... وَيـنـقُـصُ أَن بِـهِ كَـفًّـا شَـدَدتـا
فَـلَـو قَـد ذُقـتَ مِـن حَـلـواهُ طَـعـمًـا ... لآثَـرتَ الـتَـعَـلُّـمَ وَاجـتَـهَـدتـا
وَلَم يَشـغَـلَـكَ عَـنـهُ هَـوى مُـطـاعٌ ... وَلا دُنـيـا بِـزُخـرُفِـهـا فُـتِـنـتـا
وَلا أَلهـاكَ عَـنـهُ أَنـيـقُ رَوضٍ ... وَلا خِـدرٌ بِـرَبـرَبِـهِ كَـلِـفـتـا
فَـقُـوتُ الـروحِ أَرواحُ المَـعـانـي ... وَلَـيـسَ بِـأَن طَـعِـمـتَ وَأَن شَـرِبـتـا
فَـواظِـبـهُ وَخُـذ بِـالجِـدِّ فـيـهِ ... فَـإِن أَعـطـاكَـهُ اللهُ أَخَـذتـا
وَإِن أوتـيـتَ فـيـهِ طَـويـلَ بـاعٍ ... وَقـالَ الـنـاسُ إِنَّـكَ قَـد سَـبَـقـتـا
فَـلا تَـأمَـن سُـؤالَ اللهِ عَـنـهُ ... بِـتَـوبـيـخٍ عَـلِـمـتَ فَـهَـل عَـمِـلـتـا

فَرَأسُ العِلمِ تَقوى اللهِ حَقًّا ... وَلَيسَ بِأَن يُقال لَقَد رَأَستا
وَضافي ثَوبكَ الإِحسانُ لا أَن ... تُرى ثَوبَ الإِساءَةِ قَد لَبِستا
إِذا ما لَم يُفِدكَ العِلمُ خَيرًا ... فَخَيرٌ مِنهُ أَن لَو قَد جَهِلتا
وَإِن أَلقاكَ فَهمُكَ في مَهاوٍ ... فَلَيتَكَ ثُمَّ لَيتَكَ ما فَهِمتا
سَتَجني مِن ثِمارِ العَجزِ جَهلًا ... وَتَصغُرُ في العُيونِ إِذا كَبُرتا
وَتُفقَدُ إِن جَهِلتَ وَأَنتَ باقٍ ... وَتوجَدُ إِن عَلِمتَ وَقَد فُقِدتا
وَتَذكُرُ قَولَتي لَكَ بَعدَ حينٍ ... وَتَغبِطُها إِذا عَنها شُغِلتا
لَسَوفَ تَعَضُّ مِن نَدَمٍ عَلَيها ... وَما تُغني النَدامَةُ إِن نَدِمتا
إِذا أَبصَرتَ صَحبَكَ في سَماءٍ ... قَد ارتَفَعوا عَلَيكَ وَقَد سَفُلتا
فَراجِعها وَدَع عَنكَ الهُوَينى ... فَما بِالبُطءِ تُدرِكُ مَا طَلَبتا
وَلا تَحفِل بِمالِكَ وَالْهُ عَنهُ ... فَلَيسَ المالُ إِلا ما عَلِمتا
وَلَيسَ لِجاهِلٍ في الناسِ مَعنىً ... وَلَو مُلكُ العِراقِ لَهُ تَأَتّى
سَيَنطِقُ عَنكَ عِلمُكَ في نَدِيٍّ ... وَيُكتَبُ عَنكَ يَومًا إِن كَتَبتا
وَمَا يُغنيكَ تَشييدُ المَباني ... إِذا بِالجَهلِ نَفسَكَ قَد هَدَمتَا
جَعَلتَ المالَ فَوقَ العِلمِ جَهلًا ... لَعَمرُكَ في القَضِيَّةِ ما عَدَلتا
وَبَينَهُما بِنَصِّ الوَحيِ بَونٌ ... سَتَعلَمُهُ إِذا طَهَ قَرَأتا
لَئِن رَفَعَ الغَنيُّ لِواءَ مالٍ ... لَأَنتَ لِواءَ عِلمِكَ قَد رَفَعتا
وَإِن جَلَسَ الغَنيُّ عَلى الحَشايا ... لَأَنتَ عَلى الكَواكِبِ قَد جَلَستا
وَإِن رَكِبَ الجِيادَ مُسَوَّماتٍ ... لَأَنتَ مَناهِجَ التَّقوى رَكِبتا
وَمَهما افتَضَّ أَبكارَ الغَواني ... فَكَم بِكرٍ مِنَ الحِكَمِ افتَضَضتا

وَلَيسَ يَضُـــــرُّكَ الإِقتارُ شَـيئًا ... إِذا مـا أَنـتَ رَبَّـكَ قَـد عَـرَفـتـا
فَـما ذا عِـنـدَهُ لَـكَ مِـن جَمـيـلٍ ... إِذا بِـفِـنـاءِ طـاعَـتِـهِ أَنَـخـتَـا
فَقابِل بِالقَبولِ صَـحيحَ نُصـحي ... فَإِن أَعرَضـتَ عَنهُ فَقَد خَسِـــرتا
وَإِنْ راعَـيـتَـهُ قَـولاً وَفِـعـلا ... وَتـاجَـرتَ الإِلَهَ بِـهِ رَبِـحـتـا
فَلَيسَـت هَـذِهِ الـدُنيا بِشَـــيءٍ ... تَسـوؤُكَ حُقبَةً وَتَسُـــرُّ وَقتا
وَغـايَـتُـهـا إِذا فَـكَـرَّت فـيـهـا ... كَفَيئِكَ أَو كَحُلمِكَ إِن حَلَمتا
سُـجِـنـتَ بِهـا وَأَنـتَ لَهـا مُحِبٌّ ... فَكَيـفَ تُحِبُّ مـا فـيـهِ سُـجِـنـتـا
وَتُـطـعِـمُكَ الـطَـعَـامَ وَعَـن قَـريـبٍ ... سَـتَطعَمُ مِنكَ مـا مِنهـا طَعِمتا
وَتَـعـرى إِن لَـبِـسـتَ لَهـا ثِـيـابًـا ... وَتُكسـى إِن مَـلابِسَـهـا خَـلَـعـتـا
وَتَشـهَـدُ كُـلَّ يَـومٍ دَفـنَ خِـلٍّ ... كَـأَنَّـكَ لا تُـرادُ بِـمـا شَـهِـدتـا
وَلَم تُخلَـق لِـتَـعـمُـرهـا وَلَـكِـن ... لِـتَـعـبُرَهـا فَـجِـدَّ لِـمـا خُـلِـقـتـا
وَإِن هُـدِمَـت فَـزِدهـا أَنـتَ هَـدمًـا ... وَحَصِّـن أَمرَ دينِكَ مـا اسـتَطَعتا
وَلا تَحزَن عَـلى مـا فـاتَ مِـنـهـا ... إِذا مـا أَنـتَ في أُخـراكَ فُـزتـا
فَـلَـيسَ بِـنـافِـعٍ مـا نِـلـتَ فـيـهـا ... مِـنَ الـفـاني إِذا الـبـاقـي حُـرِمـتـا
وَلا تَضـحَـك مَـعَ السُـفَـهـاءِ لَهـوًا ... فَـإِنَّـكَ سَـوفَ تَبكي إِن ضَـحِكتا
وَكَيفَ لَـكَ السُـــرورُ وَأَنـتَ رَهنٌ ... وَلا تَـدري أَتُـفـدى أَم غَـلِـقـتـا
وَسَـــل مِـن رَبِّـكَ الـتَـوفـيـقَ فـيـهـا ... وَأَخلِص في السُـؤالِ إِذا سَـأَلـتـا
وَنـادِ إِذا سَـجَـدتَ لَـهُ اِعـتِـرافًـا ... بِـمـا نـاداهُ ذو الـنـونِ بـنُ مَـتّـى
وَلازِم بـابَـهُ قَـرعًـا عَسـاهُ ... سَـيـفـتَـحُ بـابَـهُ لَـكَ إِن قَـرَعـتـا
وَأَكـثِـر ذِكـرَهُ في الأَرضِ دَأبًـا ... لِـتُـذكَـرَ في السَّـمـاءِ إِذا ذَكَـرتـا

وَلا تَـقُـل الصِـبـا فـيـهِ مَجـالٌ ... وَفَـكِّـر كَـم صَـغـيرٍ قَـد دَفَـنـتـا
وَقُـل لي يـا نَصـيـحُ لأَنـتَ أَولى ... بِنُصـحِكَ لَو بِعَقلِكَ قَد نَظَرتا
تُـقَـطِّـعُـني عَـلى الـتَـفـريـطِ لَـومًـا ... وَبِـالـتَـفـريـطِ دَهـرَكَ قَـد قَـطَـعـتـا
وَفي صِـغَـري تُخَـوِّفُـنـي المَـنـايـا ... وَمـا تَجـري بِـبـالِـكَ حـينَ شِـخـتـا
وَكُـنـتَ مَـعَ الصِـبـا أَهـدى سَـبـيلًا ... فَما لَـكَ بَعـدَ شَـيـبِكَ قَـد نُكِسـتـا
وَهـا أَنـا لَم أَخُـض بَـحـرَ الخَـطـايـا ... كَـما قَـد خُـضـتَـهُ حَـتّـى غَـرِقـتـا
وَلَم أَشرَب حُمَـيَّـا أُمِّ دَفـرٍ ... وَأَنـتَ شَرِبـتَـهـا حَـتّـى سَـكِـرتـا
وَلَم أَحـلُـل بِـوادٍ فـيـهِ ظُـلـمٌ ... وَأَنـتَ حَـلَـلـتَ فـيـهِ وَانهَـمَـلـتـا
وَلَم أَنشَـأ بِـعَـصـرٍ فـيـهِ نَـفـعٌ ... وَأَنـتَ نَشَـأتَ فـيـهِ وَمـا انتَـفَـعـتـا
وَقَـد صـاحَـبـتَ أَعـلامًـا كِـبـارًا ... وَلَم أَرَكَ اقتَـدَيـتَ بِـمَـن صَـحِـبـتـا
وَنـاداكَ الـكِـتـابُ فَـلَـم تُجِـبـهُ ... وَنَهـنَـهَـكَ المَشـيـبُ فَـما اِنتَـبَـهـتـا
لَـيَـقـبُـحُ بِـالـفَـتـى فِـعـلُ الـتَـصـابـي ... وَأَقـبَـحُ مِـنـهُ شَـيـخٌ قَـد تَـفَـتّـى
فَـأَنـتَ أَحَـقُّ بِـالـتَـفـنـيـدِ مِـنّـي ... وَلو سَـكَـتَ المُسـيءُ لَـما نَطَقتا
وَنَـفـسَـكَ ذُمَّ لا تَـذمُـم سِـواهـا ... بِـعَـيـبٍ فَـهِـيَ أَجـدَرُ مَـن ذَمَـمـتـا
فَـلَـو بَـكَـت الـدِّمـا عَـيـنـاكَ خَـوفًـا ... لِـذَنـبِـكَ لَم أَقُـل لَـكَ قَـد أَمِـنـتـا
وَمَـن لَـكَ بِـالأَمـانِ وَأَنـتَ عَـبـدٌ ... أُمِـرتَ فَـما ائـتَـمَـرتَ وَلا أَطَـعـتـا
ثَقُلتَ مِنَ الـذُنوبِ وَلَسـتَ تَخشـى ... لِجَـهـلِـكَ أَن تَخِـفَّ إِذا وُزِنـتـا
وَتُشـفِقُ لِلمُصِـرِّ عَلى المَعـاصي ... وَتَـرحَـمُـهُ وَنَـفـسَـكَ مـا رَحِـمـتـا
رَجَعـتَ القَهقَرى وَخَبَطتَ عَشـوا ... لَـعَـمـرُكَ لَـو وَصَـلـتَ لَـمـا رَجَـعـتـا
وَلَـو وافَـيـتَ رَبَّـكَ دونَ ذَنـبٍ ... وَنـاقَشَـكَ الحِسـابَ إِذًا هَـلَـكـتـا

وَلَمْ يَظْلِمْكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِن ... عَسِيرٌ أَن تَقومَ بِما حَمَلتا
وَلَو قَد جِئتَ يَومَ الفَصلِ فَردًا ... وَأَبصَرتَ المَنازِلَ فيهِ شَتّى
لأَعظَمتَ النّدامَةَ فيهِ لَهفًا ... عَلى ما في حَياتِكَ قَد أَضَعتا
تَفِرُّ مِنَ الهَجيرِ وَتَتَّقيهِ ... فَهَلاّ عَن جَهَنَّمَ قَد فَرَرتا
وَلَستَ تُطيقُ أَهوَنَها عَذابًا ... وَلَو كُنتَ الحَديدَ بِها لَذُبتا
فَلا تُكذِب فَإِنَّ الأَمرَ جِدٌّ ... وَلَيسَ كَما اِحتَسَبتَ وَلا ظَنَنتا
أَبا بَكرٍ كَشَفتَ أَقَلَّ عَيْبي ... وَأَكثَرَهُ وَمُعظَمَهُ سَتَرتا
فَقُل ما شِئتَ فيَّ مِنَ المَخازي ... وَضاعِفها فَإِنَّكَ قَد صَدَقتا
وَمَهما عِبتَني فَلِفَرطِ عِلمي ... بِباطِنَتي كَأَنَّكَ قَد مَدَحتا
فَلا تَرضَ المَعايِبَ فَهِيَ عارٌ ... عَظيمٌ يُورِثُ الإِنسانَ مَقتا
وَتَهوي بِالوَجيهِ مِنَ الثُرَيّا ... وَتُبدِلُهُ مَكانَ الفَوقِ تَحتا
كَما الطَّاعاتُ تَنعَلُكَ الدَرارِي ... وَتَجعَلُكَ القَريبَ وَإِن بَعُدتا
وَتَنشُرُ عَنكَ في الدُنيا جَميلا ... فَتُلفى البَرَّ فيها حَيثُ كُنتا
وَتَمشي في مَناكِبَها كَريمًا ... وَتَجني الْحَمدَ مِمّا قَد غَرَستا
وَأَنتَ الآنَ لَم تُعرَف بِعابٍ ... وَلا دَنَّستَ ثَوبَكَ مُذ نَشَأتا
وَلاَ سابَقتَ في ميدانِ زورٍ ... وَلا أَوضَعتَ فيهِ وَلاَ خَبَبْتَا
فَإِن لَم تَنأَ عَنهُ نَشِبتَ فيهِ ... وَمَن لَكَ بِالخَلاصِ إِذا نَشِبتا
وَدَنَّسَ ما تَطَهَّرَ مِنكَ حَتّى ... كَأَنَّكَ قَبلَ ذَلِكَ ما طَهُرتا
وَصِرتَ أَسيرَ ذَنبِكَ في وَثاقٍ ... وَكَيفَ لَكَ الفُكاكُ وَقَد أُسِرتا
وَخَفْ أَبناءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنهُم ... كَما تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَبَتَى

وَخالِطهُم وَزايِلهُم حِذارًا ... وَكُن كالسّامِريّ إِذا لَمِستا
وَإِن جَهِلوا عَلَيكَ فَقُل سَلامًا ... لَعَلَّكَ سَوفَ تَسلَمُ إِن فَعَلتا
وَمَن لَكَ بِالسَّلامَةِ في زَمانٍ ... يَنالُ العُصمَ إِلاّ إِن عُصِمتا
وَلا تَلبَثْ بِحَيٍّ فيهِ ضَيمٌ ... يُميتُ القَلبَ إِلا إِن كُبِّلتا
وَغَرِّب فَالغَريبُ لَهُ نَفاقٌ ... وَشَرِّق إِن بَريقَكَ قَد شَرِقتا
وَلَو فَوقَ الأَميرِ تَكونُ فيها ... سُمُوًّا وَافتِخارًا كُنتَ أَنتا
وَإِن فَرَّقتَها وَخَرَجتَ مِنها ... إِلى دارِ السَّلامِ فَقَدَ سَلِمتا
وَ إِن كَرَّمتَها وَنَظَرتَ مِنها ... بِإِجلالٍ فَنَفسَكَ قَد أَهَنتا
جَمَعتُ لَكَ النَّصائِحَ فَامتَثِلها ... حَياتَكَ فَهِيَ أَفضَلُ ما امتَثَلتَا
وَطَوَّلتُ العِتابَ وَزِدتُ فيهِ ... لِأَنَّكَ في البِطالَةِ قَد أَطَلتا
فَلا تَأخُذْ بِتَقصيري وَسَهْوي ... وَخُذ بِوَصِيَّتي لَكَ إِن رَشَدتا
وَقَد أَردَفتُهَا سِتًّا حِسانًا ... وَكانَت قَبلَ ذَا مِئَةً وَسِتّا

أهمية الأدب

لَقَدْ عَظُمَتْ عِنَايَةُ السَّلَفِ بِالْآدَابِ عَنَايَةً فَائِقَةً حَتَّى أَنَّهُمْ قَدَّمُوا الأَدَبَ عَلَى العِلْمِ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ بَلْ قَالُوا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الأَدَبَ قَبْلَ العِلْمِ

❁ قَالَ السَّفَارِينِيُّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: وَاعْلَمْ أَنَّ تَعْلِمَ الآدَابِ، وَحُسْنَ السِّمْتِ، وَالْقَصْدِ، وَالْحَيَاءِ، وَالسِّيرَةِ مُطْلُوبٌ شَرْعًا وَعُرْفًا.

❁ وَقَالَ النَّخْعِيُّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «كَانُوا إِذَا أَتَوَا الرَّجُلَ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ نَظَرُوا إِلَى سَمْتِهِ وَإِلَى صَلَاتِهِ وَإِلَى حَالِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ».(١)

❁ وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: تَأَدَّبُوا ثُمَّ تَعَلَّمُوا.(٢)

❁ وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِيُّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: أَدَبُ الْعِلْمِ أَكْثَرُ مِنَ الْعِلْمِ.(٣)

---

(١) أخرجه البيهقي في "المدخل إلى علم السنن" (٤٨٧)، وابن شاهين في "تاريخ أسماء الضعفاء" (صـ: ٤)، والخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي" (١٣٣)، من طريق أَبِي الْأَحْوَصِ مُحَمَّد بْن حَيَّانَ، نا هُشَيْمٌ، أنا مُغِيرَةُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ النخعي، به، ورجاله ثقات، ومغيرة بن مقسم، قال الذهبي: إمام ثقة، لكن لين أحمد بن حنبل، روايته عن ابراهيم النخعي فقط، مع أنها في الصحيحين. وقال ابن فضيل: كان يدلس، فلا يكتب إلا ما قال: حدثنا إبراهيم.
وقال أبو حاتم، عن أحمد بن حنبل: عامة ما روى إنما سمعه من حماد، وجعل يضعف حديثه عن إبراهيم وحده. "ميزان الاعتدال" (٤/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

(٢) ذكره أبو الليث السمرقندي في "بستان العارفين" (صـ: ٣٤١)، ولم أقف عليه مسنداً، وقد أخرج أبو طاهر السِّلَفي في "المشيخة البغدادية" (٢١)، قَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ الأَرْدُبِيلِيُّ: اجْتَمَعَ أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ الْحَافِظُ وَجَمَاعَةٌ مِنْ حُفَّاظِ الْحَدِيثِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي مَسْجِدٍ يَتَذَاكَرُونَ، فَدَخَلَ شَابٌّ يَدُلُّ بِحِفْظٍ فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ حَتَّى جَلَسَ بَيْنَهُمْ، **فَنَظَرَ إِلَيْنَا أَبُو زُرْعَةَ، ثُمَّ قَالَ**: «يَا بَنِيَّ تَأَدَّبُوا، ثُمَّ تَعَلَّمُوا، فَإِنَّ الرُّوحَ تَأْلَمُ مِنْ سُوءِ الأَدَبِ كَمَا يَأْلَمُ الْبَدَنُ مِنْ مَضِيضِ الأَلَمِ».

(٣) ذكره صاحب الغنية (١/ ١١٦).

❁ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: اطْلُبِ الْأَدَبَ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي الْعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى الْمُرُوءَةِ مُؤْنِسٌ فِي الْوَحْدَةِ، وَصَاحِبٌ فِي الْغُرْبَةِ، وَمَالٌ عِنْدَ الْقِلَّةِ. (١)

❁ قال سعيد بن عفير: كان شبيب بن شيبة يقول: اطلبوا العلم بالأدب، فإنه دليل على المروءة، وزيادة في العقل، وصاحب في الغربة. (٢)

❁ وَقَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ - رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا يَنْبُلُ الرَّجُلُ بِنَوْعٍ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُزَيِّنْ عِلْمَهُ بِالْأَدَبِ. ذَكَرَهُ الْحَاكِمُ فِي تَارِيخِهِ. (٣)

❁ وَيُرْوَى عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: طَلَبْت الْعِلْمَ فَأَصَبْت مِنْهُ شَيْئًا، وَطَلَبْت الْأَدَبَ فَإِذَا أَهْلُهُ قَدْ بَادُوا. (٤)

---

(١) أخرجه أبو طاهر السلفي الأصبهاني في "الطيوريات" (١٢٨٨)، حدثنا الحسن بن زكريا، حدثنا رجل، عن عَمْرُو بن فَائِد، عن الكَلْبِي، عن أَبِي صالح، عن ابنِ عباس، فذكره. فيه رجلٌ مبهم، وفيه عمرو بن فائد، متروك، "الميزان" (٣/٢٨٣)، ومحمد بن السائب الكلبي، متروك، وروايته عن أبي صالح عن ابن عباس فيها مناكير. "الكامل" (٧/٢٧٤ـ٢٨٤)، و "الميزان" (٣/٥٥٦ـ٥٥٩)، قَالَ أَبُو حَاتِم: الْكَلْبِيّ هَذَا مذْهبه فِي الدَّين ووضوح الْكَذِب فِيهِ أظهر من أَن يحْتَاج إِلَى الإغراق فِي وَصفه يروي عَن أبي صَالح عَن بن عَبَّاس التَّفْسِير وَأَبُو صَالح لم ير بن عَبَّاس وَلَا سمع مِنْهُ شَيْئا وَلَا سمع الْكَلْبِيّ من أبي صَالح إِلَّا الْحَرْف بعد الْحَرْف فَجعل لما احْتِيجَ إِلَيْهِ تخرج لَهُ الأَرْض أفلاذ كَبِدهَا لَا يحل ذكره فِي الْكتب فَكيف الِاحْتِجَاج بِهِ. "المجروحين" لابن حبان (٢/ ٢٥٥).

(٢) أخرجه الخطيب في "تاريخ بغداد" (١٠/٣٧٧)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٧٣/١٣١)، والمزي في "تهذيب الكمال" (١٢/٣٦٦)، وفيه عبد الرحمن بن حاتم المرادي، قال ابن الجوزي: متروك الحديث، وقال الذهبي: هذا من شيوخ الطبراني، ما علمت به بأسا. "ميزان الاعتدال" (٢/ ٥٥٤)، ومحمد بن أحمد بن رزق، لم أجد له ترجمه.

(٣) أخرجه البيهقي في "الشعب" (١٥٦٧)، وفيه محمد بن محمد بن علي النسوي البغدادي، مجهول حال.

(٤) ذكره السفاريني في "غذاء الألباب" (١/٣٦).

❁ قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ لِي مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: «نَحْنُ إِلَى قَلِيلٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحَدِيثِ». (١)

❁ وَقَالَ ابنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لِأَصْحَابِ الْحَدِيثِ: «أَنْتُمْ إِلَى قَلِيلٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ». (٢)

❁ وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا أَدَبَ إِلَّا بِعَقْلٍ وَلَا عَقْلَ إِلَّا بِأَدَبٍ.

❁ وَكَانَ يُقَالُ: الْعَوْنُ لِمَنْ لَا عَوْنَ لَهُ الْأَدَبُ.

❁ وَقَالَ الْأَحْنَفُ ابْنُ قَيْسٍ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْأَدَبُ نُورُ الْعَقْلِ كَمَا أَنَّ النَّارَ نُورُ الْبَصَرِ. (٣)

وكَانَ يُقَالُ الْأَدَبُ مِنَ الْآبَاءِ، وَالصَّلَاحُ مِنَ اللَّهِ.

❁ كَانَ يُقَال مَنْ أَدَّبَ ابْنَهُ صَغِيرًا، قَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ كَبِيرًا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ وَالِدَاهُ أَدَّبَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ. (٤)

❁ قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَمَّا الْأَدَبُ مَعَ الْخَلْقِ: فَهُوَ مُعَامَلَتُهُمْ - عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ - بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ. فَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ أَدَبٌ. وَالْمَرَاتِبُ فِيهَا أَدَبٌ خَاصٌّ. فَمَعَ الْوَالِدَيْنِ:

---

(١) "المحدث الفاصل" للرامهرمزي (صـ: ٥٥٩)، بسندٍ حسن.

(٢) أخرجه ابن الأعرابي في "معجمه" (٨٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣٢/٤٤٥)، من طريق سَعِيد بنِ عبد العزيز بن مروان، ثنا أَبُو نُعَيْمٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الْمُبَارَكِ يَقُولُ، فذكره، وسعيد بن عبد العزيز أبو عثمان الحلبي، قال فيه الذهبي: المُحَدِّثُ، الصَّادِقُ، الزَّاهِدُ، القُدْوَةُ. "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (١٤/ ٥١٣)، وأبو نعيم، هو عبيد بن هشام الحلبي، قال أبو حاتم: صدوق. "الجرح والتعديل" (٥/٦). فالأثر، محتمل التحسين، والله أعلم.

وجاء هذا القول عن الليث بن سعد، أخرجه أبو طاهر السلفي في " المشيخة البغدادية" لأبي طاهر (صـ: ٦٨)، ورجالُهُ ثقات.

(٣) "الآداب الشرعية"(٣/ ٥٥٢)، وبعض هذه الآثار في "غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب"(١/٣٦).

(٤) "الآداب الشرعية والمنح المرعية"(٣/٥٥٢).

أَدَبٌ خَاصٌّ وَلِلْأَبِ مِنْهُمَا: أَدَّبٌ هُوَ أَخُصُّ بِهِ، وَمَعَ الْعَالِمِ: أَدَبٌ آخَرُ، وَمَعَ السُّلْطَانِ: أَدَبٌ يَلِيقُ بِهِ، وَلَهُ مَعَ الْأَقْرَانِ أَدَبٌ يَلِيقُ بِهِمْ. وَمَعَ الْأَجَانِبِ: أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ وَذَوِي أُنْسِهِ. وَمَعَ الضَّيْفِ: أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبِهِ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ.

وَلِكُلِّ حَالٍ أَدَبٌ: فَلِلْأَكْلِ آدَابٌ. وَلِلشُّرْبِ آدَابٌ. وَلِلرُّكُوبِ وَالدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ وَالسَّفَرِ وَالْإِقَامَةِ وَالنَّوْمِ آدَابٌ. وَلِلْبَوْلِ آدَابٌ. وَلِلْكَلَامِ آدَابٌ. وَلِلسُّكُوتِ وَالِاسْتِمَاعِ آدَابٌ.

وَأَدَبُ الْمَرْءِ: عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ. وَقِلَّةُ أَدَبِهِ: عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ.

فَمَا اسْتُجْلِبَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمِثْلِ الْأَدَبِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الْأَدَبِ.

فَانْظُرْ إِلَى الْأَدَبِ مَعَ الْوَالِدَيْنِ: كَيْفَ نَجَّى صَاحِبَهُ مِنْ حَبْسِ الْغَارِ حِينَ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ؟ وَالْإِخْلَالُ بِهِ مَعَ الْأُمِّ - تَأْوِيلًا وَإِقْبَالًا عَلَى الصَّلَاةِ - كَيْفَ امْتُحِنَ صَاحِبُهُ بِهَدْمِ صَوْمَعَتِهِ وَضَرْبِ النَّاسِ لَهُ، وَرَمْيِهِ بِالْفَاحِشَةِ؟

وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ كُلِّ شَقِيٍّ وَمُغْتَرٍّ وَمُدْبِرٍ: كَيْفَ تَجِدُ قِلَّةَ الْأَدَبِ هِيَ الَّتِي سَاقَتْهُ إِلَى الْحِرْمَانِ؟

...**وَانْظُرْ أَدَبَ الصِّدِّيقِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ: أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. كَيْفَ أَوْرَثَهُ مَقَامَهُ وَالْإِمَامَةَ بِالْأُمَّةِ بَعْدَهُ؟ فَكَانَ ذَلِكَ التَّأَخُّرُ إِلَى خَلْفِهِ - وَقَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ أَنِ اثْبُتْ مَكَانَكَ - جَمْزًا، وَسَعْيًا إِلَى قُدَّامَ؟ بِكُلِّ خُطْوَةٍ إِلَى وَرَاءَ مَرَاحِلُ إِلَى قُدَّامَ. تَنْقَطِعُ فِيهَا أَعْنَاقُ الْمَطِيِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (١)

(١) "مدارج السالكين" (٢/ ٣٦٨ـ٣٦٩).

❁ قَالَ الخطيبُ البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ طَلَبَةُ الْحَدِيثِ أَكْمَلَ النَّاسِ أَدَبًا، وَأَشَدَّ الْخَلْقِ تَوَاضُعًا، وَأَعْظَمَهُمْ نَزَاهَةً وَتَدَيُّنًا، وَأَقَلَّهُمْ طَيْشًا وَغَضَبًا، لِدَوَامِ قَرْعِ أَسْمَاعِهِمْ بِالْأَخْبَارِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى مَحَاسِنِ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وَآدَابِهِ، وَسِيرَةِ السَّلَفِ الْأَخْيَارِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَطَرَائِقِ الْمُحَدِّثِينَ، وَمَآثِرِ الْمَاضِينَ، فَيَأْخُذُوا بِأَجْمَلِهَا وَأَحْسَنِهَا، وَيَصْدِفُوا عَنْ أَرْذَلِهَا وَأَدْوَنِهَا.** (١)

❁ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَنْ تَهَاوَنَ بِالْأَدَبِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ السُّنَنِ. وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالسُّنَنِ. عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْفَرَائِضِ. وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْفَرَائِضِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْمَعْرِفَةِ. (٢)

❁ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كاد الأدب يكون ثلثي الدين. (٣)

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طلبت الأدب ثلاثين سنة وطلبت العلم عشرين سنة كانوا يطلبون الأدب ثم العلم.

وقيل له بالشام: إلى كم تطلب العلم؟ فقال: أرجو أن تروني فيه إلى إن أموت. (٤)

---

(١) "الجامع لأخلاق الراوي" (١/٧٨).

(٢) أخرجه البيهقي في "الشعب" (٣٠١٧)، والهروي في "ذم الكلام" (١٠١٥)، وفيه محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان، قال الذهبي: روى عنه الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي، أوابد وعجائب. وهو متهم. طعن فيه الحاكم. "ميزان الاعتدال" (٣/ ٦٠٦).

(٣) ذكره ابن الجوزي في "صفة الصفوة" (٤/ ١٤٥).

(٤) ذكره ابن الجزري في "غاية النهاية في طبقات القراء" (١/ ٤٤٦).

❁ قال سُفيان الثَّوْرِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَانَ الرَّجُلُ لَا يَطْلُبُ الْحَدِيثَ حَتَّى يَتَعَبَّدَ قَبْلَ ذَلِكَ عِشْرِينَ سَنَةً. (١)

❁ قال أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ الطَّبَّاخِ: (٢)

مَا وَهَبَ اللَّهُ لِامْرِئٍ هِبَةً أَحْسَنَ مِنْ عَقْلِهِ وَمِنْ أَدَبِهْ
هُمَا جَمَالُ الْفَتَى فَإِنْ فُقِدَا فَفَقْدُهُ لِلْحَيَاةِ أَجْمَلُ بِهْ

أَيْ: لَا قِيمَةَ لِلشَّخْصِ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ عَلَمٍ وَأَدَبٍ وَعَقْلٍ

بَلْ لَا فَائِدَة مِنَ الْعِلْمِ بلا أدب، إِنَّمَا يُزِينُ صَاحِبَ الْعِلْمِ الْأَدَبُ وَالْخَلْقُ فَإِذَا انْعَدَمَ الْأَدَبُ وَالْخُلْقُ وَإِنْ كَانَ صَاحِب عِلْمٍ لَا فَائِدَة كَبِيرَة مِنْ عِلْمِهِ بَلْ عِلْمُهُ وَبَالٌ عَلَيْهِ

❁ قِيلَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيُّ خَصْلَةٍ فِي الْإِنْسَانِ خَيْرٌ؟ قَالَ: " غَرِيزَةُ عَقْلٍ "، قيلَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: " فَأَدَبٌ حَسَنٌ ". قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: " أَخٌ شَقِيقٌ يُشَاوِرُهُ "، قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: " فَصَمْتٌ طَوِيلٌ "، قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: "فَمَوْتٌ عَاجِلٌ. (٣)

---

(١) رواه أبو نعيم في "الحلية" (٦/٣٦١)، من طرق. الأولى: والد أبي نعيم، قال الذهبي: وَكَانَ صَدُوْقاً عَالِماً. "السير" (١٢/٣٠٨). وفيه أحمد بن محمد بن الحسن، لم يعرف، وفي الثانية: فيها أحمد بن عبيد الله بن محمود، لم يعرف بجرح ولا تعديل، وفيها عبد الله بن محمد بن وهب الدينوري، ضعيف، الثالثة: فيها أبو بكر محمد بن أحمد بن يعقوب، وفيه ضعف

وقال البرقاني: ليس بحجة. "تاريخ بغداد" (٢/٢٠٤). وهو محتمل للتحسين.

(٢) "البداية والنهاية"(١٣/١١١) دار الفكر.

(٣) "شعب الإيمان" (٤٣٥٤)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣٢/٤٥٩)، وفيه أبو عبد الرحمن السلمي، فيه ضعفٌ، وأحمد بن محمد بن رميح، قال الحاكم: ثقة مأمون. وقال ابن أبي الفوارس: ثقة. وقال الخطيب: الصحيح أنه ثقة، ثبت. وضعفه أبو نعيم وأبو زرعة الكشي، وقد حدث عنه الدارقطني." ميزان الاعتدال" (١/ ١٣٥)، وحبيب الجلاب الراوي، عن ابن المبارك لم أجد له ترجمة.

وأخرجه ابن المقرئ في "معجمه" (٣٣٣)، وفيه حبيبُ الجلاب.

وَكَانَ رَبْمَا الْوَاحِدُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ يُرْسِلُ وَلَدَهُ؛ لِيَتَعَلَّمِ الْأَدَبَ قَبْلَ أن يتَعَلَّمَ الْعِلْمَ بَلْ يَمْكُثُ بَعْضُهُمُ السِّنُوات؛ لِيَتَعَلَّمَ الْأَدَبَ قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ.

فَالْأَدَبُ أَهَمِّيَّتُهُ بَالِغَةٌ، وَثَمَرَتُهُ مُحْقَقَةٌ، وَفَائِدَتُهُ عَظِيمَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَدْ سَمِعْتُ بعضُ العلماءِ يقولُ في درسٍ لهُ: إِذَا كُنْتَ تَحْفَظُ الْقُرْآنَ وَالْأُمْهَات السِّت وَمَا عِنْدَكَ أَخْلَاق يُعْتَبَرُ مَا عِنْدَكَ شَيْءٌ.

أَيْ: لَا فائدة مِنْ هَذَا الَّذِي تَحْفَظُهُ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَعْمَلْ بِعِلْمِكَ، وَلَمْ تَسْتَفِدْ مِنْهُ، وَلَمْ يَؤْثِرْ عَلَى أَخْلَاقِكَ وَعَلَى تَعَامُلِكَ.

فمن لم يتخلقْ بأخلاقِ القرآن، وأخلاقِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فما الفائدة من علمه، وحفظه؟

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ خَلْقُهُ الْقُرْآنُ.

قال سعدُ بنُ هشام: فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ».(١)

يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ، وَيَتَخَلَّقُ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ مِمَّا جَاءَ فِي سُنَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وأخرجه ابن حبان في "روضة العقلاء" (صـ:١٧)، وفيه محمد بن داود بن يزيد، قال الحاكم: في حديثه غرائب. "لسان الميزان" (١٦١/٥). ومحمد بن حميد الرازي، وَهُوَ مَعَ إِمَامَتِهِ مُنْكَرُ الحَدِيْثِ، صَاحِبُ عَجَائِبَ. "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (١١/ ٥٠٣)، قَالَ أَحمد: أما حديثه عن ابن المبارك وجرير فهو صحيح، وأما حديثه عن أهل الري فهو أعلم. "تهذيب الكمال "(٢٥/ ١٠٠).

(١) "صحيح مسلم"(١٣٩ -(٧٤٦).

❁ قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَوْلُهَا: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ" مَعْنَاهُ: الْعَمَلُ بِهِ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِهِ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِ، وَالِاعْتِبَارُ بِأَمْثَالِهِ، وَقَصَصِهِ، وَتَدَبُّرُهُ، وَحُسْنُ تِلَاوَتِهِ. ا.هـ. فَالْأَدَبُ لَهُ أَهَمِّيَّةٌ بَالِغَةٌ فَقَدْ يُدْعَو الْإِنْسَانُ بِأَخْلَاقِهِ، وَأَدَبِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْعُو بِخِطَابَتِهِ، وَكَلَامِهِ.

وَالْأَدَبُ فِي الصِّغْرِ يَنْفَعُ أَكْثَرَ مِنْ الْكِبْرِ وَإِنْ كَانَ مَطْلُوبًا عَلَى كُلِّ حَالٍ.

❁ **قَالَ سَابِقٌ الْبَرْبَرِيُّ** - رَحِمَهُ ٱللَّهُ:[1]

قَدْ يَنْفَعُ الْأَدَبُ الْأَحْدَاثَ فِي مَهلٍ ... وَلَيْسَ يَنْفَعُ بَعْدَ الْكِبَرِ الْأَدَبُ

إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا قَوَّمْتَهَا اعْتَدَلَتْ ... وَلَا تَلِينُ إِذَا قَوَّمْتَهَا الْخُشُبُ

الشَّجَرَةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا يَسْهُلُ إِصْلَاحُهَا وَتَقْوِيمُهَا فَإِذَا صَارَتْ كَبِيرَةً كَالْخَشَبِ يَصْعُبُ عِنْدَ ذَلِكَ، كَذَلِكَ الشَّخْصُ فِي حَالِ الصِّغْرِ يَسْهُلُ مَعَهُ التَّأْدِيبُ وَفِي حَالِ الْكِبْرِ يَصْعُبُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

❁ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْمَوْسِمَ[2] يَتَعَلَّقُ مُعْظَمُهُ بِالْوَالِدَيْنِ، فَهُمَا يُرَبِّيَانِ وَلَدَهُمَا وَيُعَلِّمَانِهِ، وَيَحْمِلَانِهِ عَلَى مَصَالِحِهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَفْتُرَا عَنْ تَأْدِيبِهِ، وَتَعْلِيمِهِ؛ فَإِنَّ التَّعْلِيمَ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ... فَيُعَلِّمَانِهِ الطَّهَارَةَ، وَالصَّلَاةَ، وَيَضْرِبَانِهِ عَلَى تَرْكِهَا إِذَا بَلَغَ تِسْعَ سِنِينَ، وَيُحَفِّظَانِهِ الْقُرْآنَ، وَيُسْمِعَانِهِ الْحَدِيثَ، وَمَا احْتَمَلَ مِنَ الْعِلْمِ أَمَرَاهُ بِهِ، وَيُقَبِّحَانِ عِنْدَهُ مَا يَقْبُحُ، وَيَحُثَّانِهِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَلَا يَفْتُرَانِ عَنْ تَعْلِيمِهِ عَلَى قَدْرِ مَا يَحْتَمِلُ؛ فَإِنَّهُ مَوْسِمُ الزَّرْعِ.[3]

---

(١) "جامع بيان العلم وفضله" (١/ صـ٣٦٠) دار ابن الجوزي.

(٢) أي: من سن الولادة إلى سن البلوغ كما ذكر هو قبل ذلك.

(٣) "تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر" (صـ: ٣٩).

وفِي هَذَا الزَّمَن هناك صعوبة في تربية الأجيالِ أكثر مما مضى حَتَّى مَعَ الصِّغَارِ؛ لِتَغَيُّرِ الْأَخْلَاقِ عِنْدَ الْكَثِيرِ، وَلِعُمُومِ الْفِتَنِ، وَلانْتِشَارِ الشَّرِّ، وَلِعَدَمِ تَوَفُّرِ الْبِيْئَةِ الْمُنَاسِبَة أَمَامَ الصِّغَار؛ لِيُحَافِظُوا فِيْهَا عَلَى الْآدَابِ، فَبِيْئَةُ الْكَثِيرِ بِيْئَةٌ غَيْرُ مُؤَهَّلَةٍ لِلْأَخْلَاقِ، وَ الْآدَابِ مِنَ الْجِيْرَانِ، مِنَ الْأَقَارِبِ، فِي السُّوْقِ، فِي الشَّارِعِ، وغيرها من الأماكن أَخْلَاقٌ سَيِّئَةٌ جداً تَجِدُ الْوَلَدَ مِنْذُ رُبَّمَا أَرْبَعَ سنوات وَأَحِيَانًا أَقَل أَوْ خَمْس سِنوات، وَإِذَا بِهِ يَتَعَلَّمُ السَّبَ وَالشَّتْمَ وَالكَلِمَاتِ الْبَذِيْئَةَ، وَسُوْءَ الْأَخْلَاقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَأَلَّفَ أَهْلُ الْعِلْمِ الْمُؤَلَّفَات، وَصَنَّفُوا المَصَنَّفَات الحَدِيثِيّة، وَالشِعْرِيَّة، وَالنَثْرية فِي الْأَدَبِ وَأَهَمِّيَّتِهِ. فمن ذلك "الأدب" لابن أبي شيبة، و"الأدب المفرد" للبخاري،

و"أخلاق العلماء" للآجري، و "الآداب" للبيهقي، و"الجامع لأخلاق الراوي والسامع" للخطيب البغدادي، "أدب الإملاء والاستملاء" للسمعاني،

و"الآداب الشرعية والمنح المرعية" لابن مفلح الحنبلي، و "غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب" لأبي العون محمد السفاريني، و "أدب الطلب" للشوكاني، و"حلية طالب العلم" للشيخ بكر رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

البيت رقم ١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تَـفُـتُّ فُـؤَادَكَ الأَيَّـامُ فَـتّـا وَ تَنحِتُ جِسـمَكَ السّـاعَاتُ نَحتا

شرح البيت رقم ١

تَفُتُّ: أي تُضْعِفُ، وتُوهِنُ. وَالأَصْلُ فِي الْفَتِ: هُو الْكَسْرُ تَفُتُ فُؤَادُكَ: أَيْ تُضْعِفُ جَسَدَكَ وَفُؤَادَكَ الأَيَامُ ضَعْفًا.

الْفَاءُ وَالتَّاءُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَكْسِيرِ شَيْءٍ وَرَفْتِه.(١) وَيُقَال فت فِي عضده أوهن قوته.(٢)

"وَتَنْحِتُ جَسَمَكَ السَاعَاتُ نَحْتًا"، الأَيَامُ تُذْهِبُ بِالْجُسُومِ وَالْأَعْمَارِ.

❁ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَلَيْهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، كُلَّمَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ».(٣)

❁ وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ابْنَ آدَمَ طَأِ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ، فَإِنَّهَا عَنْ قَلِيلٍ تَكُونُ قَبْرَكَ، ابْنَ آدَمَ إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ فَكُلَّمَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ، ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَرَمٍ عُمُرِكَ مُنْذُ يَوْمَ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ.(٤)

---

(١) "مقاييس اللغة"(٤/٤٣٦).

(٢) "المعجم الوسيط" (٢/ ٦٧١).

(٣) "الحلية" لأبي نعيم (٢/١٤٨)، وفيه صالح المري ضعيف. وأخرجه أحمد في "الزهد" صـ٢٢٥، من طرق أخرى وفيها راو لم يسم.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في "الزهد" صـ ١٧٨ ومن طريقه البيهقي في "الشعب"(١٣/١٩٨)، وفي "الزهد الكبير" للبيهقي أيضاً صـ٢٠٤، ومن طريقه أيضا ابن عساكر في "تاريخه"(٤٧/١٧١)، من طريق عُمَر بْن سَعِيدِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْقُرَشِيُّ، ثنا سَعِيدُ بْنُ بَشِيرٍ، عَنْ قَتَادَةَ عنه، وعمر بن سعيد ذكره الدَّارَقُطْنِيّ في «الضعفاء والمتروكين» (٣٧٣)، وقال: عن سعيد بن عبد العزيز، وسعيد بن بشير، بواطيل. وقال ابن عدي: روى عن سعيد أحاديث غير محفوظة، وعن أبي

فَالأَيَامُ الْمُرَادُ بها السَاعَات الْمَعْلُومَة الَتِي يَتْكَوَنُ مِنْهَا الأَيَامُ وَالشُهُورُ وَالْأَعْوَامُ

❁ وكما قيل:

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمرءِ قَائِلَةٌ لَهُ إنَّ الحَيَاةَ دَقَائِقٌ وثَوانِ

وَتَنْحَتُ: (نَحَتَ) النُّونُ وَالْحَاءُ وَالتَّاءُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى نَجْرِ شَيْءٍ وَتَسْوِيَتِهِ بِحَدِيدَةٍ. وَنَحَتَ النَّجَّارُ الْخَشَبَةَ يَنْحَتُهَا نَحْتًا.(١)

أَيْ تُوهِنُ وتُضعفُ جَسمكَ، وتَهْدِمُ حياتَك، وَتُذْهِبُ بِعُمْرِكَ فَلَا تَسْتَفِيقُ إِلَّا إِنْ شَاءَ اللهُ فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَدَارَكَ الْوَقْتَ، وَأَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَى اغْتِنَامِهِ؛ لِذَلِكَ يُرْوى عنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ نَدِمِي عَلَى يَوْمٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ نَقَصَ فِيهِ أَجَلِي وَلَمْ يَزِدْ فِيهِ عَمَلِي.(٢) نَقَصَ الْأَجَلُ وَلَمْ يَحْصُلِ الزِيَادَةُ فِي الْعَمَلِ.

وَأَرْشَدَ النَبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى اغْتِنَامِ الْأَوْقَاتِ، وَالاهْتِمَامِ بِهَا، وَجَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: (اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ).(٣) وَإِذَا ذَهَبَتِ السَاعَةُ ذَهَبَ الْيَوْمُ، وَإِذَا

معبد كذلك. وكلامهم في بيان ضعفه كثير، وسعيد بن بشير، فيه ضعف أيضا وانظر "تهذيب التهذيب"، وقتادة لم يسمع أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: ما أعلم قتادة سمع من أحد من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلا من أنس بن مالك قيل له: فعبد الله بن سرجس فكأنه لم يره سماعا "جامع التحصيل" صـ٢٥٤. وقد أثبت بعضهم سماعه من أبي الطفيل، ومن عبد الله بن سرجس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) "مقاييس اللغة" (٥/ ٤٠٤).

(٢) هذا الأثر يكثر تداوله، ولم أقف عليه مسنداً.

(٣) رواه الحاكم في "المستدرك" برقم ٧٨٤٦، والبيهقي في "الشعب" برقم ٩٧٦٧عن ابن عباس، وأخرجه ابن المبارك في "الزهد" برقم ٢، ومن طريق النسائي في "الكبرى" برقم ١١٨٣٢ و ابن أبي شيبة في "مصنفه" برقم ٣٤٣١٩،

ذَهَبَ الْيَوْمُ ذَهَبَ الْأُسْبُوعُ، وَإِذَا ذَهَبَ الأَسْبُوعُ ذَهَبَ الشَّهْرُ، وَإِذَا ذَهَبَ الشَّهْرُ، ذَهَبَتِ السَّنَةُ، وَإِذَا ذَهَبَتِ السَّنَةُ ذَهَبَ العُمْرُ. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».(١) يَعْنِي: اغْتَنِمِ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا السَّقَمُ، وَفِي الْحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا الْمَوْتُ.(٢)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ".(٣)

❁ قال ابْنُ هُبَيْرَةَ الْوَزِيرُ الْحَنْبَلِيُّ:

وَالْوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُنِيتَ بِحفظهِ ... وَأَرَاهُ أَسْهَلَ مَا عَلَيْك يَضِيعُ(٤)

❁ وقال بعضُ السلفِ:

إنّا لنفْرَحُ بالأيّام نقْطَعُها ... وكلُّ يوم مضى يُدني من الأجلِ

فاعملْ لنفسكَ قبل الموتِ ... فإنّما الرّبحُ والخُسْرانُ في العملِ(٥)

ومن طريقه أبو نعيم في الحلية برقم (١٤٨/٤)، وغيرهم عن عمرو بن ميمون مرسلا. والحديث صححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيح الجامع" برقم (١٠٧٧).

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) "جامع العلوم والحكم" (٢/ ٣٨٧).

(٣) رواه البخاري (٦٤١٢).

(٤) "الآداب الشرعية" لابن مفلح (٢٤٦/٢).

(٥) قالها الفضيل بن عياض كما في "تاريخ دمشق" (٤٥١/٤٨)، ونسبت أيضاً، لِمُحَمَّدِ بْنِ يَزْدَادَ، كما في "تاريخ دمشق" (٢٣٨/٥٦)، وفي "جزء ابن طبرزد" (صـ: ١٧)، (١٤).

❁ قَالَ غُنَيْمُ بْنُ قَيْسٍ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كُنَّا نَتَوَاعَظُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ: «ابْنَ آدَمَ اعْمَلْ فِي فَرَاغِكَ لِشُغْلِكَ، وَفِي شَبَابِكَ لِهَرَمِكَ، وَفِي صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَفِي دُنْيَاكَ لِآخِرَتِكَ، وَفِي حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».(١)

❁ قال ابن رجب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْمُبَادَرَةُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ لَا يَقْدِرَ عَلَيْهَا وَيُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، إِمَّا بِمَرَضٍ أَوْ مَوْتٍ، أَوْ بِأَنْ يُدْرِكَهُ بَعْضُ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي لَا يُقْبَلُ مَعَهَا عَمَلٌ. قَالَ أَبُو حَازِمٍ: إِنَّ بِضَاعَةَ الْآخِرَةِ كَاسِدَةٌ يُوشِكُ أَنْ تَنْفَقَ، فَلَا يُوصَلُ مِنْهَا إِلَى قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ. وَمَتَى حِيلَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْعَمَلِ لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا الْحَسْرَةُ وَالْأَسَفُ عَلَيْهِ، وَيَتَمَنَّى الرُّجُوعَ إِلَى حَالَةٍ يُتْمِكُنَّ فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ، فَلَا تَنْفَعُهُ الْأُمْنِيَّةُ.(٢)

❁ قال أبو الليث السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:يَا أَخِي فَلَا تُضَيِّعْ أَيَّامَكَ فَإِنَّهَا رَأْسُ مَالِكَ، فَإِنَّكَ مَا دُمْتَ قَادِرًا عَلَى رَأْسِ مَالِكَ قَدِرْتَ عَلَى الرِّبْحِ، لِأَنَّ بِضَاعَةَ الْآخِرَةِ كَاسِدَةٌ فِي يَوْمِكَ هَذَا، فَاجْتَهِدْ حَتَّى تَجْمَعَ بِضَاعَةَ الْآخِرَةِ كَاسِدَةً فِي وَقْتِ الْكَسَادِ، فَإِنَّهُ يَجِيءُ يَوْمٌ

ونصُّهَا: إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالأَيَّامِ نَدفعها ... وَكُلُّ يوْمٍ مَضَى نقصٌ مِنَ الأَجَلِ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ يَا مَغْرُورُ صَالِحَةً ... قَبْلَ الْمَمَاتِ وَأَنْتَ الْيَوْمَ فِي مَهَلِ
ونُسبت ليزيد الرقاشي كما في "الزهد" (٤٣٩)، لابن أبي الدنيا، وفي "كلام الليالي والأيام" (٣٧).

(١) سنده صحح "رواه ابن المبارك في "الزهد" رقم ٣، وهناد بن السري في "الزهد" (٥٠١) من طريق كَهْمَس بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي السَّلِيلِ، عَنْ غُنَيْمِ بْنِ قَيْسٍ، وابن الجعد في "مسنده" برقم ١٤٥١ ومن طريقه ابن أبي الدنيا في "قصر الأمل" (١١٢)، ومن طريقه أيضاً البغوي في "معجم الصحابة" (٣٢/٥) من طريق شُعْبَة، عَنْ سَعِيدٍ الْجُرَيْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ غُنَيْمَ بْنَ قَيْسٍ. وأحمد في "الزهد" (١٣٧٩)، ومن طريقه أبو نعيم في "الحلية"(٢٠٠/٦)، من طريق إِسْمَاعِيل ابْنِ عُلَيَّةَ، قَالَ: ثَنَا الْجُرَيْرِيُّ، عَنْ أَبِي السَّلِيلِ، قَالَ: قَالَ لِي غُنَيْمُ بْنُ قَيْسٍ، والجريري وأبو السليل كلاهما قد سمعا من غنيم بن قيس "تهذيب الكمال" (١٢١/٢٣).

(٢) "جامع العلوم والحكم"(٣٩٠/٢).

تَصِيرُ هَذِهِ الْبِضَاعَةُ فِيهِ عَزِيزَةً، فَاسْتَكْثِرْ مِنْهَا فِي يَوْمِ الْكَسَادِ لِيَوْمِ الْعِزِّ، فَإِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى طَلَبِهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.(١)

❁ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: كَيْفَ يَفْرَحُ بِالدُّنْيَا مَنْ يَوْمُهُ يَهْدِمُ شَهْرَهُ، وَشَهْرُهُ يَهْدِمُ سَنَتَهُ، وَسَنَتُهُ تَهْدِمُ عُمْرَهُ، كَيْفَ يَفْرَحُ مَنْ يَقُودُهُ عُمْرُهُ إِلَى أَجَلِهِ، وَتَقُودُهُ حَيَاتُهُ إِلَى مَوْتِهِ.(٢)

الإِنْسَانُ ينبغي له أن يحرص عَلَى اسْتِغْلَالِ الأَوْقَاتِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ جَلَّ وَعَلَا.

(١) "تنبيه الغافلين" (صـ: ٥٦).

(٢) "جامع العلوم والحكم" (٢/٣٨٣).

البيت رقم ٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتَدْعُوكَ المَنُونُ دُعَاءَصِدْقٍ ... أَلاَ يَا صَاحِ أنتَ أُرِيدَ أَنْتَا

شرح البيت رقم٢

"وَتَدْعُوكَ المَنُونُ"، أي: يَدْعُوكَ المَوْتُ مَلَكُ المَوْتِ، والمن: القطع، قال الله – عز وجل –: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ التين [٦]، أي: غير مقطوع. ويقال للمنية المنون؛ لأنها تنقص العدد وتقطع المدد.(١)

"دُعَاءَ صِدْقٍ"، ليس بِكَذِبٍ وَلَا بِهَزْلٍ إِنَّمَا هُوَ دَعَاءُ جِد يَدْعُوكَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ، يَدْعُوكَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ سَيَأْتِي عَلَيْكَ الدَّوْرُ سَيقْبِضُ رُوحَكَ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،

قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ العنكبوت: ٥٧.

ويقول: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الرحمن: ٢٦.

فَإِنَّهُ أَمْرٌ مُحْقَقٌ وَاقِعٌ حَقِيقَة لَا شَكَّ فِيهِ فَهِيَ حَقِيقَةٌ مُسْلَمَةٌ عِنْدَ الجَمِيعِ، وَلَكِنْ مَنْ يَسْتَعِدُّ لِهَذِهِ الحَقِيقَة ...؟

❁ قَالَ ابْنُ هَانِئٍ الشَّاعِرُ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَرْثِي فِيهَا وَلَدَهُ:

حُكْمُ المَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِ ... مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ(٢)

---

(١) "مجمل اللغة" لابن فارس (١/ ٨١٤).

(٢) "الآداب الشرعية والمنح المرعية" (٢/ ٢٤٧).

❁ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَوْ فَارَقَ ذِكْرُ الْمَوْتِ قَلْبِي سَاعَةً خَشِيتُ أَنْ يَفْسُدَ قَلْبِي.(١) لَوْ فَارَقَ القَلْبَ ذِكْرُ المَوْتِ لفَسَد ذَلِكَ القَلْبُ وَقسى فَهُوَ بِحَاجَةٍ أَنْ يَلِينَ بِالمَوَاعِظِ وَالزَّوَاجِرِ، وَالمَوْتُ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ المَوَاعِظِ وَالزَّوَاجِرِ

"أَلاَ يَا صَاحِ أنتَ أُرِيدَ أَنْتَا"، هذا يُسَمَّى التَرْخِيم، أَيْ: أَلّا يا صاحِبِي أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَ، أَيْ كأنَ مَلكُ المَوْتِ يُنادِيكَ بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ يا فُلانُ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْ أَقْبِضَ رُوحَكَ وَانْتَزِعَها كَأَنَّهُ يَقُولُ ما أُرِيدُ غَيْرَكَ، فَانْتَبِهْ لِوَقْتِكَ وَانْتَبِهْ لِنَفْسِكَ فَأَنْتَ مَقْبُوضٌ لا مَحَّالة وَراجِعٌ إِلَى الله -عَزَّ وَجَلَّ - بِيَقِينٍ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه"(٣٥٤٣١)، وابن أبي الدنيا في "العزلة والانفراد"، وأبو نعيم في "الحلية"(٥/٧٥)، من طريق حُسَيْنِ بْن عَلِيٍّ، عَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ بِرَبِيعِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى صُنْدُوقٍ مِنْ صَنَادِيقِ الْحَدَّادِينَ فَقَالَ: فذكره. ورجاله ثقات، والربيع بن أبي راشد، ذكره البخاري في "التاريخ الكبير"(٣/٢٧٣)، وابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل"(٣/٤٦١)، ولم يذكرا فيه جرحا ولا تعديلا. وقال العجلي: "كوفي"، ثقة، رجل صالح. "الثقات" (ص: ١٥٦)، وهو في "الزهد والرقائق" (٢٦٦) لابن المبارك عنه، وفيه قَالَ مَالِكٌ: «وَلَمْ أَرَ رَجُلًا أَظْهَرَ حُزْنًا مِنْهُ»، وأخرجه البيهقي في "الزهد الكبير"(٥٣٦)، من طريق أخرى عن الربيع بن أبي راشد. وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٤/٢٧٩)، وأخرجه أحمد في "الزهد"(٢١٦٨) عن سعيد بن جبير، وفيه راو لم يسم، وأخرجه أيضا أبو نعيم في "الحلية"(٢/١١٦)، عن الربيع بن خثيم وفيه من لا يُعرف، وأخرجه ابن المبارك في "الزهد والرقائق"(٢٦٠) قال ابن المبارك: قال صالح المري فذكره، وذكره عبد الحق الأشبيلي، عن عمر بن عبد العزيز في "العاقبة في ذكر الموت"(٣٩).

البيت رقم ٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْساً ذَاتَ خِدْرٍ أَبَتَّ طَلاَقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا

شرح البيت رقم ٣

"عِرْسا"، قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعِرْس الرجل: امْرَأَتُهُ. يُقَال: هِيَ عِرْسُهُ وطَلَّتهُ وقَعِيدتهُ. ولَبُؤة الأَسَد عِرْسه.

والزوجان لَا يسميان عروسين إِلَّا أَيَّام البِناء واتِّخاذ العُرْس. وَالْمَرْأَة تسمَّى عِرْس الرجل كلَّ وَقت...

وَيُقَال للرجل: هُوَ عِرْس امْرَأَته، وللمرأة: هِيَ عِرْسه.(١)

والذي يظهر بأن الناظم أراد به الدنيا ـ وليس المرأة ـ للتزهيد عنها.

وَأَحْياناً تُشْبِهُ الدُنْيا بِالمَرْأَةِ المُتَزَيِّنَةِ حَيْثُ يَفْتَتِنُ بِها الإِنْسانُ، وَفِيها ضَرَرٌ عَلَيْهِ.

أَيْ: تُحِبُّ الدُنْيا وتلتهي بها، وهي ذاهبة منقضية.

"ذَاتَ خِدْرٍ"، المُرادُ بِها المُتَغَطِّيَةُ كأنَها غائبة مُتَغَطِّيَة عَنْك بِغِطاء فهي تتزينُ لك وتُظهرُ محاسنها، وتخفي ضررها، وفتنتها، وَغَيْرِ ذلك.

"أَبَتَّ طَلاَقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا"، البت: القطع. أي: قَطَعَ الأَكْياسُ ـ وهم العُقَلاءُ ـ طلاقها قَطْعاً، وَأَعْرَضُوا عَنْ هذِهِ الدار، وَلَمْ يَطْمَئِنُّوا إليها.

❁ قال أَبُو الْفرج الساوي:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمِلْءِ فِيهَا حِذَارِ حِذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي

---

(١) "تهذيب اللغة" (٢/ ٥١).

فَلا يَغْرُرْكُمْ حُسْنُ ابْتِسَامِي فَقَوْلِي مُضْحِكٌ وَالْفِعْلُ مُبْكِي[١]

"أَبَتَّ طَلاَقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا"، أَي: كَالطَلاقِ المُبْتوتِ البائِنِ الَّذي لا رَجْعَةَ بَعْدَهُ،

كَما قالَ بعضهم:

إِنْ لِلَّهِ عِبَادًا فُطُنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَرَفُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

طَلَّقُوا الدُّنْيا، وَهَذا رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قالَ: آهْ يا دُنْيا، لَقَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثًا، آهْ يا دُنْيا، لَقَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثًا، غُرِّي غَيْرِي.[٢]

وفسادُ القلبِ وضياعه من أَسْبَابِهِ، الانشغال بالدنيا وترك الآخرة.

---

(١) "يتيمة الدهر" (٣/ ٤٥٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١/ ٨٥)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخه" (٢٤/ ٤٠١)، وفيه أنه كان يَقُولُ لِلدُّنْيَا: إِلَيَّ تَغَرَّرَتْ، إِلَيَّ تَشَوَّفَتْ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، غُرِّي غَيْرِي، قَدْ بَتَتُّكِ ثَلَاثًا، فَعُمْرُكِ قَصِيرٌ، وَمَجْلِسُكِ حَقِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ، آهِ آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ، وَبُعْدِ السَّفَرِ، وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ "، وهو من طريق محمد بن السائب الكلبي متروك الحديث. قال أبو حاتم: الناس مجمعون على ترك حديثه هو ذاهب الحديث لا يشتغل به. قال الحاكم أبو عبد الله: روى عن أبي صالح أحاديث موضوعة. "تهذيب التهذيب" (٩/ ١٨١)، وله طريق أخرى في "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"(٣/ ١١٠٨). وفيه راو لم يسم، ومحمد بن الحسن بن دريد، قال الدارقطني تكلموا فيه.

وأخرجه ابن أبي الدنيا في "مقتل علي"(١٠٥)، وفيه من لا يعرف

وأخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٢٤/ ٤٠٢)، وفيه من لا يعرف بجرح ولا تعديل.

وأخرجه أحمد في "فضائل الصحابة" (٨٨٤)، ومن طريقه أبي نعيم (١/ ٨٠)، بسند حسن وليس فيه ذكر الطلاق.

وله طرق أخرى في "فضائل الصحابة" و "تاريخ دمشق" بمعنى مقارب.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: أَمَّا كَوْنُهُ طَلَّقَ الدُّنْيَا ثَلَاثًا) فَمِنَ الْمَشْهُورِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "يَا صَفْرَاءُ، يَا بَيْضَاءُ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثًا غُرِّي غَيْرِي، لَا رَجْعَةَ لِي فِيكِ" "منهاج السنة النبوية" (٧/ ٤٩٠)، وجاء عنه من طرق متعددة أنه قال: يَا دُنْيَا غُرِّي غَيْرِي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأعظم هَذِه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إِضَاعَة: إِضَاعَة الْقلب، وإضاعة الْوَقْت، فإضاعة الْقلب من إِيثَار الدُّنْيَا على الْآخِرَة، وإضاعة الْوَقْت من طول الأمل فَاجْتمع الْفساد كُله فِي إتباع الْهوى وَطول الأمل وَالصَّلَاح كُله في اتِّبَاع لهدى، والاستعداد للقاء وَالله الْمُسْتَعَان. (١)

(١) الفوائد لابن القيم" (صـ: ١١٢).

البيت رقم ٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تَـنـامُ الـدَّهْـرَ وَيْحَـكَ فِي غَـطِـيـطٍ بِهَـا حَـتَّـى إِذَا مِـتَّ انْـتَـبَـهْـتَـا

شرح البيت رقم ٤

يَحُثُّ عَلى التَّقْليلِ مِنَ النَّوْمِ، وَأَنَّهُ لا يَنْبَغي لِلإِنْسانِ أَنْ يُضَيِّعَ الأَوْقات في النَّوْمِ وَالكَسَلِ، حَتّى أَنَّ بَعْضَهُمْ لا يَسْتَفيقُ إِلّا عِنْدَ نُزُولِ المَوْتِ.

والغطيط:(غَطِيطُ) النَّائِمِ وَالْمَخْنُوقِ نَخِيرُهُ.(١)ومنه قول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: فَنَامَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ.(٢)

وقوله: "وَيْحَكَ": وَيْحٌ: كلمة رحمة. وويلٌ كلمة عذابٍ.(٣)

❁ وقال ابنُ الأثير: وَيْحَ: كَلمةُ تَرحُّمٍ وتَوَجُّعٍ، تقالُ لِمَنْ وَقَع فِي هَلَكةٍ لَا يَسْتَحِقُّها.(٤)

❁ وَقَالَ اللَّيْث: وَيْحَ يُقَال إِنَّه رَحْمَة لمن تنزل بِهِ بَلِيّة، وَرُبمَا جعل مَعَ (مَا) كلمة وَاحِدَة فَقيل: وَيْحَمَا. وَقَالَ إِسْحَاق بن الفَرَج: الوَيْحُ، والوَيْلُ، والوَيسُ بِمَعْنى وَاحِد.(٥)

❁ قالَ ابْنُ الوَرْديِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَاهْـجُـرِ الـنَّـومَ وَحَصِّـلْـهُ فَـمَـنْ يَـعْـرِفِ الْمَـطْـلُـوبَ يَحْـقِـرْ مَـا بَـذَلْ

---

(١) "مختار الصحاح"(ص ٢٢٨).

(٢) "البخاري"(٧٢٣١)، و"مسلم" (٣٩ -(٢٤١٠). وجاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند "البخاري"(١١٧)، و (٦٩٧). وفي "مسلم" (ثُمَ نَامَ حتى نفخ، وَكُنَّا نَعْرِفُهُ إِذَا نَامَ بِنَفْخِهِ) (٧٦٣).

(٣) " الصحاح "(١/ ٤١٧).

(٤) " النهاية (٥/ ٢٣٥)".

(٥) " تهذيب اللغة (٥/ ١٩١)".

واهْجُرِ النَّوْمَ، لا تُكْثِرْ مِنَ النَّوْمِ، لِأَنَّهُمْ يَقولونَ كَثْرَةُ النَّوْمِ مِنْ أَسْبابِ قَسْوَةِ القُلوبِ. كَثْرَةُ النَّوْمِ، كَثْرَةُ الأَكْلِ، كَثْرَةُ الضَّحِكِ، وَنَحْو هذِهِ الأُمورِ مَعَ المَعاصي وَالمُنْكَرَاتِ هِيَ مِنْ أَسْبابِ قَسْوَةِ القُلوبِ.

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قسوة الْقلب من أَرْبَعَة أَشْيَاء إِذا جَاوَزت قدر الْحَاجة الْأكل، وَالنَّوْم، وَالْكَلَام، والمخالطة. (١) وَيَكونُ نَوْمُ الإِنْسانِ عَلى قَدْرِ حاجَتِهِ.

وَذُكِرَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ، أَنَّهُ كانَ لا يَنامُ إِلّا أَرْبَعَ ساعات،

وَعَنْ بَعْضِهِمْ، لا يَنامُ إِلّا أَقَلَّ.

وَذُكِرَ عَنْ بَعْضِهِمْ، أَنَّهُ كانَ يَظَلُّ السَّنواتِ لا يَضَعُ جَنْبَهُ عَلى فِراشِهِ، كَما ذَكَروا ذلِكَ عَنِ الإِمامِ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مَكَثَ قَرِيبًا مِنْ سَنَتَيْنِ لَا يَضَعُ جَنْبَهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ اثْنَيْ عَشَرَ دَرْسًا فِي عِدَّةٍ مِنْ الْعُلُومِ. (٢)

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ...وبارك الله لي في وقتي. وخطر لي الاشتغال بعلم الطّبّ، فاشتريت كتاب " القانون " فِيهِ، وعزمتُ على الاشتغال فِيهِ، فأظلم عليَّ قلبي، وبقيت أيّامًا لا أقدر على الاشتغال بشيء، ففكّرت فِي أمري ومِن أَيْنَ دخل عليَّ الدّاخل، فألهمني الله أنّ سببه اشتغالي بالطّبّ، فبعت " القانون " فِي الحال، واستنار قلبي. (٣)

❁ قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ شيخنا ابن العطّار: ذكر لي شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه كان لا يضيّع له وقتًا فِي ليلٍ ولا نهار إلّا فِي وظيفةٍ من الاشتغال بالعِلم، حَتَّى في ذهابه في الطرق

---

(١) "الفوائد" لابن القيم (صـ: ٩٧)

(٢) "مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج" (١/ ١١٢).

(٣) "تاريخ الإسلام" (٣٢٦/١٥).

يكرّر أو يطالع. وأنّه بقي على هَذَا نحو ست سنين، ثم اشتغل بالتصنيف والإشغال والنصح للمسلمين وولاتهم، مع ما هُوَ عليه من المجاهدة لنفسه، والعمل بدقائق الفِقْه، والحرص على الخروج من خلاف العلماء، والمراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من الشّوائب، يُحاسب نفسه على الخطْرة بعد الخطْرة. وكان محققا في علمه وفنونه، مدققا في عمله وشؤونه، حافظًا لحَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، عارِفًا بأنواعه من صحيحه وسقيمه وغريب ألفاظه واستنباط فِقهه، حافظًا للمذهب وقواعده وأُصوله، وأقوال الصّحابة والتّابعين، واختلاف العلماء ووفاقهم؛ سالكًا فِي ذلك طريقة السَّلَف. قد صرف أوقاته كلّها فِي أنواع العِلم والعمل بالعِلم. (١)

وضُرِبَ به المثلُ في إكبابِهِ على طلبِ العلمِ ليلاً ونهاراً، **وهَجْرِه النوم إلا عن غلبة**، وضبط أوقاته بلزم الدرس، أو الكتابة، أو المطالعة، أو التردد إلى الشيوخ، قاله الذهبي في "سير النبلاء". (٢)وحكى البدر ابن جماعة أنه سأله عن نومه فقال: إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظه وانتبه قال "أعني البدر": وكنت إذا أتيته أزوره يضع بعض الكتب على بعض ليوسع لي مكانا أجلس فيه. (٣)

كيف لا يكون كذلك وهو القائل رَحِمَهُ اللَّهُ:فَإِنَّ الِاشْتِغَالَ بِالْعِلْمِ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرَبِ وَأَجَلِّ الطَّاعَاتِ، وَأَهَمِّ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَآكَدِ الْعِبَادَاتِ، وَأَوْلَى مَا أُنْفِقَتْ فِيهِ نَفَائِسُ الْأَوْقَاتِ، وَشَمَّرَ فِي إِدْرَاكِهِ وَالتَّمَكُّنِ فِيهِ أَصْحَابُ الْأَنْفُسِ الزَّكِيَّاتِ، وَبَادَرَ إِلَى الِاهْتِمَامِ بِهِ الْمُسَارِعُونَ

(١) "تاريخ الإسلام" (١٥/ ٣٢٧).

(٢) كما في "المنهل العذب الروي" للسخاوي (صـ٤).

(٣) "المنهل العذب الروي" (صـ: ٢٨).

إِلَى الْمَكْرُمَاتِ، وَسَارَعَ إِلَى التَّحَلِّي بِهِ مُسْتَبِقُو الْخَيْرَاتِ، وَقَدْ تَظَاهَرَ عَلَى مَا ذَكَرْتُهُ جُمَلٌ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمَاتِ، وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَشْهُورَاتِ، وَلَا ضَرُورَةَ إِلَى الْإِطْنَابِ بِذِكْرِهَا هُنَا لِكَوْنِهَا مِنَ الْوَاضِحَاتِ الْجَلِيَّاتِ. (١)

فكان حَرِيصاً عَلَى العِلْمِ وَالعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ في ليله ونهاره وكان زاهداً عفيفاً.

❁ وهذا عطيّة بْن سَعِيد بْن عَبْد الله الأندلسي، كَانَ زاهدًا لا يضَع جنْبَه، إنّما ينام مُحْتَبِيا. (٢) وأمثالهم كثير كما في التراجم، والسير.

❁ قال بعضهم:

بِقَدْرِ الكَدِّ تُكتَسَبُ المَعَالي ... وَمَنْ طَلَبَ العُلا سَهِرَ الليالي
تَزومُ العِزَّ ثُم تَنَامُ لَيلاً ... يَغُوصُ الْبَحْرَ مِنْ طَلَبَ اللآلي

❁ وقال آخر:

بقدرِ الكدِّ تُعطى ما تَرومُ ... ومنْ طَلَبَ العُلا ليلا يقومُ

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذاكراً لمفسدات القلب:

الْمُفْسِدُ الْخَامِسُ: كَثْرَةُ النَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ، وَيُثَقِّلُ الْبَدَنَ، وَيُضِيعُ الْوَقْتَ، وَيُورِثُ كَثْرَةَ الْغَفْلَةِ وَالْكَسَلِ، وَمِنْهُ الْمَكْرُوهُ جِدًّا، وَمِنْهُ الضَّارُّ غَيْرُ النَّافِعِ لِلْبَدَنِ، وَأَنْفَعُ النَّوْمِ مَا كَانَ عِنْدَ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَنَوْمُ أَوَّلِ اللَّيْلِ أَحْمَدُ وَأَنْفَعُ مِنْ آخِرِهِ، وَنَوْمُ وَسَطِ النَّهَارِ أَنْفَعُ مِنْ طَرَفَيْهِ، وَكُلَّمَا قَرُبَ النَّوْمُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ قَلَّ نَفْعُهُ، وَكَثُرَ ضَرَرُهُ، وَلَاسِيَّمَا نَوْمُ الْعَصْرِ، وَالنَّوْمُ أَوَّلَ النَّهَارِ إِلَّا لِسَهْرَانَ. (٣)

---

(١) "روضة الطالبين وعمدة المفتين" (١/ ٤).

(٢) "تاريخ الإسلام"(٢٨/ ١٦٤).

(٣) "مدارج السالكين "(١/ ٤٥٦).

وَالإِنْسَانُ لا يُجْهِدُ نَفْسَهُ الجُهْدَ الَّذِي يَقْطَعُهُ عَنْ مُوَاصَلَةِ العَمَلِ، حَتَّى يُصَابَ مَثَلًا بِالأَمْرَاضِ وَالأَسْقَامِ فَيَضْعُفَ عَنْ القِيَامِ بِأَعْمَالِهِ. وَلَكِنْ لا يَكُونُ النَّوْمُ هُوَ دَيْدَنُهُ، وَهُوَ غَالِبٌ عَلَى أَوْقَاتِهِ، فَيُضَيِّعُ الأَوْقَاتَ بِالنَّوْمِ، وَيَنْقَطِعُ عَنْ العِلْمِ والعِبَادَةِ.

فَلا إِفْرَاطَ وَلا تَفْرِيطَ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ. حِينَ سَأَلَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنْ فِعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ عِبَادَتِهِ فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي. (١)

وَاهْجُرِ النَّومَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ ... يَعْرِفِ المَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ

"حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَ"، أَيْ: بَعْضُهُمْ يَظَلُّ طِوَالَ عُمْرِهِ نَائِمًا فِي غَالِبِ أَوْقَاتِهِ فِي غَطِيطٍ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا "خطيط" كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ حَدِيثِ ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، "حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ أَوْ خَطِيطَهُ". رواه البخاري (١١٧)، (٦٩٧).

فِي سُبَاتٍ طَوِيلٍ، وَفِي نَوْمٍ عَمِيقٍ فِي بعد عن الخير حتى ينزل بك الموت

(١) رواه "البخاري"(٥٠٦٣)، و"مسلم" (١٤٠١).

"حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا"، قال الله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ التكاثر: ١ – ٢ بَعْضُهُمْ لا يَسْتَفِيقُ إِلَّا إِذَا نَزَلَ بِهِ المَوْتُ وَزَارَ المَقَابِرَ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ هُنَا اسْتَفَاقَ، مَتَى؟ عِنْدَمَا جَاءَ المَوْتُ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ المؤمنون: ٩٩ – ١٠٠

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ اسْتَفَاقَ فِي هَذِهِ الحَالِ، لَكِنْ لَمْ تَنْفَعْهُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ.﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المنافقون: ١٠ – ١١ قد فات وقت العمل فلا رجعة ولا تأخير.

وجاء عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(١).

قَدْ جَاءَ المَوْتُ، (إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا). فَلا رَجْعَةَ وَلا عَوْدَةَ، "حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا". وَهَذَا الانْتِبَاهُ لا يُفِيدُ، الانْتِبَاهُ عِنْدَ المَوْتِ، عِنْدَ الغَرْغَرَةِ لا يَنْفَعُ. فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ. فَإِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ الحُلْقُومَ وَتَحَشْرَجَتِ الصُّدُورِ، وَنَزَلَتْ بِهِ السَّكَرَاتُ وَحَلَّتْ بِهِ الغَمَرَاتُ، وَهَجَمَ عَلَيْهِ هَادِمُ اللَّذَّاتِ وَمُفَرِّقُ الجَمَاعَاتِ، فَيَسْتَفِيقُ الكَثِيرُ، لَكِنْ لا فَائِدَةَ مِنْ هَذِهِ الاسْتِفَاقَةِ. إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ، لا تَنْفَعُهُ عِنْدَ ذَلِكَ.

---

(١) "رواه أحمد (٦١٦٠)، (٦٤٠٨)، والحاكم (٧٩٥٧)، و"الترمذي"(٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وغيرهم. وحسن الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "صحيح الجامع"(١٩٠٣)

ولذلك أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بأن يُكثرَ من ذكرِ الموتِ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: " أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ"(١). قال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: هاذم اللَّذَّات بِالذَّالِ الْمُعْجَمَة بِمَعْنى قاطعها أَو بِالْمُهْمَلَةِ من هدم الْبناء وَالْمرَاد الْمَوْت وَهُوَ هَادِم اللَّذَّات أما لِأَن ذكره يزهد فِيهَا أَو لِأَنَّهُ إِذا جَاءَ مَا يبْقى من لذائذ الدُّنْيَا شَيْئا وَالله تَعَالَى أعلم.(٢) قال الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَالَ الشَّيْخُ الْجَزَرِيُّ: هَادِمٌ يُرْوَى بِالدَّالِ الْمُهْمَلَةِ أَيْ: دَافِعُهَا أَوْ مُخَرِّبُهَا وَبِالْمُعْجَمَةِ أَيْ: قَاطِعُهَا، وَاخْتَارَهُ بَعْضٌ مِنْ مَشَايِخِنَا وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُصَحِّحِ الْخِطَابَ غَيْرُهُ وَجَعَلَ الْأَوَّلَ مِنْ غَلَطِ الرُّوَاةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(٣)

فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ يَقِظًا مُتَنَبِّهًا قَبْلَ أَنْ يَبْغَتَهُ المَوْتُ.

---

(١) "رواه "أحمد"(٧٩٢٥)، والترمذي (٢٣٠٧)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وغيرهم. وصححه الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "مشكاة المصابيح"(١٦٠٧)، وفي غيره.

(٢) "حاشية السندي على سنن النسائي"(٤/ ٤).

(٣) "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح"(٣/ ١١٦٠).

البيت رقم ٥ و٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى ... مَتَى لاَ تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى
أَبَا بَكْرٍ" دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ... إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتَا

شرح البيت رقم ٥و٦

أَيْ: كَمْ أَنْتَ مَخْدُوعٌ بِهَذِهِ الدُّنْيَا؟ كَمْ أَنْتَ مَغْرُورٌ بِزَهْرَةِ هَذِهِ الدُّنْيَا؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ الانفطار: ٦ – ٧

إِلَى مَتَى سَتَظَلُّ عَلَى هَذَا الغُرُورِ، وَالانْخِدَاعِ بِالدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا؟ أَمَا آن لَكَ أَنْ تَتيقظَ وَتفِيقَ مِنْ هَذَا الغُرُورِ، وَالانْخِدَاعِ؟

"مَتَى لاَ تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى"، كَمْ سَتَظَلُّ مُلْتَهِيًا بِهَا بغير إفاقة؟ مُلتهياً عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ؟ عَنْ تِلَاوَةِ القُرْآنِ؟ عَنْ الاسْتِقَامَةِ؟ مَتَى سَتَرْجِعُ عَنْ غَيِّكَ؟ وَتَعُودُ إِلَى رُشْدِكَ.

ثُمَّ قَالَ فِي البَيْتِ السَّادِسِ: "أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ جَبْتَا". جَعَلَ يُحَاوِرُ هَذَا الشَّخْصَ، وينصحُ له الَّذِي كَنَاهُ بِأَبِي بَكْرٍ، وَكَأَنَّهُ يُحَاوِرُ وَلَدًا لَهُ أَوْ تِلْمِيذًا لَهُ، وَيَنْصَحُ له بِهَذِهِ النَّصَائِحِ.

"دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا"، يَا فُلَانُ، يا أَبَا بَكْرٍ، وَيَحِلُّ مَحَلَّ هَذَا الاسْمِ، أو الكنية كُلُّ شَخْصٍ عَلَى سَبِيلِ البَدَلِ.

"دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا" دَعَوْتُكَ إِلَى أَنْ تَسْتَفِيقَ، إِلَى أَنْ تَتيَقَّظَ، إِلَى أَنْ تَنْتَبِهَ، إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ، الذي هو الحَظُّ الوَافِرُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ وَكُنْتَ تَعِي.

فَإِنَّ هَذَا الطَّرِيقَ هُوَ طَرِيقُ الرِّفْعَةِ، طَرِيقُ العِلْمِ وَالتَّحَلِّي بالآداب والأخلاق وَغَيْرِ ذَلِك فمن أخذه فقد أخذ بحظٍ وافرٍ.

البيت رقم ٧

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إِلَى عِـلْـمٍ تَـكُـونُ بِـهِ إِمَـامـاً مُـطَـاعـاً إِنْ نَهَـيْـتَ وَإِنْ أَمَـرْتَـا

شرح البيت رقم ٧

بَيَّنَ لَهُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ العَظِيمَةَ بقوله: "إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا". قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رَوْحَهُ - يَقُولُ: بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ. ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤ [١]. صَبَرُوا عَلَى العِلْمِ، عَلَى الدِّينِ، عَلَى إِقَامَتِهِ.

﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الفرقان: ٧٤، أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكُمل من عباد الله الصالحين وهي درجة الإمامة في الدين وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم يقتدى بأفعالهم، ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم فيهدون ويهتدون. ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة -درجة الإمامة في الدين -لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤ . فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله وعن معصيته، وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، خيرا كثيرا وعطاء جزيلا وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل. [٢]

---

(١) "مدارج السالكين" (٢/ ١٥٣).

(٢) "تفسير السعدي" (صـ: ٥٨٨).

❁ قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَأَخْبَرَ أَنَّ إِمَامَةَ الدِّينِ إِنَّمَا تُنَالُ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، فَالصَّبْرُ يَدْفَعُ الشَّهَوَاتِ وَالْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةَ، وَالْيَقِينُ يَدْفَعُ الشُّكُوكَ وَالشُّبُهَاتِ. (١)

❁ وقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أَئِمَّةً يَأْتَمُّ بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِصَبْرِهِمْ وَيَقِينِهِمْ؛ إِذْ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتِمُّ لَهُ أَمْرُهُ إِلَّا بِيَقِينِهِ لِلْحَقِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ وَبَصِيرَتِهِ بِهِ وَصَبْرِهِ عَلَى تَنْفِيذِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِاحْتِمَالِ مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ وَكَفِّ النَّفْسِ عَمَّا يُوهِنُ عَزْمَهُ وَيُضْعِفُ إِرَادَتَهُ، فَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ كَانَ مِنْ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَهْدُونَ بِأَمْرِهِ تَعَالَى. (٢)

"**إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا**"، فَالعِلْمُ هُوَ طَرِيقُ الرِّفْعَةِ. ﴿**يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ**﴾المجادلة: ١١. وَلا تجعلْ قَصْدَكَ مِنَ العِلْمِ الشُّهْرَة، فَإِنَّ حُبَّ الظُّهُورِ يُقْصِمُ الظُّهُورَ. وَاجعل طَلَبَكَ لِلْعِلْمِ لِلَّهِ، فإِذَا طَلَبْتَهُ لِلَّهِ يَكُونُ سَبَبًا لِرِفْعَتِكَ.

لِذَلِكَ كَانَ أَهْلُ العِلْمِ يَشْكُونَ مِنْ شُهْرَتِهِمْ، وَلا يَفْرَحُونَ بِهَا، حَتَّى كَانَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: ابْتُلِينَا بِالشُّهْرَةِ. يَرَاهَا بَلِيَّةً عَلَيْهِ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهَا فِتْنَةٌ.

❁ قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أُرِيدُ أَنْ أَكُوْنَ فِي شِعْبٍ بِمَكَّةَ حَتَّى لاَ أُعرَفَ، قَدْ بُلِيتُ بِالشُّهرَةِ، إِنِّي أَتَمَنَّى المَوْتَ صَبَاحاً وَمسَاءً. (٣) فَمَنْ كَانَ طَلَبُهُ لِلْعِلْمِ لِلَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ اللَّهِ مُخْلِصًا لِلَّهِ، لا لِقَصْدِ شُهْرَةٍ وَلا رِيَاءٍ وَلا تَرَفُّعٍ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرْفَعُهُ الرِّفْعَةَ الحَقِيقِيَّةَ.

وَأَهْلُ العِلْمِ هُمْ مَرْجِعٌ لِلنَّاسِ يرجعون إليهم.

---

(١) "زاد المعاد"(٣/ ١٠).

(٢) "إعلام الموقعين" (٤/ ١٠٣).

(٣) "سير أعلام النبلاء"(١١/ ٢١٦).

"إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا"، وكَمَا قالَ الرحبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فاحْفَظْ فَكُلُّ حافِظٍ إِمَامُ. وكما قيل: من حَفِظَ المُتُون؛ حَازَ الفُنُون. فَالحِفْظُ حِفْظُ العِلْمِ؛ سَبَبٌ لِنَيْلِ الإِمَامَةِ، وَالتَمَكُّنَ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَكُلُّ حَافِظٍ إِمَامُ، يحفظُ، ويعملُ بهذا المحفوظ، ويدعو إليه بصدقٍ وإخلاصٍ وصبرٍ يصيرُ إماماً بإذن اللهِ تعالى.

"مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا": يَجْعَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ مَكَانَةً وَيُسْمَعَ لِقَوْلِكَ، تَكُونُ مُحْتَرَمًا مُعَظَّمًا بَيْنَ النَّاسِ، يكونُ لِقَوْلِكَ قَبُولًا فِي الأَمْرِ وَفِي النَّهْيِ وَالتَّوْجِيهِ، مَا دُمْتَ مُنَادِيًا لِشَرْعِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا داعياً إليه.

النَّاسُ يَعُودُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ وَيَصْدُرُونَ عَنْ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:

الصِّنْفُ الْأَوَّلُ: الْعُلَمَاءُ فَالنَّاسُ يَأْخُذُونَ بِتَوْجِيهَاتِهِمْ وَيَسْتَشِيرُونَهُمْ فِي أُمُورِهِمْ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».(١) فإذا لم يصدر الناس عن العلماء، صدروا عن الجهال باسم العلم؛ فحصل الضرر، والضلال. فالناسُ تبعٌ للعلماء أو من حل محلهم ولو كانوا جهالاً

الصِّنْفُ الثَّانِي: الْأُمَرَاءُ فَالنَّاسُ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَتَّبِعُونَهُمْ عَلَى حَقٍّ كَانُوا أَوْ عَلَى بَاطِلٍ. لِذَلِكَ إِذَا فَسَدَ الْعُلَمَاءُ وَالْأُمَرَاءُ حَصَلَ الْفَسَادُ فِي النَّاسِ. فَسَادُ الْعَالِمِ أَوِ الْأَمِيرِ فَسَادٌ لِلنَّاسِ.

❁ قَالَ ابْنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَلَمَّا كَانَ قِيَامُ الْإِسْلَامِ بِطَائِفَتَيْ الْعُلَمَاءِ وَالْأُمَرَاءِ، وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لَهُمْ تَبَعًا، كَانَ صَلَاحُ الْعَالَمِ بِصَلَاحِ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ، وَفَسَادُهُ بِفَسَادِهِمَا،

(١) رواه "البخاري"(١٠٠)، و"مسلم"(٢٦٧٣).

كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ: صِنْفَانِ مِنْ النَّاسِ إذَا صَلَحَا صَلَحَ النَّاسُ، وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَ النَّاسُ، قِيلَ: مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْمُلُوكُ، وَالْعُلَمَاءُ. (١)

❁ قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فبصلاحهما صلاح الناس وبفسادهما فساد الناس فالعالم يقتدي الناس به في أفعاله وأقواله إن خيرا فخير وإن شرا فشر والأمير يحمل الناس على ما يصلحهم أو يفسدهم ولا يمكن مخالفته. (٢)

❁ كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّيْنَ إِلاَّ الْمُلُوْكُ وَأَحْبَارُ سَوْءٍ وَرُهْبَانُهَا(٣)

وَبِفِتْنَتِهِمَا يَفْتَتِنُ النَّاسُ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ بَعْضُ السَّلَفِ.

❁ وقالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَانَ يُقَالُ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ؛ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ». (٤)

❁ قال أبوبَكْرٍ الْوَرَّاقَ: النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: الْعُلَمَاءُ، وَالْأُمَرَاءُ، وَالْقُرَّاءُ، فَإِذَا فَسَدَ الْأُمَرَاءُ فَسَدَ الْمَعَاشُ، وَإِذَا فَسَدَ الْعُلَمَاءُ فَسَدَتِ الطَّاعَاتُ، وَإِذَا فَسَدَتِ الْقَرَّاءُ فَسَدَتِ الْأَخْلَاقُ. (٥)

---

(١) "إعلام الموقعين"(١/ ٨). وقوله "صنفان من الناس...الخ. جاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في "الحلية" لأبي نعيم (٤/٩٦)، وفيه محمد بن زياد اليشكري، قال أَحْمد: كَذَّاب خَبِيث يضع الحَدِيث. وَقَالَ الدَّارَقُطْنِي: كَذَّاب "المغني في الضعفاء" (٢/ ٨٥١)، وحكم عليه الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالوضع "ضعيف الجامع"(٣٤٩٥).

(٢) "فيض القدير" (٤/ ٢٠٩).

(٣) "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (١٢/ ٢١٣).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله"(١١٦١) بسند صحيح، وصح أيضاً عن سفيان الثوري. أخرجه عنه أبو نعيم في "الحلية" (٧/٣٦)، وابن المبارك في الزهد (٢/١٨)، والبيهقي في "المدخل" (٥٤٥)، وغيرهم.

(٥) "رواه السلمي في "طبقات الصوفية" صـ ١٧٩، ومن طريقه البيهقي في "الشعب"(١٦٧٩)، والسلمي هو: محمد بن الحسين بن محمد، قال الذهبي بعد ذكره لترجمته: "إلا أنه ضعيف. "تذكرة الحفاظ" (٣/ ١٦٦) وقال: ألف "حقائق التفسير"، فأتى فيه بمصائب وتأويلات الباطنية، نسأل الله العافية، وقال: وفي القلب مما يتفرد به.

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ الأحزاب: ٦٧

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَالَ طَاوُسٌ: سَادَتَنَا: يَعْنِي الْأَشْرَافَ، وَكُبَرَاءَنَا: يَعْنِي الْعُلَمَاءَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. (١) أَيِ: اتَّبَعْنَا السَّادَةَ، وَهُمُ الْأُمَرَاءُ وَالْكُبَرَاءُ مِنَ الْمَشْيَخَةِ، وَخَالَفْنَا الرُّسُلَ وَاعْتَقَدْنَا أَنَّ عِنْدَهُمْ شَيْئًا، وَأَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ فَإِذَا هُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ. (٢)

الصِّنْفُ الثَّالِثُ: أَصْحَابُ الْأَمْوَالِ ازْدَحَمَ النَّاسُ عَلَى أَبْوَابِهِمْ وَيَمْتَثِلُونَ لَهُمْ أَوَامِرَهُمْ رَجَاءَ الْعَطَايَا مِنْهُمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الْعُلَمَاءُ مِنْ أُمَّتِهِ مُنْحَصِرِينَ فِي قِسْمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: حُفَّاظُ الْحَدِيثِ، وَجَهَابِذَتُهُ، وَالْقَادَةُ الَّذِينَ هُمْ أَئِمَّةُ الْأَنَامِ وَزَوَامِلُ الْإِسْلَامِ، الَّذِينَ حَفِظُوا عَلَى الْأَئِمَّةِ مَعَاقِدَ الدِّينِ وَمَعَاقِلَهُ، وَحَمَوْا مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّكْدِيرِ مَوَارِدَهُ وَمَنَاهِلَهُ، حَتَّى وَرَدَ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى تِلْكَ الْمَنَاهِلَ صَافِيَةً مِنَ الْأَدْنَاسِ لَمْ تَشُبْهَا الْآرَاءُ تَغْيِيرًا...

"الميزان"(٣/ ٥٢٤). وقال الخطيب: وَقَالَ لي محمد بن يوسف القطان النيسابوري: كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة، ولم يكن سمع من الأصم إلا شيئا يسيرا، فلما مات الحاكم أبو عبد الله بن البيع حدث عن الأصم بتاريخ يحيى بن معين وبأشياء كثيرة سواه، قَالَ: وكان يضع للصوفية الأحاديث. "تاريخ بغداد" (٣/ ٤٢). سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٧/ ٢٥٢)، وَفِي الجُمْلَةِ فَفِي تَصَانِيْفِهِ أَحَادِيثٌ وَحكَايَاتٌ مَوْضُوعَة، وَفِي (حَقَائِقِ تَفْسِيْرِه) أَشْيَاءُ لاَ تسوَغُ أَصْلاً، عَدَّهَا بَعْضُ الأَئِمَّة مِنْ زَنْدَقَةِ البَاطِنِيَّة، وَعَدَّهَا بَعْضُهُم عِرْفَاناً وَحَقِيْقَةً، نَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الضَّلاَلِ وَمِنَ الكَلاَمِ بهوَى، فَإِنَّ الخَيْرَ كُلَّ الخَيْرِ فِي مُتَابَعَةِ السُّنَّة وَالتَّمَسُّكِ بِهَدْيِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ رَضِي الله عَنْهُم. وشيخه أبوبكر الرازي محمد بن عبد الله، قال الذهبي مُتَّهم طعن فِيهِ الْحَاكِم وَلأبي عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ عَنهُ عجائب وبلايا. "المغني في الضعفاء"(٢/٦٠٣).

(١) لم أجده عند ابن أبي حاتم.

(٢) "تفسير ابن كثير" ت سلامة (٦/ ٤٨٤).

الْقِسْمُ الثَّانِي: فُقَهَاءُ الْإِسْلَامِ، وَمَنْ دَارَتْ الْفُتْيَا عَلَى أَقْوَالِهِمْ بَيْنَ الْأَنَامِ، الَّذِينَ خُصُّوا بِاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ، وَعَنَوْا بِضَبْطِ قَوَاعِدِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛

فَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، بِهِمْ يَهْتَدِي الْحَيْرَانُ فِي الظَّلْمَاءِ، وَحَاجَةُ النَّاسِ إلَيْهِمْ أَعْظَمُ مِنْ حَاجَتِهِمْ إلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَطَاعَتُهُمْ أَفْرَضُ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَةِ الْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ بِنَصِّ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩...

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْأُمَرَاءَ إنَّمَا يُطَاعُونَ إذَا أَمَرُوا بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ؛ فَطَاعَتُهُمْ تَبَعٌ لِطَاعَةِ الْعُلَمَاءِ؛ فَإِنَّ الطَّاعَةَ إنَّمَا تَكُونُ فِي الْمَعْرُوفِ وَمَا أَوْجَبَهُ الْعِلْمُ، فَكَمَا أَنَّ طَاعَةَ الْعُلَمَاءِ تَبَعٌ لِطَاعَةِ الرَّسُولِ فَطَاعَةُ الْأُمَرَاءِ تَبَعٌ لِطَاعَةِ الْعُلَمَاءِ. (١)

---

(١) "إعلام الموقعين عن رب العالمين" (١/ ٧). وقوله:"زوامل الإسلام": (الزاملة) مؤنث الزامل وَمَا يحمل عَلَيْهِ من الْإِبِل وَغَيرهَا (ج) زوامل، وتسند إِلَى الْعُقَلَاء فَيُقَال: هُوَ زاملة من زوامل الْقَلَم، والدواة، أَو الشّعْر، والنثر على التَّشْبِيه فِي التَّحَمُّل، أَو عدم الدِّرَايَة. "المعجم الوسيط" (١/ ٤٠١).

البيت رقم ٨ و ٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا ... وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا
وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجاً ... وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا عَرِيتَا

شرح البيت رقم ٨ و ٩

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يَجْلُو" أَيْ: يُصَفِّي، وَيُنَقِّي، وَيُهَذِّبُ، وَيُنَظِّفُ.

"مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا"، أَيْ الْغِشَاءُ الَّذِي يَحْجُبُهَا عَنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ، وَمَعْرِفَتِهِ.

فَهَذَا الْعِلْمُ يُزِيلُ الْحَائِلَ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْحَقِّ، وَيَنْزِعُ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، فَتَعْرِفُ الْحَقَّ، وَتَأْخُذُ بِهِ، وَتَعْرِفُ فَضْلَهُ، وَأَهَمِّيَّتَهُ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعِلْمِ.

فهو يرفعُ عنك الغطاء، ويزيح الظلمات، والعوائق، فَيَكُونُ بَصَرُهُ ثَاقِبًا، وبصيرته مضيئة. وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الأعراف: ٢٠١ يَتَذَكَّرُ فَيُبْصِرُ فَلَا يَكُونُ هُنَاكَ حَائِلٌ.

وَإِذَا حَصَلَ شَيْءٌ أَفَاقَ، وَتَذَكَّرَ، وَزَالَ ذَلِكَ الْحَائِلُ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ الْعِلْمِ الذي أثمر التقوى.

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، يُفَرِّقُ بِهِ الْعَبْدُ بَيْنَ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ.

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمِنْ الْفُرْقَانِ النُّورُ الَّذِي يُفَرِّقُ بِهِ الْعَبْدُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَكُلَّمَا كَانَ قَلْبُهُ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ كَانَ فُرْقَانُهُ أَتَمَّ. (١)

---

(١) "إعلام الموقعين" (٤/ ١٩٩).

"وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا". الْعِلْمُ هُوَ هِدَايَةُ الطَّرِيقِ، هِدَايَةٌ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِيَعْبُرَهُ بِسَلَامٍ. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ).(١) فَهُوَ طَرِيقٌ إِلَى جَنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ أَمَانٌ مِنَ الضَّلَالِ. وفي الحديث «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ».(٢) فَالْعِلْمُ شَرَفُهُ عَظِيمٌ، وَفَائِدَتُهُ جَلِيلَةٌ، وَهُوَ يَذْهَبُ عَنِ الْقُلُوبِ وَالْعُيُونِ وَعَنِ الْأَسْمَاعِ الْغِشَاوَةَ، وَيَهْدِي إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَهُوَ نُورٌ يُضِيءُ لَكَ الطَّرِيقَ. ويهديك من الضلالة، ويقودك إلى الخير.

❁ قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ عند قولهِ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٨٠: ومن فوائد الآية: فضيلة العلم، وأن العلم يهدي صاحبه إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣)

❁ قال بعضهم:

وَالْعِلْمُ يَجْلُو الْعَمَى عَنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ ... كَمَا يُجَلِّي سَوَادَ الظُّلْمَةِ الْقَمَرُ
الْعِلْمُ فِيهِ حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ كَمَا ... تَحْيَا الْبِلَادُ إِذَا مَا مَسَّهَا الْمَطَرُ(٤)

---

(١) رواه "مسلم"(٢٦٦٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه "مسلم"(١٢١٣)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) "تفسير الفاتحة والبقرة"(٣/٣٩٣).

(٤) الأبيات لسابق البربري، كما في "تاريخ دمشق"(٢٠/١١)،"جامع بيان العلم" (٢١٥)، وفي "تاريخ دمشق"، (٥١/١٤٨)، لأبي حمزة الأنصاري، والبيت الثاني له:

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهله ... ولا البصير كأعمى ما له بصر

قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجاً" النَّادِي هُوَ: الْمَكَانُ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ النَّاسُ، فَيَكُونُ الْعِلْمُ لَكَ كَالتَّاجِ مُلَازِمًا لَكَ فَتَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ بَقِيَّةِ النَّاسِ.

"وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا عَرِيتَا"، أَيْ: الْعِلْمُ يُكْسِبُ صَاحِبَهُ الْجَمَالَ إِذَا أُصِيبَ بِالْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ أَوْ تَمَزَّقَتْ بَعْضُ ثِيَابِهِ، فَالْعِلْمُ هُوَ جَمَالُهُ، وَالْعِلْمُ هُوَ كِسَاؤُهُ.

❁ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

لَيْسَ الْجَمَالُ بِمِئْزَرٍ فَاعْلَمْ وَإِنْ رُدِّيتَ بُرْدَا
إِنَّ الْجَمَالَ مَعَادِنٌ وَمَنَاقِبٌ أَوْرَثْنَ مَجْداً[1]

الْجَمَالُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ جَمَالُ الْمَنَاقِبِ، جَمَالُ الْفَضَائِلِ، التَّجَمُّلُ بِالْعِلْمِ وَبِالتَّقْوَى.

❁ وقال آخر:[2]

إذا المرءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيابًا مِن التُّقَى تَقَلَّبَ عُريانا وإنْ كَانَ كاسِيَا
وخَيرُ خِصَالِ المرءِ طَاعَةُ رَبِّهِ ولا خَيرَ فيمَنْ كَانَ للهِ عَاصِيَا

❁ وقال النابغة:[3]

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالَا

---

(١) القائل هو عمرو بن معد يكرب كما في "عيون الأخبار (١/ ٤١٨) للدينوري. وعنده (وموارث) بدل(مناقب).

(٢) "لطائف المعارف" (ص:١١٢).

(٣) "تفسير الطبري"(٥/ ٤٨٠)، وقيل: القائل هو: لبيد بن ربيعَة العامري وقال ابن عبد البر: "الاستيعاب "(٣/ ١٣٣٥): وقد قَالَ أكثر أهل الأخبار: إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم. وقال بعضهم: لم يقل في الإسلام إلا قوله: فذكر هذا البيت، وقد قيل: إن هَذَا البيت لقردة بْن نفاثة السلولي، وَهُوَ أصح عندي.

البيت رقم ١٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَـنَـالُـكَ نَـفْـعُـهُ مَـا دُمْـتَ حَـيـاً وَيَـبْـقَـى ذِكْـرُهُ لَـكَ إِنْ ذَهَـبْـتَـا

شرح البيت رقم ١٠

قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**ينالُكَ نَفْعُهُ ما دُمْتَ حَيّاً**"، أَيْ نَفع العِلْمِ. تنتفعُ بالعلمِ مدةَ حياتِكَ وبعد مماتِكَ فليسَ نفعُ العلمِ مقصوراً على حياتِكَ فقط بلْ وبعد موتِك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ". (١)

❁ قالَ النَوَوِيُّ – رَحِمَهُ ٱللَّهُ –:قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ عَمَلَ الْمَيِّتِ يَنْقَطِعُ بِمَوْتِهِ وَيَنْقَطِعُ تَجَدُّدُ الْثوَابِ لَهُ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ؛ لِكَوْنِهِ كَانَ سَبَبَهَا فَإِنَّ الْوَلَدَ مِنْ كَسْبِهِ، وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ الَّذِي خَلَّفَهُ مِنْ تَعْلِيمٍ، أَوْ تَصْنِيفٍ، وَكَذَلِكَ الصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ وَهِيَ الْوَقْفُ...وَبَيَانُ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ، وَالْحَثُّ عَلَى الِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ وَالتَّرْغِيبُ فِي تَوْرِيثِهِ بِالتَّعْلِيمِ، وَالتَّصْنِيفِ، وَالْإِيضَاحِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَارَ مِنَ الْعُلُومِ الْأَنْفَعَ فَالْأَنْفَعَ. (٢)

❁ قال عيسى بن علي الوزير: (٣)

رُبَّ مَيِّتٍ قَدْ صَـارَ بِـالْعِلْمِ حَيًّا وَمُـبَـقًّى قَـدْ مَـاتَ جَـهْـلًا وَغَـيًّا

---

(١) رواه "مسلم" رقم:(١٦٣١).

(٢) "شرح مسلم" عند حديث رقم:(١٦٣١).

(٣) "تاريخ بغداد"(١٢/٥١٥)، و"البداية والنهاية"(١١/٣٣٠) دار الفكر، وغيرهم. وعند البعض حاز بدل مات، وشيئا بدل شيا.

فَاقْتَنُوا الْعِلْمَ كَيْ تَنَالُوا خُلُودًا لَا تَعُدُّوا الْحَيَاةَ فِي الْجَهْلِ شَيًّا

فَنَفْعُ العِلْمِ فِي حالِ الحَياةِ وَبَعْدَ المَماتِ، وَيَبْقَى ذِكْرُ صاحِبِ العِلْمِ بَعْدَ مَماتِهِ.

فَكَمْ يُقولُ أهلُ العلمِ بل وغيرهم من الناس: قالَ الإمامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

قالَ الإمامُ الشافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قالَ الإمامُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قالَ النَوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

قالَ شَيْخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قالَ الإمامُ الأَلْبانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قالَ العُثَيْمِينُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

قالَ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قالَ الوادِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وَهَكَذا، ماتُوا وَما ماتَ ذِكْرُهُمْ وَلَمْ تَمُتْ عُلُومُهُمْ وَأَخْبارُهم، هَذا مِنْ فَضْلِ العِلْمِ وَمِنْ شَرَفِهِ.

❁ وكما قيل: (١)

مَا الْفَخْرُ إِلا لأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ عَلَى الْهُدَى لِمَنْ اسْتَهْدَى أدلاءُ

وَقِيمَةُ الْمَرْءِ مَا قَدْ كَانَ يُحْسِنُهُ والْجَاهِلُونَ لأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ

فَعِشْ بِعِلْمٍ تَفُزْ حَيًّا بِهِ أَبَدًا النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

❁ وَقالَ ابنُ الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَرَّ الْحَسَنُ بِهِ ـ يعني بأبي عمرو بن العلاء ـ وَحَلْقَتُهُ مُتَوَافِرَةٌ وَالنَّاسُ عُكُوفٌ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَقَدْ كَادَ الْعُلَمَاءُ أَنْ يَكُونُوا أَرْبَابًا، كُلُّ عِزٍّ لَمْ يُوَطَّدْ بِعِلْمٍ فَإِلَى ذُلٍّ يَئُولُ. (٢)

---

(١) هذه الأبيات تُعزى لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما في "تفسير القرطبي "(٣٤٢/١٦) ل "سورة الحجرات"، و"جامع بيان العلم وفضله"(٢١٨/١). دار ابن الجوزي. وقال الخطيب البغدادي: ... وَنَظَمَ هَذَا الْكَلَامَ فِي أَبْيَاتٍ تُعْزَى إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ ذَلِكَ. "الفقيه والمتفقه"(٢/ ١٥٠)، ونسبها بعضهم للشافعي كما في "نظم الدرر" للبقاعي (١٢٧/٦)، و "السراج المنير" للشربيني (٣٧٢/١).

(٢) "النشر في القراءات العشر"(١٣٤/١)، وفي "غاية النهاية في طبقات القراء"(٢٩١/١). قال وروينا عن الأخفش قال: مر الحسن بأبي عمرو ... فذكره.

❁ قَالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كُلُّ عِزٍّ لَمْ يُؤَيَّدْ بِعِلْمٍ؛ فَإِلَى ذُلٍّ مَا يَصِيرُ.(١)

فَبِالعِلْمِ يَكُونُ الشَرَفُ وَالعِزُّ، وَبِالعِلْمِ تَكُونُ حَياةُ الأَبْدانِ وَالأَرْواحِ.

❁ قال أحمد بن غزال:(٢)

الْأَرْضُ تحيَا إِذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا ... مَتَى يمُتْ عَالم مِنْهَا يمُت طَرَفُ

كَالْأَرْضِ تحْيَا إِذَا مَا الْغَيْثُ حَل بِهَا ... وَإِنْ أَبَى عَاد فِي أكنافهَا التَّلَفُ

أهلُ العِلْمِ حَياةُ العِبادِ وَالبِلادِ، وَبِذَهابِهِمْ ذَهابٌ لِلْخَيْراتِ.

❁ فعنْ هِلَالِ بْنِ خَبَّابٍ، قَالَ: سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ مَا عَلَامَةُ هَلَاكِ النَّاسِ؟ قَالَ: "إِذَا هَلَكَ عُلَمَاؤُهُمْ".(٣)

---

(١) أخرجه الدينوري في "المجالسة وجواهر العلم" (١٩٠١) قال: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْحَرْبِيُّ، نا أَبُو نَصْرٍ، عَنِ الأَصْمَعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: قَالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، فذكره، وفيه والد الأصمعي قُريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع. قال الأزدي: منكر الحديث. كما في "لسان الميزان" (٤/ ٤٧٣). وفي "جامع بيان العلم"(٣٠٩). غير مسند، بلفظ: كاد العلماء...الخ. وهو كذلك في المجالسة، ولا يثبت، وأيضاً الدينوري، فيه ضعف.

(٢) "تاريخ دمشق"(٣٧/٢٥٦). وعزاه بعضهم للشافعي كما في "نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف" (صـ:٣٩) لأبي حامد الشافعي.

(٣) إسناده حسن "أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" برقم (٣٧٢٠٦)، والدارمي في "سننه" برقم (٢٤٧)، من طريق ثابت بن يزيد قال: حدثنا هلال بن خباب ...وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٤/٢٧٦)، والبيهقي في "الشعب" برقم (١٥٤٢)، من طريق عباد بن العوام عن هلال بن خباب، وابن وضاح في "البدع" صـ (١٩٧)، من طريق عون بن موسى عن هلال، وغيرهم من طرق أيضاً عن هلال بن خباب، فمداره عليه وهلال، قال يحيى بن سعيد القطان: أتيت هلال بن خباب، وكان قد تغير قبل موته. وقال إبراهيم بن الجنيد: سألت بن معين، عن هلال بن خباب، وقلت: إن يحيى القطان يزعم أنه تغير قبل أن يموت، واختلط. فقال يحيى: لا ما اختلط ولا تغير. قلت: ليحيى فثقة هو؟ قال: ثقة مأمون. "تهذيب التهذيب" (١١/ ٧٨)، وقال ابن عدي: وأرجو أنه لا بأس به. "الكامل"(٨/ ٤٣٠).

❁ وَرُوِيَ عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّهُ قالَ: كَانُوا يَقُولُونَ: «مَوْتُ الْعَالِمِ ثُلْمَةٌ فِي الْإِسْلَامِ لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ».(١)

❁ قال الزُّهْرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ عُلَمَائِنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ، وَالْعِلْمُ يُقْبَضُ قَبْضًا سَرِيعًا، فَنَعْشُ الْعِلْمِ ثَبَاتُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَفِي ذَهَابِ الْعِلْمِ ذَهَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ.(٢)

❁ وجاء عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ: شَهِدْتُ جَنَازَةَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فَلَمَّا دُلِّيَ فِي قَبْرِهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «يَا هَؤُلَاءِ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَعْلَمَ كَيْفَ ذَهَابُ الْعِلْمِ فَهَكَذَا ذَهَابُ الْعِلْمِ، وَايْمُ اللهِ لَقَدْ ذَهَبَ الْيَوْمَ عِلْمٌ كَثِيرٌ»، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: «وَالْقَائِلُ لَقَدْ ذَهَبَ بِهِ عِلْمٌ كَثِيرٌ يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ.(٣)

---

(١) صحيح، عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرجه "الدارمي" برقم: (٣٣٣)، وأحمد في "الزهد" برقم (١٤٧٣)، من طريق هشام بن حسان عنه. وجاء عند البيهقي في "الشعب" برقم (١٥٩٠)، والثعلبي في "تفسيره لسورة الرعد" من طريق هشام بن حسان عن الحسن قال: قال ابن مسعود فذكره، والحسن لم يسمع منه. وجاء عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو معضل كما في "المقاصد الحسنة" للسخاوي. برقم: (٧٩).

وجاء مرفوعاً عن عائشة، وابن عمر، وجابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. وهو موضوعٌ كما في "ضعيف الجامع" برقم (٥٨٩٤). و"الضعيفة" برقم (٤٦٦٨)، وجاء عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً، بلفظ:(موت العالم مصيبة لا تجبر، وثلمة لا تسد، ونجم طمس، موت قبيلة أيسر من موت عالم). قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ضعيف جداً. "الضعيفة" برقم: (٤٨٣٨).

(٢) صحيح، أخرجه الدارمي (٩٧)، والبيهقي في "المدخل"(٨٦٠)، وابن المبارك في "الزهد" (٨١٧)، وغيرهم.

(٣) صحيح بطرقه. أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير"(٤٧٥١)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة"(٢٩٠٥)، ومن طريقها ابن عساكر في "تاريخ دمشق (١٩/ ٣٣٤)، وغيرهم.

عَنْ مِرْدَاسٍ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ، الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ، أَوِ التَّمْرِ، لاَ يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بَالَةً»

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «يُقَالُ حُفَالَةٌ وَحُثَالَةٌ.(١)

فَالعِلْمُ بِهِ السَّعادَةُ، وَمَعْرِفَةُ الحَلالِ وَالحَرامِ، وَهُوَ طَرِيقُ النَّجاةِ وَالسَّلامَةِ.

❁ قالَ بَعْضُهُمْ: (٢)

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ شَرِيفٌ ... وَإِنْ وَلَدَتْهُ آبَاءٌ لِئَامُ
وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ ... يُعَظِّمَ قَدْرَهُ الْقَوْمُ الْكِرَامُ
وَيَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ ... كَرَاعِ الضَّأْنِ تَتْبَعُهُ السَّوَامُ
وَيُحْمَلُ قَوْلُهُ فِي كُلِّ أُفْقٍ ... وَمَنْ يَكُنْ عَالِمًا فَهُوَ الْإِمَامُ
فَلَوْلَا الْعِلْمُ مَا سَعِدَتْ نُفُوسٌ ... وَلَا عُرِفَ الْحَلَالُ وَلَا الْحَرَامُ
فَبِالْعِلْمِ النَّجَاةُ مِنَ الْمَخَازِي ... وَبِالْجَهْلِ الْمَذَلَّةُ وَالرَّغَامُ
هُوَ الْهَادِي الدَّلِيلُ إِلَى الْمَعَالِي ... وَمِصْبَاحٌ يُضِيءُ بِهِ الظَّلَامُ

وَأَهْلُ العِلْمِ هُمْ نُجومٌ فِي الأَرْضِ، يَسْتَضِيءُ بِهِمُ النّاسُ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ عِلْمِهِمْ.

❁ قالَ عَمْرُو بنُ الحارِثِ رَحِمَهُ اللَّهُ: الشَّرَفُ شَرَفانِ: شَرَفُ العِلْمِ وَشَرَفُ السُّلْطانِ.

وَشَرَفُ العِلْمِ أَشْرَفُهُما، بَلْ لا يَعْدِلُهُ شَرَفُ السُّلْطانِ. (٣)

---

(١) رواه "البخاري "برقم:(٦٤٣٤).

(٢) "جامع بيان العلم وفضله"(١/ ٢٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الإشراف في منازل الأشراف" برقم:(٤٥٥)، ومن طريقه المزي في "تهذيب الكمال"(٢١/٥٧٦)، ومن طريقه أيضاً ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٥/٤٦٢). من طريق أَبِي زَيْدٍ النُّمَيْرِيُّ، قَالَ: قَالَ لِي مُحَمَّدُ بْنُ مَنْصُورٍ: قَالَ لِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ: فذكره، وفيه محمد بن منصور، لا يعرف بجرح ولا تعديل.

❁ قَالَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يَقُولُ لِرَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ: «وَيْحَكُمُ اطْلُبُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ الْعِلْمُ مِنْ عِنْدِكُمْ فَيَصِيرَ إِلَى غَيْرِكُمْ فَتَذِلُّوا، اطْلُبُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّهُ شَرَفٌ فِي الدُّنْيَا وَشَرَفٌ فِي الْآخِرَةِ»(١)

❁ قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنَ أَبِي جَعْفَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْعُلَمَاءُ مَنَارُ الْبِلَادِ مِنْهُمْ يُقْتَبَسُ النُّورُ الَّذِي يُهْتَدَى بِهِ».(٢) وَقَالَ ميمونُ بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ مَثَلَ الْعَالِمِ فِي الْبَلَدِ كَمَثَلِ عَيْنٍ عَذْبَةٍ فِي الْبَلَدِ».(٣) وَقَالُوا: الْعُلَمَاءُ فِي الْأَرْضِ كَالنُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، وَالْعُلَمَاءُ أَعْلَامُ الْإِسْلَامِ، وَالْعَالِمُ كَالسِّرَاجِ مَنْ مَرَّ بِهِ اقْتَبَسَ مِنْهُ وَلَوْلَا الْعِلْمُ كَانَ النَّاسُ كَالْبَهَائِمِ.(٤)

❁ قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَوله: موت الْعَالم مُصِيبَة لا تجبر وثلمة لَا تسد وَنجم طمس وَمَوْت قَبيلَة أيسر من موت عَالم لما كَانَ صَلَاح الْوُجُود بالعلماء، ولولاهم كَانَ النَّاس كَالْبَهَائِمِ بل أَسْوَأ حَالا كَانَ موت الْعَالم مُصِيبَة لَا يجبرها إلا خلف غَيره لَهُ، وأيضاً فَإِن الْعلمَاء هم الَّذين يسوسون الْعباد والبلاد والممالك فموتهم فَسَاد لنظام الْعَالم وَلِهَذَا لَا يزَال الله يغْرس فِي هَذَا الدّين مِنْهُم خالفا عَن سالف يحفظ بهم دينه وَكتابه وعباده وَتَأمل إِذا كَانَ فِي الْوُجُود رجل قد فاق الْعَالم فِي الْغنى وَالْكَرم وحاجتهم إِلَى مَا عِنْده شَدِيدَة وَهُوَ محسن إِلَيْهِم بِكُل مُمكن ثمَّ مَاتَ وانقطعت عَنْهُم تِلْكَ الْمَادَّة فموت الْعَالم أعظم مُصِيبَة من موت مثل هَذَا بِكَثِير وَمثل هَذَا يَمُوت بِمَوْتِهِ أُمَم وخلائق كَمَا قيل:

تعلم ما الرَّزِيّةُ فَقْدُ مالٍ ... ولا شاةٌ تموتُ ولا بعيرُ
ولكنَّ الرَّزيّةَ فقدُ حُرٍ ... يموتُ بموتِه بَشَرٌ كثيرُ

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في "جامه بيان العلم" (٢٧٤). بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٢٤٣). بسند صحيح.
(٣) "جامه بيان العلم" (٢٥٦). بسند صحيح.
(٤) "جامع بيان العلم" (٣١٤).

❁ وَقَالَ آخر:

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا[١]

❁ عَنْ قَيْسِ بْنِ كَثِيرٍ، قَالَ: قَدِمَ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ بِدِمَشْقَ، فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكَ، أَيْ أَخِي؟ قَالَ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِحَاجَةٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: مَا قَدِمْتُ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرِثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ، أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».[٢]

❁ قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: قيل: أما تَشْبِيه الْعلمَاء بالنجوم فَإِن النُّجُوم يهتدى بهَا فِي ظلمات الْبر، وَالْبَحْر وَكَذَلِكَ الْعلمَاء، والنجوم زِينَة للسماء فَكَذَلِك الْعلمَاء زِينَة للأرض وَهِي رجوم للشياطين حائلة بَينهم وَبَين استراق السّمع؛ لِئَلَّا يلبسوا بِمَا يسترقونه من الْوَحْي الْوَارِد الى الرُّسُل من الله على أيدي مَلَائِكَته وَكَذَلِكَ الْعلمَاء رجوم لشياطين الانس وَالْجِنّ الَّذِي يُوحى بَعضهم الى بعض زخرف القَوْل غرُورًا، فَالْعُلَمَاء رجوم لهَذَا الصِّنْف من الشَّيَاطِين؛ ولولاهم لطمست معالم الدّين بتلبيس المضلين، وَلَكِن الله سُبْحَانَهُ أقامهم حراسا وَحفظه لدينِهِ ورجوما لأعدائه وأعداء رسله فَهَذَا وَجه تشبيههم بالنجوم.[٣]

---

(١) " مفتاح دار السعادة"(١/ ٦٨).

(٢) رواه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيح الجامع" (٦٢٩٧).

(٣) "مفتاح دار السعادة" (١/ ٦٥).

البيت رقم ١١و١٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو ... تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ ضَرَبتا
وَكَنْزٌ لاَ تَخَافُ عَلَيْهِ لِصّاً ... خَفِيفَ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنتَا

شرح البيت رقم ١١ و١٢

"العَضْبُ الْمُهَنَّدُ" هُوَ: السَّيْفُ القَوِيُّ الَّذِي لا يَضْعُفُ وَلا يُخْطِئُ الإِصابَة.

❁ قال الخليل: العَضْبُ: السيف القاطع.(١) و (الْمُهَنَّدُ) السَّيْفُ الْمَطْبُوعُ مِنْ حَدِيدِ (الْهِنْدِ).(٢) ليس يَنْبُو: لا يَتَعَثَّرُ، لا يَضْعُفُ، لا يُخْطِئُ الإِصابَةَ.

تُصِيبُ بِهِ مَقاتِلَ مَنْ أَرَدْتَ. العِلْمُ هُوَ: دَواءٌ لِلْجاهِلِينَ، وَهُوَ سَيْفٌ عَلَى الْمُبْطِلِينَ ونورٌ للمتقين، ورفعةٌ للطالبين له العاملين به.

❁ قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نُونيتِهِ:

وَاكْحُلْ جُفُونَ القَلْبِ بالوَحْيَيْنِ ... وَاحْذَرْ كُحْلَهُمْ يَا كَثْرَةَ العُمْيَانِ
فَاللهِ بَيَّنَ فِيهَا طُرْقَ الهُدَى ... لِعِبَادِهِ فِي أَحْسَنِ التِّبْيَانِ
لَمْ يُخْرِجْ اللهُ الخَلائِقَ مَعْهُمَا ... لِخَيَالِ فَلْتَانٍ وَرَأْيِ فُلانِ
فَالوَحْيُ كَافٍ لِلَّذِي يَعْنِي بِهِ ... شَافٍ لِدَاءِ جَهَالَةِ الإِنْسَانِ
وَتَفَاوُتُ العُلَمَاءِ فِي أَفْهَامِهِم ... لَوَحْيِ فَوْقَ تَفَاوُتُ الأَبْدَانِ
وَالجَهْلُ دَاء قَاتِل وَشِفَاؤُه ... أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ
نَصٌّ مِنَ القُرآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ ... وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِمُ الرَّبَانِي

---

(١) "العين" (١/ ٢٨٣).

(٢) "مختار الصحاح" (صـ: ٣٢٨).

"تُصِيبُ بِهِ مَقاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا" المَقاتِلُ المُرادُ بِها: المَواضِعُ الَّتِي بِها مَقْتَلُ الإِنْسانِ، الأَعْضاءُ الَّتِي فِيها مَقْتَلُ الإِنْسانِ. يُقالُ: مَقاتِلُ الأَعْضاءِ الَّتِي فِيها مَقْتَلُ الإِنْسانِ. إِذا أُصِيبَ بِها لا يَتَحَمَّلُها، رُبَّما يَمُوتُ مُباشَرَةً.

❁ قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومَقاتِلُ الإنسانِ: المواضع التي إذا أصيبت قتلته. يقال: "مقتل الرجل بين فكيه". (١)

فَالعِلْمُ هُوَ يَقْتُلُ الباطِلَ وَأَهْلَهُ. وَهَذا مِنْ فَضْلِ العِلْمِ وَشَرَفِهِ، فَهُوَ حُجَّةٌ قاهِرَةٌ وَبَيِّنَةٌ ظاهِرَةٌ.

"وَكَنْزٌ لا تَخافُ عَلَيْهِ لِصّاً". فَالعِلْمُ كَنْزٌ، وَلَكِنْ لا كَكَنْزِ الدُّنْيا، كَنْزٌ ثَمِينٌ، كَنْزٌ لا يَبْلى، كَنْزٌ خَفِيفٌ وَلَيْسَ بِثَقِيلٍ. هُوَ كَنْزٌ فِي الصُّدُورِ وَالقُلُوبِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ العنكبوت: ٤٩

فَالعِلْمُ عِلْمُ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ كَنْزٌ فِي الصُّدُورِ، وَالقُلُوبِ، فَلا تَخافُ عَلَيْهِ اللُّصُوصُ؛ لأنه محفوظ في الصدور. وكما قيل: (٢)

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ ... وَالْحِفْظِ وَالْإِتْقَانِ وَالتَّفَهُّمِ
وَالْعِلْمُ قَدْ يُرْزَقُهُ الصَّغِيرُ ... فِي سِنِّهِ وَيُحْرَمُ الْكَبِيرُ

وعن عَمْرو بنِ أَخْطَبَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا

---

(١) "الصحاح" (٥/ ١٧٩٧).

(٢) "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٥٨٢).

كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ»، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا.(١) وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ العِلْمُ عندك هُوَ الذي في السُّطُورِ في الوَرَقِ، بَلْ لا بُدَّ أَنْ يَحْفَظَ الإِنْسانُ مِنْهُ ما يَسْتَطِيعُ.

❁ كَما قالَ بَعْضُهُمْ:

اسْتَوْدَعَ الْعِلْمَ قِرْطَاسًا فَضَيَّعَهُ وَبِئْسَ مُسْتَوْدَعُ الْعِلْمِ الْقَرَاطِيسُ

فسمعه يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «قَاتَلَهُ اللَّهُ مَا أَشَدَّ صِيَانَتَهُ لِلْعِلْمِ وَصِيَانَتَهُ لِلْحِفْظِ، إِنَّ عِلْمَكَ مِنْ رُوحِكَ، وَإِنَّ مَالَكَ مِنْ بَدَنِكَ، فَصُنْ عِلْمَكَ صِيَانَتَكَ رُوحَكَ، وَصُنْ مَالَكَ صِيَانَتَكَ بَدَنَكَ».(٢)

❁ ومما ينسب إلى منصور الفَقِيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال:(٣)

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ أَحْمِلُهُ بَطْنِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنَ صُنْدُوقِ

إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ

❁ قَالَ ثَعْلَبٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ عَالِمًا فَاكْسَرِ الْقَلَمَ.(٤)

❁ وَكَانَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمد، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يَقُولُ: الاحْتِفَاظُ بِمَا فِي صَدْرِكَ أَوْلَى مِنْ دَرْسِ مَا فِي كِتَابِكَ.

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اجْعَلْ مَا فِي كِتَابِكَ رَأْسَ الْمَالِ، وَمَا فِي صَدْرِكَ لِلنَّفَقَةِ.(٥)

---

(١) رواه "مسلم" برقم (٢٨٩٢).

(٢) "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٢٩٥)، فيه ابن دريد، وهو محمد بن الحسن أبو بكر الأزدي، قال الدارقطني: تكلموا فيه. "تاريخ بغداد" (٢/ ١٩٣).

(٣) "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٢٩٥).

(٤) "فتح المغيث بشرح ألفية الحديث" (٣/ ٤١).

(٥) كما في "الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه" (صـ: ٧٠)، لأبي هلال العسكري.

❁ ذَكَرُوا عَنْ اِبْنِ حَزْمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه قال واصفاً ما أحرقَ المُعتضدُ بنُ عبَّاد له من الكُتُب:(١)

فَإِنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاسَ لاَ تَحْرِقُوا الذي ... تَضَمَّنَهُ القِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيْرُ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبِي ... وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزِلْ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي
دَعُوْنِيَ مِنْ إِحْرَاقِ رقٍّ وكاغدٍ ... وَقُولُوا بِعِلْمٍ كِي يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي
وَإِلاَّ فَعُوْدُوا فِي المَكَاتِبِ بَدْأَةً ... فَكَمْ دُوْنَ مَا تَبْغُونَ للهِ مِنْ سِتْرِ
كَذَاكَ النَّصَارَى يَحْرِقُوْنَ إِذَا عَلَتْ ... أَكُفُّهم القُرْآنَ فِي مُدُنِ الثَّغْرِ

❁ قَالَ الْخَلِيلُ: اجْعَلْ مَا فِي الدَّفْتَرِ رَأْسَ مَالِكَ، وَمَا فِي قَلْبِكَ لِلنَّفَقَةِ، وَأَنْشَدَ: (٢)

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَى الْقِمْطَرُ ... مَا الْعِلْمُ إِلا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ

❁ وقال عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ الصَّيْرَفِيُّ: (٣)

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَى الْقِمَطْرُ ... مَا الْعِلْمُ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ
فَذَاكَ فِيهِ شَرَفٌ وَفَخْرُ ... وَزِينَةٌ جَلِيلَةٌ وَقَدْرُ

---

(١) "معجم الأدباء"(٤/١٦٥٧)، و "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" (١/١٧١)، ما عدا البيت الأخير، وفي "سير أعلام النبلاء"(١٨/٢٠٥)، كاملة. و"الكاغد": في تكملة المعاجم العربية (٦/ ٤٣٩) "كاغد الصرف": نوع من الورق ذكره ابن البيطار (١: ١٢٨).

(٢) كما في "أحاديث السلفي عن جعفر السراج "(صـ: ٢)، وغيره.

(٣) كما في "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع"(٢/ ٢٥١)، وغيره. والقِمَطْرُ، والقِمْطَرَةُ: مَا تُصان فِيهِ الْكُتُبُ. "لسان العرب" (٥/ ١١٧).

البيت ١٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَـزِيـدُ بِـكَـثْـرَةِ الإِنْـفَـاقِ مِـنْـهُ وَيَـنْـقُـصُ إِنْ بِـهِ كَـفّـاً شَـــدَدْتَـا

شرح البيت رقم ١٣

لا بُدَّ مِنْ نَشْرِ العِلْمِ وَبَثِّهِ، وَإِخْراجِهِ لِلناسِ وبذلك يزداد، وَأَنَّهُ بِكَتْمِهِ يَنْقُصُ.

❁ قالَ اِبْنُ الْمُبارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَا أَعْلَمُ بَعْدَ النُّبُوَّةِ دَرَجَةً أَفْضَلَ مِنْ بَثِّ الْعِلْمِ. (١)

وَقَدْ حَذَّرَ اللهُ مِنْ كِتْمانِهِ فَقالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ البقرة: ١٥٩

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (٢)

---

(١) رواه البيهقي في "شعب الإيمان"(صـ:١٦٢٦)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق"(٤٥٦/٣٢)، والخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد"(٣٨٨/١١)، والأثر محتمل للتحسين من أجل الفتح بن شخرف.

قال الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان قليل المسانيد كثير الحكايات، وقَالَ الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أخرجت خراسان مثل فتح بْن شخرف. "تاريخ بغداد"(١٢/ ٣٨٢).

(٢) رواه أبوداود (٣٦٥٨)، وأحمد (٨٥٣٣)، وغيرهم وهو في "الصحيح المسند" للإمام الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٦٤)، وفي "صحيح الجامع الصغير" للإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٢٨٤). وقد جاء هذا الحديث عن أنس، عند ابن ماجه (٢٦٤)، وأبي سعيد الخدري، عند ابن ماجه (٢٦٥)، وعن ابن عباس، عن أبي يعلى في "مسنده" (: ٢٥٨٥)، وعن ابن عمر، عند الطبراني في "الأوسط" (٣٩٢١)، وعن عبد الله بن عمرو، عند الطبراني في "الأوسط" (٥٠٢٧)، والحاكم (٣٤٦)، وفي "الكبير"(٣٣)، وعن طلق بن علي، عند الطبراني في "الكبير" (٨٢٥١)، والقضاعي في "مسند الشهاب"(٤٣٣)، وعن ابن مسعود، عند الطبراني في "الكبير" (١٠٠٨٩)، وعن عمرو بن عبسه، عند الجوزي في "العلل المتناهية"(١٢٨)، من طريق ابن مردويه. وذكره أيضا عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جميعا.

❁ قالَ الشيخُ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَلِشَرَفِ العِلْمِ، فَإِنَّهُ يَزِيدُ بِكثرَةِ الإِنْفَاقِ، وَيَنْقُصُ مَعَ الإِشْفَاقِ وَآفَتُهُ الكِتْمَانُ.

وَلَا تَحْمِلْك دَعْوَى فَسَادِ الزَّمَانِ، وَغَلَبَةِ الفُسَّاقِ، وَضَعْفِ إِفَادَةِ النَّصِيحَةِ عَن وَاجِبِ الأَدَاءِ وَالبَلَاغِ، فَإِن فَعَلْتَ؛ فَهِيَ فَعْلَةٌ يسوقُ عَلَيْهَا الفُسَّاقُ الذَّهَبَ الأَحمَرَ، لِيَتِمَّ لَهُم الخُرُوْجُ عَلَى الفَضِيْلَةِ وَرَفعُ لِوَاءِ الرَّذِيلَةِ.ا.هـ. (١)

❁ قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَرُوِيَ عَنْ حَبِيْبِ بنِ أَبِي ثَابِتٍ: قَالَ لِي سَعِيْدُ بنُ جُبَيْرٍ: لأَنْ أَنْشُرَ عِلْمِي، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى قَبْرِي. (٢)

فمن نشر العلم تعليمه للناس

❁ قال ابنُ جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن الطالب الصالح أعود على العالم بخير الدنيا والآخرة من أعز الناس عليه وأقرب أهله إليه.

ولذلك كان علماءُ السلفِ الناصحون للهِ ودينِهِ يلقون شبك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع الناس به في حياتهم، ومن بعدهم، ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينتفع الناس بعلمه، وعمله، وهديه، وإرشاده لكفاه ذلك الطالب عند الله تعالى، فإنه لا يتصل شيء من علمه إلى أحد فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"(٣) **وأنا أقول:** إذا نظرت

---

(١) "حلية طالب العلم"(صـ:١٩٢). دار العاصمة.

(٢) "سير أعلام النبلاء" ط الحديث (٥/ ١٨٩).

(٣) رواه "مسلم"(١٦٣١)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وجدت معاني الثلاثة موجودة في معلم العلم؛ أما الصدقة فاقراؤُهُ إياه العلم وإفادته إياه، ألا ترى إلى قوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - في المصلي وحده: مَنْ يَتَصَدَّقُ عَلَى هَذَا[١]، أي بالصلاة معه لتحصل له فضيلة الجماعة، ومعلم العلم يحصل للطالب فضيلة العلم التي هي أفضل من صلاة في جماعة، وينال بها شرف الدنيا والآخرة، وأما العلم المنتفع به فظاهر؛ لأنه كان سببًا لإيصال ذلك العلم إلى كل من انتفع به.

وأما الدعاء الصالح له، فالمعتاد المستقرأ على السنة أهل العلم، والحديث قاطبة من الدعاء لمشايخهم، وأئمتهم، وبعض أهل العلم يدعون لكل من يذكر عنه شيء من العلم، وربما يقرأُ بعضُهم الحديث بسنده فيدعو لجميع رجال السند **فسبحان من اختص من شاء من عباده بما شاء من جزيل عطائه.** [٢]

❁ قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: هَذِهِ الثَّلَاثُ لَا تَجْتَمِعُ إِلَّا لِلْعَالِمِ البَاذِلِ لِعِلْمِهِ، فَبذلُهُ صَدَقَةٌ، يَنْتَفِعُ بِهَا، وَالمُتَلَقِّي لَهَا ابْنٌ لِلْعَالِمِ فِي تَعلُّمِهِ عَلَيْهِ. **فَاحْرِصْ عَلَى هَذِهِ الحِلْيَةِ فَهِيَ رَأْس ثَمرَةِ عِلْمِكَ.** [٣]

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكره لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدم: وَهَذَا من أعظم الادلةِ على شرفِ الْعلم وفضلهِ وَعظم ثَمَرَتِهِ فَإِن ثَوَابَهُ يصلُ الى الرجلِ بعد مَوتِهِ مَا دَامَ

---

(١) رواه "أحمد"(١١٤٠٨)، وأبو داود (٥٧٤)، وغيرهم، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "الإرواء"(برقم:٥٣٥)، وهو في "الصحيح المسند" للإمام الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ (صـ:٤٠٠).

(٢) "تذكرة السامع والمتكلم"(صـ: ٣٢و٣٣).

(٣) "تذكرة السامع والمتكلم"(صـ: ٣٢و٣٣).

يَنْتَفِعُ بِهِ فَكَأَنَّهُ حَيٌّ لم يَنْقَطِع عمله مَعَ مَاله من حَيَاة الذّكر وَالثنَاء فجريانُ أجْرِهِ عَلَيْهِ إِذا انْقَطع عَن النَّاس ثَوَاب اعمالهم حَيَاة ثَانِيَة.(١)

❁ قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أو علم ينتفع به) كتعليم وتصنيف. قال السبكي: والتصنيف أقوى لطول بقائه على ممر الزمان لكن شرط بعض شراح مسلم لدخول التصنيف فيه اشتماله على فوائد زائدة على ما في الكتب المتقدمة فإن لم يشتمل إلا على نقل ما فيها فهو تحبير للكاغد فلا يدخل في ذلك وكذا التدريس فإن لم يكن في الدرس زيادة تستفاد من الشيخ مزيدة على ما دونه الماضون لم يدخل. قال المنذري: ونسخ العلم النافع، له أجره، وأجر من قرأه، أو كتبه، أو عمل ما يقي خطه وناسخ ما فيه إثم: عليه وزره ووزر ما عمل به ما بقي خطه.(٢)

❁ قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: زكاة العلم تكون بأمور:

الأمر الأول: نشر العلم: نشر العلم من زكاته، فكما يتصدق الإنسان بشيء من ماله، فهذا العالم يتصدق بشيء من علمه، وصدقة العلم أبقى دومًا وأقل كلفة ومؤنة، أبقى دومًا؛ لأنه ربما كلمة من عالم تُسمع ينتفع بها أجيال من الناس وما زلنا الآن نتنفع بأحاديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ولم ننتفع بدرهم واحد من الخلفاء الذين كانوا في عهده، وكذلك العلماء نتنفع بكتبهم ومعهم زكاة وأي زكاة، وهذه الزكاة لا تنقص العلم بل تزيده كما قيل:

يزيـده بكثرة الإنفـاق منـه ... وينقص إن به كفًّا شـــددتا

---

(١) " مفتاح دار السعادة" (١/ ١٧٥).

(٢) "فيض القدير "(٤٣٧/١).

الأمر الثاني: العمل به: لأنه العمل به دعوة إليه بلا شك، وكثير من الناس يتأسون بالعالم، بأخلاقه وأعماله أكثر مما يتأسون بأقواله، وهذا لا شك زكاة.

الأمر الثالث: الصدع بالحق: وهذا من جملة نشر العلم ولكن النشر قد يكون في حال السلامة وحال الأمن على النفس وقد يكون في حال الخوف على النفس، فيكون صدعًا بالحق.

الأمر الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا شك أن هذا من زكاة العلم؛ لأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عارف للمعروف وعارف للمنكر ثم قائم بما يجب عليه من هذه المعرفة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (١)

❁ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمنْ أحبَ الا يَنْقَطِع عملُهُ بعد مَوتِهِ فلينشر الْعلم بالتدوينِ والتعليمِ. (٢)

(١) "العلم"(١٦٦).

(٢) " التذكرة في الوعظ (صـ: ٥٥).

البيت ١٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْماً ... لآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

شرح البيت رقم ١٤

العِلْمُ لَهُ حَلاوَة، وَلَهُ لَذَّةٌ، وَلَهُ طَعْمٌ لا يَعْرِفُها إِلّا مَنْ كانَ مُحِبّاً لِلعِلْمِ شَغُوفاً بِهِ. وَالعِلْمُ يَكْتَسِبُ به الإنسان الإِيمانَ، وَإِذا اِكْتَسَبَ الإِيمانَ، وَجَدَ الحَلاوَةَ، وَاللَذَّةَ، قال النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».(١) وَأَهْلُ العِلْمِ هُمْ أَسْعَدُ الناسِ بذلك، وَجَاءَ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا». (٢)

❁ قال ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقَدْ رُوِّينا أنَّ يَحْيَى بنَ مَعِينٍ - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - قيلَ لهُ في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيهِ: ما تَشْتَهِي؟ قالَ بيتٌ خالي وإسْنادٌ عالٍ.(٣) ليَتَفَرَّغَ لِلعِلْمِ، والحديث.

---

(١) رواه "البخاري" (برقم: ٦٩٤١، ٢١، ١٦)، و"مسلم (برقم:٤٣). عنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه "مسلم"(برقم :٣٤). عن الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) "مقدمة ابن الصلاح"(صـ:٣٦٣). دار الكتب العلمية.

❁ قالَ إبراهيمُ بنُ أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَا أَبَا يُوسُفَ، لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ، مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ السُّرُورِ وَالنَّعِيمِ إِذًا لَجَالَدُونَا عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ بِأَسْيَافِهِمْ أَيَّامَ الْحَيَاةِ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ وَقِلَّةِ التَّعَبِ. (١)

❁ قالَ اِبْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ يَقُولُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

❁ وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ، أَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ: مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا، قَالُوا: وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا؟ قَالَ: مَحَبَّةُ اللَّهِ، وَالْأُنْسُ بِهِ، وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ أَوْ نَحْوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ. (٢) وهذه الأشياء إنما تنال بالعِلْمِ النافع.

❁ وقالَ اِبْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَمّا عُشّاقُ العِلْمِ فَأَعْظَمَ شَغَفاً بِهِ، وَعِشْقاً لَهُ مِنْ كُلِّ عاشِقٍ بِمَعْشُوقِهِ. وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لا يَشْغَلُهُ عَنْهُ أَجْمَلُ صُورَةٍ مِنْ البَشَرِ، وقيل لامرأة الزبير بن بكار أو غيره: هنيئا لك إذ ليست لك ضرة فقالت: والله لهذه الكتب أضر عليَّ من عدة ضرائر. (٣)

---

(١) أخرجه البيهقي في "الزهد الكبير" (٨٠)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦/ ٣٠٢)، (١/ ٣٦٥)، وأبو نعيم في الحلية" (٧/ ٣٧٠)، وأخرجه الخطيب في "الزهد والرقائق" (١١٥)، وفيه سنده مجاهيل، إبراهيم بن نصر المنصوري، وإبراهيم بن بشار.

(٢) "مدارج السالكين" (١/ ٤٥٢).

(٣) "روضة المحبين ونزهة المشتاقين" (صـ: ٦٩).

لِأَنَّهُ مُشرب بِالعِلْمِ وَحُبِّ العِلْمِ، ولا تَجِدُ مُعْتَنِياً بِالعِلْمِ وَهُوَ مَشْغُوفٌ بِحُبِّ الصُوَرِ، أَوْ مَشْغُوفٌ بِحُبِّ المَناظِرِ، أَوْ مَشْغُوفٌ بِالقيل، والقال، وَالكَلامِ الفاسد، أو الفارغ.

❁ قَالَ مُحَمَّد بن الْفضل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَنْ ذاقَ حلاوةَ الْعلمِ لَا يصبر عَنهُ. (١)

❁ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَلَا رَيْبَ أَنَّ لَذَّةَ الْعِلْمِ أَعْظَمُ اللَّذَّاتِ و " اللَّذَّةُ " الَّتِي تَبْقَى بَعْدَ الْمَوْتِ، وَتَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ هِيَ لَذَّةُ الْعِلْمِ بِاَللَّهِ، وَالْعَمَلِ لَهُ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِهِ. (٢)

❁ قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والله إنك إذا ذقت لذة العلم فإنك تسمو عن كل شيء، إذا ذهبت في هذه المعاني المستنبطة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الكنز العظيم الذي خلف، تحس بالغبن أن سلفك الصالح سهرت عيونهم وتعبت أجسادهم من أجل أن يخرجوا لك هذا العلم، فقد كان الرجل منهم إذا لم يجد إلا صخرة لنقش العلم عليها حتى لا يفوت على من بعده. (٣)

❁ وقيل: أراد واحد خدمة ملك فقال الملك: اذهب وتعلم حتى تصلح لخدمتي فلما شرع في التعلم، وذاق لذة العلم، بعث الملك إليه، وقال: اترك التعلم فقد صرت أهلا لخدمتي. فقال: كنت أهلا لخدمتك حين لم ترني أهلا لخدمتك، وحين رأيتني أهلا لخدمتك رأيت نفسي أهلا لخدمة الله، وذلك لأني كنت أظن أن الباب بابك؛ لجهلي والآن علمت أن الباب باب الرب. (٤) والتعبيرُ بالخدمة غلطٌ، من تعبيرات الصوفية يسمون

---

(١) "طبقات الصوفية" للسلمي(صـ: ١٧٤).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١٤/ ١٦٢).

(٣) "شرح زاد المستقنع" للشنقيطي(١٩/ ١٧١).

(٤) "تفسير النيسابوري"(١/ ٢٢٩).

العبادة خدمة، والله تعالى غنيٌّ عن عباده، فلا يصلح مثل هذا التعبير؛ لما يحمله من معاني فاسده.

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَلَوْلَا جهل الأكثرين بحلاوة هَذِه اللَّذَّة وَعظم قدرهَا لتجالدوا عَلَيْهَا بِالسُّيُوفِ وَلَكِن حفت بحجاب من المكاره وحجبوا عَنْهَا بحجاب من الْجَهْل ليختص الله لَهَا من يَشَاء من عباده وَالله ذُو الْفضل الْعَظِيم.(١)

❁ قال أبو حامد جمال الدين الحبيشي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:(٢)

مَا لَذَّة التَّمْر والحلواء وَالضَّـــرْب ... وَلَا عنَاق الغواني الخرد وَالْعرب
كلذتي فِي انتخاب الْعلم أجمعه ... من المحابر بالأقلام فِي الْكتب

❁ وقال:

فمؤنســـــي دفتري والعلم مفتخري ... وخاطري حاضري في العلم لم يغبِ

❁ وَقَالَ:

ما لذة الخلق في الدنيا بأجمعهم ... ولا الملوك وأهل اللهو والطرب
كلذتي في طلاب العلم يا ولدي ... فالعلم معتمدي حقاً ومكتسبي
ما المال ما الأهل ما الأولاد كلهم ... ألذّ عندي من علمي ومن كتبي
كل المســـــرات غير العلم فانيةٌ ... يا حبذا العلم من فخرٍ ومن حسبِ
ولا يغرّنك كون الناس قد هجروا ... أهل العلوم وذموهم بلا سببِ
فالعلم كنزٌ وذخرٌ ليس يعدله ... كنزٌ من الدرّ أو كنز من الذهبِ

---

(١) " مفتاح دار السعادة" (١/ ١٠٩).

(٢) "نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف" (صـ: ١٩١).

"لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا"، لو وجدت طعم العلم ولذته؛ لقدمت طلبه على طلب غيره واجتهدت فيه وحرصت عليه.

❁ قال أبو محمد عبد اللطيف الموصلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن لم يَحْتَمِل أَلَمَ التَّعلُّم لم يَذُق لذّة العِلْم، ومن لم يَكْدَحْ لم يُفْلِحْ، وإذا خَلَوتَ من التَّعلّم والتَّفَكّر فَحرِّك لسانَكَ بذكر الله وتسبيحِه وخاصّة عند النوم. وإذا حَدَّثَ لك فرحٌ بالدنيا، فاذكُرِ الموتَ وسُرعةَ الزَّوال، وأصناف المُنَغِّصات، وإذا حَزَبَك أمرٌ فاسترجِعْ، وإذا اعترتكَ غفلةٌ فاستغفر، واجعل الموت نصب عينيك، والعِلْم والتُّقَى زَادكَ إلى الآخِرَة، وإذا أردت أنّ تعصيَ الله فاطلُبْ مكانًا لا يراك فيه، وعليك أنّ تجعلَ باطنَك خَيْرًا من ظاهرك...ا.هـ. المراد. (١)

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَهَذِه السَّعَادَة لَا يعرف قدرهَا، وَيبْعَث على طلبَهَا إلا الْعلم بهَا فَعَادَت السَّعَادَة كلهَا إلى الْعلم... وإنما رغب أكثر الْخلق عَن اكْتِسَاب هَذِه السَّعَادَة، وتحصيلها وعورة طريقها، ومرارة مباديها، وتعب تَحْصِيلهَا، وأنها لا تنال إلا على جد من التَّعَب فإنها لا تحصل إلا بالجد الْمَحْض... وأما سَعَادَة الْعلم فَلَا يورثك إياها إلا بذل الوسع، وَصدق الطّلب، وَصِحَّة النِّيَّة،

❁ وَقد أحسن الْقَائِل فِي ذَلِك:

فَقل لمرجي معالي الأمور ... بِغَيْر اجْتِهَاد رَجَوْت المحالا

❁ وَقَالَ الآخر:

لَوْلَا الْمَشَقَّة سَاد للنَّاس كلهم ... الْجُود يفقر والإقدام قتال

(١) "تاريخ الإسلام" (١٣/ ٨٩١).

فالمكارم منوطة بالمكارة والسعادة لَا يعبر اليها الا على جسر الْمَشَقَّة فَلَا تقطع مسافتها الا فِي سفينة الْجد وَالِاجْتِهَاد. قَالَ مُسلم فِي "صَحِيحه" قَالَ يحيى بن ابي كثير: لا ينال الْعلم براحة الْجِسْم. وَقد قيل: من طلب الرَّاحَة ترك الرَّاحَة.

فيا وصْلَ الحبيبِ أما إليهِ ... بغيرِ مشقةٍ أبداً طريقُ(١)

❁ قال أبو هلال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَدَرَجَةُ الْعِلْمِ أَشْرَفُ الدَّرَجِ، فَمَنْ أَرَادَ مُدَاوَلَتَهَا بِالدَّعَةِ وَطَلَبَ الْبُلُوغَ إِلَيْهَا بِالرَّاحَةِ كَانَ مَخْدُوعًا، وَقَالَ الْجَاحِظُ:

الْعِلمُ عَزِيزُ الْجَانِبِ، لَا يُعْطِيكَ بَعْضَهُ حَتَّى تُعْطِيهِ كُلَّكَ، وَأَنْتَ إِذَا أَعْطَيْتَهُ كُلَّكَ كُنْتَ مِنْ إِعْطَائِهِ إِيَّاكَ الْبَعْضَ عَلَى خَطَرٍ.(٢)

❁ وَفِي وَصِيَّةِ الْإِمَامِ الْمُوَفِّقِ ابْنِ قُدَامَةَ طَيَّبَ اللَّهُ رُوحَهُ مَا لَفْظُهُ: فَاغْتَنِمْ رَحِمَك اللَّهُ حَيَاتَك النَّفِيسَةَ، وَاحْتَفِظْ بِأَوْقَاتِك الْعَزِيزَةِ، **وَاعْلَمْ أَنَّ مُدَّةَ حَيَاتِك مَحْدُودَةٌ، وَأَنْفَاسَك مَعْدُودَةٌ، فَكُلُّ نَفَسٍ يَنْقُصُ بِهِ جُزْءٌ مِنْك، وَالْعُمْرُ كُلُّهُ قَصِيرٌ، وَالْبَاقِي مِنْهُ هُوَ الْيَسِيرُ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهُ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ لَا عَدْلَ لَهَا وَلَا خُلْفَ مِنْهَا**، فَإِنَّ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْيَسِيرَةِ خُلُودُ الْأَبَدِ فِي النَّعِيمِ، أَوْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَإِذَا عَادَلْت هَذِهِ الْحَيَاةَ بِخُلُودِ الْأَبَدِ عَلِمْت أَنَّ كُلَّ نَفَسٍ يَعْدِلُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ عَامٍ فِي نَعِيمٍ لَا خَطَرَ لَهُ أَوْ خِلَافَ ذَلِكَ، وَمَا كَانَ هَكَذَا فَلَا قِيمَةَ لَهُ. فَلَا تُضَيِّعْ جَوَاهِرَ عُمْرِك النَّفِيسَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَلَا تُذْهِبُهَا بِغَيْرِ عِوَضٍ، وَاجْتَهِدْ أَنْ لَا يَخْلُوَ نَفَسٌ مِنْ أَنْفَاسِك إلَّا فِي عَمَلِ طَاعَةٍ أَوْ قُرْبَةٍ تَتَقَرَّبُ بِهَا. فَإِنَّك لَوْ كَانَتْ مَعَك جَوْهَرَةٌ

---

(١) "مفتاح دار السعادة" (١/ ١٠٨).

(٢) "الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه" (صـ: ٤٢).

مِنْ جَوَاهِرِ الدُّنْيَا لَسَاءَكَ ذَهَابُهَا فَكَيْفَ تُفَرِّطُ فِي سَاعَاتِك وَأَوْقَاتِك. وَكَيْفَ لَا تَحْزَنُ عَلَى عُمْرِك الذَّاهِبِ بِغَيْرِ عِوَضٍ. انْتَهَى. (١)

والتزودُ من العلمِ من الأمورِ المطلوبةِ المفضلةِ وسيأتي معنا في هذه المنظومة ما يوضح ذلك أكثر.

❁ قال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أفضل الأشياء التزيد من العلم، فإنه من اقتصر على ما يعلمه، فظنه كافيًا؛ استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا له من الاستفادة، والمذاكرة تبين له خطأه، وربما كان معظمًا في النفوس، فلم يتجاسر على الرد عليه، ولو أنه أظهر الاستفادة، لأهديت إليه مساوئه، فعاد عنها. (٢)

❁ قال أبو هلال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِذا كُنْتَ أَيُّهَا الأَخُ تَرْغَبُ فِي سُمُوِّ الْقَدْرِ وَنَبَاهَةِ الذِّكْرِ، وَارْتِفَاعِ الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَتَلْتَمِسُ عِزًّا لَا تَثْلِمُهُ اللَّيَالِي وَالأَيَّامُ، وَلا تَتَحَيَّفُهُ الدُّهُورُ وَالأَعْوَامُ، وَهَيْبَةً بِغَيْرِ سُلْطَانٍ، وَغِنًى بِلا مَالٍ، ومنعة بِغَيْرِ سِلاحٍ، وَعَلاءً مِنْ غَيْرِ عَشِيرَةٍ، وَأَعْوَانًا بِغَيْرِ أَجْرٍ، وَجُنْدًا بِلا دِيوَانٍ وَفَرْضٍ، فَعَلَيْكَ بِالْعِلْمِ، فَاطْلُبْهُ فِي مَظَانِّهِ، تَأْتِكَ الْمَنَافِعُ عَفْوًا، وَتَلْقَ مَا يعْتَمد مِنْهَا صَفْوًا، وَاجْتَهِدْ فِي تَحْصِيلِهِ لَيَالِيَ قَلائِلَ، ثُمَّ تَذَوَّقْ حَلاوَةَ الْكَرَامَةِ مُدَّةَ عُمْرِكَ، وَتَمَتَّعْ بِلَذَّةِ الشَّرَفِ فِيهِ بَقِيَّةَ أَيَّامِكَ، وَاسْتَبْقِ لِنَفْسِكَ الذِّكْرَ بِهِ بَعْدَ وَفَاتِكَ، ولأمر مَا اجْتَهَدَ فِيهِ طَائِفَةُ الْعُقَلاءِ، وَتَنَافَسَ عَلَيْهِ الْحُكَمَاءُ..ا.هـ. المراد. (٣)

---

(١) "غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب" (٢/ ٤٤٨).

(٢) ""صيد الخاطر"(صـ: ١٢٧).

(٣) "الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه" (صـ: ٤٣).

البيت ١٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوىً مُطَاعٌ وَلاَ دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا

شرح البيت رقم ١٥

الْهَوَى يَهْوِي بِصَاحِبِهِ وَيُضِلُّهُ، فَإِنَّهُ إِذَا انْشَغَلَ بِهِ ذَهَبَ عِلْمُهُ، وَالْهَوَى مِيرَاثٌ لِلْجَهْلِ وَالضَّلَالِ."

❁ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَنْ أَعْرَضَ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ تَبَعًا لِهَوَاهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يُورِثُهُ الْجَهْلَ وَالضَّلَالَ حَتَّى يَعْمَى قَلْبُهُ عَنْ الْحَقِّ الْوَاضِحِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الصف: ٥. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾ البقرة: ١٠

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ الأنعام: ١٠٩ – ١١٠.(١)

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَتَبَيَّنَ أَنَّ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَتَّبِعَ الْحَقَّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَلَا يَجْعَلَ دِينَهُ تَبَعًا لِهَوَاهُ.(٢)

---

(١) "مجموع الفتاوى"(١٠/ ١٠).

(٢) " مجموع الفتاوى" (٢٢/ ٢٤١).

فاتباعُ الهوى يصدُ عن العلمِ، والحقِ، ويصدُ عن اتباعِ الهدى قال اللهُ تعالى:﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ القصص: ٥٠

❁ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نونيته:

وَسَــلْ الْعِيَـاذَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالْهَوَى ... فَـهُـمَا لِكُـلِّ الشَّــــرِ جَـامِعَتَـانِ
وَهُمَـا يَصُــدَّانِ الْفَتَى عَنْ كُـلِّ طُرْ ... قِ الْخَـيْرِ إِذْ فِي قَـلْـبِـهِ يَـلْـجَـانِ
فَـتَرَاهُ يَـمْـنَـعُـهُ هَـوَاهُ تَـارَةً ... وَالْـكِـبْرُ أُخْـرَى ثُـمَّ يَجْـتَـمِـعَـانِ
وَالله مَـا فِي الـنَّـارَ إِلا تَـابِـعٌ ... هَـاذَيْنِ فَـاسْـئَـلْ سَـاكِنِ النِّيرَانِ

❁ وكما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولكن نعوذ بالله من رين القلوب، وهوى النفوس، اللذَيْن يصدان عن معرفة الحق واتباعه. (١)

فَالْهَوَى مُشْغِلٌ، وَمُبْعِدٌ، وَمُورِثٌ لِلْجَهْلِ، وَالضَّلَالِ، وَمُبعد للإِنْسَانِ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَهُوَ أَضَرُّ مَا يَكُونُ عَلَى الْإِنْسَانِ.

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الهوى ما خالط شيئا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصده عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية

(١) " اقتضاء الصراط المستقيم"(١/ ٧٣). دار عالم الكتب.

والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة فما قارن شيئا إلا أفسده. (١)

فَالْهَوَى وَالدُّنْيَا إِذَا ابْتُلِيَ الْإِنْسَانُ بِهِمَا، فَإِنَّهُ يَبْتَعِدُ عَنِ الْحَقِّ وَالْعِلْمِ، بَلْ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، يَذْهَبُ عِلْمُهُ إلا من رحم الله.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾، كَانَ صَاحِبَ عِلْمٍ وأعطاهُ اللهُ من آياتِهِ، فَفُتِنَ بِزُخَارِفِ الدُّنْيَا وَاتَّبَعَ الْهَوَى وَأَطَاعَهُ، فَضَلَّ وَانْسَلَخَ.

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان في صاحبه فأيها قوي على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له. (٢)

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالعلم النافع: هُوَ أصل الْهدى، وَالْعَمَل بِالْحَقِّ: هُوَ الرشاد وضد الأول: هُوَ الضلال، وضد الثَّانِي: هُوَ الغي. والضلال، الْعَمَل بِغَيْر علم.

والغي، اتِّبَاع الْهوى. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ النجم [١، ٢].

فَلَا ينَال الْهدى إِلَّا بِالْعلمِ، وَلَا ينَال الرشاد إِلَّا بِالصبرِ. (٣)

---

(١) "روضة المحبين"(صـ: ٤٧٤).

(٢) "روضة المحبين"(صـ: ٤٧٨).

(٣) "أمراض القلوب وشفاؤها" (صـ: ٥٥).

البيت رقم ١٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلاَ أَهْـاكَ عَـنْـهُ أَنِـيـقُ رَوْضٍ ولا خِـدرٌ بـرَبـرَبـه كَـلـفُـتـا

شرح البيت رقم ١٦

"وَلَا أَهْاكَ". أَيْ: عَنِ الْعِلْمِ، إِذَا لَمْ تَنْشَغِلْ عَنْهُ بِالْهَوَى وَلَا بِزُخَارِفِ الدُّنْيَا، وَلَمْ تَلْتَهِ عَنْهُ بِالْمَنَاظِرِ الْخَضْرَاءِ وَلَا خُدِعْتَ بِزِينَةِ الْأَرْضِ، لَمْ يَنْشَغِلْ بِجَمَالِ الْأَرْضِ وَلَا بِزُخَارِفِهَا، وَلَا أَهْاكَ عَنْه أنيقُ رَوْضٌ أَيْ: جَمَالُ الْأَرْضِ مِنْ أَزْهَارِهَا وَخُضْرَتِهَا.

"خِدرٌ برَبرَبه كَلفُتا"، الخدر: قَالَ اللَّيْث: الخِدْرُ: سِتْرٌ لِلْجَارِيَةِ _ فِي نَاحِيَة الْبَيْت، وَكَذَلِكَ يُنْصَبُ لَهَا خَشَبَاتٌ _ فَوق قَتَبِ الْبَعِير _ مَسْتُورةٌ بِثَوْب، فَهُوَ الْهَوْدجُ الْمُخَدَّرُ.

ويُجْمَعُ عَلَى الأَخْدَار والأخادير والْخُدُورِ... وكلُّ شَيْء مَنَعَ بصَراً عَن شَيْء فقد أَخْدَرهُ.(١) الرَّبْرَبُ: الْقَطِيعُ مِنْ بَقَرِ الْوَحْشِ.(٢)

وفي بعض النسخ: "ولا دُنيا بِزِينَتِهَا كَلِفْتَا"

❁ قَالَ أحمدُ بنُ فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٣)

إِذا كَـانَ يُـؤذِيـكَ حـرُّ المصـيـفِ ويُـبـسُ الخـريـف وبَـرْدُ الشـتـاء
ويُـلـهـيـك حُسْـنُ زَمـانِ الـربـيـع فـأخـذُكَ لـلـعـلـم قُـلْ لي: مَـتـى

---

(١) "تهذيب اللغة" (٧/ ١١٩).

(٢) "مقاييس اللغة"(٢/٣٨٣)، وزاد بعضهم: مَا كَانَ دُونَ العَشَرَةِ "لسان العرب" (١/٤٠٩)، وفي "المعجم الوسيط" (١/ ٣٢٢)، القطيع من الظباء، وَمن الْبَقر الوحشي، والإنسي (لَا وَاحِد لَهُ) (ج) ربارب.

(٣) "تاريخ ابن عساكر" (٦٤/٣٤٨)، و"معجم الأدباء"(١/٤١٤).

أي: إِذَا كُنْتَ تَتَأَذَّى بِحَرِّ الصَّيْفِ فَتَتْرُكَ طَلَبَ الْعِلْمِ، وَتَتَأَذَّى بِكَرْبِ الْخَرِيفِ، وَبِشِدَّةِ الْبُرُودَةِ فِي الشِّتَاءِ، وَتُلْهِيكَ الْمَنَاظِرُ، فمتى تطلب العلم ؟

❁ وقال آخر: (١)

إذا كنتَ لا تَتقِي المُوبِقات ... ولم ترم عنك حديث الدمى
ولم تحرز الفضل والمكرمات ... فأخذك للعلم قل لي لما

فينبغي لك أن تقبل على العلم، والعمل بما تعلمت، والتعليم ولا تُشغل عنه فجمالُ العلمِ، وزهرته، ولذته مقدمة على غيره بلا مقارنة.

❁ وقال آخر: (٢)

سَهَرِي لِتَنْقِيح العُلُوم أَلَذُّ لي ... مِنْ وَصْلِ غَانِيةٍ وَطيبِ عِنَاقِ
وَصَرِيرُ أَقْلَامِي عَلَى صَفَحَاتِهَا ... أحلى مِنَ الدَّوكاءِ والعُشَّاقِ
وَأَلَذُّ مِنْ نَقْرِ الفتاة لِدُفِّهَا ... نَقْرِي لِأُلْقِيَ الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
وتمايلي طرباً لحلِّ عويصةٍ ... في الدَّرسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ
أأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتبيتُهُ ... نَوْماً وَتَبْغي بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِي

❁ وزاد بعضُهم كما في "غرائب الاغتراب" صـ٢٩:

يَا مَنْ يُحَاوِلُ بالأَماني رُتْبَتِي ... كَمْ بينَ مَستَفِلٍ وآخرُ راقِ

فشتان بين التلذذ بالعلم، والتلذذ بالدنيا، وَعَادَةُ الْعُلَمَاءِ يَتَلَذَّذُونَ بِالسَّهَرِ فِي التَّحْرِيرِ لِلْمَسَائِلِ.

---

(١) "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" (٢/٨١). دار البشائر الإسلامية. دار ابن حزم. ط. الثالثة.

(٢) هذه الأبيات تعزى للشافعي رحمه الله كما في ديوانه، وتعزى للزمخشري المعتزلي.

البيت ١٧

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَـقُـوتُ الـرُّوْح أَرْوَاحُ الْمَـعَـانِي وَلَـيْسَ بِـأَنْ طَـعِـمْـتَ وَلاَ شَرِبْـتَـا

شرح البيت رقم ١٧

غذاءُ الروحِ وقوتُها هو بأرواح المعاني، بأرواح العلوم من الكتاب والسنة.

فغذاءُ الأرواح هو دينُ اللهِ تعالى والتزود من العلوم النافعة الشرعية.

❁ قال أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:(١)

يَا خَادِمَ الْجِسْـم كَمْ تَشْـقَى بِخِدْمَتِهِ أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ مِمَّا فِيهِ خُسْـرَانُ
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْـم إِنْسَـانُ

فَالْعِلْمُ غِذَاءُ الْأَرْوَاحِ، وَلَا تَتَلَذَّذُ الْأَرْوَاحُ بِشَيْءٍ كَتَلَذُّذِهَا بِالْعِلْمِ الشرعي،

فَهُوَ كَنْزٌ وَذُخْرٌ يَنْتَفِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

❁ قال عبد الله بن المقفع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وليس غذاء الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات العقل، ولسنا بالكدِّ في طلب المتاع الذي يلتمس به دفع الضرر، والغلبة، بأحق منا بالكد في طلب العلم الذي يلتمس به صلاح الدين والدنيا.(٢)

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفعُ الأدوية دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء.(٣)

---

(١) "أدب الدنيا والدين" (صـ: ٣٤٩)، ويرويها بعضُهم بالروح، كما في "مدارج السالكين" (٣/ ٧٤)، و"مفتاح دار السعادة" (١/ ١٠٨).

(٢) "الأدب الصغير والأدب الكبير" (صـ: ١٥).

(٣) " إغاثة اللهفان" (١/ ٧٠).

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ بعض العارفين أَلَيْسَ الْمَرِيضُ إِذا مُنِعَ الطَّعَام وَالشرَاب والدواء يَمُوت؟ قَالُوا: بلَى، قَالَ: فَكَذَلِك الْقلب إِذا منع عَنهُ الْعلم وَالْحكمَة ثَلَاثَة أيام يَمُوت. وَصدق؛ فإن الْعلمَ طَعَامُ الْقلبِ وَشَرَابه ودواؤه وحياته مَوْقُوفَة على ذَلِك، فَإِذا فقد الْقلب الْعلم فَهُوَ موت، وَلَكِنَ لَا يشْعرُ بِمَوْتِهِ، كَمَا أن السَّكْرَان الَّذِي قد زَالَ عقله، والخائف الَّذِي قد انْتهى خَوفه إلى غَايَته، والمحب والمفكر، قد يبطل إحساسهم بألم الْجِرَاحَات فِي تِلْكَ الْحَال، فَإِذا صحوا وعادوا إلى حَال الِاعْتِدَال أدركوا آلامها هَكَذَا العَبْد. إِذا حَطَّ عَنهُ الْمَوْتُ أحمالَ الدُّنْيَا وشواغلها اخْتصَّ بهلاكه وخسرانه.

فَحَتَّامَ لا تَصْحُو وَقَدْ قَرُبَ المَدى ... وَحَتَّامَ لا يَنجَابُ عَنْ قَلبِك السُّكْرُ
بلى سوف تصحو حين ينكشِفُ الغِطَا ... وتَذْكُرُ قولي حين لا ينفعُ الذِّكْرُ

فإذا كُشِفَ الغِطَاء، وبَرِحَ الخفاء، وبُلِيَت السرائر، وبَدَت الضمائر، وبُعْثِرَ ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور؛ فحينئذٍ يكونُ الجهلُ ظلمةً على الجاهلين، والعلمُ حسرةً على البطَّالين.(١)

❁ قال الراغبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن الطعامَ غذاءُ البدن والعلم غذاء الروح، وعلى هذا ما قيل: إن متعلماً قرب من باب عالم، فقال: أطعمني فأعطاه لقمة، فقال: إني أسأل ما يحي النفس، لا ما يتعب الضرس، قال هذا القائل: وإنما القوم رغبوا في حقائق لم يأت وقت إطلالهم عليه، ولم يكتسبوا الحالة التي تمكنهم الوقوف عليه، فقول عيسى: (اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) حثٌّ منه على اكتساب التقوى واستعمالها.

---

(١) "مفتاح دار السعادة"(١/ ١٢٢).

فيقول: إن حصلتم الإيمان وهو العلم الحقيقي، فاستعملوا التقوى فبها تنال هذه المنزلة.[١] فالعلم هو قوت الأرواح وغذاء القلوب، حفظا وفهما ودراسة، تعلما، وتعليما والكتب فيها العلم النافع الذي تتغذى به القلوب وفيها الضار فيتنبه لذلك.

❁ قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الكتب تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: كتب خير.

القسم الثاني: كتب شر.

القسم الثالث: كتب لا خير ولا شر.

فاحرص أن تكون مكتبتك خالية من الكتب التي ليس فيها خير أو التي فيها شر وهناك كتب يقال: إنها كتب أدب، لكنها تقطع الوقت وتقتله في غير فائدة، وهناك كتب ضارة ذات أفكار معينة وذات منهج معين، فهذه أيضًا لا تدخل المكتبة سواء كان ذلك في المنهج أو كان ذلك في العقيدة، مثل كتب المبتدعة التي تضر في العقيدة، والكتب الثورية التي تضر في المنهج وعمومًا كل كتب تضر فلا تدخل مكتبتك؛ **لأن الكتب غذاء للروح كالطعام والشراب للبدن، فإذا تغذيت بمثل هذه الكتب صار عليك ضرر عظيم واتجهت اتجاهًا مخالفًا لمنهج طالب العلم الصحيح.**[٢]

وقد سمى اللهُ تعالى كتابهُ روحاً لأن بهِ حياتها الحقيقية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ الشورى: ٥٢

---

(١) " تفسير الراغب الأصفهاني" (٥/ ٤٩٨).

(٢) "العلم للعثيمين" (صـ: ٦٩).

❁ قال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرّوح هَاهُنَا هُوَ: الْقُرْآن سَمَّاهُ روحا؛ لِأَنَّهُ تحيا بِهِ الْقُلُوب كالروح تحيا بِهِ النُّفُوس.(١)

❁ قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَسَمَّاهُ رُوحًا؛ لِأَنَّ فِيهِ حَيَاةً مِنْ مَوْتِ الْجَهْلِ.(٢)

❁ قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سماه روحا؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين؛ لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.(٣)

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فجعل وحيه روحا ونورا فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت ومن لم يجعل له نورا منه فهو في الظلمات ماله من نور.(٤)

❁ وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَسَمَّى وَحْيَهُ رُوحًا؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ الَّتِي هِيَ الْحَيَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ وَمَنْ عَدِمَهَا فَهُوَ مَيْتٌ لَا حَيٌّ وَالْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ السَّرْمَدِيَّةُ فِي دَارِ النَّعِيمِ هِيَ ثَمَرَةُ حَيَاةِ الْقَلْبِ بِهَذَا الرُّوحِ الَّذِي أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْ لَمْ يَحْيَا بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ مِمَّنْ لَهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا وَأَعْظَمُ النَّاسِ حَيَاةً فِي الدُّورِ الثَّلَاثِ، دَارِ الدُّنْيَا، وَدَارِ الْبَرْزَخِ، وَدَارِ الْجَزَاءِ، أَعْظَمُهُمْ نَصِيبًا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ بِهَذِهِ الرُّوحِ.(٥)

---

(١) "تفسير السمعاني" عند الآية المذكورة.

(٢) " تفسير القرطبي".

(٣) "تفسير السعدي".

(٤) "الأمثال في القرآن" (صـ: ١٩).

(٥) "اجتماع الجيوش الإسلامية" (٢/ ٨٨).

❁ وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَالْوَحْيُ حَيَاةُ الرُّوحِ، كَمَا أَنَّ الرُّوحَ حَيَاةُ الْبَدَنِ، وَلِهَذَا مَنْ فَقَدَ هَذِهِ الرُّوحَ فَقَدْ فَقَدَ الْحَيَاةَ النَّافِعَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَحَيَاتُهُ حَيَاةُ الْبَهَائِمِ، وَلَهُ الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا. (١)

❁ وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فسماه روحاً؛ لما يحصل به من الحياة، وجعله نوراً؛ لما يحصل به الاشراق والاضاءة، وهما متلازمان فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الاضاءة والاستنارة، وحيث وجدت الاستنارة، والاضاءة وجدت الحياة، فمن لم يقبل هذا الروح فهو ميت مظلم. (٢)

❁ قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منظومته الفقهية:

اعلمْ هُديتَ أن أفضلَ المِنَنْ ... علمٌ يُزيلُ الشكَّ عنك والدَّرَنْ
ويَكشِفُ الحقَّ لذي القلوبِ ... ويُوصِلُ العبدَ إلى المطلوبِ

(١) " مدارج السالكين "(٣/ ٢٤٣).

(٢) " الوابل الصيب "(صـ: ٥٤).

البيت رقم ١٨

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

شرح البيت رقم ١٨

وَاظِبْ عَلَى الْعِلْمِ وَاجْتَهِدْ فِيهِ واصبر على تحصيله، وَإِنْ تَعِبَ الْجَسَدُ فِي ذَلِكَ.

❁ قَالَ يَحْيَى ابْنُ أَبِي كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ. (١)

وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى الْعِلْمِ وَيَجْتَهِدَ فِيهِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَالْيَوْمَ تِلْوَ الْآخَرِ، وَأَنْ يُقَيِّدَ مَا يَسْمَعُ مِنَ الْعِلْمِ.

❁ وقَدْ جاء عن الشَّعْبِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتَ شَيْئًا فَاكْتُبْهُ وَلَوْ فِي الْحَائِطِ». (٢)

بِالِاجْتِهَادِ وَالْحِرْصِ مَعَ الذَّكَاءِ، وَالْبُلْغَةِ، وَالْمُدَاوَمَةِ، يَتَحَصَّلُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْعِلْمِ.

❁ ومِمَا يُعزى للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٣)

---

(١) رواه "مسلم" (٦١٢)، ورواه والبيهقي في "المدخل" (٤٠٠) قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: «مِيرَاثُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنَ الذَّهَبِ، وَالنَّفْسُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ مِنَ اللُّؤْلُؤِ» قَالَ: وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: «لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ». وقال ابنُ عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (١/٣٨٥) وَقَدْ رُوِيَ مِثْلُ هَذَا الْقَوْلِ عَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ، وجاء أيضاً عن عبد الرحمن بن أبي حاتم. كما في "تاريخ دمشق" (٣٥/٣٦١). و "علل الحديث" لابن أبي حاتم (١/١٦٦).

(٢) سنده صحح، أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب في "العلم" (برقم:١٤٦) المكتب الإسلامي. ط. الثانية، وجاء عن الضحاك بسند صحيح كما في "جامع بيان العلم وفضله" (١/٣١٢). دار ابن الجوزي.

(٣) "المستطرف" (صـ: ٣٠)، ونسبت لأبي المعالي الجويني "تاريخ بغداد" (١٦/٤٤)، ونسبت لأبي بكر أحمد بن محمد الدينوري كما في "الآداب الشرعية" لابن مفلح (١/٢١٦). ونسبها بعضهم لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما في "تعليم المتعلم طريق التعلم" لبرهان الدين الزرنوجي.

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ ... سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ ... وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

❁ وهذا ابنُ رشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال عنه ابنُ الأبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعنى بِالْعلمِ من صغره إِلَى كبره حَتَّى حُكيَ عَنهُ أَنه لم يدع النّظر وَلَا الْقِرَاءَة مُنْذُ عقل إِلَّا لَيْلَة وَفَاة أَبِيه وَلَيْلَة بنائِهِ على أَهله.(١)

ينبغي لنا أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ هَذِهِ الْآثَارِ، وَأَنْ نُطَبِّقَهَا فِي أَنْفُسِنَا، وَأَنْ نُقْبِلَ عَلَى الْعِلْمِ وَنَتَأَسَّى بِهَؤُلَاءِ.

فَذِكْرُ آثَارِهِمْ لَيْسَ لِلتَّسْلِيَةِ وَلَا لِلتَّرْوِيحِ عَلَى النَّفْسِ؛ وَإِنَّمَا لِنَسْتَفِيدَ مِنْهَا، وَلَعَلَّ الْهِمَم تَقْوَى؛ لِنَجْتَهِدَ فِي تحصيلِ العلمِ.

لَا يُقَالُ: كَاجْتِهَادِهِمْ وفضلُ اللهِ واسع والموفق من وفقه الله، وينبغي الْمُقَارَبَةُ وَالتَّشَبُّهُ بِهِمْ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ ومحاولة السير بطريقهم.

وَمَنْ تَمَكَّنَ فحافظ على وَقْتِهِ فَقَدْ ظَفِرَ، وفاز بالخير والسعادة دنيا وأخرى.

❁ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يدع النّظر وَلَا الْقِرَاءَة مُنْذُ عقل إِلَّا فِي لَيْلَتَيْنِ. وَيَا تُرَى، مَا هِيَ هَذِهِ اللَّيَالِي؟

❁ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَيْلَة وَفَاة أَبِيه وَلَيْلَة بنائِهِ على أَهله.

النَّاسُ فِي يَوْمِ الزَّوَاجِ يُنْشَغِلُونَ سَنَة ربما قَبْلَ الزَّوَاجِ وَسَنَةً بَعْدَ الزَّوَاجِ أو أشهر، وَرُبَّمَا أَكْثَرَ، أو أقل الناس يتفاوتون في انشغالهم، لَكِنَّ ابْنَ رُشْدٍ لَمْ يَنْشَغِلْ إِلَّا لَيْلَتَيْنِ فَقَطْ.

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعَظِّمَ الْعِلْمَ وَأَنْ يَعْرِفَ فَضْلَهُ وَشَرَفَهُ، وَأَنْ يُقَدِّمَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

---

(١) " التكملة لكتاب الصلة"(٢/ ٧٤).

بعضُهم يَنْشَغِلُ عدة أشهر قَبْلَ الزَّوَاجِ إِذَا كَانَتْ أُمُورُهُ مُتيَسِّرَةً، وَيَنْشَغِلُ بِالْبَحْثِ وَالنظر.

فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ تَكُنْ أُمُورُهُ مُتيَسِّرَةً؟ رُبَّمَا يَنْشَغِلُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، سَنَوَاتٍ لِجَمْعِ المَالِ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ، رُبَّمَا تَمْضِي فَتْرَةٌ وَمُدَّةٌ طَوِيلَةٌ.

وَهَذِهِ الأَشْيَاءُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعْطِيَهَا أَكْبَرَ مِنْ حَجْمِهَا، فَيَنْشَغِلُ بِهَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَفِي الشُّهُورِ وَالأَعْوَامِ.

مَتَى مَا يَسَّرَ اللهُ أَمْرَكَ، تَزَوَّجْتَ، وَإِلا أَقْبَلْتَ عَلَى العِلْمِ حَتَّى يَتَيَسَّرَ لَكَ الأَمْرُ.

وَكُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ. وَالأَمْرُ يَجْرِي بِتَقْدِيرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَهُوَ مَا تَرَكَ طَلَبَ العِلْمِ إِلَّا فِي لَيْلَةِ زَوَاجِهِ وَلَيْلَةِ وَفَاةِ وَالِدِهِ.

وَاللهُ أَعْلَمُ، هَلْ تَرَكَ ذَلِكَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ تماماً، أَوْ رُبَّمَا أَخَذَ شَيْئًا مِنهُ وَإِنَّمَا لَمْ يَجْتَهِدْ كَمَا اجْتَهَدَ فِي بَقِيَّةِ الأَيَّامِ وَاللَّيَالِي؟

❁ وَقَالَ أَبُو الحَسَنِ الزَّيَّاتُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِذَا تَرَكَ الطَّالِبُ الِاشْتِغَالَ يَوْمًا كَأَنَّهُ تَرَكَ سُنَّةً: وَإِنْ تَرَكَهُ يَوْمَيْنِ كَأَنَّهُ تَرَكَ سُنَّتَيْنِ، وَإِنْ تَرَكَهُ ثَلَاثًا لَا يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ. (١)

فَكَيْفَ بِمَنْ يَتْرُكُ الأُسْبُوعَ وَالأُسْبُوعَيْنِ، وَالشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ، بِحُجَّةِ لَا يَزَالُ عِيد، عطلة، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؟

ولَا يُوجَدُ فِي الشَّرْعِ شَيْءٌ اسْمُهُ عُطْلَةٌ مِنَ العِبَادَةِ أَوْ مِنَ العِلْمِ.

لَا لا، يوجد فِي الشَّرْعِ شَيْءٌ اسْمُهُ عُطْلَةٌ، أَنَّكَ تَتَعَطَّلُ مِنَ العِبَادَةِ، أَوْ تَتَعَطَّلُ مِنَ العِلْمِ.

---

(١) كما في "المدخل" لابن الحاج (٢/ ١٤٤).

العِلْمُ بَاقٍ وَالعِبَادَةُ كُلُّ ذَلِكَ لَا يَزَالُ بَاقِيًا مستمراً مَا بَقِيَتِ الرُّوحُ فِي الجَسَدِ، فِي أَيَّامِ الأَعْيَادِ، وَفِي غَيْرِ الأَعْيَادِ.

فِي الجُمُعَةِ وَفِي غَيْرِهَا، فِي حَالِ الصِّيَامِ وَفِي حَالِ الإِفْطَارِ، وَبَعْضُ الأَعْمَالِ لَهَا أَوْقَاتٌ تُفَضَّلُ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ.

❁ قال ابنُ الحاج المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : فَإِنْ كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتْرُكَ الِاشْتِغَالَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَوْمُ فَضْلٍ عَظِيمٍ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُبَادِرَ إِلَى أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ فَيَعْمَلَهَا فِيهِ، وَأَفْضَلُ الْأَعْمَالِ طَلَبُ الْعِلْمِ كَمَا تَقَدَّمَ، لَكِنْ إِنْ اشْتَغَلَ بِذَلِكَ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ قَدْ يُخْشَى أَنْ يَفُوتَهُ بِسَبَبِهِ شَيْءٌ مِنْ وَظَائِفِ الْجُمُعَةِ مِثْلَ الْغُسْلِ، وَقَصِّ الشَّارِبِ، وَالْأَظَافِرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ اشْتِغَالُهُ بَعْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَيَحْضُرَ مَجْلِسَ الْعِلْمِ فِي الْجَامِعِ أَوْ غَيْرِهِ، وَأَعْنِي بِمَجْلِسِ الْعِلْمِ الْمَجْلِسَ الَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَاتِّبَاعُ السَّلَفِ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- لَا مَجْلِسَ الْقُصَّاصِ وَالْوُعَّاظِ، إِذْ أَنَّ ذَلِكَ بِدْعَةٌ. (١)

وَلِذَلِكَ قِيلَ: العلم إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك فاتك كله. (٢)

فَكَانَ الأَوَائِلُ يحرصون بشدة على العلم عَلَى العِلْمِ فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

---

(١) "المدخل لابن الحاج" (٢/ ١٤٤).

(٢) أخرجه الخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي والسامع" برقم:(١٥٢٣)، وفي "تاريخ بغداد"(١٦/٣٥٩)، وابن الجوزي في "المنتظم"(٩/٧٤). وفي سنده محمد بن الحسن بن زياد النقاش، قال الخطيب: وفي أحاديثه مناكير بأسانيد مشهورة، وقال: سألت أبا بكر البرقاني عن النقاش فقال: كل حديثه منكر.

وروي نحو هذ القول عن النظام أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه"(٢/٢٠٤)، وابن الجوزي في "المنتظم" (١١/٦٦)، وفيه عمرو بن بحر الجاحظ رُمي بالكذب. وانظر "لسان الميزان"(٦/١٨٩). ونسب لأبي حنيفة كما في "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"(٢/٣٦٩)، ونسب للخليل كما في "محاضرات الأدباء"(١/٧٢) ورُوي عن غيرهم، والأثر مشهور ومتداول، ومعناه صحيح.

❁ قَالَ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لقد كَانَ أحدُهم يرحلُ إِلَى المراحلِ ذَوَات الْعدَد ويفني الْأَمْوَال وَالْعدَد وَيقطع الفيافي والمفاوز ويجوبُ الْبِلَادَ شرقاً وغرباً فِي طلبِ حَدِيثٍ وَاحِد ليسمعه من راوية.(١)

وألف الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ "الرحلة في طلب الحديث".

❁ وَقَالَ أَبُو بَكْرِ ابْنُ سَالِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رَحَلَ أَبِي مِنْ نَيْسَابُورَ لِيَكْتُبَ عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ – فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ، أَنْشَدَ هَذِهِ الأَبْيَات:(٢)

خَلَّفْتُ عُرْسِي يَوْمَ السَّيْرِ بَاكِيَةً ... يَا ابْنَ الْمُبَارَكِ، تَبْكِي بِرَنَّاتِ
خَلَّفْتُهَا سَحَرًا فِي النَّوْمِ لَمْ أَرَهَا ... فَفِي فُؤَادِي مِنْهَا شِبْهُ كَيَاتِ
أَهْلِي وَعُرْسِي وَصِبْيَانِي رَفَضْتُهُمُ ... وَسِرْتُ نَحْوَكَ فِي تِلْكَ الْمَفَازَاتِ
أَخَافُ وَاللهِ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ بِهَا ... وَمَا أَمِنْتُ بِهَا مِنْ لَذْعِ حَيَّاتِ
مُسْتَوْفِزَاتٍ لَهَا رَقْشٌ مُشَوَّهَةٌ ... أَخَافُ صولتَها فِي كُلِّ سَاعَاتِ
اجْلِسْ لَنَا كُلَّ يَوْمٍ سَاعَةً بُكَرَاً ... إِنْ خَفَّ ذَاكَ، وَإِلَّا بِالعَشِيَّاتِ
يَا أَهْلَ مَرْوَ أَعِينُونَا بِكَفِّكُمُ ... عَنَّا وَإِلَّا رَمَيْنَاكُمْ بِأَبْيَاتِ
لَا تُضْجِرُونَا فَإِنَّا مَعْشَرٌ صُبُرٌ ... وَلَيْسَ نَرْجُو سوى رَبَّ السَمَواتِ

بَذَلُوا الأَمْوَالَ وَالأَوْقَاتَ مِنْ أَجْلِ العِلْمِ، قَطَعُوا الفَيَافِيَ وَالقِفَارَ وَالأَسْفَارَ مِنْ أَجْلِ العِلْمِ لحديث واحد أو أكثر، وَصَارَ اليَوْمَ العِلْمُ سَهْلًا مُيَسَّرًا قريب التناول.

وَتَجد في هذه الأزمان الفُتُورَ فِيهِ وَالكَسَلَ، وَالتَّهَرُّبَ مِنْهُ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ مع تيسر الرحلة وتوفر أماكن العلم والتعليم.

---

(١) "الحطة في ذكر الصحاح الستة" (صـ: ٥٨).

(٢) "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (صـ: ٢٥٧).

أُولَئِكَ عَرَفُوا شَرَفَ العِلْمِ وَفَضْلَهُ، وأهميته؛ فَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ ليلاً ونهارا.

وَجَدُّوا صَلَاحَ القُلُوبِ، وَالأَفْئِدَةِ، بِمُجَالَسَتِهِمْ لِأَهْلِ الخَيْرِ وَالعِلْمِ، وطلبه.

❁ رُوِيَ عَنْ مَيْمُونِ بنِ مِهْرَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندٍ فيه ضعف أَنَّهُ قَالَ: وَجَدْتُ صَلَاحَ قَلْبِي فِي مُجَالَسَةِ العُلَمَاءِ. (١)

وفعلاً صلاح القلوب ونفعها في مُجالسةِ العلمِ وأهلِهِ، وبوب المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الترغيب والترهيب":(الترغيب في مجالسة العلماء)، وذكر بعض الأحاديث، ذكرها الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "ضعيف الترغيب والترهيب".

فَصَلَاحُ القُلُوبِ فِي مَجَالِسِ العِلْمِ، لَا فِي مَجَالِسِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ.

❁ قال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وينبغي لطالبِ العلمِ أن يصححَ قصدَهُ، إذ فقدان الإخلاص يمنع قبول الأعمال! وليجتهد في مجالسةِ العلماء، والنظر في الأقوالِ المختلفة، وتحصيل الكتب، فلا يخلو كتابٌ من فائدة! وليجعلْ همتَه للحفظِ، ولا ينظر، ولا يكتب إلا وقت التعب من الحفظ! وليحذر صحبةَ السلطان! ولينظر في منهاج الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين! وليجتهدْ في رياضةِ نفسه، والعمل بعلمِهِ! ومن تولاه الحق، وفقهُ. (٢)

صَلَاحُ القُلُوبِ فِي مَجَالِسِ العِلْمِ، لَا فِي مَجَالِسِ القَاتِ أَوِ الشَّمَّةِ أَوِ الدُّخَانِ أَوِ المُعَسِّلَاتِ، ونحو ذَلِكَ، فَإِنَّ هذه الأشياء فَسَادٌ لِلْقُلُوبِ، وَذَهَابٌ لِرُوحِهَا وَرِيحِهَا وَغِذَائِهَا وَرَوْنَقِهَا، بِخِلَافِ العِلْمِ فهو يهذب القلوب،

---

(١) "الحلية"(٤/٨٥)، و"جامع بان العلم وفضله"(١/٢٢١).

(٢)"صيد الخاطر" (صـ: ٣٢٣).

❁ وكما قَالَ سابقٌ البربري: (١)

وَالْعِلْمُ يَجْلُو الْعَمَى عَنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ ... كَمَا يُجْلِي سَوَادَ الظُّلْمَةِ الْقَمَرُ
وَلَيْسَ ذُو الْعِلْمِ بِالتَّقْوَى كَجَاهِلِهَا ... وَلَا الْبَصِيرُ كَأَعْمَى مَا لَهُ بَصَرُ

"فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انتَفَعْتَا"، إذا يسرَ اللهُ لك أسباب العلم ووهبك إياه انتفعت بذلك.

❁ قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك تعالى... واعلم أن كثيراً من أهلِ الحرصِ على العلمِ يجدون في القراءة والإكباب على الدرس والطلب، ثم لا يُرزقون منهُ حظاً، فليعلم ذو العلم أنهُ لو كانَ بالإكباب وحدَهُ؛ لكان غيره فوقه، فصح أنهُ موهبة من الله تعالى، فأي مكان للعجب هاهنا ما هذا إلا موضع تواضع وشكر لله تعالى واستزادة من نعمه واستعاذة من سلبها.

❁ وبوب ابن ماجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بَابُ الِانْتِفَاعِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِهِ. وذكرَ جملةً من الأحاديثِ سيأتي بعضُها.

(١) "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٢٢١).

البيت رقم ١٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ أُعْطِيتَ فِيهِ طَوِيلَ بَاعٍ وَقَالَ النَّاسُ: إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَا

شرح البيت رقم ١٩

أي: علماً واسعاً، فَالبَاعُ الطَّوِيلُ لَا يَتَأَتَّى إِلَّا بِالاجْتِهَادِ وَالحِرْصِ عليه.

❁ قَالَ أَبُو الحَسَنِ المَدَائِنِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كِتَابِ "الحِكْمَةِ": قِيْلَ لِلشَّعْبِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ كُلُّ هَذَا العِلْمِ؟ قَالَ: بِنَفْيِ الاغْتِمَامِ، وَالسَّيْرِ فِي البِلَادِ، وَصَبْرٍ كَصَبْرِ الحَمَامِ، وَبُكُوْرٍ كَبُكُوْرِ الغُرَابِ. (١)

❁ قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: بِمَ أَدْرَكْتَ الْعِلْمَ؟ فَقَالَ: بِالْمِصْبَاحِ، وَالْجُلُوسِ إِلَى الصَّبَاحِ.

❁ وَقِيلَ لِآخَرَ، فَقَالَ: بِالسَّفَرِ، وَالسَّهَرِ، وَالْبُكُورِ فِي السَّحَرِ. (٢)

❁ وقد قَالَ الشَّافِعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي "رِسَالَتِهِ": حَقٌّ عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جُهْدِهِمْ فِي الِاسْتِكْثَارِ مِنْ عِلْمِهِ وَالصَّبْرُ عَلَى كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلَبِهِ وَإِخْلَاصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي إِدْرَاكِ عِلْمِهِ نَصًّا وَاسْتِنْبَاطًا وَالرَّغْبَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعَوْنِ عَلَيْهِ. (٣)

❁ وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَيَنْبَغِي أَنْ يَغْتَنِمَ التَّحْصِيلَ فِي وَقْتِ الْفَرَاغِ وَالنَّشَاطِ وَحَالِ الشَّبَابِ وَقُوَّةِ البدن ونباهة الخاطر وَقِلَّةِ الشَّوَاغِلِ قَبْلَ عَوَارِضِ الْبَطَالَةِ وَارْتِفَاعِ الْمَنْزِلَةِ. (٤)

---

(١) انظر "سير أعلام النبلاء"(٤/ ٣٠٠)، و"تذكرة الحفاظ"(١/ ٦٤)، وفيه (وصبر كصبر الجماد)، و"تاريخ دمشق"(٢٥/ ٣٥٥)، وعنده (وصبر كصبر الحمار).

(٢) "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي (٢/ ٢٠٧).

(٣) كما في "المجموع شرح المهذب"(١/ ٣٧).

(٤) "المجموع شرح المهذب" (١/ ٣٨).

❁ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالنَّاسُ طَبَقَاتٌ فِي الْعِلْمِ، مَوْقِعُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِقَدْرِ دَرَجَاتِهِمْ فِيهِ، فَحَقَّ عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جَهْدِهِمْ فِي الِاسْتِكْثَارِ مِنْ عِلْمِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلَبِهِ، وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ لِلَّهِ فِي إِدْرَاكِ عِلْمِهِ نَصًّا وَاسْتِنْبَاطًا وَالرَّغْبَةِ إِلَى اللَّهِ فِي الْعَوْنِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يُدْرَكُ خَيْرٌ إِلَّا بِعَوْنِهِ». (١)

❁ قَالَ حَافِظُ حَكَمِيٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٢)

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لا تَبْغِي بِهِ بَدَلاً ... فَقد ظَفِرت وربِّ اللوح والقلم
وَقَدِّسِ الْعِلْمَ وَاعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ ... في القَوالِ وَالفِعل والآدابِ فالتَزم
وَاجْهَدْ بِعَزْمٍ قَوي لا انِثْنَاءَ لَهُ ... لَوْ يَعْلَمُ المرءُ قَدْرَ الْعِلْمِ لَمْ يَنَم

❁ قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُ إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَصْبِرْ عَلَى تَعَبِ الْعِلْمِ، صَبَرْتَ عَلَى شَقَاءِ الْجَهْلِ. (٣)

❁ وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مَنْ تَفَرَّدَ بِالْعِلْمِ لَمْ تُوحِشْهُ خَلْوَةٌ، وَمَنْ تَسَلَّى بِالْكُتُبِ لَمْ تَفُتْهُ سَلْوَةٌ. وَمَنْ آنَسَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، لَمْ تُوحِشْهُ مُفَارَقَةُ الْإِخْوَانِ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَا سَمِيرَ كَالْعِلْمِ، وَلَا ظَهِيرَ كَالْحِلْمِ. (٤)

❁ وَقِيلَ لِلنُّوفَلِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مَا بِكَ مِن شَهْوَتِكَ لِلْعِلْمِ؟" قَالَ: "إِذَا نَشَطْتُ فَلَذَّتِي، وَإِذَا اغْتَمَمْتُ فَسُلْوَتِي. (٥)

---

(١) كما في "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي (٢/ ٢٠٤).
(٢) "المنظومة الميمية"
(٣) "محاضرات الأدباء" (١/٩).
(٤) "أدب الدنيا والدين" (صـ: ٨٣).
(٥) "الفقيه والمتفقه" (٢/ ٢٠٥).

❁ وَقِيلَ لعبيد اللهِ بنِ العباس كمْ تطلب العلم؟ قال: إذا نشطتُ فهو لذتي وإذا اغتممتُ فسلوتي.(١)

❁ قالَ بعضُهم:

يَا طَالِبَ الْعِلِم بَاشِرِ الْوَرَعَا وَجَانِبِ النَّومَ وَاحذَرِ الشِّبَعَا
دَاوِمْ عَلى الدَّرْسِ لا تُفَارِقَهُ فَالعِلمُ بِالدَّرْسِ قَامَ وَارتَفَعَا

❁ وَقَالَ بَعضهم: الْعلم عز لَا ذل فِيهِ لَكِن لَا ينَال إِلَّا بذل لَا عز فِيهِ.(٢)

❁ وفي "روضةِ العقلاء" (صـ:٣٦) بعد البيت الأول:

ما ضر عبداً صحت إرادته أجاع يوما في الله أو شبعا

قَولُهُ: "طَوِيلَ بَاعٍ"، البَاعُ: هُوَ الذِّرَاعَانِ يَمِينًا وَشِمَالًا، يُفْتَحُ الذِّرَاعَانِ يَمِينًا وَشِمَالًا مِنَ الكَفِّ إِلَى الكَفِّ، مَا بَيْنَ الكَفَّيْنِ يُقَالُ لَهُ البَاعُ.

وَهَذِهِ الرَّتَبَةُ مِنَ العِلْمِ لَا يُنَالُهَا الإِنْسَانُ إِلَّا بِالإِقْبَالِ عَلَى العِلْمِ،

وَالاِجْتِهَادِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَا بِاللَّغْوِ وَاللَّعِبِ.

"وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَا"، أي: صِرْتَ مَعْرُوفًا عِندَهُمْ بِالعِلْمِ، وَكَانَتْ لَهُ مَنْزِلَةٌ، وَهَذِهِ الرُّتَبُ لَا يُنَالُهَا الإِنْسَانُ بِالأَمَانِي. كَمَا قِيلَ:

يَا مَنْ يُحَاوِلُ بِالأَمَانِي رُتْبَتِي كَمْ بينَ مَستَفِلٍ وآخرُ راقِ

---

(١)"تاريخ دمشق"(٣٧/٤٩١)، وفيه وزيرة بن محمد الغساني قال الحافظ: لم أر فيه جرحا. "لسان الميزان"(٦/٢٢٠)، وفيه ضحاك بن يزيد السكسكي، مجهول حال، وفيه انقطاع أو إعضال بين عبيد الله ومن روى عنه فيما يظهر، والله أعلم.

(٢)"نشر طي التعريف" (صـ: ١٨٦).

بَيْنَهُمْ بُونٌ وَاسِعٌ وَفرقٌ شَاسِعٌ. وكَمَا قِيلَ: (١)

دَبُّوا إِلَى الْمَجْدِ وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا ... جَهْدَ النُّفُوسِ وَشَدُّوا نَحْوَهُ الْإِزَرَا
وَسَاوَرُوا الْمَجْدَ حَتَّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ ... وَعَانَقَ الْمَجْدَ مَنْ وَافَى وَمَنْ صَبَرَا
لَا تَحْسَبُ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ تَأْكُلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

بُلُوغُ المجدِ لَا تَظُنَّهُ كَأَكْلِ التَّمْرِ، أَوْ أَكْلِ الأَشْيَاءِ المُسْتَلَذَّةِ السهلة مِنَ المَأْكُولَاتِ.

لَا لَا، لَنْ تَبْلُغَ المجدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَ. ولله درُ الحكمي حيث يقولُ واصفاً للعلم:

العِلْمُ أَغْلَى وأحْلى ما لَهُ اسْتَمَعَتْ ... أُذْنٌ وأعْرَبَ عنهُ ناطِقٌ بِفَمِ
العِلْمُ غايَتُهُ القُصْوَى ورُتْبَتُهُ الْـ ... عَلْياءُ فاسْعَوا إليهِ يَا أُولِي الهِمَمِ
العِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلوبٍ وَطالِبُهُ ... للهِ أَكْرَمُ مَن يَمْشِي عَلى قَدَمِ
العِلْمُ نورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ ... أَهْلُ السَّعادَةِ والجُهَّالُ فِي الظُّلَمِ
الْعِلْمُ أَعْلَى حَياةٍ لِلعِبادِ كَما ... أَهْلُ الجَهالَةِ أَمْواتٌ بِجَهْلِهِمِ
لا سَمْع لا عَقْل بل لا يُبْصِرونَ وفِي السْـ ... ـسَعِيرِ مُعْتَرِفٌ كُلٌّ بِذَنْبِهِمِ
فالجَهْلُ أَصْلُ ضَلَالِ الخَلْقِ قاطِبَةً ... وأَصْلُ شَقْوَتِهِمْ طُرًّا وظُلْمِهِمِ
والعِلْمُ أَصْلُ هُداهُمْ مَعْ سَعادَتِهِمْ ... فلا يَضِلُّ ولا يَشْقى ذَوُو الحِكَمِ
والخَوفُ بالجَهْلِ والحُزْنُ الطويلُ بِهِ ... وعَن أُولِي العِلْمِ مَنْفِيَّانِ فَاعْتَصِمِ

(١) "حلية الأولياء" (١٠/ ٣٠٤).

البيت رقم ٢٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَـلاَ تَـأْمَـنْ سُـــؤَالَ اللهِ عَـنْـهُ بِتَوْبِيخ: عَلِمْتَ؛ فَهَلْ عَمِلْتَا

شرح البيت رقم ٢٠

أَيْ: إِذَا تَحَصَّلْتَ عَلَى بَاعٍ مِنَ العِلْمِ

هُنَا لَا بُدَّ أَنْ تَسْتَشْعِرَ وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هَذَا العِلْمَ الَّذِي تَحصلت عليه هُوَ كَنْزٌ عَظِيمٌ،

هُوَ ذَخْرٌ عَظِيمٌ، هُوَ شَرَفٌ كَبِيرٌ، لَا يُوَازِيهُ وَلَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ أَنتَ مَسْؤُولٌ عَنْ هَذَا العِلْمِ، مَاذَا عَمِلْتَ بِهَذَا العِلْمِ؟

هَلْ عَمِلْتَ بِهِ؟ هَلْ عَلَّمْتَ النَّاسَ؟

هَلْ نَصَحْتَ بِهِ النَّاسَ؟ هَلْ دَعَوْتَ النَّاسَ إِلَيْهِ؟

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ». (١)

فَالْإِنْسَانُ مَسْؤُولٌ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ، عَمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ؟

لِذَلِكَ كَانَ السَّلَفُ في غاية من الحرص عَلَى الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٧)، والدرامي (٥٥٤)، وأبي يعلى (٧٤٣٤)، والبيهقي في "المدخل"(٤٩٤)، وغيرهم. وجاء عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. والحديث في "السلسلة الصحيحة" للإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بلفظ:(عن خمس) برقم:(٩٤٦)، وجاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عند الطبراني في "الكبير" (١١١٧٧)، وهو في "الضعيفة" برقم:(١٩٢٢).

❁ قَالَ وَكِيع بْنُ الْجَرَّاحِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ وَكُنَّا نَسْتَعِينُ فِي طَلَبِهِ بِالصَّوْمِ». (١)

❁ وَقَالَ الْخُطَيْبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثُمَّ إِنِّي مُوصِيكَ يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي طَلَبِهِ، وَإِجْهَادِ النَّفْسِ عَلَى الْعَمَلِ بِمُوجَبِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ شَجَرَةٌ وَالْعَمَلَ ثَمَرَةٌ، وَلَيْسَ يُعَدُّ عَالِمًا مَنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمِهِ عَامِلًا، وَقِيلَ: الْعِلْمُ وَالِدٌ وَالْعَمَلُ مَوْلُودٌ، وَالْعِلْمُ مَعَ الْعَمَلِ...وَالْعِلْمُ يُرَادُ لِلْعَمَلِ كَمَا يُرَادُ الْعَمَلُ لِلنَّجَاةِ فَإِذَا كَانَ الْعَمَلُ قَاصِرًا عَنِ الْعِلْمِ، كَانَ الْعِلْمُ كَلًّا عَلَى الْعَالِمِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ عَادَ كَلًّا، وَأَوْرَثَ ذُلًّا، وَصَارَ فِي رَقَبَةِ صَاحِبِهِ غَلًّا. (٢)

❁ وكما قال ابنُ الوردي في اللامية:

فِي ازْدِيادِ الـعِـلْـمِ إِرْغَـامُ الـعِـدَى ... وَجَمَالُ الـعِـلْـمِ إِصْـلاحُ الـعَـمَـلْ

❁ وقال آخر كما في "اقتضاء العلم العمل" صـ٣٧:

اعْـمَـلْ بِـعِـلْـمِـكَ تَـغْـنَـمْ أَيُّـهَـا الـرَّجُـلُ ... لَا يَـنْـفَـعُ الْـعِـلْـمُ إِنْ لَمْ يَحْسُـنِ الْـعَـمَـلُ

وَالْـعِـلْـمُ زَيْـنٌ وَتَـقْـوَى اللَّهِ زِيـنَـتُـهُ ... وَالْـمُـتَّـقُـونَ لَهُـمْ فِي عِـلْـمِـهِـمْ شُـغُـلُ

وَحُـجَّـةُ اللَّهِ يَـا ذَا الْـعِـلْـمِ بَـالِـغَـةٌ ... لَا الْـمُـكْـرُ يَـنْـفَـعُ فِـيـهَـا لَا وَلَا الْـحِـيَـلُ

تَعَلَّمِ الْعِلْمَ وَاعْمَلْ مَـا اسْـتَـطَـعْـتَ بِـهِ ... لَا يُـلْـهِـيَـنَّـكَ عَـنْـهُ الـلَّـهْـوُ وَالْجَدَلُ

قوله: "**بِتَوْبِيخِ عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَ؟**"، هَلْ عَلِمْتَ بِعِلْمِكَ؟ هل انتفعت بعلمك؟

---

(١) أخرجه أبوطاهر في "المخلصيات"(١٦٠٢)، ومن طريقه ابن عساكر في "أخبار لحفظ القرآن" برقم (١١). وسنده صحيح، وروي عن وكيع عن إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُجَمِّعِ بْنِ جارِيَةَ، وروي عن الشعبي كما ذكر ابن عبد البر في "الاستذكار"(٨/٥٧١)، و"التمهيد"(٢٢/١٨)، و"جامع بيان العلم"(١/٧٠٨)، ولم يسنده.

(٢) "اقتضاء العلم العمل" (صـ: ١٤).

قَدْ جَاءَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا». (١)

وعن مَكْحُولٍ، أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَمِعَهُ يَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو يَقُولُ: «اللهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَارْزُقْنِي عِلْمًا تَنْفَعُنِي بِهِ» (٢).

وجاء عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ». (٣)

وجاء عن عدد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بنحو ما تقدم

❁ وصح عن سُفْيَان بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ مِنْ عِلْمٍ يَنْفَعُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَضَرَّ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ». (٤)

❁ وكَمَا قال السَّفَارِينِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَنْ نَهَى عَمَّا لَهُ قَدِ ارْتَكَبْ ... فَقَدْ أَتَى مِمَّا بِهِ يُقْضَى الْعَجَبْ
فَلَوْ بَدَا بِنَفْسِهِ فَذَادَهَا ... عَنْ غَيِّهَا لَكَانَ قَدْ أَفَادَهَا

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) رواه النسائي (٧٨١٩)، وبوب عليه، وعلى حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا :(الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ)، والحاكم (١٨٧٩)، وغيرهم وهو في " السلسلة الصحيحة"(٣١٥١).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٤٣)، وأبو يعلى في "مسنده" (١٩٢٧)، والبيهقي في "الدعوات" (٢٠٠)، وغيرهم، وحسنه الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيحة" (١٥١١).

(٤) "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٦٣٠).

وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ الصف: ٢

وَيَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ البقرة: ٤٤. وَقَالَ اللَّهُ عَنْ شُعَيْب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ ﴾هود: ٨٨

❁ وكما قال بعضهم: (١)

يَـا أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ الْـمُـعَـلِّـمُ غَـيْرَهُ ... هَـلاَ لِـنَـفْسِـك كَـانَ ذَا الـتَّـعْـلِـيـمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى ... كَـيْـمَا يَصِـحَّ بِـهِ وَأَنْـتَ سَـقِـيـمُ

ابْـدَأْ بِـنَـفْسِـك فَـانْـهَـهَـا عَـنْ غَـيِّـهَـا ... فَـإِذَا انْـتَـهَـتْ عَـنْـهُ فَـأَنْـتَ حَـكِـيـمُ

هُـنَـاكَ يُـقْـبَـلُ مَـا تَـقُـولُ وَيُـقْـتَـدَى ... بِـالْـقَـوْلِ مِـنْـكَ وَيَـنْـفَـعُ الـتَّـعْـلِـيـمُ

لاَ تَـنْـهَ عَـنْ خُـلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِـثْـلَـهُ ... عَـارٌ عَـلَـيْـك إذَا فَـعَـلْـت عَـظِـيـمُ

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَأْتِيهِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَأْتِيهِ، «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ». (٢).

اعْمَلْ بِالْعِلْمِ، اعْمَلْ مَا تَأْمُرُ بِهِ النَّاسَ، اعْمَلْ بِهِ أَوَّلًا، واجتنب ما تحذر منه.

---

(١) "أدب الدنيا والدين"(صـ:٣٤) و" شعب الإيمان"(١٧٨٠)، و"مدارج السالكين"(١/٤٤٥)، وغيرهم بألفاظ متقاربة وعند البيهقي الأولى والثانية والثالثة فيها اختلاف.

(٢) رواه "البخاري" (٣٢٦٧)، و"مسلم " (٢٩٨٩)، واللفظ له، عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ وَقَالَ عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ الْمَلَائِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِذَا سَمِعْتَ بِالْخَيْرِ فَاعْمَلْ بِهِ وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً».(١)

❁ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ.(٢)

❁ قَالَ أبو عُثْمَانَ سعيدُ بن إسماعيل الْحِيرِيِّ:(٣)

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى ... طَبِيبٌ يُدَاوِي وَالطَّبِيبُ مَرِيضُ

---

(١) صحيح، أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٥/١٠٢)، وابن أبي الدنيا في "الإشراف في منازل الأشراف" صـ:٣٧٣، وعنده بالخبر.

(٢) جاء هذا الأثر عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرجه الخطيب في "اقتضاء العلم" (برقم: ص٣٥)، ومن طريقه السيوطي في "أجياد المسلسلات" صـ:٢٧٢، وأخرجه ابن عساكر في "ذم من لا يعمل بعلمه" (برقم:١٤)، وابن الجوزي في "المنتظم" (١٧/٢٠). مسلسلاً بعدد من الآباء وهو من طريق عبدا لعزيز بن الحارث بن أسد، قَالَ الْعَلَائِيُّ: عَبْدَ الْعَزِيزِ مُتَكَلَّمٌ فِيهِ عَلَى إِمَامَتِهِ، وَاشْتُهِرَ بِوَضْعِ الْحَدِيثِ، وَبَقِيَّةُ آبَائِهِ مَجْهُولُونَ لَا ذِكْرَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ أَصْلًا. كما في "تدريب الراوي" (٢/٢٣٦). دار طيبة. وجاء عَنِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ، أخرجه الخطيب في "اقتضاء العلم العمل" (برقم:٤١)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٥٦/ ٦٦)، وفي سنده إِسْحَاق بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبَانَ النَّخَعِيُّ. قال الذهبي: كذاب مارق من الغلاة... وكان يطلى برصه بما يغيره، فسمى بالأحمر. "ميزان الاعتدال" (١/ ١٩٦)

وجاء عن سُفْيَان الثَّوْرِي كما ذكر ذلك ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٧٠٧)، ولم يسنده. وجاء عن سري بن المغلس، وفي سنده من لا يُعرف. "بغية الطلب في تاريخ حلب" (٩/ ٤٢٢٤)،

وذكره بعضهم عن سهل بن عبد الله، قال ابن الحاج: وَكَمَا قَالَ الْإِمَامُ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ. "المدخل" لابن الحاج (٤/ ٢٨٦)، وقال الماوردي: وَقَالَ بَعْضُ الصُّلَحَاءِ: فذكره. "أدب الدنيا والدين" (صـ: ٧٦).

(٣) "شعب الإيمان" (٦٩٢١).

❁ قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَطْلُبُ الْعِلْمَ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَرَى ذَلِكَ فِي تَخَشُّعِهِ وَهَدْيِهِ وَفِي لِسَانِهِ وَبَصَرِهِ وَبِرِّهِ فِي تَخَشُّعِهِ، وَزُهْدِهِ، وَلِسَانِهِ وَبَصَرِهِ. (١)

وَكَمْ مِنَ الآيَاتِ الَّتِي يَذْكُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا الْعَمَلَ الصَّالِحَ مَقْرُونًا بِالْإِيمَانِ،

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ النحل: ٩٧

فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ.

❁ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بَلْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ؛ فَإِذَا عَلِمَ الْإِنْسَانُ الْحَقَّ وَأَبْغَضَهُ وَعَادَاهُ كَانَ مُسْتَحِقًّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ. (٢)

أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ، فَذَنْبُهُ مِنْ جِنْسِ ذَنْبِ الْيَهُودِ، لِأَنَّ الْيَهُودَ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عِلْمًا فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ فَاسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ.

❁ وَقَالَ ابنُ رسلان: (٣)

فعاملٌ بعلمِه لم يعْملَنْ ... معذَّبٌ من قبلِ عبَّاد الوثنِ
وكل من بِغَيْرِ علم يعْمل ... أَعمالُه مَرْدُودَة لَا تقبل

(١) أخرجه أحمد في "الزهد"(١٤٦٣)، والبيهقي في "الشعب" (١٦٧٠)، وفي "المدخل إلى السنن"(٥٠٢)، والخطيب في "الجامع"(١٧٥)، وسنده صحيح.

(٢) "مجموع الفتاوى" (٧/ ٥٨٦)، وجاء حديثاً مرفوعاً، (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ). ضعيف الإسناد جداً، وهو في "الضعيفة"(١٦٣٤).

(٣) "الزبد في الفقه الشافعي" صـ٤

ومن أَوَّل مَنْ تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ، ثَلاثَةٌ، قال في الحديث (وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّار). فالمقاتلُ؛ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ. والمنفق؛ هُوَ جَوَادٌ. (١)

لِيُقَال قَارِئٌ، مُتَصَدِّقٌ، لِيُقَالَ جَوَادٌ، مُجَاهِدٌ لِيُقَالَ جَرِيءٌ.

(١) رواه "مسلم" (١٩٠٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البيت رقم ٢١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَـرَأْسُ الْـعِـلْـمِ تَـقْـوَى اللهِ حَـقّـاً وَلَـيْـسَ بِـأَنْ يُـقَـالَ لَـقَـدْ رَأَسْـتَـا

شرح البيت رقم ٢١

فَحَقِيقَةُ الْعِلْمِ هُوَ: مَا أَوْرَثَ الْخَشْيَةَ وَالتُّقَى.

رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْخَشْيَةُ».(١) بل نقل عن عدد كما قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال كثيرٌ من السلف: لَيْسَ الْعِلْمُ كَثْرَةَ الرِّوايةِ ولَكِنّ الْعِلْمَ الْخَشْيةُ.(٢)

❁ قال أَبُو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الواجبُ على العاقلِ مجانبة مَا يدنس علمه من أسباب هذه الدنيا مع القصد في لزوم العمل بما قدر عَلَيْهِ ولو استعمال خمسة أحاديث من كل مائتي حديث فيكون كأنه قد أدى زكاة العلم فمن عجز عَن العمل بما جمع من العلم فلا يجب أن يعجز عَن حفظه.(٣)

---

(١) رواه أحمد في "الزهد"(٨٦٧)، وأبو داود في "الزهد"(١٧٢)، والطبراني في "الكبير"(٨٥٣٤)، وأبو نعيم في "الحلية"(١/ ١٣١)، من طريق مُسْلِمِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، ثنا قُرَّةُ بْنُ خَالِدٍ، ثنا عَوْنٌ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ. ورواية عون عن ابن مسعود، قال المزي: وذكر أَبُو عيسى التِّرْمِذِيّ، والدارقطني أن روايته عَنْ عَبد اللَّه بْن مسعود مرسلة. "تهذيب الكمال"(٢٢/ ٤٥٦). قال العلائي: وذلك واضح. جامع التحصيل (صـ: ٢٤٩). وقال الذهبي: وَأَرْسَل أَيْضاً عَنْ: عَمِّ أَبِيْهِ؛ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُوْدٍ. "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (٥/ ١٠٤).

ويُقال: إن روايته عن الصحابة مرسلة. "تهذيب الكمال" (٢٢/ ٤٥٤).

(٢) "مجموع رسائل ابن رجب" (١/ ١٨).

(٣) "روضة العقلاء" (صـ: ٣٨).

❁ وجاء عن مَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «إِنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ نُورٌ يَجْعَلُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ»(١). وقال أيضاً: «الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ نُورٌ يَهْدِي اللَّهُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَيْسَ بِكَثْرَةِ الْمَسَائِلِ»(٢).

❁ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ الْمِصْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَعْنَاهُ: أَنَّ الْخَشْيَةَ لَا تُدْرَكُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَأَمَّا الْعِلْمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ يُتَّبَعَ فَإِنَّمَا هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَمَا جَاءَ عَنِ الصَّحَابَةِ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَهَذَا لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالرِّوَايَةِ وَيَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: "نُورٌ" يُرِيدُ بِهِ فَهْمَ الْعِلْمِ، وَمَعْرِفَةَ مَعَانِيهِ. (٣)

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ فاطر: ٢٨

❁ قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسير الآية" أَيْ: إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ لِلْعَظِيمِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الْمَنْعُوتِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى -كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمَّ وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلَ، كَانَتِ الْخَشْيَةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ.

❁ ونقل القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسير الآية" عدداً من الآثار:

❁ وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: مَنْ لَمْ يَخْشَ اللَّهَ تَعَالَى فَلَيْسَ بِعَالِمٍ.

❁ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٦/٣١٩)، والخطيب في "الجامع" (١٥٢٦)، وغيرهم من طريق ابن وهب عنه، وسنده صحح.

(٢) أخرجه البيهقي في "المدخل" (٣٠٩)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله" (١/٨٣)، وغيرهم وسنده صحيح.

(٣) ذكره ابن كثر في "تفسيره" لسورة فاطر آية :٢٨.

❁ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى علما وبالاغترار جهلا.

❁ وقيل لسعد ابن إِبْرَاهِيمَ: مَنْ أَفْقَهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؟ قَالَ أَتْقَاهُمْ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

❁ وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: إِنَّمَا الْفَقِيهُ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. (١)

❁وقال السِعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره": فكلُ من كان باللهِ أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته.

هُمْ أَهْلُ الْخَشْيَةِ، أَهْلُ التَّقَى.

❁ وقال ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فلمَّا زادتْ معرفةُ الرسولِ بربِّه، زادتْ خشيتُه له وتقواه، فإنَّ العلمَ التامَّ يستلزمُ الخشيةَ، كما قالَ تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ). فمن كان

---

(١) أثر ابن مسعود، أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه"(٣٤٣٥٢)، والطبراني في "الكبير"(٨٩٢٧)، والبيهقي في "المدخل"(٤٨٧)، وفي "الشعب"(٧٣٢)، وغيرهم بسندٍ منقطع. وصح عن الفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك عند ابن الأعرابي في "معجمه"(١٦٩١)، (١٦٩٦).

وأثر سعد بن إبراهيم، أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣/١٦٩)، وفيه محمد بن عثمان بن أبي شيبة، مختلف فيه. قال الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت: فالذي يظهر لي أنه ضعيف، وأما تكذيب مطين له فلا يلتفت إليه لما بينهما من العداوة والله أعلم. "رجال الحاكم"(٢/ ٢٥٤). وأخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق"(٢٠/٢١٨)، والدارمي (٣٠٣)، من طريق الحسن بن عرفة، حدثنا النضر بن إسماعيل البجلي، عن مسعر، عن سعد بن إبراهيم... والنظر بن إسماعيل: ليس بالقوي، وقال ابن معين: ليس بشيء "تهذيب الكمال"(٢٩/٣٧٤).

وأثر مجاهد أخرجه ابن أبي شيبه في "مصنفه"(٣٥٤٥٢)، والدارمي في "سننه"(٣٠٤)، ابن بطة في "إبطال الحيل"(صـ:١٤)، من طريق حُسَيْن بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، وليث بن أبي سليم ضعيف كما في "تهذيب الكمال"(٢٤/٢٨٢)، وغيره.

باللَّهِ وبأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه وأحكامِه أعلم، كان له أخشى وأتقى، وإنَّما تنقص الخشيةُ والتقوى بحسبِ نقصِ المعرفةِ باللَّهِ.(١)

❁ وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَكُلُّ مَنْ خَشِيَهُ، وَأَطَاعَهُ، وَتَرَكَ مَعْصِيَتَهُ فَهُوَ عَالِمٌ.(٢) وله كلامٌ كثير حول هذا المعنى كما في "مجموع الفتاوى" في أكثر من موضع.

❁ وقال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فكلما ازداد الإنسان علماً بآيات الله ازداد تقًى؛ ولهذا يقال: من كان بالله أعرف كان منه أخوف.(٣)

❁ قَالَ ابْنُ الْوَرْدِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَاتَّــقِ اللهَ فَــتَــقْــوَى اللهِ مَــا ... جَـاوَرَتْ قَـلْـبَ امْـرِىءٍ إِلاَّ وَصَــلْ

لَـيْـسَ مَـنْ يَـقْـطَـعُ طُـرُقـاً بَـطَـلاَ ... إِنَّـمَا مَـنْ يِـتَّـقِـي اللهَ الـبَـطَـلْ

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ الْعِلْمُ فَيَكْسِبَهُ التَّقْوَى وَالْخَشْيَةَ، وَهَذَا يَأْتِي بِالْعَمَلِ بِهِ.

أَمَّا إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِالْعِلْمِ فَكَيْفَ تَتَحَصَّلُ لَهُ تِلْكَ التَّقْوَى؟ وَالْعِلْمُ يُثْبَتُ بِالْعَمَلِ بِهِ.

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَالْعَمَلُ بِهِ، مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ حِفْظِهِ وَثَبَاتِهِ، وَتَرْكُ الْعَمَلِ بِهِ إِضَاعَةٌ لَهُ فَمَا اسْتدر الْعِلْمُ وَلَا اسْتُجْلِبَ بِمِثْلِ الْعَمَلِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ الحديد: ٢٨.(٤)

❁ فائدة: لَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَاب قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ البقرة: ٢٨٢ بَعْضُهُمْ يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ التَّقْوَى تَكْسِبُ الْعِلْم.

---

(١) "تفسير ابن رجب" (١/ ١٧٤).

(٢) " مجموع الفتاوى" (١٤/ ٢٩٢).

(٣) "تفسير العثيمين": الفاتحة والبقرة (٢/ ٣٦١).

(٤) "مفتاح دار السعادة" (١/ ١٧٢).

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ البقرة: ٢٨٢ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، أَيْ هَذِهِ الْآيَةُ، بَلْ هُمَا جُمْلَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ، طَلَبِيَّةٌ، وَهِيَ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى، وَخَبَرِيَّةٌ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: وَاللَّهُ يَعْلَمُكُم مَّا تَتَّقُونَ. وَلَيْسَتْ جَوَابًا لِلْأَمْرِ بِالتَّقْوَى. وَلَوْ أُرِيدَ بِهَا الْجَزَاءُ لَأَتَى بِهَا مَجْزُومَةً مُجَرَّدَةً عَنِ الْوَاوِ، فَكَانَ يَقُولُ: "وَاتَّقُوا اللَّهَ يَعْلَمْكُمْ." فَيَكُونُ جَزَاءً لِلتَّقْوَى: التَّعْلِيمُ. وَلَوْ أُرِيدَ بِهَا الْجَزَاءُ لَأَتَى بِهَا مَجْزُومَةً مُجَرَّدَةً عَنِ الْوَاوِ، فَكَانَ يَقُولُ: "وَاتَّقُوا اللَّهَ يَعْلَمْكُمْ." أَوْ: "إِنْ تَتَّقُوا يَعْلَمْكُمْ." كما قال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ الأنفال: ٢٩ فتدبره. (١)

وَهَذِهِ فَائِدَةٌ تُذْكَرُ، فَلَا يُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَيُقَالُ: التَّقْوَى سَبَبٌ للعِلْمِ؛ لهذه الآية.

وَالْعِلْمُ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ، بِلا شَكٍّ، إِنَّهُ يُكْسِبُ الْإِنْسَانَ التَّقْوَى.

وَأَيْضًا، الْمُتَّقِي لِلَّهِ حَقًّا يَطْلُبُ الْعِلْمَ، يَتَعَلَّمُ، يَعْرِفُ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ، وَالْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ.

"وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْتَا". كَمْ مِنَ النَّاسِ يَتَرَأَّسُ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ وَيَتَأَسَّسَ، فَيَأْتِي بِالْعَجَائِبِ، وَيَنْبَعِثُ مِنْ جَرَّائِهِ الْفِتَنُ وَالْمَشَاكِلُ وَالْخِلَافَاتُ، وَيَفُوتُهُ الْحَظُّ الْكَبِيرُ مِنَ الْعِلْمِ.

❁ قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ البستي الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَبَلَغَنِي عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: مَنْ تَرَأَّسَ فِي حَدَاثَتِهِ كَانَ أَدْنَى عُقُوبَتِهِ أَنْ يَفُوتَهُ حَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْعِلْمِ. وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَنَّهُ قَالَ: مَنْ طَلَبَ الرِّيَاسَةَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَوَانِهِ لَمْ يَزَلْ فِي ذُلٍّ مَا بَقِيَ... أَخْبَرَنِي أَبُو عُمَرَ قَالَ: " قُلْتُ لِلْمُبَرِّدِ: لِمَ صَارَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْفَظَ مِنْكَ لِلْغَرِيبِ وَالشِّعْرِ، يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ

(١) "مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ"(١/ ١٧٢).

يَزِيدَ بْنِ يَحْيَى، قَالَ: «لِأَنِّي تَرَأَّسْتُ وَأَنَا حَدَثٌ وَتَرَأَّسَ وَهُوَ شَيْخٌ». (١) وَيُقَالُ لِمَنْ تَصَدَّرَ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ: تَزَبَّبَ قَبْلَ أَنْ يَتَحَصَّرَم.

❁ قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَفَقَّهْ قَبْلَ أَنْ تَرْأَسَ، فَإِذَا تَرَأَّسْتَ فَلَا سَبِيلَ إِلَى التَّفَقُّهِ». (٢)

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَ بِعِلْمِهِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ رَأْسَ ذَلِكَ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَمَا وَاللهِ، إِنِّي لَأَتْقَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ». (٣)

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي». (٤)

فلا يكن همك أن تذكر وتترأس وإنما العمل بالعلم ، والخشية، وتحصيل التقوى.

---

(١) "العزلة "للخطابي (صـ: ٨٣).

(٢) له طرق، أخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤١/٢٠٥)، وفيه الْحَسَن بن الْحُسَيْن بن حمكان، أَبُو عَلِيّ الهمذاني، قَالَ الأزهري: أَبُو عَلِيّ بن حمكان ضعيف ليس بشيء في الحديث. "تاريخ دمشق" (٧/٣١٠).

وأخرجه البيهقي في "المدخل" (٣٧٥)، "ومناقب الشافعي" (٢/١٤٢)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه"(٢/ ١٥٢)، ولم أقف على بعض رواته.

(٣) رواه "البخاري" (٥٠٦٣)، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والحديث متفق عليه، ومسلم (١١٠٨) عن عمر بن أبي سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، في "البخاري"(٢٠)

(٤) رواه "مسلم"(١١١٠)، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

البيت رقم٢٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَفْضَـــلُ ثَوْبِـكَ الإِحْسَـــانُ لَكِنْ نَرَى ثَوْبَ الإِسَـــاءَةِ قَـدْ لَبِسْـــتَا

شرح البيت رقم ٢٢

أَفْضَلُ لِبَاسٍ يَلْبَسُهُ الْإِنْسَانُ هُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى. وَهُوَ خَيْرٌ زَادٌ.

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ البقرة: ١٩٧

❁ قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره": لَمَّا أَمَرَهُمْ بِالزَّادِ لِلسَّفَرِ فِي الدُّنْيَا أَرْشَدَهُمْ إِلَى زَادِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ اسْتِصْحَابُ التَّقْوَى إِلَيْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الأعراف: ٢٦. لَمَّا ذَكَرَ اللِّبَاسَ الْحِسِّيَّ نَبَّه مُرْشِدًا إِلَى اللِّبَاسِ الْمَعْنَوِيِّ، وَهُوَ الْخُشُوعُ، وَالطَّاعَةُ وَالتَّقْوَى، وَذَكَرَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا، وَأَنْفَعُ.

❁ قال الأَعْشى: (١)

إذا أَنْـتَ لَمْ تَرْحَـلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى وَلاقَيْـتَ بَعْـدَ الْمَوْتِ مَنْ قَـدْ تَزَوَّدَا
نَـدِمْـتَ عَلَى أَنْ لا تَكُـونَ كَـمِثْـلِـهِ وَإِنَّكَ لَمْ تَرْصُـــدْ كَمَا كَانَ أَرْصَـــدَا

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأعراف: ٢٦

❁ قال السِعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره": ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباس الحسي، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح.

---

(١) "اقتضاء العلم العمل"(١٦٦)، ونسبت لسابق البربري كما في "الحلية" لأبي نعيم (٣١٨/٥)، و"تاريخ بن عساكر" (١٣/٢٠). وغيرها من المصادر.

وأما اللباس الظاهري، فغايته أن يستر العورة الظاهرة، في وقت من الأوقات، أو يكون جمالا للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع.

وأيضاً، فبتقدير عدم هذا اللباس، تنكشف عورته الظاهرة، التي لا يضره كشفها، مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تنكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة.ا.هـ.

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَسَتَّرَ بِلبَاسِ التَّقْوَى وَالإِحْسَانِ، وَلَيْسَ بِمُجَرَّدِ الْمَلْبَسِ.

❁ كَمَا قِيلَ:

لـيـس الجَـمَالُ بـأثـوابٍ تُـزيّـنُـنَـا ... إنَّ الجَـمَالَ جَمَـالُ الـعِـلْـم والأدَبِ
لَيسَ اليَتيمُ الَّـذي قَـد مـاتَ والِـدُهُ ... إنَّ الـيَـتـيـمَ يَـتـيـمُ الـعِـلـم وَالأَدَبِ

❁ وَكما تقدم:

لَـيْـس الجَـمَالُ بِـمِـئـزَر ... فـاعْـلَـم وإنْ رُدِّيـت بُـرْدا
إنَّ الجَـمَالَ مَـعَـادِنٌ ... ومَـنَـاقِـبٌ أورثْـنَ مَجْـداً

خَيْرُ مَا يُلْبَسُ الْإِنْسَانُ هُوَ لباس التَّقْوَى والإحسان، فيكُونُ لَهُ كَاللِّبَاسِ مُلاَزِمًا لَهُ، فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مُكْتَسِيًا بِالْإِحْسَانِ، لَا بِالإِساءةِ وَالْكُفْرَانِ.

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَنَّسَ نَفْسَهُ بِالْإِسَاءَةِ يَحْصُلُ لَهُ مَا يَحْصُلُ مِنَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ، وَإِذَا كَانَ سَلِيمًا عَلَى خَيْرٍ وَتَقَى، فَكُلُّ مَا يَرْتَدِيهِ مِنَ الثِّيَابِ السَّاتِرَةِ فَهِيَ جَمِيلَةٌ فِي حَقِّهِ.

❁ كَمَا قَالَ بَعْضُهُم:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُـهُ ... فَـكُـلُّ رِدَاءٍ يَـرْتَـدِيـهِ جَمِـيـلُ

البيت رقم ٢٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْراً فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

شرح البيت رقم ٢٣

أَيْ: إذا لَمْ تَسْتَفِدْ مِنَ الْعِلْمِ فَالْجَهْلُ أَفْضَلُ لَكَ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ يُصِيرُ حُجَّةً عَلَيْكَ.

لِمَا جَاءَ عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ». (١)

❁ قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَمَعْنَاهُ ظَاهِرٌ أَيْ: تَنْتَفِعُ بِهِ إِنْ تَلَوْتَهُ وَعَمِلْتَ بِهِ وَإِلَّا فَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْكَ. (٢)

❁ قال الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «لَيْسَ الْعِلْمُ مَا حُفِظَ. الْعِلْمُ مَا نَفَعَ». (٣)

---

(١) رواه "مسلم"(٢٢٣).

(٢) " شرح مسلم" عند الحديث المذكور.

(٣) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٩/١٢٣)،

وأخرجه البيهقي في "المدخل"(٥١٦)، وفي "مناقب الشافعي" (٢/١٤٩)، وفيه أبو عبد الرحمن السلمي، فيه ضعف. والآجري في "جزء فيه حكايات عن الشافعي وغيره" (صـ: ٢٩)، بسندٍ حسن.

وله طرق أخرى منها عند السبكي في "معجم الشيوخ" (٤٩٩)، والتركماني في "مشيخته" (صـ:١٠)

وجاء عن مطر الوراق أنه قال: خَيْرُ الْعِلْمِ مَا نَفَعَ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ اللهُ بِالْعِلْمِ مَنْ عَلِمَهُ وَعَمِلَ بِهِ، وَلَا يَنْفَعُ بِهِ مَنْ عَلِمَهُ ثم تَرَكَهُ. أخرجه البيهقي في "الشعب" (١٦٦٥)، وفي "المدخل" (٥١٨)، والخطيب في "اقتضاء العلم العمل" (٣٤)، و"الجامع لأخلاق الراوي والسامع" (٣٢)، وفيه سنده زكريا بن نافع، مجهول حال، وقال ابن حبان: يغرب. "لسان الميزان" (٢/٤٨٣)، وعباد بن عباد، وثقه ابن معين وغيره، وبالغ ابن حبان فقال: كان ممن غلب عليه التقشف والعباد حتى غفل عن الحفظ والاتقان، كان يأتي بالشيء على حسب التوهم حتى كثرت المناكير في روايته على قلتها، فاستحق الترك. "الميزان"(٢/٣٦٨).

وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَا يُحْمَلُ الْعِلْمُ وَلَا يُحْسَنُ إِلَّا بِثَلَاثِ خِلَالٍ: تَقْوَى اللَّهِ، وَإِصَابَةِ السُّنَّةِ، وَالْخَشْيَةِ. (١)

❁ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثُمَّ العِلْمُ لَيْسَ هُوَ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَلَكِنَّهُ نُوْرٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي القَلْبِ، وَشَرْطُهُ الاتِّبَاعُ، وَالفِرَارُ مِنَ الهَوَى وَالابْتِدَاعِ، وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُم لِطَاعَتِهِ.(٢) فَينبغي لِلْإِنْسَانِ أن يُؤثرَ العِلْمُ عليه في سائر حياتِهِ ، وَإِلَّا قَدْ يَكُونُ الْجَهْلُ أَفْضَلَ لَهُ، لِأَنَّهُ يَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِ وَحُجَّةً.

❁ جاءَ عَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ حَقًّا عَلَى مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَقَارٌ، وَسَكِينَةٌ، وَخَشْيَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِأَثَرِ مَنْ مَضَى قَبْلَهُ. (٣)

❁ قال أبو نعيم في "الحلية"(٦/ ٣٢٠): قَالَ مَالِكٌ: وَحُقَّ عَلَى مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ وَخَشْيَةٌ، وَالْعِلْمُ حَسَنٌ لِمَنْ رُزِقَ خَيْرَهُ، وَهُوَ قَسْمٌ مِنَ اللهِ. فَلَا تُمَكِّنِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ. فَإِنَّ مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يُوَفَّقَ لِلْخَيْرِ، وَإِنَّ مِنْ شِقْوَةِ الْمَرْءِ أَنْ لَا يَزَالَ يُخْطِئُ. وَذُلٌّ وَإِهَانَةٌ لِلْعِلْمِ أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ بِالْعِلْمِ عِنْدَ مَنْ لَا يُطِيعُهُ.ا.هـ.

وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً قال: ...وَخَيْرَ الْعِلْمِ مَا نَفَعَ، وَخَيْرَ الْهُدَى مَا اتُّبِعَ، وَشَرَّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ... وجاء مرفوعاً عن أبي الدرداء، وعقبة بن عامر، رضي الله عنهما، وهو في "ضعيف الجامع" (١٢٣٩).

(١) أخرجه البيهقي "المدخل" (٥١٥). وسنده ضعيف من طريق أبي عبد الرحمن السلمي، صَاحب المصنفات تكلم فِيهِ وَمَا هُوَ بِالْحجَّةِ وَقَالَ الْخَطِيب: قَالَ لي مُحَمَّد بن يُوسُف الْقطَّان: كَانَ يضع الْأَحَادِيث للصوفية. "المغني في الضعفاء" (٢/ ٥٧١).

(٢) "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (١٣/ ٣٢٣).

(٣) أخرجه البيهقي في "المدخل"(٥١٠)، وأبو نعيم في "الحلية"(٦/ ٣٢٤)، والخطيب في "الجامع"(٢٠٩)، وغيرهم، بسند صحيح.

لَا يَكُنْ هَمُّ الطَّالِبِ: الكَمُّ وَالتَّجْمِيعُ، كَمْ حَفِظَ وأَنَّهُ حَفِظَ كَذَا وَكَذَا؟ وَدَرَسَ كَذَا وَكَذَا، الأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ هُوَ أَنَّ هَذَا العِلْمَ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ، يَعْمَلُ بِهِ، يَكْتَسِبُ مِنْهُ الْخَشْيَةَ، وَالْوَقَارَ، وَالسَّكِينَةَ، وَالتَّقْوَى، يَنتَفِعُ بِهِ. فَلَيْسَ العِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَلَا بِكَثْرَةِ الْمَسَائِلِ، العِلْمُ هُوَ الْخَشْيَةُ، وَالْوَقَارُ، وَالسَّكِينَةُ، وَالانْكِسَارُ، وَالتَّضَرُّعُ، وَالتَّوَاضُعُ، وَالفِقْهُ، فِقْهُ الْأُمُورِ، وَمَعَ ازْدِيَادِهِ مِنْهُ يَعْمَلُ بِهِ.

لِيَكُنْ مَقْصَدُكَ هُوَ العَمَلُ بِالْعِلْمِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ التَّكَثُّرِ فَقَطْ.

❁ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا جَالَسَ أَحَدٌ الْقُرْآنَ، فَقَامَ عَنْهُ سَالِمًا؛ بَلْ إِمَّا أَنْ يَرْبَحَ أَوْ أَنْ يَخْسَرَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ الإسراء: ٨٢. (١)

(١) "جامع العلوم والحكم" (٢/ ٢٦)، جاء عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه قال: «مَا جَالَسَ الْقُرْآنَ أَحَدٌ فَقَامَ عَنْهُ إِلَّا بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ» ثُمَّ قَرَأَ {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: ٨٢]، أخرجه الدارمي في السنن (٣٣٨٧) وأبو عبيد القاسم بن سلام في "فضائل القرآن" للقاسم بن سلام (صـ: ٥٦)، بسندٍ فيه ضعف.

البيت رقم ٢٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا

شرح البيت رقم ٢٤

أَيْ: لَمْ يَفْهَمْ الْفَهْمَ الصَّحِيحَ، بَلْ غَيْرَ المعنى الحقيقي وَبَدَّلَ.

وكَمْ مِمَّنْ يَنتَسِبُ إِلَى الْإِسْلَامِ يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِفَهْمِهِ، فِيُغَيِّرِ وَيُبَدِّلُ، وَيَقَعُ فِي أُمُورٍ خَطِيرَةٍ مِنْ عَقَائِدَ فِي الْأَسْمَاءِ وَالْصِّفَاتِ، فِي الْعَقِيدَةِ فِي التَّوحِيدِ، فِيمَا شَابَهَ ذَلِكَ. لَا يُفْهَمُ الْفَهْمَ الصَّحِيحَ.

وانظر إلى فهم بعض أهل الجهل والمجون بل والزندقة لقوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴾ الماعون: ٤

❁ قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذِهِ الْآيَةُ يَتَوَهَّمُ مِنْهَا الْجَاهِلُ أَنَّ اللَّهَ تَوَعَّدَ الْمُصَلِّينَ بِالْوَيْلِ، وَقَدْ جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّ عَدَمَ الصَّلَاةِ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ سَقَرَ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾ المدثر: ٤٢ - ٤٣ وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا فِي غَايَةِ الظُّهُورِ، وَهُوَ أَنَّ التَّوَعُّدَ بِالْوَيْلِ مُنْصَبٌّ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴾ الماعون: ٥ - ٦ ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ عَلَى التَّحْقِيقِ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَا الْجَوَابَ مَعَ ضَعْفِ الْإِشْكَالِ؛ وَظُهُورِ الْجَوَابِ عَنْهُ؛ **لِأَنَّ الزَّنَادِقَةَ الَّذِينَ لَا يُصَلُّونَ يَحْتَجُّونَ لِتَرْكِ الصَّلَاةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ**. وَقَدْ سَمِعْنَا مِنْ ثِقَاتٍ وَغَيْرِهِمْ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِظَالِمٍ تَارِكٍ لِلصَّلَاةِ: مَا لَكَ لَا تُصَلِّي؟ فَقَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ تَوَعَّدَ عَلَى الصَّلَاةِ بِالْوَيْلِ فِي قَوْلِهِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، فَقَالَ

لَهُ: اقْرَأْ بَعْدَهَا، فَقَالَ لَا حَاجَةَ لِي فِيمَا بَعْدَهَا فِيهَا كِفَايَةٌ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الصَّلَاةِ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

دَعِ الْمَسَاجِدَ لِلْعُبَّادِ تَسْكُنُهَا ... وَسِرْ إِلَى خَانَةِ الْخَمَّارِ يَسْقِينَا

مَا قَالَ رَبُّكَ وَيْلٌ لِلْأُلَى سَكِرُوا ... وَإِنَّمَا قَالَ وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَا

فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى تَوَعَّدَ بِالْوَيْلِ الْمُصَلِّي الَّذِي هُوَ سَاهٍ عَنْ صَلَاتِهِ وَيُرَائِي فِيهَا، فَكَيْفَ بِالَّذِي لَا يُصَلِّي أَصْلًا، فَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لَهُ وَعَلَيْهِ لِعَائِنُ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا لَمْ يَتُبْ.ا.هـ[1]

وَهَذَا مِنَ الْفَهْمِ الْمَعْكُوسِ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِير جداً تَسْمَعُ مِنَ النَّاسِ الْعَجَبَ الْعُجَابَ، وَالبَعْضُ مِمَّنْ يَنتَسِبُ إِلَى الْعِلْمِ أَيْضاً يَفْهَمُ الأَفْهَامَ الْخَاطِئَةَ، فَيَقَعُ فِي الضَّلالِ؛ بِسَبَبِ الْفَهْمِ الْخَاطِئِ، فَيَصرِفُ الْأَلْفَاظَ عَنْ ظَاهِرِهَا.

وَالْفَهْمُ الْخَاطِئُ فِي ذَلِكَ مِنْ أُصُولِ الْبِدَعِ وَالضَّلالِ، لَا سِيَّمَا مَعَ سُوءِ الْقَصْدِ.

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ... بل سوء الْفَهم عَن الله وَرَسُوله أصلُ كلِ بِدعَة وضلالة نشأت فِي الْإِسْلَام، بل هُوَ أصل كل خطأ فِي الْأُصُول وَالْفُرُوع، وَلَا سِيمَا إِن أضيف إِلَيْهِ سوء الْقَصْد، فيتفق سوء الْفَهم فِي بعض الْأَشْيَاء من الْمَتْبُوع مَعَ حسن قَصده وَسُوء الْقَصْد من التَّابِع، فيا محنة الدّين وَأَهله وَالله الْمُسْتَعَان.

وَهل أوقع الْقَدَرِيَّة، والمرجئة، والخوارج، ... وَسَائِر طوائف أهل الْبدع إِلَّا سوء الْفَهم عَن الله وَرَسُوله حَتَّى صَار الدّين بأيدي أَكثر النَّاس هُوَ مُوجب هَذِه الإفهام...الخ.[2]

---

(١) "من "دفع إيهام الاضطراب" (صـ: ٢٨٨).

(٢) "الروح "(صـ: ٦٣).

❁ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومنشأ الباطل من نقص العلم، أو سوء القصد. (١)

❁ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ...فلما حدث بعد انقضاء عصرهم من ساء فهمه وساء قصده؛ وقعوا في أنواع من التأويل بحسب سوء الفهم وفساد القصد، وقد يجتمعان وقد ينفردان، وإذا اجتمعا تولد من بينهما جهل بالحق، ومعاداة لأهله، واستحلال ما حرم الله منهم.

وإذا تأملت أصول المذاهب الفاسدة رأيت أربابها قد اشتقوها من بين هذين الأصلين، وحملهم عليها؛ منافسة في رياسة، أو مال، أو توصل إلى عرض من أعراض الدنيا تخطبه الآمال، وتتبعه الهمم، وتشرئب إليه النفوس **فيتفق للعبد شبهة وشهوة، وهما أصل كل فساد ومنشأ كل تأويل باطل.**

وقد ذم الله سبحانه من اتبع الظن وما تهوى الأنفس فالظن الشبهات وما تهوى الأنفس الشهوات (٢)

فالأفهام الخاطئة مع سوء المقاصد من طرق الضلال، والمعتقدات الفاسدة.

فكم وكم ممن ضل وانحرف بسبب ذلك ووقع في مناهج معوجة ومعتقدات ضالة.

---

(١) "درء تعارض العقل والنقل" (٧/ ١٧٤).

(٢) "الصواعق المرسلة"(٢/ ٥١٠).

البيت رقم ٢٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سَــتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ الْعَجْزِ جَهْلاً وَتَصْــغُرُ فِي الْـعُيُـونِ إِذَا كَـبِرْتَـا

شرح البيت رقم ٢٥

هَذِهِ مِنْ نَصَائِحِهِ وَمِنْ تَنْبِيهَاتِهِ، فَهُوَ يُحَذِّرُهُ مِنَ الْعَجْزِ، وَأَنَّ الْعَجْزَ سَبَبٌ لِلْجَهْلِ. وَقَدِ اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَجْزِ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّمَا نَزَلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالبُخْلِ، وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ».(١)

وفي مسلم عنه بلفظ: قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، يَدْعُو بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَالْكَسَلِ، وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ».(٢)

❁ قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكذلك الاستعاذة من العجز والكسل؛ لأنهما يمنعان العبد من أداء حقوق الله وحقوق نفسه وأهله، وتضييع النظر في أمر معاده وأمر دنياه، وقد أمر المؤمن بالاجتهاد في العمل والإجمال في الطلب، ولا يكون عالةً ولا عيالاً على غيره ما متّع بصحة جوارحه وعقله.(٣)

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٣) (٥٤٢٥)، (٦٣٦٣)، (٦٣٦٩).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٦).

(٣) "شرح صحيح البخاري" لابن بطال (١٠/ ١١٩).

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: كَانَ يَقُولُ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ، الْقَبْرِ اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا». (١)

❁ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ نقلاً عن القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْعَجْزَ هُنَا عَلَى ظَاهِرِهِ وَهُوَ: عَدَمُ الْقُدْرَةِ وَقِيلَ: هُوَ تَرْكُ مَا يَجِبُ فِعْلُهُ وَالتَّسْوِيفُ بِهِ وَتَأْخِيرُهُ عَنْ وَقْتِهِ، قَالَ: وَيُحْتَمَلُ الْعَجْزُ عَنِ الطَّاعَاتِ، وَيُحْتَمَلُ: الْعُمُومُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. (٢)

❁ قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ أَنَّ الْكَسَلَ تَرْكُ الشَّيْءِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْأَخْذِ فِي عمله وَالْعجز عدم الْقُدْرَة. (٣)

بالمهلة، يجعلون الاستطاعة قبل الفعل. (٤) **بيانه بيان ذلك.**

وَجَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ». (٥)

❁ قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذا الحديث: أَمَّا احْرِصْ فَبِكَسْرِ الرَّاءِ وَتَعْجِزْ بِكَسْرِ الْجِيمِ وَحُكِيَ فَتْحُهُمَا جَمِيعًا، وَمَعْنَاهُ احْرِصْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالرَّغْبَةِ فِيمَا عِنْدَهُ،

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) "شرح مسلم" عند حديث «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ» (٢٦٥٥).

(٣) "فتح الباري" لابن حجر (٦/ ٣٦)، (٢٨٢٢).

(٤) "شرح صحيح البخاري" لابن بطال (٥/ ٣٥).

(٥) رواه مسلم (٢٦٤٦).

وَاطْلُبِ الْإِعَانَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تَعْجِزْ وَلَا تَكْسَلْ عَنْ طَلَبِ الطَّاعَةِ وَلَا عَنْ طَلَبِ الْإِعَانَةِ.

❁ وَبَوَّبَ عَلَيْهِ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بَابٌ فِي الْأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ وَتَفْوِيضِ الْمَقَادِيرِ لِلَّهِ.

❁ قَالَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بِحِرْصِ الْعَبْدِ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ وَنَهَاهُ عَنْ الْعَجْزِ وَأَنْفَعُ مَا لِلْعَبْدِ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى. وَهَذَانِ الْأَصْلَانِ هُمَا حَقِيقَةُ قَوْله تَعَالَى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وَنَهَاهُ عَنْ الْعَجْزِ وَهُوَ الْإِضَاعَةُ وَالتَّفْرِيطُ وَالتَّوَانِي ... وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْعَجْزِ فِي كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يُضَادُّ الْقُدْرَةَ؛ فَإِنَّ مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ بِحَالِ لَا يُلَامُ وَلَا يُؤْمَرُ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ بِحَالِ.(١)

فلَا تعْجِز وَلَا تكْسَل عَنْ الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ فَإِذَا عَجَزتَ، أَوْ أُصِيبَت بِالْكَسلِ، فَإِنَّهُ يَجُرُّك ذلك إلى الْجَهْلِ.

والعجز يتنافى مع الحرص.

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه وينافي استعانته بالله فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز.(٢)

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَأَمَرَهُ بِالْحِرْصِ عَلَى الْأَسْبَابِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِالْمُسَبِّبِ، وَنَهَاهُ عَنِ الْعَجْزِ، وَهُوَ نَوْعَانِ: تَقْصِيرٌ فِي الْأَسْبَابِ، وَعَدَمُ الْحِرْصِ عَلَيْهَا، وَتَقْصِيرٌ فِي الِاسْتِعَانَةِ

---

(١) "مجموع الفتاوى" (١٠/٥٠٦ـ٥٠٧).

(٢) "شفاء العليل" (صـ: ١٩).

بِاللَّهِ وَتَرْكُ تَجْرِيدَهَا، فَالدِّينُ كُلُّهُ - ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ، شَرَائِعُهُ وَحَقَائِقُهُ - تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ النَّبَوِيَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (١)

❁ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَا تَعْجِزْ عَنْ مَأْمُورٍ وَلَا تَجْزَعْ مِنْ مَقْدُورٍ. (٢)

❁ قَالَ ابْنُ الْوَرْدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اطْلُبِ العِلْمَ وَلاَ تَكْسَلْ فَمَا ... أَبْعَدَ الخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الكَسَلْ

فلَا تَعْجِزْ وَلَا تَتَضَجَّرْ، ولا تكسل، بَلْ وَاصِلْ طريق الخير، والعلم وَاصْبِرْ.

❁ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ أَيْضًا:

اصْبِرْ قَلِيلًا وَكُنْ بِاللَّهِ مُعْتَصِمًا ... لَا تَعْجَلَنَّ فَإِنَّ الْعَجْزَ بِالْعَجَلِ
الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... لَكِنَّ عَوَاقِبَهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

❁ وَقَالَ آخَرُ أَيْضًا: (٣)

اطلُبْ ولا تَضْجَرَ منْ مَطلَبٍ ... فَآفَةُ الطَّالِبِ أَنْ يَضْجَرا
أَمَا تَرَى الحَبْلَ بِتَكْرَارِهِ ... في الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ قَدْ أَثَّرا

❁ وَبَعْضُهُمْ ذَكَرَهَا بِقَوْلِهِ:

أما تَرَى الحبلَ بطُولِ المدى ... على صليبِ الصَّخْر قدْ أثَّرا

العجزُ والكسلُ يتولدُ منهما فواتُ الخير، والحرمان منه.

---

(١) "مدارج السالكين" (٣/ ٤٦٤).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١٦/ ٣٨).

(٣) نسبها خالد الأزهري لبعض المولدين "التصريح على التوضيح" (١/ ٦٠٩).

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَيَنْشَأُ عَنْ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فَوَاتُ كُلِّ خَيْرٍ، وَحُصُولُ كُلِّ شَرٍّ.(١)

❁ وكما قيل: (٢)

وَاحَسْرَتَاهْ تَقَضَّى الْعُمُرُ وَانْصَرَمَتْ ... سَاعَاتُهُ بَيْنَ ذُلِّ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ
وَالْقَوْمُ قَدْ أَخَذُوا دَرْبَ النَّجَاةِ وَقَدْ ... سَارُوا إِلَى الْمَطْلَبِ الْأَعْلَى عَلَى مَهْلِ

قَالَ: "وَتَصْغُرُ فِي الْعُيُونِ إِذَا كَبِرْتَا"، الْجَاهِلُ صَغِيرٌ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ كَبِيرًا فِي السِّنِّ.

❁ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: (٣)

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا ... وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ
وَإِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيرٌ إِذَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَحَافِلُ

"تَعَلَّمْ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا" قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء: ١١٣

❁ وزاد بعضهم: (٤)

وَإِن صَغِير الْقَوْم إِن كَانَ عَالما ... فأكثرهم يرضون مَا هُوَ قَائِل

كَبِيرٌ إِذا رُدَّت إِلَيهِ المَحافِلُ. لَيْسَت الْعِبْرَةُ بِصِغَرِ السِّنِّ أَوْ كِبَرِه وإنما بالعلم النافع.

---

(١) "زاد المعاد"(٢/ ٣٢٩).

(٢) "مدارج السالكين"(٣/ ١٦٦).

(٣) "روضة العقلاء" صـ:٣٤، "تاريخ دمشق" (٦٨/١٥٩)، "جامع بيان العلم"(١/٦١٧)، "الحلم" لابن أبي الدنيا صـ:٧٥ رقم: (١٢٤).

(٤) "نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف" (صـ: ١٧٣).

وفي الحديث: «الْبَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ».(١) والْمُرَادُ بِالْأَكَابِرِ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ، هُمْ الْعُلَمَاءُ، وَإِنْ كَانُوا صِغَارًا فِي السِّنِّ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ، مُجَرَّدُ كِبَرِ السِّنِّ، فَمُجَرَّدُ كَبَرِ السِّنِّ بِمُفْرَدِهِ، لَيْسَ بِمَمْدُوحٍ، إِنَّمَا يُمَدَحُ مَعَ الْعِلْمِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ أَكْثَرَ رَزَانَةً فِي الغالب.

وَإِلَّا صَاحِبُ الْعِلْمِ هُوَ صَاحِبُ الْخَيْرِ، ويُؤخذُ مِنْهُ الْعِلْمِ، وَلَا يُنْبَلُ الْمَرْءُ حَتَّى يَأْخُذَ الْعِلْمَ مِمَّنْ هُوَ فَوْقَهُ، وَمِنْ هُوَ مِسَاوٍ لَهُ، وَمِنْ هُوَ دُونَهُ.

❁ قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ نُعَيْمٌ: قِيلَ لِابْنِ الْمُبَارَكِ: مَنِ الْأَصَاغِرُ؟ قَالَ: «الَّذِينَ يَقُولُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَأَمَّا صَغِيرٌ يَرْوِي عَنْ كَبِيرٍ فَلَيْسَ بِصَغِيرٍ».

وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ، فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْخَبَرِ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، أَنَّهُ كَانَ يَذْهَبُ بِالْأَصَاغِرِ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ وَلَا يَذْهَبُ إِلَى السِّنِّ، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَهَذَا وَجْهٌ...الخ.(٢)

❁ وذكر أثر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بسندٍ صحيح أنه قال: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا أَخَذُوا الْعِلْمَ عَنْ أَكَابِرِهِمْ، فَإِذَا أَخَذُوهُ عَنْ أَصَاغِرِهِمْ، وَشِرَارِهِمْ هَلَكُوا»

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ الصَّغِيرَ الْمَذْكُورَ فِي حَدِيثِ عُمَرَ وَمَا كَانَ مِثْلَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ، إِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الَّذِي يُسْتَفْتَى وَلَا عِلْمَ عِنْدَهُ، وَأَنَّ الْكَبِيرَ هُوَ الْعَالِمُ فِي أَيِّ سِنٍّ كَانَ.

---

(١) رواه البيهقي في "الشعب"(١٠٤٩٣)، والحاكم (٢١٠)، وأبو نعيم في "الحلية"(١٧١/٨)، والقضاعي في "مسند الشهاب" (٣٦)، (٣٧)، وغيرهم عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وصححه الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الصحيحة" (١٧٧٨).

(٢) "جامع بيان العلم وفضله"(٦١٢/١).

وَقَالُوا: الْجَاهِلُ صَغِيرٌ وَإِنْ كَانَ شَيْخًا، وَالْعَالِمُ كَبِيرٌ وَإِنْ كَانَ حَدَثًا. (١)

❁ وقال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المجربين للأمورِ المحافظين على تكثيرِ الأجور فجالسوهم لتقتدوا برأيهم وتهتدوا بهديهم، أو المراد من له منصب العلم وإن صغر سنه، فيجب إجلالُهم حِفظاً لحرمةِ ما منحهم الحق سبحانه وتعالى. (٢)

فالعَجْزُ يُثْمِرُ الجَهْلَ، وَالجَهْلُ يُثْمِرُ الاسْتِصْغَارَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَلَوْ كَانَ الجَاهِلُ كَبِيرًا فِي السِّنِّ، فَيَكُونُ مُسْتَصْغَرًا عِندَهُمْ.

(١) "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٦١٧).

(٢) "فيض القدير" (٣/ ٢٢٠).

البيت رقم ٢٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ ... وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَلَوْ فُقِدْتَا

شرح البيت رقم ٢٦

أَيْ: مَا دُمْتَ جَاهِلًا فَأَنتَ فِي حُكْمِ الْمَفْقُودِ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَا تَزَالُ حَيًّا، فَأَنْتَ فِي حُكْمِ الْمَفْقُودِ الَّذِي لَا يُوجَدُ. "وتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَلَوْ فُقِدْتَا".

❁ وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ: (١)

أَخُو الْعِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ ... وَأَوْصَالُهُ تَحْتَ التُّرَابِ رَمِيمُ
وَذُو الْجَهْلِ مَيْتٌ وَهُوَ مَاشٍ عَلَى الثَّرَى ... يُظَنُّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيمُ

❁ وَقَالَ الْآخَرُ: (٢)

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَمَا مَاتَتْ مَكَارِمُهُمْ ... وَعَاشَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَمْوَاتُ

الجَاهِلُ مَفْقُودٌ وَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَوْجُودًا، وَصَاحِبُ الْعِلْمِ مَوْجُودٌ وَلَوْ كَانَ تحت الْأَرْضِ مَدْفُونًا، بِعِلْمِهِ وَخَيْرِهِ، وَلَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ أَبَدًا.

❁ وقال آخر: (٣)

وَمَا دَامَ ذكر العَبْد بِالْفَضْلِ بَاقِيا ... فَذَلِك حي وَهُوَ فِي الترب هَالك

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الزمر: ٩

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الأنعام: ٥٠

---

(١) "تاريخ الإسلام"(٣٦٨/١١)، و"البداية والنهاية"(١٨٩/١٢). دار الفكر.

(٢)"مفتاح دار السعادة"(١ :١٣٧).

(٣) "مفتاح دار السعادة"(١ :١٣٧).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ الرعد: ١٦

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ فاطر: ١٩ - ٢٠

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ غافر: ٥٨

فلا يستوي أبداً العالمُ والجاهلُ، كما لا يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، لا في حياتِهم ولا موتِهم.

❁ وتقدم قول بعضهم:

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالعالم بعد وَفَاته ميت وَهُوَ حَيّ بَين النَّاس وَالْجَاهِل فِي حَيَاته حَيّ وَهُوَ ميت بَين النَّاس. (١)

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمن تَأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحَدِيث، وَالْفِقْه كَيفَ هم تَحت التُّرَاب، وهم فِي الْعَالمين كأنهم أحياء بَينهم لم يفقدوا مِنْهُم إلا صورهم وإلا فَذكرهمْ وحديثهم، وَالثنَاء عَلَيْهِم غير مُنْقَطع وَهَذِه هِيَ الْحَيَاة حَقًا حَتَّى عد ذَلِك حَيَاة ثَانِيَة. كَمَا

❁ قَالَ المتنبي:

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّاني وَحاجَتُه ما فَاتَهُ، وفُضُولُ العيشِ أَشْغَالُ (٢)

فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَبْقَى ذِكْرُكَ الْحَسَنُ، فَعَلَيْكَ بِالْعِلْمِ. شَرَفٌ لَكَ فِي حَيَاتِكَ وَفِي مَوْتِكَ.

---

(١) "مفتاح دار السعادة "(١/ ١٣٧).

(٢) "مفتاح دار السعادة "(١/ ١٣٨).

وَكَمَا قال سابق البربري: (١)

❁ مَـوْتُ الـتَّـقِـيِّ حَـيَـاةٌ لَا نَـفَـادَ لَهَـا قَـدْ مَـاتَ قَـوْمٌ وَهُـمْ فِي النَّـاسِ أَحْـيَـاءُ

بِخِلَافِ الْجَاهِلِ، حَيَاتُهُ أَشْبَهُ بِمَوْتِهِ، بَلْ الْمَوْتُ أَفْضَلُ إِذَا كَانَتْ حَيَاتُهُ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ.

❁ ولبعضهم: (٢)

وَفِي الْجَـهْـلِ قَبْـلَ الْمَـوْتِ مَـوْتٌ لِأَهْـلِـهِ فَـأَجْسَـامُـهُـمْ قَـبْـلَ الْـقُـبُـورِ قُـبُـورُ

وَإِنْ امْـرَأً لَمْ يَحْـيَ بِـالْـعِـلْـمِ مَـيِّـتٌ فَـلَـيْـسَ لَـهُ حَـتَّـى الـنُّـشُـورِ نُـشُـورُ

❁ والبيت الثاني ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلفظ:

وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَـةٍ مِنْ جُسُـومِهِمْ فَـلَـيْـسَ لَهُـمْ حَـتَّـى الـنُّـشُـورِ نُـشُـورُ

فَحَيَاةُ الْجَاهِلِ هِيَ أَشْبَهُ بِمَوْتِهِ.

❁قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّ الْجَهْلَ مَوْتٌ لِأَصْحَابِهِ، كَمَا قِيلَ: ـ وذكر الأبيات السابقة ـ فَإِنَّ الْجَاهِلَ مَيِّتُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، وَإِنْ كَانَ حَيَّ الْبَدَنِ فَجَسَدُهُ قَبْرٌ يَمْشِي بِهِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ الأنعام: ١٢٢ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يس: ٦٩ – ٧٠

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ النمل: ٨٠

---

(١) "جامع بيان العلم"(١/ ٢٤٤)، ونُسبت لمَعْرُوفٍ أَبِي مَحْفُوظٍ الكرخي كما في "الحلية" لأبي نعيم (٨/ ٣٦٠)، "المنامات"(١٤٨) لابن أبي الدنيا، و "معجم ابن الأعرابي"(١٦٠٥)، وغيرها.

(٢) "أدب الدنيا والدين"(صـ:٣٧)

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ فاطر: ٢٢ وَشَبَّهَهُمْ فِي مَوْتِ قُلُوبِهِمْ بِأَهْلِ الْقُبُورِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ مَاتَتْ أَرْوَاحُهُمْ، وَصَارَتْ أَجْسَامُهُمْ قُبُورًا لَهَا، فَكَمَا أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ أَصْحَابُ الْقُبُورِ، كَذَلِكَ لَا يَسْمَعُ هَؤُلَاءِ، وَإِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ هِيَ الْحِسُّ وَالْحَرَكَةُ وَمَلْزُومُهُمَا، فَهَذِهِ الْقُلُوبُ لَمَّا لَمْ تُحِسَّ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَلَمْ تَتَحَرَّكْ لَهُ، كَانَتْ مَيْتَةً حَقِيقَةً، وَلَيْسَ هَذَا تَشْبِيهًا لِمَوْتِهَا بِمَوْتِ الْبَدَنِ، بَلْ ذَلِكَ مَوْتُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ. (١)

والثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ وَعَلَى صَاحِبِ الْعِلْمِ، هِيَ مِنْ عَاجِلِ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ». (٢)

وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي دُعَائِهِ لِرَبِّهِ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الشعراء: ٨٤ – ٨٥ أَيْ: ذِكْرًا حَسَنًا جَمِيلًا أَذْكُرُ بِهِ.

❁ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره" لذلك: أَيْ: وَاجْعَلْ لِي ذِكْرًا جَمِيلًا بَعْدِي أذكر بِهِ، وَيُقْتَدَى بِي فِي الْخَيْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الصافات: ١٠٨ – ١١٠

❁ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أَيْ: أَنْعِمْ عَلَيَّ فِي الدُّنْيَا بِبَقَاءِ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ بَعْدِي، وَفِي الْآخِرَةِ بِأَنْ تَجْعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ.ا.هـ.

---

(١) "مدارج السالكين" (٣/ ٢٤٦).

(٢) رواه "مسلم"(٢٦٤٢).

قال السِعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند في "تفسيره": أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبا مقبولا معظماً مثنًى عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

فَبِالْعِلْمِ تَكُونُ الْحَيَاةُ، وَبِالْجَهْلِ يَكُونُ الْمَوْتُ، وَلَوْ كُنتَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.

وَاللهُ يَقُولُ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ مَيْتُ الْقَلْبِ فِي جَهْلٍ فِي ضَلاَلٍ، فَأَحْيَيْنَاهُ يَصِيرُ حَيًّا بِالْعِلْمِ، فالجَاهِلُ هُوَ أَشْبَهُ بِالْمَيِّتِ.

فَإِذَا أَقْبَلَ اللهُ بِقَلْبِهِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ، يَصِيرُ حَيًّا بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَي الْقَلْبِ.

وَأَهْلُ الْعِلْمِ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ ذِكْرًا لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ».(١)

(١) "البخاري" (٦٤٠٧)، وفي مسلم (٧٧٩) بلفظ: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

البيت رقم ٢٧ و ٢٨

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتَـذْكُـرُ قَـوْلَـتِـي لَـكَ بَـعْـدَ حِـينٍ ... إِذَا حـقّـاً بِهَـا يَـوْمـاً عَـمِـلْـتَـا
وَإِنْ أَهْـمَـلْـتَـهَـا وَنَـبَـذْتَ نُـصْـحـاً ... وَمِـلـتَ إِلَى حُـطَـامٍ قَـدْ جَـمَـعْـتَـا

شرح البيت رقم ٢٧ و ٢٨

أَيْ: سَتَذْكُرُ مَا نَصَحتُكَ بِهِ، وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ، وَهِيَ النَّصِيحَةُ لَهُ بِالْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَالْتَّحْذِيرِ لَهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعَجْزِ.

"إِذَا حقّاً بِهَا يَوْماً عَمِلْتَا"، دَائِمًا الْمَنْصُوحُ يَتَذَكَّرُ نَصِيحَةَ النَّاصِحِ فإِذَا كَانَ النَّاصِحُ عَلَى خَيْرٍ، وحق، وَنَصَحَ لِوَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

إِمَّا أَنْ يَعْمَلَ المنصوحُ بِالنَّصِيحَةِ فَيَتَذَكَّرَهَا وَيَشْكُرَ لِصَاحِبِهَا، وَإِمَّا أَنَّهُ لَا يَعْمَلُ بِهَا فَيَتَنْدَمَ عَلَى عَدَمِ قَبُولِهَا.

وَكَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ غافر: ٤٤.

وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبْذُلَ النَّصِيحَةَ لِوَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَمِلَ بِهَا الْمَنْصُوحُ أَوْ لَمْ يَعْمَلْ.

❁ قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالنَّصِيحَةُ لَازِمَةٌ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ، إِذَا عَلِمَ النَّاصِحُ أَنَّهُ يُقَبِّلُ نَصْحَهُ وَيُطَاعُ أَمْرُهُ، وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ الْمَكْرُوهَ. وَإِنْ خَشِيَ الْأَذَى فَهُوَ فِي سَعَةٍ مِنْهَا. وَأَمَّا إِنْ خَشِيَ الْأَذَى فَهُوَ فِي سَعَةٍ مِنْهَا.

❁ قال أبو بكر الآجري: ولا يكون ناصحًا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم إلا من بدأ بالنصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه؛ ليعرف به ما يجب عليه،

ويعلم عداوة الشيطان له وكيف الحذر منه، ويعلم قبيح ما تميل إليه النفس حتى يخالفها بعلم.(١)

* وَقَالَ ابْنُ حِبَّانٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ لُزُومُ النَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ كَافَّةً وَتَرْكُ الْخِيَانَةِ لَهُمْ بِالْأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ مَعًا إذ المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان يشترط على من بايعه من أصحابه النصح لكل مسلم مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.(٢)

وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبْذُلَ النَّصِيحَةَ، وَأَوَّلَى مَا تَكُونُ فِي السِّرِّ لِلْمُنْفَرِدِ أَوْ لِعَدَدٍ مَعَيَّنٍ مِنَ النَّاسِ، هَذَا أَوَّلَى، كَمَا قَالَ الحافظُ ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالنَّصِيحَةُ سِرًّا أَوْلَى مِنَ الْإِعْلَانِ ... وَقَدْ يَتَعَيَّنُ إِذَا جَرَّ الْإِعْلَانُ إِلَى مَفْسَدَةٍ.(٣)

❁ قال القسطلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالتلطف والنصيحة سرًّا أجدر بالقبول.(٤)

❁ قَالَ ابْنُ حِبَّانٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَعَلَامَةُ النَّاصِحِ إِذَا أَرَادَ زِينَةَ الْمَنْصُوحِ لَهُ أَنْ يَنْصَحَ سِرًّا، وَعَلَامَةُ مَنْ أَرَادَ شِينَهُ أَنْ يَنْصَحَهُ عَلَانِيَّةً، فليحذر العاقل نصحه الأعداء في السر والعلانية.(٥)

وَكَانَ السَّلَفُ إِذَا أَرَادُوا نَصِيحَةَ أَحَدٍ، وَعَظُوهُ سِرًّا حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَهِيَ نَصِيحَةٌ، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ فَإِنَّمَا وَبَّخَهُ.

---

(١) "شرح صحيح البخاري" لابن بطال (١/ ١٣٠).

(٢) "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء" (صـ: ١٩٤).

(٣) "فتح الباري" لابن حجر (١/ ٨١).

(٤) "إرشاد الساري"(١٠/ ١٩٢).

(٥) "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (صـ: ١٩٧)

❁ قَالَ الْفُضَيْلُ: الْمُؤْمِنُ يَسْتُرُ وَيَنْصَحُ، وَالْفَاجِرُ يَهْتِكُ وَيُعَيِّرُ. (١)

فَالْأَصْلُ فِي النَّصِيحَةِ أَنْ تَكُونَ فِي السِّرِّ، وَقَدْ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ إِلَى الْعَلَانِيَّةِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَالْحَالاتِ. وَقَدْ عُدَّتِ النَّصِيحَةُ فِي الْعَلَنِ مِنَ التَّعْيِيرِ وَالتَّوْبِيخِ،

❁ ومما ينسب للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تَعَهَّدْنِي بِنُصْحِكَ فِي انْفِرَادِي ... وَجَنِّبْنِي النَّصِيحَةَ فِي الجَمَاعَة

فَإِنَّ النُّصْحَ بَينَ النَّاسِ نَوْعٌ ... مِنَ التَّوْبِيخِ لاَ أَرْضَى اسْتِمَاعَه

وَإِن خَالَفتَنِي وَعَصِيتَ قَولِي ... فَلا تَجزَع إِذا لَم تُعطَ طَاعَه

وَيَنْبَغِي لِلْمَنْصُوحِ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى تَقَبُّلِهَا، وَيُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْعَمَلِ بِهَا.

❁ قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْمُوعَوظُ، وَالْمُنْصُوحُ، وَلَوْ كَانَ كَبِيرَ الْقَدْرِ جَلِيلَ الْعِلْمِ، إِذَا نَصَحَهُ أَحَدٌ، أَوْ وَعَظَهُ لَا يَغْضَبُ، وَلَا يَشْمَئِزُّ، بَلْ يُبَادِرُ بِالْقَبُولِ وَالشُّكْرِ. فَإِنَّ الْخَصْمَيْنِ نَصَحَا دَاوُدَ، فَلَمْ يَشْمَئِزَّ، ولم يغضبْ، وَلَمْ يُثْنِهِ ذَلِكَ عَنْ الْحَقِّ، بَلْ حَكَمَ بِالْحَقِّ الصَّرْف. (٢)

❁ وَقَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَفِيهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ طُبِعَ عَلَى الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ أَنْ يَقْبَلَ النَّصِيحَةَ، وَلَوْ كَانَتْ فِي غَيْرِ وَاجِبٍ، وَأَنْ لَا يَدْفَعَ إِلَّا بِطَرِيقٍ مُعْتَدِلَةٍ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ، وَلَا تَفْرِيط. (٣)

وبالنصح يستنير العقل، وينتفعُ المنصوحُ إن عمل بها، والناصحُ أَدى ما عليه، وَيثابُ عليها.

---

(١) كما في "جامع العلوم والحكم" مؤسسة الرسالة (١/ ٢٢٥).

(٢) "تفسير السعدي" (سورة: ص) في ذكر الفوائد من قصة داود، وسليمان.

(٣) "فتح الباري"(١٣/ ٣١٤)، عند حديث رقم: (٧٣٤٧).

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والنصيحة لقاح الْعقل فكلما قويت النَّصِيحَة قوي الْعقل واستنار. (١)

فمن أهمل نصح الناصحين، وترك الخير، والعلم، ومال إلى حطام الفانية سيندم على ذلك.

وما كل نصيحة تكون مقبولة، وإنما يُقبلُ النصحُ السديد النافع.

وانظر إلى ابنِ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، نصح الأنصاري فلم يسمع منه فتركه، ولم يلتفت لقوله، وأقبل على العلم، وتفرغ له، وحرص عليه كيف رفعه الله.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يَا فُلَانُ هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ». فَقَالَ: واعجبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ، وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَرَى؟ فَتَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ، وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي التُّرَابَ، فَيَخْرُجُ، فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ. فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ. قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَآنِي، وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ، فَقَالَ: «كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي». (٢) فندم الأنصاري، ووبخ نفسه، وأثنى على ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. فأين ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأين صاحبه الأنصاري؟!

---

(١) "الفوائد" لابن القيم (صـ: ٢٠٠).

(٢) صحيح، أخرجه "سننه" (٥٩٠).

البيت رقم ٢٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَسَــوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَم عَلَيْهَا ... وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا

شرح البيت رقم ٢٩

إِنْ أَهْمَلْتَ النَّصِيحَةَ وَأَلْقَيْتَهَا، وَمِلْتَ إِلَى الدُّنْيَا وَزُخَارِفِهَا، سَتَنْدَمُ،

"وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا" سَتَذْكُرُ تِلْكَ النَّصِيحَةَ، وَتَنْدَمُ عَلَى عَدَمِ قَبُولِهَا، وَالْإِنْسَانُ يَعَضُّ عَلَى أَنَامِلِهِ مِنَ النَّدَمِ عَلَى التَّفْرِيطِ، وَالضَّيَاعِ لا سيما عند رؤية العذاب وعند فوات الأوان.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ سبأ: ٣٣ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ يونس: ٥٤

❁ قَالَ ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ يعني: الرؤساء أخفوها من الأتباع. وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أي: بين الفريقين. وقال آخرون منهم أبو عبيدة والمفضّل: وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ بمعنى أظهروها. لأنه ليس بيوم تَصَنُّعٍ ولا تصبُّرٍ، والإسرار من الأضداد يقال: أَسررت الشيء، بمعنى: أخفيته. وأَسررته: أظهرته. (١)

❁ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقِيلَ: وَجَدُوا أَلَمَ الْحَسْرَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، لِأَنَّ النَّدَامَةَ لَا يُمْكِنُ إِظْهَارُهَا... وَذَكَرَ الْمُبَرِّدُ فِيهِ وَجْهًا ثَالِثًا: أَنَّهُ بَدَتِ بِالنَّدَامَةِ أَسِرَّةُ وُجُوهِهِمْ، وَهِيَ تَكَاسِيرُ الْجَبْهَةِ، وَاحِدُهَا سِرَارٌ. وَالنَّدَامَةُ: الْحَسْرَةُ لِوُقُوعِ شيء أو فوت شيء، وَأَصْلُهَا اللُّزُومُ، وَمِنْهُ النَّدِيمُ لِأَنَّهُ يُلَازِمُ الْمَجَالِسَ. (٢)

---

(١) "زاد المسير" عند الآية المذكورة.

(٢) "تفسير القرطبي" عند الآية.

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ: تَبَيَّنَتِ النَّدَامَةُ فِي أَسْرَارِ وُجُوهِهِمْ. قِيلَ: النَّدَامَةُ لَا تَظْهَرُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ فِي الْقَلْبِ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مَا يَتَوَلَّدُ عَنْهَا. (١)

وَأَصْلُ النَّدَامَةِ إِنَّمَا تَكُونُ فِي الْقَلْبِ، وَلَا تَظْهَرُ، إِنَّمَا تَظْهَرُ آثَارُهَا مِنْ عَظِّ الْأَنَامِلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. لأنَّ الذي يَظْهَرُ للعُيُونِ من فِعْلِ النَّادم هو: تَقْلِيبُ الكفِّ وعضُّ الأنامل واليدِ، كَمَا أنَّ السُّرُور معنى في القلب، يسْتَشْعِرُهُ الإنسانُ، والذي يظهرُ منه حالة الاهتزاز والحركةِ والضَّحك وما يَجْرِي مجراه.

❁ وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ تَعَالَى: { وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ } [الفرقان: ٢٧] فَلَمَّا كَانَ أَكْثَرُ النَّدَمِ يَظْهَرُ عَلَى الْيَدِ أُضِيفَ سُقُوطُ النَّدَمِ إِلَيْهَا ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَظْهَرُ لِلْعَيَانِ مِنْ فِعْلِ النَّدَمِ هُوَ تَقْلِيبُ الْكَفِّ وَعَضُّ الْأَنَامِلِ .ا.هـ. (٢)

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ الزمر: ٥٦

وَأَكْثَرُ مَنْ يَتَنَدَّمُ هُوَ مَنْ عَرَفَ الْخَيْرَ، وفرطت فيه، فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ.

نُصِحَ فَلَمْ يَنْتَصِحْ، عَرَفَ قِيمَةَ الْعِلْمِ فَلَمْ يَأْخُذْ ذَلِكَ الْعِلْمَ، فَيَتَنَدَّمُ. ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ الفرقان: ٢٧ – ٢٨ لِمَاذَا؟

(١) "تفسير القرطبي" عند آية سبأ:٣٣.

(٢) كما في "مختصر الصواعق" (صـ: ٣٩٧):

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ الفرقان: ٢٩ عَرَفَ الذِّكْرَ وَعِلْمَه، ولكنه ضل، (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا). وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ مريم: ٣٩.

❁ قَالَ السَّمْعَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي "تفسيره": مَعْنَاهُ يَوْمُ النَّدَامَةِ. (١)

وَالْإِنْسَانُ إِذَا أَخَذَ بِالنَّصِيحَةِ وَعَمِلَ بِالْمَشُورَةِ، أَمِنَ بِإِذْنِ اللَّهِ مِنَ النَّدَامَةِ.

❁ قَالَ الرَّاغِبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قِيلَ: الْاِسْتِشَارَةُ حِصْنٌ مِنَ النَّدَامَةِ وَأَمَانٌ مِنَ الْمَلَامَةِ. (٢) فِي كَلَامٍ لَهُ

وَالنَّدَمُ: هُوَ غَمٌّ يُصِيبُ الإِنْسَانَ، ويَتَمَنَّى أَنْ مَا وَقَعَ مِنْهُ لَمْ يَقَعْ. (٣)

وَالْنَّدَامَةُ: هِيَ حُرْقَةٌ، وَأَسَفٌ، وَأَلَمٌ، وَحَسْرَةٌ يَجِدُهَا الإِنْسَانُ فِي قَلْبِهِ، وَتَوَجُّعٌ عَلَى تَفْرِيطِهِ وَعَدَمِ قَبُولِهِ لِلنَّصِيحَةِ.

الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ قَائِمٌ عَلَيْهَا. فَإِذَا نُصِحْتَ بِالْخَيْرِ فَلَمْ تَقْبَلْ، صِرْتَ إِلَى النَّدَمِ، وَمَآلُكَ إِلَى النَّدَمِ.

رُبَّمَا يَتَمَنَّى وَيَقُولُ: لَيْتَنِي قَبِلْتُ النَّصِيحَةَ، وَلَكِن بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ، فَلَا يُفِيدُ بَعْدَ ذَلِكَ التَّمَنِّي.

---

(١) "تفسير السمعاني" عند آية٣٩ من سورة مريم.

(٢) "تفسير الراغب" (٣/٩٥٢).

(٣) "التَّعْرِيفَات" صـ:٢٤٠.

كَمْ مِنْ أُنَاسٍ تَمَهَّدَتْ لَهُمُ الطَّرِيقُ فِي الْعِلْمِ، كَانَتِ الْأَبْوَابُ أَمَامَهُمْ مَفْتُوحَةً. فَنُصِحُوا بِالْعِلْمِ وَعَرَفُوهُ، وَبَقُوا فِيهِ رُبَّمَا أَيَّامًا أَوْ شُهُورًا، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَثْبُتُوا عَلَى الْعِلْمِ، وَتَرَكُوهُ، وَعَادُوا إِلَى الْقُرَى الَّتِي وُلِدُوا فِيهَا، ولم يُواصلوا طريقَ العلمِ.

فَانْشَغَلُوا عَنِ الْعِلْمِ وَعَنْ أَخْذِهِ، فَتَحَسَّرُوا وَتَنَدَّمُوا بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ. وَبَعْدَ كِبَرِ السِّنِّ وَبَعْدَ الْانْشِغَالِ، وَيَتَمَنَّى أَحَدُهُمْ أَنْ لَوْ عَادَ بِهِ الزَّمَانُ إِلَى زَمَانِ الصِّغَرِ فَأَخَذَ الْعِلْمَ وَتَلَقَّاهُ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يَعُودَ الزَّمَانُ، فَمَا مَضَى لَنْ يَعُودَ.

❁ وكما قيل: (١)

تَمُرُّ بِنَا الأَيَّام تَتْرَى وَإِنَّمَا ... نُسَاقُ إِلى الآجَالِ وَالْعَينُ تَنْظُرُ
فَلا عَائِدٌ ذَاكَ الشَّبابُ الَّذِي مَضى ... وَلا زَائِلٌ هَذَا الْمَشِيْبُ الْمُكَدِّرُ

❁ وكما قال الآخرُ: (٢)

لَيْتَ وَهَلْ يَنْفَعُ شَيْئًا لَيْتُ ... لَيْتَ شَبَابًا بُوعَ فَاشْتَرَيْتُ

❁ وقال آخر: (٣)

ذهبَ الشبابُ فما له منْ عودةٍ ... وأتَى المشيبُ فأينَ منهُ المَهربُ

---

(١) "شذرات الذهب في أخبار من ذهب "(٨/ ٣٩٨).

(٢) "اشرح الكافية الشافية" (٢/ ٦٠٥)، و "التصريح على التوضيح " (١/ ٤٣٨) ونسبها لرؤبة.

(٣) "نوادر الخلفاء" (صـ:٢٦٢).

البيت رقم ٣٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إِذَا أَبْصَـــرْتَ صَـحْبَكَ فِي سَـمَاءٍ قَـدِ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَـفُلْتَا

شرح البيت رقم ٣٠

في هذا الحال أيضاً يتندم إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ فِي عَلُوٍّ، فِي ارْتِفَاعٌ، والرفعةُ رفعتان: رَفْعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، وَرفعةٌ أُخْرَوِيةٌ.

فَأَهْلُ الْعِلْمِ هُمْ أَرْفَعُ النَّاسِ قَدْرًا، وَأَشْرَحُهُمْ صَدْرًا، وَأَطْيَبُهُمْ قُلُوبًا، وَأَشْرَفُهُمْ فِي الدُّنْيَا، ورفعتُهم: رَفْعَةٌ قَلْبِيَّةٌ. رَفْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، وَرَفْعَةٌ حَسِّيَّةٌ.

❁ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ـ كما تقدم قريبا ـ أَرَادَ أَنْ يَتَلَقَّى الْعِلْمَ، فَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: مَن يَحْتَاجُ إِلَيْكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ وَفِي الْقَوْمِ فُلَانٌ، وفُلانٌ، الصَّحَابَةُ مُتَوَافِرُونَ، فَمَن يَحْتَاجُ إِلَيْكَ؟!

فَلَمْ يَلْتَفِتْ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، إِلَى قَوْلِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْأَنْصَارِيِّ، فَأَقْبَلَ عَلَى الْعِلْمِ وَبَذَلَ جُهْدَهُ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ، وَسَارَعَ وَسَابَقَ، وَلَمْ يَتَوَانَ أَوْ يَكْسَلْ، فَدَارَتِ الْأَيَّامُ فَارْتَفَعَ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ نَفَعَ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ. فَمَرَّ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْأَنْصَارِيُّ فِي يَوْمٍ وَرَأَى النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَقَدْ كَانَ هَذَا أَعْقَلَ مِنِّي. رَآهُ فِي رَفْعَةٍ، رَأَى النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ أثناء الطلب ولم يقبل قوله.

فَقَالَ: لَقَدْ كَانَ هَذَا أَعْقَلَ مِنِّي. رَفَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْعِلْمِ.

❁ عطاءُ أَبِي رَبَاحٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ذَكَرُوا مَا ذَكَرُوا مِنْ خَلْقَتِهِ مِنَ الْعَرَجِ وَالْأَشَلِ وَسَوَادِ الْوَجْهِ وَأُمُورٍ كَثِيرَةٍ.

❁ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ –: وَسَمِعْتُ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ: كَانَ عَطَاءٌ أَسْوَدَ أَعْوَرَ أَفْطَسَ أَشَلَّ أَعْرَجَ ثُمَّ عَمِيَ بَعْدَ ذَلِكَ. فَانْتَهَتْ فَتْوَى أَهْلِ مَكَّةَ إِلَيْهِ وَإِلَى مُجَاهِدٍ فِي زَمَانِهِمَا. وَأَكْثَرُ ذَلِكَ إِلَى عَطَاءٍ.ا.هـ. (١)

وَكَانَ يُنَادِي مُنَادِي بَنِي أُمَيَّةَ فِي أَيَّامِ مِنًى: لَا يُفْتِي النَّاسُ فِي الْحَجِّ إِلَّا عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ. (٢)

❁ قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ –: أعلم الناس بالمناسك عطاء.

❁ وقال إبراهيم بن عمر بن كيسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ –: أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج صائحاً يصيح: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح. (٣)

❁ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْحَرْبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ –: كَانَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَبْدًا أَسْوَدَ لِامْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَكَانَ أَنْفُهُ كَأَنَّهُ بَاقِلَاةٌ قَالَ: وَجَاءَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَطَاءٍ هُوَ وَابْنَاهُ فَجَلَسُوا إِلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلَمَّا صَلَّى انْفَتَلَ إِلَيْهِمْ فَمَا زَالُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ، وَقَدْ حَوَّلَ قَفَاهُ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ لِابْنَيْهِ: «قُومَا»، فَقَامَا، فَقَالَ: «يَا بَنِيَّ لَا تَنِيَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَإِنِّي لَا أَنْسَى ذُلَّنَا بَيْنَ يَدَيْ هَذَا الْعَبْدِ الْأَسْوَدِ».

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْقَصُ عُنُقُهُ دَاخِلًا فِي بُدْنِهِ، وَكَانَ مِنْكَبَاهُ خَارِجَيْنِ كَأَنَّهُمَا زَجَّانِ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: يَا بُنَيَّ لَا تَكُونُ فِي قَوْمٍ، إِلَّا كُنْتَ الْمَضْحُوكَ مِنْهُ الْمَسْخُورَ بِهِ، فَعَلَيْكَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَرْفَعُكَ قَالَ: فَطَلَبَ الْعِلْمَ قَالَ: فَوَلِيَ قَضَاءَ

---

(١) "الطبقات الكبرى" ط العلمية (٦/ ٢٢).

(٢) "البداية والنهاية" ط الفكر (٩/ ٣٠٦).

(٣) "وفيات الأعيان" (٣/ ٢٦١).

مَكَّةَ عِشْرِينَ سَنَةً قَالَ: فَكَانَ الخَصْمُ إِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَرْعَدُ حَتَّى يَقُومَ قَالَ: وَمَرَّتْ بِهِ امْرَأَةٌ يَوْمًا وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْتِقْ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ: يَا ابْنَ أَخٍ وَأَيُّ رَقَبَةٍ لَكَ؟!(١)

وعَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».(٢)

فَالْعِلْمُ هُوَ طَرِيقُ الرِّفْعَةِ وَسَبِيلُها. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الْعلم يرفع صَاحبه فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة مَالا يرفعهُ الْملك وَلَا المَال وَلَا غَيرهمَا فالعلم يزِيد الشريف شرفا وَيرْفَع العَبْد الْمَمْلُوك حَتَّى يجلسه مجَالِس الْمُلُوك.(٣)

❁ قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ تَعْلَمَ الْقُرْآنَ عَظُمَتْ قِيمَتُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْفِقْهِ نَبُلَ مِقْدَارُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الْحَدِيثَ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي اللُّغَةِ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْحِسَابِ جَزَلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ.(٤)

---

(١) "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي (١/ ١٤٠).

(٢) رواه مسلم (٨١٧).

(٣) "مفتاح دار السعادة" (١/ ١٦٤).

(٤) صحيح، أخرجه البيهقي في "المدخل"(٥١١)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه"(١/١٥١)، وابن عبد البر "جامع بيان العلم وفضله" (٢/ ١١٣٤)، وغيرهم.

❁ وقال داود بْن مخراق: سَمِعْتُ النَّضْر بن شُميل يَقُولُ: من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم، قال وسمعته يقول: لا يجد الرجل لذة العلم حتى يجوع فينسى جوعه.(١)

❁ وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا الحديث عِزٌّ، فمن أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها.(٢)

"إذا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ"، فِي عَلُوٍّ، بِالْعِلْمِ ارْتَفَعُوا بِذَلِكَ.

❁ قال ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَرْفَعُ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً مَنْ كَانَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ».(٣)

❁ قال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعنه -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ-: العلماء ورثة الأنبياء وحسبك هذه الدرجة مجدًا وفخرًا وبهذه الرتبة شرفًا وذكرًا فكما لا رتبة فوق رتبة النبوة فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة...

---

(١) "مجالس من أمالي أبي عبد الله بن منده" (صـ: ٣٤٤)، رقم (٣٣٤)، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه أبو نعيم في "الحلية"(٦/٣٦٥)، والبيهقي في "الشعب"(٨٢٩٣)، وفيه محمد بن عمر الجعابي، فيه ضعف، له غرائب. "ميزان الاعتدال" (٣/ ٦٧٠).

(٣) أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه""(١/١٤٨)، وهو من طريق عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الرَّازِيُّ، قَالَ الْأَزهري: كذّاب. ووثّقه العتيقي وغيره. "تاريخ الإسلام"(٨/٧٠٥)، وقال ابن أبي الفوارس: ذاهب الحديث لا يساوى شيئا. "ميزان الاعتدال" (٣/١٢٢).

اعلم أنه لا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها. وَإِنَّهُ لَيُنافِسُ فِي دُعَاءِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ أَوْ مَنْ يُظنُ صَلَاحَهُ، فَكَيْفَ بِدُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ؟ (١)

❁ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ –: فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانٌ وَاضِحٌ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ لَهُمُ الْفَضْلُ الَّذِي ذَكَرْنَا: هُمُ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ عِلْمَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، دُونَ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ الْعُلُومِ أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ: (الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ) وَالْأَنْبِيَاءُ لَمْ يُوَرِّثُوا إِلَّا الْعِلْمَ وعلمُ نَبِيِّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ سُنَّتُه فَمَنْ تعرَّى عَنْ مَعْرِفَتِهَا لَمْ يَكُنْ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ. (٢)

❁ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ: (٣)

الْعِلْمُ يَنْهَضُ بِالْخَسِيسِ إِلَى الْعُلَا وَالْجَهْلُ يَقْعُدُ بِالْفَتَى الْمَنْسُوبِ

بِالْخَسِيسِ، أي: بِمَنْ كَانَ دَنِيئًا فِي أَوْسَاطِ النَّاسِ، أَوْ يُنْظَرُ إِلَيْهِ بِمَنْظَرِ الْخَسَةِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، والْفَتَى الْمَنْسُوبِ، صَاحِبُ النَّسَبِ، فالجهل يُقْعِدُ الْفَتَى صَاحِبَ النَّسَبِ الْعَرِيقِ.

---

(١) "تذكرة السامع والمتكلم" (صـ: ٧). والحديث رواه ابن ماجه (٢٢٣)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما في "صحيح الجامع" (٦٢٩٧).

(٢) "التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان" (١/ ٢٠٤).

(٣) "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٨٥)، وفي "المجالسة" للدينوري (٦/ ٢٠٨) قال: أَنْشَدَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ قَالَ: سَمِعْتُ الصَّلْتَ بْنَ مَسْعُودٍ يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ: فذكره.

❁ رُوِيَ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهُ قَالَ: يَتشعّبُ من العلمِ الشّرفُ، وإنْ كانَ صاحبُه دنيئاً، والعزُّ وإن كانَ مهيناً، والقربُ وإن كانَ قَصيَّاً، والغِنَى وإن كانَ فقيراً، والنُّبلُ وإن كانَ حقيراً، والمهابةُ وإن كانَ وضيعاً، والسّلامةُ وإن كانَ سَفيهاً. (١)

رَفَعَهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِلْمِهِمْ وَبِخَيْرِهِمْ وَبِإِقْبَالِهِمْ عَلَى دِينِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

كَيْفَ لَا وَهُوَ طَرِيقٌ إِلَى جَنَّةِ اللَّهِ، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ) (٢).

وَكَمْ رَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أُنَاسٍ بِالْخَيْرِ وَالْعِلْمِ؟

إِذَا كَانَ الْهُدْهُدُ صَال بِحُجَّتِهِ، وَتَخَلَّصَ مِنْ وَعِيدِ سُلَيْمَانَ عليه السلام، حَيْثُ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يُقِينٍ.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ النمل: ٢٠ - ٢٢

فَمَا بَالُكَ بِإِنْسَانٍ كَرَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ؟

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٧٠

---

(١) ذكره ابن جماعة في " تذكرة السامع والمتكلم"(صـ: ٨)، ولم يذكر الجملة الأخيرة، والمناوي في "فيض القدير" (١/ ٥٤٢)، ولم أره مسنداً.

(٢) رواه "مسلم"(٢٦٦٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَ ذَلِكَ الْغُرَابَ مُعَلِّمًا لِابْنِ آدَمَ، كَيْفَ يُوَارِي سُوءَةَ أَخِيهِ؟ وَذكر الله ذلك في كتابه، وَمَا ذُكِرَ إِلَّا بِمَا حَبَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ وَذَلِكَ الْعِلْمِ الَّذِي دَلَّ ابْنَ آدَمَ عليه.﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ المائدة: ٣١

وَإِذَا كَانَ اللهُ قد ذَكَرَ الْكِلابَ الْمُعَلَّمَة دُونَ غَيْرِها، وَأَبَاحَ اللَّهُ صَيْدَهَا دُونَ صَيْدِ غَيْرِهَا، فَمَا بَالُكَ بِإِنْسَانٍ مُشَرَّفٍ مِنْ بَنِي آدَمَ مَعَ ما أَكْرَمَه اللَّهُ من الْعَقْلِ؟

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ المائدة: ٤.

فالإنسان المتعلم أولَى بِالتَّكْرِيمِ وَالتَّشْرِيفِ وَالرِّفْعَةِ وَالْعُلُوِّ.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة: ١١ .

❁ قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لها: أَيْ: فِي الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ وَفِي الْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا، فَيَرْفَعُ الْمُؤْمِنَ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَالْعَالِمَ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ.

❁ قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جاء في كثير من الآثار أن درجات العلماء تتلو درجات الأنبياء، ودرجات أصحابهم، والعلماء ورثة الأنبياء، وإنما ورثوا العلم وبينوه للأمة، وذبوا عنه، وحموه من تحريف الجاهلين وانتحال المبطلين. (١)

(١) "شرح صحيح البخاري" لابن بطال (١/ ١٣٣).

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ رَفْعِهِ دَرَجَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ الأنعام: ٨٣. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ يَشَاءُ بِعِلْمِ الْحُجَّةِ. وَقَالَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ يوسف: ٧٦. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ يَشَاءُ بِالْعِلْمِ الْخَفِيِّ الَّذِي يَتَوَصَّلُ بِهِ صَاحِبُهُ إِلَى الْمَقَاصِدِ الْمَحْمُودَةِ، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة: ١١ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَرْفَعُ دَرَجَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ. (١)

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أفضل مَا اكتسبته النُّفُوس، وحصلته الْقُلُوب العَبْد ونال بِهِ العَبْد الرّفْعَة فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة هُوَ: الْعلم وَالْإِيمَان، وَلِهَذَا قرن بَينهمَا سُبْحَانَهُ فِي قَوْله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ الروم: ٥٦ وَقَوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة: ١١ **وهؤلاء هم خُلَاصَة الْوُجُود ولبه والمؤهلون للمراتب الْعَالِيَة.** (٢)

---

(١) "إعلام الموقعين عن رب العالمين "(٣/ ١٧٣).

(٢) "الفوائد لابن القيم (صـ: ١٠٣).

البيت رقم ٣١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَرَاجِعْهَا وَدَعْ عَنْكَ الْهُوَيْنَا فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا

شرح البيت رقم ٣١

ارْجِعْ إِلَى نُصْحِهِ، "وَدَعْ عَنكَ الْهُوِينَا"، الْهُوِينا: الضَعْفُ، الْعَجْزُ، الْكَسَلُ، عَدَمُ الْجِدِّيَّةِ فِي الْعِلْمِ.

فارْجِعْ إِلَى نَصْحِهِ، وَعُدْ إِلَى نَفْسِكَ بِلَوْمِهَا وَبِقبُولِ النَّصِيحَةِ، وَلَا تَضْعُفْ وَلَا تَعْجِزْ.

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أنك في ميدان سباق، والأوقات تنتهب، ولا تخلد إلى كسل، فَمَا فَاتَ مَنْ فَاتَ إِلَّا بِالْكَسَلِ، وَلَا نَالَ مَنْ نَالَ إِلَّا بِالْجِدِّ وَالْعَزْمِ. وَإِنَّ الْهِمَّةَ لَتَغْلِي فِي الْقُلُوبِ غَلَيَانَ مَا فِي الْقُدُورِ. (١)

وَقَدِ اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ العجز، الْكَسَلِ. (٢)

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُقْبِلَ عَلَى الْعِلْمِ وَلَوْ وجَدَ المشقة والتَّعَبَ.

وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا أَرَدْتَ أَلَّا تَتْعَبَ، فَاتْعَبْ لِئَلَّا تَتْعَبَ.

إِذَا أَرَدْتَ أَلَّا تَتْعَبَ أَيْ: فِي مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِكَ، وفي آخِرَتِكَ، فَاتْعَبْ فِي أَوَّلِ أَمْرِكَ لِئَلَّا تَتْعَبَ. لِذَلِكَ يُقَالُ: مَنْ لَمْ تَكُنْ بَدَايَتُهُ مُحَرِّقَة، لَمْ تَكُنْ نِهَايَتُهُ مُشْرِقَة.

---

(١) "صيد الخاطر" (صـ: ١٧٥).

(٢) تقدم عند البيت (٢٥).

❁ قال الراغبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن تَعَوَّدَ الْكَسَلَ وَمَال إِلَى الرَّاحَةِ، فَقَدْ الرَّاحَةَ فحب الهوينا يكسب النصب، وقد قيل: **إن أردت ألا تتعب فاتعب لئلا تتعب**، وقيل: إياك والكسل والضجر فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً وإن ضجرت لم تصبر على الحق.(١)

"فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا" الْبَطْءُ: التَّأَخُّرُ وَعَدَمُ الْمُسَارَعَةِ فِي الْعَمَلِ.

وَهُنَاكَ أُمُورٌ تَسْتَدْعِي الْمُسَارَعَةِ فِيهَا وَالتَّعْجِيلِ، وَلَا يُسْتَحْسَنُ فِيهَا التَّوَانِي، وَلَا التأخر فيها.

المسَارِعة فِي طَلَبِ العِلْمِ، يَحْتَاجُ الإنسَانُ أَنْ يُسَارِعَ إِلَيْهِ، أَيْ: لِطَلَبِهِ، لِنَيْلِهِ، لِتَلَقِيه، وليس لِلْتَصدر قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ من تحصيله، إِنَّمَا لِطَلَبِهِ وَتَلَقِّيهِ.

التوَانِي فِي الخَيْرَاتِ، وَالْكَسَلُ فِي الْمَبَرَّاتِ، طَرِيقٌ إِلَى الحَسَرَاتِ والندامات.

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن رَكِبَ ظَهْرَ التَّفْرِيطِ وَالتَّوانِي وَالْكَسَلِ، نَزَلَ بِدَارِ الحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ.(٢)

❁ وكما قيل:

الْجَدُّ بِالْجَدِّ وَالْحِرْمَانُ فِي الْكَسَلِ ... فَانْصَبْ تُصِبْ عَنْ قَرِيبٍ غَايَةَ الأَمَلِ

مِنْ أَسْبَابِ النَّجَاحِ: العَزِيمَةُ وَالْجِدُّ فِي الأَمْرِ، وَمِنْ أَسْبَابِ الفَشَلِ: الْكَسَلُ

❁ قَالَ ابْنُ حَبَّانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سَبَبُ النَّجَاحِ تَرْكُ التوَانِي وَدَوَاعِي الحِرْمَانِ وَالْكَسَلِ؛ لِأَنَّ الْكَسَل عَدُوُّ المَرُوءَةِ، وَعَذَابٌ عَلَى الفُتوة، وَمِنَ التَّوانِي وَالْعَجْزِ، أَنْتَجَتْ الهَلَكَةَ. وَكَمَا أَنَّ الأَنَاةَ بَعْدَ الفُرْصَةِ أَعْظَمُ الْخَطَأِ، كَذَلِكَ العَجَلَةُ قَبْلَ الإِمْكَانِ نَفْسُ الْخَطَأِ.

---

(١) "الذريعة الى مكارم الشريعة" (صـ: ٢٦٩).

(٢) "بدائع الفوائد" (٣/ ٢٢٤).

وَالرَّشِيدُ مَنْ رَشَدَ عَنْ العَجَلَةِ. وَالْخَائِبُ مَنْ خَابَ عَنْ الأَنَاةِ. وَالْعَجَلُ مُخْطِئٌ أَبَدًا، كَمَا أَنَّ الْمُتَثَبِّتَ مُصِيبٌ أَبَدًا.(١)

وَالْعَجَلُ مُخْطِئٌ أَبَدًا، كَمَا أَنَّ الْمُتَثَبِّتَ فِي الأُمُورِ، فِي الْقَضَايَا، فِي الْأَخْبَارِ، مُصِيبٌ أَبَدًا. وَهَذَا كَلَامٌ جَمِيلٌ. يُستَفَادُ فِي هَذَا الْمَجَالِ وَفِي غَيْرِهِ.

❁ قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ: مَنْ دَامَ كَسَلُهُ خَابَ أَمَلُهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: نَكَحَ الْعَجْزُ التَّوَانِي فَخَرَجَ مِنْهُمَا النَّدَامَةُ، وَنَكَحَ الشُّؤْمُ الْكَسَلَ فَخَرَجَ مِنْهُمَا الْحِرْمَانُ.(٢)

❁ وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا هذا صن حياة عقلك عن مُخَالَطَةِ غَوْغَاءِ نَفْسِكَ.

مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِيَ اسْتَقْبَلَ الْعَوَالِيَ.

مَنْ لازَمَ الرُّقَادَ فَاتَهُ الْمُرَادُ.

مَنْ دَامَ كَسَلُهُ خَابَ أَمَلُهُ.(٣)

❁ قَالَ الرَّاغِبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من تعطل وتبطل انسلخ من الإنسانية، بل من الحيوانية، وصار من جنس الموتى.(٤)

❁ قال أبو الفتح البُستي رَحِمَهُ اللَّهُ:

دَعِ التَّكَاسُلَ فِي الْخَيْرَاتِ تَطْلُبُهَا ... فَلَيْسَ يَسْعدُ بِالْخَيْرَاتِ كَسْلَانُ

---

(١) "روضة العقلاء"(صـ: ٢١٨).

(٢) "أدب الدنيا والدين" (صـ: ٣٢٠).

(٣) "التبصرة" (٢/ ٢٤).

(٤) "الذريعة الى مكارم الشريعة" (صـ: ٢٦٩).

البيت رقم ٣٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلاَ تَحفلْ بِمَالِكَ وَالْهُ عَنْهُ فَلَيْسَ الْمَالُ إِلاَّ مَا عَلِمْتَا

شرح البيت رقم ٣٢

يذْكُرُهَا بَعْضُهُمْ بِلفْظ: "**وَلَا تَخْتلْ بِمَالِكَ**"، أَيْ: لَا يَكُن شُغْلُكَ الشَّاغِلُ هُوَ الْمَالُ، فَتَفْخَرَ بِهِ عَلَى غَيْرِكَ وتتكَبَّرَ به.

وَقَوْلُهُ: "**وَلَا تَحْفَلْ بِمَالِكَ**" قَالَ ابْنُ فَارِسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْحَاءُ وَالْفَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْجَمْعُ. يُقَالُ: حَفَلَ النَّاسُ وَاحْتَفَلُوا، إِذَا اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسِهِمْ. وَالْمَجْلِسُ مَحْفِلٌ... وَيُقَالُ: لَا تَحْفِلْ بِهِ، أَيْ لَا تُبَالِهِ ؛ وَهُوَ مِنَ الْأَصْلِ، أَيْ لَا تَتَجَمَّعْ. (١)

أَيْ: لَا تَجْمَعْ ذِهْنَكَ عَلَى الْمَالِ، وَلَايَكُنْ هُوَ شُغْلُكَ في ليلك ونهارك، وحضرك وسفرك وقيامك وقعودك.

❁ قَالَ ابْنُ الْوَرْدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واحتَفِلْ للفِقْهِ في الدّينِ وَلاَ تَشتَغِلْ عَنْه بمالٍ وَخِوَلْ

قَالَ صَاحِبُ تاج العروس: الخَوَلُ: مَا أَعْطاكَ اللَّهُ تعالَى مِن النَّعَمِ والعَبيدِ والإماءِ وغيرِهم مِن الحاشِية فَهُوَ مأخوذٌ من التَّخْوِيل: بمَعْنى التَّمليك. (٢)

فلَا تَشْتَغِلْ بِمَا خَوَّلَكَ اللَّهُ وَأَعْطَاكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَمْتِعَةِ.

---

(١) "مقاييس اللغة" (٢/ ٨١).

(٢) (٢٨/ ٤٤٤).

❁ قال ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ –: الخول: مَا أَعْطَى اللهُ تَعَالَى الإِنسانَ مِنَ الْعَبِيدِ والخَدَم ... الخَوَل حَشَمُ الرَّجُلِ وأَتباعُه، وَيَقَعُ عَلَى الْعَبْدِ والأَمة، وَهُوَ مأْخوذ مِنَ التَّخْوِيل وَالتَّمْلِيكِ، وَقِيلَ مِنَ الرِّعاية. (١)

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ المنافقون: ٩

فَالانشغال بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ طَرِيقُ الْخَسَارَةِ وَطَرِيقُ الْغَفْلَةِ. ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ التكاثر: ١ – ٢.

فَلا تَنْشَغِلَ بِمَالِكَ عَنْ الْعِلْمِ.

❁ قَالَ يَحْيَى ابْنُ أَبِي كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مِيرَاثُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِّن مِيرَاثِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالنَّفْسُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ مِّن اللُّؤْلُؤِ، وَلَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجَسَدِ. (٢)

فَلَا مُقَارَنَةَ بَيْنَ الْمَالِ وَالْعِلْمِ، سَيَأْتِي مَعَنَا فَضْلُ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ.

❁ قَالَ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٣)

العِلمُ أَشرفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ ... للهِ أَكْرمُ مَن يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
العِلمُ نُورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ ... أَهْلُ السَّعَادَةِ والجُهَّالُ في الظُّلَمِ
العِلمُ أَعْلَى حَيَاةٍ لِلعِبَادِ كَمَا ... أَهْلُ الجَهَالَةِ أَمْوَاتٌ بِجَهْلِهِمِ

---

(١) "لسان العرب" (١١/ ٢٢٥).

(٢) تقدم في البيت رقم: (١٨).

(٣) "معارج القبول" (١/ ١٦).

البيت رقم ٣٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مُغْنٍ وَلَو مُلْكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأَتَّى

شرح البيت رقم ٣٣

وفي نسخة "مَعْنًى" أَي: لَوْ كَانَ الْجَاهِلُ يَمْلِكُ مَا يَمْلِكُ، وَلَوْ كان يَمْلِكُ الْعِرَاقَ بِمَا فِيهَا، فَهَذَا الْمَالُ لَيْسَ لَهُ مَعْنًى وَلَا قِيمَةً، وكذلك لا يُلتفت لصاحبه إذا كان جاهلاً.

وَلَعَلَّ الْعِرَاقَ كَانَتْ مضرب مثلٍ فِي ذَلِكَ الوقت لما فيها الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ. الْمَالُ وَالْمُلْكُ مَهْمَا كَانَ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَلَى جَهْلٍ، فَإِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لَهُ مَعْنًى. وَهَذَا الشَّخْصُ لَيْسَ لَهُ مَعْنًى عِندَ النَّاسِ وَلَا كبيرُ قِيمَة. ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدِمَ مَرَّةً إِلَى الرَّقَّةِ، وَبِهَا هَارُونُ الرَّشِيدُ، فَلَمَّا دَخَلَهَا انْجَفَلَ النَّاسُ يَهْرَعُونَ إِلَى ابْنِ الْمُبَارَكِ، وَازْدَحَمَ النَّاسُ حَوْلَهُ، فَأَشْرَفَتْ أُمُّ وَلَدٍ لِلرَّشِيدِ مِنْ قَصْرٍ هُنَاكَ فَقَالَتْ: مَا لِلنَّاسِ؟ فَقِيلَ لَهَا: قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ عُلَمَاءِ خُرَاسَانَ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ. فَانْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: هَذَا هُوَ الْمُلْكُ، لَا مُلْكَ هَارُونَ الرَّشِيدِ الذي يَجْمَعُ النَّاسَ عَلَيْهِ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ.(١) مَعَ عَظَمِ مَا كَانَ يَمْلِكُهُ مِنَ الْمَسَاحَاتِ الْوَاسِعَةِ، وَالْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَةِ، إِلَّا أَنَّ هَيْبَةَ الْعِلْمِ وَشَرَفَ الْعِلْمِ لَا يعدِلُه شَيْءٌ. فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، وَرَفْعِ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ، وعن غيره. وَإِنْ كُنتَ مَشْغُولًا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، اجْعَلْ لِنَفْسِكَ أَوْقَاتًا تَتَعَلَّمُ فِيهَا. اجْعَلْ لِنَفْسِكَ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ، تَحْرِصُ فِيهَا عَلَى الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ.

فَالعِلْمُ لَا يُعَدِّلُهُ شَيْءٌ لِمَنْ صَلَحَتْ نِيَّتُهُ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ.(٢)

---

(١) "البداية والنهاية" ط هجر (١٣/ ٦١١).

(٢) كما في "موسوعة أقوال الإمام أحمد"(٤/ ٣٨٩). و"مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى"(١/ ٥٤١).

البيت رقم٣٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سَـيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي مَلإٍ وَيَكْتُبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبْتَا

شرح البيت رقم ٣٤

في ديوان أبي إسحاق (إِنْ كَتَمْتَا) أَيْ: سَيُعْرَفُ صَاحِبُ الْعِلْمِ، وَسَيُفْصِحُ عَنْهُ عِلْمُهُ، وَعِلْمُهُ سَيَنْطِقُ عَنْهُ فِي الْمَلَإِ، فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ النَّاسُ، فِي مَلَإٍ، فِي مَجْمَعِ النَّاسِ.

وَبَعْضُهُمْ يَذْكُرُهَا بِلفظٍ فِي (نَدِيٍّ). فِي مكَانَ يُجْتَمَعُ فِيهِ النَّاسُ، فَهُوَ سَيُعْرَفُ قَدْرُهُ وَلَا شَكَّ، مَا دَامَ وهُوَ صَاحِبُ عِلْمٍ وَيَطْلُبُ العِلْمَ لِلَّهِ، لَا لِغَيْرِهِ، لَا لِلشَّهْرَةِ.

سَيُبَلِّغُ عِلْمُهُ وَسَيَنْطِقُ عَنْهُ عِلْمُهُ فِي حَيَاتِهِ أَوْ بَعْدَ مَمَاتِهِ.

كَمْ مِنَ النَّاسِ، كَمْ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مِمَّنْ مَاتُوا، وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءٌ بِعُلُومِهِمْ، بِكُتُبِهِمْ يَتَدَاوَلُ النَّاسُ ذَلِكَ.

❁ قَالَ الخطيب البغدادي رحمه الله: قَلَّ مَا يَتَمَهَّرُ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَيَقِفُ عَلَى غَوَامِضِهِ، وَيَسْتَثِيرُ الْخَفِيَّ مِنْ فَوَائِدِهِ إِلَّا مَنْ جَمَعَ مُتَفَرِّقَهُ، وَأَلَّفَ مُتَشَتِّتَهُ، وَضَمَّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ، وَاشْتَغَلَ بِتَصْنِيفِ أَبْوَابِهِ، وَتَرْتِيبِ أَصْنَافِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ الْفِعْلَ مِمَّا يُقَوِّي النَّفْسَ، وَيُثَبِّتُ الْحِفْظَ، وَيُذَكِّي الْقَلْبَ، وَيَشْحَذُ الطَّبْعَ، وَيَبْسُطُ اللِّسَانَ، وَيُجِيدُ الْبَيَانَ، وَيَكْشِفُ الْمُشْتَبِهَ، وَيُوَضِّحُ الْمُلْتَبِسَ، **وَيُكْسِبُ أَيْضًا جَمِيلَ الذِّكْرِ، وَتَخْلِيدَهُ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ.**

❁ **كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:**

يَـمُـوتُ قَـوْمٌ وَيُحْـيِـي الْـعِـلْـمُ ذِكْـرَهُـمُ وَالْجَهْلُ يُلْحِقُ أَمْواتاً بِأَمْواتِ[1]

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي" (١٨٥٢)، (٢/ ٢٨٠).

❁ وَقَالَ عَبْد اللَّه بْن مُحَمَّد بْن السِّيد:

أَخُو الْعِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ ... وَأَوْصَالُهُ تَحْتَ التُّرَابِ رَمِيمُ

وَذُو الْجَهْلِ مَيْتٌ وَهُوَ مَاشٍ عَلَى الثَّرَى ... يُظَنُّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيمُ[1]

❁ وَقَالَ آخر:

لعمري لَئِن أضحت رميما عظامهم ... لقد آذنت آثارهم بحياتها[2]

فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُهْتَمًّا بِالعِلْمِ؛ لِيَبْقَى لَكَ الذِّكْرُ الْحَسَنُ؛ وَلِتَرْتَفِعَ عِندَ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ.

فَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلاَّ سَيَفْنَى ... وَيبْقِي الدَّهْرُ مَا كَتَبَتْ يَدَاهُ

فَلاَ تَكْتُبْ بِكفك غَيْرَ شَيْءٍ ... يَسُرُّكَ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ

فَأَثْمِر الْعِلْمَ، وَخَلِّف الْعِلْمَ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْلِيفِ، عَلِّم، انْصَح، درس في حدود ما علمك الله وبَارَكَ اللَّهُ لك، وَيَسَّرَ لَكَ: اكْتُبْ إِذَا كنت مِمَّنْ هُوَ مُتَمَكِّنٌ فِي ذَلِكَ.

وَيُحتمل في قَوْلِهِ: (**وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْماً إِنْ كَتَمْتَا**)، أَنَّهُ إِذَا كَتَمَ الْعِلْمَ يُكْتَبُ عَلَيْهِ إِثْمُ كِتْمَانِهِ، وَيكتبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَمْتَا.

فَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ كَتْمَانَ الْعِلْمِ، فَإِنَّ هَذَا يُكْتَبُ اثمُهُ، لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِبَثِّ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ، وَنهى عَنْ إِخْفَائِهِ وَكِتْمَانِهِ. وَهِيَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يَكْتُمونَ وَلَا يُبَيِّنُونَ.

---

(١) "تاريخ الإسلام" (٣٦٨/١١).

(٢) " نشر طي التعريف" (صـ:١٦٥).

البيت رقم ٣٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي ... إِذَا بِالْجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْتَا

شرح البيت رقم ٣٥

تَشييدُ الْبِنَايَاتِ وَالْقُصُورِ الْعَالِيَاتِ، وَجَمْعُ الْأَمْوَالِ، والحرصُ على الرُّتَبِ وَالْمَنَاصِبِ.

مَاذَا يُغْنِي عَنْ الْإِنْسَانِ، وَقَدْ هَدَمَ نَفْسَهُ بالجهل؟

الْجَهْلُ يَهْدِمُ، وَالْعِلْمُ يَبْنِي، وَلَا فَائِدَةَ مِنَ الْأَبْنِيَةِ الحِسِيَّةِ وَالْأَمْوَالِ إِذَا هَدَمَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِالْجَهْلِ وتردى في المعاصي وهدم نفسَهُ بها.

كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ الليل: ١١

وقَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨﴾ الحاقة: ٢٨

فَلَا يُفِيدُ الْإِنْسَانَ ذَلِكَ الْمَالُ، وَلَا تِلْكَ الْبِنَايَاتُ، مَاذا أَفَادَ الْأَوَّائِلُ، أَصْحَابُ السواعد الشِّدَادِ.

وكَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ الفجر: ٦ – ١٣

مَا نَفَعَتْهُمْ تِلْكَ الْبِنَايَاتُ وَلَا الْقُوَّةُ وَلَا الْمُكْنَةُ، وَلَا ما مَكَّنَهُمُ اللَّهُ فِيهِ وَأَعْطَاهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٢٦﴾ الأحقاف: ٢٦

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ العنكبوت: ٣٨

أَيْضًا مَسَاكِنُهُمْ الْعَالِيَةُ مَا أَغنت عَنْهُمْ، فَقَدْ دَمَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ.

أَبو لَهَب، مَا أَغْنَى عَنْهُ ماله؛ لِأَعْرَاضِهِ وَعِنَادِهِ. ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴿٣﴾ ﴾ المسد: ٢ - ٣

فالحياة قصيرة والمال والانشغال بالدنيا لا يفيد مالم يُسخِر ذلك في طاعة الله وفيما شرعه الله

هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أُطَيِّنُ حَائِطًا لِي أَنَا وَأُمِّي، فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا عَبْدَ اللَّهِ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَيْءٌ أُصْلِحُهُ، فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ». أَيْ: الْمَوْتُ أَسْرَعُ مِنْ فَسَادِ ذَلِكَ الْحَائِطِ وَتَهَدُّمِهِ، الَّذِي تَخَافُ عَلَيْهِ الْفَسَادَ وَالْهَدْمَ وَالسُّقُوطَ لَوْ لَمْ تُصلِحهُ.

وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: فَقُلْنَا: خُصٌّ لَنَا وَهِيَ فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ». (١)

❁ قال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: قِيلَ: الْأَجَلُ أَقْرَبُ مِنْ تَخَرُّبِ هَذَا الْبَيْتِ، أَيْ: تُصْلِحُ بَيْتَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَنْهَدِمَ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ، وَرُبَّمَا تَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَنْهَدِمَ، فَإِصْلَاحُ عَمَلِكَ أَوْلَى مِنْ إِصْلَاحِ بَيْتِكَ.

(١) أخرجه أحمد (٦٥٠٢)، وأبو داود (٥٢٣٥)، (٥٢٣٦)، وغيرهم.

❁ قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ: كَوْنُنَا فِي الدُّنْيَا كَعَابِرِ سَبِيلٍ أَوْ رَاكِبٍ مُسْتَظِلٍّ تَحْتَ شَجَرَةٍ أَسْرَعَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنِ اشْتِغَالِكَ بِالْبِنَاءِ انْتَهَى. (١)

فَمَهْمَا بَنَى الْإِنْسَانُ الْبِنَايَاتِ، وشيد الْعِمَارَاتِ، لَا يُفِيدُهُ ذَلِكَ، وَقَدْ هَدَمَ نَفْسَهُ بِالْمَعَاصِي وَالْجَهَالَاتِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَالْجَهْلُ يَهْدِمُ الْإِنْسَانَ، وَيَهْدِمُ الْفَضَائِلَ، وَيُوقِعُ الشَّخْصَ فِي الرَّذَائِلِ.

❁ قَالَ بعضُ البلغاء: يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ ينَفِّيَ عَنْ نَفْسِهِ رَذَائِلَ الْجَهْلِ، بِفَضَائِلَ الْعِلْمِ. وَغَفْلَةُ الإِهْمَالِ بِإِسْقَاطِ الْمُعَانَاةِ، وَيَرْغَبُ فِي الْعِلْمِ رَغْبَةً مُتَحَقِّقٍ لِفَضَائِلِهِ، وَاثِقًا بِمَنَافِعِهِ. وَلَا يُلْهِيهِ عَنْ طَلَبِهِ كَثْرَةُ مَالٍ وَجِدَّةٍ،ىوَلَا نُفُوذُ أَمْرٍ وَعُلُوُّ قَدْرٍ. فَإِنَّ مَنْ نَفَذَ أَمْرُهُ، فَهُوَ إِلَى الْعِلْمِ أَحْوَجُ، وَمَنْ عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ فَهُوَ بِالْعِلْمِ أَحَقُّ. (٢)

فَمَا يَهْدِمُهُ الْجَهْلُ يَبْنِيهِ الْعِلْمُ، وَمَا يُفْقَدُ بِالْجَهْلِ يُعَادُ بِالْعِلْمِ.

بَعْضُهُمْ يَرَى نَفْسَهُ أَرْفَعَ كَيْفَ صَاحِبُ الْمَالِ الْفُلَانِيِّ، التَّاجِرُ الْفُلَانِيُّ، أَوْ صَاحِبُ الْمَنْصِبِ الْفُلَانِيِّ وَالرُّتْبَةِ الْفُلَانِيَّةِ، يُنَزِّلُ نَفْسَهُ فِيطَلَبِ الْعِلْمِ، يَرَى هَذَا رُبَّمَا سُفولًا وَنُزُولًا، وَهَذَا قد يَدُلُّ عَلَى احْتِقَارِ منهُ للْعِلْمِ، وَلَو أَقْبَلَ عَلَيْهِ أَوْ عَظَّمَهُ؛ لَرَفَعَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَمَا عَلِمَ أَنَّهُ فِي نَظْرَتِهِ تِلْكَ هُوَ فِي خطأ، ومن احتقرَ العِلْمَ يَكُونُ هُوَ الْمُحْتَقَر،

وَمن احتقر أَهْلَ الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ كَانَ هُوَ الْمُحتقر.

فَلَوْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ وَتَعَلَّمَ لَرَفَعَهُ اللَّهُ وَشَرَّفَهُ إِلَى جَانِبِ مَا مَكَّنَهُ مِنَ الْمَالِ، يُشَرَّفُ بِالْعِلْمِ، فَيَكُونُ خَيْرًا إِلَى خَيْرٍ.

---

(١) "تحفة الأحوذي" (٦/ ٥١٨).

(٢) "أدب الدنيا والدين" (صـ: ٤١)، "فيض القدير" - العلمية (٢/ ٣٦).

كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ: «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ»[١]

فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَنْقَصة لِصَاحِبِ رُتْبَةٍ أَوْ مَنْصِبٍ أَوْ مَالٍ أَنْ يَطْلُبَ الْعِلْمَ وَيَبْرُكُ عَلَى رُكَبَتَيْهِ لِنَيْلِهِ وَتَحْصِيلِهِ، وَلَوْ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، بَلْ ذَلِكَ طَرِيقُ رِفْعَة.

وَانْتِشَارُ الجَهلِ، هُوَ مِنْ أَمَارَاتِ دُنُوِّ السَّاعَةِ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ - وَهُوَ القَتْلُ القَتْلُ - حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ فَيَفِيضَ».[٢]

يُرْفَعُ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ الدِّينِيُّ، وَإِنْ ظَهَرَ الْعِلْمُ الدُّنْيَوِيُّ.

وَيَثْبُتُ الْجَهْلُ، يَنْتَشِرُ الْجَهْلُ فِي أَوْسَاطِهِمْ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».[٣]

انْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ: «اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

الْجَهْلُ سَبَبٌ لِلْهَدْمِ وَالضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ، وَسَبَبٌ لِكُلِّ شَرٍّ وَوَبَاءٍ وبلاء.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، والبخاري "الأدب المفرد" (٢٩٩)، والبيهقي في "الشعب" (١١٩٠)، وهو في "الصحيح المسند" للوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٠٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٦)، ومسلم (١٥٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبنحوه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١)، وجاء عن أبي موسى وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رواه البخاري (٧٠٦٢)، ومسلم (٢٦٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

فَكُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَمِنَ الْعِلْمِ وَآثَارِهِ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وفِي الْآخِرَةِ هُوَ مِنْ آثَارِ الْجَهْلِ، وَمُخَالَفَةِ الْعِلْمِ.

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَلَوْ ظَهَرَتْ صُورَةُ الْعِلْمِ لِلْأَبْصَارِ، لَزَادَ حُسنُهَا عَلَى صُورَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَلَوْ ظَهَرَتْ صُورَةُ الْجَهْلِ لَكَانَ مَنْظَرُهَا أَقْبَحَ مَنْظَرٍ.

بَلْ كُلُّ خَيْرٍ فِي الْعَالَمِ فَهُوَ مِنْ آثَارِ الْعِلْمِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَمُسَبَّبٌ عَنْهُ.

وَكذلك كُلُّ خَيْرٍ يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَبَعْدَهَا فِي الْقِيَامَةِ،

وَكُلُّ شَرٍّ وَفَسَادٍ حَصَلَ فِي الْعَالَمِ وَيَحْصُلُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَبَعْدَهَا فِي الْقِيَامَةِ، فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. (١)

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ هو الْعِلْمُ وَالْعَدْلُ، وأَصْلُ كُلِّ شَرٍّ هوَ الْجَهْلُ والظُّلْمُ.(٢) فَلَا تَجِدُ أَمَاكِنَ الْجَهْلِ إِلَّا وَيَنْتَشِرُ فِيهَا الْفَسَادُ أَعْظَمَ مِنْ غَيْرِهَا، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهَا الْبَاطِلُ، وَيَنْشُرُونَ السُّمُومَ وَالْأَفْكَارَ الْفَاسِدَةَ، وَالْعَقَائِدَ الْخَبِيثَةَ وَالْمَبَادِئَ الْهَدَّامَةَ.

فَالْعِلْمُ طَرِيقُ الرِّفْعَةِ، وَالْجَهْلُ طَرِيقُ السُّفُورِ، الْعِلْمُ طَرِيقُ الْبِنَاءِ، وَالْجَهْلُ طَرِيقُ الْهَدْمِ.

❁ قَالَ بَعْضُهُمْ:

كَمْ يَرْفَعُ الْعِلْمُ أَشْخَاصًا إِلَى رُتَبٍ ... وَيَخْفِضُ الْجَهْلُ أَشْرَافًا بِلا أَدَبِ

الْعِلْمُ كَنْزٌ فَلَا تَفْنَى ذَخَائِرُهُ ... وَالْمَرْءُ مَا زَادَ عِلْمًا زَادَ بِالرُّتَبِ

وَالْمَرْءُ مَا زَادَ عِلْمًا أَي: كُلَّمَا زَادَ عِلْمًا زَادَ بِالرُّتَبِ، يَزْدَادُ رِفْعَةً عِندَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَكَانَةً.

فَيَنْبَغِي أَنْ يُحَرَصَ عَلَى الْعِلْمِ، وَيُحْذَرَ مِنَ الْجَهْلِ.

---

(١) "مفتاح دار السعادة" (١/ ١١٦).

(٢) "إغاثة اللهفان" (٢/ ١٣٧).

البيت رقم ٣٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

جَعَلْتَ المَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلاً لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا

شرح البيت رقم ٣٦

"جَعَلْتَ المَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلاً"، جَعَلْتَ مَنْزِلَةَ الْمَالِ فَوْقَ مَنْزِلَةِ الْعِلْمِ، وَرَفْعَةَ الْمَالِ فَوْقَ رَفْعَةِ الْعِلْمِ، وَجَعَلْتَ الْمَالَ أَفْضَلَ مِنَ الْعِلْمِ، هَذَا مِنَ الْجَهْلِ، وَمِنْ آفَاتِ الْجَهْلِ، تَقْدِيمُ الْمَالِ عَلَى الْعِلْمِ.

أَوَّلاً: لا مُقارَنَةَ بَيْنَ المالِ وَالعِلْمِ، وَالْمُقارَنَةُ بَيْنَهُما وَتَفْضِيلُ المالِ عَلَى العِلْمِ، هَذا يَدُلُّ عَلَى جَهْلٍ؟ لِذَلِكَ قالَ: "جَعَلْتَ المالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلاً"

أَيْضاً، لا يَسْتَوِي مَنْ انْشَرَحَ صَدْرُهُ بِالعِلْمِ وَالدِّينِ وَالتُّقى، وَبَيْنَ مَنْ انْشَغَلَ بِالمالِ وَتَلَذَّذَ بِهِ.

❁ هَذا ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يَذْكُرُ مِنْ حالِ شَيْخِ الإِسْلامِ وَراحَتِهِ مَعَ شِدَّةِ مَعيشَتِهِ، وَطُمَأْنِينَتِهِ مَعَ فَقْرِهِ، وَسَعادَتِهِ مع فاقَتِهِ ما يأتي.

❁ قالَ ابنُ القَيِّمِ- رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: وَعِلْمَ اللهُ ما رَأَيْتُ أَحَداً أَطْيَبَ عَيْشاً مِنْهُ قَطُّ، مَعَ ما كانَ فِيهِ مِنْ ضِيقِ العَيْشِ، وَخِلافِ الرَّفاهِيَةِ وَالنَّعِيمِ، بَلْ ضِدِّها، وَمَعَ ما كانَ فِيهِ مِنَ الحَبْسِ وَالتَّهْدِيدِ وَالإِرْهاقِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَطْيَبِ النّاسِ عَيْشاً، وَأَشْرَحِهِمْ صَدْراً، وَأَقواهُمْ قَلْباً، وَأَسَرِّهِمْ نَفْساً. تَلُوحُ نَظْرَةُ النَّعِيمِ عَلَى وَجْهِهِ، وَكُنّا إِذا اشْتَدَّ بِنا الخَوْفُ وَساءَتْ مِنّا الظُّنونُ، وَضاقَتْ بِنا الأَرْضُ، أَتَيْناهُ، فَما هُوَ إِلّا أَنْ نَراهُ وَنَسْمَعَ كَلامَهُ، فَيَذْهَبُ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَيَنْقَلِبُ انْشِراحاً وَقُوَّةً وَيَقِيناً وَطُمَأْنِينَةً. فَسُبْحانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبادَهُ جَنَّتَهُ

قَبْلَ لِقائِهِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوابَها فِي دارِ العَمَلِ، فَأَتاهمْ مِنْ رَوْحِها وَنَسِيمِها وَطِيبِها ما اسْتَفْرَغَ قُواهُمْ لِطَلَبِها وَالمُسابَقَةِ إِلَيْها.

وَكانَ بَعْضُ العارِفِينَ يَقولُ: لَوْ عَلِمَ المُلُوكُ وَأَبْناءُ المُلُوكِ ما نَحْنُ فِيهِ لَجالَدُونا عَلَيْهِ بِالسُّيوفِ.(١)

فَانْظُرْ إِلى ما كانَ عَلَيْهِ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ وَاليَقِينِ وَالانْشِراحِ وَالسَّعادَةِ مَعَ ضِيقِ العَيْشِ، إِلّا أَنَّ ذَلِكَ بِما آتاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الخَيْرِ وَالعِلْمِ. فَلا مُقارَنَةَ بَيْنَ المالِ وَالعِلْمِ أَبَداً.

❁ ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فِي كِتابِهِ "مِفْتاحُ دارِ السَّعادَةِ" فَضْلَ العِلْمِ عَلَى المالِ مِنْ وُجوهٍ، وَذَكَرَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِينَ وَجْهاً. سَأَذْكُرُ بَعْضَها اخْتِصاراً، وَلِمَنْ أَرادَ الوُقوفَ عَلَى جُمْلَتِها فَلْيَرجع إِلى "مِفْتاحِهِ".

أَحَدُها: أَنَّ العِلْمَ مِيراثُ الأَنْبِياءِ، وَالمالَ مِيراثُ المُلُوكِ وَالأَغْنِياءِ.

وَالثّانِي: أَنَّ العِلْمَ يَحْرُسُ صاحِبَهُ، وَصاحِبَ المالِ يَحْرُسُ مالَه.

والثالث: أَنَّ المالَ تُذْهِبُهُ النَّفَقات، والعِلْمُ يَزكُو على النَّفَقة.

العِلْمُ يَزْدادُ بإنفاقِهِ، بِبَذْلِهِ، بِنَشْرِهِ، كما تَقَدَّمَ في بَعْضِ أَبْياتِهِ السَّابِقَةِ. المالُ إِخْراجُهُ يَذْهَبُ بِهِ، لا سِيَّما في الأُمورِ التي لَيْسَتْ هي مِنْ جِنْسِ الصَّدَقاتِ، والزَّكَواتِ.

لِما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»(٢)

---

(١) "الوابل الصيب" (صـ: ٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

الصَّدَقَةُ لا تُنقِصُ المالَ، بَلْ سَبَبٌ لِزِيادَتِهِ ونَمائِهِ. والزَّكاةُ في اللُّغَةِ: هي النَّماءُ والزِّيادَةُ. فَزَكاةُ المالِ وإنْفاقُ المالِ في وُجوهِ الخَيْرِ سَبَبٌ لِزِيادَتِهِ، سَبَبٌ لِنَمائِهِ، سَبَبٌ لِكَثْرَتِهِ. وإنْفاقُهُ في وُجوهٍ أُخرى، في غَيْرِ وُجوهِ البِرِّ، سَبَبٌ لِمَحْقِهِ ونُقْصانِهِ وذَهابِهِ. أمَّا العِلْمُ، نَشْرُهُ وبَثُّهُ سَبَبٌ لِزِيادَتِهِ.

يَـزِيـدُ بِـكَـثْـرَةِ الإِنْـفَـاقِ مِـنْـهُ ... وَيَـنْـقُـصُ إِنْ بِـهِ كَـفًّا شَـــدَدْتَـا

قالَ: **الرَّابِعُ: صاحِبُ المالِ إذا ماتَ فارَقَهُ مالُهُ، والعِلْمُ يَدْخُلُ مَعَهُ قَبْرَهُ.**

فالمالُ، بِمُجَرَّدِ ما يَموتُ الإنسانُ، يَنْتَقِلُ مِنْ مِلْكِ صاحِبِ المالِ، مِنْ مِلْكِ المُوَرِّثِ إلى الوَرَثَةِ مُباشَرَةً. بِمُجَرَّدِ ما تَخْرُجُ روحُهُ، يَنْتَقِلُ المالُ إلى مِلْكِ الوَرَثَةِ مُباشَرَةً. ما كانَ يَمْتَلِكُهُ مِنْ أَمْوالٍ ومِنْ قُصورٍ، بَيْنَما صاحِبُ العِلْمِ إذا ماتَ، عِلْمُهُ مَعَهُ. وما تَرَكَهُ مِنْ العِلْمِ وخَلَّفَهُ مِنْ تَعْليمِ النّاسِ أو مِنْ مُؤَلَّفاتٍ، فَهُوَ مِيراثُهُ وهُوَ عِلْمُهُ، يَنالُهُ الأَجْرُ فيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ.

وفي الحديث: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ فَإِنَّهُ يَنالُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ويَنْتَفِعُ بِهِ».(١)

أمَّا المال، إذا لَمْ يَجْعَلْهُ في صَدَقاتٍ جارِيَةٍ أو في وُجوهِ الخَيْرِ، فَإِنَّهُ لا يَعودُ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ.

فالمراد بأنَّ صاحِبَ المالِ يُفارِقُهُ ذَلِكَ المالُ، بِخِلافِ صاحِبِ العِلْمِ.

الخامِسُ: أنَّ العِلْمَ حاكِمٌ على المالِ، والمالُ لا يَحْكُمُ على العِلْمِ.

فلا يَجوزُ أنْ يَتَصَرَّفَ في المالِ إلّا على حَسَبِ ما وَرَدَ بالأَدِلَّةِ.

السّادِسُ: أنَّ المالَ يَحْصُلُ للمُؤْمِنِ والكافِرِ، والبَرِّ والفاجِرِ، والعِلْمُ النّافِعُ لا يَحْصُلُ إلّا للمُؤْمِنِ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦١٣)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السّابعُ: أنَّ العالِمَ يَحْتاجُ إلَيْهِ المُلوكُ ومَنْ دُونَهُمْ، وصاحِبُ المالِ إنَّما يَحْتاجُ إلَيْهِ أَهْلُ العَدَمِ والفاقةِ.

الثّامِنُ: أنَّ النَّفْسَ تَشْرُفُ وتَزْكُو بِجَمْعِ العِلْمِ وتَحْصيلِهِ، وذَلِكَ مِنْ كَمالِها وشَرَفِها. والمالُ يُزَكّيها ولا يُكَمِلُه، ولا يَزيدُها صِفَةَ كَمالٍ، بَلِ النَّفْسُ تَنْقُصُ وتَشُحُّ وتَبْخَلُ بِجَمْعِهِ والحِرْصِ عَلَيْهِ.

فَحِرْصُها على العِلْمِ عَيْنُ كَمالِها، وحِرْصُها على المالِ عَيْنُ نَقْصِها.

التاسِعُ: أنَّ المالَ يَدْعوها إلى الطُّغْيانِ والفَخْرِ والخُيَلاءِ، والعِلْمُ يَدْعوها إلى التَّواضُعِ والقيامِ بالعُبودِيَّةِ.

فالمالُ يَدْعوها إلى صِفَاتِ المُلوك ـ وغالِبًا يَتَصِفونَ بِشَيْءٍ مِنَ الكِبْرِ والتَّرَفُّعِ وغَيْرِ ذلك إلّا مَنْ رَحِمَ اللهُ ـ **والعِلْمُ يَدْعوها إلى صِفاتِ العَبيدِ** ـ أي المُتَذَلِّلينَ المُنْكَسِرينَ للهِ جَلَّ وعَلا. وهي مِنْ أَشْرَفِ أَوْصافِ العَبْدِ أنْ يَكونَ عَبْدًا للهِ جَلَّ وعَلا، أنْ يَتَصِفَ بِصِفَةِ العُبودِيَّةِ للهِ جَلَّ وعَلا. ولِذَلِكَ وَصَفَ اللهُ نَبِيَّهُ في أَجَلِّ المَقامَاتِ وأَرْفَعِها بِصِفَةِ العُبودِيَّةِ في مَقامِ الإِسْراءِ، في مقام الدَّعْوَةِ، في مَقامِ الوَحْيِ، في مَقامِ إنْزالِ القُرْآنِ ونَحْوِ ذلك ـ.

الْعَاشِر: أنَّ العِلْمَ جاذِبٌ مُوصِلٌ لها إلى سَّعادَتها والمال حِجابٌ بَيْنَها وبَيْنَها.

الْحَادِي عشر: أنَّ غَنِيَّ العِلْمِ أَجَل مِنْ غَنِيِّ المالِ، فإنَّ غِنِي المالِ غني بِأَمْرٍ خارِجِيٍّ عَن حَقِيقَة الانسان لَو ذهب فِي لَيْلَة أصبح فَقِيرا معدما، وغني الْعلم لَا يخْشَى عَلَيْهِ الْفقر، بل هُوَ فِي زيادة أبدا فَهُوَ الْغَنِيّ العالي حَقِيقَة بِخِلافِ العِلْمِ...

الثَّانِي عشر: أن المَال يستعبد مُحبه وَصَاحبه فَيَجْعَلهُ عبداً لَهُ كَمَا قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ». الحَدِيث [١] وَالْعلم يستعبده لرَبه وخالقه فَهُوَ لَا يَدعُوهُ إِلَّا الى عبودية الله وحده.

الثَّالِث عشر: أَنَّ حُبَّ العِلْمِ وطَلَبَهُ أَصْلُ كُلِّ طاعَةٍ، وحُبَّ الدُّنْيا والمالِ وطَلَبَهُ أَصْلُ كُلِّ سَيِّئَةٍ.

الرابع عشر: أَنَّ قيمَة الْغَنِي مَاله وَقِيمَة الْعَالم علمه، فَهَذَا مُتَقَوّم بِمَالِه فَإِذا عدم مَاله عدمت قِيمَته وَبَقِي بِلَا قيمَة والعالم لا تزول قِيمَته بل هِيَ فيضاعف وَزِيَادَة دَائِماً.

السَّابِع عشر: أنه مَا أطاع اللهَ أَحْدٌ قطُّ الا بِالْعلمِ، وَعَامة من يعصيه إِنَّمَا يعصيه بِالْمَالِ.

الثَّامِن عشر: أن الْعَالم يَدْعُو النَّاس الى الله بِعِلْمِهِ وحاله وجامع المَال يَدعُوهُم الى الدُّنْيَا بِحَالِهِ وَمَاله...

الْحَادِي وَالْعشْرُونَ: أن عقلاء الأمم مطبقون على ذمّ الشره فِي جمع المَال الْحَرِيص عَلَيْهِ وتنقصه والإزراء بِهِ، ومطبقون على تَعْظِيم الشره فِي جمع الْعلم وتحصيله ومدحه ومحبته ورؤيته بِعَين الْكَمَال.

الثَّانِي وَالْعشْرُونَ: أنهم مطبقون على تَعْظِيم الزَّاهِد فِي المَال المعرض عَن جمعه الَّذِي لَا يلْتَفت اليه وَلَا يَجْعَل قلبه عبدا لَهُ، ومطبقون على ذمّ الزَّاهِد فِي الْعلم الَّذِي لَا يلْتَفتُ اليه وَلَا يحرصُ عَلَيْهِ... [٢]

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦)، (٢٨٨٧)، (٦٤٣٥).

(٢) "مفتاح دار السعادة" (١/١٢٩ إلى ١٣٢).

المالُ قَدْ يَكونُ عَذابًا على صاحِبِهِ ونقمه، وقد يَكونُ فيهِ نَعيمٌ لَهُ وسعادة وعونٌ له على الدين والعلم والدعوة إلى الله تعالى.

قد يَكونُ عَذابًا على صاحِبِهِ ووبالاً وهلاكاً إذا أَمْسَكَهُ وشَحَّ بِهِ، ولَمْ يُخْرِجْ مِنْهُ الزَّكاةَ الواجِبَةَ، وما أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ فيهِ، أو جَمَعَهُ مِنْ حَرامٍ، أو أَنْفَقَهُ في الحَرامِ، يَكونُ عَذابًا؛ ولهذا استعاذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من مثل هذا المال فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ، وَمِنْ زَوْجٍ تُشَيِّبُنِي قَبْلَ الْمَشِيبِ، وَمِنْ وَلَدٍ يَكُونُ عَلَيَّ رِبًا، وَمِنْ مَالٍ يَكُونُ عَلَيَّ عَذَابًا، وَمِنْ خَلِيلٍ مَاكِرٍ عَيْنُهُ تَرَانِي وَقَلْبُهُ تَرْعَانِي إِنْ رَأَى حَسَنَةً دَفَنَهَا، وَإِذَا رَأَى سَيِّئَةً أَذَاعَهَا».(١)

وَعَنْ خَوْلَةَ الأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ».(٢)

يَتَلاعَبُون فيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، لا يَصْرِفُهُ في وُجوهِ الخَيْرِ، ولا رُبَّما يَكونُ دَخْلُهُ مِنْ مُباحٍ، ولا يُنْفِقُهُ رُبَّما في وُجوهِ الخَيْرِ أو المُباحِ. هذا يَكونُ عَلَيْهِ عَذاباً، ويَكُونُ مُتَوَعَّداً بالنّارِ عِياذًا باللهِ جَلَّ وعَلا.

وأَحْسَنُ النّاسِ في مالِهِمُ الَّذينَ أَخْرَجوا مِنْ مالِهِمْ في نَشْرِ الخَيْرِ والعِلْمِ، والدَّعْوَةِ إلى اللهِ، وأَخْرَجوا مِنْهُ ما يَجِبُ عَلَيْهِمْ.

❁ قَالَ حِبَّانُ بْنُ مُوسَى رَحِمَهُ اللَّهُ: عُوتِبَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا يُفَرِّقُ الْمَالَ فِي الْبُلْدَانِ، وَلَا يَفْعَلُ فِي أَهْلِ بَلَدِهِ، فَقَالَ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ مَكَانَ قوم، لَهُمْ فَضْلٌ وَصَدْقٌ، وطَلَبُوا

(١) أخرجه الطبراني في "الدعاء" (١٣٣٩) وجود إسناده الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيحة" برقم (٣١٣٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣١١٨).

الْحَدِيثَ فَأَحْسَنُوا الطَّلَبَ لِلْحَدِيثِ، حَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْهِمْ شَدِيدَةٌ وَقَدِ احْتَاجُوا، فَإِنْ تَرَكْنَاهُمْ ضَاعَ عِلْمُهُمْ، وَإِنْ أَغْنَيْنَاهُمْ بَثُّوا الْعِلْمَ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَا أَعْلَمُ بَعْدَ النُّبُوَّةِ دَرَجَةً أَفْضَلَ مِنْ بَثِّ الْعِلْمِ». (١)

❁ وقد كان يحيى بن خالد هذا يُجْرِي عَلَى سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ كُلَّ شَهْرٍ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَكَانَ سُفْيَانُ يَدْعُو لَهُ فِي سجوده يقول: اللَّهمّ إنه قد كفاني المؤنة وفرغني للعبادة فَاكْفِهِ أَمْرَ آخِرَتِهِ. فَلَمَّا مَاتَ يَحْيَى رَآهُ بعض أصحابه فِي الْمَنَامِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ: غَفَرَ لِي بدعاء سفيان. (٢)

في إِعانَتِهِمْ على ذَلِكَ يُفرغهم للعلم والتعليم ونشره للناس.

وَفِي ذَلِكَ خَيْرٌ لِلْمُنْفِقِ، وذَلِكَ الْخَيْرُ الَّذِي يَنْتَشِرُ بِسَبَبِ مَالِهِ الَّذِي يُنْفِقُهُ، لَهُ أَجْرٌ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ مُشَارَكَتِهِ فِي نَشْرِ الْخَيْرِ.

فَحَيَاةُ الْعِلْمِ حَيَاةٌ عَظِيمَةٌ، لَا تُوَازِيهَا حَيَاةُ مُلُوكٍ وَلَا أُمَرَاءٍ وَلَا وُزَرَاءٍ، وَلَا أَصْحَاب أَمْوَالٍ.

❁ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقِيلَ: الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْكَ وَأَنْتَ تَدْفَعُ عَنْ الْمَالِ.

---

(١) أخرجه البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ٢٦٣)، وينظر "تاريخ بغداد" ت بشار (١١/ ٣٩٧)، و"تاريخ دمشق" لابن عساكر (٣٢/ ٤٥٦)، و"سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (٨/ ٣٨٧).

(٢) "البداية والنهاية" ط الفكر (١٠/ ٢٠٥).

وَقِيلَ: الْعِلْمُ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنْ الْجَهْلِ وَمِصْبَاحُ الْبَصَائِرِ فِي الظُّلَمِ بِهِ تُبْلَغُ مَنَازِلُ الْأَبْرَارِ وَدَرَجَاتِ الْأَخْيَارِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ، وَمُدَارَسَتُهُ تُرَجَّحُ عَلَى الصَّلَاةِ وَصَاحِبُهُ مُبَجَّلٌ مُكَرَّمٌ.(١)

"وَمُدَارَسَتُهُ تُرَجَّحُ عَلَى الصَّلَاةِ". أَيِ: النَّافِلَةِ.

وقد نَقَلَ بعض أهل العلم الْإِجْمَاع على أَنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَفْضَل.

❁ قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وَالْحَاصِلُ أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الِاشْتِغَالَ بِالْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ الاشتغال بِنَوَافِلِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ نَوَافِلِ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ.**

وَمِنْ دَلَائِلِهِ سِوَى مَا سَبَقَ: أَنَّ نَفْعَ الْعِلْمِ يَعُمُّ صَاحِبَهُ وَالْمُسْلِمِينَ وَالنَّوَافِلُ الْمَذْكُورَةُ مُخْتَصَّةٌ بِهِ.

وَلِأَنَّ الْعِلْمَ مُصَحِّحٌ فَغَيْرُهُ مِنْ الْعِبَادَاتِ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ وَلَا يَنْعَكِسُ.

وَلِأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا يُوصَفُ الْمُتَعَبِّدُونَ بِذَلِكَ.

وَلِأَنَّ الْعَابِدَ تَابِعٌ لِلْعَالِمِ مُقْتَدٍ بِهِ مقلد له في عبادته وَغَيْرِهَا وَاجِبٌ عَلَيْهِ طَاعَتُهُ وَلَا يَنْعَكِسُ.

وَلِأَنَّ الْعِلْمَ تَبْقَى فَائِدَتُهُ وَأَثَرُهُ بَعْدَ صَاحِبِهِ وَالنَّوَافِلُ تَنْقَطِعُ بِمَوْتِ صَاحِبِهَا

وَلِأَنَّ الْعِلْمَ صِفَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَلِأَنَّ الْعِلْمَ فَرْضُ كِفَايَةٍ أَعْنِي الْعِلْمَ الذي كلامنا فِيهِ فَكَانَ أَفْضَلَ مِنْ النَّافِلَةِ.(٢)

---

(١) "المجموع"(١/ ٢٠). والقول الثاني روي نحوه عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرجه ابن عبد البر في "الجامع" (١/ ٥٤-٥٥). وفيه آفتان: الأولى: عبد الرحيم بن زيد العمي؛ متروك. والأخرى: ابن عطاء القرشي، وقد كان يضع الحديث. ورُوِيَ عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، مرفوعاً. وفيه المسيب بن شريك متروك. انظر "السلسلة الضعيفة"(٥٢٩٣).

(٢) "المجموع شرح المهذب" (١/ ٢١).

❁ وبوب البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المدخل: بَابُ فَضْلِ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ. (١)

❁ وبوب ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بَابُ تَفْضِيلِ الْعِلْمِ عَلَى الْعِبَادَةِ.(٢) ومما ذكر فيه:

❁ قَالَ مُطَرِّفٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَضْلُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ».(٣)

❁ وقال الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَان: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: «طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ النَّافِلَةِ».(٤)

❁ وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا مِنْ عَمَلٍ أَفْضَلَ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ إِذَا صَحَّتِ النِّيَّةُ».(٥)

❁ قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طَلَبُ الْحَدِيثِ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ التَّطَوُّعِ لِأَجَلِ دُرُوسِ السُّنَنِ وَخُمُودِهَا، وَظُهُورِ الْبِدَعِ وَاسْتِعْلَاءِ أَهْلِهَا.(٦)

❁ قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ومما يدل على تفضيل العِلْم** على جميع النوافل أن العِلْم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرقة.

فإن العِلْم أفضل أنواع الذكر، كما سبق تقريره، وهو أيضاً أفضل أنواع الجهاد...

---

(١) " المدخل إلى السنن الكبرى" (صـ: ٣٠٢).

(٢) "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ٩٩).

(٣) "جامع بيان العلم"(برقم ١٠٤). صحيح.

(٤) "جامع بيان العلم"(١١٨)، وغيره. بسند صحيح.

(٥) "جامع بيان العلم"(١١٩)، وسنده صحيح.

(٦) "شرف أصحاب الحديث" (صـ: ٨٦).

ومما يدل على تفضيل العِلْم على العبادة: قصة آدم عليه السلام فإن الله تعالى إنما أظهر فضله على الملائكة بالعلم، حيث علمه أسماء كل شيء واعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة ذلك، فلما أنبأهم آدم بالأسماء ظهر حينئذ فضله عليهم...

ومما يدل على فضل العِلْم أن جبرئيل عليه السلام، إنما فضل على الملائكة المشتغلين بالعبادة بالعلم الَّذِي خص به، فإنه صاحب الوحي الَّذِي ينزل به على الأنبياء -عليهم السلام-.

وكذلك خواص الرسل إنما فضلوا على غيرهم من الأنبياء -عليهم السلام - بمزيد العِلْم المقتضي لزيادة المعرفة بالله والخشية له.(١)

وَلَا يَعْنِي هَذَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَهَاوَنُ فِي الْعِبَادَاتِ، بَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَكْثِرَ منها مَا اسْتَطَاعَ، وينبغي له أن يكون حريصا على العمل بالعمل ما أمكنه.

❁ بَاتَ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رَجُلٌ فَوَضَعَ عِنْدَهُ مَاءً قَالَ الرَّجُلُ: فَلَمْ أَقُمْ بِاللَّيْلِ وَلَمْ اسْتَعْمِلْ الْمَاءَ، فَلَمَّا أَصْبَحْت قَالَ لِي: لِمَ لَا تَسْتَعْمِلُ الْمَاءَ؟ فَاسْتَحْيَيْت وَسَكَتُّ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا سَمِعْت بِصَاحِبِ حَدِيثٍ لَا يَقُومُ بِاللَّيْلِ.(٢)

❁ قال الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثُمَّ إنِّي مُوصِيكَ يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي طَلَبِهِ، وَإِجْهَادِ النَّفْسِ عَلَى الْعَمَلِ بِمُوجَبِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ شَجَرَةٌ وَالْعَمَلَ ثَمَرَةٌ، وَلَيْسَ يُعَدُّ عَالِمًا مَنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمِهِ عَامِلًا، وَقِيلَ: الْعِلْمُ وَالِدٌ وَالْعَمَلُ مَوْلُودٌ، وَالْعِلْمُ مَعَ الْعَمَلِ، وَالرِّوَايَةُ مَعَ الدِّرَايَةِ فَلَا تَأْنَسْ بِالْعَمَلِ مَا دُمْتَ مُسْتَوْحِشًا مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا تَأْنَسْ بِالْعِلْمِ مَا كُنْتَ مُقَصِّرًا

---

(١) " مجموع رسائل ابن رجب" (١/ ٣٧).

(٢) كما في " الآداب الشرعية والمنح المرعية" (٢/ ١٦٩).

فِي الْعَمَلِ وَلَكِنِ اجْمَعْ بَيْنَهُمَا، وَإِنْ قَلَّ نَصِيبُكَ مِنْهُمَا، وَمَا شَيْءٌ أَضْعَفُ مِنْ عَالِمٍ تَرَكَ النَّاسُ عِلْمَهُ لِفَسَادِ طَرِيقَتِهِ، وَجَاهِلٍ أَخَذَ النَّاسُ بِجَهْلِهِ لِنَظَرِهِمْ إِلَى عِبَادَتِهِ.(١)

❁ قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالْإِنْصَافُ أَنْ يُقَالَ: كُلَّمَا زَادَ عَلَى مَا هُوَ فِي حَقِّ الْمُكَلَّفِ فَرْضُ عَيْنٍ فَالنَّاسُ فِيهِ عَلَى قِسْمَيْنِ:

مَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَى الْفَهْمِ وَالتَّحْرِيرِ فَتَشَاغُلُهُ بِذَلِكَ أَوْلَى مِنْ إِعْرَاضِهِ عَنْهُ وَتَشَاغُلِهِ بِالْعِبَادَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْعِ الْمُتَعَدِّي.

وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ قُصُورًا فَإِقْبَالُهُ عَلَى الْعِبَادَةِ أَوْلَى لِعُسْرِ اجْتِمَاعِ الْأَمْرَيْنِ؛ فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَوْ تَرَكَ الْعِلْمَ لَأَوْشَكَ أَنْ يُضَيِّعَ بَعْضَ الْأَحْكَامِ بِإِعْرَاضِهِ.

وَالثَّانِي لَوْ أَقْبَلَ عَلَى الْعِلْمِ وَتَرَكَ الْعِبَادَةَ فَاتَهُ الْأَمْرَانِ لِعَدَمِ حُصُولِ الْأَوَّلِ لَهُ وَإِعْرَاضِهِ بِهِ عَنِ الثَّانِي وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ.(٢)

❁ قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ مُخْتَلَفٌ فِيهَا: هَلْ طَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ، أَوْ صَلاَةُ النَّافِلَةِ وَالتِّلاَوَةُ وَالذِّكرُ؟

فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُخلِصاً للهِ فِي طَلَبِ العِلمِ، وَذِهنُه جَيِّدٌ، فَالعِلْمُ أَوْلَى، وَلَكِنْ مَعَ حَظٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَعَبُّدٍ، فَإِنْ رَأَيتَه مُجِدّاً فِي طَلَبِ العِلْمِ لاَ حظَّ لَهُ فِي القُرُبَاتِ، فَهَذَا كَسلاَنُ مَهِيْنٌ، وَلَيْسَ هُوَ بِصَادِقٍ فِي حُسنِ نِيَّتِه، وَأَمَّا مَنْ كَانَ طَلَبُه الحَدِيْثَ وَالفِقْهَ غِيَّةً وَمَحبَّةً نَفْسَانِيَّةً، فَالعِبَادَةُ فِي حَقِّه أَفْضَلُ، بَلْ مَا بَيْنَهُمَا أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ، وَهَذَا تَقسِيمٌ فِي الجُمْلَةِ، فَقَلَّ -وَاللهِ- مَنْ رَأَيتُه مُخلِصاً فِي طَلَبِ العِلْمِ.

---

(١) " اقتضاء العلم العمل " (صـ: ١٤).

(٢) "فتح الباري" لابن حجر (١٣/ ٢٦٧).

دَعْنَا مِنْ هَذَا كُلِّه، فَلَيْسَ طَلَبُ الحَدِيْثِ اليَوْمَ عَلَى الوَضعِ المُتَعَارَفِ مِنْ حَيِّزِ طَلَبِ العِلْمِ، بَلْ اصْطِلاَحٌ وَطَلَبُ أَسَانِيْدَ عَالِيَةٍ، وَأَخْذٌ عَنْ شَيْخٍ لاَ يَعِي، وَتَسمِيْعٌ لِطِفلٍ يَلْعَبُ وَلاَ يَفْهَمُ، أَوْ لِرَضِيعٍ يَبْكِي، أَوْ لِفَقِيْهٍ يَتَحَدَّثُ مَعَ حَدَثٍ، أَوْ آخَرَ يَنسَخُ.

وَفَاضِلُهُم مَشْغُوْلٌ عَنِ الحَدِيْثِ بِكِتَابَةِ الأَسْمَاءِ أَوْ بِالنُّعَاسِ، وَالقَارِئُ إِنْ كَانَ لَهُ مُشَارَكَةٌ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الفَضِيْلَةِ أَكْثَرَ مِنْ قِرَاءَةِ مَا فِي الجُزْءِ، سَوَاءٌ تَصَحَّفَ عَلَيْهِ الاسْمُ، أَوِ اخْتَبَطَ المَتْنُ، أَوْ كَانَ مِنَ المَوْضُوْعَاتِ. فَالعِلْمُ عَنْ هَؤُلاَءِ بِمَعْزِلٍ، وَالعَمَلُ لاَ أَكَادُ أَرَاهُ، بَلْ أَرَى أُمُوْراً سَيِّئَةً - نَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ -.(١)

قوله " لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا" فليس من العدل أبداً أن تجعلَ مكانةَ ومنزلةَ المال فوق منزلةِ العلم.

وقوله: "لَعَمرُكَ" هل يجوز استعمال مثل هذه اللفظة؟

سأنقل من كلام الشيخ بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بنصه

❁ قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسيره عند قوله تعالى {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر:٧٢].

(كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان: لعمري؛ لأن معناه: وحياتي. قال إبراهيم النخعي: يكره للرجل أن يقول: لعمري؛ لأنه حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال، ونحو هذا قال مالك: إن المستضعفين من الرجال، والمؤنثين: يقسمون بحياتك وعيشك، وليس من كلام أهل الذكران، وإن كان الله سبحانه أقسم به في هذه القصة، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه، فلا يحمل عليه سواه، ولا يستعمل في غيره.

(١) "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (٧/ ١٦٧).

❁ وقال ابن حبيب: ينبغي أن يصرف: لعمرك، في الكلام لهذه الآية. وقال قتادة هو من كلام العرب. قال ابن العربي: وبه أقول، لكن الشرع قد قطعه في الاستعمال ورد القسم إليه.

❁ قلت: القسم بـ لعمرك، و: لعمري، ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها كثير.

قال النابغة:

لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ لَقَدْ نَطَقَتْ بُطْلًا عَلَيَّ الْأَقَارِعُ

..... وآخر:

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

❁ وقال بعض أهل المعاني: لا يجوز هذا؛ لأنه لا يقال: لله عمر، وإنما هو أزلي. ذكره الزهراوي) انتهى.

❁ وابن القيم - رحمه الله تعالى - قد استعملها في مواضع من كتبه كقوله في روضة المحبين:

(ولعمري لقد نزع أبو القاسم السهيلي بذنوب صحيح) اهـ.

❁ وفي (زاد المعاد):

(ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -) اهـ.

❁ وللشيخ حماد الأنصاري المدني رسالة باسم (القول المبين في أن لعمري ليست نصاً في اليمين).

والتوجيه أن يقال: إن أراد القسم منع، وإلا فلا، كما يجري على اللسان من الكلام مما لا يراد به حقيقة معناه، كقوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - لعائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: ((عقرى حلقى)) الحديث. والله أعلم.[1]

---

(١) " معجم المناهي اللفظية" (صـ: ٤٥٥).

البيت رقم٣٧

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ سَتَعْلَمُهُ إِذَا طَهَ قَرَأْتَا

شرح البيت رقم ٣٧

وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ وَاسِعٌ وَفَرْقٌ كَبِيرٌ فلا مقارنة بينهما ولا تقارب.

❁ قال ابن منظور: البَوْنُ والبُونُ: مسافةُ مَا بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ.(١)

الدُّنْيَا مَتَاعُهَا قَلِيلٌ، قَالَ اللَّهُ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ النساء [٧٧].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».(٢)

فَتَعْظِيمُ الدُّنْيَا عَلَى الْعِلْمِ فَهَذَا مِنَ الْجَهْلِ.

وجاء عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأْيُكَ

---

(١) "لسان العرب" (١٣/ ٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٠٩)، (٤٢٠٨)، والترمذي (٢٣٧٧)، والبيهقي في "الشعب" (٩٩٣٠) وهو في "الصحيحة" للإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٣٨)، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عند أحمد (٢٧٤٤)، والبيهقي في "الشعب" (٩٩٣٢)، والطبراني في "الكبير" (١١٨٩٨)، وهو في "الصحيحة"(٤٣٩).

فِي هَذَا» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا».(١)

فَقَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: هَذَا (أَيِ: الْفَقِيرُ) وَهُوَ عَلَى خَيْرٍ وَصَلَاحٍ "خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ هَذَا". تَأَمَّلْ، هَذَا الْفَقِيرُ الَّذِي عَلَى خَيْرٍ وَصَلَاحٍ خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا. فَلَا تَغْتَرَّ بِإِنْسَانٍ لِشَرَفِهِ فِي مَنَاصِبِ الدُّنْيَا، أَوْ فِي النَّسَبِ، أَوْ لِعِظَمِ مَالِهِ لَا تَغْتَرَّ. فَلَوْ جَمَعْتَ مِلْءَ الْأَرْضِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْأَثْرِيَاءِ وَأَصْحَابِ الْمَنَاصِبِ وَالزُّعَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ وَكَانُوا عَلَى غَيْرِ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ، وَوَجَدْتَ رَجُلًا وَاحِدًا عَلَى خَيْرٍ وَصَلَاحٍ وَلَوْ كَانَ فَقِيرًا مِسْكِينًا لَا يَمْلِكُ قُوتَ يَوْمِهِ، هُوَ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا. "هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا". فَلَا مُقَارَنَةَ إِذًا بَيْنَ صَاحِبِ الْمَالِ وَبَيْنَ صَاحِبِ الْعِلْمِ. بَيْنَ مَنْ كَانَ عَلَى خَيْرٍ وَعِلْمٍ وَبَيْنَ مَنْ كَانَ عَلَى مَالٍ وَهُوَ لَمْ يَكُنْ عَلَى خَيْرٍ وَاسْتِقَامَةٍ وَعِلْمٍ.

❁ قَدْ قِيلَ:

يمشـــــي الفقيرُ وكلُّ شيءٍ ضـــدُّهُ ... والـنـاسُ تـغـلـقُ دونَـهُ أبـوابَـهـا
وتـراهُ مـبـغـوضـــاً ولـيـس بـمُـذْنـبٍ ... ويـرى الـعـداوةَ لا يـرى أسـبـابَـهـا
حـتـى الـكـلابَ إذا رأتْ ذا ثـروةٍ ... خَضَـــعَـتْ لـديـه وحـركـتْ أذانـابَـهـا
وإذا رأتْ يَـوْمـاً فـقـيراً عـابـراً ... نَبَحتْ عليه وكشّـــرَتْ أنيابَهـا

وَهَذَا الْفَقِيرُ إِذَا كَانَ عَلَى خَيْرٍ وَعِلْمٍ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ. فَلَا مُقَارَنَةَ بَيْنَ شَرَفِ الْمَالِ وَبَيْنَ شَرَفِ الْعِلْمِ أَبَدًا.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩١)، (٦٤٤٧).

"وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ" فَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ وَاسِعٌ وَفَرْقٌ شَاسِعٌ.

قَالَ: "سَتَعْلَمُهُ إِذَا طه قَرَأْتَا" أَيْ: سَتَعْرِفُ ذَلِكَ إِذَا قَرَأْتَ سُورَةَ طَهَ. وَمِمَّا فِي سُورَةِ طَهَ قَوله تَعَالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه [١١٤]

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَكَفَى بِهَذَا شَرَفًا لِلْعِلْمِ أَنْ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَسْأَلَهُ الْمَزِيدَ مِنْهُ.(١)

❁ وَقَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَاضِحُ الدَّلَالَةِ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، بِطَلَبِ الِازْدِيَادِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنَ الْعِلْمِ.

وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ الَّذِي يُفِيدُ مَعْرِفَةَ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ مِنْ أَمْرِ دينه فِي عِبَادَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ وَالْعِلْمُ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ وَتَنْزِيهِهِ عَنِ النَّقَائِصِ وَمَدَارُ ذَلِكَ عَلَى التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ.(٢)

❁ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ زِدْنِي مِنْكَ عِلْمًا، قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَلَمْ يَزَلْ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فِي زيادة حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «إِنَّ اللَّهَ تَابَعَ الْوَحْيَ عَلَى رَسُولِهِ، حَتَّى كَانَ الْوَحْيُ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَوْمَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ(٣)».(٤)

---

(١) "مفتاح دار السعادة" (١/ ٥٠).

(٢) "فتح الباري" لابن حجر (١/ ١٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٨٢)، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) "تفسير ابن كثير" عند الآية المشار إليها.

❁ وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جَاءَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآثَارِ أَنَّ دَرَجَاتِ الْعُلَمَاءِ، تَتْلُو دَرَجَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَدَرَجَاتِ أَصْحَابِهِمْ. وَالْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وإِنَّمَا وَرِثُوا الْعِلْمَ، وَبَيَّنُوهُ لِلْأُمَّةِ وَذَبُّوا عَنْهُ، وَحَمَوْهُ مِنْ تَحْرِيفِ الْجَاهِلِينَ وَانْتِحَالِ الْمُبْطِلِينَ. (١)

أيضاً مِمَّا فِي سُورَةِ طَهَ مَا ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قصة مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ وَبَيْنَ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ، وَكَيْفَ تَغَلَّبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومَكَّنَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَى سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ.

فَذَهَبَ مَا كَانُوا يَتَمَنَّوْنَهُ وَمَا كَانَ يَتَمَنَّاهُ فِرْعَوْنُ، وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا بِما شَرَفَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عليه السلام وَكَرَّمَهُ مِنَ الخَيْرِ وَالعِلْمِ النَّافِعِ وَالتُّقَى.

فَصَالَ وَغَلَبَ فِرْعَوْنَ بِكبره وَمَالِهِ وَغطرسته وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ فِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ طه [١٣١]

لَا تَلْتَفِتْ، أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ بِأَنْ يَطْلُبَ الزِّيَادَةَ مِنَ العِلْمِ، وَحَذَّرَ مِنَ الالْتِفَاتِ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا فَهِيَ سَبِيلُ فِتْنَةٍ، فلم يحث على الزيادة منها، بل حذر منها.

حَذَّرَ مِنَ الالْتِفَاتِ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، وَقَالَ:﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ طه: ١٣١، فَهِيَ سَبِيلُ فتنة لِأَهْلِهَا، لَا سِيَّمَا لِمَنْ ابْتَعَدُوا عَنْ دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَنْ شَرْعِهِ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ طه [١٢٤]

---

(١) "شرح صحيح البخارى" لابن بطال (١/ ١٣٣).

فَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ القُرْآنِ وَهُوَ أَعْظَمُ العِلْمِ وَأَشْرَفُهُ وَعَنِ العَمَلِ بِهِ فَهُوَ فِي مَعِيشَةٍ تَعِيسَةٍ مَهْمَا كَانَ مالهُ.

❁ قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يَدَعْ أَحَدَكُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، حَتَّى يَأْتِيَهُ مِنْ بَابِ العِلْمِ، فَيَقُولُ: مَا تَصْنَعُ بِطَلَبِ العِلْمِ؟ لَيْتَكَ تَعْمَلُ بِمَا قَدْ سَمِعْتَ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ مُكْتَفِيًا لَاكْتَفَى مُوسَى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ الكهف [٦٦].(١)

وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكْتَفِ بَلْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَ الخَضِرَ، وَأَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْهُ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، كما أرشده الله تعالى، مَعَ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ.

فَصَاحِبُ العِلْمِ هُوَ فِي رِفْعَةٍ عَظِيمَةٍ، وَلَا مُقَارَنَةَ بَيْنَ أَنْ يُرْفَعَ الإِنْسَانُ بِعِلْمِهِ مَعَ إِخْلَاصِهِ وَبَيْنَ رِفْعَةِ صَاحِبِ المَالِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ المجادلة [١١]

❁ قَالَ الحَافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَرِفْعَتُهَا تَشْمَلُ الْمَعْنَوِيَّةَ فِي الدُّنْيَا بِعُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ وَحُسْنِ الصِّيتِ وَالْحِسِّيَّةَ فِي الْآخِرَةِ بِعُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ فِي الْجَنَّةِ.(٢)

---

(١) ذكره ابن بطال في "شرح صحيح البخارى" (١/ ١٣٦).

(٢) "فتح الباري" لابن حجر (١/ ١٤١).

البيت رقم ٣٨

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَئِنْ رَفَعَ الْغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ ... لأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا

شرح ٣٨

الغَنِيُّ لَوْ رَفَعَ شِعَارَ وَعَلَمَ وَشَارَةَ المَالِ، فَإِنَّ صَاحِبَ العِلْمِ يَرْفَعُ عِلْمَ العِلْمِ وَشِعَارَ العِلْمِ وَمَكَانَةَ العِلْمِ، وَيُظْهِرُ أَيْضًا شَرَفَ العِلْمِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر [٩] فَلَا يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا أَبَدًا. فَرْقٌ بَيْنَ المَالِ وَالعِلْمِ، وَفَرْقٌ بَيْنَ صَاحِبِ المَالِ وَصَاحِبِ العِلْمِ. وَلَوْ أَظْهَرَ صَاحِبُ المَالِ مَالَهُ، فَصَاحِبُ العِلْمِ يُظْهِرُ عِلْمَهُ، وَلَا مُقَارَنَةَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا أَبَدًا.

قَارُونُ خَرَجَ بِزِينَتِهِ مُفْتَخِرًا مُتَبَاهِيًا مُتَعَالِيًا مُغْتَرًّا بِذَلِكَ مُتَكَبِّرًا، فَمَا نَفَعَهُ ذَلِكَ. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ بِفَخْرٍ وَعُجْبٍ وَغُرُورٍ،﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ القصص [٧٩] وَاغْتَرَّ بِهِ الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى الدُّنْيَا.﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ القصص [٧٩] اغْتَرُّوا بِتِلْكَ الأُبَّهَةِ وَالزِّينَةِ، وَبِمَا ظَهَرَ بِهِ قَارُونُ مِنَ الزِّينَةِ وَالبَهْرَجِ وَالمَالِ. وهُنَا ظَهَرَ العِلْمُ وَفَضْلُ العِلْمِ وَأَهْلُ العِلْمِ، فَوَقَفُوا ضِدَّ هَذِهِ المَقَالَةِ، وَحَذَّرُوا مِنَ الاغْتِرَارِ بِهَذِهِ الزِّينَةِ وَبِهَذَا المَالِ. كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ القصص [٨٠] احْذَرُوا، لَا تَغْتَرُّوا، لَا تَلْتَفِتُوا، هَذَا مَتَاعٌ زَائِلٌ. يَظْهَرُ العِلْمُ عِنْدَ كُلِّ فِتْنَةٍ يُفْتَتَنُ بِهَا النَّاسُ.

لِذَلِكَ يَقُولُونَ: العَالِمُ يَعْرِفُ الفِتْنَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا، وَالجَاهِلُ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا بَعْدَ إِدْبَارِهَا.

وَهَذِهِ القِصَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَارُونَ وَعَنْ أَهْلِ العِلْمِ هِيَ مِنْ أَدِلَّةِ ذَلِكَ.

رَفَعُوا العِلْمَ ونطقوا به، نَصَحُوا، حَذَّرُوا، أُولَئِكَ الَّذِينَ اغْتَرُّوا بِالدُّنْيَا وَرَكَنُوا إِلَيْهَا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾القصص: ٨٠). ثَوَابُ اللهِ أَفْضَلُ، خَيْرُ اللهِ أَفْضَلُ مِنَ المَالِ. فَكَانَ صَاحِبُ العِلْمِ وَصَاحِبُ الخَيْرِ أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِ المَالِ.

وَلَا يَلْقَى هَذِهِ المَنْقَبَةَ وَهَذَا الشَّرَفَ إِلَّا مَنْ كَانَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا عَلَى اللهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. هُنَا ظَهَرَ العِلْمُ وَهُنَا ظَهَرَ شَرَفُ العِلْمِ عَلَى المَالِ وَعَلَى شَرَفِ المَالِ، وَظَهَرَ صَاحِبُ العِلْمِ عَلَى صَاحِبِ المَالِ.

ثُمَّ دَارَ الأَمْرُ وَبَعْدَ مَا مَضَى قَارُونُ فِي أُبَّهَتِهِ وَفِي مَالِهِ، فَانْقَلَبَ الأَمْرُ عَلَيْهِ، وَخَسَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ القصص [٨١]

أَيْنَ مَالُهُ؟ أَيْنَ زِينَتُهُ؟ أَيْنَ جَاهُهُ؟ أَيْنَ رِفْعَتُهُ؟ ذَهَبَتْ كُلُّهَا، وَبَقِيَ العِلْمُ وَأَصْحَابُ العِلْمِ.

بِهَذِهِ القِصَّة يَظْهَرُ فَضْلُ العِلْمِ عَلَى فَضْلِ المَالِ، وَيَظْهَرُ فَضْلُ العِلْمِ وَقِيمَةُ العِلْمِ، وَيَظْهَرُ ضَرَرُ الجَهْلِ وَرَدَاءَةُ الجَهْلِ وَسُوءُ الجَهْلِ، وَيَظْهَرُ فَضْلُ أَهْلِ العِلْمِ عَلَى فَضْلِ أَهْلِ المَالِ وَعَلَى أَهْلِ الجَهْلِ.

قال الله:﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ القصص [٨٢]

لما نجاهم الله مما حصل لقارون من الخسف والعذاب قالوا: ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ القصص [٨٢]

وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ الكهف [٤٦]. خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ الزِّينَةِ، خَيْرٌ مِنَ المَالِ وَخَيْرٌ مِنَ الوَلَدِ، الإِيمَانُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ، الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، الذِّكْرُ، العِلْمُ، كُلُّ ذَلِكَ خَيْرٌ.

هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا مِنْ زِينَةٍ تَذْهَبُ. ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ آل عمران [١٤]. مَتَاعٌ زَائِلٌ. ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ النساء [٧٧]

فَصَاحِبُ العِلْمِ يَرْفَعُ لواء العِلْمِ، ويَسْتَغْفِرُ لَهُ وَيَدْعُو لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ويصلون عليه، حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ"، وَالمَلَائِكَةُ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رضا بما يطلب. هَلْ يَحْصُلُ هَذَا لِصَاحِبِ المَالِ؟

هَلْ تَضَعُ المَلَائِكَةُ مَا لَدَيْهَا مِنْ أَجْنِحَةٍ لِصَاحِبِ المَالِ؟ كَلَّا.

هَلْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَيُصَلِّي عَلَيْهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةُ؟ كَلَّا.

فَلَا يُشْبِهُ رِفْعَةَ صَاحِبِ العِلْمِ رِفْعَة.

البيت رقم ٣٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَئِنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَى الْحَشَـــايَا ... لأَنْـتَ عَلَى الكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْـتَا

شرح البيت رقم ٣٩

الحَشَايَا جَمْعُ حَشِيَّةٍ، وَقَالَ الأَزْهَرِيُّ: قَالَ اللَّيْث الحشو: مَا حشَوْتَ بِهِ فِراشاً أَو غيرَ ذَلِك.

والحَشِيَّةُ الفِراش المحشُوُّ.(١)

لَوْ كَانَ الغَنِيُّ عَلَى الفُرُشِ وَالمَجَالِسِ المُنَعَّمَةِ الأَنِيقَةِ، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ أَعْلَى وَأَرْفَعُ.

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ المجادلة [١١]

فَمَجْلِسُكَ الَّذِي تَجْلِسُ فِيهِ لِذِكْرِ اللهِ وَلِلْعِلْمِ النَّافِعِ وَلِمُدَارَسَةِ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسٌ عَظِيمٌ تُذْكَرُ بِهِ فِي المَلَأِ الأَعْلَى.

ففي الحديث قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».(٢) مجالسُ الإيمانِ والعلمِ هي موصلةٌ للجلوسِ على الأَسرةِ في الجنةِ، وعلى المجالس الأنيقة التي لا توازيها مجالس الدنيا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ الصافات [٤٤]. وقال: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ الغاشية [١٣].

---

(١) "تهذيب اللغة" (٥/ ٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

وقال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٖۚ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴾ الطور [٢٠].

وقال: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾الواقعة [١٥، ١٦].

فمنازل أهل العلم والإيمان ومجالسهم عالية، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا».(١)

وَجَاءَ بِنَحْوِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَفِيهِ ضَعْفٌ، وَلَفْظُهُ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ، فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً، حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ».(٢)

❁ قال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله: «مَعَهُ» صريح في أن المراد بصاحب القرآن حافظ دون الملازم للقراءة في المصحف.(٣)

❁ وَقَالَ الأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ المَرَادَ بِقَوْلِهِ صَاحِبُ القُرْآنِ حَافِظُهُ عَن ظَهْرِ قَلْبٍ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: يُؤُمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ" أي: أحفظهم، فَالتَّفَاضُلُ فِي دَرَجَاتِ الجَنَّةِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى حَسَبِ الحِفْظِ فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَ عَلَى حَسَبِ قِرَاءَتِهِ يَوْمَئِذٍ، واسْتِكْثَارُهُ مِنها كما تَوَهَّمهُ بعضُهم،

---

(١) أخرجه أحمد (٦٧٩٩)، وأبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وغيرهم، وهو في "الصحيحة" (٢٢٤٠) للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، و"الصحيح المسند"(٧٩٢) للوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١١٣٦٠)، وابن ماجه (٣٧٨٠)، وفيه عطية العوفي ضعيف، ولم يتفرد به كما ذكر الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيحة" عند حديث رقم (٢٢٤٠). وهو في "صحيح الجامع"(٨١٢١ - ٣٢٠٠).

(٣) "مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" (٧/ ٢٠٩).

فَفِي هَذَا فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِحَافِظِ القُرْآنِ، لَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ حِفْظُهُ لِوَجْهِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَيْسَ لِلدُّنْيَا وَالدِّرْهَمِ وَالدِّينَار، وَإِلَّا فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا". (١)

وقد جاء حديثٌ فيه بيانٌ لعدد درج الجنة، فعَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ: مَا فَضْلُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى مَنْ لَمْ يَقْرَأْهُ مِمَّنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ؟، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «إِنَّ عَدَدَ دَرَجِ الْجَنَّةِ عَلَى عَدَدِ آيِ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِمَّنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَفْضَلَ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ». (٢)

❁ قال الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: وجملة القول أن إسناد هذا الأثر ضعيف. والله أعلم. (٣)

"**فَأَنْتَ عَلَى الكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَ**". فَأَنْتَ فِي مَنْزِلَةٍ عَالِيَةٍ رَفِيعَة في الدنيا، سواء كان في مجالس العلم، في مجالس ذكر الله، فإن مكانتك تكون عالية رفيعة في الدنيا، وفي الآخرة.

---

(١) "الصحيحة" عند الحديث السابق (٢٢٤٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في "مصنفه"(٢٩٩٥٢).

(٣) "الصحيحة"(٢٢٤٠).

البيت رقم ٤٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ ... لأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا

شرح البيت رقم ٤٠

"الجِيَادُ المَسُومَاتُ": هي الخُيُولُ المُعَلَّمَةُ، أي الخُيُولُ المُزَيَّنَةُ لِحُسْنِهَا وَجَمَالِهَا. "فَالمَسُومَةُ" تَعْنِي: المُعَلَّمَةَ.

وَإِنْ رَكِبَ صَاحِبُ الدُّنْيَا الخُيُولَ المُعَلَّمَةَ، أَوْ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ السَّيَّارَاتِ الفَاخِرَةِ غَالِيَةِ الثَّمَنِ، فَإِنَّكَ تَرْكَبُ مَنَاهِجَ التَّقْوَى.

(نَهَجَ) النُّونُ وَالْهَاءُ وَالْجِيمُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ: الْأَوَّلُ النَّهْجُ، الطَّرِيقُ. وَنَهَجَ لِي الْأَمْرَ: أَوْضَحَهُ. وَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْمِنْهَاجِ. وَالْمِنْهَجُ: الطَّرِيقُ أَيْضًا، وَالْجَمْعُ الْمَنَاهِجُ. وَالْآخَرُ الِانْقِطَاعُ.[١] المنهج والمنهاج: الطريق الواضح، ثم استعير للطريق في الدين كما استعيرت الشريعة لها.[٢] شَبه طُرقَ التَّقْوَى بِشَيْءٍ مَرْكُوبٍ، والمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّكَ اتَّخَذْتَ طَرِيقَ التَّقْوَى وَالْتَزَمْتَهَا وَسِرْتَ عَلَيْهَا، وَطَرِيقُهَا العِلْمُ وَالاسْتِقَامَةُ.

❁ وَكَمَا قِيلَ:[٣]

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ ... وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
فَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا ... وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْأَتْقَى مَزِيدُ
وَمَا لابُدَّ أَنْ يَأْتِي قَرِيبٌ ... وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدُ

---

(١) "مقاييس اللغة" (٥/ ٣٦١).

(٢) "معجم الفروق اللغوية" (ص: ٢٩٨).

(٣) "تاريخ دمشق" لابن عساكر (٧٢/ ٦٥).

البيت رقم٤١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَهْمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْغَوَانِي ... فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الحِكَمِ افْتَضَتَا

شرح البيت رقم ٤١

الغَوَانِي: جَمْعُ غَانِيَةٍ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَة: الغَوَانِي: ذَوَاتُ الأَزْوَاجِ.

❁ وقيل: الغواني: الشّوابُّ اللّواتي يعْجِبْنَ الرّجال ويعْجِبهُنَّ الشبَّان.

❁ وقيل: الغانِيةُ: الجَارِيَة الحَسْنَاء ذَات زوجٍ كَانَت أَو غير ذَات زوجٍ، سمِّيت غانيةً لِأَنَّهَا غَنِيَتْ بحُسنها عَن الزِّينَة. وَقَالَ ابْن شُمَيْل: كل امرأةٍ غانيةٌ، وَجَمعُهَا الغَواني.(١)

❁ مِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ:(٢)

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

❁ وقال آخر:(٣)

رَأَيْنَ الْغَوَانِي الشَّيْبَ لَاحَ بِعَارِضِي ... فَأَعْرَضْنَ عَنِّي بِالْوُجُوهِ النَّوَاضِرِ

❁ وَقَالَ الأَعشَى:(٤)

إِنّ الْغَوَانِي لَا يُوَاصِلْنَ امْرَأً ... فَقَدَ الشَّبَابَ وَقَدْ تُوَاصِلُ أَمْرَدَا

فَقَوْلُهُ: "وَمَهْمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْغَوَانِي"، أَيْ: مَهْمَا تَزَوَّجَ صَاحِبُ المَالِ النِّسَاءَ الجَمِيلَاتِ الأَبكَارَ لِتَوَفُّرِ المَالِ لَدَيْهِ، فَأَنْتَ يَا صَاحِبَ العِلْمِ المُنْشَغِلِ بِهِ،

---

(١) "تهذيب اللغة" (٨/ ١٧٥).

(٢) "الفائق في غريب الحديث" (٤/ ٢١).

(٣) "الدلائل في غريب الحديث" (١/ ٢٦٣).

(٤) "تاج العروس" (٢٥/ ٥٤).

"فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الحِكَمِ افْتَضَضْتَا"، أَيْ: من المَسَائِلِ وَفَرَائِدِ الفَوَائِدِ وَالمَسَائِلِ العِلْمِيَّةِ أَنْتَ افْتَضَضْتَهَا، وَكَذَلِكَ فَتَحْتَ تِلْكَ المَسَائِلَ. فَبَعْضُ المَسَائِلِ رُبَّمَا يُطْرُقُهَا البَعْضُ دُونَ الآخَرِ، فَيُنَقِّحُهَا وَيُهَذِّبُهَا وَيَسْتَخْرِجُهَا، وَهُوَ يَكُونُ كَالفَاتِحِ لَهَا.

الحِكْمَةُ: عِبَارَةٌ عَنْ مَعْرِفَةِ أفضلِ الْأَشْيَاءِ بِأَفْضَلِ الْعُلُومِ. وَيُقَالُ لِمَنْ يُحسِنُ دَقَائِقِ الصِّناعات ويُتْقِنُها: حَكِيم.(١)

❁ قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْحِكْمَةَ هِيَ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ بِهَا.(٢)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الحِكْمَةُ هِيَ وَضْعُ الأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا عَلَى وَجْهٍ مُتْقَنٍ.(٣)

وَيُقَالُ: هِيَ إِصَابَةُ الحَقِّ فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ. أَوْ السَّدَادُ فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ، بِمَعَانٍ مُتَقَارِبَةٍ.

وتأتي بمعنى السنة، وهناك تعريفات أخرى.(٤)

"وَمَهْمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْغَوَانِي"، افْتَضَّ أَي: أَزَالَ بكارَةَ النِّسَاء بِالزَّوَاجِ،

"فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الحِكَمِ افْتَضَضْتَا"، أَيْ كَمْ أَزَلْتَ أَنْتَ عُقْدَ بَعْضِ المَسَائِلِ وَالأَحْكَامِ وَأَخْرَجْتَهَا لِلنَّاسِ.

❁ وَتَقَدَّمَ مَعَنَا قولُ بعضِهم:

سَــهَري لتنقيحِ العلومِ أَلَذُّ لي ... منْ وَصْــلِ غانيةٍ وطيبِ عِناقِ

---

(١) "النهاية في غريب الحديث والأثر" (١/ ٤١٩).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١١/ ٤١٥).

(٣) "مجموع فتاوى ورسائل العثيمين" (٤/ ٢٦٩).

(٤) كما في "التعريفات" صـ٩١، وغيره.

البيت رقم٤٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَيْسَ يَضُـــــرُّكَ الإِقْتَارُ شَـيْئاً إِذَا مَـا أَنْـتَ رَبَّـكَ قَـدْ عَـرَفْـتَـا

شرح البيت رقم ٤٢

"الإِقْتَار": هُوَ النَّقْصُ مِنَ القَدْرِ الكَافِي.(١)

❁ وقال ابنُ الأثير: والإِقْتارُ: التَّضْييقُ عَلَى الإِنسان فِي الرِّزْقِ. وَيُقَالُ: أَقْتَرَ اللَّهُ رِزْقَهُ أَي ضَيَّقه وَقَلَّلَهُ. وَقَدْ أَقْتَرَ الرجلُ فَهُوَ مُقْتِر. وقُتِرَ فَهُوَ مَقْتُور عَلَيْهِ.(٢)

❁ وَقَالَ اللَّيْث: القَتْرُ: الرُّمْقة فِي النَّفقة، وَيُقَال: فلَان لَا يُنفق على عِيَاله إلاّ رُمْقةً، أَي: يُمسِك الرّمَق.(٣)

فَقِلَّةُ المَالِ لَا تُؤَثِّرُ، وَهَذِهِ هِيَ حَالَةُ الكَثِيرِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالأَئِمَّةِ: القِلَّةُ وَالرِّضَا بِمَا يَسَّرَ اللهُ تعالى.

«اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ: المَوْتُ، وَالمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ الْمَالِ، وَقِلَّةُ الْمَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ» (٤) وَالفُقَرَاءُ يَسْبِقُونَ الأَغْنِيَاءَ فِي الدُّخُولِ إِلَى جَنَّةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا. وَلَا يَكُونُ حِسَابُ ذَلِكَ الفَقِيرِ المُقِلِّ كَحِسَابِ ذَلِكَ الغَنِيِّ المُكْثِرِ وَلَوْ كَانَ مِنَ

---

(١) "تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي" (صـ: ٤٠٩)، و"الكليات" (صـ: ١٦٠).

(٢) "النهاية" (٤/ ١٢).

(٣) "تهذيب اللغة" (٩/ ٥٩).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٥)، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٨١٣).

الصَّالِحِينَ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ، نِصْفِ يَوْمٍ». (١)

❁ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيَّ: وَجَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَأَنَا عِنْدَهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّا، وَاللهِ مَا نَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، لَا نَفَقَةٍ، وَلَا دَابَّةٍ، وَلَا مَتَاعٍ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا شِئْتُمْ، إِنْ شِئْتُمْ رَجَعْتُمْ إِلَيْنَا فَأَعْطَيْنَاكُمْ مَا يَسَّرَ اللهُ لَكُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَكَرْنَا أَمْرَكُمْ لِلسُّلْطَانِ، وَإِنْ شِئْتُمْ صَبَرْتُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا» قَالُوا: فَإِنَّا نَصْبِرُ، لَا نَسْأَلُ شَيْئًا. (٢)

وَعَنْ أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا المَسَاكِينَ، وَأَصْحَابُ الجَدِّ مَحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ». (٣)

قَوْلُهُ: "إِذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا". "مَا" هُنَا زَائِدَةٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فصلت [٢٠]. زَائِدَةٌ فِي اللَّفْظِ، زَائِدَةٌ فِي المَعْنَى، تُفِيدُ التَّوْكِيدَ، وَكَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ البقرة [٢٨٢]

---

(١) رواه أحمد (٩٨٢٣)، (١٠٦٥٤) والترمذي (٢٣٥٣)، وغيرهم. وهو في "الصحيح المسند" للإمام الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ برقم (١٤١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٩٧٩)..

(٣) رواه البخاري (٥١٩٦)، (٦٥٤٧).

❁ قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَـا طَـالِـبًـا خُـذْ فَـائِـدَهْ (مَـا) بَـعْـدَ (إِذَا) زَائِـدَهْ

وكقوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ الشورى [٣٧].

أَيْ: إذا أتت (مَا) بَعْدَ (إِذَا) تَكُونُ (مَا) زَائِدَةً، وهي للتوكيد.

❁ قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكل حروف الزيادة في القرآن، أو في السنَّة، أو في كلام العرب للتوكيد.(١)

"**إِذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا**". مَنْ عَرَفَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَضُرُّهُ القِلَّةُ وَالفَاقَةُ.

وَطَرِيقُ مَعْرِفَةِ اللهِ، إِنَّمَا هِيَ بِالعِلْمِ، لَا بِالمَالِ، لَا بِاللَّهْوِ، لَا بِاللَّعِبِ.

❁ قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّ الْعِلْمَ يَدُلُّ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَقْرَبِ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ، فَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَهُ، وَلَمْ يَعْرُجْ عَنْهُ، وَصَلَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الْجَنَّةِ مِنْ أَقْرَبِ الطُّرُقِ وَأَسْهَلِهَا فَسَهُلَتْ عَلَيْهِ الطُّرُقُ الْمُوَصِّلَةُ إِلَى الْجَنَّةِ كُلُّهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَا طَرِيقَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَإِلَى الْوُصُولِ إِلَى رِضْوَانِهِ وَالْفَوْزِ بِقُرْبِهِ وَمُجَاوَرَتِهِ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، فَهُوَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ، وَبِهِ يُهْتَدَى فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ، وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهَ كِتَابَهُ نُورًا؛ لِأَنَّهُ يُهْتَدَى بِهِ فِي الظُّلُمَاتِ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى﴿. قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ المائدة [١٥، ١٦] ...

(١) "الشرح الممتع على زاد المستقنع" (١٥/ ٧).

وَمَا دَامَ الْعِلْمُ بَاقِيًا فِي الْأَرْضِ، فَالنَّاسُ فِي هُدًى، وَبَقَاءُ الْعِلْمِ بَقَاءُ حَمَلَتِهِ، فَإِذَا ذَهَبَ حَمَلَتُهُ وَمَنْ يَقُومُ بِهِ، وَقَعَ النَّاسُ فِي الضَّلَالِ(١)

وَمَعْرِفَةُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا مِنْ أَفْضَلِ مَا يَكُونُ وَمِنْ أَشْرَفِ مَا يَكُونُ. وَبِذَلِكَ يَتَلَذَّذُ أَهلُ الإِيمانِ.

❁ قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خَرَجَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَذُوقُوا أَطْيَبَ شَيْءٍ فِيهَا". خَرَجَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَذُوقُوا أَطْيَبَ شَيْءٍ فِيهَا. قَالُوا: "وَمَا هُوَ؟" قَالَ: مَعْرِفَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. (٢)

❁ قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَذَّةُ كُلِّ أَحدٍ عَلَى حَسَبِ قَدْرِهِ وَهِمَّتِهِ وَشَرَفِ نَفْسِهِ. فَأَشْرَفُ النَّاسِ نَفْسًا وَأَعْلَاهُمْ هِمَّةً وَأَرْفَعُهُمْ قَدْرًا، مَنْ لَذَّتُهُ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ. فَلَذَّتُهُ فِي إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ وَعُكُوفِ هِمَّتِهِ عَلَيْهِ.(٣)

فَالقِلَّةُ لَا تَضُرُّ الإِنْسَانَ شَيْئًا. فَكَمْ مِنْ فَقِيرٍ فِي مَالِهِ غَنِي القَلْبِ، رَفِيع عِنْدَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، عَالِي المَنْزِلَةِ.

---

(١) "جامع العلوم والحكم" ت الأرنؤوط (٢/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٢/ ٣٥٨)، والدينوري في "المجالسة" (٢٢١)، (١٨٧٩)

(٣) "الفوائد" لابن القيم (صـ: ١٥٠).

البيت رقم٤٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلِ ... إِذَا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا

شرح البيت رقم ٤٣

أَيْ: مَاذَا عِنْدَهُ لك؟ مَاذَا عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ مَن جميل في الدنيا والآخرة.

فعنده لك مِنَ اللُّطف، مِنَ الحفظ، مِنَ التأييد، مِنَ الإعانة، مِنَ الخَيْرِ، مِنَ النَّعِيمِ، مِنَ الأَجْرِ العظيم، مِنَ الثَّوَابِ الجزيل ما دمت قائماً بِطَاعَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ السجدة [١٧].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ».(١)

❁ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا قَالَ بَشَرٌ؛ لِأَنَّهُ يَخْطُرُ بِقُلُوبِ المَلَائِكَةِ.

❁ قَالَ الحَافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَوْلُهُ: «وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». زَادَ ابنُ مَسْعُودٍ فِي حَدِيثِهِ «وَلَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِي مُرْسل». أخرجه بن أَبِي حَاتِمٍ وَهُوَ يَدْفَعُ قَوْلَ مَنْ قَالَ "إِنَّمَا قِيلَ الْبَشَرُ لِأَنَّهُ يَخْطِرُ بِقُلُوبِ الْمَلَائِكَةِ" **وَالْأَوْلَى حَمْلُ النَّفْيِ فِيهِ عَلَى عُمُومِهِ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ فِي النَّفْسِ.**(٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، (٤٧٧٩)، (٤٧٨٠)، (٤٧٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) "فتح الباري" لابن حجر (٨/ ٥١٦).

وَالحَدِيثُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هوَ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من طريق أبي عبيدة قال. قال عبد الله: إنه مكتوبٌ في التوراة: لقد أَعَدَّ الله للذين تتجافى جنوبُهم عن المضاجع ما لم تَرَ عَينٌ، ولم تسمعْ أُذُنٌ، ولم يخطُرْ على قلب بشر، ولا يعلمه مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مرسل. قال: ونحق نقرؤها: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} الآية. وضَعَّفَهُ الإِمَامُ الأَلْبَانِيُّ كَمَا فِي "ضَعِيفِ التَّرْغِيبِ". (١)

وَفِي حَدِيثِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ الإِمَامِ مُسْلِمٍ، قَالَ: سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ "، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: " {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧] الْآيَةَ. (٢)

وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَعَدَّ لِلْمُتَّقِينَ، لِلْمُؤْمِنِينَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الغُرَفِ العَالِيَاتِ، وَمِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ المُقِيمِ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا

(١) "ضعيف الترغيب والترهيب" (٣٧١ - (١٨))، "أبو عبيدة لم يسمع من عبد الله بن مسعود، وقيل: سمع".

(٢) أخرجه مسلم (٣١٢).

قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ البقرة [٢٥]

أَمَرَ بِتَبْشِيرِهِمْ بالجنات.

وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يونس [٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ التوبة [٧٢].

وفِي الدُّنْيَا حَيَاتُهُمْ طَيِّبَةٌ، أَفْضَل مِنْ حَيَاةِ غَيْرِهِمْ: قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ النحل [٩٧].

"فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ" فَعِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ خَيْرٌ عَظِيمٌ، وَنَعِيمٌ مُقِيمٌ أَبَدِيٌّ سَرْمَدِيٌّ لَا انْقِطَاعَ لَهُ وَلَا زَوَالَ، إِذَا كُنْتَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى وَالخَيْرِ وَالعِلْمِ.

"**إِذَا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ**" قَالَ ابنُ فَارِسٍ: فَنِيَ يَفْنَى فَنَاءً، وَاللَّهُ - تَعَالَى - أَفْنَاهُ، وَذَلِكَ إِذَا انْقَطَعَ. وَاللَّهُ - تَعَالَى - قَطَعَهُ، أَيْ ذَهَبَ بِهِ. وَالْفَنَا مَقْصُورٌ: عِنَبُ الثَّعْلَبِ. وَالْفِنَاءُ: مَا امْتَدَّ مَعَ الدَّارِ مِنْ جَوَانِبِهَا، وَالْجَمْعُ أَفْنِيَةٌ. وَيَقُولُونَ: هُوَ مِنْ أَفْنَاءِ الْعَرَبِ، إِذَا لَمْ يُدْرَ مِمَّنْ هُوَ. (١)

(١) "مقاييس اللغة" (٤/ ٤٥٣).

و(فَنِيَ) الشَّيْءُ (فَنَاءً) بَادَ. وَ (تَفَانَوْا) أَفْنَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْحَرْبِ. وَ (فِنَاءُ) الدَّارِ مَا امْتَدَّ مِنْ جَوَانِبِهَا وَالْجَمْعُ (أَفْنِيَةٌ). (١)

"**أَنَخْتَا**" أناخ الجملَ: أبرَكَه... أناخ الشَّخصُ بالمكان: أقام به واستقرّ "وصل المسافرُ إلى القرية فأناخ بها". أناخ به البلاءُ والذُّلُّ: حَلَّ به ولزِمَه.(٢)

أَيْ: أقمت على الطَّاعَةِ وَانْشَغَلْتَ بها، أنخت بِذَلِكَ، حَطَيْتَ رِكَابَكَ، أَنْزَلْتَ رِكَابَكَ، وحَلَلْتَ أَنْتَ، لزمت طَاعَةَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَانْشَغَلْتَ بِهَا، فَأَنْتَ مَعَ الطَّاعَةِ وَحَوْلَ الطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ الْفِنَاءُ جَوَانِبَ الدار، فلَيْسَ الْمُرَادُ جَوَانِبَ الطَّاعَةِ، وَمَا كَانَ بَعِيدًا عنها، إِنَّمَا الْمُرَادُ الطَّاعَةُ بِجَمِيعِ أنواعها، انْشَغَلْتَ بِذَلِكَ.

فَلْيَكُنِ الإِنْسَانُ صَاحِبَ هِمَّةٍ عَالِيَةٍ؛ لِتَحْصِيلِ النَّعِيمِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يُنَالُ ذَلِكَ إِلَّا بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَبِمُسارَعَةٍ إِلَى طَاعَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَعُلُوُّ الهِمَّةِ في الخيرات طَرِيقُ النَّجَاةِ وَالوُصُولِ إِلَى النَّعِيمِ وَالفَلَاحِ.

❁ قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَعُلُوُّ هِمَّةِ الْمَرْءِ: عُنْوَانُ فَلَاحِهِ، وَسُفُولُ هِمَّتِهِ: عُنْوَانُ حِرْمَانِهِ.(٣)

---

(١) "مختار الصحاح" (صـ: ٢٤٣).

(٢) "معجم اللغة العربية المعاصرة" (٣/ ٢٣٠١).

(٣) "مدارج السالكين"(٣/ ١٦٣).

البيت رقم٤٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَقَابِلْ بِالْقَبُولِ لِنُصْحِ قَوْلِي ... فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا

شرح البيت رقم ٤٤

وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ: "فَقَابِلْ بِالقَبُولِ صَحِيحَ نُصحِي"

يَدْعُوهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ إِلَى قُبُولِ نُصْحِهِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَائِدَةِ، لِأَنَّهُ قَدْ دَعَاكَ إِلَى الْعِلْمِ وَحَذَّرَكَ مِنَ الْجَهْلِ، دَعَاكَ إِلَى الْعِلْمِ وَحَذَّرَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، دَعَاكَ إِلَى طَرِيقِ التَّقْوَى وَحَذَّرَكَ مِنْ غَيْرِهَا. فَمَنْ أَخَذَ بِالنُّصْحِ فَإِنَّهُ يَرْبَحُ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَنْجُو، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلِ النُّصْحَ بَلِ انْشَغَلَ بِالمَالِ وَالوَلَدِ عن عبادة الله، وذكر الله تعالى فَإِنَّهُ يَخْسَرُ.

لِذَلِكَ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ المنافقون [٩].

حَذَّرَك أَنْ تَلتَهِي بِالْمَالِ، فَمَنْ الْتَهَى بِالْمَالِ فَقَدْ خَسِرَ.

فَمَنْ قَبِلَ الْخَيْرَ وَعَمِلَ بِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ رَابِحًا، وَمَنْ تَرَكَ الْخَيْرَ، وَلَمْ يَقْبَلِ النُّصْحَ يَكُونُ خَاسِرًا.

اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾ العصر [١-٣].

فَالْإِنْسَانُ فِي خَسَارَةٍ إِلَّا إِذَا آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَحَصَلَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ، التَّنَاصُحُ عَلَى الْحَقِّ وَالتَّمَسُّكُ بِهِ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ، أَنْ يُصَبِّرَ الْبَعْضُ البعض عَلَى الْحَقِّ، عَلَى الإِيمَانِ، عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ. فَبِهَذِهِ الأَشْيَاءِ تَكُونُ النَّجَاةُ مِنَ الْخَسَارَةِ: بِالإِيمَانِ، الْعَمَلِ الصَّالِحِ، التَّوَاصِي بِالْحَقِّ، التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ. وَمِنَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ الْعَمَلِ بِتِلْكَ

النَّصِيحَةِ والصبر في تحقيق ذلك، وَالْعَمَلُ بِهَذِهِ الْوَصَايَا الَّتِي يُوصِي بها أَهْلُ الإِيمَانِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَدِلَّةُ الشَّرْعِ.

وَاللهُ يَقُولُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ الزمر [١٧، ١٨].

وَيَقُولُ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ النساء [٦٦-٦٨].

فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ، مَا يُنْصَحُونَ وَيُوَجَّهُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا. وَأَهْلُ الإِيمَانِ يَنْتَفِعُونَ بِالنُّصْحِ، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات [٥٥]. يَنْتَفِعُونَ بِالذِّكْرِ وَالنُّصْحِ، وَإِنْ حَصَلَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْغِلْظَةِ أَحْيَانًا.

❁ قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إحْدَاهُمَا الْأُخْرَى. وَقَدْ لَا يَنْقَلِعُ الْوَسَخُ إلَّا بِنَوْعِ مِنْ الْخُشُونَةِ؛ لَكِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ مِنْ النَّظَافَةِ وَالنُّعُومَةِ مَا نَحْمَدُ مَعَهُ ذَلِكَ التَّخْشِينَ.(١) وَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْرِفَ النَّاصِحَ مِنْ غَيْرِهِ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ نَصَحَ تَكُونُ نَصِيحَتُهُ مَقْبُولَةً مَرْضِيَّةً فِي شَرْعِ اللهِ. فَإِنَّ إبْلِيسَ عَلَيْهِ لَعَائِنُ اللهِ تَتْرَى تَزَعَّمَ النُّصْحَ وَهُوَ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ، فَلَمْ يَكُنْ نَاصِحًا فِي الْحَقِيقَةِ، بَلْ أَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ قَسَمًا مُغَلَّظًا: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ الأعراف [٢١]. حَلَفَ يَمِينًا مُغَلَّظًا بِأَنَّهُ نَاصِحٌ وَهُوَ كَاذِبٌ، إِنَّمَا دَأْبُهُ الإغواءُ، الإبْعَادُ.

---

(١) "مجموع الفتاوى "(٢٨/ ٥٤).

وَكَذَلِكَ فِرْعَوْن تَزَعَّمَ النُّصْحَ وَهُوَ غَاشٌّ فِي نُصْحِهِ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ غافر [٢٩]. يُظهرُ النصيحة وهو مشرك كافر ويتهمُ موسى عليه السلام بالفساد﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ غافر [٢٦].

❁ قَالَ ابن زنجي البغدادي:(١)

فكم من عدوٍ معلنٍ لكَ نصحَه ... علانيةً والغَشُّ تحتَ الأضالعِ
وكم من صديقٍ مرشدٍ قد عصيتَه ... فكنتَ له في الرشدِ غير مطاوعِ
وما الأمرُ إلا بالعواقبِ إنها ... سيبدو عليها كُلُّ سرٍ وذائعِ

وَلَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَأَفَّفَ مِنَ النَّصِيحَةِ إِذَا كَانَتْ لِوَجْهِ اللهِ خَالِصَةً، بَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَقَبَّلَهَا وَلَا يَتَضَجَّرَ مِنْ مُسْدِيهَا وَمُهْدِيهَا.

❁ قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِلَّا أَنَّهُ عَزَّ فِي هَذَا الزَّمَانِ وُجُودُ صَدِيقٍ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، لِأَنَّهُ قَلَّ فِي الأَصْدِقَاءِ مَنْ يَتْرُكُ الْمُدَاهَنَةَ فَيُخْبِرُ بِالْعَيْبِ، أَوْ يَتْرُكُ الْحَسَدَ فَلَا يَزِيدُ عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ". وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يُحِبُّونَ مَنْ يُنَبِّهُهُمْ عَلَى عُيُوبِهِمْ، وَنَحْنُ الآنَ فِي الْغَالِبِ أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيْنَا مَنْ يَعْرِفُنَا عُيُوبَنَا.

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ الإِيمَانِ، فَإِنَّ الأَخْلَاقَ السَّيِّئَةَ كَالْعَقَارِبِ، لَوْ أَنَّ مُنَبِّهًا نَبَّهَنَا عَلَى أَنَّ تَحْتَ ثَوْبِ أَحَدِنَا عَقْرَبًا، لَتَقَلَّدْنَا لَهُ مِنةً وَاشْتَغَلْنَا بِقَتْلِهَا، وَالأَخْلَاقُ الرَّدِيئَةُ أَعْظَمُ ضَرَرًا مِنَ الْعَقْرَبِ عَلَى مَا لَا يَخْفَى.(٢)

---

(١) "روضة العقلاء"(صـ: ١٩٧).

(٢) "مختصر منهاج القاصدين" (صـ: ١٥٧).

فَالإِنْسَانُ لَو نَبَّهَهُ مُنَبِّهٌ عَلَى وُجُودِ حَيَوَانٍ أَوْ عَقْرَبٍ يخشى أن تَلْسَعَهُ لَشَكَرَ لَهُ ذَلِكَ وَاشْتَغَلَ بِقَتْلِهَا، وَسَعَى فِي إِبْعَادِهَا. وَرُبَّمَا يَأْنَفُ وَيَتَضَجَّرُ إِذَا نُبِّهَ عَلَى بَعْضِ الأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ. وَالأَخْلَاقُ السَّيِّئَةُ هِيَ أَعْظَمُ خَطَراً وَأَشَدُّ ضَرَراً مِنْ تِلْكَ الْعَقَارِبِ وَلَسْعِهَا.

فَالنَّصِيحَةُ هِيَ دِينٌ، وَلِذَلِكَ كُرِّرَتْ فِي الْحَدِيثِ ثَلَاثًا: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»،

❁ وبوب عليه النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "صحيح مسلم" **بَابُ بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ.**(١)

وَهِيَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الأَنْبِيَاءِ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ الأعراف [٦٢]. ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ الأعراف [٦٨].

وَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهَا الْبَيْعَةَ «وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».(٢)

❁ قَالَ بَعْضُهُمْ:(٣)

وقُم بالنُّصح إنَّ النُّصحَ دِينٌ ... بهِ تُجزى الجزيلَ منَ العطاءِ

فقد أوصى النَّبيُّ به ثلاثاً ... فقدِّمْه لدى كشفِ الغطاءِ

وَالْمُعْجَبُ بِرَأْيِهِ لَا يَنْتَفِعُ بِالنَّصِيحَةِ؛ لِأَنَّهُ مَغْرُورٌ فِي نَفْسِهِ، مُعْجَبٌ بِرَأْيِهِ، وَيَرَى أَنَّهُ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِ فَهْمًا وَعَقْلًا وَنَحْوَ ذَلِكَ.

❁ قَالَ ابْنُ حِبَّانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ تَرْكُ قَبُولِ النَّصِيحَةِ مِنَ الْمُعْجَبِ بِرَأْيِهِ.(٤)

❁ وَذَكَرَ أَبْيَاتًا عَنْ بَعْضِهِمْ:

---

(١) رواه مسلم (٥٥)، وتكرارها ثلاث مرات عند أبي داود (٤٩٤٤)، وعند الترمذي (١٩٢٦) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعند غيرهم.

(٢) رواه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦).

(٣) "الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار" (صـ: ١٤).

(٤) "روضة العقلاء"(صـ: ١٩٦).

إِذا نَصَحْتَ لذي عُجْبٍ لترْشِدَه ... فلم يُطعْكَ فلا تنصحْ له أبدا
فإن ذا العُجْبِ لَا يُعْطِيكَ طَاعَتَهُ ... ولا يُجيبُ إِلَى إِرْشَادِهِ أَحَدا
وما عليكَ وإِن غاوٍ غَوَى حِقَباً ... إِن لم يكنْ لكَ قُرْبى أو يكنْ وَلَدا

أَيْ: إِذَا أَدَّيْتَ النَّصِيحَةَ فَمَا عَلَيْكَ مِنْ بُعْدِهِ وَإِعْرَاضِهِ، قُمتَ بالَّذِي عَلَيْكَ مَا دَامَ هُوَ لَا يَقْبَلُ، وَإِنَّمَا الأَسَفُ الأَكْثَرُ إِذَا كَانَ مِنْ أَقَارِبِكَ، أَوْ مِنْ أَوْلَادِكَ؛ لِعِظَمِ المَسْؤُولِيَّةِ الَّتِي حُمِّلْتَ إِيَّاهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾ التحريم [٦].﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ ﴾ الشعراء [٢١٤] قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ ﴾ طه [١٣٢].

وَلَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ يُسْدِي النَّصِيحَةَ، فَبَعْضُ النَّاسِ يَبْخَلُ بِهَا، أَوْ قَدْ يَنْصَحُ مَنْ لَا يُحْسِنُهَا

❁ لِذَلِكَ مِمَّا نُسِبَ إِلَى أَبِي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: (١)

وَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ... وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ ... فَحُقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

أَيْ: ليس كلُ عاقل يُعطيكَ نصيحته، ومَا كُلُّ مَنْ يُعْطِي النَّصِيحَةَ عَاقِلٌ رَزِينٌ يَعْرِفُ كَيْفَ يَضَعُ النَّصِيحَةَ. النَّصِيحَةُ لَهَا آدَابُهَا، وَلَكِنْ إِذَا اجْتَمَعَتْ عِنْدَ الناصح الرَّزَانَةُ وَالْعَقْلُ مَعَ النُّصْحِ، فَحُقَّ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ بِنَصِيبٍ. أَيْ مِثْلُ هَذَا يُسْمَعُ لَهُ وَيُطَاعُ.

ونَصَحَ الناظمُ بِالْعِلْمِ، وَحَذَّرَ مِنَ الْجَهْلِ، وَحَذَّرَ مِنَ الدُّنْيَا، وَالاغْتِرَارِ بِهَا.

---

(١) "أدب الدنيا والدين" (صـ: ٣٠١).

❁ نَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي العَتَاهِيَةِ:[١]

رَغِيفُ خُبْزٍ يَابِسٍ ... تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيَهْ
وكُوزُ مَاءٍ بَارِدٍ ... تَشْرَبُهُ مِن صَافِيَهْ
وغُرْفَةٌ ضَيِّقَةٌ ... نَفْسُك فِيهَا خَالِيَهْ
أَوْ مَسْجِدٌ بِمَعْزِلٍ ... عَن الوَرَى فِي نَاحِيَهْ
تَدْرُسُ فِيهِ دَفْتَرًا ... مُسْتَنِدًا لِسَارِيَهْ
مُعْتَبِرًا بِمَنْ مَضَى ... مِن القُرونِ الخَالِيَهْ
خَيْرٌ مِن السَّاعَاتِ فِي ... فَيْءِ القُصُورِ العَالِيَهْ
تَعْقِبُهَا عُقُوبَةٌ ... تُصْلَى بِنَارٍ حَامِيَهْ
فَهَذِهِ وَصِيَّتِي ... مُخْبِرَةٌ بِحَالِيَهْ
طُوبَى بِمَنْ يَسْمَعُهَا ... تِلْكَ لَعَمْرِيْ كَافِيَهْ
فَاسْمَعْ لِنُصْحِ مُشْفِقٍ ... يُدْعَى أَبَا العَتَاهِيَهْ

(١) "مجموعة القصائد الزهديات" (٢/ ٣١٥).

البيت رقم٤٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلاً وَفِعْلاً وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحْتَا

شرح البيت رقم ٤٥

أَيْ: إِنْ أَخَذْتَ بِنُصْحِي فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ وَتَاجَرْتَ مَعَ اللهِ بِهَذَا الْعَمَلِ فَأَنْتَ الرَّابِحُ. فَسَتَرْبَحُ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّ الطَّرِيقَ الَّتِي دَلَّهَا عَلَيْكَ هِيَ طَرِيقُ الرِّبْحِ، لَيْسَ فِيهَا كَسَادٌ، طَرِيقُ الْفَوْزِ لَيْسَ فِيهَا خُسْرَانٌ.

"**وَإِنْ رَاعَيْتَهُ**"، رَاعَيْتَ نُصْحَهُ وَأَخَذْتَ بِهِ وَقَبِلْتَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا وَتَاجَرْتَ بِهِ رَبِحْتَ.

وَالتِّجَارَاتُ الرَّابِحَةُ قَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنْوَاعٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْهَا:

التِجارةُ الأَوَّلَى: كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَسَاسُ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ وَأَصْلُهَا.

التِّجَارَةُ الثَّانِيَةُ: الصَّلَاةِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا.

التِّجَارَةُ الثَّالِثَةُ: الإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ.

دَلِيلُ هَذِهِ الثَّلَاثِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾هَذَه التجارة الأُوَّلَى.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾هَذه الثَّانِية.

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾هَذَه الثَّالِثة.

ثُمَّ قَالَ:﴿ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾يَرْجُونَ، يَطْلُبُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ، لَنْ تَكْسَد، لَيْسَ فِيهَا خَسَارَةٌ.﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠ ﴾ فاطر [٢٩، ٣٠]

التِّجَارَةُ الرَّابِعَةُ: الإِيمَانُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ.

التِّجَارَةُ الخَامِسَةُ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَدَلِيلُ الرابعة، والخامسة قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ ﴾ الصف [١٠، ١١].

فَهَذِهِ التِّجَارَاتُ تِجَارَاتٌ رَابِحَةٌ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١١١ ﴾ التوبة [١١١]. فاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ، بِهَذَا البَيْعِ، بِهَذِهِ التِّجَارَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠٧ ﴾ البقرة [٢٠٧]. هَذِهِ تِجَارَةٌ رَابِحَةٌ عَظِيمَةٌ.

❁ قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: الجنةُ تَرضَى مِنكَ بأَداءِ الفرائضِ، والنارُ تندفعُ عَنكَ بِترْكِ المعَاصِي والمحَبةُ لا تَقنَعُ منك إلا بِبَذلِ لروح: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ ﴾ التوبة [١١١].

بِـدَمِ الْمُـحِـبِّ يُـبَـاعُ وَصْـلُـهُـمْ فَـمَـنِ الَّـذِي يَـبْـتَـاعُ بِـالـثَّـمَـنِ

لله ما أحلى زيارة تسعى بها أقدام الرضا على أرض الاشتياق.[(١)]

---

(١) "بدائع الفوائد" (٣/ ٢١٦).

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تَاللَّهِ مَا هُزِلَتْ فَيَسْتَامَهَا الْمُفْلِسُونَ، وَلَا كَسَدَتْ فَيَبِيعَهَا بِالنَّسِيئَةِ الْمُعْسِرُونَ، لَقَدْ أُقِيمَتْ لِلْعَرْضِ فِي سُوقِ مَنْ يَزِيدُ، فَلَمْ يُرْضَ لَهَا بِثَمَنٍ دُونَ بَذْلِ النُّفُوسِ. فَتَأَخَّرَ الْبَطَّالُونَ. وَقَامَ الْمُحِبُّونَ يَنْظُرُونَ: أَيُّهُمْ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ ثَمَنًا؟ فَدَارَتِ السِّلْعَةُ بَيْنَهُمْ. وَوَقَعَتْ فِي يَدِ ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة [٥٤].(١)

فَهَذِهِ الأَشْيَاءُ تِجَارَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمِنْ ذَلِكَ العِلْمُ، وَالإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَالابْتِعَادُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا.

وَاسْتَصْحِبِ الْعِلْمَ الشَّرِيفَ تِجَارَةً ... وَاعْمَلْ بِمَفْرُوضِ الْكِتَابِ وَنَفْلِهِ

فَهَذِهِ تِجَارَاتٌ رَابِحَةٌ: الْعِلْمُ النَّافِعُ وَأَسَاسُهُ كَلَامُ اللهِ، وَبَيَانُهُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَهْمِ سَلَفِ الأُمَّةِ.

وَلِذَلِكَ الَّذِي يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَخْتَارَ مِنَ الْعُلُومِ الأَنْفَعَ مَا يَنْفَعُهُ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ وَيُقَرِّبُهُ إِلَى رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا. وَيَدَعَ مَا يُبْعِدُهُ، وَيُشَتِّتُ عَلَيْهِ الْعَقْلَ وَالذِّهْنَ وَيَصْرِفُهُ عَمَّا هُوَ أَهَمُّ عَلَيْهِ وَأَوْجَبُ.

وَكَذَلِكَ إِقَامَةُ الصَّلَوَاتِ وَالاهْتِمَامُ بِالصَّلَاةِ فَرْضًا وَنَفْلًا، وَالإِنْفَاقُ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْمِي الصَّدَقَةَ لِصَاحِبِهَا حَتَّى تَكُونَ كَالْجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ».

---

(١) "مدارج السالكين"(٣/ ١٠).

وفي رواية مسلم «حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ، أَوْ أَعْظَمَ». (١) كَذَلِكَ الإِيمَانُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالجِهَادُ، كُلُّ هَذِهِ تِجَارَاتٌ رَابِحَةٌ.

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَهَذِهِ حَقِيقَةُ الدُّنْيَا عِنْدَ مُوَافَاةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا عَلِمُوا قِلَّةَ لُبْثِهِمْ فِيهَا، وَأَنَّ لَهُمْ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ الدَّارِ، هِيَ دَارُ الْحَيَوَانِ وَدَارُ الْبَقَاءِ - رَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ بَيْعَ دَارِ الْبَقَاءِ بِدَارِ الْفَنَاءِ، فَاتَّجَرُوا تِجَارَةَ الْأَكْيَاسِ، وَلَمْ يَغْتَرُّوا بِتِجَارَةِ السُّفَهَاءِ مِنَ النَّاسِ، فَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ التَّغَابُنِ رِبْحُ تِجَارَتِهِمْ وَمِقْدَارُ مَا اشْتَرَوْهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَائِعٌ مُشْتَرٍ مُتَّجِرٌ، وَكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا. (٢)

(١) رواه البخاري (١٤١٠)، (٧٤٣٠) ومسلم (١٠١٤).

(٢) "الجواب الكافي" (صـ: ١٠٥).

البيت رقم ٤٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا

شرح البيت رقم ٤٦

هَذِهِ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، لَا سِيَّمَا بِجَانِبِ الآخِرَةِ. عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ».(١) الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا مَا تَعْدِلُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، لَيْسَ بَعُوضَةً كَامِلَةً، جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. تَخَيَّلْ إِذَا وُجِدَ إِنْسَانٌ يُنَافِسُ عَلَى جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، بَلْ قُلْ عَلَى بَعُوضَةٍ، بَلْ قُلْ عَلَى مِلْءِ مَنْزِلٍ مِنَ الْبَعُوضِ، يُنَافِسُ يُرِيدُ أَنْ يَأْخُذَهَا، يذهبُ عليهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وهو يُقَاتِلُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ. كَيْفَ سَيَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهِ؟ رُبَّمَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ مَجْنُونٌ، فَاقِدُ الْوَعْيِ لَا يَعْقِلُ. كَيْفَ يُقَاتِلُ عَلَى بَعُوضَةٍ؟ فَهَكَذَا الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَا تَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، لَا تَسَاوِي عِنْدَ اللهِ شَيْئًا، لَوْ كَانَتْ تَزِنُ مِقْدَارًا لَمَا مَكَّنَ الْكُفَّارَ مِنْهَا، وَهِيَ أَهْوَنُ عِنْدَ اللهِ من جيفةٍ نَتِنَةٍ.

كَمَا جَاءَ عِنْدَ الإِمَامِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (١٤١٠). قال الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: روي من حديث سهل بن سعد، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجماعة من الصحابة، والحسن، وعمرو بن مرة، مرسلا. .... وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب. والله أعلم. (٦٨٧).

فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ».(١) قَالَ: أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟ أَيْ: بِدُونِ مُقَابِلٍ. أَتُحِبُّونَ أَنْ يَكُونَ هَذ الْجَدْيُ الصَّغِيرُ الأُذُنَيْنِ الْمَيِّتُ لَكُمْ بِدُونِ مُقَابِلٍ؟ قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، أَيْ: صَغِيرِ الأُذُنَيْنِ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ أَيْ: لَوْ أَخَذْنَاهُ وَهُوَ حَيٌّ بِدُونِ مُقَابِلٍ لَكَانَ عَيْبًا، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ. فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ، لَا تَزِنُ شَيْئًا.

الدُّنْيَا هِيَ دَارٌ لَا يَدُومُ الإِنْسَانُ فِيهَا عَلَى حَالٍ، مِنَ الْمُحَالِ دَوَامُ الإِنْسَانِ فِيهَا عَلَى حَالٍ.

❁ لِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ:

ثَمانيةٌ عمت بأسبابها الورى ... فكلُ امرئ لا بدَّ يَلقى الثمانيةْ
سُرُورٌ وَحُزْنٌ وَاجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ ... وَعُسْرٌ وَيُسْرٌ ثُمَّ سُقْمٌ وَعَافِيَهْ

❁ وزاد بعضُهم: (٢)

بِهِنَّ انقضت أعمارُ أولادِ آدمَ ... فهل من رأى أحوالهم متساويهْ

لَابُدَّ أَنْ تَدُورَ هَذِهِ الأَشْيَاءُ عَلَى الإِنْسَانِ مَا بَيْنَ سُرُورٍ وَحُزْنٍ يَتَقَلَّبُ.

وكَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

فَيَومٌ عَلَيْنَا وَيَومٌ لَنَا ... وَيومٌ نُسَاءُ وَيَومٌ نُسَرُّ

❁ وقال آخر:(٣)

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٧).

(٢) "معجم الأدباء"(٣/ ١١٢٩) في ذكر الحسين بن عبد الرحيم بن الوليد بن عثمان وذكره من قوله.

(٣) "أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه" (صـ: ١١٦).

عَلَى ذَا مَضَـــى النَّاسُ اجتِمَاعٌ وَفُرقَةٌ ومَـيْـتٌ وَمَـولُـودٌ وَقَـالٍ وَوَامِـقُ

❁ قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَنَّهُ لَوْ فَتَّشَ الْعَالَمَ لَمْ يَرَ فِيهِمْ إِلَّا مُبْتَلًى، إِمَّا بِفَوَاتِ مَحْبُوبٍ، أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ، وَأَنَّ شُرُورَ الدُّنْيَا أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ، إِنْ أَضْحَكَتْ قَلِيلًا، أَبْكَتْ كَثِيرًا، وَإِنْ سَرَّتْ يَوْمًا، سَاءَتْ دَهْرًا، وَإِنْ مَتَّعَتْ قَلِيلًا، مَنَعَتْ طَوِيلًا، وَمَا مَلَأَتْ دَارًا خِيرَةً إِلَّا مَلَأَتْهَا عَبْرَةً، وَلَا سَرَّتْهُ بِيَوْمِ سُرُورٍ إِلَّا خَبَّأَتْ لَهُ يَوْمَ شُرُورٍ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ- رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -: لِكُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةٌ، وما مُلِيء بيتٌ فرحاً إلا مُلِيء تَرَحًا. وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: مَا كَانَ ضَحِكٌ قَطُّ إِلَّا كَانَ مِنْ بَعْدِهِ بُكَاءٌ.(١)

وَقَوْلُهُ: "**تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتًا**" الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، مَرَّةً تَكُونُ فِيهَا مَسْرُورًا وَمَرَّةً تَكُونُ فِيهَا حَزِينًا، ضَيِّقًا، مَهْمُومًا، مَغْمُومًا.

وَقَوْلُهُ: "**حِقْبَةً**"، قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: فَأَمَّا الزَّمَانُ فَهُوَ حِقْبَةٌ وَالْجَمْعُ حِقَبٌ. وَالْحُقْبُ ثَمَانُونَ عَامًا، وَالْجَمْعُ أَحْقَابٌ، وَذَلِكَ لِمَا يَجْتَمِعُ فِيهِ مِنَ السِّنِينَ وَالشُّهُورِ.(٢)

❁ وَقَالَ ابن الأثير فِي النِّهَايَةِ: الْحِقْبُ جَمْعُ حِقْبَةٍ بِالْكَسْرِ وَهِيَ السَّنَةُ، وَالْحُقْبُ بِالضَّمِّ ثَمَانُونَ سَنَةً.(٣) وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ النبأ [٢٣].

---

(١) "زاد المعاد"(٤/ ١٧٤)، وأثر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرجه أبو داود في "الزهد" (١٣٦)، ووكيع في "الزهد" (٥٠٦)، (٥٠٧)، ومن طريقه أحمد في "الزهد (٩٠١)، وأخرجه البيهقي في "الشعب" (١٠٥٧)، وسنده صحيح. وروي مرفوعاً.

وأثر ابن سيرين، أخرجه ابن أبي الدنيا في "الاعتبار وأعقاب السرور"(٥)، بسند حسن فيما يظهر، والله أعلم.

(٢) "مقاييس اللغة"(٢/٨٩).

(٣) "النهاية" (١/٤١٢).

❁ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ مَاكِثِينَ فِي النَّارِ مَا دَامَتِ الْأَحْقَابُ، وَهِيَ لَا تَنْقَطِعُ، فَكُلَّمَا مَضَى حُقُبٌ جَاءَ حُقُبٌ. وَالْحُقُبُ بِضَمَّتَيْنِ: الدَّهْرُ وَالْأَحْقَابُ الدُّهُورُ. وَالْحِقْبَةُ بِالْكَسْرِ: السَّنَةُ، وَالْجَمْعُ حِقَبٌ.(١)

❁ وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا، وَهِيَ جَمْعُ "حقب"، وَهُوَ: الْمُدَّةُ مِنَ الزَّمَانِ. وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِهِ.(٢)

❁ وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْحِقْبَةُ فِي اللُّغَةِ الْقِطْعَةُ مِنَ الزَّمَانِ.

❁ **ومن باب الفائدة**: قَالَ السَّمْعَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِن قيل: هَذِه الْآيَة تدل على أَن عَذَاب الْكفَّار يَنْقَطِع عِنْد مُضِيّ الأحقاب؟ وَالْجَوَاب من وُجُوه:

أَحدهَا: أَن مَعْنَاهُ لابثين فِيهَا أحقابا لَا يذوقون فِيهَا بردا وَلَا شرابًا أَي: يُعَذبُونَ بِهَذَا النَّوْع من الْعَذَاب أحقابا، وَثمّ أحقاب أخر لسَائِر أَنْوَاع الْعَذَاب، قَالَه الْمبرد.

وَالْوَجْه الثَّانِي: وَهُوَ أَن معنى لابثين فِيهَا أحقابا لَا تخبو عَنْهُم النَّار، فَإِذا خبت النَّار وزيدوا سعيرا لَبِثُوا أبدا.

وَالْوَجْه الثَّالِث: مَا قَالَه ابْن كيسَان، وَهُوَ أَن مَعْنَاهُ لابثين فِيهَا أحقابا إِلَى أحقاب لَا تَنْقَطِع أبدا. قَالَ النّحاس: وَهُوَ أبين الْأَقْوَال.(٣)

"تَسُوؤُكَ حِقْبَةً" أي: وَقْتًا، وَزَمَانًا، ومدة. "وَتَسُرُّ وَقْتًا" أَيْ: مُدَّةً زَمَنِيَّةً.

---

(١) "تفسير القرطبي" عند الآية.

(٢) "تفسير ابن كثير" عند الآية.

(٣) "تفسير السمعاني" عند الآية.

البيت رقم ٤٧

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَغَـايَـتُـهَـا إِذَا فَـكَّـرْتَ فِـيـهَـا ... كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِذْ حَلَمْتَا

شرح البيت رقم ٤٧

"كَفَيْئِكَ" أَيْ: كَظِلِّكَ، كَظِلٍّ يَزُولُ وَيَذْهَبُ.

وَقَوْلُهُ: "إِذَ حَلَمْتَا"، (حَلَمَ) الْحَاءُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ، أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: الْأَوَّلُ تَرْكُ الْعَجَلَةِ، وَالثَّانِي تَثَقُّبُ الشَّيْءِ، وَالثَّالِثُ رُؤْيَةُ الشَّيْءِ فِي الْمَنَامِ. وَهِيَ مُتَبَايِنَةٌ جِدًّا، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْضَ اللُّغَةِ لَيْسَ قِيَاسًا، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُهُ مُنْقَاسًا.

فَالْأَوَّلُ: الْحِلْمُ خِلَافُ الطَّيْشِ. يُقَالُ حَلُمْتُ عَنْهُ أَحْلُمُ، فَأَنَا حَلِيمٌ.

وَالْأَصْلُ الثَّانِي: قَوْلُهُمْ حَلِمَ الْأَدِيمُ إِذَا تَثَقَّبَ وَفَسَدَ ؛ وَذَلِكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ دَوَابُّ تُفْسِدُهُ...

وَالثَّالِثُ: قَدْ حَلَمَ فِي نَوْمِهِ حُلْمًا وَحُلُمًا.(١)

"أَوْ كَحُلْمِكَ إِذْ حَلَمْتَا" المراد: الثالث.

❁ قال بعضهم:(٢)

إِنَّـمَـا الـدُّنْـيَـا فَـنَـاءٌ ... لَـيْـس لِـلـدنـيـا ثُـبُـوتُ
إِنَّـمَـا الـدنـيـا كَـبَـيْـتٍ ... نَسَـجَـتْـهُ الـعَـنْـكَـبُـوتُ
ولَـقَـد يَـكْـفِـيـكَ مِـنْـهَـا ... أَيُّـهَـا الـطَّـالِـبُ قُـوْتُ
ولَـعُـمْـرِي عَـن قَـلِـيـلٍ ... كُـلُّ مَـن فِـيـهَـا يَـمُـوتُ

فَالدُّنْيَا كَظِلٍّ ذَاهِب، أَوْ كَرُؤْيَا يَرَاهَا النَّائِمُ فِي مَنَامِهِ.

---

(١) "مقاييس اللغة" (٢/ ٩٣).

(٢) "مجاني الأدب في حدائق العرب" (١/ ١٣)، وعزاها بعضهم لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».(١)

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهَا، وَجَاءَ عَلِيٌّ، فَذَكَرَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ عَلَى بَابِهَا سِتْرًا مَوْشِيًّا»، فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا» فَأَتَاهَا عَلِيٌّ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا، فَقَالَتْ: لِيَأْمُرْنِي فِيهِ بِمَا شَاءَ، قَالَ: «تُرْسِلُ بِهِ إِلَى فُلاَنٍ، أَهْلِ بَيْتٍ بِهِمْ حَاجَةٌ».(٢)

هَذِهِ هِيَ الدُّنْيَا، هَذَا مِقْدَارُهَا وَمُدَّتُهَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ. كَمْ عَسَاهُ يَسْتَظِلُّ؟ نِصْفُ سَاعَةٍ أَوْ أَقَل، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا. هَكَذَا النَّاسُ يَعْمُرُونَ يَسِيرًا فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يَذْهَبُونَ وَيَتْرُكُونَهَا، وَهِيَ تَذْهَبُ.

❁ قَالَ الْمُبَارَكْفُورِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَجْهُ التَّشْبِيهِ: سُرْعَةُ الرَّحِيلِ، وَقِلَّةُ الْمَكْثِ وَمِنْ ثَمَّ خَصَّ الرَّاكِبَ.(٣)

"كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ"، لِأَنَّ الرَّاكِبَ لَا يَسْتَظِلُّ كَثِيرًا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، رَاكِبٌ مُسَافِرٌ، نزل لِيَسْتَظِلَّ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧٠٩)، (٤٢٠٨)، والترمذي (٢٣٧٧)، والبيهقي في "الشعب" (٩٩٣٠) وهو في "الصحيحة" للإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٣٨)، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، عند أحمد (٢٧٤٤)، والبيهقي في "الشعب" (٩٩٣٢)، والطبراني في "الكبير" (١١٨٩٨)، وهو في "الصحيحة"(٤٣٩).

(٢) رواه البخاري (٢٦١٣).

(٣) "تحفة الأحوذي" (٧/ ٤١).

عن الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟». (١) وَالْمُرَادُ بِالْيَمِّ الْبَحْرُ. مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ، الدُّنْيَا لَا تَسَاوِي شَيْئًا. لَوْ أَدْخَلْتَ بَعْضَ أَصَابِعِكَ إِلَى الْبَحْرِ ثُمَّ رَفَعْتَهَا، مَا تَكَادُ تَرْفَعُ مِنْ مَائِهِ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلِقَ بِتِلْكَ الإصبع، وَمَا عَسَى أَنْ ترفع بِهَا مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ، وَالْآخِرَةُ بِمَثَابَةِ الْبَحْرِ، فَلَا تَسَاوِي الدُّنْيَا شَيْئًا.

وَقَوْلُ "إِصْبَعَهُ" قَالَ بَعْضُهُمْ: وَفِي الْإِصْبَعِ عَشْرُ لُغَاتٍ. (٢)

❁ ومما ينسب للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٣)

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا صَبْرُ أَيَّامِ ... كَأَنَّ مُدَّتَهَا أَضْغَاثُ أَحْلَامِ
يَا نَفْسُ جُودِي عَنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً ... وَخَلِّ عَنْهَا فَإِنَّ الْعَيْشَ قُدَّامِي

❁ وقال أبو العتاهية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٤)

يا ساكِنَ الدّارِ تَبْنيها وَتَعمُرُها ... والدارُ دارُ منيَّاتٍ وأسْقامِ
لا تَلْعَبَنّ بكَ الدّنيا وَخُدْعَتُها ... فكَمْ تَلاعَبَتِ الدّنْيا بأقْوامِ

❁ قَالَ بعضهم: (٥)

هِيَ الْقَنَاعَةُ لَا أَرْضَى بِهَا بَدَلًا ... فِيهَا النَّعِيمُ وَفِيهَا رَاحَةُ الْبَدَنِ
وَانْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ فَازَ مِنْهَا بِغَيْرِ اللَّحْدِ وَالْكَفَنِ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٢) "المصباح المنير" (١/ ٣٣٢).

(٣) كما في "الآداب الشرعية" لابن مفلح (١/ ٢١٧)، و"روضة العقلاء" (صـ: ٣١).

(٤) "ديوان أبي العتاهية".

(٥) "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" (صـ: ١٢٧).

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَاعِدَةٌ نَافِعَةٌ: الْعَبْدُ مِنْ حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ قَدَمُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَهُوَ مُسَافِرٌ فِيهَا إِلَى رَبِّهِ، وَمُدَّةُ سَفَرِهِ هِيَ عُمْرُهُ الَّذِي كُتِبَ لَهُ، فَالْعُمْرُ هُوَ مُدَّةُ سَفَرِ الإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى. ثُمَّ قَدْ جُعِلَتِ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي مَرَاحِلَ سَفَرِهِ، فَكُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَرْحَلَةٌ مِنَ الْمَرَاحِلِ، فَلَا يَزَالُ يَطْوِيهَا مرحلة بعد مرحلة حَتَّى يَنْتَهِيَ السَّفَرُ. فَالْكَيِّسُ الْفَطِنُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ كُلَّ مَرْحَلَةٍ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، فَيَهْتَمُّ بِقَطْعِهَا سَالِمًا غَانِمًا، فإذا قطعها جعل الأُخرى نصب عينيه. (١)

❁ وَجَاءَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: (٢)

أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلِ ... إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ

❁ وقال: مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، إِلَّا كَرَجُلٍ نَامَ نَوْمَةً فَرَأَى فِي مَنَامِهِ مَا يُحِبُّ.

❁ قَالَ حَاتِمٌ الأَصَم: مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ ظِلِّكَ، إِنْ طَلَبْتَهُ تَبَاعَدَ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ تَتَابَعَ. (٣) أَيْ إِنْ ذَهَبْتَ لِتُلَاحِقَ الظِّلَّ يَبْعُدُ عَنْكَ لَا يَسْتَقِرُّ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ تَتَابَعَ، أَيْ يَطُولُ وَيَكْثُرُ.

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت: (٤)

يَا أَهْلَ لَذَّاتِ دُنْيَا لا بَقَاءَ لَهَا ... إِنَّ اغْتِراراً بِظِلٍّ زَائِلٍ حُمُقُ

---

(١) "طريق الهجرتين" (صـ: ١٨٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الزهد"(٢٣)، وفي "ذم الدنيا" (٢٣)، عن الحسن البصري.

وأخرجه في " الزهد" (٣٧٦)، وفي "ذم الدنيا" (٢٥٠)، عن سليمان بن يزيد العدوي.

وأخرجه أيضاً في "الزهد" (٥٠٨)، عن عمران بن حطان.

(٣) "الحلية" لأبي نعيم (١٠/٤٩)، وفيه من لا يعرف.

(٤) "عدة الصابرين" (صـ:٢٢٥)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في "الزهد"(٢٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أشبه الأشياء بالدنيا الظل تحسب له حقيقة ثابتة، وهو في تقلص وانقباض، فتتبعه؛ لتدركه فلا تلحقه.

وأشبه الأشياء بها السراب ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ النور [٣٩].

وأشبه الأشياء بها المنام، يرى فيه العبد ما يحب وما يكره، فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له.

وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر، غدارة بالأزواج، تزينت للخطاب بكل زينة، وسترت كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها، فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلا نقد الآخرة، فإننا ضرتان، واجتماعنا غير مأذون فيه، ولا مستباح، فآثر الخطاب العاجلة، وقالوا: ما على من واصل حبيبته من جناح، فلما كشف قناعها وحل إزارها، إذا كل آفة وبلية، فمنهم: من طلق واستراح، ومنهم: من اختار المقام، فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح. (١)

(١) "عدة الصابرين" (صـ: ٢٢٥).

البيت رقم ٤٨

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سُـــجِـنْـتَ بِهَـا وَأَنْـتَ لهَـا مُحِـبٌّ فَـكَـيْـفَ تُحِـبُّ مَـا فِـيـهِ سُـــجِـنْـتَـا

شرح البيت رقم ٤٨

جَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ».(١)

❁ قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مَسْجُونٌ مَمْنُوعٌ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالْمَكْرُوهَةِ مُكَلَّفٌ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ الشَّاقَّةِ فَإِذَا مَاتَ اسْتَرَاحَ مِنْ هَذَا وَانْقَلَبَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّعِيمِ الدَّائِمِ وَالرَّاحَةُ الْخَالِصَةُ مِنَ النُّقْصَانِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّمَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا حَصَّلَ فِي الدُّنْيَا مَعَ قِلَّتِهِ وَتَكْدِيرِهِ بِالْمُنَغِّصَاتِ فَإِذَا مَاتَ صَارَ إِلَى الْعَذَابِ الدَّائِمِ وَشَقَاءِ الْأَبَدِ.(٢)

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: فِيهِ تَفْسِيرَانِ صَحِيحَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَيَّدَهُ إِيمَانُهُ عَنِ الْمَحْظُورَاتِ، وَالْكَافِرُ مُطْلَقُ التَّصَرُّفِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ ذَلِكَ بِاعْتِبَارِ الْعَوَاقِبِ، فَالْمُؤْمِنُ لَوْ كَانَ أَنْعَمَ النَّاسِ، فَذَلِكَ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَآلِهِ فِي الْجَنَّةِ كَالسِّجْنِ، وَالْكُفار عَكْسُهُ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ بُؤْسًا، فَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّارِ جَنَّتُهُ.(٣)

الكَافِرُ وَلَوْ كَانَ فِي بُؤْسٍ فِي الدُّنْيَا، فَالدُّنْيَا لَهُ جنة مقارنة بِمَا يَكُونُ عَلَيْهِ حَالُهُ فِي الآخِرَةِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦).

(٢) "شرح مسلم" عند الحديث السابق.

(٣) "بدائع الفوائد" (٣/ ١٧٧).

❁ وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَأَمَّا مَا وُعِدَ بِهِ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ، فَإِنَّهُ تَكُونُ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سِجْنًا. وَمَا لِلْكَافِرِ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ عَذَابِ اللهِ، فَإِنَّهُ تَكُونُ الدُّنْيَا جَنَّتَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى ذَلِكَ. (١)

وجَاءَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَسَنَتُهُ، فَإِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا، فَارَقَ السِّجْنَ وَالسَّنَةَ». (٢) وَالسَّنَةُ: بِفَتْحِ أَوَّلِهِ الْقَحْطُ وَالْجَدْبُ. وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ ضَعْفٌ.

❁ ذَكَرُوا أَنَّ الْحَافِظَ ابْنَ حَجَرٍ لَمَّا كَانَ قَاضِيَ الْقُضَاةِ مَرَّ يَوْمًا بِالسُّوقِ فِي مَوْكِبٍ عَظِيمٍ وَهَيْئَةٍ جَمِيلَةٍ، فَهَجَمَ عَلَيْهِ يَهُودِيٌّ يَبِيعُ الزَّيْتَ الْحَارَّ وَأَثْوَابُهُ مُلَطَّخَةٌ بِالزَّيْتِ وَهُوَ فِي غَايَةِ الرَّثَاثَةِ وَالشَّنَاعَةِ، فَقَبَضَ عَلَى لِجَامِ بَغْلَتِهِ وَقَالَ: يَا شَيْخَ الإِسْلَامِ، تَزْعُمُ أَنَّ نَبِيَّكُمْ قَالَ: الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ، فَأَيُّ سِجْنٍ أَنْتَ فِيهِ، وَأَيُّ جَنَّةٍ أَنَا فِيهَا؟ فَقَالَ: أَنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِي فِي الآخِرَةِ مِنَ النَّعِيمِ كَأَنِّي الآنَ فِي السِّجْنِ، وَأَنْتَ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَعَدَّ لَكَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الأَلِيمِ كَأَنَّكَ فِي جَنَّةٍ. قَالَ: فَأَسْلَمَ الْيَهُودِيّ. (٣)

❁ قال أبو الفيض أحمد بن محمد: قلت: هذه الحكاية قديمة لم تقع مع الحافظ بل حكاها ابن العربي المعافري في "السراج" عن الإمام أبي الطيب سهل بن محمد الصعلوكى

---

(١) "جامع الرسائل لابن تيمية" (٢/ ٣٦٢).

(٢) رواه أحمد (٦٨٥٥)، وغيره والحديث ضعيف، انظر "السلسلة الضعيفة" (٢٥٣٦).

(٣) "فيض القدير" (٣/٥٤٦).

إمام الشافعية بنيسابور: أنه مر في موكب وأبَّهة فخرج عليه يهودى من مسخن حمام وذكر الحكاية، ولم يقل: فأسلم اليهودي، بل قال: فأفحمه. (١)

❁ وقال صاحب "منتهى السؤل": وقيل: إنّ صاحب القصّة: هو أبو سهل الصّعلوكيّ الفقيه الخراساني، وكان ممّن جمع رياسة الدّين والدّنيا، وقيل: إنّه الإمام الشّافعي؛ ولا مانع من تعدّد الواقعة. (٢)

سُــجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُــجِنْتَا

فَالدُّنْيَا فِيهَا تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ، لَا سِيَّمَا عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَيْثُ يَلْتَزِمُ الطَّاعَةَ وَيَبْتَعِدُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَيَتَمَسَّكُ بِدِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَابُدَّ لَهُ أَنْ يَتْعَبَ فِي ذَلِكَ.

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاللَّذَّاتُ والكمالاتُ كُلُّهَا لَا تُنَالُ إِلَّا بحظٍ من الْمَشَقَّةِ وَلَا يُعبرُ إِلَيْهَا إِلَّا على جسرٍ من التَّعَبِ.

وَقد أَجْمَعَ عُقلاءُ كلِ أمة على أَن النَّعيمَ لَا يُدْركُ بالنعيمِ وَأَنَّ من آثر الرَّاحَة فَاتَتْهُ الرَّاحَة وَأَنَّ بِحَسَبِ رُكُوبِ الأَهْوَالِ وَاحْتِمَالِ الْمَشَاقِّ تَكُونُ الْفَرْحَةُ وَاللَّذَّةُ. فَلَا فَرْحَةَ لِمَنْ لَا هَمَّ لَهُ، وَلَا لَذَّةَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ، وَلَا نَعِيمَ لِمَنْ لَا شَقَاءَ لَهُ، وَلَا رَاحَةَ لِمَنْ لَا تَعَبَ لَهُ. بَلْ إِذَا تَعِبَ الْعَبْدُ قَلِيلًا اسْتَرَاحَ طَوِيلًا. وَإِذَا تَحَمَّلَ مَشَقَّةَ الصَّبْرِ سَاعَةً قَادَتْهُ لِحَيَاةِ الأَبَدِ. وَكُلُّ مَا فِيهِ أَهْلُ النَّعِيمِ فَهُوَ صَبْرُ سَاعَةٍ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَكُلَّمَا كَانَتِ النُّفُوسُ أَشْرَفَ وَالْهِمَّةُ أَعْلَى كَانَ تَعَبُ الْبَدَنِ أوفر وَحَظُّهُ مِنَ الرَّاحَةِ أَقَلَّ.

❁ كَمَا قَالَ المتنبي:

---

(١) "المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي" (٤/ ٥٩).

(٢) "منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول"(٣/٤١٧).

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

وَلَا رَيْبَ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ أَنَّ كَمَالَ الرَّاحَةِ بِحَسَبِ التَّعَبِ، وَكَمَالَ النَّعِيمِ بِحَسَبِ تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ فِي طَرِيقِهِ. وَإِنَّمَا تَخْلُصُ الرَّاحَةُ وَاللَّذَّةُ وَالنَّعِيمُ فِي دَارِ السَّلَامِ، أَيْ تَكُونُ خَالِصَةً. فَأَمَّا فِي هَذِهِ الدَّارِ فَكَلَّا وَلَمَّا.(١) فَالدُّنْيَا هِيَ سِجْنٌ لِلْمُؤْمِنِ، هِيَ سِجْنٌ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الآخِرَةِ. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ».(٢) (مَا مَرَّ بِي نَعِيمٌ قَطُّ). فَيُنْكِرُ مَا كَانَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّعِيمِ وَمَا تَلَذَّذَ فِيهِ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، وهوَ فِي الدُّنْيَا فِي جَنَّةٍ. فالْكَافِرُ يَتَلَذَّذُ بِالحلال مِنْهَا وَالحرام، وَلَا يَتَوَرَّع منْ شَيْءٍ، وَالآخِرَةُ هِيَ سِجْنٌ لَهُ، بِجَانِبِ مَا كَانَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا، غَمْسَةٌ وَاحِدَةٌ تُنْسِيهِ كُل مَا كَانَ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ. ويقولُ المكرم بجنة الله تعالى (لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ). نَسِيَ سِجْنَ الدُّنْيَا، وَأَتْعَابَهَا، وَأَكْدَارَهَا، وشدتها؛ لِأَنَّ الآخِرَةَ هِيَ جَنَّتُهُ، وَالدُّنْيَا هِيَ سِجْنُهُ. فَاعْبُرْ إِلَى الآخِرَةِ عَبْرَ سِجْنِ الدُّنْيَا، وَالْحَيَاةُ هِيَ ابْتِلَاءٌ لِلْعِبَادِ.

❁ قَالَ ابْنُ مُفْلِحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ مَرَارَةَ الدُّنْيَا حَلَاوَةُ الآخِرَةِ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ وَلِهَذَا قَالَ: - عَلَيْهِ السَّلَامُ - «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»، وَقَالَ: «حُفَّتْ الْجَنَّةُ

---

(١) "مفتاح دار السعادة" (٢/ ١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٠٧).

بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَاقِلَ مَنْ احْتَمَلَ مَرَارَةَ سَاعَةٍ لِحَلَاوَةِ الأَبَدِ، وَذُلَّ سَاعَةٍ لِعِزِّ الأَبَدِ.(١) لِذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُبَشَّرُ بِجَنَّةِ اللهِ عند قَبْضِ رُوحِهِ، وَفِي قَبْرِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ فصلت [٣٠-٣٢] وَإِذَا حُمِلَ عَلَى الْأَكْتَافِ وَنُقِلَ إِلَى حُفْرَتِهِ، إِلَى قَبْرِهِ، تَقُولُ بُشِرَ ففي الحديث: «إِذَا وُضِعَتِ الجِنَازَةُ، فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي، قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ لَصَعِقَ قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي».(٢) لِمَا يَرَى مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّعِيمِ، أَمَّا ذَلِكَ الْمُعْرِضُ عَنْ دِينِ اللهِ الَّذِي كَانَتِ الدُّنْيَا هِيَ جَنَّتُهُ، تَقُولُ جَنَازَتُهُ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟ لِمَنْ تُسَلِّمُونَهَا؟ إِلَى أَيْنَ تُوصِلُونَهَا؟ إِلَى الْعَذَابِ وَالضِّيقِ وَالْآلَامِ وَالنَّكَدِ. وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِمَّنِ اسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ من أجلِ دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ آل عمران [١٦٩، ١٧٠]

يَجِدُونَ الْفَرَحَ وَاللَّذَّةَ بِمَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ، فَهُمْ فِي فَرَحٍ وَاسْتِبْشَارٍ وَخَيْرٍ عَظِيمٍ.

---

(١) "الآداب الشرعية والمنح المرعية" (٢/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٠)، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ، كما جاء عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَقَالَ: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: «العَبْدُ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالبِلاَدُ، وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ».(١) انْظُر الْمُؤْمِنَ لَمَّا كَانَتِ الدُّنْيَا سِجْنًا لَهُ، هُوَ الْمُسْتَرِيحُ. وَالْكَافِرُ لَمَّا كَانَتِ الدُّنْيَا هِيَ جَنَّتَهُ، يَفْعَلُ فِيهَا مَا يُرِيدُ، رُبَّمَا يَقَعُ فِي السَّرِقَةِ، فِي الزِّنَا، فِي الشَّرِّ، فِي الْأَذِيَّةِ، يَأْكُلُ الْحَرَامَ، يَأْكُلُ أَمْوَالَ النَّاسِ وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ، تَتَأَذَّى مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ، فَيُسْتَرَاحُ مِنْهُ.

الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ إِذَا مَاتَ؛ لِأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا فِي كَبَدٍ، فِي سِجْنٍ، فِي مَشَقَّةٍ. فَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ؛ فَلِذَلِكَ يُحِبُّ لِقَاءَ اللهِ، يُبَشَّرُ بِالنَّعِيمِ فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللهِ؛ لِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».(٢) عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥١٢)، ومسلم (٩٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣)، وجاء عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عند البخاري (٦٥٠٨)، ومسلم (٢٦٨٦)، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عند البخاري (٦٥٠٧) ومسلم (٨٦٨٤)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عند مسلم أيضاً (٢٦٨٥).

البيت رقم ٤٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ ... سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا

شرح البيت رقم ٤٩

أَنْتَ الْيَوْمَ تَأْكُلُ مِنَ الدُّنْيَا وَمِنْ طَعَامِهَا، وَغَدًا هِيَ سَتَأْكُلُكَ هَذِهِ الدُّنْيَا.

أَنْتَ الْيَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا، تَطْعَمُهَا، وَغَدًا هِيَ سَتَطْعَمُكَ فِي قَبْرِكَ. تُطْعِمُكَ الطَّعَامَ، وَعَنْ قَرِيبٍ تُطْعِمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَ.

الْمَالُ يَذْهَبُ حِلُّهُ وَحَرَامُهُ ... يَوْمًا وَتَبْقَى فِي غَدٍ آثَامُهُ

لَيْسَ التَّقِيُّ بِمُتَّقٍ لِإِلَهِهِ ... حَتَّى يَطِيبَ شَرَابُهُ وَطَعَامُهْ

وَيَطِيبَ مَا يَجْرِي وَيَكْسِبُ كَفُّهُ ... وَيَكُونَ فِي حُسْنِ الْحَدِيثِ كَلَامُهْ

نَطَقَ النَّبِيُّ لَنَا بِهِ عَنْ رَبِّهِ ... فَعَلَى النَّبِيِّ صَلَاتُهُ وَسَلَامُهْ[1]

❁ قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ إِدْرِيسَ الْمُقْرِيُّ: اشْتَهَى الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ، سَمَكَةً، فَلَمَّا أُتِيَ بِهَا وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى سُرَّةِ السَّمَكَةِ فَاضْطَرَبَتْ يَدُهُ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُفِعَ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئًا، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ،

---

(١) أخرجه البيهقي في "الشعب" (٥٤٠٥)، و"الزهد الكبير" (٩٣٤)، والخطيب في "تاريخ بغداد" ت بشار (١٦/ ٢٦٣)، وابن عساكر "تاريخ دمشق" (٦٥/ ٣٤)، وابن بشران في "فوائده" (٥٩٣)، وأبو الحسن السكري "الفوائد المنتقاة عن الشيوخ العوالي" (١٥٠)، وغيرهم، من طريق دَعْلَج بْنِ أَحْمَدَ، ثَنَا عِيسَى بْنُ سُلَيْمَانَ، ثَنَا دَاوُدُ بْنُ رُشَيْدٍ قَالَ: أَنْشَدَنِي يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: فذكره، ورجاله ثقات.

وأخرجه ابن أبي الدنيا في "إصلاح المال" (٣٥)، قال: وَحَدَّثَنِي أَبِي، أَخْبَرَنِي بَعْضُ الشَّامِيِّينَ، عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: فذكر البيت الأولى والثانية، وفيه من لم يسم.

فَقَالَ: إِنِّي ذَكَرْتُ لَمَّا ضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَى بَطْنِهَا أَنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ ، فَلَمْ أَقْدِرْ أَنْ أَذُوقَهُ(١)

لَمْ يسْتَطِعْ أن يأكلَ تِلْكَ السَّمَكَة. تَذَكَّرَ أَنَّ الْبَطْنَ هِيَ أَوَّلُ مَا يَنْتِنُ مِنَ الإِنْسَانِ، وَتَأْكُلُهَا الدُّودُ. هِيَ تِلْكَ الْبَطْنُ الَّتِي يَسْعَى النَّاسُ الْيَوْمَ لِإِطْعَامِهَا حَلَالًا كان أو حَرَاماً، لَا يُبَالُونَ بِذَلِكَ.

وَيُحِبُّ الإِنْسَانُ أَنْ يَبْنِيَ جِسْمَهُ، وَإِنَّمَا يَبْنِي جِسْمًا لِلدُّودِ وَالتُّرَابِ، وَإِنَّمَا يُغَذِّي بَطْنَهُ لِلتُّرَابِ. ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ طه [٥٥]

❁ قَالَ أبو الْعَتَاهِيَة:(٢)

إِنِّي سَأَلْتُ التُّرْبَ مَا فَعَلَتْ ... بَعْدِي وُجُوهٌ فِيكَ مُنْعَفِرَه
فَأَجَابَنِي صَيَّرْتُ رِيحُهُمُ ... تُؤْذِيكَ بَعْدَ رَوَائِحٍ عَطِرَه
وَأَكَلْتُ أَجْسَادًا مُنَعَّمَةً ... كَانَ النَّعِيمُ يَصُونُهَا نَضِرَه
لَمْ تَبْقَ غَيْرُ جَمَاجِمٍ بَلِيَتْ ... بِيضٍ تَلُوحُ وَأَعْظُمٌ نَخِرَه

أَكَلَ التُّرَابُ وَالدُّودُ الأَجْسَادَ الْمُنَعَّمَةَ النَّضِرَةَ، ذَهَبَتْ نَضَارَتُهَا، ذَهَبَ حُسْنُهَا، ذَهَبَ بَهَاؤُهَا، تَفَتَّتْ، وَلَمْ تَبْقَ غَيْرَ تِلْكَ الْعِظَامِ النَّخِرَةِ، الْجَمَاجِمِ الْبَالِيَةِ.

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعِدَّ الْعُدَّةَ لِتِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهَا وَأَنْ يَرِدَ عَلَيْهَا، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَبْلَى، تَأْكُلُهُ الدُّودُ، يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، كَمَا جَاءَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الجوع"(٢٤٣)، ومن طريق أبو نعيم في "الحلية" (٣٢٨/٧)، وأيضاً ابن الجوزي "المنتظم"(٣١٣/٨)، قال ابن أبي الدنيا: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ إِدْرِيسَ الْمُقْرِئُ، قَالَ: فذكره، وفيه سليمان بن إدريس لم أجد له ترجمه.

(٢) "القبور" لابن أبي الدنيا (صـ: ٩١).

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، **لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ**».(١)، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِم، «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ، خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ». وَعِنْدَهُ أَيْضَا، «إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ عَظْمًا لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَدًا، فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالُوا أَيُّ عَظْمٍ هُوَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «عَجْبُ الذَّنَبِ».

❁ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ (عَجْبُ الذَّنَبِ) هُوَ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَإِسْكَانِ الْجِيمِ أَيِ الْعَظْمُ اللَّطِيفُ الَّذِي فِي أَسْفَلِ الصُّلْبِ وَهُوَ رَأْسُ الْعُصْعُصِ وَيُقَالُ لَهُ عَجْمٌ بِالْمِيمِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا يُخْلَقُ مِنَ الْآدَمِيِّ وَهُوَ الَّذِي يَبْقَى مِنْهُ لِيُعَادَ تَرْكِيبُ الْخَلْقِ عَلَيْهِ.(٢)

❁ قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْعَجْبُ بِفَتْحِ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْجِيمِ بَعْدَهَا مُوَحَّدَةٌ وَيُقَالُ لَهُ عَجْمٌ بِالْمِيمِ أَيْضًا عِوَضَ الْبَاءِ وَهُوَ عَظْمٌ لَطِيفٌ فِي أَصْلِ الصُّلْبِ وَهُوَ رَأْسُ الْعُصْعُصِ وَهُوَ مَكَانُ رَأْسِ الذَّنَبِ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ ...

قَالَ بن الْجَوْزِيّ: قَالَ بن عُقَيْلٍ: لِلَّهِ فِي هَذَا سِرٌّ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ لِأَنَّ مَنْ يُظْهِرُ الْوُجُودَ مِنَ الْعَدَمِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ يَبْنِي عَلَيْهِ..(٣)

وَالشَّاهِدُ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ وَأُدْخِلَ إِلَى قَبْرِه، أَنَّ التُّرَابَ يَأْكُلُ ذَلِكَ الْجَسَدَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٢) "شرح مسلم" عند الحديث السابق.

(٣) "فتح الباري" لابن حجر (٨/ ٥٥٢).

❁ وقال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَزَعَمَ بَعْضُ الشُّرَّاحِ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ لَا يَبْلَى أَيْ يَطُولُ بَقَاؤُهُ لَا أَنَّهُ لَا يَفْنَى أَصْلًا وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّهُ قَاعِدَةُ بَدْءِ الْإِنْسَانِ وَأُسِّهِ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ فَهُوَ أَصْلَبُ مِنَ الْجَمِيعِ كَقَاعِدَةِ الْجِدَارِ وَإِذَا كَانَ أَصْلَبَ كَانَ أَدْوَمَ بَقَاءً وَهَذَا مَرْدُودٌ لِأَنَّهُ خِلَافُ الظَّاهِرِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ.(١)

وهل هذا الحديث عام لجميعِ الناس؟

❁ قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا عَامٌّ يُخَصُّ مِنْهُ الْأَنْبِيَاءُ؛ لِأَن الأَرْض لَا تَأْكُل أَجْسَادهم، وَأَلْحق ابن عَبْدِ الْبَرِّ بِهِمُ الشُّهَدَاءَ وَالْقُرْطُبِيُّ الْمُؤَذِّنَ الْمُحْتَسِبَ. قَالَ عِيَاض: فَتَأْوِيل الْخَبَر وَهُوَ كل بن آدم يَأْكُلهُ التُّرَاب، أَي: كل بن آدَمَ مِمَّا يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، وَإِنْ كَانَ التُّرَابُ لَا يَأْكُلُ أَجْسَادًا كَثِيرَةً كَالْأَنْبِيَاءِ.(٢)

❁ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذَا مَخْصُوصٌ فَيُخَصُّ مِنْهُ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَهُمْ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ.(٣)

وَالْحَدِيثُ الْوَارِدُ فِي ذَلِكَ حَدِيثُ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ».(٤)

❁ فقَالَ الأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ليس هناك دليل في الشرع يخبرنا أن أجساد الشهداء لا تفنى كأجساد الأنبياء**، عندنا نصٌ أن اللهَ عز وجل حرمَ على الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ،

---

(١) "فتح الباري" لابن حجر (٨/ ٥٥٣).

(٢) "فتح الباري" لابن حجر (٨/ ٥٥٣).

(٣) "شرح مسلم" عند الحديث السابق.

(٤) رواه أبو داود (١٠٤٧)، (١٥٣١)، وابن ماجه (١٦٣٦). وصححه الألباني كما في "مشكاة المصابيح"(١٣٦١)، وغيره.

مثل هذا النص بالنسبة للشهداء لا يوجد إطلاقاً، لكن الذي وقع أن في التاريخ الإسلامي الأول بسبب حفريات اكتشفوا جثث بعض الشهداء كما هي، هذا صحيح وقع.

لكن هذا لا يعطينا قاعدة أولاً: أن كل شهيد لا يبلى جسده، بل قد وجدت بعض الأجساد لغير شهداء، وهذا كما قلت آنفاً بيحوز تكون، إما الأمر يعود إلى طبيعة الأرض، أو أن الله عز وجل العليم بأحوال الموتى فقد يكرم بعضهم بأن يبقي جسده كما كان في ... حياته، تكون كرامةً من الله لذاك الإنسان سواء كان شهيداً، أو كان صالحاً غير شهيد، **لكن ما يجوز أن نأخذ من ذلك قاعدة، فلا نَقُولُ عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُ ، نَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ، أَمَّا غَيْرُ الأَنْبِيَاءِ فَلَا دَلِيلَ مَعَنَا بِأَنَّ أَجْسَادَهُمْ تَبْقَى.**(١)

❁ وَقَالَ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذه خاصة بالأنبياء، هم الذين نجزم بأن الأرض لا تأكل منهم شيئاً، أي: أنهم يبقون كما ماتوا تماماً، **أَمَّا الشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ وَالصَّالِحُونَ، فَهَؤُلَاءِ قَدْ لَا تَأْكُلُهُمُ الأَرْضُ بَعْضُهُمْ كَرَامَةً لَهُمْ**، وَإِلَّا فَالأَصْلُ أَنَّهَا تَأْكُلُ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا عَجْبُ الذَّنَبِ، إِلَّا عَجْبُ الذَّنَبِ، وَالأَصْلُ أَنَّهَا تَأْكُلُ، أَيْ تَأْكُلُ أَجْسَادَهُمْ، تَأْكُلُهَا، وَلَا يَبْقَى إِلَّا عَجْبُ الذَّنَبِ. -وهو: أسفل الذنب- فيه حبة (خرزة) تشبه النواة أو أقل، هذه بإذن الله لا تأكلها الأرض، تبقى بذرة للأجساد عند إحيائها في البعث كما جاء بذلك الحديث، لأن الله تعالى جعل لكل شيء سبباً، وإلا فهو قادر على أن يخلق الإنسان وإن لم يبق شيء من جسده الأول، **لكن قد يوجد بعض الصديقين أو الشهداء أو الصالحين من لا تأكلهم الأرض كرامة لهم.**

---

(١) "موسوعة الألباني في العقيدة" (٨/ ١٥٣).

حدثني بعض الناس أنهم لما أرادوا أن يجعلوا على هذه البلدة عنيزة سوراً حفروا لأجل أساس الجدار، فوقعوا على قبر، فوجدوا صاحب القبر يابساً، كفنه أكلته الأرض وهو يابس ولم يفقد منه شيء حتى لحيته كانت محناة مصبوغة بالحناء فكانت على ما كانت عليه، لم تتساقط، وفاح عليهم رائحة طيبة لا يوجد لها نظير في الدنيا، وكان القاضي في ذلك الوقت في البلد عبد الله بن عبد الرحمن بابطين رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي له حاشية على الروض المربع، فأتوا إلى الشيخ، وقالوا: القضية كذا وكذا، وإننا حفرنا ووقعنا على هذا القبر، فماذا نصنع أنرده على حاله، أم ننقله؟ فأمرهم أن يردوه على حاله، وأن يعطفوا السور من خلفه أو من أمامه لا أدري الآن، فهذا دليل على أن الأرض قد لا تأكل أجساد بعض الناس، وَقَالَ: الْمُهِمُّ كُلُّ الْمُهِمِّ أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ مُنَعَّمًا فِي قَبْرِهِ، بَقِيَ الْجَسَدُ أَوْ لَمْ يَبْقَ.(١)

فَقَدْ يُكْرِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الشُّهَدَاءَ بِبَقَاءِ أَجْسَادِهِمْ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ لِلْمُطَّلِعِ عَلَى ذَلِكَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

❁ قال صاحبُ "المنهل العذب المورود": وألحق بعضهم شهداء المعركة الذين قاتلوا لإعلاء كلمة الله عَزَّ وَجَلَّ بالأنبياء في ذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ آل عمران [١٦٩]. ولما ذكره بعض المفسرين من أن معاوية لما أراد أن يجري العين على قبور الشهداء أمر بأن ينادي من كان له قتيل فليخرجه من هذا الموضع قال جابر فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان فأصابت المسحاة "الفأس" أصبع رجل منهم فقطرت دمًا.

---

(١) "لقاء الباب المفتوح "(٢٠٤/ ١٠، بترقيم الشاملة آليا).

وفيه أن مثل هذا لا يثبت بالقياس إذ فرق كبير بين الأنبياء وغيرهم. والآية ليست نصًا في أن الأرض لا تأكل أجساد الشهداء.

وأكثر المحققين على أن حياة الشهداء بالروح والجسد بحالة لا ندركها في هذه الدار...

وما ذكره جابر "من أنهم أخرجوا أجساد الشهداء رطابًا وأن أحدهم أصابته المسحاة فقطر أصبعه دمًا "فعلي فرض صحته" لا يستلزم اطراد عدم أكل الأرض لجسد كل شهيد بل لايستلزم عدم أكلها لأجساد أوليك الشهداء أنفسهم على ممرّ المئات والآلاف من السنين. وبالجملة، فلم تقف على دليل صريح صحيح يفيد أن الأرض لاتأكل أجساد الشهداء.[١]

❁ قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَظَاهِرُ هَذَا الْحَدِيثِ وَعُمُومُهُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ بَنُو آدَمَ فِي ذَلِكَ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ فِي أَجْسَادِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَجْسَادِ الشُّهَدَاءِ أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُهُمْ وَحَسْبُكَ مَا جَاءَ فِي شُهَدَاءِ أُحُدٍ وَغَيْرِهِمْ.

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّفْظَ فِي ذَلِكَ لَفْظُ عُمُومٍ يُرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَكَأَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مَنْ تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ فَإِنَّهُ لَا يُؤْكَلُ مِنْهُ عَجْبُ الذَّنَبِ،

وَإِذَا جَازَ أَنْ لَا تَأْكُلَ الْأَرْضُ عَجْبَ الذَّنَبِ جَازَ أَنْ لَا تَأْكُلَ الشُّهَدَاءَ، وَذَلِكَ كُلُّهُ حُكْمُ اللَّهِ وَحِكْمَتُهُ وَلَيْسَ فِي حُكْمِهِ إِلَّا مَا شَاءَ وَإِنَّمَا يُعْرَفُ مِنْ هَذَا مَا عَرَفْنَا بِهِ وَيُسَلَّمُ لَهُ إِذَا جَهِلَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ وَلَكِنَّهُ قَوْلُ مَنْ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.[٢]

---

(١) "المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود" (٦/ ١٨٧).

(٢) "الاستذكار" (٣/ ٨٩).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد شوهد هذا فيمن اطُّلع عليه من الشهداء، فوُجدوا كما دُفنوا بعد آماد طويلة، كما ذكر في السير وغيرها.(١)

وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ الْوَاقِعُ، أَنَّ أَجْسَادَهُمْ تَبْقَى، وَإِنْ لَمْ تَبْقَ دَوْمًا، فَقَدْ تَبْقَى فَتْرَةً أكثر مِنْ غَيْرِهِمْ.

فَالشَّاهِدُ أَنَّ الشُّهَدَاءَ أَجْسَادُهُمْ تَبْقَى أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ هُمْ مِنْ غَيْرِ الأَنْبِيَاءِ وَالشُّهَدَاءِ.

وَلَا دَلِيلَ بِخُصُوصِهِ صريحاً يعتمدُ عليهِ، وَلَكِنْ قَدْ جَاءَ فِي ذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِشُهَدَاءِ أُحُد، وَأَيْضًا الوَاقِعُ وَالنَّاظِرُ فِي التَّارِيخِ يَجِدُ كَلَامًا كَثِيرًا حَوْلَ هَذَا. وَبَعْضُهُمْ أَضَافَ إِلَى ذلك المُؤَذِّنَ المُحْتَسِبَ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الأَرْضَ لَا تَأْكُلُ جَسَدَهُ.

جاء حديث، «الْمُؤَذِّنُ الْمُحْتَسِبُ كَالشَّهِيدِ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ أَذَانِهِ، وَيَشْهَدُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ وَإِذَا مَاتَ لَمْ يُدَوَّدْ فِي قَبْرِهِ»، وهو ضعيفٌ لا يثبت.(٢)

قَالَ: "وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ". الأَرْضُ أَنْتَ تطعمُ مِنْهَا اليَوْمَ، وتأكلُ وتشربُ. وَغَدًا هِيَ سَتَطْعمُ مِنْكَ، وَستطعمُكَ وَتَأْكُلُ جَسَدَكَ. "سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا"

لِذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ، لَيْسَتِ العِبْرَةُ بِنَحَافَةِ الأَجْسَادِ أَوْ سَمْنِهَا. نَحِيفُ الجِسْمِ وَسَمِينُ الجِسْمِ كُلُّهُمْ مَآلُهُمْ إِلَى التُّرَابِ، إِلَى الدُّودِ. وَقَدْ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَءُوا فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا».(٣)

---

(١) "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم" (٧/ ٣٠٧).

(٢) انظر "سلسلة الأحاديث الضعيفة" رقم، (٨٥٢)، و (٨٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

وَيَأْتِي ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَعَ خِفَّةِ وَزْنِهِ وَدِقَّةِ سَاقَيْهِ، وهما أثقل من أحد.

فقد جاء عند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ».(١)

فَقَلَّلَتَ الأَكْلَ أَوْ كَثَّرْتَهُ، فَمَآلُ ذَلِكَ الجَسَد إِلَى التُّرَابِ وَإِلَى الدُّودِ. وَإِنَّمَا اعْتَنِي بِصَلَاحِ قَلْبِكَ وَصَلَاحِ جَوَارِحِكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَأَطِبِ المَطْعَمَ وَالمَشْرَبَ.

(١) أخرجه أحمد (٣٩٩١).

البيت رقم ٥٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَاباً ... وَتُكْسَى إِنْ مَلاَبِسَهَا خَلَعْتَا

شرح البيت رقم ٥٠

"وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَاباً"، مَهْمَا تَجَمَّلْتَ بِالمَلَابِسِ وَتَزَيَّنْتَ بِهَا، فَسَوْفَ تَعْرَى مِنْهَا، وَتُجَرَّدُ مِنْ جَمِيعِ ثِيَابِكَ، وَتُدْفَنُ فِي الكَفَنِ الأَبْيَضِ الَّذِي قَدْ أُعِدَّ لِلْمَوْتَى.

وَمَهْمَا تَجَمَّلْتَ بِالمَلَابِسِ وَالثِّيَابِ، وَلَمْ تَكُنْ مُتَجَمِّلًا بِالخَيْرِ، وَالعِلْمِ، وَالآدَابِ، فَأَنْتَ كَالعُرْيَانِ الَّذِي لَا يَلْبَسُ شَيْئًا.

❁ تَقَدَّمَ مَعَنَا:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى ... تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيَا

وَخَيْرُ لِبَاسِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ ... وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيَا

"وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَاباً" وَلَا يعني ذَلِكَ أَنَّ الإِنْسَانَ يَتَعَرَّى مِنَ الثِّيَابِ، لَا، بَلْ أُمِرَ عَلَى الوُجُوبِ أَنْ يَسْتُرَ عَورته.

وَإِنَّمَا المَرَادُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الإِنْسَانَ مَهْمَا لَبِسَ مِنْ مَلَابِسَ، وَتَجَمَّلَ وَتَزَيَّنَ بِهَا، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى اسْتِقَامَةٍ وَعَلَى دِينٍ، فَإِنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ تِلْكَ المَلَابِسِ الَّتِي تَجَمَّلَ بِهَا. مَعَ أَنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَال، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ».(١)

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُلَازِمَ تَقْوَى اللَّهِ وَالِاسْتِقَامَةَ وَالْعِلْمَ النَّافِعَ، وَيَعْلَمَ أَنَّهُ مَهْمَا لَبِسَ فَمَآلُهُ أَنْ يُجَرَّدَ مِنْ هَذِهِ الثِّيَابِ، فَيُسَلَّمَ لِلْمُغَسِّلِ وَالْمُكَفِّنِ.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الفِتَنِ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الخَزَائِنِ، أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الحُجَرِ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ».(١) عَارِيَة مِنَ الْحَسَنَاتِ، عَارِيَة مِنَ الطَّاعَاتِ، عارية من الحشمة، عَارِيَةٍ مِنَ الأَجْرِ وَالثَّوَابِ في الآخرة.

❁ قال ابنُ بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: يريدُ كاسية بالثياب الواصفة لأجسامهن لغيرِ أزواجهن، ومن يحرم عليه النظر إلى ذلك منهن، وهن عاريات في الحقيقة فربما عوقبت في الآخرة بالتعري الذي كانت إليه مائلة في الدنيا، مباهية بحسنها، فعرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أن الصلاة تعصمُ من شرِ ذلك.(٢)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».(٣)

وَاخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ "**كَاسِيَةٍ، وَعَارِيَةٍ**" عَلَى أَوْجُهٍ:

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥)، (١١٢٦)، (٦٢١٨)، (٧٠٦٩).

(٢) "شرح صحيح البخاري" لابن بطال (٣/ ١١٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٢٨).

أَحَدُهَا: كَاسِيَةٌ فِي الدُّنْيَا بِالثِّيَابِ؛ لِوُجُودِ الْغِنَى عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ؛ لِعَدَمِ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا.

ثَانِيهَا: كَاسِيَةٌ بِالثِّيَابِ لَكِنَّهَا شَفَّافَةٌ لَا تَسْتُرُ عَوْرَتَهَا فَتُعَاقَبُ فِي الْآخِرَةِ بِالْعُرْيِ جَزَاءً عَلَى ذَلِكَ.

ثَالِثُهَا: كَاسِيَةٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَارِيَةٌ مِنَ الشُّكْرِ الَّذِي تَظْهَرُ ثَمَرَتُهُ فِي الْآخِرَةِ بِالثَّوَابِ.

رَابِعُهَا: كَاسِيَةٌ جَسَدَهَا لَكِنَّهَا تَشُدُّ خِمَارَهَا مِنْ وَرَائِهَا فَيَبْدُو صَدْرُهَا فَتَصِيرُ عَارِيَةً فَتُعَاقَبُ فِي الْآخِرَةِ.

خَامِسُهَا: كَاسِيَةٌ مِنْ خِلْعَةِ التَّزَوُّجِ بِالرَّجُلِ الصَّالِحِ عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَمَلِ فَلَا يَنْفَعُهَا صَلَاحُ زَوْجِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ المؤمنون [١٠١].

ذَكَرَ هَذَا الْأَخِيرَ الطِّيبِيُّ وَرَجَّحَهُ لِمُنَاسَبَةِ الْمَقَامِ وَاللَّفْظَةُ وَإِنْ وَرَدَتْ فِي أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَكِنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ وَقَدْ سَبَقَ لِنَحْوِهِ الدَّاوُدِيُّ فَقَالَ: كَاسِيَةٌ لِلشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا لِكَوْنِهَا أَهْلَ التَّشْرِيفِ وَعَارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ عَارِيَةً فِي النَّارِ. (١)

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَسْتُرُ بَعْضَ بَدَنِهَا وَتَكْشِفُ بَعْضَهُ إِظْهَارًا بِحَالِهَا وَنَحْوِهِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَلْبَسُ ثَوْبًا رَقِيقًا يَصِفُ لَوْنَ بَدَنِهَا. (٢)

---

(١) "فتح الباري" لابن حجر (١٣/ ٢٣)

(٢) "شرح مسلم" للنووي عند هذا الحديث.

وَلِلْأَسَفِ الشَّدِيدِ صَارَ كَثِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ اليَوْمَ عَلَى هَذَا الحَالِ، كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، إِنْ غَطَّيْنَ البَعْضَ مِنْ جَسَدِهِنَّ كَشَفْنَ البَعْضَ الآخَرَ، أَوْ ثِيَابٌ رَقِيقَةٌ، ثِيَابٌ تَدْعُو إِلَى الفِتْنَة، والمُنْكَرِ وَالفَاحِشَةِ.

"وَتُكْسَى إِنْ مَلاَبِسَهَا خَلعْتَا" إِذَا ابْتَعَدْتَ عَنِ الدُّنْيَا فَلَمْ تَجْعَلْهَا لَكَ لِبَاسًا مُلَازِمًا لَكَ، فَإِنَّكَ تُكْسَى لِبَاسَ التَّقْوَى إِذَا ابْتَعَدْتَ عَنِ الدُّنْيَا لِلَّهِ وَمِنْ أَجْلِ طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا. وَتُكْسَى إِنْ مَلَابِسُهَا، أَيْ: إِنْ لَمْ تَلْبَسِ الدُّنْيَا، شَبَّهَهَا وَجَعَلْهَا كَاللِّبَاسِ الَّذِي يُلْبَسُ، فَإِذَا خَلَعْتَ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَمْ تَنْهَمِكْ فِيهَا، وَتَجْعَلْهَا لَكَ لِبَاسًا، أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِبَاسًا أَفْضَلَ مِنْ لِبَاسِ الدُّنْيَا، ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ الأعراف [٢٦]. الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ لِبَاسٍ وَأَفْضَلُهُ.

فَاعْمَلْ لِتِلْكَ الدَّارِ الأُخْرَوِيَّةِ بِالطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ وَلَا تَنْهَمِكْ فِي الدُّنْيَا فَهِيَ ذَاهِبَةٌ.

فَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ المُسْتَقِيمِينَ النَّعِيمَ المُقِيمَ، وَاللِّبَاسَ الحَسَنَ، وَالزِّينَةَ التَّامَّةَ. ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴾ طه [١١٨]. وَذَلِكَ فِي جَنَّةِ اللَّهِ جَلَّ وعلا.

فَتَزَيَّنْ بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَالْبَسْ لِبَاسَ التَّقْوَى؛ لِتُحَلَّى يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الحُلَلِ وَالأَسَاوِرِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ الحجرات [٧].

فمن زَيَّنَ اللهُ الإيمانَ في قلبِهِ، وكانت التقوى هي لِباسُهُ وزادُهُ، فإن اللهَ يُلبِسُهُ يوم القيامة من الثياب الجميلة الأنيقة.

وَقَالَ:﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ فاطر [٣٣].

وَقَالَ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ الحج [٢٣].

وقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ الدخان [٥١-٥٣].

بخلاف غيرهم ممن أعرضوا عن دين الله، وشرعه، فحياتهم في شقاء دنيا وأخرى فلباسهم، وفرشهم، وأغطيتُهم من نار قال الله تعالى:﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴾ الحج [١٩].

ويقول تعالى:﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ابراهيم [٤٩، ٥٠].

ويقول:﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأعراف [٤١].

البيت رقم ٥١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتَشْـــهَـدُ كُـلَّ يَـوْمٍ دَفْـنَ خِـلٍّ ... كَـأَنَّـكَ لاَ تُـرَادُ لِمَـا شَـــهِـدْتَـا

شرح البيت رقم ٥١

"وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ" أَيْ: تَحْضُرُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ صَاحِبٍ. وَمَعْنَى تَشْهَدُ: تَحْضُرُ، فَقَدْ يَأْتِي الشُّهُودُ بِمَعْنَى الحُضُورِ. ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ الفرقان [٧٢]. أَيْ: لَا يَحْضُرُونَ أَمَاكِنَ الزُّورِ وَهِيَ: أَمَاكِنُ اللَّهْوِ البَاطِلِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ:﴿ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ الفرقان [٧٢]. وَلَمْ يَقُلْ "بِالزُّورِ".

كُلَّ يَوْمٍ تَحْضُرُ دَفْنَ خِلٍّ وَصَاحِبٍ لَكَ، ثُمَّ لَا تَعْتَبِرُ بِهَذَا المَشْهَدِ، وَأَنَّكَ سَتَمُوتُ قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ آل عمران [١٨٥].

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ لقمان [٣٤].

❁ وَكَمَا قِيلَ:(١)

لاَ طِيـبَ لِلعَيشِ مَـا دَامَـتْ مُنَغَّصَـةً ... لـذَّاتُـهُ بِـادِّكَـارِ المَـوْتِ والهَـرَمِ

❁ قَالَ إِسْحَاقُ بنُ أَحْمَدَ بنِ خَلَفٍ: كُنَّا عِنْدَ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ البُخَارِيِّ، فَوَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابٌ فِيْهِ نَعْيُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَنَكَّسَ رَأْسَهُ، ثُمَّ رَفَعَ، وَاسْتَرْجَعَ، وَجَعَلَ تَسِيْلُ دُمُوْعُهُ عَلَى خَدَّيْهِ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُوْلُ:

إِنْ تَـبْـقَ تُـفْـجَـعْ بِـالأَحِـبَّـةِ كُـلِّـهِـمْ ... وَفَـنَـاءُ نَـفْـسِـكَ لا أَبَـا لَـكَ أَفْـجَـعُ

(١) "شرح قطر الندى وبل الصدى" (صـ: ١٣١).

قَالَ إِسْحَاقُ بنُ أَحْمَدَ: ومَا سَمِعنَاهُ يُنْشِدُ إِلاَّ مَا يَجِيْءُ فِي الحَدِيْثِ.(١)

❁ قَالَ أَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنِّي لَأُخْبَرُ بِمَوْتِ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فَكَأَنَّمَا أَفْقِدُ بَعْضَ أَعْضَائِي.(٢)

❁ وقال بعضُهم:(٣)

لَعمرُكَ ما الرَّزِيَّة هدمُ دارٍ ... ولا فرسٌ يموتُ ولا بعيرُ

ولكنَّ الرزيَّةَ موتُ حُرٍّ ... يموتُ بفقده بشرٌ كثيرُ

هَذَا يَكُونُ الأَثَرُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ، وَإِلَّا فَالمَوْتُ فِيهِ عِبْرَةٌ، وعِظَةٌ، كَائِنًا الميتُ مَنْ كَانَ، إِلَّا أَنَّهُ بِمَوْتِ أَهْلِ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ يَعْظُمُ المُصَابُ وَالخَطْبُ.

فَقَدْ جَاءَ عِنْدَ الإِمَامِ البُخَارِيِّ عَنْ مِرْدَاسٍ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ، الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ، أَوِ التَّمْرِ، لاَ يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بَالَةً» قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «يُقَالُ حُفَالَةٌ وَحُثَالَةٌ».(٤)

---

(١) "تاريخ دمشق" (٢٩/ ٣١٩)، و" تهذيب الكمال" (١٥/ ٢١٧)، و "سير أعلام النبلاء" (٩/ ٥٥٩).

(٢) أخرجه أحمد في "العلل" ومن طريقه البيهقي في "الزهد الكبير" (٥٣٥)، من طريق سفيان بن عيينة، عن أيوب قال: «إِنَّهُ لَيَبْلُغُنِي مَوْتُ الرَّجُلِ مِنْ إِخْوَانِي فَكَأَنَّهُ يَسْقُطُ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِي»، وسنده صحيح.

وأخرجه ابن معين "الجزء الثاني من حديث يحيى بن معين الفوائد" (صـ: ١٧٩)، وأبو طاهر المخلص في "المخلصيات" (٣/ ١٦٩)، واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" (١/ ٦٦)، وابن عدي في "الكامل" (١٤٥/١) من طريق أَبِي أُسَامَةَ، حَدَّثَنِي حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، قَالَ: قَالَ أَيُّوبُ، فذكره، وسنده صحيح، وعندهم (من أهل السنة).

وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٩/٣)، بسند حسن،

(٣) "الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر "(١/ ٣٢٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤١٥٦)، (٦٤٣٤).

❁ قَالَ القُرْطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فاعلم: أَنّ المَوْتَ هُوَ الخَطْبُ الأَفْظَعُ، وَالأَمْرُ الأَشْنَعُ، وَالكَأْسُ الَّتِي طَعْمُهَا أَكْرَهُ وَأَبْشَعُ، وَإِنَّهُ الْحَادِث الهادم للذات، والأقطع للراحات والأجلب للكريهات،

وَإِن أَمْراً يقطعُ أوصالَك، وَيُفرقُ أَعضاءَكَ، ويفتتُ أعضادكَ، ويهدُ أركانَك لَهو الْأَمر الْعَظِيم، والخطبُ الجسيم، وَإِن يَوْمَه لَهو الْيَوْمُ الْعَقِيم. (١)

❁ قَالَ ابْنُ الوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كُتِبَ الموت على الخَلقِ فكمْ ... فلَّ مِنْ جَيْشٍ وأفنى مِنْ دُوَلْ
أَيْنَ نَمْرُودُ وَكَنْعَانُ وَمَنْ ... مَلَكَ الأَرْضَ وَوَلَّى وَعَزَلْ
أينَ عادٌ أينَ فرعونُ ومَنْ ... رَفَعَ الأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ
أينَ مَنْ سَادُوا وشَادُوا وبَنوا ... هلكَ الكلُّ ولمْ تغنِ القللْ
أينَ أربابُ الحِجَى أهلُ النُّهى ... أينَ أهلُ العلمِ والقومُ الأُوَلْ
سيعيدُ اللهُ كلاً منهمُ ... وَسيَجزِي فَاعِلاً ما قد فَعَلْ

❁ وقال يزيد العبدي:(٢)

هَلْ لِلفَتَى مِنْ بنَاتِ الدَّهْرِ من وَاقِ ... أمْ هَلْ لَهُ مِن حَمامِ المَوتِ مِنْ رَاقِ

{وَمَا ظَنك رَحِمك الله بنازل ينزل بك فَيذْهب رونقك وبهاءك، ويغير منظرك ورواءك، ويمحو صُورَة جمالك، وَيمْنَع من اجتماعك واتصالك، ويردك بعد النِّعْمَة والنضرة والسطوة وَالْقُدْرَة والنخوة والعزة إِلَى حَالَة يُبَادر فِيهَا أحب النَّاس لَك وأرحمهم بك

(١) "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة "(صـ: ١٦٥).

(٢) الأوائل للعسكري (صـ: ١٣٦)، وقال: أول من رثى نفسه يزيد: وهو ابن حذاق العبدي، وشعره أول شعر قيل في ذم الدنيا.

وأعطفهم عَلَيْك فيقذفك فِي حُفْرَة من الأَرْض قريبَة أنحاؤها، مظْلمَة أرجاؤها، مُحكم عَلَيْك حجرها، وصيدانها، متحكم فِيك هوامها وديدانها، ثمَّ بعد ذَلِك يتَمَكَّن مِنْك، الإعدام، وتختلط بالرغام، وَتصير تُرَابا تطؤه الْأَقْدَام، وَرُبمَا ضرب مِنْك إِنَاء فخار، أَو أحكم مِنْك بِنَاء جِدَار، أَو طُلي مِنْك محبس مَاء، أَو موقد نَار}.(١)

❁ قَالَ الحَسَنُ عَلَيْهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَضَحَ المَوْتُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتْرُكْ لِذِي لُبٍّ فَرَحًا». (٢)

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ المَوْتِ قَلَّ فَرَحُهُ وَقَلَّ حَسَدُهُ». (٣)

وَلِهَذَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ». (٤)

ورُوِيَ بلفظ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ فِي ضِيقٍ إِلَّا وُسِّعَ عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ». (٥)

---

(١) "العاقبة في ذكر الموت "(صـ: ٣٦).

(٢) صحيح، أخرجه أحمد في "الزهد"(١٤٤٨)، والبيهقي في "الزهد الكبير"(٥٥٤). وأبو نعيم في "حلية الأولياء"(٢/ ١٤٩)، وابن أبي الدنيا في "قصر الأمل"(٢٢١)، من طرق عنه.

(٣) **منقطع**، أخرجه ابن المبارك في "الزهد"(١٤٩)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء"(١/ ٢٢٠)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٥٧٢٥)، من طريق عبد الملك بن عمير عنه، ولم يسمع منه. وأخرجه أحمد في "الزهد"(٧٦٨)، عنه بلفظ: (إِنَّ مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ قَلَّ حَسَدُهُ وَبَغْيُهُ)، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في "الحلية"(١/٢٢٠)، من طريق إبراهيم التيمي عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٢٥)، والترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨) والحاكم (٧٩٠٩)، والبيهقي في "الشعب"(١٠٠٧٥)، (١٠٠٧٦)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في " الإرواء" (رقم:٦٢٨)

(٥) قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وزاد الأزجي: " فما ذكره أحد في سعة إلا ضيقها عليه، ولا في ضيق إلا وسعه عليه". وإسنادها واهٍ جدا، فيه محمد بن يونس الكديمي وهو متهم بالوضع، لكن رواه ابن حبان من طريق أخرى عن محمد بن عمرو به. **فإسنادها حسن أيضا.**

{بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ أَيْ: قَاطِعِهَا، وَفِي نُسْخَةٍ بِالْمُهْمَلَةِ أَيْ: كَاسِرِهَا. وَقَالَ الشَّيْخُ الْجَزَرِيُّ: هَادِمٌ يُرْوَى بِالدَّالِ الْمُهْمَلَةِ أَيْ: دَافِعُهَا أَوْ مُخَرِّبُهَا وَبِالْمُعْجَمَةِ أَيْ: قَاطِعُهَا، وَاخْتَارَ بَعْضٌ مِنْ مَشَايِخِنَا وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُصَحِّحِ الْخِطَابَ غَيْرُهُ وَجَعَلَ الْأَوَّلَ مِنْ غَلَطِ الرُّوَاةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ}.(١)

{قَالَ السُّيُوطِيُّ: بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ، أَيْ: قَاطِعُهَا. قُلْتُ: وَيُحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِالدَّالِ الْمُهْمَلَةِ، وَالْمُرَادُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ الْمَوْتُ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ لَذَّاتِ الدُّنْيَا قَطْعًا، ثُمَّ إِنْ كَانَ الْمَيِّتُ مِنَ الْأَخْيَارِ تَكُونُ لَهُ وَصْلَةٌ إِلَى لَذَّاتِ الْآخِرَةِ أَيْضًا}.(٢)

❁ قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة وأبلغ في الموعظة فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة، ومنعه من تمنيها في المستقبل وزهده فيما كان منها يؤمل، ولكن النفوس الراكدة، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ، وتزويق الألفاظ، وإلا ففي قوله عليه الصلاة والسلام: « أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ» مع قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾ آل عمران [١٨٥].ما يكفي السامع له، ويشغل الناظر فيه... فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان في حال ضيق ومحنة.

فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه، فإنه لا يدوم.

---

(١) "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" (٣/ ١١٦٠).

(٢) كما في "حاشية السندي على سنن ابن ماجه"(٢/ ٥٦٥).

والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسكون إليها، لقطعه عنها.(١)

❁ قَالَ بَعْضُهُمْ: (٢)

اذْكُرِ الْمَوْتَ وَدَاوِمْ ذِكْرَهُ ... إِنَّ فِي الْمَوْتِ لِذِي اللُّبِّ عِبَرْ
وَكَفَى بِالْمَوْتِ فَاعْلَمْ وَاعِظًا ... لِمَنِ الْمَوْتُ عَلَيْهِ قَدْ قَدَرْ

❁ قَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ هَذَا الْمَوْتَ قَدْ أَفْسَدَ عَلَى أَهْلِ النَّعِيمِ نَعِيمَهُمْ فَاطْلُبُوا نَعِيمًا لَا مَوْتَ فِيهِ». (٣)

❁ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: (٤)

هُوَ الْمَوْتُ لَا مَنْجَى مِنَ الْمَوْتِ وَالَّذِي ... نُحَاذِرُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَدْهَى وَأَفْظَعُ

❁ وَقَالَ آخَر: (٥)

كَيْفَ يَلَذُّ الْعَيْشُ مَنْ كَانَ مُوقِنًا ... بِأَنَّ الْمَنَايَا بَغْتَةً سَتُعَاجِلُهْ
وَكَيْفَ يَلَذُّ الْعَيْشُ مَنْ كَانَ مُوقِنًا ... بِأَنَّ إِلَهَ الْحَقِّ لَابُدَّ سَائِلُهْ

---

(١) "التذكرة" (صـ: ١٢٢).

(٢) "لطائف المعارف" (صـ: ١٠٠).

(٣) حسن، أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٥١٤٣)، من طريق إِسْحَاق بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ، عَنْ قَتَادَةَ، فذكره، وأبو جعفر الرازي، هو عيسى بن أبي عيسى ماهان، وثقه ابن معين، وقال أبوحاتم: ثقة، صدوق، وقال أحمد والنسائي: ليس بالقوي. وَقَالَ ابْنُ الْمَدِينِيِّ: ثِقَةٌ، كَانَ يَخْلِطُ، وَقَالَ مَرَّةً: يُكْتَبُ حَدِيْثُه، إِلاَّ أَنَّهُ يُخْطِئُ. وقال ابن حبان: ينفرد بالمناكير عن المشاهير. (ميزان الاعتدال" (٣/ ٣٢٠).

وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٢/ ٢٠٤)، من الطريق السابق، عن قتادة، عن مطرف بن عبد الله.

(٤) "تاريخ دمشق" لابن عساكر (٥٩/ ٢٢٧)، و"البداية والنهاية" ط هجر (١١/ ٤٥٧).

(٥) "لطائف المعارف" (صـ: ١٠٠).

❁ قَالَ يَزِيدُ بْنُ تَمِيمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَنْ لَمْ يَرْدَعْهُ المَوْتُ وَالقُرْآنُ، ثُمَّ تَنَاطَحَتْ عِنْدَهُ الجِبَالُ لَمْ يَرْتَدِعْ. (١)، وعزاهُ بعضُهم للحسن بن عبدالعزيز بن وزير .(٢)

وَذُكِرَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ المَوْتِ أُكْرِمَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: تَعْجِيلِ التَّوْبَةِ، وَقَنَاعَةِ القَلْبِ، وَالنَّشَاطِ فِي العِبَادَةِ. وَمَنْ نَسِيَ المَوْتَ عُوقِبَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: تَسْوِيفِ التَّوْبَةِ، وَتَرْكِ الرِّضَا بِالكَفَافِ، وَالتَّكَاسُلِ فِي العِبَادَةِ. (٣)

❁ قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:(٤)

أَتَيْتُ القُبُورَ فَنَادَيْتُهَا ... أَيْنَ المُعَظَّمُ وَالمُحْتَقَرُ
وَأَيْنَ المُدِلُّ بِسُلْطَانِهِ ... وَأَيْنَ المُزَكَّى إِذَا مَا افْتَخَرَ

قَالَ: فَنُودِيتُ مِنْ بَيْنِهَا وَلَمْ أَرَ أَحَدًا:

تَفَانَوْا جَمِيعًا فَمَا مُخْبِرٌ ... وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الخَبَرْ
تَرُوحُ وتغدو بناتُ الثَّرى ... فَتَمْحُوا مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّوَرْ
فَيَا سَائِلِي عَنْ أُنَاسٍ مَضَوْا ... أَمَا لَكَ فِيمَا تَرَى مُعْتَبَرْ

---

(١) كما في "مواعظ ابن الجوزي"

(٢) "تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال" (٢/ ٢٩٢).

(٣) ذكره القرطبي عن الدقاق، في " التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" (صـ: ١٢٦)، ولم أره مسنداً.

(٤) أخرجه الدينوري في "المجالسة وجواهر العلم"(٥٨٨)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٥٦/ ٤١٦)، وفيه مَكِّيِّ بْنِ قُمَيْرٍ، قال العقيلي: مجهول بالنقل وحديثه غير محفوظ. كما في "لسان الميزان" ت أبي غدة (٨/ ١٥٠).

❁ كَانَ ابْنُ سِيرِينَ إِذَا أُخْبِرَ بِمَوْتِ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ كَأَنَّهُ سَقَطَ مِنْهُ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِهِ وَرُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهِ أَوْ نَحْوُ ذَا.(١)

❁ وكَانَ ابْنُ سِيرِينَ إِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ الْمَوْتُ مَاتَ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ عَلَى حِيَالِهِ أَوْ عَلَى حِدَتِهِ.(٢)

❁ وَقَالَ التَّيْمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: شَيْئَانِ قَطَعَا عَنِّي لَذَّةَ الدُّنْيَا: ذِكْرُ المَوْتِ وَذِكْرُ الوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.(٣)

جَاءَ عِنْدَ الإِمَامِ أحمد، وابن مَاجَه، واللفظ لأحمد، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذْ بَصُرَ بِجَمَاعَةٍ، فَقَالَ: «عَلَامَ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ؟» قِيلَ: عَلَى قَبْرٍ يَحْفِرُونَهُ. قَالَ: فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَبَدَرَ بَيْنَ يَدَيْ أَصْحَابِهِ مُسْرِعًا حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْقَبْرِ، فَجَثَا عَلَيْهِ. قَالَ: فَاسْتَقْبَلْتُهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لِأَنْظُرَ

---

(١) صحيح، أخرجه يعقوب بن سفيان في "المعرفة والتاريخ" (٢/ ٥٩)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق"(٥٣/٢١٧)، قال حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ: قَالَ أَيُّوبُ كَانَ ابْنُ سِيرِينَ فذكره.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في "اصطناع المعروف"(صـ: ٤٣)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٢/ ٢٧٢) وابن عساكر في "تاريخ دمشق"(٥٣/ ٢١٨)، من طريق زُهَيْر الْأَقْطَعِ قَالَ كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ... والصواب: دُهير، ويقال دهين: قال ابن ماكولا: أما دهير، بضم الدال وفتح الهاء فهو دهير الأقطع عن ابن سيرين. "الإكمال في رفع الارتياب" (٣/ ٣٤٠). ودُهير، رَوَى عَنه: ابن عُيَينة، مُنقَطِعٌ. "التاريخ الكبير" للبخاري بحواشي محمود خليل (٣/ ٢٥٧).
وقال عبد الله بن أحمد: حَدثني: أبي، قَالَ: حَدثنَا سُفْيَان، عَن دهير، قَالَ كَانَ بن سِيرِين، إِذا ذكر الْمَوْت مَاتَ كل عُضْو مِنْهُ على حِدته قيل لِسُفْيَان جَالس مُحَمَّدًا قَالَ لَا. "العلل ومعرفة الرجال"(١/ ١٦٥).
وله طريق أخرى، أخرجها البيهقي في "الزهد الكبير" (٥٥٧)، ومن طريق ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٥٣/٢١٨)، بلفظ: كَانَ ابْنُ سِيرِينَ «إِذَا ذُكِرَ الْمَوْتُ عِنْدَهُ مَاتَ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ»، بسندٍ صحيح.

(٣) أخرجه أبو نعيم في "الحلية"(٥/ ٨٩)، عن عبد الأعلى التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ، وفيه محمد بن الحسين البرجلاني، لم يوثقه سوى ابن حبان، وعزه بعضهم لإبراهيم التيمي.

مَا يَصْنَعُ، فَبَكَى حَتَّى بَلَّ الثَّرَى مِنْ دُمُوعِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا قَالَ: «أَيْ إِخْوَانِي لِمِثْلِ الْيَوْمِ فَأَعِدُّوا».(١)

❁ قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأجمعت الأمةُ على أن الموت ليس له سن معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم؛ وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، مستعداً لذلك.(٢)

❁ وقال صالح بن عبد القدوس: (٣)

وَالـرُّوْحُ فِـيْـكَ وَدِيْـعَـةٌ أُوْدِعْـتَـهَـا ... سَـتَرُدُّهَـا بـالـرَّغْـمِ مِـنْـكَ وَتُسْـلَـبُ
وَغُـرُورُ دُنْـيَـاكَ الـتـيْ تَسْـعَـى لَهَـا ... دَارٌ حَـقِـيْـقَـتُـهَـا مَـتَـاعٌ يَـذْهَـبُ
والـلَّـيْـلَ فـاعْـلَـمْ والـنَّـهَـارَ كِـلاَهُمَـا ... أَنْـفَـاسُـنَـا فِـيْـهَـا تُـعَـدُّ وَتَحْسَـبُ
وَجَـمِـيْـعُ مَـا خَـلَّـفْـتَـهُ وَجَـمَـعْـتَـهُ ... حَـقًّا يَـقِـيْـنًـا بَـعْـدَ مَـوْتِـكَ يُـنْـهَـبُ
تَـبًّـا لِـدَارٍ لاَ يَـدُوْمُ نَـعِـيْـمُـهَـا ... وَمَشِـيْـدُهَـا عَـمَّا قَـلِـيْـلٍ يَخْـرَبُ
وَعَـوَاقِـبُ الأَيَّـامِ فِي غُصَّـاتِهَـا ... مَضَـضٌ يَـذِلُّ لَهَـا الأَعَـزُّ الأَنْـجَـبُ

❁ وكان غيرُ واحدٍ من السلفِ، منهم

❁ سعيد بنُ جُبير(٤)،

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٦٠١)، وابن ماجه (٤١٦٥)، وغيرهم. وحسنه الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في "الصحيحة"(رقم:١٧٥١).

(٢) "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" (صـ: ١٢٤).

(٣) "نوادر الخلفاء"(صـ: ٢٦٢).

(٤) أخرجه أحمد في "الزهد"(٢١٦٨)، ومن طريقه أبو نعيم في "الحلية"(٤/ ٢٧٩)، كلاهما من طريق شُعَيْب بْنِ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ...وفيه كما ترى راوٍ مبهم.

❁ وربيع بنُ أبي راشد[١]

يَقُولُونَ: لو فارق ذكرُ الموت قلوبنا ساعة لفسدت قلوبُنا.[٢]

وَقَالَ: "وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ" ترى رحيل الناس وموتهم،

"كَأَنَّكَ لاَ تُرَادُ لِمَا شَهِدْتَا" كأنك ما سيكون هذا مصيرك وموردك فلا تعتبر ولا تتعظ.

---

(١) صحيح إليه، أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٥٤٣١)، وابن أبي الدنيا في "العزلة والانفراد"(١٣٠)، وأبو نعيم في "الحلية"(٥/٧٥)، من طريق حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْجُعْفِيُّ، ثنا مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ بِرَبِيعِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى صُنْدُوقٍ مِنْ صَنَادِيقِ الْحَدَّادِينَ فَقَالَ: لَوْ دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَجَالَسْتَ إِخْوَانَكَ، فَقَالَ لَهُ رَبِيعٌ: لَوْ فَارَقَ ذِكْرُ الْمَوْتِ قَلْبِي سَاعَةً خَشِيتُ أَنْ يَفْسُدَ قَلْبِي. والربيع نفسه ذكره ابن أبي حاتم، والبخاري ولم يذكرا فيه شيئا. "التاريخ الكبير"(٣/ ٢٧٣)، "الجرح والتعديل"(٣/ ٤٦١). ووثقه العجلي.

وأخرجه ابن المبارك في "الزهد"(٢٦٦)، ومن طريقه أبو نعيم في "الحلية"(٥/٧٦)، والبيهقي في "الزهد الكبير"(٥٦٤)، ويعقوب بن سفيان في "المعرفة والتاريخ"(٢/٧١٤). عن ابْنِ الْمُبَارَكِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَيْضًا مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ قَالَ: قِيلَ لِلرَّبِيعِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ...

وله طريق أخرى عند البيهقي في "الزهد الكبير"(٥٣٦)، بلفظ: «لَوْ فَارَقَ ذِكْرُ الْمَوْتِ قَلْبِي لَخَشِيتُ أَنْ يَفْسُدَ وَلَوْلَا أَنْ أُخَالِفَ مَنْ كَانَ قَبْلِي لَسَكَنْتُ الْجَبَّانَةَ حَتَّى أَمُوتَ». ورجاله محتج بهم، وهو من طريق سفيان بن عيينة يذكر عن الربيع... ولم أجد من ذكر لسفيان عنه رواية.

وله طريق أخرى أيضاً عند ابن أبي الدنيا في "العزلة والانفراد"(١٣١)، عَنْ خَلَفِ بْنِ حَوْشَبٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ ابْنِ أَبِي رَاشِدٍ فِي جَبَّانَةٍ، فَقَرَأَ رَجُلٌ: يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ [سورة الحج آية ٥].

فَقَالَ رَبِيعُ بْنُ أَبِي رَاشِدٍ: حَالَ ذِكْرُ الْمَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِمَّا أُرِيدُ مِنَ التِّجَارَةِ، وَلَوْ فَارَقَ ذِكْرُ الْمَوْتِ قَلْبِي سَاعَةً، لَخَشِيتُ أَنْ يَفْسَدَ عَلَيَّ قَلْبِي، وَلَوْلا أَنْ أُخَالِفَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، لَكَانَتِ الْجَبَّانَةُ مَسْكَنِي حَتَّى أَمُوتَ.

وفي "الحلية" لأبي نعيم (٢/١١٦)، عن مالك بن مغول عن حسن يعني ابن صالح قال: قيل للربيع بن خثيم...

وأخرجه ابن المبارك في "الزهد"(٢٦٠) قَالَ: قَالَ صَالِحٌ يَعْنِي الْمُرِّيَّ، فذكره، وصالحٌ نفسه متروك الحديث.

(٢) "مجموع رسائل ابن رجب"(١/ ٢٦٥). وعزاه الأشبيلي في "العاقبة"(صـ:٣٩) لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعزاه بعضهم أيضاً للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في "صب الخمول" لابن المبرد (صـ:٤٨)، و"محض الصواب"(١/٣٣٥) له أيضاً.

❁ قَالَ القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَتَفَكَّرْ يَا مَغْرُورُ فِي المَوْتِ وَسَكْرَتِهِ، وَصُعُوبَةِ كَأْسِهِ وَمَرَارَتِهِ. فَيَا لِلْمَوْتِ مِنْ وَعْدٍ مَا أَصْدَقَهُ، وَمِنْ حَاكِمٍ مَا أَعْدَلَهُ.

فَكَفَى بِالمَوْتِ مُقَرِّحًا لِلْقُلُوبِ، وَمُبْكِيًا لِلْعُيُونِ، وَمُفَرِّقًا لِلْجَمَاعَاتِ، وَهَادِمًا لِلَّذَّاتِ، وَقَاطِعًا لِلأُمَنِيّات. فَهَلَّا تَفَكَّرْتَ يَا ابْنَ آدَمَ فِي يَوْمِ مَصْرَعِكَ وَانْتِقَالِكَ مِنْ مَوْضِعِكَ

وَإِذَا نُقِلْتَ مِنْ سَعَةٍ إِلَى ضِيقٍ، وَخَانَكَ الصَّاحِبُ وَالرَّفِيقُ، وَهَجَرَكَ الأَخُ وَالصَّدِيقُ، وَأُخِذْتَ مِنْ فِرَاشِكَ وَغِطَائِكَ إِلَى عَرَرٍ، وَغَطَّوْكَ مِنْ بَعْدِ لِينِ لِحَافِكَ بِتُرَابٍ وَمَدَرٍ.

فَيَا جَامِعَ المَالِ وَالمُجْتَهِدَ فِي البُنْيَانِ، لَيْسَ لَكَ وَاللَّهِ مِنْ مَالٍ إِلَّا الأَكْفَانُ، بَلْ هِيَ وَاللَّهِ لِلْخَرَابِ وَالذَّهَابِ، وَجِسْمُكَ لِلتُّرَابِ وَالمَآبِ. فَأَيْنَ الَّذِي جَمَعْتَهُ مِنْ المَالِ؟ فَهَلْ أَنْقَذَكَ مِنَ الأَهْوَالِ؟ كَلَّا، بَلْ تَرَكْتَهُ إِلَى مَنْ لَا يَحْمَدُكَ، وَقَدَّمْتَ بِأَوْزَارِكَ عَلَى مَنْ لَا يَعْذِرُكَ. ولقد أَحْسَنَ مَن قَالَ فِي تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ القصص [٧٧]. أي: اطلب فيما أعطاك اللهُ من الدنيا، الدارَ الآخرة وهي الجنة، فإنَّ حقَ المؤمنِ أن يصرفَ الدنيا فيما ينفعه في الآخرةِ، لا في الطينِ والماءِ والتجبرِ والبغي، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: لَا تَنْسَ أَنَّكَ تَتْرُكُ جَمِيعَ مَالِكَ إِلَّا نَصِيبَكَ الَّذِي هُوَ الْكَفَنُ.(١)

❁ نَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

هِيَ القَنَاعَةُ لَا تَبْغِ بِهَا بَدَلًا ... فِيهَا النَّعِيمُ وَفِيهَا رَاحَةُ البَدَنِ
انْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ القُطْنِ وَالكَفَنِ

فَهِيَ حَقِيقَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا، لَا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَفِرَّ مِنْهَا أَوْ يَهْرُبَ، بَلْ فِي أَيِّ مَكَانٍ سَكَنَ وَقَطَنَ سَيَأْتِيهِ المَوْتُ لَا مَحَالَةَ. ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ

(١) "التذكرة" (صـ: ١٢٧).

مُّشَيَّدَةٍۗ ﴾ النساء [٧٨]. سَكَنْتَ كُهُوفَ الجِبَالِ، أَوْ مَغَارَاتِ الأَرْضِ أَوْ فِي قِيعَانِ البِحَارِ، فَإِنَّ المَوْتَ سَيَأْتِيكَ. ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الجمعة [٨].

لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا يَنْفَعُ مِنْهُ الفِرَارُ، وَإِنَّمَا نَسَاقُ إِلَى الآجَالِ.

❁ قال عبدُالله بن المعتز:(١)

نَسِيرُ إِلَى الْآجَالِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ ... وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ ... إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الْأَمَانِيُّ بَاطِلُ
وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ فِي زَمَنِ الصِّبَا ... فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَامِلُ
تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ وَهُنَّ قَلَائِلُ

وذكر ابنُ كثير، في ترجمة سنان بن ثابت الطبيب، وقد مات بمرضٍ ولم تُغنِ عنه صناعتُهُ شيئا،

❁ فقيل في ذلك:(٢)

قُلْ لِلَّذِي صَنَعَ الدَّوَاءَ بِكَفِّهِ ... أَتَرُدّ مَقْدُورًا عَلَيْكَ قَدْ جَرَى
مَاتَ الْمَدَاوِي وَالْمُدَاوَى وَالَّذِي ... صَنَعَ الدَّوَاءَ بِكَفِّهِ وَمَنْ اشْتَرَى

لَا يُمْكِنُ لَكَ أَنْ تَرُدَّ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ أَبَدًا.

❁ وقال آخر:

سَبِيلُ الخَلْقِ كُلِّهِمُ الفَنَاءُ ... فَمَا أَحَدٌ يَدُومُ لَهُ البَقَاءُ

---

(١) "سراج الملوك" (صـ: ١٤)، "جامع العلوم والحكم" ت الأرنؤوط (٢/ ٣٨٤).

(٢) " البداية والنهاية" ط هجر (١٥/ ١٥٢).

يُقَرِّبُنَا الصَّبَاحُ إِلَى الْمَنَايَا ... وَيُدْنِينَا إِلَيْهِنَّ الْمَسَاءُ[1]

❁ وقال آخر:[2]

تَاللَّهِ لَوْ عَاشَ الْفَتَى فِي أَهْلِهِ ... أَلْفًا مِنَ الْأَعْوَامِ مَالِكَ أَمْرِهِ
مُتَلَذِّذًا مَعَهُمْ بِكُلِّ لَذِيذَةٍ ... مُتَنَعِّمًا بِالْعَيْشِ مُدَّةَ عُمْرِهِ
لَا يَعْتَرِيهِ النَّقْصُ فِي أَحْوَالِهِ ... كَلَّا وَلَا تَجْرِي الْهُمُومُ بِفِكْرِهِ
مَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِمَّا يَفِي ... بِنُزُولِ أَوَّلِ لَيْلَةٍ فِي قَبْرِهِ
كَيْفَ التَّخَلُّصُ يَا أَخِي مِمَّا تَرَى ... صَبْرًا عَلَى حُلْوِ الْقَضَاءِ وَمُرِّهِ

والتأمل في حال المحتضرين ومشاهدة ذلك، وتذكر الموقف مما يزيل قساوة القلب.

❁ قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **قال العلماء رحمة الله عليهم**: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور وخاصة إن كانت قاسية فعلى أصحابها أن يعالجوها بأربعة أمور:

أحدها: الإقلاعُ عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكر، والتخويف والترغيب، وأخبار الصالحين. فإن ذلك مما يلين القلوب وينجع فيها.

الثاني: ذكر الموت من ذكر هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات...

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب فيها.

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن في النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته، ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، ما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمنع الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب.

---

(١) "التبصرة" لابن الجوزي (١/ ٣٥٣).

(٢) "مجموعة القصائد الزهديات" (١/ ١٥٨).

يروى أن الحسن البصري دخل على مريض يعوده فوجده في سكرات الموت فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله، بغير اللون الذي خرج به من عندهم فقالوا له: الطعام يرحمك الله فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم.

فو الله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه.

فهذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وإغوائه، فإن انتفع بها فذاك، وإن عظم عليه ران القلب، واستحكمت فيه دواعي الذنب، **فزيارة قبور الموتى** تبلغ في دفع ذلك مالا يبلغه الأول، والثاني، والثالث.(١)

فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَّعِظَ وَأَنْ يَعْتَبِرَ بذَهَابِ الخِلَّانِ، وَفَقْدِ الأَصْدِقَاءِ وَالأَقَارِبِ، بَلْ وَالأَبَاعِدِ، وَأَنَّهُ مَا أَتَى عَلَيْهِمْ سَيَأْتِي عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ. فَالمَوْتُ لَا يَنْتَظِرُ صَغِيرًا لِيَكْبَرَ، وَلَا شَابًّا لِيَتَزَوَّجَ، وَلَا جَاهِلًا لِيَتَعَلَّمَ، وَلَا مُتَزَوِّجًا لِيَأْتِيَ لَهُ الوَلَدُ، وَلَا كَهْلًا لِيَصِيرَ شَيْخًا. هُوَ أَجَلٌ مَتَى مَا جَاءَ، فَإِنَّهُ لَا يَتَقَدَّمُ الإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَلَا يَتَأَخَّرُ. وَالدُّنْيَا هَذِهِ إِنَّمَا هِيَ دَارُ عُبُورٍ، لَا دَارُ قَرَارٍ وَحُبُورٍ، وَلَا دَوَامَ مَدَى الدُّهُورِ.

❁ قال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٢)

تَمُرُّ بِنَا الأَيَّامُ تَتْرَى وَإِنَّمَا ... نُسَاقُ إِلى الآجَالِ وَالْعَينُ تَنْظُرُ

فَلا عَائِدٌ ذَاكَ الشَّبابُ الَّذِي مَضَى ... وَلا زَائِلٌ هَذَا الْمُشِيْبُ الْمُكَدِّرُ

---

(١) "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" (صـ: ١٣٣).

(٢) "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" (٨/ ٣٩٨).

البيت رقم ٥٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا وَلَكِنْ ... لِتَعْبُرَهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا

شرح البيت رقم ٥٢

لَمْ تُخْلَقْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِعِمَارَتِهَا، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات [٥٦].. لِهَذَا خَلَقَكَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا؛ لِعِبَادَتِهِ وَلِطَاعَتِهِ، لِأَنَّ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ مُنْقَضِيَةٌ، كُلُّ مَنْ فِيهَا يَذْهَبُ. لِذَلِكَ أَيْنَ الأَجْدَادُ الأَوَائِلُ؟ أَيْنَ العُلَمَاءُ؟ أَيْنَ المُلُوكُ؟ أَيْنَ الأُمَرَاءُ؟ أَيْنَ الوُزَرَاءُ؟ أَيْنَ الجُيُوشُ؟ وَأَيْنَ مَا مَلَكُوا؟ كُلُّ ذَلِكَ ذَهَبَ.

❁ وَلِذَلِكَ كَمَا قِيلَ:[1]

يَا سَاكِنَ الدُّنْيَا أَمِنْتَ زَوَالَهَا ... وَلَقَدْ تَرَى الأَيَّامَ دَائِرَةَ الرَّحَى
أين اللألى بنوا الحصون وَجنَّدوا ... فيها الجُنودَ تَعَزُّزاً أَينَ الأُلَى
أَيْنَ الْحُمَاةُ الصَابِرونَ حَمِيَّةً ... يَوْمَ الْهِيَاجِ لِحَرِّ مُجْتَلَبِ الْقَنَا
وَذَوُو الْمَنَابِرِ وَالْعَسَاكِرِ وَالدَسَّا ... كِرِ وَالْمَحَاضِرِ وَالْمَدَائِنِ وَالْقُرى
وَذَوُوا الْمَوَاكِبِ والْمَرَاكِبِ والكَتا ... ئِبِ وَالنَّجَائِبِ وَالْمَرَاتِبِ فِي الْعُلى
أَفْنَاهُمُ مَلِكُ الْمُلُوكِ فَأَصْبَحوا ... مَا مِنْهُمُ أَحَدٌ يُحَسُّ وَلا يُرى
وَهُوَ الْخَفِيُّ الظَاهِرُ الْمَلِكُ الَّذي ... هُوَ لَمْ يَزَلْ مَلِكًا على الْعَرْشِ اسْتَوى
وَهُوَ الْمُقَدِّرُ وَالْمُدَبِّرُ خَلْقَهُ ... وَهُوَ الَّذي فِي الْمُلْكِ لَيْسَ لَهُ سِوى
وَهُوَ الَّذي يَقْضِي بِما هُوَ أَهْلُهُ ... فينَا وَلا يُقْضَى عَلَيْهِ إذا قَضَى
وَهُوَ الَّذي بَعَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ... صَلَّى الإِلهُ عَلى النَّبِيِّ الْمُصْطَفى

---

(١) "مجموعة القصائد الزهديات" (٢/ ٢٣٧)، وعزاه لأبي العتاهية.

وَهُـوَ الَّـذي أَنْـجِـى وَأَنْـقَـذَنَـا بِـهِ ... بَعْـدَ الضـلاَّلِ منَ الضَّـلالِ إلى الهُدى
حَتى مَتى لا تَرْعَوي يا صـاحِبي ... حَتّى مَتى حَتّى مَتى وَإلى مَتى
وَالـلَّـيْـلُ يَـذْهَـبُ وَالْـنَّـهـارُ وَفـيـهِـما ... عِـبَرٌ تَمُـرُّ وَفِـكْـرَةٌ لأُولي الـنُّـهـى
حَـتـى مَـتـى تَـبْـغـي عِـمـارَةَ مَـنْـزِلٍ ... لا تـأْمَـنُ الـرَّوْعـاتِ فـيـهِ وَلا الأَذى
يـا مَعْشَـــرَ الأَمْواتِ يـا ضـيـفـانَ تُرْ ... بِ الأَرْضِ كَيْفَ وَجَدْتمُ طَعْمَ الثَّرى
أَهْـلَ الْـقُـبـورِ مَحا الـتُّرابُ وُجـوهـكُـمْ ... أَهْـلَ الْـقُـبـورِ تَـغَـيَّرَتْ تِـلْـكَ الْحُلى
أَهْـلَ الْـقُـبـورِ كَـفـى بِـنَـأْيِ دِيـارِكُـمْ ... إنَّ الـدِّيـارَ بِـكُـمْ لشَـاحِـطَـةُ الـنَّـوى

...إلى آخِرِ هَذِهِ الأَبْيَاتِ. فَهَذِهِ الدُّنْيَا خُلِقَ الإِنْسَانُ لِعُبُورِهَا بطاعةِ اللهِ لَا لِعِمَارَتِهَا، وَمَا جَمَعَهُ فِيهَا إِنَّمَا يَجْمَعُهُ لِوَرَثَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ.

❁ قال عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَن: (١)

أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّتِي عَنْ حَظِّهَا غَفَلَتْ ... حَتَّى سَـقَاهَا بِكَأْسِ الْمَوْتِ سَـاقِيهَا
أَمْـوَالُـنَـا لِـذَوِي الْمِـيرَاثِ نَـجْـمَـعُـهَـا ... وَدُورُنَـا لِخَـرَابِ الـدَّهْـرِ نَـبْـنِـيـهَـا
وَالنَّفْسُ تَكْلَفُ بِـالـدُّنْيَا وَقَـدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ السَّـلَامَةَ مِـنْـهَـا تَـرْكُ مَـا فِـيـهَـا

❁ قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِأَبِي حَازِمٍ: مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ قَالَ: لِأَنَّكُمْ عَمَّرْتُمُ الدُّنْيَا وَخَرَّبْتُمُ الْآخِرَةَ؛ فَإِنَّكُمْ تَكْرَهُونَ أَنْ تُنْقَلُوا مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ. (٢)

---

(١) "الإشراف في منازل الأشراف" لابن أبي الدنيا (صـ: ٣٢٦).

(٢) أخرجه الدينوري في "المجالسة" (٢٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٢٨/٢٢)، وفيه محمد بن عبد العزيز الدينوري، أكثر عنه أحمد بن مروان في المجالسة له، وهو منكر الحديث ضعيف. "الميزان" (٦٢٩/٣)، وأحمد بن مروان الدينوري صاحب المجالسة، ضعّفه الدّارَقُطْنيّ واتهمه. "تاريخ الإسلام" (٧٤٤/٧)، وأخرجه الخطيب في "تاريخ بغداد (٥٨٢/٦)، وفيه هشام بن محمد الكلبي، قال أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب سمر

فَلَمَّا رَكَنَ النَّاسُ إِلَى الدُّنْيَا فَعَمَّرُوهَا وَاسْتَحَبُّوهَا، كَرِهُوا الانتقال إِلَى دَارِ الإِقَامَةِ، مَعَ أَنَّ الدُّنْيَا نَعِيمُهَا لَا يَدُومُ.

❁ قال بعضهم: (١)

فَتَبًّا لِدُنْيَا لا يَدُومُ نَعِيمُهَا ... تُقَلِّبُ تَارَاتٍ بِنَا وَتُصَرَّفُ

❁ وقال أَبُو الْفَضْلِ عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ نَصْرِ اللَّهِ: (٢)

فَتَبًّا لِدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا ... تَسُرُّ يَسِيرًا ثُمَّ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

تُرِيكَ جَمَالًا فِي الثِّقَابِ وَزُخْرُفًا ... وَتُسْفِرُ عَنْ شَوْهَاءَ طَحْيَاءَ عَامِيَا

❁ وقال آخر: (٣)

يَا أَهْلَ لَذَّاتِ لَهْوٍ لَا تَدُومُ لَهُمْ ... إِنَّ الْمَنَايَا تُبِيدُ اللَّهْوَ وَاللَّعِبَا

كَمْ قَدْ رَأَيْنَاهُ مَسْرُورًا بِلَذَّتِهِ ... أَمْسَى فَرِيدًا مِنَ الْأَهْلِينَ مُغْتَرِبَا

فَالدُّنْيَا هِيَ دَارُ سَفَرٍ.عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ». (٤)

ونسب ما ظننت أن أحدا يحدث عنه. وقال الدارقطني وغيره: متروك. "رجال الحاكم في المستدرك "(٢/ ٣٥٩)، وفيه من لا يُعرفْ.

(١) "المجالسة وجواهر العلم"(٢٢٢٥)، و "تاريخ دمشق" (١٢/٣٧٦).

(٢) "البداية والنهاية" ط الفكر (١٣/ ١١١).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في "الاعتبار وأعقاب السرور"(٤١)، و"القبور"(١٢)، و"الهواتف"(٤٨)، وفيه دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبَّرِ، قال الحافظ: متروك، وأكثر كتاب العقل الذي صنفه موضوعات. "تقريب التهذيب"

(٤) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

❁ قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد نقله عن ابن بطالِ: وَقَالَ غَيْرُهُ: هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي الْحَثِّ عَلَى الْفَرَاغِ عَنِ الدُّنْيَا وَالزُّهْدِ فِيهَا وَالِاحْتِقَارِ لَهَا وَالْقَنَاعَةِ فِيهَا بالبلغة.

وَقَالَ النَّوَوِيّ: معنى الحَدِيث لا تركن إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا، وَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْبَقَاءِ فِيهَا، وَلَا تَتَعَلَّقْ مِنْهَا بِمَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْغَرِيبُ فِي غَيْرِ وَطَنِهِ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: عَابِرُ السَّبِيلِ هُوَ الْمَارُّ عَلَى الطَّرِيقِ طَالِبًا وَطَنَهُ، فَالْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا كَعَبْدٍ أَرْسَلَهُ سَيِّدُهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى غَيْرِ بَلَدِهِ فَشَأْنُهُ أَنْ يُبَادِرَ بِفِعْلِ مَا أُرْسِلَ فِيهِ ثُمَّ يَعُودَ إِلَى وَطَنِهِ وَلَا يَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ غَيْرِ مَا هُوَ فِيه. (١)

وَعَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بِبَعْضِ جَسَدِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ القُبُورِ» فَقَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ: «إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا». (٢) الغَرِيبُ مَاذَا يَعْمَلُ؟ وَمَاذَا يَحْمِلُ في طريقه؟ وَبِمَاذَا يُفَكِّرُ فِي مَكَانِ غُرْبَتِهِ؟ مُسَافِرٌ ذَاهِبٌ عَابِرُ سَبِيلٍ، عَابِرُ طَرِيقٍ عَلَى سَفَرٍ. فَأَنْتَ فِي الدُّنْيَا مسافرٌ إِلَى الآخِرَةِ، فَالدُّنْيَا هِيَ طَرِيقُ الآخِرَةِ. فَمَا يُغْنِي عَنْكَ المَالُ وَلَا الثَّرَى وَلَا الدُّنْيَا مَهْمَا جَمَعْتَهَا

❁ قال بعضهم:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ (٣)

---

(١) "فتح الباري" لابن حجر (١١/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣٣)، والبيهقي في "الشعب" (١٠٠٥٩)، وغيرهم. وحسن الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في "صحيح الترغيب (٣٣٤١).

(٣) الحشرجة: تردد صوت النفس وهو الغرغرة في الصدور، الغرغرة عند الموت وتردد النفس

اعْمَلْ وَاجْتَهِدْ وَلَا تُسَوِّفْ وَلَا تَتَأَخَّرْ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ، أَنْتَ فِي حَالِ الصِحَّة سَيَأْتِي يَوْمٌ تَسْقَمُ فِيهِ، وَتَتْعَبُ، وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ.

❁ قال كعبُ بنُ زُهير: (١)

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ ... يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا دُنْيَا غُرِّي غَيْرِي، إِلَيَّ تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ فِيهَا، فَعُمْرُكِ قَصِيرٌ. ثُمَّ قَالَ: آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ.

فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَزَوَّدَ مِنْ دَارِ العُبُورِ بِالصَّالِحَاتِ إِلَى دَارِ القَرَارِ، حَتَّى لَا يَفُوتَ عَلَيْنَا ذَلِكَ الأَجْرُ الَّذِي قَدْ أَعَدَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ.

❁ وقال آخر:

تَزَوَّدْ مِنَ التَّقْوَى فَإِنَّكَ لا تَدْرِي ... إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلَى الفَجْرِ
فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ... وَكَمْ مِنْ عَلِيلٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ
وكم من صغارٍ يُرْتَجَى طولُ عُمْرِهِمْ ... وَقَدْ أُدْخِلَتْ أَجْسَادُهُمْ ظُلْمَةَ القَبْرِ
وَكَمْ مِن عَرُوسٍ زَيَّنُوهَا لِزَوْجِهَا ... وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهَا وَهْيَ لاَ تَدْرِي

وَعند بَعْضِهِمْ: وقد قُبِضَتْ أَرْوَاحُهُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ.

وهذا البيت نسب لحاتم الطائي، "الإشراف"(١٧٥)، (١٧٦)، لابن أبي الدنيا، "لسان العرب" (١٣/٣٣٢)، وجاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، من طرق، أنها تمثلت بها عن موت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في "تفسير الطبري" ، و "المجالسة" (١٣٧٥)، (١٣٧٦)، و "الزهد" لأحمد (٥٦٣)، وغيرهم.

(١) "المعجم الكبير" للطبراني (٤٠٣)، والحاكم في "مستدركه"(٦٤٧٧)، والْآلَة الحدباء: النعش الّذي يحمل عَلَيْه الْمَيِّت.

البيت رقم ٥٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْماً وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا

شرح البيت رقم ٥٣

أَيْ: الدُّنْيَا إِنْ ذَهَبَ بَعْضُهَا وَبَعْضُ مَا كَانَ عِنْدَكَ، فَلَا تُبَالِي بِذَلِكَ وَلَا تَنْشَغِلْ بِذَلِكَ، فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا، بَلْ لَا تُفَكِّرُ فِيهَا. ولا يعني هذ أنك تتلف ما عندك من المال، أو الأرض، ونحو ذلك، لا، لا يجوز التلاعب بالمال، والاسراف به، ولكن لا تنشغل بها.

واهْتَمَّ بِتَحْصِينِ أَمْرِ الدِّينِ، هَذَا هُوَ الأَهَمُّ لَا أَمْر الدُّنْيَا، وَاسْعَ فِي بِنَاءِ دِينِكَ وَمَسْكَنِكَ فِي آخِرَتِكَ لَا فِي بِنَاءِ دُنْيَاكَ،

وَالبِنَاءُ يَنْقَسِمُ إِلَى قسمين: بِنَاء حِسِّيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ.

وَالدُّنْيَا هِيَ دَارُ البِنَاءِ: إِمَّا البِنَاءُ الدُّنْيَوِيُّ الَّذِي مَآلُهُ إِلَى النَّارِ إِنْ شغلك عن عبادة الله وإقامة فرائضه، وَإِمَّا البِنَاءُ الأُخْرَوِيُّ الَّذِي مَآلُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلى جَنَّةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

❁ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي رَجَاءٍ:

لا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا إِلا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْت يَبْنِيهَا
فَمَنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ وَمَنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا[1]

---

(١) "الإشراف في منازل الأشراف" لابن أبي الدنيا (صـ: ١٤٥)، وعنده "فَإِنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ كَانَ مُغْتَبِطًا... وعزاها بعضهم لأبي إِسْحَاق الْفَزَارِيّ "التكملة لكتاب الصلة" (٢/ ٢٣٥).

وتعزى أيضاً لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كما في الديوان المنسوب إليه، قال الزركلي: أما ما يرويه أصحاب الأقاصيص من شعره وما جمعوه وسموه "ديوان علي بن أبي طالب – ط" فمعظمه أو كله مدسوس عليه. "الأعلام" للزركلي (٤/ ٢٩٦)، وذكر بعضهم، بأنه لم يصح عنه إلا بيتين من الشعر، مع ما ثبت من بعض الأبيات له في صحيح

"وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا"، أَيْ: حَافِظْ عَلَى دِينِكَ، لَا تَتَلَاعَبْ بِهِ.

❁ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَهْمَا تَلَاعَبْتَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ فَلَا تَلَاعَبَنَّ بِأَمْرِ دِينِكَ». (١)

بَعْضُ النَّاسِ يَتَلَاعَبُ بِدِينِهِ بِاسْتِقَامَتِهِ، بِالْتِزَامِهِ، بِصِدْقِهِ، بِأَمَانَتِهِ، بِإِخْلَاصِهِ، بِطَلَبِهِ لِلْعِلْمِ، يَتَلَاعَبُ بِذَلِكَ، وَهَذَا وَاللَّهِ ضَرَرٌ عَظِيمٌ عَلَيْهِ.

حافظ على هذا العلم والدين، ولا تتلاعب به أو تضيعه.

❁ قَالَ أبو موسى ابْنُ الحَافِظِ عبد الغني المقدسي عِنْدَ مَوْتِهِ: لاَ تُضَيِّعُوا هَذَا العِلْمَ الَّذِي قَدْ تَعِبْنَا عَلَيْهِ. (٢)

لَا تَتَلَاعَبْ بِالدِّينِ، بِالصَّلَاةِ، بِالعِبَادَةِ، بِالاسْتِقَامَةِ، بِالصِّدْقِ، بِالعِلْمِ.

❁ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ». (٣)

❁ قَالَ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ: وَيَرْحَمُ اللَّهُ السَّلَفَ الصَّالِحَ، فَلَقَدْ بَالَغُوا فِي وَصِيَّةِ كُلِّ ذِي عَقْلٍ رَاجِحٍ، فَقَالُوا: مَهْمَا كُنْتَ لَاعِبًا بِشَيْءٍ فَإِيَّاكَ أَنْ تَلْعَبَ بِدِينِكَ. (٤)

مسلم في غزوة خيبر. وانظر "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٤/ ٤١٠)، و"شرح شواهد المغني "(٢/ ٥٢١) للسيوطي، و"خزانة الأدب"(٢/ ٢٩٠).

(١) صحيح، أخرجه البيهقي في "الشعب"(١٥٣٩)، واللالكائي في "وشرح أصول اعتقاد أهل السنة" (١/ ١٦٣)، من قولهِ. ورُوِيَ بلفظ: قَالَ مَالِكٌ: قَالَ رَجُلٌ: «مَا كُنْتَ لَاعِبًا بِهِ فَلَا تَلْعَبَنَّ بِدِينِكَ»، "السنة" للخلال (٢٤٥)، و"الإبانة الكبرى" لابن بطة (٥٧٦)، و"الحلية" لأبي نعيم (٦/ ٣٢٠).

(٢) كما في "سير أعلام النبلاء" (٢١/ ٤٥٠)، و"ذيل طبقات الحنابلة" (٣/ ٤٣)

(٣) صحيح، أخرجه مسلم في "مقدمته"، وابن أبي شيبة في "مصنفه"(٢٦٦٣٦)، والدارمي في سننه (٤٣)، (٤٣٨)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢/٢٧٨).

(٤) "تفسير القرطبي" عند آية (٧٧) من سورة الكهف.

حَافِظْ عَلَى دِينِكَ وَلَا تَلْعَبْ بِهِ، هَذِهِ وَصِيَّةُ السَّلَفِ.

❁ قَالَ القَحْطَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَتَى أُمِرْتَ بِبِدْعَةٍ أَوْ زَلَّةٍ ... فَاهْرُبْ بِدِيْنِكَ آخِرَ البُلْدَانِ

الدِّينُ رأْسُ المَالِ فاسْتَمْسِكْ بِهِ ... فَضَيَاعُهُ مِن أَعْظَمِ الخُسْرَانِ

أَعْظَمُ مَا يَخْسَرُهُ الإِنْسَانُ هو دِيْنُهُ. فالدينُ هُوَ رَأْسُ مَالِكَ فَلَا تُضَيِّعْهُ، وَحَافِظْ عَلَيْهِ.

قَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ».(١)

يَفِرُّ بِدِينِهِ، يُحَصِّنُ دِينَهُ، وَيُحْرِزُهُ مِنَ الفِتَنِ. وَالشَّعَفُ: هِيَ رُؤُوسُ الجِبَالِ وَأَعَالِيهَا.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ».(٢)

مَلْجَأٌ وَمَعَاذٌ، يَسْتَمْسِكُ بِهِ مِنَ الفِتَنِ، فَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ.

وَحَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا تُفْتِنُ النَّاسَ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ».(٣)

---

(١) أخرجه البخاري (١٩)، (٣٣٠٠)، (٧٠٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠١)، (٧٠٦١)، (٧٠٨٢)، ومسلم (٢٨٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

وعَنْ كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي المَالُ».(١)

وعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».(٢)

فَالإِنْسَانُ يُحَصِّنُ نَفْسَهُ، يُحَصِّنُ دِينَهُ، وَيُحَصِّنُ نَفْسَهُ بِالتَّمَسُّكِ بِهَذَا الدِّينِ بكتابِ اللهِ وبسنةِ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يُحَصِّنُ نَفْسَهُ بِالعِلْمِ النافع، فَالعِلْمُ حِصْنٌ عَظِيمٌ، يُحَصِّنُ نَفْسَهُ فِي بُيُوتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهِيَ حِصْنٌ أَيْضًا مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ.

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فَإِنَّ الطَّاعَةَ حِصْنُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ، مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْآمِنِينَ مِنْ عُقُوبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْهُ أَحَاطَتْ بِهِ الْمَخَاوِفُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ انْقَلَبَتِ الْمَخَاوِفُ فِي حَقِّهِ أَمَانًا، وَمَنْ عَصَاهُ انْقَلَبَتْ مَآمِنُهُ مَخَاوِفَ...(٣)

❁ وقال الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ: فطالبُ العلمِ لابد أن يصبر، حتى وإن تراكمت عليه الأمورُ والمشاكلُ، ووجد ضيقًا في صدره، وربما يكلّف نفسه من الحفظ ومن الاهتمام بطلب العلم، حتى يجد قسوةً في قلبه، فلا ينبغي أن يثنيه عن هذا، فالشيطان لا يريد لك الخير، يريد أن يصرفك عن طلب العلم؛ **لأن طلب العلم في هذا الزمن أعظم حصن بإذن**

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٧١)، والترمذي (٢٣٣٦)، وغيرهم وهو في "الصحيحة" للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، (برقم:٥٩٢)، وفي "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" (برقم:١٠٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٨)، (٤٠١٥)، (٦٤٢٥)، ومسلم (٢٩٦١).

(٣) "الجواب الكافي" (صـ: ٧٥).

الله تعالى، يقيك من الفتن، فهو يعتبر حصنًا حصينًا، كما أن الذكر يعتبر حصنًا حصينًا، فكذلك العلم في هذا الزمن. (١)

❁ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَعْقِلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ الْمَسْجِدَ، أَوِ الْمَسَاجِدَ حِصْنٌ حَصِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ». (٢)

حَصِّنْ نَفْسَكَ بِذِكْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا فِي حَدِيثِ الحَارِثِ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ...وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَثِيرًا، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ». (٣)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ النحل [٩٨-١٠٠].

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِن الذاكرَ فِي حصنِ الذّكر فَمَتَى غفل فتح بَاب الْحصن فولجه الْعَدو فيعسر عَلَيْهِ أَو يصعب إِخْرَاجه. (٤)

---

(١) "المقترح في أجوبة بعض أسئلة المصطلح" (صـ: ١٧٠).

(٢) حسن، أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٤٦١٣)، وهناد بن السري في "الزهد" (٢/٤٧٣). كلاهما من طريق سفيان عن الأعمش عن عبد الرحمن بن معقل.

(٣) صحيح، أخرجه أحمد (١٧١٧٠)، صححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما في "صحيح الجامع وزيادته" (برقم:١٧٢٤).

(٤) "الفوائد" لابن القيم (صـ: ١٩١).

هَذَا مِمَّا يُحَصِّنُ بِهِ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَدِينَهُ فِي بُيُوتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الأَذْكَارِ، بِالعِلْمِ النَّافِعِ، بِمَجَالِسِ الصَّالِحِينَ، بِالبُعْدِ عَنْ أَهْلِ الشَّرِّ وَأَهْلِ اللَّهْوِ وَالضَّيَاعِ وَالبِدَعِ وَالخُرَافَاتِ، وَإِنْ تَظَاهَرُوا بِاسْمِ الدِّينِ وَالِاسْتِقَامَةِ فَابْتَعِدْ عَنْهُمْ.

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّ السُّنَّةَ حِصْنُ اللَّهِ الْحَصِينُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْآمِنِينَ. وَبَابُهُ الْأَعْظَمُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ إِلَيْهِ مِنَ الْوَاصِلِينَ تَقُومُ بِأَهْلِهَا وَإِنْ قَعَدَتْ بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَيَسْعَى نُورُهَا بَيْنَ أَيْدِيهِم إِذَا طُفِئَتْ لِأَهْلِ " الْبِدَعِ وَالنِّفَاقِ أَنْوَارُهُمْ "، وَأَهْلُ السُّنَّةِ: هُمُ الْمُبْيَضَّةُ وُجُوهُهُمْ إِذَا اسْوَدَّتْ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ آل عمران [١٠٦].(١)

(١) "اجتماع الجيوش الإسلامية" (٢/ ٣٩).

البيت رقم ٥٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلاَ تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا ... إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا

شرح البيت رقم ٥٤

"وَلاَ تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا"، فَهِيَ بِلَا شَكٍّ ذَاهِبَةٌ، لَا تَدُومُ أَنْتَ فِيهَا وَلَا يَدُومُ مَا فِيهَا. فَكَيْفَ تَحْزَنُ عَلَيْهَا؟ إِنْ بَقِيَتْ فِي يَدَيْكَ سَتَرْحَلُ أَنْتَ عَنْهَا وَتَمُوتُ وَتَتْرُكُهَا لِوَرَثَتِكَ، قَدْ يَذْكُرُونَكَ بِخَيْرٍ وَقَدْ لَا يَذْكُرُونَكَ. وَإِنْ ذَهَبَتْ قَبْلَ ذَهَابِكَ فَلَا قِيمَةَ لَهَا وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهَا.

وَلَا يُخَلَّدُ فِيهَا أَحَدٌ، وَتَوَعَّدَ اللَّهُ مَنْ اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا: قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ يونس [٧] تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالنَّارِ.

فَأَنْتَ غَيْرُ مُخَلَّدٍ فِيهَا وَلَا مَا فِيهَا يُخَلَّدُ، ستذهبُ، سَتَفْنَى الدُّنْيَا وَتَفْنَى أَنْتَ، وَيَأْتِيكَ المَوْتُ لَا مَحَالَةَ.

❁ قال بعضُهم: (١)

المَوتُ لاَ وَالِدًا يُبْقِي وَلاَ وَلَدَا ... هَذَا السَّبِيلُ إِلَى أَنْ لا تَرَى أَحَدَا

كَانَ النَّبِيُّ وَلَمْ يُخَلِّدْ لِأُمَّتِهِ ... لَو خَلَّدَ اللهُ خَلْقًا قَبْلَهُ خَلَدَا

لِلْمَوتِ فِينَا سِهَامٌ غَيرُ خَاطِئَةٍ ... مَنْ فَاتَهُ اليَومَ سَهْمٌ لَمْ يَفُتْهُ غَدًا

كَانَ النَّبِيُّ وَلَمْ يُخَلِّدْ لِأُمَّتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ الأنبياء [٣٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ الزمر [٣٠].

---

(١) "مجموعة القصائد الزهديات" (٢/ ٢٠٧)، وعُزيت لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كما في الديوان المنسوب إليه.

"وَلاَ تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا"، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا فِي تَبْشِيرِهِ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ الزخرف [٦٨]. أَيْ: لَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا؛ لأنهم في نعيم أعظم وأفضل ولا مقارنة بينه وبين نعيم الدنيا.

فَالمُؤْمِنُ حِينَ يَعلم مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ لَا يَحْزَنُ عَلَى الدُّنْيَا وَلَا عَلَى مَا يَفُوتُ مِنْهَا، وَلِذَلِكَ يُبَشَّرُ بِجَنَّةِ الله عِنْدَ المَوْتِ، وفِي قَبْرِهِ، ويَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ فصلت [٣٠، ٣١].

﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ ﴾ .أَي: مِمَّا تَقْدُمُونَ عَلَيْهِ ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ على مَّا فَاتَكُمْ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ الحديد [٢٣].

فَالإِنْسَانُ إِذَا تَذَكَّرَ نَعِيمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وجنتَهُ وَمَا أَعَدَّهُ، وَعَلِمَ الدُّنْيَا أَنَّهَا مُنْقَضِيَةٌ، لَا يَحْزَنُ عَلَى مَا يَفُوتُ مِنْهَا.

"إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا"، الفَوْزُ فِي الآخِرَةِ هُوَ بِجَنَّةِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ آل عمران [١٨٥].

هَذَا هُوَ الفَوْزُ الحَقِيقِيُّ، هُوَ بِجَنَّةِ اللَّهِ.

وقال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ الحشر [٢٠].

فَلْيَسْعَ الإِنْسَانُ إِلَى فَوْزِهِ الحَقِيقِيِّ، وَهُوَ بِجَنَّةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَذَلِكَ بِالعَمَلِ بِمَا يُرْضِي اللَّهَ وَمَا يُوصِلُ إِلَيْهِ. وَطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ طَرِيقُ الفَوْزِ وَالفَلَاحِ. فَإِذَا نَجَّاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ المَرْهُوبِ وَتَحَصَّلْتَ عَلَى المَطْلُوبِ فَقَدْ أَفْلَحْتَ وَفُزْتَ الفَوْزَ العَظِيمَ.

جاء من حديثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ». (١)

❁ قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: فقوله: مَنْ أَحَبَّ هذا الاستفهام للتشويق وإلا فكل واحد يحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة؛ لأن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، فمن أحب ذلك فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر. (٢)

وطريقُ الفوزِ: هو الإقبال على طاعةِ الله ورسولِهِ

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ النور [٥٢].

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب [٧١].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

(٢) "شرح رياض الصالحين" باب النهي عن الإيذاء.

البيت رقم٥٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا ... مِنَ الْفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرِمْتَا

شرح البيت رقم ٥٥

"فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا"، مَا نِلْتَهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَتَحَصَّلْتَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا لَيْسَ بِنَافِعٍ، ولا مُفيد إِلَّا مَا قَدَّمْتَهُ مِنْهَا لِوَجْهِ اللَّهِ، فَهَذَا الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ.

نَعَمْ، المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ، الَّذِي تَحَصَّلَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَسَخَّرَهُ فِي الطَّاعَةِ وَالعِبَادَةِ وَالخَيْرِ يَنْتَفِعُ بِذَلِكَ.

❁ لِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ:

ما أَحْسَنَ الدِّيْنَ والدُّنْيا إذا اجْتَمَعَا ... لا بَارَكَ اللهِ في دُنْيَا بِلا دِين

❁ وَقَالَ آخَرُ:

ما أَحْسَنَ الدِّينَ والدُّنْيا إذا اجْتَمَعا ... وأَقْبَحَ الكُفْرَ والإِفْلاسَ بِالرَّجُلِ

بَعْضُ النَّاسِ يُضَيِّعُ دِينَهُ مِنْ أَجْلِ دُنْيَاهُ، وَهَذِهِ هِيَ الخسارة:

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا ... فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرَقِّعُ

يُمَزِّقُ الدين لِأَجْلِ الدُّنْيَا، يُرَقِّعُ دُنْيَاهُ بِدِينِهِ، يَبِيعُ الدِّينَ مِنْ أَجْلِ الدُّنْيَا، يَتَنَازَلُ عَنْ مَبَادِئِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ وَخَيْرِهِ وَصَلَاحِهِ مِنْ أَجْلِ الدُّنْيَا، فَلَا يَبْقَى دِينُنَا وَلَا مَا نَرْقَعُ. يَذْهَبُ الدِّينُ وَتَذْهَبُ الدُّنْيَا.

جَاءَ عِنْدَ الإِمَامِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ

فَأَمْضَيْتَ؟». (١) وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، مَا تَأْكُلُهُ يَفْنَى وَيَذْهَبُ، أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ، مَا تَلْبَسُهُ مِنْهَا يَبْلَى، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ، هَذَا الَّذِي يَنْفَعُ، مَا تَتَصَدَّقُ بِهِ يَبْقَى لك عند الله.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي، مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ». (٢) يَذْهَبُ وَيَفْنَى، فَأَنْتَ دَائِرٌ بَيْنَ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

مَا تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ وَمَا تَلْبَسُ وَمَا تُنْفِقُهُ.

مَا تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ يَفْنَى، مَا تَلْبَسُهُ يَبْلَى، ومَا تَتَصَدَّقُ بِهِ يَبْقَى، مَا عَدَا ذَلِكَ فَإِنَّهُ لِلْوَرَثَةِ مِنْ بَعْدِكَ.

وَجَاءَ عِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وَالتِّرْمِذِيِّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا»؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا». (٣) كُلُّ الَّذِي أُخْرِجَ صَدَقَة هُوَ الَّذِي بَقِيَ عِنْدَ اللَّهِ أَجْرًا وَذُخْرًا، وَذَلِكَ الَّذِي بَقِيَ، الكَتِفُ يَذْهَبُ. قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا، أَيْ: مَا تَصَدَّقُوا بِهِ وَأَنْفَقُوهُ يَبْقَى لَهُمْ أَجْرُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا أَبْقَوْهُ لِلأَكْلِ فَإِنَّهُ يَذْهَبُ وَيَفْنَى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٨)

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٢٤٠)، والترمذي (٢٤٧٠)، وهو في "الصحيحة"(٢٥٤٤). وفي "الصحيح المسند"(١٥٨٢).

❁ قَالَ المُبَارَكْفُورِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ: مَا تَصَدَّقْتِ بِهِ فَهُوَ بَاقٍ وَمَا بَقِيَ عِنْدَكِ فَهُوَ غَيْرُ بَاقٍ

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ النحل [٩٦].(١)

وفي الحديث عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا، وَإِنْ قَزَّحَهُ، وَمَلَّحَهُ فَانْظُرُوا إِلَى مَا يَصِيرُ».(٢)

وَقَوْلُهُ "قَزَّحَهُ" مَعْنَاهُ: وَضَعَ لَهُ التَّوَابِلَ كَمَا يُقَالُ: البَهَارَاتُ وَالمُحَسِّنَاتُ وَمَا شَابَهَ ذَلِكَ.

فكل ما تحصل عليه من الدنيا يفني، ولا ينتفعُ به إذا حُرِم من التزود منها لآخرته

❁ ولهذا قال:

فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا ... مِنَ الْفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرِمْتَا

---

(١) "تحفة الأحوذي" (٧/ ١٤٢).

(٢) حسن، رواه أحمد (٢١٢٣٩)، والبيهقي في "الشعب" (٩٩٩٠)، والطبراني في "الكبير" (٥٣١)، وهو في "الصحيحة"(٣٨٢)، وفي "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين"(١).

البيت رقم٥٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلاَ تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْماً فَإِنْكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا

شرح البيت رقم ٥٦

الجُلُوسُ مَعَ السُّفَهَاءِ وَالضَّحِكُ مَعَهُمْ مُضَيِّعَةٌ لِلأَوْقَاتِ، مَذْهَبٌ لِلأَعْمَارِ، طَرِيقُ الخَسَارَةِ وَالنَّدَامَةِ.

الْعُمْرُ أَقصَرُ مُدَّةً مِنْ أَنْ يَضِيعَ فِي الحِسَابْ
فَاغْتَنِمُوا سَاعَاتَهُ فَمُرُورُهَا مَرَّ السَّحَابْ

❁ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الفَقِيهُ الشَّافِعِيُّ المَرَاغِيُّ: (١)

إِذَا رَأَيْتَ شَبَابَ الْحَيِّ قَدْ نَشَئُوا لَا يَحْمِلُونَ قِلَالَ الْخِيرِ وَالْوَرَقَا
وَلَا تَرَاهُمْ لَدَى الْأَشْيَاخِ فِي حِلَقٍ يَعُونَ مِنْ صَالِحِ الْأَخْبَارِ مَا اتَّسَقَا
فَعَدِّ عَنْهُمْ وَدَعْهُمْ إِنَّهُمْ هَمَجُ قَدْ بَدَّلُوا بِعُلُوِّ الْهِمَّةِ الْحُمُقَا

وذكرها بعضهم بلفظ: فَدَعْهُمُ عَنْكَ وَاعْلَمْ أَنَّهُمْ هَمَجٌ.

إِذَا رَأَيْتَ الشباب قَدْ نَشَأُوا عَلَى غَيْرِ العِلْمِ وَغَيْرِ الخَيْرِ وَالاسْتِقَامَةِ، فَاتْرُكْهُمْ وَلَا تُجَالِسْهُمْ، فَاسْتَبْدَلُوا الأَعْلَى بِالأَدْنَى، وَعُلُوَّ الهِمَّةِ بِالحُمْقِ. وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ النجم [٢٩]. وَقَالَ: ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنعام [٦٨]، وقَالَ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي

(١) "أدب الإملاء والاستملاء" (صـ: ١٥٣)، "تاريخ دمشق" لابن عساكر (٥٢/ ٣٤٣)، "نشر طي التعريف"(صـ:٢١٢) وفي بعض المصادر أنشدها للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ الفرقان [٢٧-٢٩].

"وَلاَ تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْماً"، لَا تُجَالِسْهُمْ، لَا تُضَاحِكْهُمْ، ولَا تَأْوِي إِلَيْهِمْ وانظر من تصاحِب. فَعِنْدَ أَحْمَدَ، وَأَبِي دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ».(١)

❁ قَالَ السِّنْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الصُّحْبَةُ تُؤَثِّرُ فِي الصَّلَاحِ وَغَيْرِهِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَخْتَارَ صُحْبَةَ الصَّالِحِينَ وَخُلَّتَهُمْ، لَا صُحْبَةَ الأَشْرَار(٢)

❁ وقَالَ الْمُبَارَكفُورِي رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلْيَنْظُرْ) أَيْ: فَلْيَتَأَمَّلْ وَلْيَتَدَبَّرْ. (مَنْ يُخَالِلْ) مِنَ الْمُخَالَّةِ وَهِيَ الْمُصَادَقَةُ وَالْإِخَاءُ فَمَنْ رَضِيَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ خَالَلَهُ، وَمَنْ لَا تَجَنَّبَهُ؛ فَإِنَّ الطِّبَاعَ سَرَّاقَةٌ، وَالصُّحْبَةُ مُؤَثِّرَةٌ فِي إِصْلَاحِ الْحَالِ وَإِفْسَادِهِ.(٣)

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً».(٤)

فَجَلِيسُ السُّوءِ كَنَافِخِ الْكِيرِ، لَا تَجِدُ مِنْهُ خَيْرًا.

---

(١) حسن، أخرجه أحمد (٨٠٢٨)، (٨٤١٧)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وغيرهم. وهو في "الصحيحة"(٩٢٧)، وفي "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" (١٢٧٢).

(٢) "حاشية السندي على مسند الإمام أحمد" (٨/ ٣٣١)، عند هذا الحديث.

(٣) "تحفة الأحوذي" (٧/ ٤٢).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

❁ وَمِمَّا يُعْزَى لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:[١] كَمَا فِي «الْعُزْلَةِ» لِلْخَطَّابِيِّ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا وُجِدَتْ مَكْتُوبَةً عَلَى حَجَرٍ كَمَا فِي "تَارِيخِ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ":

لَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ ... وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى ... حَلِيمًا حِينَ آخَاهُ
يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ ... إِذَا مَا الْمَرْءُ مَاشَاهُ
وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ ... مَقَايِيسٌ وَأَشْبَاهُ
وَلِلْقَلْبِ مِنَ الْقَلْبِ ... دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

وإن كان سندها إليه لا يثبت فمعناها صحيح.

❁ قَالَ الْمُنَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قِيلَ: صُحْبَةُ الْأَخْيَارِ تُورِثُ الْخَيْرَ، وَصُحْبَةُ الْأَشْرَارِ تُورِثُ الشَّرَّ، كَالرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ عَلَى النَّتْنِ حَمَلَتْ نَتْنًا، وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى الطِّيبِ حَمَلَتْ طِيبًا.

❁ وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ: لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ مُحِبٌّ وَمُبْغِضٌ، فإذن لابدَّ من ذلك، فليكنِ المرجعُ أهل طاعة الله تعالى.[٢]

❁ وقد قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: احْذَرْ صُحْبَةَ ثَلَاثَةٍ: الْجَبَابِرَةِ الْغَافِلِينَ، وَالْقُرَّاءِ الْمُدَاهِنِينَ، وَالصُّوفِيَّةِ الْجَاهِلِينَ.[٣]

---

(١) "العزلة للخطابي" (صـ: ٤٩)، و"آداب الصحبة" لأبي عبد الرحمن السلمي (صـ: ٤٣) (رقم:٩). من طريق مجالد عن الشعبي قال: قال: علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومجالد ضعيف، والشعبي قد ثبت سماعه من علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما بين ذلك الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "الإرواء"(٢٣٤٠)، (٨/٨).

وهو أيضاً في "التاريخ الكبير" لابن أبي خيثمة (١٠٠١/٢)، قال آدَمُ بْنُ عُيَيْنَةَ: قُلِبَ حَجَرٌ بأرض الرُّوم فإذا فيه مكتوبًا فذكره ... وفي "المجالسة" للدينوري (١٣٧٩).

(٢) "فيض القدير" (٦/ ٤٠٥)، وأثر الشافعي -رَحِمَهُ اللَّهُ، في "مناقب الشافعي" للبيهقي (١٧٢/٢).

(٣) كما في "فيض القدير" (٦/ ٤٠٥)،

❁ وقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصَّاحِبُ لِلصَّاحِبِ كَالرُّقْعَةِ فِي الثَّوْبِ، إِذَا لَمْ تَكُنْ مِثْلَهُ شَانَتْهُ". (١)

والصاحبُ المستقيم الوفي عونٌ لك في دينك ودنياك

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا بِإِخْوَانِهِ ... كَمَا يَقْبِضُ الْكَفُّ بِالْمِعْصَمِ
وَلَا خَيْرَ فِي الْكَفِّ مَقْطُوعَةً ... وَلَا خَيْرَ فِي السَّاعِدِ الأَجْذَمِ

الخِصَالُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي الإخاء

❁ قَالَ الْمَرْدَاوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَالْخِصَالُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي إِخَائِهِمْ بَعْدَ الْمُجَانَسَةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ الِاتِّفَاقِ أَرْبَعُ خِصَالٍ:

فَالْخَصْلَةُ الْأُولَى: عَقْلٌ مَوْفُورٌ، يَهْدِي إِلَى مَرَاشِدِ الْأُمُورِ.

فَإِنَّ الْحُمْقَ لَا تَثْبُتُ مَعَهُ مَوَدَّةٌ، وَلَا تَدُومُ لِصَاحِبِهِ اسْتِقَامَةٌ...

وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ: الدِّينُ الْوَاقِفُ بِصَاحِبِهِ عَلَى الْخَيْرَاتِ، فَإِنَّ تَارِكَ الدِّينِ عَدُوٌّ لِنَفْسِهِ، فَكَيْفَ يُرْجَى مِنْهُ مَوَدَّةُ غَيْرِهِ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: اصْطَفِ مِنَ الْإِخْوَانِ ذَا الدِّينِ وَالْحَسَبِ وَالرَّأْيِ وَالْأَدَبِ، فَإِنَّهُ رِدْءٌ لَك عِنْدَ حَاجَتِك، وَيَدٌ عِنْدَ نَائِبَتِك، وَأُنْسٌ عِنْدَ وَحْشَتِك، وَزَيْنٌ عِنْدَ عَافِيَتِك....

وَالْخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ يَكُونَ مَحْمُودَ الْأَخْلَاقِ، مَرْضِيَّ الْأَفْعَالِ، مُؤْثِرًا لِلْخَيْرِ، آمِرًا بِهِ، كَارِهًا لِلشَّرِّ، نَاهِيًا عَنْهُ.

فَإِنَّ مَوَدَّةَ الشِّرِيرِ تَكْسِبُ الْأَعْدَاءَ، وَتُفْسِدُ الْأَخْلَاقَ، وَلَا خَيْرَ فِي مَوَدَّةٍ تَجْلِبُ عَدَاوَةً، وَتُورِثُ مَذَمَّةً، فَإِنَّ الْمَتْبُوعَ تَابِعُ صَاحِبَهُ...

---

(١) كما في "غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب" (٢/ ٤٧٧)، وقبله في "المستطرف" (صـ: ١٣٠).

❁ وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مُخَالَطَةُ الْأَشْرَارِ عَلَى خَطَرٍ، وَالصَّبْرُ عَلَى صُحْبَتِهِمْ كَرُكُوبِ الْبَحْرِ، الَّذِي مَنْ سَلِمَ مِنْهُ بِبَدَنِهِ مِنَ التَّلَفِ فِيهِ، لَمْ يَسْلَمْ بِقَلْبِهِ مِنَ الْحَذَرِ مِنْهُ.

❁ وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: صُحْبَةُ الْأَشْرَارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْأَخْيَارِ.

❁ وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مِنْ خَيْرِ الِاخْتِيَارِ صُحْبَةُ الْأَخْيَارِ، وَمِنْ شَرِّ الِاخْتِيَارِ صُحْبَةُ الْأَشْرَارِ.

وَالْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ: أَنْ يَكُونَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَيْلٌ إِلَى صَاحِبِهِ وَرَغْبَةٌ فِي مُؤَاخَاتِهِ.

فَإِنَّ ذَلِكَ أَوْكَدُ لِحَالِ الْمُؤَاخَاةِ وَأَمَدُّ لِأَسْبَابِ الْمُصَافَاةِ، إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَطْلُوبٍ إِلَيْهِ طَالِبًا وَلَا كُلُّ مَرْغُوبٍ إِلَيْهِ رَاغِبًا. وَمَنْ طَلَبَ مَوَدَّةَ مُمْتَنِعٍ عَلَيْهِ، وَرَغِبَ إِلَى زَاهِدٍ فِيهِ، كَانَ مُعَنًّى خَائِبًا... فَإِذَا اسْتَكْمَلَتْ هَذِهِ الْخِصَالُ فِي إِنْسَانٍ وَجَبَ إِخَاؤُهُ، وَتَعَيَّنَ اصْطِفَاؤُهُ. وَبِحَسَبِ وُفُورِهَا فِيهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَيْلُ إِلَيْهِ وَالثِّقَةُ بِهِ. (١)

فَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي له أَنْ يَخْتَارَ الصُّحْبَةَ الصَّالِحَةَ الْحَسَنَةَ، وَلَا يَغْتَرَّ بِصَاحِبِ مَنْظَرٍ لِحُسْنِ مَنْظَرِهِ، وَهُوَ صَاحِبُ رِيبَةٍ وَمَكْرٍ.

❁ وَقَدْ ضَرَبَ ذُو الرُّمَّةِ مَثَلًا بِالْمَاءِ فِيمَنْ حَسُنَ ظَاهِرُهُ، وَخَبُثَ بَاطِنُهُ، فَقَالَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ ... وَإِنْ كَانَ لَوْنُ الْمَاءِ أَبْيَضَ صَافِيَا

❁ وَنَظَرَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ إِلَى رَجُلٍ سُوءٍ حَسَنِ الْوَجْهِ فَقَالَ: أَمَّا الْبَيْتُ فَحَسَنٌ، وَأَمَّا السَّاكِنُ فَرَدِيءٌ. (٢)

---

(١) " أدب الدنيا والدين " (صـ: ١٦٧ إلى ١٦٩).

(٢) "أدب الدنيا والدين" (صـ: ١٦٦).

فَلَا يَغْتَرَّ الْإِنْسَانُ بِمَنْ يَرَى عَلَى وَجْهِهِ وَتَقَاسِيمِهِ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ مَعَ وُجُودِ الرِّيبَةِ فِيهِ أَوِ الْمَكْرِ والْخِيَانَةِ، أَوِ التَّلَاعُبِ بِالدِّينِ أَوِ الْإِهْمَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالطَّبْعُ يَغْلِبُ التَّطَبُّعَ، هَذَا هُوَ الْأَصْلُ.

وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَخْتَبِرَ أَخْلَاقَ النَّاسِ إِذَا أَرَادَ صُحْبَةَ أَحَدٍ، يَخْتَبِرُ أَخْلَاقَهُ.

❁ قال بعضُهم:

لَا تَـرْكَـنَـنَّ إِلَى ذِي مَـنْـظَـرٍ حَسَـنٍ ... فَـرُبَّ رَائِـقَـةٍ قَـدْ سَـاءَ مَخْـبَرُهَـا
مَـا كُـلُّ أَصْـفَـرَ دِينَـارٌ لِصُـفْـرَتِـهِ ... صُـفْـرُ الْـعَـقَـارِبِ أَرْدَاهَـا وَأَنْـكَـرَهَـا

ثُمَّ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ الْحُكَمَاءِ: مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ الِامْتِحَانَ قَبْلَ الثِّقَةِ، وَالثِّقَةَ قَبْلَ أُنْسٍ، أَثْمَرَتْ مَوَدَّتُهُ نَدَمًا. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مُصَارَمَةٌ قَبْلَ اخْتِبَارٍ، أَفْضَلُ مِنْ مُؤَاخَاةٍ عَلَى اغْتِرَارٍ.

❁ وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: لَا تَثِقْ بِالصَّدِيقِ قَبْلَ الْخِبْرَةِ، وَلَا نَفْعَ بِالْعَدُوِّ قَبْلَ الْقُدْرَةِ.(١)

❁ وَكَمَا قِيلَ:(٢)

عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْـأَلْ وَسَـلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَـكُـلُّ قَـرِيـنٍ بِـالْمُـقَـارَنِ يَـقْـتَـدِي
فَـإِنْ كَـانَ ذَا شَرٍّ فَـجَـنِّـبْـهُ سُرْعَـةً ... وَإِنْ كَـانَ ذَا خَـيْرٍ فَـقَـارِنْـهُ تَهْـتَـدِي
إِذَا كُنْـتَ فِي قَوْمٍ فَصَـاحِبْ خِيَارَهُم ... وَلَا تَصْـحَبْ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

❁ قال ابنُ حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن من أعظم الدلائل على معرفةِ مَا فيه المرء من تقلبه وسكُونهِ هو الاعتبارُ بمن يحادثهُ ويوده؛ لأن المرء على دين خليله وطيرُ السماء على أشكالها تقعُ

(١) "أدب الدنيا والدين" (صـ: ١٦٦).

(٢) "كشف الخفاء" ط القدسي (٢/ ٢٠١).

وما رأيتُ شيئا أدلَّ عَلَى شَيْءٍ وَلَا الدُّخَانُ عَلَى النَّارِ مِنَ الصَّاحِبِ عَلَى الصَّاحِبِ.(١)

مَنْ يُجَالِسُ الْأَشْرَارَ بِهِمْ يُلْحَقُ، مَنْ يُجَالِسُ أَهْلَ اللَّعِبِ بِهِمْ يُلْحَقُ، مَنْ يُجَالِسُ أَهْلَ الضَّلَالِ وَالْبِدَعِ بِهِمْ يُلْحَقُ، مَنْ يُجَالِسُ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالزَّنْدَقَةِ بِهِمْ يُلْحَقُ، مَنْ يُجَالِسُ أَهْلَ الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ بِهِمْ يُلْحَقُ.

❁ مَنْ خَفِيَتْ عَلَيْنَا بِدْعَتُهُ لَمْ تَخْفَ عَلَيْنَا أُلْفَتُهُ.(٢)

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه قَالَ: «فَيَقُولُ (أي: الله): فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ». ولفظ مسلم: «قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».(٣)

فَالْمَجَالِسُ يُنسبُ إِلَى مَنْ يُجَالِسُهُ، وَلا يُجَالِسُ الْإِنْسَان فِي الْغَالِبِ إِلَّا مَنْ يَرْتَضِي مِنْهُمْ الْفِعَالَ، فَلَوْ كَانَ كَارِهًا لَهُم لَمْ يُجَالِسْهُمْ.

❁ قَالَ بَعْضُهُمْ:

مَـالِي أَرى الشَّـمْعَ يَبْكِي فِيْ مَوَاقِدِهِ ... مِنْ حُرْقَةِ النَّارِ أَمْ مِنْ فُرْقَةِ العَسَـلِ

الشَّمْعُ حِينَ يُشْعَلُ وَتَرَى أَنَّهُ يَذُوبُ، تِلْكَ الْفَتِيلَةُ تَشْتَعِلُ وَيَذُوبُ مَا حَوْلَهَا.

---

(١) "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء" (صـ: ١٠٨). والجملة الأخيرة عزاها الماوردي لابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في "أدب الدنيا والدين" (صـ:١٦٥)، ولم أره مسنداً إليه، وعُزِيَ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) "الإبانة" لابن بطة (٢/٤٥٢)، (٢/٤٧٩)، و "شرح أصول الاعتقاد" رقم:(٢٥٧) "الإخوان" لابن أبي الدنيا رقم: (٤٠).

(٣) البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

فَيَقُولُ هَذَا: لِمَاذَا هَذَا الشَّمْعُ يَبْكِي فِي مَوَاطِنِهِ؟

هَلْ يَبْكِي بِسَبَبِ النَّارِ الْمُحْتَرِقَةِ الَّتِي فِيهِ؟

أَمْ مِن فُرْقَةِ الْعَسَلِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ الشَّمْعَ الْأَصْلُ مِنَ الْعَسَلِ مَأْخُوذٌ، أَوْ مِنْ شَبَكَةِ الْعَسَلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

هَلْ هَذَا الْبُكَاءُ بِسَبَبِ تِلْكَ النَّارِ أَمْ بِسَبَبِ مُفَارَقَتِهِ لِأَصْلِهِ، وَمُفَارَقَتِهِ لِمَوْطِنِهِ وَمَعْدِنِهِ الْأَصْلِ.؟

قِيلَ بِإِنَّ هَذَا الْبَيْتَ عُرِضَتْ جَائِزَةٌ لِمَنْ يُجِيبُ عليه، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: مِنْ حُرْقَةِ النَّارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: مِنْ فُرْقَةِ الْعَسَلِ لِفِرَاقِ الْعَسَلِ،

❁ وَأَجَابَ بَعْضُهُمْ فَقَالَ:

مَـن لمْ تُجَـانِســهُ اِحْـذَرْ أَنْ تُجَـالِسَــهُ مَـا ضَرَّ بـالشَّــمْعِ إِلاَّ صُــحْبَةُ الفَتَـل

مَنْ لَمْ تُجَانِسْهُمْ فَاحْذَرْ أَنْ تُجَالِسَهُمْ، احْذَرْ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُجَانِساً لَكَ، فَاحْذَرْ مَنْ مُجالستِه، فَمَنْ جَالَسَ غَيْرَ جِنْسِهِ يَحْدُثُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الضَّرَرَ.

مَا ضَرَّ بِالشَّمْعِ إِلَّا صُحْبَةُ الْفَتَلِ، الَّذِي أَثَّرَ عَلَى الشَّمْعِ هُوَ وُجُودُ شَيْءٍ فِيهِ لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ، تِلْكَ الْفَتِيلَةُ، مَا ضَرَّ بِالشَّمْعِ إِلَّا صُحْبَةُ الْفَتِيلِ.

فَمَنْ جَالَسَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِهِ فَإِنَّهُ يَتَأَثَّرُ بِمُجَالَسَتِهِ.

كَمْ مِنْ مُجْتَهِدٍ يُجَالِسُ لَعَبًا؟ فَيَصِيرُ لَعَبًا مِثْلَهُ، فَاسِدًا خَارِبًا بِسَبَبِ تِلْكَ الْمُجَالَسَةِ.

وَكَمْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ كان مُجْتَهِداً فَيُجَالِسُ أَهْلَ الدُّنْيَا فَيَصِيرُ مَائِلًا إِلَيْهَا، ذَاهِبًا إِلَيْهَا، أو يجالسُ أهلَ الشرِ والفساد فيصيرُ من جنسِهم.

وَصُـــحْـبَـةُ الأَخْـيَـارِ لِـلْـقَـلْـبِ دَوَا يَـزِيـدُ فِي الْـقَـلْـبِ نَشَـــاطاً وَقُـوَى
وَصُـــحْـبَـةُ الأَشْرَارِ لِـلْـقَـلْـبِ عَـمَـى يَـزِيـدُ فِي الْـقَـلْـبِ السَّـــقِـيـمِ سَـــقَـمَا

فَالصُّحْبَةُ مُؤَثِّرَةٌ وَالصَّاحِبُ سَاحِبٌ، وَلْيَحْذَرِ الْإِنْسَانُ مِنَ الصُّحْبَةِ وَلْيَخْتَرِ الصَّدِيقَ النَّاصِحَ الصَّافِيَ النَّقِيَّ الْمَأْمُونَ الْأَخْلَاقِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ، فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ.

مَا كُلُّ مَنْ رَأَيْتَهُ حَسَنَ الْمَنْظَرِ، أَوْ أَظْهَرَ بَعْضَ الْأَخْلَاقِ تَرَاهُ أَهْلًا لِلصُّحْبَةِ، لَا بَعْضُ النَّاسِ يَتَسَاهَلُ فِيهَا فَلَا يَدْرِي إِلَّا وَقَدْ وَقَعَ صَيْدًا فِي شِبَاكِهَا، مُتَأَثِّرًا مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَأَثَّرَ الْجَلِيسُ بِجَلِيسِهِ، وَلَوْ جَالَسَ الْبَهَائِمَ، فَإِنَّ الْجَلِيسَ يَتَأَثَّرُ بِجَلِيسِهِ.

لِذَلِكَ تجدُ منْ كَانَ يُجَالِسُ الْغَنَمَ وَيَرْعَاهَا، تَجِدُ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ، وَالْوَقَارَ، وَالتَّوَاضُعَ.

وَمَنْ يُجَالِسُ الْإِبِلَ وَيَرْعَاهَا تَجِدُ عِنْدَهُ الْفَخْرَ وَالْخُيَلَاءَ. والشدة.

والمُجتهدُ يتأثرُ بمجالسةِ الكسلان، فَالْجَلِيسُ يَتَأَثَّرُ بِجَلِيسِهِ ولا بد.

لَا تَصْـــحَـبِ الْـكَسْـــلَانَ فِي حَـالَاتِـهِ كَـمْ صَـــالِـعٍ بِـفَسَـــادِ آخَـرَ يَـفْسُـــدُ
عَـدْوَى الْـبَـلِـيـدِ إِلَى الْجَـلِـيـدِ سَرِيـعَـةٌ كَـالْجَمْرِ يُوضَـــعُ فِي الرَّمَـادِ فَتَخْمُـدُ

البيت رقم٥٧

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَنْ لَكَ بِالسُّـــرُورِ وَأَنْتَ رَهْنٌ وَمَا تَدْرِي أَتُفْدَى أَمْ غُلِلْتَا

شرح البيت رقم ٥٧

أَيْ: كَيْفَ تَلْهُو وَتَلْعَبُ وَتَكُونُ فِي سُرُورٍ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي هَلْ سَتُفْدَى مِنْ عَذَابِ اللهِ وَنَارِهِ أَمْ لَا؟

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدِ التَقَمَ صَاحِبُ القَرْنِ القَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخَ» قَالَ المُسْلِمُونَ: فَكَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ رَبِّنَا». (١)

❁ قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (روي من حديث أبي سعيد الخدري، وابن عباس، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، والبراء بن عازب). (٢)

وَجَاءَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ صَاحِبَيِ الصُّورِ بِأَيْدِيهِمَا، أَوْ فِي أَيْدِيهِمَا قَرْنَانِ، يُلَاحِظَانِ النَّظَرَ مَتَى يُؤْمَرَانِ». وَهُوَ مُنْكَرٌ بِهَذَا اللَّفْظِ. والمحفوظ بلفظِ: صاحب القرن... (٣)

(أَنْعَمُ) أَيْ أَفْرَحُ وَأَتَنَعَّمُ مِنْ نَعِمَ عَيْشُهُ كَفَرِحَ اتَّسَعَ وَلَانَ كَذَا فِي "الْمِصْبَاحِ"

---

(١) أخرجه أحمد (١١٠٣٩)، الترمذي (٣٢٤٣)، وهو في "الصحيحة" برقم:(١٠٧٩).

(٢) "الصحيحة" برقم:(١٠٧٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٧٣). وينظر المصدر السابق من "الصحيحة"

وَفِي "النِّهَايَةِ" هُوَ مِنَ النِّعْمَةِ بِالْفَتْحِ وَهِيَ الْمَسَرَّةُ وَالْفَرَحُ وَالتَّرَفُّهُ (وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ) أَيْ وَضَعَ طَرَفَ الْقَرْنِ فِي فَمِهِ (وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مني يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخَ وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ فِي التَّفْسِيرِ: وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ وَالظَّاهِرُ أَنَّ كُلًّا مِنَ الِالْتِقَامِ، وَالْإِصْغَاءِ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَأَنَّهُ عِبَادَةٌ لِصَاحِبِهِ بَلْ هُوَ مُكَلَّفٌ بِهِ.

❁ وَقَالَ الْقَاضِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَعْنَاهُ كَيْفَ يَطِيبُ عَيْشِي وَقَدْ قَرُبَ أَنْ يَنْفُخَ فِي الصُّورِ فَكَنَّى عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ صَاحِبَ الصُّورِ وَضَعَ رَأْسَ الصُّورِ فِي فَمِهِ وَهُوَ مُتَرَصِّدٌ مُتَرَقِّبٌ لِأَنْ يُؤْمَرَ فَيَنْفُخَ فِيهِ.ا.هـ.(١)

الْإِنْسَانُ لَا يَدْرِي، أَيُفْدَى مِنْ عَذَابِ اللهِ أَمْ لَا؟ وكيفَ سيكونُ حالُهُ في هذِهِ المواقف؟ وَالنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». كَمَا جَاءَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا (٢)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(٣)، وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا.(٤)

فَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَذَكَّرَ مَرْحَلَةَ الْقُدُومِ عَلَى اللهِ وَأَنَّهُ سَيُحَاسَبُ عَلَى الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ.

دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ كَانَ فِي زَمَنِ الصِّبَا ... وَاذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكِهَا يَا مُذْنِبُ
وَاذْكُرْ مُنَاقَشَةَ الحِسَابِ فَإِنَّهُ ... لا بُدَّ يُحْصَى مَا جَنَيْتَ وَيُكْتَبُ
لَمْ يَنْسَهُ المَلَكَانِ حِينَ نَسِيتَهُ ... بَلْ أَثْبَتَاهُ وَأَنْتَ لاَهٍ تَلْعَبُ

---

(١) "تحفة الأحوذي" (٧/ ١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٤٤)، (٥٢٢١)، ومسلم (٩٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٢١)، (٦٤٨٦)، ومسلم (٤٢٦)، (٢٣٥٩).

وَالـرُّوْحُ فِـيْـكَ وَدِيْـعَـةٌ أُوْدِعْـتَـهَـا ... سَـتَرُدُّهَـا بـالـرَّغْـمِ مِـنْـكَ وَتُسْـلَـبُ
وَغُـرُورُ دُنْـيَـاكَ الـتِـيْ تَسْـعَـى لَهَـا ... دَارٌ حَـقِـيْـقَـتُـهَـا مَـتَـاعٌ يَـذْهَـبُ
والـلَّـيْـلَ فـاعْـلَـمْ والـنَّـهَـارَ كِـلاَهُمَـا ... أَنْـفَـاسُـنَـا فِـيْـهَـا تُـعَـدُّ وَتَحْسَـبُ
وَجَـمِـيْـعُ مَـا خَـلَّـفْـتَـهُ وَجَـمَـعْـتَـهُ ... حَـقًّـا يَـقِـيْـنًـا بَـعْـدَ مَـوْتِـكَ يُـنْـهَـبُ

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا».(١)

❁ قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: فَمَعْنَاهُ: كُلُّ إِنْسَانٍ يَسْعَى بِنَفْسِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَبِيعُهَا لِلَّهِ تَعَالَى بِطَاعَتِهِ فَيُعْتِقُهَا مِنَ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبِيعُهَا لِلشَّيْطَانِ وَالْهَوَى بِاتِّبَاعِهِمَا فَيُوبِقُهَا، أَيْ: يُهْلِكُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(٢)

❁ وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَدَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فَهُوَ سَاعٍ فِي هَلَاكِ نَفْسِهِ، أَوْ فِي فَكَاكِهَا، فَمَنْ سَعَى فِي طَاعَةِ اللَّهِ، فَقَدْ بَاعَ نَفْسَهُ لِلَّهِ، وَأَعْتَقَهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَمَنْ سَعَى فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَقَدْ بَاعَ نَفْسَهُ بِالْهَوَانِ، وَأَوْبَقَهَا بِالْآثَامِ الْمُوجِبَةِ لِغَضَبِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ،

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ التوبة [١١١]. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ التوبة [١١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ البقرة [٢٠٧].وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الزمر [١٥].

وَفِي "الصَّحِيحَيْنِ" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء [٢١٤].يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٢) "شرح مسلم" للنووي رَحِمَهُ اللَّهُ عند الحديث رقم:(٢٢٣).

أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[١] وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، يَا عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللَّهِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».[٢] وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ «أَنَّهُ دَعَا قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».[٣]

وَقَدِ اشْتَرَى جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَمْوَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَصَدَّقَ بِمَالِهِ كُلِّهِ كَحَبِيبٍ أَبِي مُحَمَّدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَصَدَّقَ بِوَزْنِهِ فِضَّةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَوْ أَرْبَعًا، كَخَالِدٍ الطَّحَاوِيِّ. وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَجْتَهِدُ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَنَا أَسِيرٌ أَسْعَى فِي فَكَاكِ رَقَبَتِي، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُسَبِّحُ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ تَسْبِيحَةٍ بِقَدْرِ دِيَتِهِ، كَأَنَّهُ قَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَفْتَكُّهَا بِدِيَتِهَا.

❁ قَالَ الْحَسَنُ: الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا كَالْأَسِيرِ، يَسْعَى فِي فَكَاكِ رَقَبَتِهِ، لَا يَأْمَنُ شَيْئًا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.[٤]

❁ وَقَالَ: ابْنُ آدَمَ، إِنَّكَ تَغْدُو وَتَرُوحُ فِي طَلَبِ الْأَرْبَاحِ، فَلْيَكُنْ هَمُّكَ نَفْسَكَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَرْبَحَ مِثْلَهَا أَبَدًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤)، (٢٠٦).

(٢) البخاري (٣٥٢٧).

(٣) مسلم (٢٠٤).

(٤) أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (٣٠٧)، ومن طريقه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٢٠٩)، وأبو نعيم في "الحلية"(٢/٢٥٧)، وابن الجوزي في "ذم الهوى"(صـ:٤٢)، وفي "صفة الصفوة"(٢/١٣٨). كلهم من طريق مَعْمَر، عَنْ يَحْيَى بْنِ الْمُخْتَارِ، عَنِ الْحَسَنِ فذكره، وهذه جملة من كلام أطول، ويحيى بن المختار الصنعاني مجهول.

❁ قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ: قَالَ لِي رَجُلٌ مَرَّةً وَأَنَا شَابٌّ: خَلِّصْ رَقَبَتَكَ مَا اسْتَطَعْتَ فِي الدُّنْيَا مِنْ رِقِّ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ أَسِيرَ الْآخِرَةِ غَيْرُ مَفْكُوكٍ أَبَدًا، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا نَسِيتُهَا بَعْدُ. (١)

❁ وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَبْكِي، وَيَقُولُ: لَيْسَ لِي نَفْسَانِ، إِنَّمَا لِي نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، إِذَا ذَهَبَتْ لَمْ أَجِدْ أُخْرَى.

❁ وَقَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الْجَنَّةَ ثَمَنًا لِأَنْفُسِكُمْ، فَلَا تَبِيعُوهَا بِغَيْرِهَا. (٢).ا.هـ. (٣)

❁ قَالَ رَجُلٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ: (٤)

أُثَامِنُ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةِ رَبَّهَا ... وَلَيْسَ لَهَا فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ ثَمَنُ
بِهَا تُمْلَكُ الْأُخْرَى فَإِنْ أَنَا بِعْتُهَا ... بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَذَاكَ هُوَ الْغَبَنُ
لَئِنْ ذَهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيَا أُصِيبُهَا ... لَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي وَقَدْ ذَهَبَ الثَّمَنُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "محاسبة النفس" (١٠٨)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٠٤)، عن مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنِي رُسْتُمُ بْنُ أُسَامَةَ، حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ رُسْتُمَ الْخَيَّاطُ، جَلِيسٌ لِأَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَجُلٌ مَرَّةً وَأَنَا شَابٌّ: فذكره. وإبراهيم بن رستم الخياط، وقيل: الحناط، قال في "لسان الميزان" ت أبي غدة (١/ ٢٨٠): أما إبراهيم بن رستم الحناط الكوفي جليس أبي بكر بن عياش **فما عرفت فيه مقالا**.

(٢) أخرجه أبو نعيم في "الحلية"(٣/١٧٦)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٥٤/٣٣٦)، وابن الجوزي في "المنتظم"، وفيه مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَجِيدِ التميمي، قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وهو ضعيف**. ضعفه تمتام. "تاريخ الإسلام" ت بشار(٥/ ٩٢٣)، "تاريخ بغداد" ت بشار (٣/ ٦٨٢).

(٣) "جامع العلوم والحكم" ت الأرنؤوط (٢/ ٢٨).

(٤) "المحاسبة" رقم:(٧٥) لابن أبي الدنيا. وأسنده الثعلبي في "الكشف والبيان عن تفسير القرآن" (٥/ ٩٧)، عن جعفر الصادق، وفي سنده أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب، قال الذهبي: وهاه الْحَاكِمِ فِي رقْعَة بِخَطِّهِ "المغني في الضعفاء" (١/ ١٦٦)، وفيه عيسى بن زيد العقيلي، كذاب "لسان الميزان" ت أبي غدة (٦/ ٢٦٣)

البيت رقم ٥٨

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَسَـــلْ مِنْ رَبِّـكَ التَّوْفِيقَ فِيهَـا ... وَأَخْلِصْ فِي السُّـــؤَالِ إِذَا سَـــأَلْتَـا

شرح البيت رقم ٥٨

التَّوْفِيقُ بِيَدِ اللهِ، وَمَا مِنْ خَيْرٍ إِلَّا وَأَصْلُهُ مِنْ تَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْعَبْدِ.

وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ آل عمران [٨]. وَالْقُلُوبُ كما جاء في الحديثِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ».

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ».(١)

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ».(٢)

قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَفِي الْبَابِ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، وَأُمِّ سَلَمَةَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، وَعَائِشَةَ، وَأَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وعن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ " قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ». فَتَلَا مُعَاذٌ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ آل عمران [٨].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وهو في "صحيح الجامع الصغير" برقم: (٧٩٨٧)

وقال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَفِي البَابِ عَنْ عَائِشَةَ، وَالنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، وَأَنَسٍ، وَجَابِرٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَنُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ. (١)

فيحتاجُ العبدُ إلى تثبيتِ اللهِ لهُ، وتوفيقِهِ، ومعونتِهِ، ويدعو اللهَ تعالى بذلك.

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَى أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ فَأَصْلُهُ بِتَوْفِيقِ اللهِ لِلْعَبْدِ، وَكُلَّ شَرٍّ فَأَصْلُهُ خِذْلَانُهُ لِعَبْدِهِ،

وَأَجْمَعُوا أَنَّ التَّوْفِيقَ أَلَّا يَكِلَكَ اللهُ إِلَى نَفْسِكَ، وَأَنَّ الْخِذْلَانَ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ. فَإِذَا كَانَ كُلُّ خَيْرٍ فَأَصْلُهُ التَّوْفِيقُ، وَهُوَ بِيَدِ اللهِ لَا بِيَدِ الْعَبْدِ، فَمِفْتَاحُهُ الدُّعَاءُ، وَالِافْتِقَارُ، وَصِدْقُ اللَّجَاءِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ إِلَيْهِ.

فَمَتَى أُعْطِيَ الْعَبْدُ هَذَا الْمِفْتَاحَ فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ. وَمَتَى أَضَلَهُ عَنِ الْمِفْتَاحِ بَقِيَ بَابُ الْخَيْرِ مُرْتَجًا دُونَهُ. (٢)

فالتَّوْفِيقُ مِنَ اللهِ وَمِفْتَاحُ التَّوْفِيقِ دُعَاءُ اللهِ.

❁ وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: وَلَا سَبِيلَ إِلَى طَاعَتِهِ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ، وَلَا وُصُولَ إِلَى مَرْضَاتِهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِهِ، فَمَوَارِدُ الْأُمُورِ كُلُّهَا مِنْهُ، وَمَصَادِرُهَا إِلَيْهِ، وَأَزِمَّةُ التَّوْفِيقِ جَمِيعُهَا بِيَدَيْهِ فَلَا مُسْتَعَانَ لِلْعِبَادِ إِلَّا بِهِ، وَلَا مُتَّكَلَ إِلَّا عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود [٨٨]. (٣)

❁ قال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دَلِيل على أَن الطَّاعَة لَا يُؤْتى بهَا إِلَّا بِتَوْفِيق الله، والتوفيق من الله: هُوَ التسهيلُ والتيسيرُ والمعونةُ. (٤)

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وهو في "الصحيحة" للألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٩١).

(٢) "الفوائد" (صـ: ٩٧).

(٣) "مدارج السالكين" (١/ ٤١٤).

(٤) "تفسير السمعاني" (٢/ ٤٥٢) عند آية ٨٨ من سورة هود.

❁ وَكَمَا قِيلَ: (١)

إِنَّ الْقُلُوبَ يَدُ الْبَارِي تُقَلِّبُهَا ... فَاسْأَلِ اللهَ تَوْفِيقًا وَتَثْبِيتَا
مَنْ يُضْلِلِ اللهَ لا تَهْدِيهِ مَوْعِظَةٌ ... وَإِنْ هُدِيتَ فَبِالْأَخْبَارِ أَنْبَيْتَا
فَهَذِهِ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ أَنْتَ بِهَا ... فَكُنْ صَبُورًا وَلَوْ فِي اللهِ أُوذِيتَا

فَيَنْبَغِي لنا أَنْ نَسْأَلَ التَّوْفِيقَ مِنَ اللهِ، فَالْقُلُوبُ بينَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ.

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومفتاحُ التوفيقِ الرغبةُ والرهبةُ. (٢)

إِذَا أَخْلَصَ الْإِنْسَانُ لِلهِ وَتَضَرَّعَ، وطَلَبَ الْعَوْنَ مِنَ اللهِ وَفَّقَهُ اللهُ تعالى.

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَأَنْفَعُ الدُّعَاءِ طَلَبُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ، وَأَفْضَلُ الْمَوَاهِبِ إِسْعَافُهُ بِهَذَا الْمَطْلُوبِ، وَجَمِيعُ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ مَدَارُهَا عَلَى هَذَا، وَعَلَى دَفْعِ مَا يُضَادُّهُ، وَعَلَى تَكْمِيلِهِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِهِ، فَتَأَمَّلْهَا.

❁ وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ: تَأَمَّلْتُ أَنْفَعَ الدُّعَاءِ فَإِذَا هُوَ سُؤَالُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ فِي الْفَاتِحَةِ فِي ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة [٥]. (٣)

❁ وَكَمَا قِيلَ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى ... فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نونيته:

صَبَرُوا قَلِيلاً فَاسْتَرَاحُوا دَائِمًا ... يَا عِزَّةَ التَّوْفِيقِ لِلْإِنْسَانِ

---

(١) "قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر" (صـ: ١٥٧).

(٢) "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" (صـ: ٦٨).

(٣) "مدارج السالكين" (١/ ١٠٠).

وهذه القلوب تتقلب، ويقلِبُها اللهُ كيف يشاء وما سمي القلبُ قلباً إلا لتقلبه

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلاَّ مِنْ تَقَلُّبِهِ فَاحْذَرْ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ

❁ بوبَ الإمامُ البخاريُ في صحيحه فقال: بَابُ مُقَلِّبِ القُلُوبِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ الأنعام [١١٠].

وذكر حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ: «لاَ وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ».(١)

❁ وبوبَ عليه: بَابُ ﴿ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ الأنفال [٢٤].

ويجبُ الحذر من موانع التوفيق، وما يحول بين العبد وبين توفيق الله تعالى

❁ **قال شقيقُ بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ:**

أُغْلِقَ بابُ التَّوفِيقِ عنِ الخَلْقِ مِن ستَّةِ أشياء:

اشتِغالُهُم بالنِّعمةِ عَن شُكرِها.

ورَغبَتُهُم في العِلمِ وتَركُهُم العَمَلَ.

والمُسارعةُ إلى الذَّنبِ وتَأخيرُ التَّوبةِ.

والاغتِرارُ بِصُحبةِ الصَّالِحين وتَركُ الاقتِداءِ بِفعالِهِم.

وإدبارُ الدُّنيا عنهُم وهُم يتَّبعونَها.

وإقبالُ الآخرةِ عَليهِم وهُم مُعرِضونَ عَنها.(٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٩١)، (٦٦١٧).

(٢) "الفوائد" لابن القيم (صـ: ١٧٧).

البيت رقم٥٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافاً ... بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ ابْنُ مَتَّى

شرح البيت رقم ٥٩

أَرْشَدَكَ وَوَجَّهَكَ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّ مِنْهُ التَّوْفِيقَ، فَهُوَ أَصْلُ الْخَيْرِ وَمَادَّتُهُ. ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالدُّعَاءِ مِنْ آدَابِهِ، وَشُرُوطِهِ.

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ، أَنْ تُخْلِصَ فِي دُعَائِكَ لِلَّهِ.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة [٥].

وَالدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر [٦٠].(١)

ثُمَّ أَرْشِدُكَ إِلَى مَوْطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، وهو

الأمرُ الثاني: تحري مواطن الإجابة ومن أهمها السُّجُود. "**وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ**"، ادْعُ فِي السُّجُودِ، وقوله: "لَهُ" أي: لله تعالى.

الأمرُ الثالث: الِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ.

ادْعُ فِي سُجُودِكَ، وَابْتَهِلْ، وَتَضَرَّعْ، وَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ، اطْلُبْ مِنْهُ الْمَغْفِرَةَ، وَاعْتَرِفْ لَهُ بِذَنْبِكَ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٥٢)، (١٨٣٨٦)، (١٨٣٩١)، (١٨٤٣٢)، (١٨٤٣٦)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، (٣٢٤٧)، (٣٣٧٢)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وغيرهم، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "أحكام الجنائز"(١/ ١٩٤)، وصححه الوادعي في "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين"(١١٥٩).

ثُمَّ أَرْشَدَكَ إِلَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الِاعْتِرَافِ مِمَّا جَاءَ عَنْ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ، وَاللَّهُ تعالى يَقُولُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ آل عمران [١٣٥، ١٣٦].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ». (١)

«فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ». هَذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَدَعَا رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي»، هَذَا يَتَضَمَّنُ الِاعْتِرَافَ بِالذَّنْبِ، فَمَا دَعَا إِلَّا وَهُوَ مُعْتَرِفٌ بِذَلِكَ.

❁ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَدَلَّتِ الْآيَةُ وَالْحَدِيثُ عَلَى عَظِيمِ فَائِدَةِ الِاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْهُ. (٢)

فَمِمَّا نَصَحَ بِهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي حَالِ السُّجُودِ يَدْعُو رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَعْتَرِفُ لَهُ بِذَنْبِهِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٨).

(٢) "تفسير القرطبي" (٤/ ٢١٣).

في الصحيحِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ». (١)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ». (٢)

وَالِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ يَدُلُّ عَلَى الِانْكِسَارِ وَهُوَ مِنَ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

❁ وَكَمَا قِيلَ:

يَسْتَوْجِبُ الْعَفْوَ الْفَتَى إِذَا اعْتَرَفْ ... بِمَا جَنَى مِنَ الذُّنُوبِ وَاقْتَرَفْ

❁ وَقَالَ آخَرُ:

أَقِرْ بِذَنْبِكَ ثُمَّ اطْلُبْ تَجَاوُزَهُ ... إِنَّ الْجُحُودَ جُحُودَ الذَّنْبِ ذَنْبَانِ

وَالِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ إِنَّمَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانُ إذا كانَ لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وأَمَا فِي وَقْتِ الغرغرةِ، أو بَعْدَ الموتِ، وَمَا بَعْدَهُ فَلا يَنْفَعُهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ اعْتَرَفُوا بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ غافر [١١].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩).

فقالَ اللهُ تَعَالى:﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ غافر [١٢]. فَمَا نَفَعَهُمْ ذَلِكَ.

وقال اللهُ تعالى ذاكراً أمر فِرْعون:﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ يونس [٩٠، ٩١].

لم يكن في وقتِهِ المقبول، واللهُ يقولُ:﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ النساء [١٧، ١٨].

وفي الحديث عَنْ ابْنِ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ».(١)

❁ قال ابنُ رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: دلَّ هذا الحديثُ على قبولِ توبةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لعبده ما دامَتْ روحُه في جسدِهِ لم تبلُغ الحُلْقُومَ والتراقي.(٢)

ومن هذا الباب ما جاء من حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ،

---

(١) أخرجه أحمد (٦١٦٠)، والترمذي (٣٥٣٧)،

(٢) "تفسير ابن رجب الحنبلي" (١/ ٢٩٧).

فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».[١] وبوبَ عليه النوويُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بَابُ سُقُوطِ الذُّنُوبِ بِالِاسْتِغْفَارِ تَوْبَةً.

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الملك [٦].

فاعترَفُوا بِذنُوبِهم بَعْدَ فَوَاتِ أَوَانِهِ وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ ذَلكَ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الملك [١١].

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ السجدة [١٢]. وما نفعهم ذلك أبداً، ولا رجوع لهم فقالَ اللهُ:﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ السجدة [١٤].

وقالَ أيضاً:﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ المؤمنون [١٠٦، ١٠٧].

هَذَا الِاعْتِرَافُ مِنْهُمْ مَا يَنْفَعُ قد ذَهَبَ وَقْتُهُ وَزَمَنُهُ.

فَقَالَ لَهُمْ:﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ المؤمنون [١٠٨].

أَمَّا الِاعْتِرَافُ فِي وَقْتِ سَرَيَانِ التَّوْبَةِ وَقَبُولِهَا، مَعَ الِانْكِسَارِ وَالرُّجُوعِ، فَإِنَّ هَذَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْعَبْدُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٤٩)، وبنحوه عنده عن أبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، (٤٧٤٨).

جَاءَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».(١)

وعنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ».(٢) **قال الحَافِظُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ رَبِيعَةَ عَنْ شَدَّادٍ «وَأَعْتَرِفُ بِذُنُوبِي» ... **قَوْلُهُ**: «وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي» أَيْ: أَعْتَرِفُ أَيْضًا.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَحْمِلُهُ بِرَغْمِي لَا أَسْتَطِيعُ صَرْفَهُ عَنِّي.

❁ **وَقَالَ الطِّيبِيُّ**: اعْتَرَفَ أَوَّلًا بِأَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُقَيِّدْهُ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْإِنْعَامِ، ثُمَّ اعْتَرَفَ بِالتَّقْصِيرِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقُمْ بِأَدَاءِ شُكْرِهَا، ثُمَّ بَالَغَ فَعَدَّهُ ذَنْبًا مُبَالَغَةً فِي التَّقْصِيرِ، وَهَضْمِ النَّفْسِ. **قُلْتُ**: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «أَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي» أَعْتَرِفُ بِوُقُوعِ الذَّنْبِ مُطْلَقًا لِيَصِحَّ الِاسْتِغْفَارُ مِنْهُ لَا أَنَّهُ عَدَّ مَا قَصَّرَ فِيهِ مِنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ ذَنْبًا.

قَوْلُهُ: «فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ». **يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ مَنِ اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ غُفِرَ لَهُ.**(٣)

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، (٤١٤١)، (٤٦٩٠)، (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦)، (٦٣٣٢).

(٣) "فتح الباري" لابن حجر (١١/ ١٠٠).

❁ قَالَ أَبُو منصور عبد القاهر الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:(١)

يَا مَنْ عَدَا ثُمَّ اعْتَدَى ثُمَّ اقْتَرَفْ ... ثُمَّ انْتَهَى ثُمَّ ارْعَوَى ثُمَّ اعْتَرَفْ
أَبْشِرْ بِقَوْلِ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ ... إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفْ

❁ وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْخَطِيبِ السُّهَيْلِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ قَالَ:(٢)

يَا مَنْ يَرَى مَا فِيْ الضَّمِيْرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ الْمُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى وَالْمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزَائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلِ كُنْ ... امْنُنْ فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
مَا لِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ ... فَبِالِافْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِيَ أَدْفَعُ
مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ ... فَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ
وَمَنِ الَّذي أرجو وَأَهْتِفُ بِاسْمِهِ ... إِنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنْ فَقِيرِكَ يَمْنَعُ
حَاشَا لِمَجْدِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِيًا ... الْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالْمَوَاهِبُ أَوْسَعُ

"**وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا**"، فَالِاعْتِرَافُ وَالتَّضَرُّعُ وَالدُّعَاءُ وَالْخُضُوعُ هَذَا مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ الْعَبْدُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، قَبْلَ بُلُوغِ الرُّوحِ الْحُلْقُومَ

"**بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ ابْنُ مَتَّى**" قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الأنبياء [٨٧، ٨٨].

---

(١) "طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي (٥/ ١٣٩)، "الإتقان في علوم القرآن" (١/ ٣٨٨).

(٢) "البداية والنهاية" ط هجر (١٦/ ٥٧٥)، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَلَهُ قَصِيدَةٌ كَانَ يَدْعُو اللَّهَ بِهَا وَيَرْتَجِي الْإِجَابَةَ فِيهَا، فذَكَرَها.

قَالَ: "وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ"، أَيْ: نَادِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي حَالِ سُجُودِكَ "لَهُ اعْتِرَافًا" وَاعْتَرِفْ بِذَنْبِكَ "بِمَا نَادَاهُ"، أَيْ: نَادِ مُعْتَرِفًا فِي حَالِ سُجُودِكَ بِمَا نَادَى بِهِ يُونُسُ ابْنُ مَتَّى وَمَا نَادَى بِهِ هُوَ مَا قَالَهُ اللَّهُ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأنبياء [٨٧].

تَضَمَّنَ نِدَاؤُهُ تَوْحِيدًا، وَتَضَرُّعًا، وَتَنْزِيهًا، وَاعْتِرَافًا،وإقراراً ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأنبياء [٨٧]. ثُمَّ أَتَتِ الْإِجَابَةُ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنبياء [٨٨].

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ». (١)

❁ قَالَ الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَا نَجا إلا بإقراره على نفسِهِ بالظلم. (٢)

فَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَخِفَّ بِالدُّعَاءِ أَوْ يَزْدَرِيه فَشَأْنُهُ عَظِيمٌ

❁ وَكَمَا قِيلَ: (٣)

أتهزأُ بالدُّعاءِ وتزدريهِ ... وما يُدريكَ ما صَنعَ الدُّعاءُ
سِهامُ اللَّيلِ لا تُخطِي ولَكِنْ ... لَها أَمَدٌ ولِلأَمَدِ انقِضاءُ

---

(١) صحيح، أخرجه أحمد (١٤٦٢)، والترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في "الكبرى (١٠٤١٧)، وهو في "صحيح الجامع"(٣٣٨٣)، وفي "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين"(٣٧٩).

(٢) ذكره المناوي في "فيض القدير "(٣/ ٥٢٦)، ولم أقف عليه مسنداً.

(٣) نُسِبَ للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما في ديوانه.

البيت رقم ٦٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَازِمْ بَابَهُ قَرْعاً عَسَاهُ ... سَيَفْتَحُ بَابَهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَا

شرح البيت رقم ٦٠

"لَازِمْ"، اسْتَمِرَّ، دَاوِمْ "بَابَهُ قَرْعًا"، أَيْ اقْرَعْ بَابَ الدُّعَاءِ، وَاسْتَمِرَّ عَلَى ذَلِكَ، وَلَازِمْهُ ۞ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَبْيَاتِ السُّهَيْلِي الَّتِي عُزِيَتْ لَهُ:

مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ ... فَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ

وفي هَذا البيت نَبَهَ عَلى أَمْرٍ آخر وَهُوَ

الأمرُ الرابع: الإلحاح في الدعاء، وعدم العجلة، وأن يكون موقناً بأنهُ سيُجابُ دُعَاؤُهُ بإذن الله تعالى.

۞ قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَمَا دَامَ الْعَبْدُ يُلِحُّ فِي الدُّعَاءِ، وَيَطْمَعُ فِي الْإِجَابَةِ مِنْ غَيْرِ قِطْعِ الرَّجَاءِ، فَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْإِجَابَةِ، وَمَنْ أَدْمَنَ قَرَعَ الْبَابَ، يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ.(١)

وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ النمل [٦٢].

وَيَقُولُ: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ ﴾ غافر [٦٠].

﴿ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ البقرة [١٨٦]. قَدْ جَاءَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ يُكْثِرْ قَرْعَ الْبَابِ، بَابِ الْمَلِكِ، يُوشِكْ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ، وَمَنْ يُكْثِرِ الدُّعَاءَ يُوشِكْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ».(٢) وفي رواية «جِدُّوا بِالدُّعَاءِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُكْثِرُ قَرْعَ الْبَابِ يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ».

---

(١) "جامع العلوم والحكم" ت الأرنؤوط (٢/ ٤٠٤).

(٢) لأثر أبي الدرداء ثلاث طرق، **الأولى**: رواها معمر بن راشد في "جامعه" كما في "مصنف عبد الرزاق" (١٩٦٤٤)، ومن طريقه البيهقي في "الشعب" (١١٠٢)، عن قتادة عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ورواية قتادة عنه منقطعة.

وَجَاءَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَهُوَ يَقْرَعُ بَابَ الْمَلِكِ، وَمَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْمَلِكِ يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ».(١)

❁ وَجَاءَ عِنْدَ أَبِيْ داود، عن الربيع بن خثيم.(٢)

❁ قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَنْ أَدْمَنَ الدُّعَاءَ، وَلاَزَمَ قَرْعَ البَابِ، فُتِحَ لَهُ.(٣)

❁ وقَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وَيَفْتَحُ لِمَنْ أَدَامَ قَرْعَ بَابِ التَّوْفِيقِ مِنْهُ كُلَّ بَابٍ، وَلَهُ النِّعْمَةُ السَّابِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ.(٤)

❁ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: يَا ابْنَ آدَمَ لَقَدْ بُورِكَ لَك فِي حَاجَةٍ أَكْثَرْت فِيهَا مِنْ قَرْعِ بَابِ سَيِّدِك.(٥)

الثانية: رواها ابن أبي شيبة في "مصنفه"(٢٩١٧٥)، والبيهقي في "الشعب"(١١٠٣)، كلاهما من طريق حَمَّادِ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، ويُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ...فذكره باللفظ الثاني، وفي سند البيهقي زيادة (عَنْ ثَابِتٍ، وَحُمَيْدٍ، وَعَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ، وَيُونُسَ)، ورواية الحسن عن أبي الدرداء منقطعة أيضاً. قَالَ أَبُو زُرْعَةَ الْحَسَنُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مُرْسَلٌ. المراسيل لابن أبي حاتم (صـ: ٤٤).

الثالثة: أخرجها أبو القاسم الأصبهاني في "الترغيب والترهيب"(١٢٦٠)، من طريق سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء، قال العلائي: ولم يدرك أبا الدرداء. "جامع التحصيل" (صـ: ١٧٩)، وفي بعض رجاله إلى سالم، ضعف أيضاً.

(١) رواه عبد الرزاق في "مصنفه" (٤٧٣٥)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٨٣٥٥)، والبيهقي في "الشعب"(٢٨٧٩)، و"السنن الكبرى" (٤٢٤٣)، والطبراني في "الكبير" (٧٩٩٦)، (٨٩٩٧)، وأبو داود في "الزهد (١٤٤)، وابن المبارك في "الزهد" (٢١)، من طريق عَنْ زُبَيْدٍ، عَنْ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، **وسنده صحيح.**

(٢) "الزهد" (١٤٤)، قال: نا أحمد بن إبراهيم، قال: أبو داود، قال: نا شعبة، عن عمرو بن مرة، قال سمعت مرة يحدث، عن الربيع بن خثيم، بمعناه.

(٣) "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (٦/ ٣٦٩).

(٤) "زاد المعاد"(٤/ ١٥٩).

(٥) ذكره شيخ الإسلام في "مجموع الفتاوى. (١٠/ ٣٣٣)، (٢٢/ ٣٨٥).

❁ وفي ديوان الشافعي: (١)

وَالجِدُّ يُدْنِي كُلَّ أَمرٍ شَاسِعِ ... والجد يَفْتَحُ كُلَّ بَابٍ مُغْلَقِ

فالإنسانُ يتضرعُ لِرَبِهِ ويجتهدُ في الدعاءِ في سجوده، وفي الثلثِ الآخر من الليلِ وعلى قَدرِ الكَدِ والتعَبِ تكونُ الثَمرةُ.

❁ قال بَعْضُهُمْ: (٢)

بقدر الكدِ تُعطى ما تَرومُ ... وَمَنْ طَلَبَ العُلا لَيلاً يقومُ

❁ ومما يُعزى للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٣)

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي ... وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَا سَهِرَ اللَّيَالِي

ومنْ رام العُلا من غَير كَدٍّ ... أضاعَ العُمرَ في طلب المحالِ

تَرومُ العِزَّ ثُمَّ تَنامُ لَيلاً ... يَغُوصُ البَحْرَ مَنَ طَلَبَ اللآلِي

وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الدُّعَاءِ وَيُلَازِمَ ذَلِكَ وَيَسْتَمِرَّ عَلَى ذَلِكَ.

وَدَاوِمْ وَلازِمْ قَرْعَ بَابٍ مُؤمِّلاً ... فما خَيَّبَ المَوْلَى رَجَاءَ مُؤَمِّل

وَصَابِرْ فَمَا نَالَ العُلا غَيْرَ صَابِرٍ ... وَقُلْ وَاعِظًا لِلنَّفْسِ عِنْدَ التَّمَلْمُلِ

مَعْ الصَّبْرِ إِحْدَى الحُسْنَيَنِ مُنَالِكِ أَوْ ... مَنَايَا كِرَامٍ فَاصْبِرِي وَتَحَمَّلِ

وَدَاوِ لِسُقْمِ القَلْبِ وَاعْمُرْ خَرَابَهُ ... بِذِكْرِ الذي نَعْمَاهُ لِلْخَلْقِ تَشْمِلُ

❁ قَالَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْإِلْحَاحُ لَا يَصْلُحُ وَلَا يَجْمُلُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. (٤)

---

(١) "توالي التأنيس بمعالي ابن إدريس" لابن حجر (صـ: ١٧٢)، وفي "الديوان" المنسوب إليه.

(٢) "فيض القدير" (٤/ ٥٠٥).

(٣) كما في "الديوان المنسوب إليه"

(٤) ذكره ابنُ مفلح في "الآداب الشرعية"(٢/ ١٧٩).

وَجَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُصَلِّيَ لَيَقْرَعُ بَابَ الْمَلِكِ، وَإِنَّهُ مَنْ يُدِمْ قَرْعَ الْبَابِ يُوشِكْ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ». ولا يثبت. (١)

فَالإِنْسَانُ يَجْتَهِدُ، وَيَدْعُو رَبَّهُ، فَإِنَّهُ مَنْ جَدَّ فِي شَيْءٍ وَاجْتَهَدَ فِيهِ يَظْفَرُ بِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

❁ ومما يُعزى لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (٢)

اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْإِدْلَاجِ بِالسَّحَرِ ... وَبِالرَّوَاحِ عَلَى الْحَاجَاتِ بِالْبُكَرِ
لَا يُعْجِزَنَّكَ وَلَا يُضْجِرْكَ مَطْلَبُهُ ... فَالْحِجَجُ تَتْلَفُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالضَّجَرِ
إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ ... لِلصَّبْرِ عَاقِبَةٌ مَحْمُودَةُ الْأَثَرِ
فَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي شَيْءٍ يُطَالِبُهُ ... فَاسْتَصْحِبِ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ». (٣)

---

(١) رواه القضاعي في "مسند الشهاب" (١١٥٧)، وفيه يحيى بن صالح الايلي، روى عنه يحيى بن بكير مناكير، قاله العقيلي. "ميزان الاعتدال" (٤/ ٣٨٦).

(٢) رواها البيهقي في" الشعب"(٩٦٢٠)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق"(٥٢٩/٤٢)، وهو في" الفرج بعد الشدة" للتنوخي (٥/ ٦١)، من طريق أبي عبد الرحمن السلمي، فيه ضعيف. والحُسَيْنُ بْنُ يَحْيَى الشَّافِعِيُّ لم أقف على جرح أو تعيل له، ووصف بالواعظ، وعمر بن مدرك، الذي أنشدها لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ضعيف.
قال يحيى بن معين: كذاب، يكنى أبا حفص "الميزان" (٣/٢٢٣).
وعند الخطيب في "الجامع" (١٥٤٨)، أَخْبَرَنِي أَبُو طَاهِرٍ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصُّوفِيُّ، بِأَصْبَهَانَ قَالَ: أَنْشَدَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْمُقْرِئِ، قَالَ: أَنْشَدَنَا أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ: فذكره. وسنده حسن.

(٣) أخرجه أحمد (٩٧٠١)، والترمذي (٣٣٧٣)، والبيهقي في "الشعب"(١٠٦٥)، وغيرهم. وهو في "الصحيحة" (٢٦٥٤) بلفظ: (من لم يدع الله يغضب عليه).

❁ وَكَمَا قِيلَ:[١]

لَا تَطْلُبَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُغْلَقُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي».[٢]

قال ابنُ عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: يَقْتَضِي الْإِلْحَاحُ عَلَى اللَّهِ فِي الْمَسْأَلَةِ وَأَنْ لَا يَيْأَسَ الدَّاعِي مِنَ الْإِجَابَةِ وَلَا يَسْأَمُ الرَّغْبَةَ فَإِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَهُ أَوْ يُكَفَّرُ عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ أَوْ يُدَّخَرُ لَهُ فَإِنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةٌ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر [٦٠].

فَسَمَّى الدُّعَاءَ عِبَادَةً وَمَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ الْبَابِ يُوشَكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ وَلَا يَمَلُّ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) مِنَ الْعَطَاءِ حَتَّى يَمَلَّ الْعَبْدُ مِنَ الدُّعَاءِ وَمَنْ عَجِلَ وَتَبَرَّمَ فَنَفْسَهُ ظَلَمَ.[٣]

❁ قال ابنُ رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: فَدَلَّ هذا على أن العبدَ إذا أدامَ الدعاء وألح فيه أجيب، وإنْ قطعه واستحسر، منع إجابته.[٤]

---

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره" (١/ ١٢٥)، وقبله القرطبي في "تفسيره" (٥/ ١٦٤) ذكر البيت الثاني وهي في "العزلة" للخطابي (صـ: ٦٧) قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ أَنْشَدَنِي الْخُزَيْمِيُّ، فذكره، وعزاها ابن رجب لأبي العتاهية، كما في "مجموع رسائل ابن رجب" (٣/ ١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٣) "الاستذكار" (٢/ ٥٢٦).

(٤) "فتح الباري" لابن رجب (١/ ١٦٦).

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، وَلاَ يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّهُ لاَ مُسْتَكْرِهَ لَهُ». (١)

فيه دليل أنه ينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء، ويكون على رجاء من الإجابة ولا يقنط من رحمه الله؛ لأنه يدعو كريمًا، فبذلك تواترت الآثار عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. (٢)

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمِنْ أَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ: الْإِلْحَاحُ فِي الدُّعَاءِ. (٣)

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٨)، ومسلم (٢٦٧٨)، وبنحوه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عند البخاري (٦٣٣٩)، (٧٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) "شرح صحيح البخاري" لابن بطال (١٠/ ٩٩).

(٣) "الجواب الكافي" (صـ: ١١).

البيت رقم ٦١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْباً ... لِتُذْكَرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا

شرح البيت رقم ٦١

أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الدَّوَامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب [٣٥].

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)] وَلفظُ مُسْلِمٍ: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ البقرة [١٥٢].

"لِتُذْكَرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا". فَإِذَا ذَكرتَ اللهَ ذَكَرَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً». [(٢)]

وَقَوْلُهُ: "دَأْباً"، أَيْ: مُسْتَمِرًّا مُدَاوِمًا حَتَّى يعْتاد على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، (٧٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

❁ قَالَ ابنُ الأثير: الدَّأْبُ: العادةُ والشَّأنُ، وَقَدْ يُحرَّك، وَأَصْلُهُ مِنْ دَأَبَ فِي العملِ إِذَا جَدَّ وتَعِب، إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ حَوَّلَت مَعْنَاهُ إِلَى العادةِ والشأنِ.(١)

وَقِلَّةُ الذِّكْرِ، وَعَدَمُ الِاهْتِمَامِ بِهِ مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ النِّفَاقِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ التوبة [٥٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء [١٤٢].

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَمِنْ عَلَامَاتِ النِّفَاقِ قِلَّةُ ذِكْرِ اللَّهِ، وَالْكَسَلُ عِنْدَ الْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَنَقْرُ الصَّلَاةِ، وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ مَفْتُونًا بِالْغِنَا إِلَّا وَهَذَا وَصْفُهُ.(٢)

وقد كان الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ من ذكرِ اللهِ تعالى

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ».(٣)

وَبِالذِّكْرِ تَرْتَفِعُ الْغَفْلَةُ عَنِ الْقُلُوبِ. فَمَنْ كَانَ مُكْثِرًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ كَانَ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنِ الْغَفْلَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الأحزاب [٤١، ٤٢].

---

(١) "النهاية" (٢/ ٩٥).

(٢) "إغاثة اللهفان" (١/ ٢٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (٣٧٣)، وعلقه البخاري في موضعين من "صحيحه"

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّهُ - أَيْ الْعَبْدُ - لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنْ عَدُوِّهِ إِلَّا بِالذِّكْرِ، وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ إِلَّا مِنْ بَابِ الْغَفْلَةِ فَهُوَ يَرْصُدُهُ، فَإِذَا غَفَلَ وَثَبَ عَلَيْهِ، وَافْتَرَسَهُ.(١)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ البقرة [٢٠٠].

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَفِيهِ الْأَمْرُ بِالذِّكْرِ بِالْكَثْرَةِ وَالشِّدَّةِ؛ لِشِدَّةِ حَاجَةِ الْعَبْدِ إِلَيْهِ، وَعَدَمِ اسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَأَيُّ لَحْظَةٍ خَلَا فِيهَا الْعَبْدُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَتْ عَلَيْهِ لَا لَهُ، وَكَانَ خُسْرَانُهُ فِيهَا أَعْظَمَ مِمَّا رَبِحَ فِي غَفْلَتِهِ عَنْهُ.(٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ المنافقون [٩].

❁ وَقَالَ: ولا ريبَ أن القلبَ يصدأُ كما يصدأُ النحاسُ والفضةُ وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء...

وَصَدَأُ الْقَلْبِ بِأَمْرَيْنِ: بِالْغَفْلَةِ وَالذَّنْبِ، وَجَلَاؤُهُ بِشَيْئَيْنِ: بِالِاسْتِغْفَارِ وَالذِّكْرِ، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكباً على قلبه، وصدأه بحسب غفلته(٣)

❁ وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَوَائِدَ كَثِيرَةً لِلذِّكْرِ كَمَا فِي كِتَابِهِ "الْوَابِلُ"، وَذَكَرَ أَنَّ فِي الذِّكْرِ، أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ فَائِدَةٍ، وَذَكَرَ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ فَائِدَةً فِي كِتَابِهِ هَذَا.

---

(١) "الوابل الصيب"(صـ: ٣٦).

(٢) "الوابل الصيب" (صـ: ٣٩).

(٣) "الوابل الصيب" (صـ: ٤٠).

فذِكْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ دَواءٌ، فكلَّما أكثَرْتَ من ذِكْرِ اللهِ كلَّما غَذَّيْتَ قَلْبَكَ، وأصْلَحْتَهُ بذلكَ.

رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ دَوَاءٌ». (١)

❁ وجاءَ أيضًا نَحْوَ هذا اللَّفْظِ عن الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ،(٢)

❁ وأيضًا جاء عن أبي أَسَيْدٍ بالفَتْحِ ويُقالُ: بالضَّمِّ، الفَزَارِيِّ، كان أبو أسيد يمشي مع ابن أبي زكريا فقال له ابن أبي زكريا: فلان يفعل كذا وكذا. وفي رواية: كان من أمر الناس كذا. فقال أبو أسيد: ذكر الناس داء وذكر الله شفاء، ثم أعرض عنه، فلم ير منه ما يحبه حتى فارقه. وفي رواية من طريق أخرى: قال فجاءه ابن أبي زكريا، فقال: قد علمت أنه كان من الناس كيت وكيت. فقال أبو أسيد: ذكر الله شفاء وذكر الناس داء، ثم لم يره ما يحب حتى فارقه. قال سعيد: فهذا أعجب إلى من عبادته. (٣)

---

(١) أخرجه البيهقي في "الشعب" (٧٠٥)، والأصبهاني في "الترغيب"(١٣٨٩)، من طريق ابن أبي الدنيا، عن أبي عقيل، عن عبد الله بن يزيد، عن مكحول مرسلاً. فهو مرسل، وفيه عبد الله بن زيد، ضعيف، وقيل هو ابن ربيعة، وهو مجهول. قالَ البَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ. قالَ الألْبَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قُلْتُ وهوَ الأشْبَهُ. وانظر "الضعيفة" (٤٣٩٨)، وحكم عليه بالنكارة (٧١١١).

كشف الخفاء ط القدسي (١/ ٤١٩)

ورواه الديلمي عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: (ذكر الله شفاء القلوب)، وهو في "ضعيف الجامع" (٣٠٤٧).

(٢) كما في "بهجة المجالس وأنس المجالس" (صـ: ٨٦)

(٣) "تاريخ دمشق" (١٣/٦٦)، قال أبو مسهر: حدثنا سعيد بن عبد العزيز، أن أبا أسيد كان يمشي...فذكره، وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى الدمشقي، ثقة، وسعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيى الدمشقي، ثقة أيضاً. وبين ابن عساكر وبين أبي مسهر مدة طويلة.

وابن أبي زكريا المذكور: هو عبد الله بن أبي زكريا أبو يحيى، ثقة.

❁ وجاءَ أيضًا عن ابنِ عَوْنٍ، أنه قال: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ دَوَاءٌ». (١)

❁ وجاء عن الربيع بن خثيم أنه ذُكِرَ عِنْدَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: «ذِكْرُ اللهِ خَيْرٌ مِنْ ذِكْرِ النَّاسِ». (٢)

❁ وجاء عن سعيد بن عبد العزيز أنه قال: ذكر الله شفاء يبرئ من الداء، وذكر الناس داء لا يقبل الشفاء. (٣)

❁ وقال: من الناس حامل داء، ومن الناس حامل دواء.

---

(١) ومن طريقه البيهقي في "الشعب" (٧٠٣)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣٥٩/٣١)، وفيه عبد الله بن محمد بن منازل، ذكر ترجمته الذهبي في "تاريخ الإسلام" ت بشار (٧/ ٦٤٧)، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلا. وله ترجمة في "طبقات الصوفية"(٢٧٧)، وفي "تاريخ نيسابور" (صـ: ٦٦).

(٢) أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (٢٥)، ومن طريقه البيهقي في "الشعب" (٤٦٨٥)، وأيضاً يعقوب بن سفيان الفسوي في "المعرفة والتاريخ" (٥٦٩/٢)، وأيضاً أحمد البَلَاذُري في "أنساب الأشراف"(٣٠٩/١١)، قال ابن المبارك: أنا عِيسَى بْنُ عُمَرَ قَالَ: كَأَنَّهُمْ ذَكَرُوا عِنْدَ رَبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ النَّاسِ، فَقَالَ رَبِيعٌ: «ذِكْرُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ذِكْرِ الرِّجَالِ»، و"البيهقي في الشعب" (٧٠٤)، من طريق عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ عِيسَى بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ مُرَّةَ، أَنَّ الرَّبِيعَ بْنَ خُثَيْمٍ، ذُكِرَ عِنْدَهُ رَجُلٌ، فذكره، ورجاله ثقات، وسنده صحيح إن سمع عمرو بن مرة من الربيع بن خثيم.

وأحمد في "الزهد" (١٩٢٨)، قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: وَجَدْتُ فِي كِتَابِ بِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ بِخَطِّ يَدِهِ قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، رَجُلٌ، فذكره،

(٣) صحيح، أخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٢٠٦/٢١)، قال: أخبرنا أبو عبد الله الخلال، أنا أحمد بن محمود، أنا أبو بكر بن المقرئ، نا مكحول البيروتي، نا يزيد بن عبد الصمد، نا أبو مسهر، قال سمعت سعيد بن عبد العزيز، فذكره، الخلال هو: أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ هَارُوْنَ، وأحمد بن محمود بن أحمد أبو طاهر الثقفي، قال ابن منده: شيخ صالح ثقة واسع الرواية، والمقرئ هو: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم، ومكحول هو: محمد بن عبد الله بن عبد السّلام البيروتي، ثقة "السير" (٣٤/١٥)، ويزيد: هو ابن محمد بن عبد الصمد بن عبد الله أبو القاسم الهاشمي القرشي، وثقه الدارقطني، " كما في "موسوعة أقول الدارقطني" (٣٢٧/٢)،وقال ابن أبي حاتم: ثقة صدوق، وقال النسائي : صدوق. "التهذيب" (٣٥٧/١١).

❁ عَنْ صَالِحٍ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: كَتَبَ سَلْمَانُ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكَ بِذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ دَوَاءٌ، وَأَنْهَاكَ عَنْ ذِكْرِ النَّاسِ فَإِنَّهُ دَاءٌ». (١)

❁ قالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: بعد ذكره لكلامِ ابنِ عَوْنٍ قُلْتُ: إِيْ وَاللهِ، فَالعجَبُ مِنَّا، وَمِنْ جَهلِنَا، كَيْفَ نَدَعُ الدَّوَاءَ، وَنقتحِمُ الدَّاءَ؟! قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ البقرة [١٥٢]،

﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ العنكبوت [٤٥]، وَقَالَ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد [٢٨]. وَلَكِنْ لاَ يَتَهَيَّأُ ذَلِكَ إِلاَّ بِتوفِيْقِ اللهِ، وَمَنْ أَدْمَنَ الدُّعَاءَ، وَلاَزَمَ قَرْعَ البَابِ، فُتِحَ لَهُ. (٢)

❁ قَالَ ابنُ عَبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكَانَ أَبُو حَازِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: أَرْبَحُ التِّجَارَةِ ذِكْرُ اللَّهِ وَأَخْسَرُ التِّجَارَةِ ذِكْرُ النَّاسِ. يَعْنِي بِالشَّرِّ. (٣)

❁ قال بنْدَار بن الْحُسَيْن بن محمد الشيرازي: من مَشى في الظلمَة إِلَى ذي النعم أجلسه على بِسَاط الْكَرم، وَمن قطع لِسَانه بشفرة السُّكُوت بنى لَهُ بَيت في الملكوت، وَمن وَاصل

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصمت" (١٩٦)، "ذم الغيبة والنميمة" (٥٩)، قال: حَدَّثَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ الْأَزْدِيُّ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ ثَابِتٍ، عَنْ صَالِحٍ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: كَتَبَ سَلْمَانُ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أبو محمد الأزدي هو: عبد الرحمن بن صالح الأزدي، وثقه ابن معين وغيره، وقال بعضهم: صدوق، "التهذيب" (١٩٧/٦). وعلي بن ثابت، هو الجزري، ثقة. وصالح الذي يظهر ابن بشير المري، ضعفه ابن معين، والدارقطني، قال النسائي: متروك. وقال البخاري: منكر الحديث. "الميزان" (٢٨٩/٢). وأيضاً فيه انقطاع بينه وبينهما، والله أعلم.

(٢) "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (٦/ ٣٦٩).

(٣) ذكره ابن عبد البر في كتابيه "التمهيد" (٢٣/ ٢٣)، و"بهجة المجالس" (صـ:٨٦)، بغير إسناد، ولم أقف عليه عند غيره.

أهل الْجَهَالَة ألبس ثوب البطالة، وَمن أَكثر ذكر الله شغله عَن ذكر النَّاس، وَمن هرب من الذُّنُوب هرب بِهِ من النَّار، وَمن رجا شَيْئا طلبه. (١)

❁ وكما قِيلَ (٢)

بـذكـر اللَّهِ تـرْتَـاحُ الـقُـلُـوبُ ... وتُنـيـانـا بـذكْـراهُ تـطـيـبُ
إذا ذُكِرَ المـحـبـوبُ عـنـدَ حـبـيـبِـهِ ... تـرَنَّـح نشـوانٌ وحـنَّ طـروبُ

❁ وَهذا نصر بن سيار خَطَبَ النَّاسَ فَنَالَ مِنَ الْكَرْمَانِيِّ، فَقَالَ: وُلِدَ بِكَرْمَانَ فَكَانَ كَرْمَانِيًّا، ثُمَّ سَقَطَ إِلَى هَرَاةَ فَصَارَ هَرَوِيًّا، وَالسَّاقِطُ بَيْنَ الْفِرَاشَيْنِ لَا أَصْلٌ ثَابِتٌ وَلَا فَرْعٌ نَابِتٌ، ثُمَّ ذَكَرَ الْأَزْدَ فَقَالَ: إِنْ يستوثقوا فَهُمْ أَذَلُّ قَوْمٍ، وَإِنْ يَأْبَوْا فَهُمْ كَمَا قَالَ الْأَخْطَلُ:

ضَـفَـادِعُ فِي ظَـلْـمَاءِ لَـيْـلٍ تَجَاوَبَـتْ ... فَـدَلَّ عَـلَـيْـهَـا صَـوْتُهَـا حَيَّةَ الْبَحْرِ

ثُمَّ نَدِمَ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ فَقَالَ: اذكروا الله؛ فإنّ ذكر الله شفاء، ذكر الله خيرٌ لا شرّ فيه، يُذهب الذنب، وذكرُ الله براءة من النفاق. (٣)

فذكرُ الله شفاءٌ للقلوب والأجساد، وأعظم ذلك كتابه تعالى، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ ﴾ فصلت [٤٤] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ يونس [٥٧]

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَلم يصف الله فِي كِتَابه بالشفاء إِلَّا الْقُرْآن وَالْعَسَل، فهما الشفاآن هَذَا شِفَاء الْقُلُوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها، وَهَذَا

---

(١) "طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي (٣/ ٢٢٥).

(٢) "لطائف المعارف" لابن رجب (صـ: ٢٩١).

(٣) "تاريخ الطبري" (٧/ ٢٩٠)، "الكامل في التاريخ" (٤/ ٣١٩)، لابن الأثير، و"مرآة الزمان في تواريخ الأعيان" (١١/ ٢٥٧)، لسبط ابن الجوزي، ولم يذكر العبارة الأخيرة.

شِفَاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها. وَلَقَد أصابني أيام مقَامي بِمَكَّة أسقام مُخْتَلفَة وَلَا طَبِيب هُنَاكَ وَلَا أدوية كَمَا فِي غَيرهَا من المدن فَكنت استشفى بالعسل وَمَاء زَمْزَم ورأيت فيهمَا من الشِّفَاء أمراً عجيبا.(١)

وقال: **فَالْقُرْآنُ: هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَأَدْوَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،**

وَمَا كُلُّ أَحَدٍ يُؤَهَّلُ وَلَا يُوَفَّقُ لِلِاسْتِشْفَاءِ بِهِ،

وَإِذَا أَحْسَنَ الْعَلِيلُ التَّدَاوِيَ بِهِ، وَوَضَعَهُ عَلَى دَائِهِ بِصِدْقٍ وَإِيمَانٍ، وَقَبُولٍ تَامٍّ، وَاعْتِقَادٍ جَازِمٍ، وَاسْتِيفَاءِ شُرُوطِهِ، لَمْ يُقَاوِمْهُ الدَّاءُ أَبَدًا.

وَكَيْفَ تُقَاوِمُ الْأَدْوَاءُ كَلَامَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ الَّذِي لَوْ نَزَلَ عَلَى الْجِبَالِ لَصَدَّعَهَا، أَوْ عَلَى الْأَرْضِ لَقَطَّعَهَا،

فَمَا مِنْ مَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ سَبِيلُ الدِّلَالَةِ عَلَى دَوَائِهِ وَسَبَبِهِ، وَالْحِمْيَةِ مِنْهُ لِمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهْمًا فِي كِتَابِهِ،

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ عَلَى الطِّبِّ بَيَانُ إِرْشَادِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ إِلَى أُصُولِهِ وَمَجَامِعِهِ الَّتِي هِيَ حِفْظُ الصِّحَّةِ وَالْحِمْيَةُ، وَاسْتِفْرَاغُ الْمُؤْذِي، وَالِاسْتِدْلَالُ بِذَلِكَ عَلَى سَائِرِ أَفْرَادِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ.

وَأَمَّا الْأَدْوِيَةُ الْقَلْبِيَّةُ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُهَا مُفَصَّلَةً، وَيَذْكُرُ أَسْبَابَ أَدْوَائِهَا وَعِلَاجَهَا.(٢)

قَالَ تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ العنكبوت [٥١]،

❁ **قَالَ ابن القيم: فَمَنْ لَمْ يَشْفِهِ الْقُرْآنُ، فَلَا شَفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَكْفِهِ فَلَا كَفَاهُ اللَّهُ.**(٣)

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ الإسراء [٨٢].

---

(١) "مفتاح دار السعادة" (١/ ٢٥٠).

(٢) " زاد المعاد" (٤/ ٣٢٢ـ٣٢٣).

(٣) " زاد المعاد" (٤/ ٣٢٣).

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَ " مِنْ " هُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ شِفَاءٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَهُوَ شِفَاءٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ،

فَلَمْ يُنْزِلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ السَّمَاءِ شِفَاءً قَطُّ أَعَمَّ وَلَا أَنْفَعَ وَلَا أَعْظَمَ وَلَا أَشْجَعَ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ مِنَ الْقُرْآنِ...

وَلَوْ أَحْسَنَ الْعَبْدُ التَّدَاوِيَ بِالْفَاتِحَةِ، لَرَأَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي الشِّفَاءِ.

وَمَكَثْتُ بِمَكَّةَ مُدَّةً يَعْتَرِينِي أَدْوَاءٌ وَلَا أَجِدُ طَبِيبًا وَلَا دَوَاءً، فَكُنْتُ أُعَالِجُ نَفْسِي بِالْفَاتِحَةِ، فَأَرَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا، فَكُنْتُ أَصِفُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشْتَكِي أَلَمًا، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْرَأُ سَرِيعًا.

وَلَكِنْ هَاهُنَا أَمْرٌ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهُ، وَهُوَ أَنَّ الْأَذْكَارَ وَالْآيَاتِ وَالْأَدْعِيَةَ الَّتِي يُسْتَشْفَى بِهَا وَيُرْقَى بِهَا، هِيَ فِي نَفْسِهَا نَافِعَةٌ شَافِيَةٌ، وَلَكِنْ تَسْتَدْعِي قَبُولَ الْمَحِلِّ، وَقُوَّةَ هِمَّةِ الْفَاعِلِ وَتَأْثِيرَهُ، فَمَتَى تَخَلَّفَ الشِّفَاءُ كَانَ لِضَعْفِ تَأْثِيرِ الْفَاعِلِ، أَوْ لِعَدَمِ قَبُولِ الْمُنْفَعِلِ، أَوْ لِمَانِعٍ قَوِيٍّ فِيهِ يَمْنَعُ أَنْ يَنْجَعَ فِيهِ الدَّوَاءُ، كَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَدْوِيَةِ وَالْأَدْوَاءِ الْحِسِّيَّةِ فَإِنَّ عَدَمَ تَأْثِيرِهَا قَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ قَبُولِ الطَّبِيعَةِ لِذَلِكَ الدَّوَاءِ، وَقَدْ يَكُونُ لِمَانِعٍ قَوِيٍّ يَمْنَعُ مِنَ اقْتِضَائِهِ أَثَرَهُ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ إِذَا أَخَذَتِ الدَّوَاءَ بِقَبُولٍ تَامٍّ كَانَ انْتِفَاعُ الْبَدَنِ بِهِ بِحَسْبِ ذَلِكَ الْقَبُولِ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا أَخَذَ الرُّقَى وَالتَّعَاوِيذَ بِقَبُولٍ تَامٍّ، وَكَانَ لِلرَّاقِي نَفْسٌ فَعَّالَةٌ وَهِمَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ. (١)

(١) "الداء والدواء" (صـ: ٨ ـ ٩).

البيت رقم ٦٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلاَ تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ وَفَكِّرْ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا

شرح البيت رقم ٦٢

❁ قبل ذلك يضافُ لما تقدم ما جاء عن ابن الجلّاء قال: لقيت ستمائة شيخ، ما رأيت فيهم مثل أربعة، أحدهم ذو النون المصرى، يقول: «ذكر الله دواء، وذكر الناس داء، فاستكثروا من الدّواء، وأقلّوا من الدّاء» .(١)

وَفِي بَعْضِ النُسخِ: "**وَلَا تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ مَجَالٌ**"، أَيْ: لَا تَقُلْ زَمَنَ الصِّغَرِ فِيهِ مُهلةٌ، وَمَجَالٌ وَفُسْحَةٌ، فَكُلُّ النَّاسِ رَاحِلُونَ إِلَى اللهِ صِغَارُهُمْ وَكِبَارُهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ العنكبوت [٥٧].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ الأنبياء [٣٥].

ويقول تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ آل عمران [١٨٥].

وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ حَتَّى فِي حَالِ صِغَرِهِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِالْخَيْرِ، وَالْعِلْمِ، وَأَنْ يُحَافِظَ عَلَى أَوْقَاتِهِ.

وَإِذْهَابُهُ لِلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، ذَهَابٌ لِعُمْرِهِ.

يَسُرُّ الْمَرْءَ مَا ذَهَبَ اللَّيَالِي وَكَانَ ذَهَابُهُنَّ لَهُ ذَهَابَا

---

(١) "مرشد الزوار" (١/ ٣٨٢)، ابْن الجلاء أَحْمَد بْن يَحْيَى بغدادي، سكن الرملة، صحب ذا النون ..."تاريخ بغداد" (٤٥٩/٦)، وهو من كبار مشايخ الصوفية، ذو النون بْن إِبْرَاهِيمَ أَبُو الفيض، المعروف بالمصري أصله من النوبة، وَكَانَ من قرية من قرى صعيد مصر يقال لها: إخميم، فنزل مصر. وَكَانَ حكيما فصيحا زاهدا، ... وَقيل: إن اسمه ثوبان، وَذا النون لقب له. "تاريخ بغداد" (٣٧٣/٩).

❁ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَجِبُ عَلَى مَنْ لَا يَدْرِي مَتَى يُبْغِتُهُ الْمَوْتُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا، وَلَا يَغْتَرَّ بِالشَّبَابِ وَالصِّحَّةِ، فَإِنَّ أَقَلَّ مَنْ يَمُوتُ الْأَشْيَاخُ، وَأَكْثَرَ مَنْ يَمُوتُ الشُّبَّانُ. وَلِهَذَا يَنْذُرُ مَنْ يَكْبُرُ،

❁ وَقَدْ أَنْشَدُوا:

يُعَمَّرُ وَاحِدٌ فَيَغُرُّ قَوْمًا ... وَيُنْسَى مَنْ يَمُوتُ مِنَ الشَّبَابِ

ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه، فإنه لولا طول الأمل، ما وقع إهمال أصلًا، وإنما تقدم المعاصي، وتؤخر التوبة؛ لطول الأمل، وتبادر الشهوات، وتنسى الإنابة، لطول الأمل. (١) فَيُعِدُّ الْإِنْسَانُ الْعُدَّةَ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ يُعَمَّرُ، وَأَكْثَرَ مَنْ يَمُوتُ رُبَّمَا فِي سِنِّ الشَّبَابِ، أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ.

❁ قَالَ الْقُرطُبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ عُلَمَاؤُنَا: وَالْمَوْتُ وَإِنْ كَانَ مُصِيبَةً عُظْمَى، وَرَزِيَّةً كُبْرَى، فَأَعْظَمُ مِنْهُ الْغَفْلَةُ عَنْهُ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَتَرْكُ التَّفَكُّرِ فِيهِ، وَتَرْكُ الْعَمَلِ لَهُ، وَإِنَّ فِيهِ وَحْدَهُ لَعِبْرَةً لِمَنِ اعْتَبَرَ، وَفِكْرَةً لِمَنْ تَفَكَّرَ. (٢)

❁ كَانَ الْحَسَنُ إِذَا أَصْبَحَ يَقُولُ:

يَسُرُّ الْفَتَى مَا كَانَ قَدَّمَ مِنْ تُقًى ... إِذَا عَرَفَ الدَّاءَ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ

❁ وَإِذَا أَمْسَى قَالَ:

وَمَا الدُّنْيَا بِبَاقِيَةٍ لِحَيٍّ ... وَمَا حَيٌّ عَلَى الدُّنْيَا بِبَاقِ (٣)

---

(١) "صيد الخاطر" (صـ: ٢٠٦).

(٢) "تفسير القرطبي" (٦/ ٣٥٢).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في "الإشراف في منازل الأشراف" (٢١٢)، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِرَاسَةَ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ... وإبراهيم، متروك الحديث. "التاريخ الكبير" للبخاري (١/٣٣٣)، وغيره.

فالإنسانُ ينبغي أنْ يُسارِعَ إلى طاعةِ الله، حتَّى في حالِ صغرِه وَصِبَاهُ، ويتَزَوَّدَ من الخَيْرِ والعِلْمِ، يَعْتَنِي بِنَفْسِهِ مُنْذُ الصِّغَرِ.

وكذلكَ على الآباءِ أنْ يَعْتَنُوا بِأبْنَائِهِمْ مِن وَقتِ الصِّبَا والطُّفُولَةِ، وأنْ يُنَشِّئُوهُمْ على الدِّينِ.

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ فِينَا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَدَهُ أَبُوهُ

❁ قالَ ابنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانَ السَّلَفُ إذا نَشَأَ لأحَدِهِمْ وَلَدٌ شَغَلُوهُ بِحِفْظِ القُرْآنِ وسَماعِ الحَدِيثِ، فيَثْبُتُ الإيمانُ في قَلْبِه؛ فقد تَوَانَى الناسُ عَنْ هَذا، فَصَارَ الوَلَدُ الفَطِنُ يَتَشَاغَلُ بِعلُومِ الأوائلِ، وَيَنْبُذُ أحاديثَ الرسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ويقولُ: أخبار آحاد! وأصحابُ الحديثِ عندهم يُسَمونَ: حشويَّةً!! (١)

❁ قال أبو القاسم يوسف بن غانم الدينوري: (٢)

حَرِّضْ بَنِيْكَ عَلى الآدابِ فِي الصِّغَرِ ... كَيْما تَقَرَّ بِهِ عَيناكَ فِي الْكِبَرِ

وَإِنَّما مَثَلُ الآدابِ يَحْفَظُها ... فِي عُنْفُوانِ الصِّبا كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ

وله طريق أخرى، أخرجها أبو نعيم في الحلية"(٢/٢٥١٤٥٦٧)، والبيهقي في "الزهد الكبير" (٦١٤)، وعندهما من طريق سفيان الثوري عن طريف عن الحسن...، وطريف أبو سفيان السعدي. قال ابن عبد البر: أجمعوا على أنه ضعيف، ومنهم من قال: متروك الحديث. "تهذيب التهذيب" (١٢/٥).

وعند البيهقي في "الشعب"(١٠٣٠٣)، قال أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، نَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحُسَيْنُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ أَيُّوبَ الطُّوسِيُّ قَالَ: " سَمِعْتُهُ يَتَمَثَّلُ مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ: فذكرها، والثالثة هي:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

(١) "صيد الخاطر" (صـ:٤٩١).

(٢) وعُزِيت لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما في "ديوانه".

هي الكنوز التي تنمو ذخائرها وَلاَ يُخَافُ عليها حَادِثُ الضـــــرر

❁ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أن هذا الموسم يتعلقُ معظمه بالوالدين، فهما يربيانه، ويعلمانه، ويحملانه على مصالحه، فلا ينبغي أن يفترا عن تأديبه وتعليمه، فإن: (التعليم في الصغر، كالنقش في الحجر) ... فيعلمانه الطهارة، والصلاة ويضربانه على تركها إذا بلغ تسع سنين، ويحفظانه القرأن، ويسمعانه الحديث، وما احتمل من العلم أمراه به، ويقبحان عنده ما يقبح، ويحثانه على مكارم الأخلاق، ولا يفتران عن تعليمه على قدر ما يحتمل؛ فإنه موسم الزرع.(١)

❁ وقالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَمَنْ رُزِقَ وَلَدًا، فَلْيَجْتَهِدْ مَعَهُ، وَالتَّوْفِيقُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَوِّدَهُ النَّظَافَةَ وَالطَّهَارَةَ مِنَ الصِّغَرِ، وَيُثَقِّفَهُ بِالآدَابِ فَإِذَا بَلَغَ خَمْسَ سِنِينَ أَخَذَهُ بِحِفْظِ الْعِلْمِ، وَسَنُبَيِّنُ فِيمَا بَعْدُ تَرْتِيبَ الْمَحْفُوظَاتِ، فَإِنَّ الْحِفْظَ فِي الصِّغَرِ نَقْشٌ فِي حَجَرٍ، وَمَتَى بَلَغَ الصَّبِيُّ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ هِمَّةٌ تَحُثُّهُ عَلَى اكْتِسَابِ الْعِلْمِ بَعْدُ فَلا فَلاحَ لَهُ.(٢)

❁ وقال عن نفسِهِ: فإني أذكر نفسي ولي همةٌ عالية، وأنا في المكتبِ ابن ست سنين، وأنا قرينُ الصبيان الكبار، قد رُزِقتُ عقلًا وافرًا في الصغر يزيدُ على عقلِ الشيوخِ، فما أذكر أني لعبتُ في طريقٍ مَعَ الصبيانِ قَط، ولا ضحِكتُ ضحكًا خارجًا، (حتى إني كنتُ ولي سبعُ سنين أو نحوُها أحضرُ رحبةَ الجامع، فلا أتخيّرُ حلقةَ مشعبة، بل أطلب المحدّث، فيتحدث بالسير بالسند فأحفظُ جميعَ ما أسمعه، وأذهب إلى البيت فأكتبه.(٣)

---

(١) "مواسم العمر" لابن الجوزي (صـ: ٣٩).

(٢) "الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ" (صـ: ٣٧).

(٣) "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد" (صـ: ٥٣).

❁ قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِمُؤَدِّبِ وَلَدِهِ - وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْمُهَاجِرِ -: عَلِّمْهُمُ الصِّدْقَ كَمَا تُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ، وَجَنِّبْهُمُ السفلة؛ فإنهم أسوأ النَّاسِ دِعَةً وَأَقَلُّهُمْ أَدَبًا، وَجَنِّبْهُمُ الْحَشَمَ؛ فَإِنَّهُمْ لَهُمْ مَفْسَدَةٌ، وَأَخْفِ شُعُورَهُمْ تَغْلُظْ رِقَابُهُمْ، وَأَطْعِمْهُمُ اللَّحْمَ يَقْوَوْا، وَعَلِّمْهُمُ الشِّعْرَ يُمَجَّدُوا وَيَنْجِدُوا، وَمُرْهُمْ أَنْ يَسْتَاكُوا عَرْضًا، وَيَمُصُّوا الْمَاءَ مَصًّا، وَلا يَعُبُّوا عَبًّا، وَإِذَا احْتَجْتَ أَنْ تَتَنَاوَلَهُمْ بِأَدَبٍ، فَلْيَكُنْ ذَلِكَ فِي سِرٍّ لا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْغَاشِيَةِ فَيَهُونُوا عَلَيْهِمْ.(١)

❁ وقالَ آخَر: (٢)

لا تَسُهُ عَن أَدَبِ الصَغي ... رِ وَإِن شَكى أَلَمَ التَعَب
وَدَعِ الكَبيرَ لِشانِهِ ... كَبُرَ الكَبيرُ عَنِ الأَدَب

❁ قال محمود بن الحسن الوراق:(٣)

كبُرَ الكبيرُ عن الأدب ... أدبُ الكبير من التعبْ
حَتّى متى وإلى متى ... هذا التمادي في اللّعبِ
الرّزْق لو لم تأتِهِ ... لأتاك عفوا من كثب
إن نمت عنه لم يَنَمْ ... حَتّى يحرّكه السَّببْ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "النفقة على العيال"(٣٣٩)، وفيه الحسين بن علي بن الأسود العجلي، ضعيف، قال الأزدي: ضعيف جدا يتكلمون في حديثه، وقال ابن عدي: يسرق الحديث وأحاديثه لا يتابع عليها. وقال أحمد: لا أعرفه. كما في ترجمته من "تهذيب الكمال"، وغيره.
وأخرجه الدينوري في "المجالسة"(١٧٦٦)، وفيه محمد بن الحارث، قال أبو حاتم: ضعيف، وقال غيره: متروك الحديث، والدينوري نفسه فيه ضعف. "الميزان" (٣/٥٠٥).

(٢) "صيد الخاطر"(صـ:١٤٦).

(٣) "تاريخ الإسلام" (٥/٦٩٩)، "تاريخ بغداد" (١٥/١٠٢).

فيُؤَدَّبُ الصَّغِيرُ، ويُعَلَّمُ مُنْذُ الصِّغَرِ الدِّين والاستِقَامَة، ويُعَوَّدُونَ على الخَيْرِ والعِلْمِ، وإنْ وُجِدَ شيءٌ من التَّعَبِ، وإنْ رَأَى الصَّغِيرُ في ذلكَ شيئاً من المَشَقَّةِ.

❁ قالَ أبو تمّام:(١)

قَسَـــا لِيَـزْدَجِـرُوا وَمَـنْ يَـكُ حَـازِمًـا فَـلْـيَـقْـسُ أَحْـيَـانًـا عَـلَى مَـنْ يَـرْحَـمُ

بعضُ الناسِ يُهْمِلُ وَلَدَهُ، ويُهْمِلُ التَّرْبِيَةَ فيهِ بحُجَّةِ أَنَّهُ لا يَزَالُ صَغِيرًا، ويَظُنُّ أَنَّهُ يَعْطِفُ عليهِ بذلكَ، ويَرْحَمُهُ بذلكَ، وهذا فيهِ خَرَابٌ لهُ.

❁ كما قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **كَمْ مِمَّنْ أَشْقَى وَلَدَهُ وفِلْذَةَ كَبِدِهِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ بإهمَالِهِ وتَرْكِ تَأْدِيبِهِ، وأعَانَتِه لَهُ على شَهْوَتِهِ، ويَزْعُمُ أَنَّهُ يُكْرِمُهُ وقدْ أَهَانَهُ، وأَنَّهُ يَرْحَمُهُ وقدْ ظَلَمَهُ وَحَرَمَهُ، ففَاتَهُ انْتِفاعُهُ بِوَلَدِهِ، وفَوَّتَ عليهِ حَظَّهُ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وإذا اعْتَبَرْتَ الفَسَادَ في الأولادِ رَأَيْتَ عامَّتَهُ من قِبَلِ الآباءِ..**(٢)

لم يُعِنْهُ على قَضَاءِ شَهْوَتِهِ في الحَلالِ، ولم يَكُنْ مُعِينًا لهُ على ذلكَ، بل أَهْمَلَهُ وتَرَكَ تَأْدِيبَهُ ولم يَسْعَ في إعْفَافِهِ، وتعليمه.

وهل يَجِبُ على الوالدِ أنْ يُزَوِّجَ وَلَدَهُ؟

في ذلك خلافٌ بين أهل العلم، قَالَ ابنُ قُدامَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ أَصْحَابُنَا: وَعَلَى الْأَبِ إعْفَافُ ابْنِهِ إذَا كَانَتْ عَلَيْهِ، نَفَقَتُهُ، وَكَانَ مُحْتَاجًا إلَى إعْفَافِهِ. وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَجِبُ ذَلِكَ عَلَيْهِ. وَلَنَا، أَنَّهُ مِنْ عَمُودَيْ نَسَبِهِ، وَتَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ، فَيَلْزَمُهُ إعْفَافُهُ عِنْدَ حَاجَتِهِ إلَيْهِ، كَأَبِيهِ.

---

(١) "الزهرة" (صـ: ١٩٩) للأصبهاني.

(٢) "تحفة المودود بأحكام المولود" (صـ: ٢٤٢).

❁ قَالَ الْقَاضِي: وَكَذَلِكَ يَجِيءُ فِي كُلِّ مَنْ لَزِمَتْهُ نَفَقَتُهُ؛ مِنْ أَخٍ، أَوْ عَمٍّ، أَوْ غَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ أَحْمَدَ قَدْ نَصَّ فِي الْعَبْدِ: يَلْزَمُهُ أَنْ يُزَوِّجَهُ إِذَا طَلَبَ ذَلِكَ، وَإِلَّا بِيعَ عَلَيْهِ. وَكُلُّ مِنْ لَزِمَهُ إِعْفَافُهُ لَزِمَتْهُ نَفَقَةُ زَوْجَتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَمَكَّنُ مِنَ الْإِعْفَافِ إِلَّا بِذَلِكَ. (١)

❁ قَالَ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قالَ أهلُ العلمِ: إنه يجب على من تلزمه نفقة شخص أن يزوجه إذا كان ماله يتسع لذلك، فيجب على الأب أن يزوج ابنه إذا احتاج الابن للزواج ولم يكن عنده ما يتزوج به، لكن سمعت: أن بعض الآباء الذين نسوا حالهم حال الشباب إذا طلب ابنه منه الزواج، قال له: تَزَوَّجْ من عَرَقِ جَبِينِكَ، هذا لا يَجُوزُ، وَحَرَامٌ عَليه إذا كان قادراً على تزويجه، وسوف يخاصمه ابنه يوم القيامة إذا لم يزوجه مع قدرته على تَزوِيجه. (٢)

وذهبَ بَعْضُ أهلِ العِلْمِ، إلى أَنهُ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِحْبَابِ، ونحوِ ذلكَ. لكنْ عَلَى أيِّ حالٍ إذا كَانَ الوالدُ مُتَمَكِّنًا عِنْدَهُ قُدْرَةٌ، والوَلَدُ ليسَ مُسْتَطِيعًا لذلكَ، فيَنْبَغِي للوالدِ أنْ يُزَوِّجَ وَلَدَهُ، إذا كَانَ لا يَزَالُ تحتَ رِعايَتِهِ، تحتَ نَفَقَتِهِ، فيكونُ عليهِ واجِبًا، وهذا من المَسْؤُولِيَّةِ والقِيَامِ بها.

❁ قالَ ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإذا راهَقَ الصَّبِيُّ فيَنْبَغِي لِوالِدِهِ أنْ يُزَوِّجَهُ.... والعجبُ من الوالدِ كيف لا يذكرُ حاله عند المراهقة، وما لقي وما عانى بعد البلوغ، أو كان قد وقع

(١) "المغني" لابن قدامة (٨/ ٢١٧).

(٢) "مجموع فتاوى ورسائل العثيمين" (١٨/ ٤١٠).

في زلة، فليعلم أن ولده مثله... ويندرُ شابٌ يؤثرُ العلم على النكاحِ، ويعلمُ من نفسِه الصبر، ويأمنُ على نفسِهِ؛ فإنَّ أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يتزوجْ إلا بعدَ الأربعين.(١)

❁ وَقَالَ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: وأوصي أيضاً الآباء بالنسبة لأبنائهم وبناتهم: أن يتقوا الله تعالى فيهم، لأن الأب إذا كان قادراً على تزويج ابنه وجب عليه أن يزوجه وجوباً كما يجب أن يكسوه ويطعمه ويسقيه ويسكنه يجب عليه أن يزوجه، والعجب أنه يوجد آباء أغنياء يقول له الولد: زوجني، فيقول: لا أزوجك، أنت اعمل وزوج نفسك، سبحان الله! الأمر بيده، هل الدراهم موجودة على الرمال ورُءُوس الجبال؟ أبداً، ولهذا نرى أن الرجل القادر على تزويج أبنائه يجب عليه أن يزوجهم وجوباً، فإن لم يفعل فهو ظالم آثم، ولست أقول هذا من عند نفسي بل قاله العلماء رحمهم الله، قالوا: إنه يجب على الرجل أن يعف أبناءه كما يجب عليه أن يسد جوعهم وعطشهم، بل قد تكون مسألة الزواج أخطر؛ لأنها قد تتعدى إلى الغير فيفسد غيره.

فيجب على الآباء أن يزوجوا أبناءهم إذا كانوا قادرين.(٢)

والعجبٌ مِنْ بعْضِ الآباءِ لا يهتمُ بتربيةِ الولدِ ولا بِتَأْدِيبِهِ، فمُخْطِئٌ بَعْضُ الآباءِ بحُجَّةِ أَنَّهُ لا يُرِيدُ أنْ يمنع وَلَدَهُ من الطُّفُولَةِ من سِنِّ الصِّغَرِ فيُدَلِّلُهُ، وكذلكَ أيضًا كما يُقالُ يُدَلِّعُه أكْثَرَ، ولا يَدْفَعُ بِهِ إلى الخَيْرِ والعِلْمِ وحِفْظِ القُرْآنِ، ولا يَقُومُ بتَأْدِيبِهِ التَّأْدِيبَ الصَّحِيحَ معَ الرِّفْقِ واللِّينِ، مُخْطِئٌ بذلكَ. فيحرم من الخير والأدب.

ويَنْشَأُ الوَلَدُ رُبَّما بَعِيدًا فاسِدًا، وقدْ يُفْسِدُ عليكَ مُسْتَقْبَلًا أَكْثَر، إذا كُنْتَ كذلكَ.

---

(١) "مواسم العمر" لابن الجوزي (صـ: ٤٣).

(٢) "اللقاء الشهري"

❁ قال الهيثم: كان الوليد لُحَنة، وكان عبد الملك يحبه ولا يفارقه، فمنعه التأدُّب، ولم يُغربه إلى البادية، مع عادة بني أمية مع أبنائهم، فخطب يومًا وعبد الملك حاضر فلحن لحنًا فاحشًا، فَقَالَ عبدُ المَلِكِ بنُ مَرْوانَ: أضرَّ حُبُّنا بالوَلِيدِ.(١)

فبَعْضُهُمْ يَظُنُّ أنَّهُ يُكْرِمُ وَلَدَهُ بذلكَ، وأنَّهُ يَرْحَمُهُ بذلكَ، وهذا فيهِ إهانَةٌ لهُ وظُلْمٌ وحِرْمَانٌ مِن السَّعادَةِ الحَقِيقِيَّةِ، والنَّفْعِ الحَقِيقِيِّ الذي يَنْتَفِعُ بهِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، وتَنْتَفِعُ بهِ أنتَ أَيْضاً أَيُّهَا الأَب.

❁ لذلكَ قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ففَاتَهُ انْتِفاعُهُ بِوَلَدِهِ)، يَفُوتُ عليكَ الانْتِفاعُ بِوَلَدِكَ أنتَ أوَّلًا إذا أهْمَلْتَهُ، ولم تُوَجِّهْهُ إلى الخَيْرِ، وتَسْعَى بتَأْدِيبِهِ التَّأْدِيبَ الصَّحِيحَ الشَّرْعِيَّ على العِلْمِ، على الأخْلاقِ، على الآدابِ، على التَّواضُعِ، على الاحْتِرامِ، على العِلْمِ.

قَالَ: (وفَوَّتَ عليهِ حَظَّهُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ)، يَفُوتُ انْتِفاعُ الوَالِدِ بولَدِهِ، ويَفُوتُ حَظُّ الوَلَدِ، وخَيْرُ الوَلَدِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ بسَبَبِ الإهمَالِ في التَّرْبِيَةِ وتَرْكِ التَّأْدِيبِ الصَّحِيحِ.

فَيَنْبَغِي للآباءِ أنْ يَعْتَنُوا بتَرْبِيَةِ أبْنَائِهِمْ مُنْذُ الصِّغَرِ، وأنْ يُحْسِنُوا في ذلكَ، وأنْ يُهَيِّئُوا لهُمُ الخَيْرَ والعِلْمَ، فالوَالِدُ مَأْجُورٌ على تَهْيِئَةِ الخَيْرِ والعِلْمِ لِوَلَدِهِ، ويَجْنِي ثِمَارَ ذلكَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، في الدُّنْيا بالبِرِّ، بالطَّاعَةِ، بالذِّكْرِ الحَسَنِ، حينَ يَرَى وَلَدَهُ على خَيْرٍ واسْتِقَامَةٍ وقُرْآنٍ، وعِلْمٍ، وتَعْلِيمٍ تقرُ بذلك عينهُ، فيكونُ بارًّا بهِ مُطيعًا لهُ في دنياهُ، وبعدَ موتهِ بالدُّعاءِ لهُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو

(١) "مواسم العمر" لابن الجوزي (صـ: ٤٠)، "مرآة الزمان في تواريخ الأعيان"(١٠/ ١٣٦).

لَهُ».[١] وإنَّما ذلكَ إذا رَبَّيْتَهُ على الخَيْرِ والعِلْمِ والسُّنَّةِ، هَيَّأْتَ لهُ طَلَبَ العِلْمِ في أماكنِ العِلْمِ، وإنْ كانَ لا يَزالُ صَغيرًا في البَيْتِ، عَلِّمْهُ الآدابَ، والعِلْمَ بقدرِ ما تَسْتَطِيعُ، الأبُ وكذلكَ الأمُّ. فإنَّ الوَلَدَ إذَا كَانَ صَالحاً يَرْتَفِعُ والِدُهُ يومَ القِيَامَةِ دَرَجَاتٍ، فَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَتَعَلَّمَهُ وَعَمِلَ بِهِ أُلْبِسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَاجًا مِنْ نُورٍ ضَوْءُهُ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَيُكْسَى وَالِدَيْهِ حُلَّتَانِ لَا يَقُومُ بِهِمَا الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ: بِمَا كُسِينَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ».[٢]

ومما يشهدُ لحديثِ بُريدَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَا جَاء عَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ أَنَا الَّذِي كُنْتُ أُسْهِرُ لَيْلَكَ، وَأُظْمِئُ هَوَاجِرَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَأَنَا لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تَاجِرٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَانِ، لَا يَقُومُ لَهُمَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَيَقُولَانِ: يَا رَبُّ، أَنَّى لَنَا هَذَا؟ فَيُقَالُ لَهُمَا: بِتَعْلِيمِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، وَإِنَّ صَاحِبَ الْقُرْآنِ يُقَالُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: اقْرَأْ، وَارْقَ فِي الدَّرَجَاتِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ مَعَكَ».[٣]

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٢) أخرجه الحاكم (٢٠٨٦)، وغيره، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "صحيح الترغيب" (١٤٣٤).

(٣) أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٥٧٦٤). وهو في "الصحيحة" (٢٢٤٠).

وَجَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ»، وعند البيهقي، والبزار، والطبراني، بلفظ: «بِدُعَاءِ وَلَدِكَ لَكَ». (١)

❁ وجاء عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُرْفَعُ بِدُعَاءِ وَلَدِهِ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ».

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه"(١٢٠٨٢)، بسند صحيح.

إذا وَجَّهَهُ إلى الخَيْرِ ورَبَّاهُ على الخَيْرِ والعِلْمِ، فالاهْتِمامُ بتَرْبِيَةِ الأولادِ وتَنْشِئَةِ الأجيالِ على الخَيْرِ والعِلْمِ، والحَذَرُ من إهمالِهِمْ وتَرْكِهِمْ معَ السُّفَهاءِ، معَ اللَّاعِبِينَ، معَ أَهْلِ اللَّهْوِ، معَ أَهْلِ الشَّرِّ، معَ أَهْلِ البِطَالَةِ، فإنَّ هذا يُؤَثِّرُ عليهِمْ، يُؤَثِّرُ على الأَولادِ، ويُؤَثِّرُ عليكَ أنتَ، وهيَ مَسْؤُولِيَّةٌ حَمَّلَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ إيَّاها، وأمانَةٌ كَلَّفَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ إيَّاها، وأنتَ مَسْؤُولٌ عنها بينَ يَدَيِ اللهِ جلَّ وعلا.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ». (٢)

وعقوبةُ الإهمال والغش في الرعاية، والتربية عقوبة وخيمة جداً، روى البخاري ومسلم، عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». (٣)

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٦١٠)، وابن ماجه (٣٦٦٠)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (١٣٤٥٩)، والبزار في "مسنده" (٩٠٤٢)، والطبراني في "الدعاء" (١٢٤٩)، وغيرهم، وحسنه الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "الصحيحة" (١٥٩٨)، والإمام الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في "الصحيح المسند" (١٣٣٩).

(٢) رواه النسائي في "الكبرى"(٩١٢٦). وهو في "الصحيحة" (١٦٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢).

البيت رقم ٦٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى ... بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

شرح البيت رقم ٦٣

في بَعْضِ النُّسَخِ: "بِعَقْلِكَ". بَعْدَ أنْ قَدَّمَ نُصْحَهُ وإرْشادَهُ لِمَنْ كَنَاه بأبي بَكْرٍ، ثُمَّ عادَ إلى نَفْسِهِ بِلِسانِ مَنْ نَصَحَهُ، أيْ: كأنَّهُ يَقُولُ لأبي بَكْرٍ: قُلْ يا ناصِحِي، أيْ يَقُولُ للنَّاظِمِ: بَلْ أنتَ أوْلَى بهذِهِ النَّصِيحَةِ.

"لو فِعْلِكَ قد نَظَرْتَ"، بما تَأْمُرُ بِهِ أنتَ أوْلَى أنْ تَفْعَلَ، وبما تَنْهَى عنهُ أنتَ أوْلَى أنْ تَجْتَنِبَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ البقرة [٤٤].

❁ قالَ ابنُ كَثِير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والغَرَضُ أنَّ اللهَ تعالى ذَمَّهُمْ على هذا الصَّنِيعِ ونَبَّهَهُمْ على خَطَئِهِمْ في حَقِّ أنْفُسِهِمْ، حيثُ كانوا يَأْمُرُونَ بالخَيْرِ ولا يَفْعَلُونَهُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَمَّهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْبِرِّ مَعَ تَرْكِهِمْ لَهُ، بَلْ عَلَى تَرْكِهِمْ لَهُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ [مَعْرُوفٌ] وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَالِمِ. (١)

يَتَعَلَّقُ بالشَّيءِ المَأْمُورِ بِهِ أمْرَانِ:

الأمْرُ الأوَّلُ: أنْ تَفْعَلَ هذا الشَّيءَ المَأْمُورَ بِهِ.

والأمْرُ الثَّانِي: أنْ تَدْعُوَ إليهِ.

---

(١) "تفسير ابن كثير" لهذه الآية.

وهكذا النهي يتعلقُ به أَمْرَان: **الأول**: اجتنابهُ. **والثاني**: التحذيرُ منه.

فإذا حَصَلَ أَنَّهُ أمَرَ بهِ ودَعَا إليهِ، ولم يَفْعَلْهُ، يكونُ ذَمُّهُ على عَدَمِ فِعْلِهِ لا على أَنَّهُ أمَرَ بهِ.

فمَثَلًا، أنتَ تَأْمُرُ غَيْرَكَ فتقولُ لهُ: قُمْ بزيارةِ أَرْحَامِكَ وأنتَ لا تفعلُ ذلك، فَأَنتَ يَلْحَقُكَ الذَّنْبُ من حيثُ أَنَّكَ لم تَفْعَلْ ذلك، لا بأَمْرِكَ، أنتَ مَأْجُورٌ على إرْشادِكَ لهُ.

وإذا حذرَ مِنْ منكرٍ، وارتكبهُ، يكونُ مذموما على ارتكابه للمحرم لا على نهيه عنه.

لذلكَ قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وليسَ المَرَادُ ذَمَّهُمْ على أمْرِهِمْ بالبِرِّ معَ تَرْكِهِمْ لهُ، بل على تَرْكِهِمْ لهُ".

الإنسانُ قد يَأْمُرُ بالشَّيءِ وإنْ لم يَفْعَلْهُ، لأَنَّهُ قدْ عاجزٌ عن القِيامِ بهِ، فيَأْمُرُ، ويَنْصَحُ غَيْرَهُ.

مَثَلًا، أنتَ قدْ تَأْمُرُ النَّاسَ بالزَّكاةِ وتَحُثُّهُمْ عليها، وأنَّ مَنْ بَلَغَ مالُهُ النِّصابِ، يَجِبُ عليهِ أنْ يُخْرِجَ زَكاتَهُ، وأنتَ فَقِيرٌ ليسَ عندَكَ ما تُخْرِجُ عليهِ الزَّكاةَ. هنا لا يُقالُ له: أنتَ أحَقُّ بهذا الأمْرِ. وَقدْ يَحُثُّ النَّاسَ على الحَجِّ أو العُمْرَةِ، ويَأْمُرُهُمْ بذلكَ، وهو عاجِزٌ عن ذلك، هو مَعْذُورٌ، ولا يُقالُ لهُ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ البقرة [٤٤].

قدْ يُوجَدُ شَخْصٌ في حالِ شَبابِهِ يَأْمُرُ بالزَّواجِ، ويَنْصَحُ بهِ، لكنْ هو عاجِزٌ عنه، لأمُورٍ ماديَّةٍ، أو نَحْوِها. فهنا لا يُقالُ لهُ: لِماذا تَأْمُرُ، وأنتَ لا تَفْعَلُ؛ لأَنَّهُ عاجِزٌ عن فِعْلِهِ.

قدْ تَنْصَحُ بالصِّيامِ وتَأْمُرُ بهِ في النَّوافِلِ والإكْثارِ منها، وأنتَ تَعْجِزُ عن القِيامِ بهذا الأمْرِ لِمَرَضٍ، أو لآخَرَ، هنا لا يَلْحَقُهُ الذَّنْبُ في مِثْلِ هذا الحالِ، إنَّما الذَّنْبُ على مَنْ يَأْمُرُ بالشَّيءِ وَهو قادِرٌ على فِعْلِهِ ثمَّ لا يَفْعَلُهُ.

❁ قالَ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَلَكِنَّ [الْوَاجِبَ وَ] الْأَوْلَى بِالْعَالِمِ أَنْ يَفْعَلَهُ مَعَ أَمْرِهِمْ بِهِ، وَلَا يَتَخَلَّفَ عَنْهُمْ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ

أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود [٨٨]. **فَكُلٌّ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَفِعْلِهِ وَاجِبٌ، لَا يَسْقُطُ أَحَدُهُمَا بِتَرْكِ الْآخَرِ** عَلَى أَصَحِّ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ. وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الْمَعَاصِي لَا يَنْهَى غَيْرَهُ عَنْهَا، وَهَذَا ضَعِيفٌ، وَأَضْعَفُ مِنْهُ تَمَسُّكُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا. **وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْعَالِمَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنِ ارْتَكَبَهُ**، [قَالَ مَالِكٌ عَنْ رَبِيعَةَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ لَهُ: لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مَا أَمَرَ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ. وَقَالَ مَالِكٌ: وَصَدَقَ مَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ؟ **قُلْتُ: وَلَكِنَّهُ -وَالْحَالَةُ هَذِهِ- مَذْمُومٌ عَلَى تَرْكِ الطَّاعَةِ وَفِعْلِهِ الْمَعْصِيَةَ**؛ لِعِلْمِهِ بِهَا وَمُخَالَفَتِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ؛ وَلِهَذَا جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ فِي الْوَعِيدِ عَلَى ذَلِكَ.(١)

❁ وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " تفسيره" للآية السابقة: اعْلَمْ وَفَّقَكَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ التَّوْبِيخَ فِي الْآيَةِ بِسَبَبِ تَرْكِ فِعْلِ الْبِرِّ لَا بِسَبَبِ الْأَمْرِ بِالْبِرِّ وَلِهَذَا ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ قَوْمًا كَانُوا يَأْمُرُونَ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا وَبَّخَهُمْ بِهِ تَوْبِيخًا يُتْلَى عَلَى طُولِ الدَّهْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَقَالَ " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ" الْآيَةَ.

❁ وَقَالَ مَنْصُورٌ الْفَقِيهُ فَأَحْسَنَ:

إِنَّ قَوْمًا يَأْمُرُونَا ... بِالَّذِي لَا يَفْعَلُونَا
لَمَجَانِينٌ وَإِنْ هُمْ ... لَمْ يَكُونُوا يُصْرَعُونَا

(١) "تفسير ابن كثير" لهذه الآية (١٤٤) من سورة البقرة.

واللهُ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ الصف [٢، ٣].

❁ قالَ بَعْضُهُمْ :(١)

مَا كُلُّ مَنْ وَصَفَ الدَّواء يستعمِلُه ... ولا كُلُّ مَنْ وَصَفَ التُّقَى ذو تُقَى

وَصَفْتُ التُقَى حتَّى كأنِّي ذو تُقَى ... ورِيحُ الخَطَايا مِن ثِيابي تَعْبَقُ

قالَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومع هذا كلِّه فلا بُدَّ للناسِ من الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْي عن المنكرِ، والوعظِ والتذكيرِ، ولو لم يعِظِ النَّاسَ إلا مَعْصُوم مِن الزَّللِ، لم يعِظْ بعدَ رسولِ اللهِ - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ - أحدٌ لأنه لا عِصْمَةَ لأحدٍ بعدَهُ.

لئن لم يَعظِ العاصِينَ مَنْ هُوَ مُذْنِب ... فَمَنْ يَعِظِ العَاصِينَ بَعْدَ مُحَمَّدِ

❁... وقيل للحسنِ: إنَّ فلانا لا يَعِظُ، ويقولُ: أخافُ أنْ أقولَ ما لا أفعلُ.

فقال الحسن: وأيُّنا يفعلُ ما يقولُ؟!

ودَّ الشيطانُ أنَّه قد ظفِرَ بهذا، فلم يأمُرْ أحدٌ بمعروفٍ ولم ينهَ عن مُنْكَرٍ...

مَنْ ذا الَّذي ما ساءَ قَطْ ... ومَنْ لَهُ الحُسْنَى فَقَطْ

❁ خطب عُمَرُ بنُ عبد العزيز - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - يومًا، فقال في موعظته: إنِّي لأقُولُ هذه المقالَةَ وما أعلمُ عند أحدٍ من الذُّنوبِ أكثرَ ممَّا أعلمُ عنْدِي. فأستغفِرُ اللَّهَ وأتوبُ إليه.

❁ وكتبَ إلى بعض نوَّابِهِ على بعضِ الأمصار كتابًا يعِظُهُ فيه، فقال في آخره: وإنِّي لأعِظُكَ بهذا، وإنِّي لكثيرُ الإسْرافِ على نَفْسِي، غيرُ مُحكم لكثيرٍ من أمْرِي، ولو أن المرءَ لا يعظُ أخاهُ حتى يُحكمَ نفسهُ إذًا لتواكلَ الناسُ الخيرَ، وإذاً لرُفِعَ الأمر بالمعروفِ والنَهْيُ عن

(١) "تفسير" ابن رجب الحنبلي (٢/ ٤٢٢)

المُنْكَرِ. وإذاً لاستُحِلَّتِ المَحارِمُ، وقَلَّ الواعِظُونَ والسَّاعون للَّه بالنصِيحةِ في الأرض، فإنَّ الشيطان وأعوانَه يَودُّون أن لا يأمُرَ أَحدٌ بمعروف ولا يَنْهَى عن مُنْكَرٍ، وإذا أمَرَهُم أحدٌ أو نَهاهُم، عَابُوه بما فيهِ وبما ليس فيه.

❁ كما قيل:

وأُعْلِنَتِ الفواحِشُ في البوادِي ... وصارَ النَّاسُ أعْوَانَ المريبِ
إذا ما عِبْتُهُم عَابُوا مَقَالِي ... لِما في القَوْمِ مِن تلكَ العُيوبِ
وَوَدُّوا لو كَفَفنا فاسْتَوَيْنا ... فصَارَ النَّاسُ كالشيءِ المشوبِ
وكنَّا نَسْتَطِبُّ إذا مَرِضْنَا ... فصارَ هلاكُنا بيدِ الطَّبِيبِ [1]

❁ وَقَالَ السَّفَّارِينِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَنْ نَهَى عَمَّا لَهُ قَدِ ارْتَكَبْ ... فَقَدْ أَتَى مِمَّا بِهِ يُقْضَى الْعَجَبْ
فَلَوْ بَدَا بِنَفْسِهِ فَذَادَهَا ... عَنْ غَيِّهَا لَكَانَ قَدْ أَفَادَهَا

❁ ومِما تَقَدَّمَ أيضًا:

أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذا التَّعْلِيمُ

❁ إلى قولِهِ:

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عليكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ

❁ ذُكِرَ عنِ ابنِ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّهُ طُلِبَ منهُ أَنْ يَخْطُبَ حولَ تَحْرِيرِ الرِّقَابِ، فلمْ يَفْعَلْ حتَّى تَمَكَّنَ من العِتْقِ، فاعْتَقَ بَعْضَ الرِّقَابِ، ثُمَّ بَعْدَ ذلكَ خَطَبَ على هذا الأمْرِ، حتَّى لا يَكُونَ ممن يأمر بما لا يفعل، وهذا من حِرْصِهِ رَحِمَهُ اللهُ ووَرَعِهِ، ولا يَلْزَمُ الإنسانَ ذلكَ إذا كان غير قادر بسبب بعض الموانع، لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَها.

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/٤٢٢ـ٤٢٤).

البيت رقم٦٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تُقَطِّعُنِي عَلَى التَّفْرِيطِ لَوْماً وَبِالتَّفْرِيطِ دَهْرَكَ قَدْ قَطَعْتَا

شرح البيت رقم ٦٤

أيْ: أتَلُومُنِي على تَقْصِيرِي وتَفْرِيطِي، وأنتَ قَطَعْتَ دَهْرَكَ وعُمْرَكَ في التَّفْرِيطِ!

قدْ قيل: الوَقْتُ كالسَّيْفِ إنْ لمْ تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ .

الذي يُضَيِّعُ وَقْتَهُ ويُذْهِبُهُ هذا مُفَرِّطٌ جِدًّا

"تُقَطِّعُنِي عَلَى التَّفْرِيطِ لَوْماً"، أيْ: تَشْهَدُ عَلَيَّ باللَّوْمِ، وتَلُومُنِي لَوْمًا شَدِيدًا حتَّى كما يُقالُ تَقْطَعُ القَلْبُ والفُؤَاد، وأنتَ بِنَفْسِكَ قدْ ظَلَلْتَ طوالَ عُمْرِكَ مُفَرِّطًا.

❁ قالَ يحيى بْنُ مُعَاذ الرازي: (١)

مَوَاعِظُ الْوَاعِظِ لَنْ تُقْبَلا حَتَّى يَعِيَهَا قَلْبُهُ أَوَّلا
يَا قَوم لا أَظْلَمَ مِنْ وَاعِظٍ خَالَفَ مَا قَدْ قَالَهُ فِي الْمَلا
أَظْهَرَ بين النّاس إِحْسَانَهُ وَبَارَزَ الرَّحْمَنَ لَمَّا خَلا

أي: قَطَعَ وَقْتَهُ وعُمْرَهُ بالإهْمَالِ والتَّفْرِيطِ وعَدَمِ الاعْتِنَاءِ بوقْتِهِ والمُحَافَظَةِ عليهِ في طَاعَةِ اللهِ جَلَّ وعَلا وفي طَلَبِ العِلْمِ النَّافِعِ.

يقولُ لهُ: كيفَ تَلُومُنِي هذا اللَّوْم الشَّدِيد الذي يُحْدِثُ لي حَسْرَةً ونَدَامَةً وألَمًا، وتَنْسَى نَفْسَكَ وأنتَ أكْثَرُ تَفْرِيطًا وتَقْصِيرًا .

❁ وكما قالَ بَعْضُهُمْ: (٢)

---

(١) "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" (١٢/ ١٤٨)، "تاريخ الإسلام" ط التوفيقية (١٩/ ٢٧٢).

(٢) "الآداب الشرعية" (١/ ٣٠٣).

عَـجِبْـتُ لِمَـنْ يَبْكِي عَلَى مَوْتِ غَيْرِهِ ... دُمُـوعًـا وَلَا يَـبْـكِـي عَـلَى مَـوْتِـهِ دَمَـا
وَأَعْـجَـبُ مِـنْ ذَا أَنْ يَـرَى عَـيْـبَ غَـيْرِهِ ... عَـظِـيـمًا وَفِي عَـيْـنَـيْـهِ عَـنْ عَـيْـبِـهِ عَـمَـى

كُلَّما كانَ الإنسانُ عامِلًا بما يَعِظُ، كُلَّما كانَ ذلكَ أفْضَل وأقْبَل، ويُقْبَلُ قَوْلُهُ ويُقْبَلُ نُصْحُهُ. ولا يَنْبَغِي للإنسانِ أنْ يُفَتِّشَ عنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ ويَنْسَى عُيُوبَ نَفْسِهِ، بَلْ يَنْبَغِي أنْ يُصْلِحَ نَفْسَهُ أوَّلًا.

❁ قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فِي ابْنِ السَّمَّاكِ الْوَاعِظِ:(١)

يَـا وَاعِظَ النَّـاسِ قَـدْ أَصْـبَحْـتَ مُتَّهَمَا ... إِذْ عِـبْـتَ مِـنْـهُـمْ أُمُـورًا أَنْـتَ آتِـيـهَـا
كَـالْمُلْبِسِ الثَّوْبَ مِنْ عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ ... لِـلـنَّـاسِ بَـادِيَـةٌ مِـنْ أَنْ يُـوَارِيَهَـا
وَأَعْظَمُ الْإِثْمِ بَعْدَ الشِّـــرْكِ تَعْلَمُهُ ... فِي كُـلِّ نَـفْـسٍ عَـمَاهَـا عَـنْ مُسَـاوِيهَـا
عِرْفَـانُهَـا بِعُيُوبِ النَّـاسِ تُبْصِـــرُهَـا ... مِنْهُمْ وَلَا تُبْصِـــرُ الْعَيْبَ الَّذِي فِيهَا

❁ وقال أبو عُثْمَانَ سعيدُ بنُ إسماعيلَ بنِ سعيد الْحِيرِيِّ:(٢)

وَغَـيْرُ تَـقِـيٍّ يَـأْمُـرُ الـنَّـاسَ بِـالـتُّـقَـى ... طَـبِـيـبٌ يُـدَاوِي وَالـطَّـبِـيـبُ مَـرِيـضُ

❁ قالَ مالكُ بنُ دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الْعَالِمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ كَمَا يَزِلُّ الْقَطْرُ عَنِ الصَّفَا».(٣)

---

(١) "بهجة المجالس" (صـ: ٢٢٩)، وفي "جامع بيان العلم" في موضعين، "الآداب الشرعية"(١/ ١٨٥).

(٢) أخرجه البيهقي (١٧٨١)، (٦٩٢١)، قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَخْبَرَنَا أَبُو حَازِمٍ الْحَافِظُ، أخبرنا أَبُو عَمْرِو بْنُ مَطَرٍ قَالَ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ أَبِي عُثْمَانَ الْحِيرِيِّ الزَّاهِدِ، فَسَكَتَ حَتَّى طَالَ سُكُوتُهُ، ثُمَّ أنشأ يَقُولُ: ... قَالَ: فَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بِالْبُكَاءِ وَالضَّجِيجِ. وسنده صحيح.

(٣) أخرجه أحمد في "الزهد" (١٨٨٤)، من طريق سَيَّار، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكًا، يَقُولُ: ...وأخرجه البيهقي في "الشعب" (١٧٠٠)، والخطيب في "اقتضاء العلم العمل" (٩٧) ،من طريق عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ الْقَطْوَانِيُّ، حدثنا سَيَّارٌ، حدثنا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ يَقُولُ: (قَرَأْتُ فِي

❁ قَالَ حَاتِمٌ الْأَصَمُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَيْسَ فِي الْقِيَامَةِ أَشَدُّ حَسْرَةً مِنْ رَجُلٍ عَلَّمَ النَّاسَ عِلْمًا فَعَمِلُوا بِهِ وَلَمْ يَعْمَلْ هُوَ بِهِ فَفَازُوا بِسَبَبِهِ وَهَلَكَ.(١)

❁ وقالَ ابنُ السماكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَمْ مِنْ مُذَكِّرٍ بِاللهِ نَاسٍ لِلَّهِ، وَكَمْ مِنْ مُخَوِّفٍ بِاللهِ جَرِيءٌ عَلَى اللهِ، وَكَمْ مِنْ دَاعٍ إِلَى اللهِ فَارٌّ مِنَ اللهِ، وَكَمْ مِنْ تَالٍ كِتَابَ اللهِ مُنْسَلِخٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ(٢)

فكمْ منَ الناسِ في هذا الزمانِ منْ يلبسُ لباسَ الدينِ، ويتزيَّا بزيِّ الدينِ، وهوَ يحاربُ الدينَ ويحاربُ أهلَهُ! وكمْ منْ ناطقٍ باسمِ الكتابِ والسنةِ، وهوَ محاربٌ لهما! وما أكثرَ هذا اليومَ في أوساطِ الناسِ ممنْ يتزعَّمونَ هذهِ الأمورَ إلَّا منْ رحمَ اللهُ! تراهُ ربما يدعو وينادي وينشئُ القنواتِ ومواقعَ التواصلِ وعبرَ البرامجِ والإذاعاتِ، أو ربما عبرَ الصحفِ والمجلاتِ، أو يعتلي المنابرَ، وهوَ بعيدٌ غايةَ البعدِ عما يقولُ، أو بعضَ البعدِ، كلٌّ بحسبهِ. بلْ يناقضُ قولَهُ بفعلِهِ، يدعو بلسانهِ إلى الدينِ والإسلامِ، ويحاربُ ذلكَ بفعلِهِ واعتقاداتِهِ.

بَـرَزَ الـثَـعـلَـبُ يَـومـاً في شِـعـارِ الـواعِـظـيـنـا

التَّوْرَاةِ):...وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٦/٢٨٨)، من طريق سُلَيْمَان، ثَنَا جَعْفَرٌ، قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ، يَقُولُ: ... ولعله تصحفَ من سيار؛ ولأنه لم يذكروا في ترجمة جعفر بأنه روى عنه سليمان كما في "تهذيب الكمال"، وغيره، والله أعلم. وسيار، فيه ضعف. ومن طريق أخرى عند الخطيب في "اقتضاء العلم العمل" (٩٨)، عن زَيْدِ بْنِ عَوْفٍ، ثنا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: «الْعَالِمُ الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ بِمَنْزِلَةِ الصَّفَا إِذَا وَقَعَ عَلَيْهِ الْقَطْرُ زُلِقَ عَنْهُ».

(١) "تنبيه الغافلين"(صـ: ١٢٧)، وذكره صاحب "الإحياء" ولم أقف عليه مسندا.

(٢) أخرجه البيهقي في "الشعب" (١٧٧١)، وفيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن جهضم، متهم بوضع الحديث، وقيل: إنه كان يكذب. "لسان الميزان "ت أبي غدة (٥/ ٥٥٥). وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٨/٢٠٦)، وفيه هارون بن كامل، قال حدثني عبد الله بن صالح سمعت ابن السماك ...فذكره، قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم أجد له ترجمة. "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (٤/ ١٨٦)، (١٦٤٠)، وعبد الله بن صالح كاتب الليث، فيه ضعف، كما في ترجمته من "تهذيب الكمال" (١٥/ ١٠١ وما بعدها).

فَمَشى في الأَرضِ يَهدي ... وَيَسُبُّ الماكِرينا
وَيَقولُ الحَمدُ لِلهِ ... إِلَهِ العالَمينا
يا عِبادَ اللهِ توبوا ... فَهوَ كَهفُ التائِبينا
وَازهَدوا في الطَيرِ ... إِنَّ العَيشَ عَيشُ الزاهِدينا
وَاطلُبوا الديكَ يُؤَذِّن ... لِصَلاةِ الصُبحِ فينا
فَأَتى الديكَ رَسولٌ ... مِن إِمامِ الناسِكينا
عَرَضَ الأَمرَ عَلَيهِ ... وَهوَ يَرجو أَن يَلينا
فَأَجابَ الديكُ عُذراً ... يا أَضَلَّ المُهتَدينا
بَلِّغ الثَعلَبَ عَنّي ... عَنْ جُدُودِي الصَالِحِينَا
عَن ذَوي التِيجَانِ مِمَّن ... دَخَلَ البَطنَ اللَّعِينَا
أَنَّهُم قالوا وَخَيرُ ... القَولِ قَولُ العَارِفِينَا
مُخطِئٌ مَن ظَنَّ يَوماً ... أَنَّ لِلثَعلَبِ دِينَا

وما أكثرَ الثعالبَ اليومَ! الذينَ يتظاهرونَ بالدينِ ويمكرونَ مكرهُ، ويلعبونَ لعبهُ وأعظمَ.

ربما يتقلدونَ المناصبَ، والرُّتبَ الرفيعةَ، أو يعتلون المنابر، ويتصدرون المجالس، ويُنادونَ بالباطلِ، ويدعونَ إليهِ باسم الدين.

فكمْ ممنْ اغترَّ بأساليبهمُ الماكرةِ، وَخِدَاعِهم الخبيث، فصارَ صيدًا لهؤلاءِ الثعالبِ، وهمْ بالعشراتِ بلْ بالآلافِ، نسألُ الله السلامة والعافية.

فينبغي للإنسانِ أنْ يحذرَ منْ مكرِ الثعالبِ البشريةِ، وممنْ يتزيَّا بزيِّ الدينِ والعلمِ، وهوَ يحاربُ ذلكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ الأنفال [٣٠].

البيت رقم ٦٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي صِـــغَـرِي تُخَـوِّفُـنِـي الْـمَـنَـايَـا ... وَمَـا تَـدْرِي بِحَـالِـكَ حَيْـثُ شِـخْـتَـا

شرح البيت رقم ٦٥

أيْ: أنا وأنا لا أزالُ في سنِّ الصغرِ، وتخوِّفني منَ المنايا، وتناسيتَ نفسَكَ، وأنتَ قدْ صرتَ كبيرًا في السنِّ فأنتَ أولى بالتخويفِ. والمرادُ بالمنايا جمعُ منيةٍ وهيَ الموتُ.

❁ قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ خُوَيْلِدُ بْنُ خَالِدٍ الْهُذَلِيُّ: (١)

وَإِذَا الْـمَـنِـيَّـةُ أَنْشَـبَـتْ أَظْـفَـارَهَـا ... أَلْـفَـيْـتَ كُـلَّ تَـمِـيـمَـةٍ لَا تَـنْـفَـعُ

❁ وَقالَ أبو العتاهيةِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الْـمَـنَـايَـا تَجُـوسُ كُـلَّ الْـبِـلَادِ ... والْـمَـنَـايَـا تُـفْـنِـي جَمِـيعَ الْـعِـبَـادِ

لَـتَـنَـالَـنَّ مِـنْ قُـرونٍ أَراهَـا ... مِـثْـلَ مَـا نِـلْـنَ مِـنْ ثَـمُـودٍ وعَـادِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ الإسراء [٥].

❁ وقالَ الطبريُّ: يقول: فتردّدوا بين الدور والمساكن، وذهبوا وجاءوا، يقال فيه: جاس القوم بين الديار وحاسوا بمعنى واحد... وجائز أن يكون معناه: فجاسوا خلال الديار، فقتلوهم ذاهبين وجائين، فيصح التأويلان جميعا.(٢)

(وَمَعْنَى جَاسُوا: عَاثُوا وَقَتَلُوا، وَكَذَلِكَ جَاسُوا وَهَاسُوا وَدَاسُوا).(٣)

---

(١) "معالم السنن" (٤/٢٢١)، وجاء عن عدد أنه تمثل بها.

(٢) "تفسير الطبري" للآية المذكورة.

(٣) "تفسير القرطبي" للآية المذكورة.

الجوسُ: التخللُ في الديار.[١]

وَالجَوْسُ: طَلَبُ الشيءِ بالاسْتِقْصاءِ، والتَّرَدُّدُ خِلالَ الدُّورِ والبُيوتِ في الغارَةِ، والطَّوْفُ فيها.[٢] وَهُوَ مصدر قولك: جاسوا خلال الديار، أي تخلّلوها فطلبوا ما فيها، كما يَجوسُ الرجل الاخبار أي يطلبها. وكذلك الاجتياس. والجوسان بالتحريك: الطوفان بالليل.[٣]

❁ وقالَ بعضهمْ: وهوَ مما يعزى لأبي العتاهيةِ:

يا نَفْسُ قَدْ أُزِفَ الرَّحيلُ ... وأَظَلَّكِ الْخَطْبُ الْجَليل
فَتَأَهَّبي يا نَفْسِ لا ... يَلْعَبْ بِكِ الأَمَلُ الطَّويلُ
فَلَتَنْزِلَنَّ بِمَنْزِلِ ... يَنْسى الْخَليلَ بِهِ الْخَليلُ
وَلَيَرْكَبَنَّ عَلَيكِ فيهِ ... مِنَ الثَّرى ثِقْلٌ ثَقِيلُ
قُرِنَ الْفَناءُ بِنا فَما ... يَبْقى الْعَزيزُ ولا الذَّلِيلُ
لا تَعْمُرِ الدُّنْيا فَلَيـ ... ـسَ إِلَى الْبَقاءِ بِها سَبِيلُ

وَالْمَنِيَّةُ لَا تَخْتَصُّ بِصَغِيرٍ وَلَا بِكَبِيرٍ، وَلَا يَنْتَظِرُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، وَلَا شَابًّا وَلَا ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى، وَهِيَ إِلَى الْكَبِيرِ أَقْرَبُ.

---

(١) "مجمل اللغة" لابن فارس (صـ: ٢٠٣).

(٢) "القاموس المحيط" (صـ: ٥٣٧).

(٣) "الصحاح"(٣/ ٩١٥).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ». (١)

❁ قال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: أَيْ: نِهَايَةُ أَكْثَرِ أَعْمَارِ أُمَّتِي غَالِبًا مَا بَيْنَهُمَا وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ، أَيْ: يَتَجَاوَزُ السَّبْعِينَ فَيَصِلُ إِلَى الْمِائَةِ فَمَا فَوْقَهَا.

❁ قال القارىء: وَأَكْثَرُ مَا اطَّلَعْنَا عَلَى طُولِ الْعُمُرِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْمُعَمَّرِينَ فِي الصَّحَابَةِ وَالْأَئِمَّةِ، سِنُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَإِنَّهُ مَاتَ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ مِائَةٌ وَثَلَاثُ سِنِينَ. وَأَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، مَاتَتْ وَلَهَا مِائَةُ سَنَةٍ وَلَمْ يَقَعْ لَهَا سِنٌّ، وَلَمْ يُنْكَرْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، وَأَزْيَدُ مِنْهُمَا عُمُرُ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ، مَاتَ وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً عَاشَ مِنْهَا سِتِّينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَسِتِّينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَكْثَرُ مِنْهُ عُمُرًا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، فَقِيلَ: عَاشَ مِائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَقِيلَ: ثَلَاثَمِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ. (٢)

❁ قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قيل: معناه آخر عمر أمتي ابتداؤه إذا بلغ ستين سنة وانتهاؤه سبعون سنة، وقل من يجوز سبعين.

هذا محمول على الغالب بدليل شهادة الحال، فإن منهم من لم يبلغ ستين، ومنهم من يجوز سبعين. (٣)

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٠)، وابن ماجه (٤٢٣٦)، والحاكم (٣٥٩٨)، وهو في "السلسلة الصحيحة" (٧٥٧) للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي "الصحيح المسند" (١٢٨٥) للوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) "تحفة الأحوذي" (٩/ ٣٧٧).

(٣) "شرح المشكاة للطيبي" (١٠/ ٣٣٢٥).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ، حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً».(١) وَالْإِعْذَارُ إِزَالَةُ الْعُذْرِ، أَعْذَرَ مِنَ الْإِعْذَارِ، وَهُوَ إِزَالَةُ الْعُذْرِ.

❁ قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أعذر إليه غاية الإعذار، الذى لا إعذار بعده؛ لِأَنَّ الستين قَرِيب مِنَ مُعْتَرَكِ العِباد، وَهُو سِنُّ الْإِنَابَةِ، وَالْخُشُوعِ، والاستسلام لله تعالى، وَتَرَقُّبِ الْمَنِيَّةِ، ولقاء الله تعالى، فَهَذَا إِعْذَارٌ بَعْدَ إِعْذَارٍ، في عمرِ ابنِ آدم؛ لُطْفاً مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ.(٢) وَجَاءَ عِنْدَ أَحْمَدَ بِلَفْظِ: «لَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَى عَبْدٍ أَحْيَاهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً، لَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ، لَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ عَمَّرَهُ اللهُ سِتِّينَ سَنَةً، فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ».(٣)

وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ فاطر [٣٧].

كَمَا تَقَدَّمَ مَعَنَا فِي دَرْسٍ سَابِقٍ مِنْ كَلَامِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ، أَنَّ الْأَكْثَرَ يَمُوتُونَ قَبْلَ هَذَا السِّنِّ. وَهَذَا مُورِدٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ، لِلصِّغَارِ وَالْكِبَارِ، فَلَا يَفْرَحُ الصَّغِيرُ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ صَغِيرًا، فَإِنَّ الْآجَالَ مَكْتُوبَةٌ، وَهِيَ عَنْهُ مُغَيَّبَةٌ، فَلَا يَدْرِي، فَقَدْ يَمُوتُ قَبْلَ الْكَبِيرِ، فَقَدْ يَمُوتُ الْوَلَدُ قَبْلَ الْوَالِدِ، بَلْ قَدْ يَمُوتُ وَلَدُ الْوَلَدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ الْجَدُّ، وَهَكَذَا، فَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ آخِذَ الْأُهْبَةِ مُسْتَعِدًّا لِلْمَوْتِ وَنُزُولِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩).

(٢) "شرح صحيح البخارى" لابن بطال (١٠/ ١٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (٧٧١٣)، (٨٢٦٢)، (٩٣٩٥).

❁ كانَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذَا قِيلَ لَهُ: سَيَأْتِيكَ الْمَوْتُ مَثَلًا غَدًا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِيدَ فِي أَعْمَالِهِ شَيْئًا.

❁ قالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَوْ قِيلَ لِحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ إِنَّكَ تَمُوتُ غَدًا مَا قَدَرَ أَنْ يَزِيدَ فِي الْعَمَلِ شَيْئًا. (١)

❁ وَقَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَانَ بِالْكُوفَةِ ثَلَاثَةٌ لَوْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ إِنَّكَ تَمُوتُ غَدًا لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَزِيدَ فِي عَمَلِهِ: مُحَمَّدُ بْنُ سُوْقَة، وَأَبُو حَيَّانَ التَّيْمِيُّ، وعمرو بْنُ قَيْسٍ الْمُلَائِيُّ. قَالَ سُفْيَانُ: وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سُوْقَة لَا يُحْسِنُ يَعْصِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ. (٢)

❁ وَقَالَ أبو عوانة: «لَوْ قِيلَ لِمَنْصُورِ بْنِ زَاذَانَ إِنَّكَ مَيِّتٌ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ مَزِيدٍ». (٣)

❁وقال محمدُ بن جعفر بن سام: لو قِيلَ لأبي يَحْيَى الناقد: غدًا تموت، ما ازداد في عمله. (٤)

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٦/ ٢٥٠)، بسند صحيح.

(٢) أخرجه الدينوري في "المجالسة" (٣٢٤)، وسنده صحيح لولا الكلام في الدينوري نفسه، قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اتهمه الدارقطني ومشاه غيره انتهى. "لسان الميزان" ت أبي غدة (١/ ٦٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في "التهجد" (١٦٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (٣/٥٨) كلاهما من طريق أَحْمَد بْنِ حَاتِمٍ الطَّوِيل، قَالَ: ثَنَا شُعَيْبُ بْنُ حَرْبٍ، عَنْ أَبِي عَوَانَةَ، قَالَ: لَوْ قِيلَ لِمَنْصُورِ بْنِ زَاذَانَ... ورجاله ثقات. وفي" التعديل والتجريح" (٢/ ٧٢٠)، (١٦٣) لأبي الوليد الباجي، وعنده الراوي عن شعيب، سلمة بن غفار

وأخرجه الواسطي في "تاريخ واسط" (صـ:٨١)، في ترجمة منصور بن زاذان، وأسقط أبا عوانة، والراوي عن شعيب، سلمة بن عفان

(٤) أخرجه الخطيب في "تاريخ بغداد" (٩/ ٤٧٧)، وفيه من لا يُعرف، والله أعلم.

❁ وَقَالَ أَبُو ضَمْرَةَ أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ: رَأَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ، وَلَوْ قِيلَ لَهُ: غَدًا الْقِيَامَةُ مَا كَانَ عِنْدَهُ مَزِيدٌ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَةِ. (١)

❁ وَقَالَ عِمْرَانُ بْنُ خَالِدٍ الْخُزَاعِيُّ: قَالَ رَجُلٌ لِحَسَّانَ بْنِ أَبِي سِنَانٍ: تَرَكْتَ الْمَكَاسِبَ وَالتِّجَارَةَ، وَفَرَّقْتَ مَالَكَ فَقَالَ لَهُ حَسَّانُ: «وَأَنْتَ أَيْضًا لَوْ ظَنَنْتَ أَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا لَقَصَرْتَ؟»، قَالَ: وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ مُلُوكِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ. (٢)

❁ قال ابنُ سعد في "الطبقات الكبرى": قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ: لَوْ قِيلَ لِجَارِيَةَ بْنَ أَبِي عِمْرَانَ: إِنَّ الْقِيَامَةَ تَقُومُ غَدًا، مَا كَانَ فِيهِ مَزِيدٌ مِنَ الِاجْتِهَادِ. (٣)

---

(١) أخرجه ابن جرير في "تهذيب الآثار مسند عمر" (١/ ١٣٣)، (٢٢٢). وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٣/ ١٥٩)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٢٩/٢٤)، من طريق مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدٍ الْآدَمِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو ضَمْرَةَ أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ، قَالَ: " رَأَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ...فذكره، وسنده صحيح، أو حسن. وعند ابن جرير محمد بن عبيد، وعند أبي نعيم، وابن عساكر، وعند الذهبي في السير، وغيرهم، محمد بن يزيد.

فقد يكون تصحف من يزيد إلى عبيد كما في بقية مصادر الأثر ومحمد بن يزيد قد روى عنه ابن جرير في التفسير وغيره، وهو ثقة، وإن كان ابن عبيد، فهو أبو عبيد بن أبي عباد، محمد بن عبيد بن ميمون، وهو صدوق يخطئ قاله الحافظ في "التقريب" وقال أبو حاتم: شيخ. "الجرح والتعديل" (١١/٨)، وروى عنه البخاري في صحيحه في عدة مواضع. وكلاهما قد روى عن أنس بن عياض، وقد يقال سمع منه هذا وهذا والله أعلم. وانظر "المعجم الصغير لرواة الإمام ابن جرير الطبري" (٢/ ٥١٧)، "معجم شيوخ الطبري" (صـ: ٥٣٧)، (صـ:٦٠٨).

(٢) ضعيف، أخرجه ابن أبي الدنيا في "قصر الأمل" (صـ: ٦٧)، وفيه عِمْرَانُ بْنُ خَالِدٍ الْخُزَاعِيُّ، قال أبو حاتم: ضعيف "الجرح والتعديل" (٢٩٧/٦) وقال ابن حبان: لا يجوز الإحتجاج به، وقال أحمد: متروك الحديث، كما في "لسان الميزان" (٤/ ٣٤٥)، وفيه محمد بن الحسين البرجلانى، لم يوثقه معتبر، ذكره ابن حبان في الثقات، وذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلا. قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما رأيت فيه توثيقا ولا تجريحا، لكن سئل عنه إبراهيم الحربى، فقال: ما علمت إلا خيرا. "الثقات" لابن حبان (٩/ ٨٨)، "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٩)، "ميزان الاعتدال"(٣/ ٥٢٢).

(٣) "الطبقات الكبرى" ط العلمية (٥/ ٤٤٩)، ومحمد بن عمر الواقدي، متروك، "تقريب التهذيب" (صـ: ٤٩٨)

لَا يَسْتَطِيعُون أَنْ يَزِيدوا على أَعْمَالِهِم شَيْئًا؛ لِأَنَّهُم عَمَرَوا أَوْقَاتَهُم بِالطَّاعَاتِ. وَلِذَلِكَ كَانَ مَنْ فَاتَهُ مِنْهُمْ بَعْضُ الْوَقْتِ، يَتَحَسَّرُ عَلَيْهِ وَيَنْدَمُ.

❁ وَقَالَ أبو العتاهية:(١)

قَدْ سَمِعْنا الْوَعْظَ لَوْ يَنْفَعُنا ... وَقَرَأنا جُلَّ آياتِ الْكُتُبْ
كُلُّ نَفْسٍ سَتُوفّى سَعْيَها ... وَلَها ميقاتُ يَوْمٍ قَدْ وَجَبْ
جَفَّتِ الأَقْلامُ مِنْ قَبْلُ بِما ... خَتَمَ اللهُ عَلَيْنا وَكَتَبْ
كَمْ رَأَيْنا مِنْ مُلوكٍ سادَةٍ ... رَجَعَ الدَّهْرُ عَلَيْهِم فَانْقَلِبْ
وَعَبيدٍ خُوِّلوا ساداتِهِم ... فَاسْتَقَرَّ الْمُلْكُ فيهِمْ وَرَسَبْ
لا تَقولَنَّ لِشَيءٍ قَدْ مَضى ... لَيْتَهُ لَمْ يَكُ بِالأَمْسِ ذَهَبْ
وَاسْعَ لِلْيَوْمِ وَدَعْ هَمَّ غَدٍ ... كُلُّ يَوْمٍ لَكَ فيهِ مُضْطَرَبْ
يَهْرُبُ الْمَرْءُ مِنَ الْمَوْتِ وَهَلْ ... يَنْفَعُ الْمَرْءَ مِنَ الْمَوْتِ الْهَرَبْ
كُلُّ نَفْسٍ سَتَقُاسي مَرَّةً ... كُرَبَ الْمَوْتِ فَلِلْمَوْتِ كُرَبْ
أَيُّها الناس ما حَلَّ بِكُمْ ... عَجَبًا مِنْ سَهوِكُمْ كُلَّ الْعَجَبْ
أَسَقامٌ ثُمَّ مَوْتٌ نازِلٌ ... ثُمَّ قَبْرٌ وَنُشورٌ وَجَلَبْ
وَحِسابٌ وَكِتابٌ حافِظٌ ... وَمَوازينُ وَنارٌ تَلْتَهِبْ

وجارية نفسه وإن كان قال فيه ابن سعد: كان ثبتا في الحديث قليله، فقد قال أبو حاتم: مجهول. "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (٢/ ٥٢١).

(١) كما في "مجموعة القصائد الزهديات" (٢/ ٢٤٩).

البيت رقم ٦٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلاً ... فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا

شرح البيت رقم ٦٦

"وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا"، فِي زَمَنِ الصِّبَا، فِي زَمَنِ الصِّغَرِ "أَهْدَى سَبِيلًا"، كُنْتَ فِي صِغَرِكَ أَحْسَنَ اسْتِقَامَةً وَأَهْدَى طَرِيقًا،

"فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا"، فَلَمَّا كَبِرْتَ نَكَثْتَ، تَغَيَّرْتَ، تَقَهْقَرْتَ، تَرَاجَعْتَ.

❁ قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَحْمَدَ الْخَوَّاصُ: «وَمَنْ لَمْ تَبْكِ عَلَيْهِ الدُّنْيَا لَمْ تَضْحَكِ الْآخِرَةُ إِلَيْهِ، وَالْإِنْسَانُ فِي خَلْقِهِ أَحْسَنُ مِنْهُ مِنْ جَدِيدِ غَيْرِهِ، **وَالْهَالِكُ حَقًّا مَنْ ضَلَّ فِي آخِرِ سَفَرِهِ وَقَدْ قَارَبَ الْمَنْزِلَ**».(١)

❁ قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: «... وَمَرَارَةُ التَّقْوَى الْيَوْمَ حَلَاوَةٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَالْأَعْمَى مَنْ عَمِّيَ بَعْدَ الْبَصَرِ، وَالْهَالِكُ مَنْ هَلَكَ فِي آخِرِ سَفَرِهِ، وَقَدْ قَارَبَ الْمَنْزِلَ، وَالْخَاسِرُ مَنْ أَبْدَى لِلنَّاسِ صَالِحَ عَمَلِهِ وَبَارَزَ بِالْقَبِيحِ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ».(٢)

❁ وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَغْبَى النَّاسِ مَنْ ظَلَّ فِي آخِرِ سَفَرِهِ وَقَدْ قَارَبَ الْمَنْزِلَ.(٣)

---

(١) أخرجه البيهقي في "الزهد الكبير" (٢٧٦)، قال أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، أَخْبَرَنِي جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَحْمَدَ الْخَوَّاصَ، يَقُولُ فِي أَضْعَافِ كَلَامِهِ...فذكره، وسنده صحيح، وجعفر بن محمد بن نصير الخلدي وثقه الخطيب، قال: وكان ثقة صادقا دينا فاضلا. "تاريخ بغداد" ت بشار (٨/ ١٤٥)، وأبو عبد الله الحافظ هو الحاكم.

(٢) أخرجه أبو نعيم في "الحلية"(٩/ ٢٧٥)، وفيه أَبُو عَلِيٍّ سَهْلِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ سَهْلٍ الدُّورِيِّ، متهمٌ بالكذب، "تاريخ بغداد" (١٠/١٧٢).

(٣) "الفوائد" (صـ:١٠٧).

قال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإن الهالك من ضل في آخر سفره وقد قارب المنزل، أبقي بعد الشيب منزل غير البلى؟ بلى أنت تدري أين تنزل. (١)

قَالَ بَعْضُهُمْ:

آهٍ مِنْ دَهْرٍ خَؤُونٌ أَهْلُهُ ... لَا يَرَوْنَ الْعِلْمَ لِلدِّينِ شِعَارًا
طَلَبُوا عِلْماً بِمَاضِي عُمْرِهِمْ ... حَالُهُمْ أَحْسَنُ إِذْ كَانُوا صِغَارًا
فَإِذَا مَا الشَّيْبُ فِي أَذْقَانِهِمْ ... مَلَئُوا الآفَاقَ ظُلْماً وَبَوَارا

وَالتَّوْفِيقُ بِيَدِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَالْإِنْسَانُ يَسْأَلُ مِنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا الثَّبَاتَ عَلَى هَذَا الدِّينِ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ يُقَلِّبُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَيْفَ يَشَاءُ.

فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ أَمْضَى فِي الْخَيْرِ وَقْتًا وَزَمَنًا وَعُقُودًا، ثُمَّ صَارَ يَنْقُضُ غَزْلَهُ، وَيَنْكُثُ عِنْدَ كِبَرِهِ، وَيَهْدِمُ مَا كَانَ بَنَاهُ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

وَقَد استعاذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من هذا الحال ووردت بذلك الأحاديثُ، منها ما جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجِسَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وَسَلَّمَ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ». (٢) وَالشَّاهِدُ قولُهُ: «مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ»، أَيْ: الرُّجُوعُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ، وَمِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ.

فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَهُوَ التَّأَخُّرِ بَعْدَ التَّقَدُّمِ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ الانشقاق [١٤]. أَيْ: يَرْجِعَ إِلَى رَبِّهِ.

---

(١) "اللطائف" (صـ: ٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٤٣).

فالحور يدل على الرجوع، وفي رواية في الحديثِ السابق «وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ».

❁ قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَكَذَا هُوَ فِي مُعْظَمِ النُّسَخِ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ بَعْدَ الْكَوْنِ بِالنُّونِ بَلْ لَا يَكَادُ يُوجَدُ فِي نُسَخِ بِلَادِنَا إِلَّا بِالنُّونِ وَكَذَا ضَبَطَهُ الْحُفَّاظُ الْمُتْقِنُونَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ. قَالَ الْقَاضِي: وَهَكَذَا رَوَاهُ الْفَارِسِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ رُوَاةِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ... قَالَ الْقَاضِي قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ: يُقَالُ إِنَّ عَاصِمًا وَهِمَ فِيهِ، وَأَنَّ صَوَابَهُ الْكَوْرِ بِالرَّاءِ. قُلْتُ: وَلَيْسَ كَمَا قَالَ الْحَرْبِيُّ، بَلْ كِلَاهُمَا رِوَايَتَانِ، وَمِمَّنْ ذَكَرَ الرِّوَايَتَيْنِ جَمِيعًا التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ وَخَلَائِقُ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ، وَذَكَرَهُمَا أَبُو عُبَيْدٍ وَخَلَائِقُ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ وَغَرِيبِ الْحَدِيثِ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ بَعْدَ أَنْ رَوَاهُ بِالنُّونِ: وَيُرْوَى بِالرَّاءِ أَيْضًا ثُمَّ قَالَ: وَكِلَاهُمَا لَهُ وَجْهٌ قَالَ: **وَيُقَالُ هُوَ الرُّجُوعُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ مِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَمَعْنَاهُ الرُّجُوعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الشَّرِّ** هَذَا كَلَامُ التِّرْمِذِيِّ وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَاهُ بِالرَّاءِ وَالنُّونِ جَمِيعًا **الرُّجُوعُ مِنَ الِاسْتِقَامَةِ أَوِ الزِّيَادَةِ إِلَى النَّقْصِ** قَالُوا: وَرِوَايَةُ الرَّاءِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ وَهُوَ لَفُّهَا وَجَمْعُهَا، وَرِوَايَةُ النُّونِ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْكَوْنِ مَصْدَرُ كَانَ يَكُونُ كَوْنًا إِذَا وُجِدَ وَاسْتَقَرَّ.(١)

وَبِالْمُنَاسَبَةِ، هُنَاكَ مَنْ قَالَ: المرادُ به الاستعاذةُ مِنْ تركْ العمامة بعد لبسها وبالغ في ذلك

❁ قال الشيخُ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد بلغني أن رجلاً من هؤلاء المتعمقين، يقال له: عبد الله بن دامغ؛ أنه يقول: مَنْ لَبِسَ الْعِمَامَةَ ثُمَّ تَرَكَهَا ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ... وثبت عندنا عن بعضهم أنه فسر قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «اللّهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور» فزعم أن الكور هي العمامة، وأن الرسول استعاذ بالله من تركها بعد لبسها...(٢)

---

(١) "شرح مسلم" للنووي، عند الحديث السابق.

(٢) " منهاج أهل الحق والاتباع في مخالفة أهل الجهل والابتداع" (صـ: ٩٠).

حَتَى وَإِنْ كَانَ الْكَوْرُ مَأْخُوذًا مِنْ تَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ، وَهُوَ لَفُّهَا وَجَمْعُهَا، فَلَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعِمَامَةِ.

وَفِي الحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ: «طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْ تُفَارِقَ الدُّنْيَا وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ». (١) والْأَصْلُ أَنْ يَسْتَكْثِرَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالطَّاعَاتِ كُلَّمَا مَضَتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ ازدادَ أكثر. وَجَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَنْ جَابِرٍ، وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ، وَفِي بَعْضِ أسانيدها مَقَالٌ كَحَدِيثِ أَبِي بَكْرة عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ (٢٣٣٠)، وَالدَّارِمِيِّ (٢٧٨٥)، وَأَحْمَدَ (٢٠٤١٥)، (٢٠٥٠٤).

❁ قَالَ ابْنُ بَطَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَمِنَ الضَّلَالَةِ بَعْدَ الْهُدَى، وَمِنَ الرُّجُوعِ عَنِ الْحَقِّ وَالْعِلْمِ إِلَى الْجَهَالَةِ وَالْعَمَى». (٢)

❁ وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: النَّكْسَةُ أَصْعَبُ مِنَ الْمَرَضِ الْأَوَّلِ، مَا أَوْحَشَ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ بَعْدَ عِزِّ الطَّاعَةِ، ارْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ بِالْمَعَاصِي ذَلَّ، وَغَنِيَّ قَوْمٍ بِالذُّنُوبِ افْتَقَرَ. سَلُوا اللَّهَ الثَّبَاتَ إِلَى الْمَمَاتِ، وَتَعَوَّذُوا مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ.

❁ كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ يَدْعُو وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ وَلَا تُذِلَّنِي بِمَعْصِيَتِكَ.

❁ وَكَانَ عَامَّةُ دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ: اللَّهُمَّ انْقُلْنِي مِنْ ذُلِّ الْمَعْصِيَةِ إِلَى عِزِّ الطَّاعَةِ. اللَّهُمَّ انْقُلْنِي مِنْ ذُلِّ الْمَعْصِيَةِ إِلَى عِزِّ الطَّاعَةِ. (٣)

---

(١) صحيح، أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١١١/٦)، والبغوي في "شرح السنة"(١٦/٥)، (١٢٤٥)، وهو في "الصحيحة" (١٨٣٦)، والجملة الأولى، رواها الترمذي (٢٣٢٩)، وغيره، وهو في "صحيح الجامع"(٢٣٦٩).

(٢) "الإبانة الكبرى "لابن بطة (١/ ١٩٢).

(٣) كما في "لطائف المعارف" لابن رجب (صـ: ٦٤).

فَكَانَ السَّلَفُ يَسْتَعِيذُونَ مِنْ ذَلِكَ، وَكَانُوا يَخْشَوْنَ مِنَ الْخَاتِمَةِ السَّيِّئَةِ، وَمِنْ انْقِلَابِ الْحَالِ، وَتَغَيُّرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الِاسْتِقَامَةِ وَالثَّبَاتِ. فَقَدْ يَعْمَلُ الرَّجُلُ بِالْخَيْرِ دَهْرًا، ثُمَّ يَنْقَلِبُ إِلَى شَرٍّ عِيَاذًا بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ أَدِلَّةِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عُمُومًا. وَالصَّحَابَةُ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ، لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: أَنَا عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.(١)

يَخَافُونَ مِنَ التَّغَيُّرِ، مِنَ الْانْقِلَابِ، يَخَافُونَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، مِنَ التَّقَهْقُرِ بَعْدَ الْتقدم، مِنَ الضَّعْفِ بَعْدَ الْقُوَّةِ.

❁ ذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كَلَامًا كَثِيرًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَسَلُّطِ التَّتَرِ عَلَى بَعْضِ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ وكيف تقهقرَ أهلُ الإسلام بعد ما كانوا فِي قوةٍ، وعزةٍ، ومكانةٍ.

قَالَ: وَالتَّتَرُ يَمْلِكُونَ مِنْهُمْ مَحَلَّةً بَعْدَ مَحَلَّةٍ، وَكُلَّمَا مَلَكُوا مَحَلَّةً قَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَحَلَّةِ الَّتِي تَلِيهِمْ، فَكَانَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ يُقَاتِلُونَ، فَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ حَتَّى مَلَكُوا الْبَلَدَ جَمِيعَهُ، وَقَتَلُوا كُلَّ مَنْ فِيهِ، وَنَهَبُوا كُلَّ مَا فِيهِ ثُمَّ إِنَّهُمْ فَتَحُوا السَّكْرَ الَّذِي يَمْنَعُ مَاءَ جَيْحُونَ عَنِ الْبَلَدِ، فَدَخَلَهُ الْمَاءُ، فَغَرِقَ الْبَلَدُ، جَمِيعُهُ وَتَهَدَّمَتِ الْأَبْنِيَةُ وَبَقِيَ مَوْضِعُهُ مَاءٌ، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ أَهْلِهِ أَحَدٌ الْبَتَّةَ، فَإِنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْبِلَادِ قَدْ كَانَ يَسْلَمُ بَعْضُ أَهْلِهِ، مِنْهُمْ مَنْ يَخْتَفِي، وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْرُبُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ ثُمَّ يَسْلَمُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْقِي نَفْسَهُ بَيْنَ الْقَتْلَى فَيَنْجُو.

وَأَمَّا أَهْلُ خُوَارَزْمَ فَمَنِ اخْتَفَى مِنَ التَّتَرِ غَرَّقَهُ الْمَاءُ أَوْ قَتَلَهُ الْهَدْمُ، فَأَصْبَحَتْ خَرَابًا يَبَابًا

كَـأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّـفَـا أَنِـيـسٌ وَلَمْ يَسْـمُـرْ بِـمَـكَّـةَ سَـامِـرُ

---

(١) علقه البخاري في بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ، ووصله البخاري في "التاريخ الكبير" التاريخ الكبير للبخاري بحواشي المطبوع (٥/ ١٣٧)، والخلال في "السنة" (١٠٨١)، وابن أبي خيثمة في "التاريخ الكبير"(١/ ٢٢١)، (٦٥١)، والمروزي في "تعظيم قدر الصلاة"(٢/ ٦٣٤)، (٦٨٨).

وَهَذَا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَمِنَ الْخِذْلَانِ بَعْدَ النَّصْرِ، فَلَقَدْ عَمَّتْ هَذِهِ الْمُصِيبَةُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَغَيْرِهَا، لِأَنَّ الْقَاصِدِينَ مِنَ التُّجَّارِ وَغَيْرِهِمْ كَانُوا كَثِيرًا، مَضَى الْجَمِيعُ تَحْتَ السَّيْفِ.(١)

الشاهدُ أَنَّهُ ذَكَرَ مَا آلَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ، وَمِنْ تَسَلُّطِ التَّتَارِ وَالْمُصِيبَةِ الَّتِي عَمَّتْ. فَكَمْ قُتِلَ مِنْ أُنَاسٍ؟ وَكَمْ أُبِيدَتْ مِنْ قُرًى؟ وَقُتِلَ الرِجَالُ وَالنِسَاءُ وَالصِغَارُ وَالكِبَارُ، مِنْهُمْ بِالْهَدْمِ وَمِنْهُمْ بِالْغَرَقِ.

فَهَذَا مِنَ الْمُؤسفِ جِداً أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ فِي عِزَّةٍ، وَفِي رِفْعَةٍ، وَفِي مَكْنَةٍ، ثُمَّ يَتَقَهْقَرُونَ وَيَذِلُّونَ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ، فَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

---

(١) "الكامل في التاريخ" (١٠/ ٣٦١).

البيت رقم٦٧

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهَا أَنَا لَمْ أَخُضْ بَحْرَ الْخَطَايَا ... كَمَا قَدْ خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا

شرح البيت رقم ٦٧

أَصْلُ الخَوْضِ: المَشْيُ فِي الْمَاءِ وتحرِيكُه، ثُمَّ استُعمِل فِي التَّلبُّس بِالْأَمْرِ والتصرُّف فِيهِ.(١)

والموضعُ مَخاضَةٌ، وهو ما جازَ الناسُ فيها مُشاةً وركباناً.(٢)

"لَمْ أَخُضْ بَحْرَ الْخَطَايَا" أَيْ: لَمْ أَدْخُلْ فِي بَحْرِ الْخَطَايَا وَأَمْشِي فِيهَا، وَأَقْتَرِفُهَا فِي صِغَرِي، وَأَنْتَ قَدْ خُضْتَ فِي المَعَاصِي، وَغَرِقْتَ فِيهَا.

وَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْتَقِرَ الْخَطَايَا وَلَوْ كَانَتْ صَغِيرَةً، فَإِنَّهَا قَدْ تَجْتَمِعُ عَلَى الْإِنْسَانِ فَتَكُونُ سَبَبًا فِي هَلَاكِهِ.

جَاء مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ».(٣)

---

(١) "النهاية في غريب الحديث والأثر" (٢/ ٨٨).

(٢) "الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية" (٣/ ١٠٧٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٨)، والطبراني في "الأوسط"(٧٣٢٣)، و"الصغير" (٩٠٤)، و"الكبير"(٥٨٧٢)، والبيهقي في "الشعب"(٦٨٨١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في "الصحيحة"(٣٨٩).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا». (١)

وَجَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ» وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ، فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا. (٢) وهذا الحديثُ فِيهِ ضَعفٌ، وهو في الشواهد.

وَجَاءَ عنْ ابنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منْ قوله بلفظ: «مَثَلُ الْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ مَثَلُ قَوْمٍ نَزَلُوا مَنْزِلًا لَيْسَ بِهِ حَطَبٌ وَمَعَهُمْ لَحْمٌ، فَلَمْ يَزَالُوا يَلْقُطُونَ حَتَّى جَمَعُوا مَا نَضَّجُوا بِهِ لَحْمَهُمْ». (٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤١٥)، وابن ماجه (٤٢٤٣)، والبيهقي في "الشعب"(٦٨٧٥)، والنسائي في "الكبرى (١١٨١١)، وابن حبان (٥٥٦٨)، والدارمي (٢٧٥٦)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "الصحيحة" (٥١٣)، (٢٧٣١).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، والبيهقي في "الشعب" (٢٨١)، والطبراني في "الأوسط"(٢٥٢٩)، وفيه عَبْدُ رَبِّهِ وهو ابنُ أبي يزيد، ويقال: ابنُ يزيد. قال الحافظ في "التقريب" صـ:٣٣٥: مستور، والحديث حسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "صحيح الجامع" (٢٦٨٧).

(٣) أخرجه هناد بن السري في "الزهد" (٢/ ٤٥١)، وَهُوَ مِنْ طريقِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واختلفوا في سماعه من أبيه، قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: متعقباً قول الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: اختلف في سماعه من أبيه. **قلت**: قد أثبت سماعه منه إمام الأئمة البخاري، والمثبت مقدم على النافي، ومن علم حجة على من لم يعلم، لاسيما إذا كان مثل البخاري! "إرواء الغليل"(٥/ ١٦٧).

❁ قال العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمحقرات جمع محقرة وَهِي الذُّنُوب الَّتِي يحتقرها فاعلها.(١) فَالمعَاصِي يجتَمِعُ بَعْضُها مَع بَعْضٍ فتُهلِك الشخص، فَلا تُسْتَحْقرُ المخالفات وَلَو كَانتْ صَغيرة فِي الأَعْين، وَقَدْ جَاءَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ المُوبِقَاتِ» قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «يَعْنِي بِذَلِكَ المُهْلِكَاتِ».(٢)

❁ وبوبَ الإمامُ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه، بَابُ مَا يُتَّقَى مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ.

❁ وَجَاءَ عِنْدَ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.(٣)

❁ وَجَاءَ أَيْضًا عِنْدَ أَحْمَدَ، وَالدَّارِمِيِّ، وغيرهم، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ قُرْطٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.(٤)

❁ قال ابنُ عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويقَالَ ابن قرط. والصواب عند أكثرهم قُرْصٍ.(٥)

❁ قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقيل: ابْنُ قُرْصٍ وهو أصح.(٦)

❁ وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والصّحيح أنه ابْنُ قُرْصٍ بالصّاد.(٧)

---

(١) "عمدة القاري"(٢٣/ ٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٠٩٩٥)، وأبو داود في "الزهد" (٤٣٩)، والخلال في "السنة (٢٨٥)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في "الصحيحة"(٣٠٢٣).

(٤) صحيح، أخرجه أحمد (١٥٨٥٩)، (٢٠٧٥٠)، (٢٠٧٥١)، (٢٠٧٥٢)، والحاكم في "المستدرك" (٧٦٧٤)، والبيهقي في "الشعب"(٥٧٣٣)، والدارمي (٢٨١٠).

(٥) "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" (٢/ ٨٠٩).

(٦) "أسد الغابة" ط العلمية (٣/ ١٦٠).

(٧) "الإصابة في تمييز الصحابة" (٣/ ٥٠٨).

وجاءَ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّكُمْ لَتَكَلَّمُونَ كَلَامًا إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النِّفَاقَ». (١)

❁ قال ابنُ بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما كانوا يعدون الصغائرَ من الموبقات؛ لشدةِ خشيتِهم للهِ، وإن لم تكن لهم كبائر، ألا ترى أَن إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إذا سئل الشفاعة يوم القيامة يذكر ذنبه، وأنه كذب ثلاث كَذَبات، وهي قوله فِي زوجته: هذه أختي، وهي أخته في الدين، وقوله: إِني سقيم. أي: سأسقم، وقوله: فعله كبيرهم هذا. يعنى الصنم، فرأى ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من الذنوب، وإن كان لقوله وجه صحيح، فلم يقنع من نفسه إلا بظاهر يطابق الباطن، وهذا غاية الخوف. والمحقرات إذا كثرت صارت كبائر بالإصرار عليها والتمادي فيها... قال أَبُوعَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِي: «مَثَلُ الَّذِي يَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ وَيَقَعُ فِي الْمُحَقَّرَاتِ كَرَجُلٍ لَقِيَ سَبْعًا فَأَلْقَاهُ حَتَّى نُحِيَ مِنْهُ ثُمَّ فَحْلَ إِبِلٍ فَكَذَلِكَ، ثُمَّ فَحْلَ جَمَلٍ، فَكَذَلِكَ حَتَّى نَجَا مِمَّا يَتَخَوَّفُ فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ فَأَوْجَعَتْهُ ثُمَّ أُخْرَى حَتَّى اجْتَمَعْنَ عَلَيْهِ فَصَرَعْنَهُ، فَكَذَلِكَ الَّذِي يَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ وَيَقَعُ فِي الْمُحَقَّرَاتِ». (٢)

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٦٢)، بسندٍ ضعيف، فيه ليثُ بنُ أَبي سليم، ضعيف.

(٢) "شرح صحيح البخاري" لابن بطال (١٠/ ٢٠٢)، وأثر الحبلي، أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في "أمثال الحديث" (٣٧١)، وفي سنده ابنُ لهيعة، وإن كان الراوي عنه ابنُ وهب فقد قال الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في حديث ((أنا أوّل من يؤذن له في السّجود)): الحديث ضعيف بهذا السند لأنه من رواية ابن لهيعة، وكون الراوي عنه في الرواية الثانية عبد الله وهو ابن المبارك **فليس قولاً واحدًا للمحدثين: أنه إذا روى عنه أحد العبادلة وهم: عبد الله بن المبارك، وعبد الله بن وهب، وعبد الله بن يزيد المقرئ. ليس قولاً واحدًا أنه يكون مقبولاً**، فهذا ابن خزيمة وقد روى حديثًا في "كتاب التوحيد" صـ: (٢٩١) **من طريقه والراوي عنه ابن وهب، يقول: وأنا أبرأ إلى الله من عهدته. ويقول: ليس ابن لهيعة رحمه الله من شرطنا ممن يحتج به**، وفي "الميزان": قال ابن معين: هو ضعيف قبل أن تحترق

❁ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمِنْ الْمُحَقَّرَاتِ تَنْتُجُ الْمُوبِقَاتُ.(١)

وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنَ الْخَطَايَا.

❁ وَكَمَا قَالَ ابْنُ الْمُعْتَز: (٢)

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

فَلَا تَحْتَقِرْ الْأَعْمَال السيئة، وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الْأَعْمَالُ صَغِيرَةً.

❁ وَقَالَ الْقَحْطَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صِغَارَهَا فَالقَطْرُ مِنْهُ تَدَفُّقُ الخِلْجَانِ

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ ﴾ الكهف [٤٩].

ولا تزال تستحكمُ على الشخصِ الذنوب حتى يصير أسيراً لها

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْعَاصِيَ دَائِمًا فِي أَسْرِ شَيْطَانِهِ، وَسِجْنِ شَهَوَاتِهِ، وَقُيُودِ هَوَاهُ، فَهُوَ أَسِيرٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ، وَلَا أَسِيرَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ أَسِيرٍ أَسَرَهُ أَعْدَى عَدُوٍّ لَهُ، وَلَا سِجْنَ

كتبه وبعد احتراقها. وقال أبو حاتم، وأبو زرعة: أمره مضطرب يكتب حديثه للاعتبار، انتهى المراد من "الميزان". فعلى هذا فهذا الحديث حسن لغيره لكثرة شواهده. "الشفاعة" (صـ: ٤٨).

(١) ذكره ابن عبد البر في "بهجة المجالس" (صـ: ١٧١)، وابنُ مفلح في "الآداب الشرعية"(٣/ ١٣١)، ولم أقفْ عليه مسنداً.

(٢) "تفسير القرطبي" (١/ ١٦٢)، "تفسير ابن كثير" ت سلامة (١/ ١٦٤).

أَضْيَقُ مِنْ سِجْنِ الْهَوَى، وَلَا قَيْدَ أَصْعَبُ مِنْ قَيْدِ الشَّهْوَةِ، فَكَيْفَ يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ قَلْبٌ مَأْسُورٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ؟ وَكَيْفَ يَخْطُو خُطْوَةً وَاحِدَةً؟

وَإِذَا قُيِّدَ الْقَلْبُ طَرَقَتْهُ الْآفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِحَسَبِ قُيُودِهِ، وَمَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الطَّائِرِ، كُلَّمَا عَلَا بَعُدَ عَنِ الْآفَاتِ، وَكُلَّمَا نَزَلَ اسْتَوْحَشَتْهُ الْآفَاتُ.(١)

ولهذا يجبُ المسارعةُ بالتوبة، والرجوعِ إلى اللهِ تعالى يقولُ اللهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ التحريم [٨].

۞ قَالَ القحطانيُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِذَا عَصَيْتَ فَتُبْ لِرَبِّكَ مُسْرِعاً ... حَذَرَ الْمَمَاتِ وَلاَ تَقُلْ لم يَانِ

(١) "الجواب الكافي" (صـ: ٧٩).

البيت رقم ٦٨

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أُمِّ دَفْرٍ ... وَأنتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا

شرح البيت رقم ٦٨

"**حُمَيَّا أُمِّ دَفْرٍ**"، حُمَيَّا الْخَمْرِ سَوْرَتُهَا، وَحُمَيَّا الشَّيْءِ حِدَّتُهُ وَشِدَّتُهُ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَشَدِيدُ الْحُمَيَّا، أَيْ: شَدِيدُ النَّفْسِ.(١) ، (حُمَيَّا) كُلِّ شَيْءٍ وَحِدَّتُهُ، وَمِنَ الشَّبَابِ أَوَّلُهُ وَنَشَاطُهُ، وَمِنَ الْخَمْرِ شِدَّتُهَا وَسَوْرَتُهَا، وَالْخَمْرُ نَفْسُهَا.(٢)

أَيْ: كَلِمَةُ حُمَيَّا، يُرَادُ بِهَا حِدَّةُ الشَّيْءِ، وَشِدَّةُ الشَّيْءِ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَمِنَ الشَّبَابِ حُمَيَّا الشَّبَابِ شِدَّةُ الشَّبَابِ، فَتْوَةُ الشَّبَابِ، حُمَيَّا الْخَمْرِ شِدَّتُهَا. وَيُطْلَقُ عَلَى الْخَمْرِ أَيْضًا. فَقَوْلُهُ: "**وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا**" أَيْ: لَمْ أَشْرَبْ حِدَّة، وَشِدَّة أُمِّ دَفْرٍ،

❁ قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: دَفَرَ الدَّالُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ وَهُوَ تَغَيُّرُ رَائِحَةٍ، وَالدَّفَرُ: النَّتْنُ ... وَالدُّنْيَا تُسَمَّى أُمَّ دَفْرٍ.(٣)

❁ وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: يُقَالُ: دَفْراً له، أي نَتْناً. ومنه قيل للدُنْيا: أُمُّ دَفْرٍ. والدَفْر وأمُّ دَفْرٍ من أسماء الدَواهي.(٤)

---

(١) "تهذيب اللغة" (٥/ ١٧٨).

(٢) "المعجم الوسيط" (١/ ٢٠١).

(٣) "مقاييس اللغة" (٢/ ٢٨٨).

(٤) "الصحاح"(٢/ ٦٥٨).

❁ وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: الذَّفَرُ، بِالذَّالِ وَتَحْرِيكِ الْفَاءِ، شِدَّةُ ذَكَاءِ الرَّائِحَةِ، طَيِّبَةً كَانَتْ أَو خَبِيثَةً...والدَّفْرُ وأُمُّ دَفْرٍ: مِنْ أَسماء الدَّوَاهِي. ودَفارِ وأُمُّ دَفارِ وأُمُّ دَفْرٍ، كُلُّهُ: الدُّنْيَا

❁ وَقَالَ ابْنُ الأَعرابي: الدَّفْرُ الذُّلُّ...والدَّفَرُ: النَّتِنُ، بِفَتْحِ الْفَاءِ، قَالَ: وَلَا أَعرف هَذَا الْفَرْقَ إِلَّا عَنِ ابْنِ الأَعرابي، وَمِنْهُ قِيلَ لِلدُّنْيَا أُم دَفْرٍ.(١)

"وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أُمِّ دَفْرٍ"، أَيْ: أَنَا لَمْ أَشْرَبْ وَلَمْ أَتَجَرَّعْ حِدَّةَ وَشِدَّةَ الدُّنْيَا.

"وَأنتَ شَرِبْتَهَا"، خُضْتَ فِيهَا، تَجَرَّعْتَهَا، دَخَلْتَ فِيهَا مُحِباً لَهَا، وَشَبَّهَهَا بِالشَّيْءِ الْمَشْرُوبِ.

"حَتَّى سَكِرْتَا"، أَيْ: سَكِرْتَ بِحُبِّ الدُّنْيَا، وَالتَّلَذُّذِ بِهَا مَعَ دَنَاءَتِهَا. فَهِيَ دَنِيئَةٌ، وَأَنْتَ قَدْ شَرِبْتَهَا مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الدَّنَاءَةِ.

يا خاطِبَ الدّنيا الدّنِيّةِ إنّها ... شَرَكُ الرّدى وقَرارَةُ الأكدارِ
دارٌ متى ما أضْحكتْ في يومِها ... أبْكَتْ غداً بُعْداً لها مِنْ دارِ

❁ وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واللهِ لم تُخْرَجْ إلى الدُّنْيا لِلَّذْ ... ذَةِ عَيْشِها أَوْ لِلْحُطَامِ الفَانِي
لَكِنْ خَرَجْتَ لِكَيْ تُعِدَّ الزَّادَ لِلْـ ... أُخْرَى فَجِئْتَ بِأَقْبَحِ الخُسْرَانِ
أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ بَلْ ... فَاتَ الذِيْ أَلْهَاكَ عَن ذَا الشَّانِ
وَاللهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ سَلِيمَةٌ ... لِتَقَطَّعَتْ أَسَفًا مِن الْحُرْمَانِ
لَكِنَّهَا سَكَرَى بِحُبِّ حَيَاتِهَا الدُّ ... نْيَا وَسَوْفَ تَفِيقُ بَعْدَ زَمَانِ

وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ سَلِيمَةٌ، لَتَقَطَّعَتْ أَلَمًا وَحَسْرَةً وَأَسَفًا مِنَ الْحِرْمَانِ، مِنْ حِرْمَانِهَا الْخَيْرَ وَالزَّادَ وَالنَّفْعَ الْأُخْرَوِيَّ، لَكِنَّهَا سَكِرَتْ بِالدُّنْيَا وَبِحُبِّهَا وَبِالتَّلَذُّذِ بِهَا. وَسَوْفَ تَفِيقُ بَعْدَ زَمَانٍ. أَيْ سَيَفِيقُ هَذَا الْإِنْسَانُ وَتَفِيقُ هَذِهِ النَّفْسُ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ.

(١) "لسان العرب" (٤/ ٢٨٩).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ المؤمنون [٩٩]. هُنَا تَأْتِي الْإِفَاقَةُ وَلَا فَائِدَةَ مِنْهَا ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ المؤمنون [١٠٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ المنافقون [٩، ١٠]. هُنَا يَسْتَفِيقُ، وَلَا فَائِدَةَ،﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ المنافقون [١٠].

فَلَا مهلة ولا تأخير، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ المنافقون [١١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ فاطر [٣٦]. هُنَا عِنْدَهُمْ إِفَاقَةٌ، وَلَا فَائِدَةَ.﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُمۡ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ فاطر [٣٧]. فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَتَمَنَّوْنَ فِيهَا الرُّجُوعَ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ تُعْتَبَرُ مِنْهُمْ إِفَاقَةً وَلَكِنْ لَا فَائِدَةَ. فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنَ الْإِفَاقَةِ، ذَهَبَ وَقْتُهَا وَحِينُهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ الأنعام [٢٧]. هنا أيضاً يستفيقون، وَلَا فَائِدَةَ، يَتَمنونَ الرجوعَ، ولَكن لا يُعْطون أمنيتهم ﴿ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الأنعام [٢٧]. فَلَا يُرَدُّونَ، وَلَا يُمْهَلُونَ، وَلَا يُؤَخَّرُونَ، وَلَوْ لِسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوَ أَقَلَّ.﴿ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ الأنعام [٢٨]. وقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ

دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ الفجر [٢١-٢٣]. يتذكرُ، ويتمنى أنه كان قدم لحياته، ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ الفجر [٢٤]. يَنَامُ الْإِنْسَانُ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا وَيَسْتَيْقِظُ، وَهَمُّهُ الدُّنْيَا، وَيَتَوَضَّأُ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا، وَيَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا، وَيَخْرُجُ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا. قَدْ أُشْرِبَ حُبُّ الدُّنْيَا فَيَنْدَمُ، وَيفِيقُ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، وَلَا فَائِدَةَ مِنْ هَذَا التَّمَنِّي. قَدْ ذَهَبَتْ مُدَّةُ الْحَيَاةِ بِمَا فِيهَا.

❁ قال ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَمَّا أَكْثَرُ النَّاسِ، فَلَمْ يَزَالُوا فِي سَكْرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّكَاثُرِ فِيهَا، فَشَغَلَهُمْ ذَلِكَ عَنِ الْآخِرَةِ حَتَّى فَاجَأَهُمُ الْمَوْتُ بَغْتَةً عَلَى هَذِهِ الْغِرَّةِ، فَهَلَكُوا وَأَصْبَحُوا مَا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ.(١)

❁ قال النيسابوري: وسكر الدنيا أشدّ من سكر الخمر فإن الثمل من الخمر يرجى صحوه والثمل من شراب حب المال والجاه الطافح من خيال الرياسة لا ترجى إفاقته.(٢)

قَدَ يتحصلُ الأنسان على الدنيا ولا يجدُ لذة العيش ولا الحياة الطيبة.

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ رَتَّبَ الْمَعِيشَةَ الضَّنْكَ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِهِ، فَالْمُعْرِضُ عَنْهُ لَهُ مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ بِحَسَبِ إِعْرَاضِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ فِي الدُّنْيَا بِأَصْنَافِ النِّعَمِ، فَفِي قَلْبِهِ مِنَ الْوَحْشَةِ وَالذُّلِّ وَالْحَسَرَاتِ الَّتِي تَقْطَعُ الْقُلُوبَ، وَالْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ وَالْعَذَابِ الْحَاضِرِ مَا فِيهِ، وَإِنَّمَا يُوَارِيهِ عَنْهُ سَكَرَاتُ الشَّهَوَاتِ وَالْعِشْقِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، وَإِنْ

(١) "جامع العلوم والحكم" ت الأرنؤوط. (٢/ ٣٨١).

(٢) "غرائب القرآن"(٦/ ٤٤٢).

لَمْ يَنْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ سُكْرُ الْخَمْرِ، فَسُكْرُ هَذِهِ الْأُمُورِ أَعْظَمُ مِنْ سُكْرِ الْخَمْرِ، فَإِنَّهُ يَفِيقُ صَاحِبُهُ وَيَصْحُو، وَسُكْرُ الْهَوَى وَحُبِّ الدُّنْيَا لَا يَصْحُو صَاحِبُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ فِي عَسْكَرِ الْأَمْوَاتِ، فَالْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ لَازِمَةٌ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي دُنْيَاهُ وَفِي الْبَرْزَخِ وَيَوْمَ مَعَادِهِ، وَلَا تَقَرُّ الْعَيْنُ، وَلَا يَهْدَأُ الْقَلْبُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ النَّفْسُ إِلَّا بِإِلَهِهَا وَمَعْبُودِهَا الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ.(١)

❁ قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ أَحَبَّ دُنْيَا وَسَرَّتْهُ خَرَجَ حُبُّ الْآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ.(٢)

❁ وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ كَكِفَّتَيِ الْمِيزَانِ تَرْجَحُ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى، وَمَا تَحَابَّ رَجُلَانِ فِي اللهِ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدُّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ».(٣)

---

(١) "الجواب الكافي"(صـ: ١٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الزهد"(١٦٩)، وفي "ذم الدنيا"(٧٩)، وفيه مسلمة بن جعفر، ضَعَّفَهُ أَبُو الْفَتْحِ الأَزْدِيّ، "التاريخ الكبير"(٣٨٨/٧) للبخاري، و"الجرح والتعديل" (٢٦٧/٨) لابن أبي حاتم. وميزان الاعتدال (٤/ ١٠٨). وفيه ابن أبي ليلى، ضعيف. "تهذيب التهذيب" (٩/ ٣٠٢)، وفيه وهارون بن سفيان مجهول حال، ترجم له الخطيب ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا. "تاريخ بغداد" ت بشار (١٦/ ٣٦).

وله طريق أخرى عنده في "الزهد"(٣٣٧)، وطريق أخرى عند ابن حبان في "روضة العقلاء"(صـ: ٣٥).

(٣) صحيح، أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٥١)، والبلاذري في "أنساب الأشراف" (١١/ ٢٣٥)، من طريق سُلَيْمَان بْنِ دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، ثَنَا مُطَرِّفُ بْنُ مَعْقِلٍ الشَّقَرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، فذكره، ومطرف بن معقل، وثقه ابن معين، وأحمد قال: ثقة وزيادة. "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (٨/ ٣١٤)، وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وجاء من طريقه خبر موضوع عَن ثابت البناني، والآفة من غيره. "تاريخ الإسلام" ت بشار (٤/ ٢١٨). فالأثر صحيح.

❁ وَجَاءَ عَنْ وَهْبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَثَلُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ ضَرَّتَانِ، إِنْ أَرْضَى إِحْدَاهُمَا أَسْخَطَ الْأُخْرَى». (١)

❁ قال سهل بن عبد الله التستري: السكر عندي ما يسكر النفس في الدنيا، ولا تؤمن عاقبته في الآخرة. وقد دخل على سهل أبو حمزة الصوفي فقال: أين كنت يا أبا حمزة؟ قال: قال: كنا عند فلان، أخبرنا أن السكر أربعة.

فقال: أعرضها عليَّ.

فقال: سكر الشراب، وسكر الشباب، وسكر المال، وسكر السلطنة.

فقال: وسكرتان لم يخبرك بهما فقال: ما هما؟

فقال: سكر العالم إذا أحب الدنيا، وسكر العابد إذا أحب أن يشار إليه. (٢)

وله طريق أخرى أخرجها ابن أبي الدنيا في "الزهد" (٢٨١)، وفي "ذم الدنيا" (٢٩٢)، من طريقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْعَثِ، قَالَ: وَسَمِعْتُ الْفُضَيْلَ، يَقُولُ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ، قَالَ: سَمِعْتُ عَوْنَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، فذكره، وإبراهيم، ضعيفٌ، وفيه رجل مبهم.

(١) ضعيف، أخرجه ابن المبارك في "الزهد"(٥٩٤)، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في "الزهد"(٦٤) وفي "ذم الدنيا"(١١٩)، ومن طريقه أيضاً العقيلي في "الضعفاء الكبير"(٣/١١)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق"(٦٣/٣٩٤)، مِنْ طريقِ رَبَاح بْنِ زَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ جُورَانَ قَالَ: سَمِعْتُ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ يَقُولُ...فذكره، وعبد العزيز بن جوران، قال الذهبي: وبحاء مهملة ضبطه بعضهم، والاصح بجيم. "ميزان الاعتدال" (٢/ ٦٢٧)، وعبد العزيز، قالَ هشام بن يوسف: كَانَ ضَعِيفا، كَانَ يشبه الْقصاص. وأشار ابن عدي إلى تضعيفه فقال: وَعَبد العزيز هَذَا لَهُ عَن وهب أخبار بني إسرائيل وغيرها وما أعلم أن لَهُ من المسند شَيئًا. "الكامل"(٦/ ٥١٠)، وذكره الساجي والعقيلي وابن الجوزي في الضعفاء، وابن حبان ذكره في. "الثقات" (٧/ ١١١).

(٢) " الفوائد" لابن القيم (صـ: ٩٨).

❁ قال ابنُ منظور: والسُّكْرُ ثَلَاثَةٌ: سُكْرُ الشَّبابِ وسُكْرُ المالِ وسُكْرُ السُّلطانِ.(١)

❁ وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَا تَدْخُلْ مَحَبَّةُ اللَّهِ فِي قَلْبٍ فِيهِ حُبُّ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا يَدْخُلُ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْإِبْرَةِ.(٢)

❁ وقال عبدُ الله بنُ مَسْعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ أَضَرَّ بِالدُّنْيَا وَمَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا أَضَرَّ بِالْآخِرَةِ، يَا قَوْمِ فَأَضِرُّوا بِالْفَانِي لِلْبَاقِي».(٣)

❁ وعند الحاكم، والطبراني، وهناد بن السري بزيادة، «إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ عُلَمَاؤُهُ قَلِيلٍ خُطَبَاؤُهُ، كَثِيرٍ مُعْطُوهُ، الصَّلَاةُ فِيهَا قَصِيرَةٌ، وَالْخُطْبَةُ فِيهَا طَوِيلَةٌ، فَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ وَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ أَضَرَّ بِالدُّنْيَا، وَمَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا أَضَرَّ بِالْآخِرَةِ، يَا قَوْمُ فَأَضِرُّوا بِالْفَانِيَةِ لِلْبَاقِيَةِ».

❁ قَالَ الْفُضَيْلُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ أَضَرَّ بِالدُّنْيَا، وَمَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا أَضَرَّ بِالْآخِرَةِ، أَلَا فَأَضِرُّوا بِالدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ فَنَاءٍ، وَاعْمَلُوا لِدَارِ الْبَقَاءِ».(٤)

---

(١) "لسان العرب" (٤/ ٣٧٢).

(٢) " الفوائد" لابن القيم (صـ: ٩٨).

(٣) صحيح، أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في "مصنفه" (٣٤٥١٩)، والطبراني في "الكبير"(٨٥٦٦)، والحاكم في "المستدرك"(٨٤٨٧)، وأبو نعيم في "الحلية"(١/ ١٣٨)، وهناد بن السري في "الزهد"(٢/ ٣٥٥)، من طريقِ سُفْيَان، عَنْ أَبِي قَيْسٍ، عَنِ الْهُزَيْلِ بْنِ شُرَحْبِيلَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، ...فذكره، وسنده صحيح. **وله طريق أخرى**، عند ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٤٥٦١)، ووكيع في "الزهد"(٧٩)، وهناد في "الزهد" (٢/ ٣٥٣)، من طريق وَكِيع، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ... وعند هناد، عن أبي معاوية، عن الأعمش، ... **وله طريق ثالثة**، عند هناد في "الزهد"(٢/ ٣٥٣).

(٤) أخرجه إسحاق بن إبراهيم الختلي في "الديباج"(صـ:٩٦)، ومن طريقه الخطيب في "الزهد والرقائق"(٩٤)، وسنده حسن.

❁ وجاء عن عمرو بن مرة[(١)]،

❁ وجاء بنحوه عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]،

وجاء أيضاً عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا أَضَرَّ بِالْآخِرَةِ، وَمَنْ أَحَبَّ الْآخِرَةَ أَضَرَّ بِالدُّنْيَا أَلَا فَأَضِرُّوا بِالْفَانِي لِلْبَاقِي».[(٣)]

❁ وَقَالَ ابنُ القَيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالسُكْرُ بِحُبِّ الدُّنْيَا أَعْظَمُ مِنَ السُّكْرِ بِشُرْبِ الْخَمْرِ بِكَثِيرٍ، وَصَاحِبُ هَذَا السُّكْرِ لَا يفِيقُ مِنْهُ إِلَّا فِي ظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَلَوْ انْكَشَفَ عَنْهُ غِطَاؤُهُ فِي الدُّنْيَا لَعَلِمَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ السُّكْرِ، وَإِنَّهُ أَشَدُّ مِنْ سُكْرِ الْخَمْرِ، وَالدُّنْيَا تَسْحَرُ الْعُقُولَ أَعْظَمَ سِحْرٍ...

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٥/٩٥)، من طريقِ هَنَّادِ بْنِ السَّرِيِّ، نا أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ...من قوله، وسنده صحيح، وأخرجه هناد في "الزهد"(٢/٣٥٣)، من نفس الطريق إلا أن عنده عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ...

(٢) منقطع، أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١/٤٩)، عَنْ خَلَفِ بْنِ حَوْشَبٍ، أَنَّ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَجَعَلْتُ إِذَا أَرَدْتُ الدُّنْيَا أَضُرُّ بِالْآخِرَةِ، وَإِذَا أَرَدْتُ الْآخِرَةَ أَضُرُّ بِالدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَأَضِرُّوا بِالْفَانِيَةِ».

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في "الزهد" (١٦١)، **عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "الصحيحة"(٣٢٨٧)، **وجاء عن أبي موسى** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه ابن أبي عاصم في "الزهد" (١٦٢)، والبزار في "مسنده"(٣٠٦٧)، قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: وله شاهد آخر مرفوع من حديث أبي موسى الأشعري بنحوه، كنت خرجته في الكتاب الآخر (٥٦٥٠) لانقطاعه مع ثقة رجاله، ثم وقفت على هذا الشاهد العزيز القوي، فسارعت إلى تخريجه هنا، ثم أشرت إليه هناك؛ ليكون القراء على بصيرة وعلم بما يَجِدُّ من العِلمِ؛ فإنه في١ تَقدُّمٍ لا يقبلُ الجُمود، وبالله تعالى التوفيق. "الصحيحة"(٣٢٨٧)، و"تراجعات الألباني"(٥٦)، و(٢١٣).

❁ قَالَ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ: الدُّنْيَا خَمْرُ الشَّيْطَانِ، مَنْ سَكِرَ مِنْهَا لَمْ يَفُقْ إِلَّا فِي عَسْكَرِ الْمَوْتَى نَادِمًا مَعَ الْخَاسِرِينَ.(١)

وَأَقَلُّ ما في حبها أَنه يُلهى عَنْ حُبِ اللهِ وَذِكْرِهِ، وَمَنْ أَلْهَاهُ مَالُهُ فهو من الخاسرين، وإذا لهى القلبُ عن ذكرِ اللهِ سكنه الشيْطَانُ وصرفه حيثُ أراد، ومن فقهه في الشر أنه يُرضيهِ ببعضِ أَعْمالِ الخير؛ ليريه أَنهُ يفعلُ الخير، وقد تعبدَ لها قلبه فأينَ يقعُ ما يفعلُهُ مِنْ البر مَعَ تَعَبُدِهِ لَهَا وَقَدْ لَعَنَهُ رَسُوْلُ اللهِ وَدَعَا عَلَيْهِ.(٢)

وَحُبُّ الدُّنْيَا مِفْتَاحُ الشُّرُورِ.

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ الرَّغْبَةُ فِي اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَمِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ حُبُّ الدُّنْيَا وَطُولُ الْأَمَلِ.(٣)

قَالُوا: وَقَد تَوَاتَرَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ الْخَطَايَا وَأَصْلُهَا، وَقَدْ رُوِيَ فِيْهِ حَدِيْثٌ مَرْفُوعٌ لَا يَثْبُتُ.(٤)

(قَالُوا: وإنما كَانَ حب الدُّنْيَا رأس الخطايا ومفسدًا للدين من وجوه:

أحدها: أنه يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عِنْدَ الله، ومن أكبر الذُّنُوب تعَظِيم مَا حقره الله.

---

(١) ذكره ابنُ الجوزي في "صفة الصفوة" (٢/ ٢٩٧)، قَالَ: الحسنُ بن علويه قال: سمعتُ يحيى بنَ معاذ، يقولُ: فذكره.

(٢) "عدة الصابرين" (صـ:٢٢٠).

(٣) "حادي الأرواح"(صـ: ٦٩).

(٤) "عدة الصابرين" (صـ: ٢١٩).

وثانيها: أن الله لعَنْهَا، ومقتها، وأبغضها إِلا مَا كَانَ لَهُ فيها، ومن أحب مَا لعنه الله، ومقته وأبغضه، فقَدْ تعرض للفتنة، ومقته وغضبه.

وثالثها: أَنَّهُ إِذَا أحبها صيرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه، وإلى الدار الآخِرَة، فعكس الأَمْر وقلب الحكمة فانتكس قَلْبهُ، وانعكس سيره إلى وراء...

ورابعها: إن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة باشتغاله عنه بمحبوبه...

وخامسها: أن محبتها تجعلها أكبرهم العبد.

وسادسها: أن محبها أشد الناس عذاباً بها، وهو معذب في دوره الثلاث: يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفى دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذاباً في قبره يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه...والمقصود أن محب الدنيا يعذب في قبره، ويعذب يوم لقاء ربه...

وسابعها: أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً، إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي:

أَحْـلَامُ نَـوْمٍ أَوْ كَـظِـلٍّ زَائِـلِ إِنَّ الـلَّـبِـيـبَ بِـمِـثْـلِـهَـا لَا يُخْـدَعُ

... وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت:

يَـا أَهْـلَ لَـذَّاتِ دُنْـيَـا لَا بَـقَـاءَ لَهَـا ... إِنَّ اغْـتِرَارًا بِـظِـلٍّ زَائِـلٍ حُمُـقُ).[١]

❁ قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتَّقُوا السَّحَّارَةَ فَإِنَّهَا تَسْحَرُ قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ» يَعْنِي الدُّنْيَا.[٢] رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ، وَغَيْرُهُ.

تَسْحَرُ الْقُلُوبَ وَتُبْعِدُهَا عَنْ عَلَّامِ الْغُيُوبِ، تَصْرِفُ النَّاسَ عَنِ الدِّينِ، عَنِ الِاسْتِقَامَةِ، عَنِ الْعِلْمِ. وَكَمْ مِمَّنْ فُتِنَ بِالدُّنْيَا.

❁ قَالَ ابْنُ الْوَرْدِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اطْـرَحِ الـدنْـيـا فَـمِـنْ عَـادَاتِـهـا ... تَخْـفِـضُ الـعَـالِي وتُـعْـلِي مَـنْ سَـفَـلْ
عَـيـشَـةُ الـرَّاغـبِ فِي تَحْصِـيـلِـهـا ... عَـيـشَـةُ الْجَـاهـلِ فِـيـهَـا أَوْ أَقَـلْ
كَـمْ جَـهـولٍ بَـاتَ فَـيـهـا مُـكـثـراً ... وَعَـلـيـمٍ بَـاتَ مِـنـهـا فِي عِـلَـلْ
كَـمْ شُـجـاعٍ لم يَـنَـلْ فـيـهـا الْمُـنـى ... وَجَـبَـانٍ نَـالَ غـايـاتِ الأَمَـلْ

❁ قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَهِينُوا الدُّنْيَا، فَوَاللَّهِ لَأَهْنَأُ مَا تَكُونُ إِذَا أُهِينَتْ.[٣]

---

(١) "عدة الصابرين" (صـ:٢١٢إلى ٢٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في "الزهد" (١٨٦٣)، وابن أبي الدنيا في "ذم الدنيا" (٣٩)، وأبو نعيم في الحلية "(٢/٣٦٤)، من طريق سَيَّار، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكًا، يَقُولُ...، وسَيَّارُ بْنُ حَاتِمٍ، قال أبو أحمد الحاكم: في حديثه بعض المناكير وقال العقيلي: أحاديثه مناكير ضعفه بن المديني، وقال الأزدي، عنده مناكير، "تهذيب التهذيب" (٤/٢٩٠). ورجح ضعفه الوادعي في "الصحيح المسند" عند حديث رقم (٨٩٣). وقال الألباني: فيه ضعف. "الضعيفة" (١٣٦٢).

ولهُ طريقٌ أخرى عند أبي نعيم في "الحلية" (٦/٢٧٨)، وفيه سُلَيْمَانُ الشَّاذَكُونِيُّ، كذبه ابن معين، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال البخاري: فيه نظر. "ميزان الاعتدال" (٢/٢٠٥).

(٣) صحيح، أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٥٣٠٦)، من طريق يَزِيد بْنِ هَارُونَ، عَنْ سَلَّامِ بْنِ مِسْكِينٍ قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ...وسنده صحيح،

وأخرجه أحمد في "الزهد" (١٦٢٠)، من طريق روح، عن سلام...

❁ وَقَالَ ابْنُ الْوَرْدِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَصِّرِ الآمالَ في الدنيا تفُزْ ... فدليلُ العقلِ تقصيرُ الأملْ
إن منْ يطلبهُ الموتُ على ... غِرَّةٍ منه جديرٌ بالوَجَلْ

❁ وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

زِيادَةُ الْمَرْءِ في دُنْيَاهُ نُقْصَانُ ... وَرِبْحُهُ غَيْرَ مَحضِ الْخَيْرِ خُسْرَانُ
وَكُلُّ وِجْدَانِ حَظٍ لا ثَبَاتَ لَهُ ... فَإِنَّ مَعْنَاهُ فِي التَّحْقِيقِ فُقْدَانِ
يَا عَامِرًا لِخَرَابِ الدَّهْرِ مُجْتَهِدًا ... بِاللهِ هَلْ لِخَرَابِ الدَّهْرِ عُمْرَانُ
وَيَا حَرِيصًا عَلَى الأَمْوَالِ تَجْمَعُهَا ... أَنَسِيتَ أَنَّ سُرُورَ الْمَالِ أَحْزَانُ
زَعِ الفؤادَ عن الدنيا وزُخْرُفِها ... فَصَفْوُهَا كَدَرٌ وَالْوَصْلُ هُجْرَانُ

كُلَّمَا أَكْثَرَ الْإِنْسَانُ مِنَ الدُّنْيَا، وانشَغَلَ بِهَا، ابْتَعَدَ عَنْ دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، كُلَّمَا أَغْرَقَ فِيهَا كُلَّمَا ابْتَعَدَ، بِقَدْرِ دُخُولِهِ فِيهَا يَبْتَعِدُ عَنْ دِينِ اللَّه تعالى إلا من رحم الله تعالى ووفق.

❁ قَالَ إِدْرِيسُ بْنُ يَحْيَى الْخَوْلَانِيُّ: قَالَ لَنَا أَبُو الرَّبِيعِ السَّائِحُ: «مَتَى يُقَامُ الْحَدُّ عَلَى السَّكْرَانِ»؟ قُلْنَا: إِذَا أَفَاقَ، قَالَ: «فَإِنَّ سُكْرَ الدُّنْيَا لَيْسَ لَهُ إِفَاقَةٌ».(١)

وابنُ سعد في "الطبقات الكبرى "ط دار صادر (٧/ ١٦٨)، من طريق عَمْرو بْنِ عَاصِمٍ عن سلام...
وابن أبي الدنيا في "الزهد"(٣٠٠)، وفي "ذم الدنيا"(٣١٤)، وفيه إبراهيمُ بنُ الأشعث، صاحبُ الفضيل، فيه ضعفٌ، ذكره ابنُ حبان في الثقات وقال: يغرب ويتفرد ويخطىء وَيُخَالف. "الثقات" لابن حبان (٨/ ٦٦)،
قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهل من كان هذه صفته يكون ثقة؟! "الضعيفة" (٦١٠٢)، (١٣/ ٢٣٠)، قال أبو حاتم جوابا لولده سأله عن حديث من طريقه: هذا حديث باطل موضوع كنا نظن بإبراهيم بن الأشعث الخير فقد جاء بمثل هذا. "الجرح والتعديل"(٢/٨٨)، وقد وثقه بعضهم.

(١) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء"(٨/ ٢٩٦)، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَلِيٍّ، ثنا مُوسَى بْنُ الْحَسَنِ الْكُوفِيُّ، ثنا أَبُو الرَّبِيعِ الرِّشْدِينِيُّ، ثنا إِدْرِيسُ بْنُ يَحْيَى الْخَوْلَانِيُّ، قَالَ: قَالَ لَنَا أَبُو الرَّبِيعِ السَّائِحُ، فذكره، وفيه موسى بن الحسن بن موسى الكوفي، قال ابن يونس: تعرف وتنكر، وقال مسلمة بن قاسم: تكلم فيه. "لسان الميزان" (٦/ ١١٥).

البيت رقم٦٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فِيهِ نَفْعٌ وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَا

شرح البيت رقم ٦٩

"وَلَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فِيهِ نَفْعٌ" أَيْ: لَمْ أَنْشَأْ، وَأَتَرَعْرَعْ فِي عَصْرِ الْعِلْمِ، وَأَهْلِ الْعِلْمِ، لَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فِيهِ طَلَبَةُ عِلْمٍ وَعُلَمَاءُ فِيهِ نَفْعٌ، فِيهِ خَيْرٌ، وَأَنْتَ قَدْ نَشَأْتَ فِي عَصْرِ الْعُلُومِ فَلَمْ تَنْتَهِزِ الْفُرْصَةَ، وَلَمْ تُقْبِلْ عَلَى الْعِلْمِ.

وَيَنْبَغِي لِلْطالبِ أَنْ يَحْذَرَ وَيَأْخُذَ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ العبرة، والنصيحة، وَيَحْذَرَ مِنَ الْحِرْمَانِ. فَهَا نَحْنُ فِي زَمَنٍ تَوَفَّرَتْ فِيهِ مَرَاكِزُ الْعِلْمِ، وَالتَّعْلِيمِ، وَوَسَائِلُ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ، يَجِدُ الْمُرِيدُ لِلْعِلْمِ بُغْيَتَهُ، فَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُفَوِّتَ عَلَى نَفْسِهِ الْخَيْرَ وَالْعِلْمَ، وَأَنْ يُهْمِلَ ذَلِكَ، سَيَتَحَسَّرُ وَيَنْدَمُ. فَإِنَّهُ وَاللَّهِ هَذَا مِنَ الْحِرْمَانِ، أَنْ نَعِيشَ فِي بَلَدٍ فِيهِ الْخَيْرُ وَالْعِلْمُ وَمَرَاكِزُ الْعِلْمِ، ثُمَّ نُفَوِّتَ عَلَى أَنْفُسِنَا الْخَيْرَ وَالْعِلْمَ.

"وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَا"، سَيَنْدَمُ الْإِنْسَانُ غَايَةَ النَّدَمِ حِينَ يَنْشَأُ فِي أَمَاكِنَ فِيهَا خَيْرٌ وَعِلْمٌ وَلَا يُقْبِلُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَهْتَمُّ بِذَلِكَ. وَسُبْحَانَ اللَّهِ، الْأَيَّامُ تَتَغَيَّرُ وَتَتَقَلَّبُ، وَهَذِهِ الْأَمَاكِنُ أَمَاكِنُ الْعِلْمِ قَدْ تَتَغَيَّرُ، قَدْ تَذْهَبُ، قَدْ تُمْحَى، قَدْ تَنْتَقِلُ.

قَدْ ذَهَبَتْ أَمَاكِنُ كَانَتْ نِبْرَاسًا فِي الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ، وَكَانَتْ مِيدَانًا لِلْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ وَالرِّحْلَةِ قَدِيمًا فِي بُلْدَانٍ مُتَغَايِرَةٍ، كَالْأَنْدَلُسِ، وَالْعِرَاقِ، وَأَمَاكِنَ أُخْرَى كَثِيرَة، ذَهَبَتْ تِلْكَ الْأَمَاكِنُ وَالْقِلَاعُ الشَّامِخَةُ الَّتِي كَانَ رُبَّمَا يَجْتَمِعُ فِيهَا الْآلَافُ مِنَ النَّاسِ لِنَيْلِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ، ذَهَبَتْ وَانْقَلَبَ الْحَالُ وَتَغَيَّرَ.

وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ رُبَّمَا هَذِهِ الْأَمَاكِنُ لَا تَبْقَى، قد تذهب، ويحصل أشياء ومتغيرات.

❁ كَمَا قِيْلَ:

إِنَّ اللَّيَالِيَ وَالأَيَّامَ حَامِلَةٌ وَلَيْسَ يَعْلَمُ غَيْرُ اللهِ مَا تَلِدُ[1]

فاستغلْ الْخَيْرَ وَالْعِلْمَ، وَاحرصْ عَلَى أَوْقَاتِكَ أَعْظَمَ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْأَكْلِ وَالشَّرَابِ.

❁ وَفِي وَصِيَّةِ الْإِمَامِ الْمُوَفِّقِ ابْنِ قُدَامَةَ طَيَّبَ اللَّهُ رُوحَهُ مَا لَفْظُهُ: فَاغْتَنِمْ رَحِمَكَ اللَّهُ حَيَاتَك النَّفِيسَةَ، وَاحْتَفِظْ بِأَوْقَاتِك الْعَزِيزَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مُدَّةَ حَيَاتِك مَحْدُودَةٌ، وَأَنْفَاسَك مَعْدُودَةٌ، فَكُلُّ نَفَسٍ يَنْقُصُ بِهِ جُزْءٌ مِنْك، وَالْعُمْرُ كُلُّهُ قَصِيرٌ، وَالْبَاقِي مِنْهُ هُوَ الْيَسِيرُ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهُ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ لَا عَدْلَ لَهَا وَلَا خُلْفَ مِنْهَا، فَإِنَّ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْيَسِيرَةِ خُلُودُ الْأَبَدِ فِي النَّعِيمِ، أَوْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَإِذَا عَادَلْت هَذِهِ الْحَيَاةَ بِخُلُودِ الْأَبَدِ عَلِمْت أَنَّ كُلَّ نَفَسٍ يَعْدِلُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ عَامٍ فِي نَعِيمٍ لَا خَطَرَ لَهُ أَوْ خِلَافَ ذَلِكَ، وَمَا كَانَ هَكَذَا فَلَا قِيمَةَ لَهُ. فَلَا تُضَيِّعْ جَوَاهِرَ عُمْرِك النَّفِيسَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَلَا تُذْهِبْهَا بِغَيْرِ عِوَضٍ، وَاجْتَهِدْ أَنْ لَا يَخْلُوَ نَفَسٌ مِنْ أَنْفَاسِك إلَّا فِي عَمَلِ طَاعَةٍ أَوْ قُرْبَةٍ تَتَقَرَّبُ بِهَا. فَإِنَّك لَوْ كَانَتْ مَعَك جَوْهَرَةٌ مِنْ جَوَاهِرِ الدُّنْيَا لَسَاءَك ذَهَابُهَا فَكَيْفَ تُفَرِّطُ فِي سَاعَاتِك وَأَوْقَاتِك؟! وَكَيْفَ لَا تَحْزَنُ عَلَى عُمْرِك الذَّاهِبِ بِغَيْرِ عِوَضٍ؟! انْتَهَى.[2]

---

(١) "صيد الخاطر" (صـ: ٧١).

(٢) "الوصية" لابن قدامة (صـ: ٤١).

البيت رقم ٧٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَمْ أَحْلُلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ ... وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَانْتَهَكْتَا

شرح البيت رقم ٧٠

أَيْ: لَمْ أَنْزِلْ بِمَكَانٍ، وَبِمِيدَانٍ فيه الظُّلْمِ. وَالْمُرَادُ بِالظُّلْمِ هُنَا الظُّلْمُ الْعَامُّ عُمُومًا، وَالظُّلْمُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مُجَرَّدِ أَخْذِ الْأَمْوَالِ أَوِ الْأَرْضِ، بَلْ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْغِيبَةُ، وَالْوَقِيعَةُ فِي الْأَعْرَاضِ، وَانْتِهَاكُ الْحُرُمَاتِ، وَالطَّعْنُ فِي الآخرينَ بِغَيْرِ حَقٍّ.

لَمْ أَنْزِلْ، وَلَمْ أَدْخُلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ، وَلَمْ أَكُنْ فِيْه.

لَمْ أَسْلُكْ مَسَالِكَ الظُّلْمِ، وَطُرُقَ الظُّلْمِ بِخِلَافِكَ أَنْتَ، فَقَدْ سَلَكْتَهَا وَانْتَهَكْتَ هَذِهِ الْمَسَالِكَ، دَخَلْتَ وَوَقَعْتَ فِيهَا. وَالظُّلْمُ سَيِّئُ الْعَاقِبَةِ. الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا ... فَالظُّلْمُ تَرْجِعُ عُقْبَاهُ إِلَى النَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ ... يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنِمْ

❁ وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يقولُ: لَا تَظْلِم الضُّعَفَاءَ فتَكُنْ مِنْ شِرَارِ الْأَقْوِيَاءِ.(١)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ابراهيم [٤٢]. لَا يَغْفُلُ عَنْ ظُلْمِ الظَّالِمِ أَبَدًا.

وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ كما في عددٍ من الأحَادِيْث مِنْهَا:

قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».(٢)

---

(١) "الكبائر" للذهبي (صـ: ١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، (٢٤٤٨)، (٤٣٤٧)، ومسلم (١٩)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وَمِنْهَا: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجِسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ».(١)

وَمِنْهَا: عَنْ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».(٢)

وَمِنْهَا: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقُوا دَعَوَاتِ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا شَرَارٌ».(٣)

وَمِنْهَا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ».(٤)

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٤).

(٢) أخرجه الدولابي في "الكنى والأسماء" (١٦٢٩)، الطبراني في "الكبير" (٣٧١٨)، وفي "الدعاء" (١٣١٧)، وفي "مكارم الأخلاق" (١٢٦)، والخرائطي في "مساوئ الأخلاق" (٥٩٨)، والقضاعي في "مسند الشهاب" (٧٣٣)، وفي سنده ثلاث علل، ذكرها الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، الأولى: محمد بن عمارة مجهول. والثانية: ابنه خزيمة مجهول أيضاً. الثالثة: عبد الله بن محمد بن عمران، قال: لم أجد له ترجمه.ا.ه. (ذكره ابنُ سعد في "الطبقات"(٥/٤٣٥)، وقال: وكان قليل الحديث). وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، بشواهده في "الصحيحة (٨٧٠)، قال: وبالجملة فالإسناد مظلم مجهول. لكن الحديث حسن على أقل الدرجات.

(٣) أخرجه الحاكم (٨١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في الصحيحة" (٨٧١).

(٤) أخرجه أحمد (٨٧٩٥)، وابن أبي شيبة في "مصنفه"(٢٩٣٧٤)، وأبو داود الطيالسي في "مسنده"(٢٤٥٠)، والطبراني في "الدعاء"(١٣١٨)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، بشواهده في "الصحيحة" (٧٦٧)، عند حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ»، وفي" صحيح الجامع" (٣٣٨٢).

وَمِنْهَا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ».(١)

وَجَاءَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ: اسْتَعْمَلَ مَوْلًى لَهُ يُدْعَى هُنَيًّا عَلَى الحِمَى، فَقَالَ: «يَا هُنَيُّ اضْمُمْ جَنَاحَكَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ».(٢)

الظُّلْمُ عَاقِبَتُهُ وَخِيمَةٌ، وَلَوْ كَانَ الظُّلْمُ بِالافْتِرَاءِ، بِالتُّهَمِ، بالدعاوى الباطلة.

ظُلْمُ الْأَقْوَالِ، وظلم الأفعال وخيم العاقبة.

فَفِي صحيح البخاري، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلِّي، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ «فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلاَةَ العِشَاءِ، فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ»، قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إِلَى الكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، **فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلاَ يَقْسِمُ**

---

(١) أخرجه أحمد (١٠١٩٦)، (١٠٧٠٨)، (١٠٧٧١)، وأبو داود (١٥٣٦)، والترمذي (١٩٠٥)، وابن حبان (٢٦٩٩)، وحسنه بشواهده الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "الصحيحة" (٥٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٥٩).

بِالسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ، قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللَّهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلاَثٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ، قَالَ عَبْدُ المَلِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ، قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ.(١)

وَفِي صحيح مسلم، عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ أَرْوَى خَاصَمَتْهُ فِي بَعْضِ دَارِهِ، فَقَالَ: دَعُوهَا وَإِيَّاهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ، طُوِّقَهُ فِي سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، «اللهُمَّ، إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاجْعَلْ قَبْرَهَا فِي دَارِهَا»، قَالَ: «فَرَأَيْتُهَا عَمْيَاءَ تَلْتَمِسُ الْجُدُرَ تَقُولُ: أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي الدَّارِ مَرَّتْ عَلَى بِئْرٍ فِي الدَّارِ، فَوَقَعَتْ فِيهَا، فَكَانَتْ قَبْرَهَا».(٢)

فَالظُّلْمُ بِالْقَوْلِ، أَوْ بِالْفِعْلِ، أَوْ بِالدعوى الجائرة، فِي الْأَرْضِ، فِي الْمَالِ، بِغِيبَةٍ، بِنَمِيمَةٍ، بِكَذِبٍ، بِافْتِرَاءٍ، بِانْتِهَاكِ أَعْرَاضٍ، بِقَذْفٍ، بِتُهَمٍ بَاطِلَةٍ، كُلُّ ذَلِكَ عَوَاقِبُهُ وَخِيمَةٌ.

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ حَرَّمَ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ، وَحَرَّمَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا».(٣)، لَا يَظْلِمُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا. وَالظُّلْمُ يُهْلِكُ، وَلَوْ صَدَرَ مِنْ أُمَمٍ وَدُوَلٍ وَشُعُوبٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٦١٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ الأنبياء [١١]. يُدَمِّرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الْقُرَى، وَيُدَمِّرُ بِهِ دُوَلًا.

❁ قال شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ وَعَاقِبَةُ الْعَدْلِ كَرِيمَةٌ وَلِهَذَا يُرْوَى: (اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً).(١)

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَدْلِ الَّذِي فِيهِ الِاشْتِرَاكُ فِي أَنْوَاعِ الْإِثْمِ: أَكْثَرُ مِمَّا تَسْتَقِيمُ مَعَ الظُّلْمِ فِي الْحُقُوقِ وَإِنْ لَمْ تَشْتَرِكْ فِي إثْمٍ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ... وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلِ قَامَتْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمَتَى لَمْ تَقُمْ بِعَدْلِ لَمْ تَقُمْ وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنْ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ.(٢)

فَالْحَذَرُ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ. وَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ الظُّلْمَ، بِأَنْ يَأْخُذَ قِطْعَةَ أَرْضٍ أَوْ أَنْ يَأْخُذَ مَالًا فقط، هَذَا نَعَمْ مِنَ الظُّلْمِ، وَمِنْ الظُّلْمِ أَنْ تَفْتَرِي عَلَى أَخِيكَ، تُلْقِي عَلَيْهِ التُّهَمَ جِزَافًا بِغَيْرِ بَيِّنَاتٍ، تَتَّهِمُهُ بِمَا هُوَ مِنْهُ بَرِيءٌ، تَدَّعِي عَلَيْهِ كَذِبًا وَزُورًا. أَيْضًا تَقَعُ فِي عِرْضِهِ، ثُمَّ تُنْكِرُ ذَلِكَ وَتَحْلِفُ بِأَنَّكَ مَا وَقَعْتَ، هَذَا مِنَ الظُّلْمِ، ظُلْمٌ لِغَيْرِهِ وَظُلْمٌ لِنَفْسِهِ.

❁ قَالَ الشاعِرُ:

يـا أيهـا الـظـالم في فِـعْـلِـهِ ... فـالـظُّـلـم مـردودٌ عـلى مَـن ظَـلَـمْ
إلى مَـتَـى أنـت وحـتَّـى مـتـى ... تَسْـلُو المصـيباتِ وتنسَـى النِّقَمْ(٣)

---

(١) "مجموع الفتاوى" (٢٨/ ٦٣).

(٢) "مجموع الفتاوى" (٢٨/ ١٤٦).

(٣) "بصائر ذوي التمييز" (٣/ ٥٤٤).

البيت رقم ٧١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَقَدْ صَاحَبْتَ أَعْلامًا كِبَارًا وَلَمْ أَرَكَ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا

شرح البيت رقم ٧١

صَاحَبَ عُلَمَاءَ أَجِلَّاءَ فَلَمْ يَقْتَدِ بِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَفِدْ مِنْهُمْ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ: فَاحْذَرْ أَنْتَ أَنْ تُفَرِّطَ وَاسْتَغِلَّ وُجُودَ أَهْلِ الْخَيْرِ وَخُذْ مِنْ آدَابِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَاقْتَبِسْ مِنْ عِلْمِهِمْ.

❁ قَالَ قِلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَثَلُ الْعُلَمَاءِ مَثَلُ النُّجُومِ الَّتِي يُهْتَدَى بِهَا، وَالْأَعْلَامِ الَّتِي يُقْتَدَى بِهَا، إِذَا تَغَيَّبَتْ عَنْهُمْ تَحَيَّرُوا، وَإِذَا تَرَكُوهَا ضَلُّوا».(١)

وَلَابُدَّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعِلْمِ مِنْ حَمَلَتِهِ، وَيَصُونَ ذَلِكَ الْعِلْمَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٥١٧٨)، وأبو نعيم في "الحلية"(٢/٢٨٣)، من طريق عَبْد الْوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ كَاتِبِ أَبِي قِلَابَةَ، قَالَ: ... فذكره، وسنده صحيح، وعند أبي نعيم عن كتاب أبي قلابة، وجاء عند البيهقي في "المدخل" (٣٦٥)، عن أبي قلابة

وجاء نحوه عن أبي مسلم الخولاني، أخرجه أبو نعيم في "الحلية"(٥/١٢٠)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٢٧/٢٢٦)، وله طرق لا تخلو من ضعف، متحملة للتحسين بمجموعها.

وجاء عن أبي الدرداء عند البيهقي في "أخلاق العلماء"(صـ:٢٩)، من طريق الحسن عن أبي الدرداء، قال أبو زرعة: الحسن عن أبي الدرداء مرسل. "تحفة التحصيل"(صـ:٢٩)

وجاء عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، مرفوعا، أخرجه أحمد (١٢٦٠٠)، و"أمثال الحديث" للرامهرمزي (صـ: ٨٧)، والآجري في "أخلاق العلماء" (صـ: ٢٩)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (٢/ ١٣٨)، من طريق رشدين بن سعد، عن عبد الله بن الوليد، عن أبي حفص حدثه: أنه سمع أنس بن مالك فذكره، وفيه رشدين بن سعد، ضعيف، وعبد الله بن الوليد، ضعفه الدارقطني، فقال: لا يعتبر بحديثه "التهذيب"(٦/٧٠)، وأبو حفص صاحب أنس مجهول، قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويحتمل أن يكون هو عمر بن عبد الله ابن أبي طلحة؛ كما نبه عليه الحافظ في " التعجيل "، فإن كان هو؛ فهو ثقة، فعلة الحديث ممن دونه. "الضعيفة" (٥٨٧٤).

وجاء عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مرسلاً، أخرجه البيهقي في "المدخل"(٣٩٢)، وفيه ضعف

❁ قَالَ مَطَرٌ الْوَرَّاقُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْعُلَمَاءُ مِثْلُ النُّجُومِ فَإِذَا أَظْلَمَتْ تَكَسَّعَ النَّاسُ».(١)

❁ قال ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمَا دَامَ الْعِلْمُ بَاقِيًا فِي الْأَرْضِ، فَالنَّاسُ فِي هُدًى، وَبَقَاءُ الْعِلْمِ بَقَاءُ حَمَلَتِهِ، فَإِذَا ذَهَبَ حَمَلَتُهُ وَمَنْ يَقُومُ بِهِ، وَقَعَ النَّاسُ فِي الضَّلَالِ.(٢)

❁ قال مطرف، قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قُلْتُ لِأُمِّي: أَذْهَبُ فَأَكْتُبُ الْعِلْمَ، فَقَالَتْ: تَعَالَ فَالْبَسْ ثِيَابَ الْعِلْمِ. فَأَلْبَسَتْنِي ثِيَابًا مُشَمَّرَةً وَوَضَعَتِ الطَّوِيلَةَ عَلَى رَأْسِي وَعَمَّمَتْنِي فَوْقَهَا، ثُمَّ قَالَتِ: اذْهَبِ الآنَ فَاكْتُبْ.(٣)

❁ قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي، وَتَقُولُ لِي: اذْهَبْ إِلَى رَبِيعَةَ، فَتعلم مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ.(٤)

❁ قَالَ ابْنَ وَهْبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا تَعَلَّمْتُ مِنْ أَدَبِ مَالِكٍ أَفْضَلَ مِنْ عِلْمِهِ».(٥)

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في "الجامع"(٢/ ١٠١٩)، (١٩٤٣)، بسندٍ حسن. (تكسع) في ضلاله ذهب. "المعجم الوسيط" (٢/ ٧٨٧)، "معجم متن اللغة" (٥/ ٦٥).

(٢) "جامع العلوم والحكم" ت الأرنؤوط (٢/ ٢٩٨).

(٣) أخرجه الرامهرمزي في "المحدث الفاصل" (صـ: ٢٠١)، والخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي"(١/ ٣٨٤)، وأبو الفضل البستي في "الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع" (صـ: ٤٧)، والعلائي في "بغية الملتمس في سباعيات حديث الإمام مالك بن أنس" (صـ: ٥٧)، من طريق مُوسَى بْنِ زَكَرِيَّا، ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمِصْرِيُّ، ثَنَا مُطَرِّفٌ، قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ، يَقُولُ... فذكره، وموسى بن زكريا أبو عمران التستري، تكلم فِيهِ الدَّارَقُطْنِيّ مَاتَ قبل الثلاثمائة وَحكى الْحَاكِم عَن الدَّارَقُطْنِيّ أَنه مَتْرُوك. " المغني في الضعفاء" (٢/ ٦٨٣).

(٤) "ترتيب المدارك وتقريب المسالك" (١/ ١٣٠).

(٥) أخرجه ابنُ عبد البر في "الجامع" (١/٥٠٩)، (٨١٧)، وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ، نا ابْنُ أَبِي دُلَيْمٍ، نا ابْنُ وَضَّاحٍ، نا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ وَهْبٍ يَقُولُ...فذكره، قال مسلمة: مصري ثقة.

وفي «تاريخ ابن يونس»: محمد بن سعيد بن الحكم بن محمد بن أبي مريم، يكنى أبا عبد الله، روى عن ابن وهب. توفي سنة خمس وثلاثين ومائتين. "الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة" (٨/ ٣١١).

❁ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَا أَخَذْتُ مِنْ أَدَبِ مَالِكٍ أَكْثَرَ مِمَّا أَخَذْتُ مِنْ عِلْمِهِ. فَأَهْلُ الْعِلْمِ يُؤْخَذُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَآدَابِهِمْ وَمِنْ عُلُومِهِمْ، فَهُمْ بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ، يُضِيئُونَ لِغَيْرِهِمْ.(١)

الْعِلْمُ زَيْنٌ وَتَشْـــــرِيفٌ لِصَـاحِبِهِ ... فَاطْلُبْ هُدِيتَ فُنُونَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبَا
لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَـهُ أَصْـــلٌ بِلَا أَدَبٍ ... حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَـا زَانَـهُ حَـدِبَـا (٢)

وَأَهْلُ الْعِلْمِ يَقْتَبِسُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، مِنَ الْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعِلْمُ.

❁ ذَكَرَ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ السِّعْدِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَالشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هُوَ تِلْمِيذٌ لِلْإِمَامِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، كَانُوا مَعَهُ بَعْدَ الْمَغْرِبِ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي، وَجَاءَتِ الْبُومَةُ وَكَانَ فِيهِ نخلٌ فَوق السَّطْحِ الَّذِي يَجْلِسُونَ فِيهِ، وَكَانَتِ الْبُومَةُ تَأْتِي إِلَى الشَّجَرَةِ لِتَأْكُلَ الْعَصَافِيرَ الَّتِي عَلَى النَّخلِ. فَالْتَفَتَ ابْنُ عُثَيْمِينٍ الْتِفَاتَةً يَسِيرَةً إِلَيْهَا، قَالَ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَانْتَقَدَنِي الشَّيْخُ، الْتَفَتَ إِلَى الْبُومَةِ حِينَ جَاءَتْ لِتَأْكُلَ الْعَصَافِيرَ. قَالَ: فَالْتَفَتَ الْتِفَاتَةً يَسِيرَةً إِلَيْهَا، فَانْتَقَدَنِي الشَّيْخُ وَقَالَ: **صَيْدُ الْعِلْمِ أَوْلَى مِنْ صَيْدِ الطُّيُورِ**.

ثُمَّ قَالَ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **عَلَى كُلِّ حَالٍ أَخَذْتُ الْأَدَبَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَهَذِهِ موجودة فِي كَثِيرٍ مِنْ الطلبَةِ إِذَا حَصَلَ أَدْنَى شيء التفت**. فَاسْتَفَادَ مِنْ شَيْخِهِ هَذِهِ الفائدة.(٣)

❁ وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَجَدْتُ صَلَاحَ قَلْبِي فِي مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ.(٤)

---

(١) "ترتيب المدارك وتقريب المسالك "(١/ ١٣٠).

(٢) "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي (١/ ١٨٧).

(٣) "مقدمة المجموع" (صـ:١٣٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٤/ ٨٥)، وابن عبد البر في "الجامع" (٢٣٩)، (١/ ٢٣٩)،

فِي مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ هَذَا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَنْظُرُ لِمُعَلِّمِهِ بِمَنْظَرِ الِاحْتِرَامِ وَالتَّبْجِيلِ، لَا بِمَنْظَرِ الِاسْتِصْغَارِ وَالتَّحْقِيرِ.

❁ لِذَلِكَ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ لِمُعَلِّمِهِ بِعَيْنِ الِاحْتِرَامِ، وَيَعْتَقِدَ كَمَالَ أَهْلِيَّتِهِ وَرُجْحَانَهُ عَلَى أَكْثَرِ طَبَقَتِهِ، فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى انْتِفَاعِهِ بِهِ، وَرُسُوخِ مَا سَمِعَهُ مِنْهُ فِي ذِهْنِهِ.(١) وَيَعْتَقِدَ كَمَالَ أَهْلِيَّتِهِ، وَلَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ، الْكَمَالُ قَلَّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ أَحَدٌ.

❁ قَالَ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ، ثِقُوا بِأَنَّكُمْ لَنْ تَنْتَفِعُوا عَلَى أَيِّ شَيْخٍ قَرَأْتُمْ، إِذَا لَمْ يَكُنْ مُعَلِّمُكُمْ قُدْوَةً لَكُمْ فِي عِلْمِهِ وَفِي عَمَلِهِ وَفِيمَا يَدِينُ اللَّهَ بِهِ، فَلَنْ تَنْتَفِعُوا بِهِ، وَأُكَرِّرُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ يَعْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ مَعْصُومٌ، الْإِنْسَانُ يُخْطِئُ وَمَا أَكْثَرَ الْخَطَأَ، لَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَحْتَرِمَ مُعَلِّمَهُ فِي رَأْيِهِ، وَفِي عَمَلِهِ، وإذا استشكل شيئاً فليناقشهُ، والمناقشة مفتوحة، فإذا خاف أن يسيء في أثناء المناقشة يستطيع أن يُنَاقِشَ معلمهُ وحده...الخ.(٢)

❁ وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمِنْ آدَابِ الْمُتَعَلِّمِ أَنْ يَتَحَرَّى رِضَا الْمُعَلِّمِ، وَإِنْ خَالَفَ رَأْيَ نَفْسِهِ. وَمِنْ آدَابِ الْمُتَعَلِّمِ أَنْ يَتَحَرَّى رِضَا الْمُعَلِّمِ وَإِنْ خَالَفَ رَأْيَ نَفْسِهِ، وَلَا يُفْشِيَ لَهُ سِرًّا، وَأَنْ يَرُدَّ غِيبَتَهُ إِذَا سَمِعَهَا، فَإِنْ عَجَزَ فَارَقَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ.(٣)

من طريقِ أبي نعيم عبيد بن هشام الحلبي، عن عَطَاءِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ قَالَ: سَمِعْتُ مَيْمُونَ بْنَ مِهْرَانَ يَقُولُ...فذكره، وعبيد بن هشام، قال أبو داود: ثقة الا أنه تغير في آخر أمره لقن أحاديث ليس لها أصل. "تهذيب التهذيب" (٧/٧٦)، وعطاء بن مسلم، فيه ضعف، قال أبوداود: في حديثه لين، وقال ابنُ عدي: له أحاديث وفيها بعض ما ينكر عليه. "تهذيب التهذيب" (٧/٢١١).

(١) "مقدمة المجموع" (صـ:١٣٦).

(٢) "مقدمة المجموع" (صـ:١٣٧).

(٣) "مقدمة المجموع" (صـ:١٤٠).

فَيَنْبَغِي الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَأَسَّى أَوَّلًا بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، فَهُمْ الْأَصْلُ فِي ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ الأنعام [٩٠].

وَقَالَ:﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ الممتحنة [٤]. وَقَالَ: ﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ الممتحنة [٦]. وَقَال:﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ الأحزاب [٢١].

الْأَنْبِيَاءُ الذُّرْوَةُ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ فَإِنَّهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ يَتَأَسَّى بِهِمْ وَيَعْرِفُ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَأَسَّى بِهِمْ، أَوْ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْهُمْ إِلَّا إِذَا عَرَفَ لَهُمْ فَضْلَهُمْ وَعَرَفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ. وَكُلَّمَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَلَيْكَ فَضْلٌ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُ حَقٌّ عَلَيْكَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ الإسراء [٢٤].

❁ قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره": أيْ: ادع لهما بالرحمةِ أحياءً وأمواتاً، جزاءً على تربيتهما إياكَ صغيرا. وَفُهِمَ مَنْ هَذا أَنهُ كُلَّمَا ازْدَادَتِ التَّرْبِيَةُ ازْدَادَ الْحَقُّ. وَكَذَلِكَ مَنْ تَوَلَّى تَرْبِيَةَ الْإِنْسَانِ فِي دِينِهِ، وَدُنْيَاهُ تَرْبِيَةً صَالِحَةً غَيْرَ الْأَبَوَيْنِ، فَإِنَّ لَهُ عَلَى مَنْ رَبَّاهُ حَقَّ التَّرْبِيَةِ.ا.هـ.

لِذَلِكَ كَانَ السَّلَفُ يُجِلُّونَ عُلَمَاءَهُمْ وَيَحْتَرِمُونَهُمْ.

❁ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَرَأيتُ مِنْ مالك بن أنس ما رأيتُ من هيبَتِهِ وإِجْلالِهِ للعلمِ، فازددتُ لِذلِكَ حَتى رُبَمَا كُنْتُ أَكُونُ فِي مَجلسِهِ فَأُرِيدُ أَنْ أَصْفَحَ الورقةَ فأصْفَحها صَفْحًا رَقِيقًا هَيْبَةً لَهُ؛ لئلا يَسْمَعَ وَقْعَهَا. (١)

❁ وَقَالَ الرَّبِيعُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَاللَّهِ مَا اجْتَرَأْتُ أَنْ أَشْرَبَ الْمَاءَ وَالشَّافِعِيُّ يَنْظُرُ إِلَيَّ هَيْبَةً لَهُ. (٢)

وَالِاسْتِخْفَافُ بِأَهْلِ الْعِلْمِ، لَا سِيَّمَا بِالْعُلَمَاءِ، يُورِثُ شَرًّا كَبِيرًا، وَخِلَافًا وَاسِعًا، وَيَفْتَحُ بَابَ الْفِتَنِ وَالنِّزَاعَاتِ، وَيُوغِرُ الصُّدُورَ وَيُضَيِّقُهَا. كَمَا هُوَ الْحَاصِلُ الْيَوْمَ مِنَ الْكَثِيرِ أَوْ مِنْ بَعْضِ الْمُتَعَالِمِينَ، وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ يَتَقَدَّمُونَ بَيْنَ يَدَيِّ عُلَمَائِهِمْ، فَيَجْنُونَ شَرًّا عَلَى الْخَيْرِ وَعَلَى الدَّعْوَةِ. فَلَا يَسْتَشِيرُونَ العلماء، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَعْرِفُونَ لَهُمْ حَقَّهُمْ وَلَا فَضْلَهُمْ، وَلَا يَسْمَعُونَ لِتَوْجِيهِهِمْ، بَلْ بَعْضُهُمْ رُبَّمَا صَارَ يَطْعَنُ وَيَتَكَلَّمُ، وَهَذَا مِنَ الْبَلَاءِ، وَالْفِتَنُ هِيَ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ، تَهَيُّجُ الْبَعْضِ عَلَى مَشَايِخِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، بسبب ذلك، فَحِينَ يَتَجَرَّأُ الطُّلَّابُ عَلَى مَشَايِخِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ يَقَعُ الْبَلَاءُ، وَحِينَ لَا يَعْرِفُونَ لَهُمْ حَقَّهُمْ وَفَضْلَهُمْ، يَقَعُونَ وَقُودًا وَحَطَبًا لِفِتَنٍ كَثِيرَةٍ. كَذَلِكَ التقدم عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ لاسيما في الأمور العامة والمهمة، وَعَدَمُ الِاسْتِفَادَةِ مِنْهُمْ، كُلُ هذا من أسباب الشر، وَهَذَا مَا يُعَانَى مِنْهُ الْيَوْمَ، والله المستعان

قَالَ: "**لَقَدْ صَاحَبْتَ أَعْلَامًا كِبَارًا**"، جَالَسَتَ الْعُلَمَاءُ، كُنْتَ فِي حَلَقَاتِهِمْ،

---

(١) "تاريخ دمشق" لابن عساكر (١٤/ ٢٩٣)، "مناقب الشافعي" للبيهقي (٢/ ١٤٤)، وفيه أحمد بن عباد التميمي، لم أقف له على ترجمه.

(٢) أخرجه البيهقي في "المدخل" (٦٨٤)، وفي "مناقب الشافعي" (٢/ ١٤٥)، قال: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، قَالَ: سَمِعْتُ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الرَّبِيعَ بْنَ سُلَيْمَانَ، يَقُولُ...فذكره، والحسين بن علي هو أبو علي الحافظ، وسنده صحيح، وأخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٥١/ ٤٠٤)، من طريق أخرى، وفيه من لا يعرف.

"وَلَمْ أَرَكَ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا"، لَمْ تَقْتَدِ بِهِمْ، لَمْ تَسْتَفِدْ مِنْهُمْ، لَمْ تَتَأَثَّرْ بِأَخْلَاقِهِمْ وَلَا بِآدَابِهِمْ وَلَا بِعُلُومِهِمْ. وَهَذَا فِيهِ تَوَاضُعٌ مِنْهُ، مِنَ النَّاظِمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حَيْثُ أَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ فِي هذا الْمَقَامِ.

❁ وَنَظِيرُ ذَلِكَ مَا قَالَهُ الشَّيْخُ النَّجْمِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي أَبْيَاتٍ يُعَاتِبُ فِيهَا نَفْسَهُ:

أُحَيْمِدُ يَا كَسُولُ عَنِ الْمَعَالِي ... وَيَا رقَّاد فِي سُود اللَّيَالِي
تَرُومُ مَجْدًا مَعَ كَسَلٍ وَعَجْزٍ ... أَضَعْتَ الْعُمْرَ فِي طَلَبِ الْمُحَالِ
تشَاغَلُ بِالتَّوَافِهِ ثُمَّ تَرْجُو ... لِحَاقًا مَعَ أُولِي الْهِمَمِ الْعَوَالِي
فَمَا إِيثَارُكَ الدُّنْيَا بِخَيْرٍ ... وَلَوْ كَانَ اصْطِنَاعًا لِلْحَلَالِ
وَخَيْرٌ مِنْهُ فِي الْأُخْرَى وَأَجْدَى ... بِأَنْ تَحْظَى بِخِدْمَةِ ذِي الْجَلَالِ
فَسَلْهُ الْعَوْنَ إِدْمَانًا مُلِحًّا ... يُحِبُّ اللَّهُ مُلِحَّاحَ السُّؤَالِ

وَهَذَا مِنْ تَوَاضُعِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَفِيدُ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَمِنْ مُجَالَسَتِهِمْ، مِنْ آدَابِهِمْ، مِنْ أَخْلَاقِهِمْ، مِنْ عُلُومِهِمْ، وَهُمْ لَيْسُوا بِمَعْصُومِينَ

❁ كَمَا قَالَ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الْإِنْسَانُ يُخْطِئُ وَمَا أَكْثَرَ الْخَطَأَ".

وَلَوْ كَانُوا عُلَمَاءَ، أَوْ مَشَايِخَ أَوْ دُعَاةً، أَوْ غَيْرَهُمْ. وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ لِمُعَلِّمِهِ، وَلِلْعُلَمَاءِ بِمَنْظَرِ الِاحْتِرَامِ، فَإِنَّ مَنْ اسْتَخَفَّ بِهِمْ ذَهَبَتْ آخِرَتُهُ، وَجَرَى مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الشَّرُّ وَالْبَلَاءُ وَالْخِلَافَاتُ وَالنِّزَاعَاتُ وَالِافْتِرَاقُ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُفَوِّتَ الْخَيْرَ وَالْعِلْمَ، فَإِنَّ مَنْ وَجَدَ الْعِلْمَ ثُمَّ فَوَّتَهُ مَحْرُومٌ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى نَقْصٍ فِي الْعَقْلِ.

❁ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وينبغي أن يكون حريصا على التعليم مُوَاظِبًا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا حضرا وسفرا وَلَا يُذْهِبُ مِنْ أَوْقَاتِهِ شَيْئًا فِي غَيْرِ الْعِلْمِ إِلَّا بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ لِأَكْلٍ وَنَوْمٍ قَدْرًا لا بد منه ونحوهما كاستراحة يسيرة لإزالة الْمَلَلِ وَشِبْهِ ذَلِكَ مِنْ الضَّرُورِيَّاتِ **وَلَيْسَ بِعَاقِلٍ مَنْ أَمْكَنَهُ دَرَجَةُ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ فَوَّتَهَا.**

❁ وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رِسَالَتِهِ حَقٌّ عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جُهْدِهِمْ فِي الِاسْتِكْثَارِ مِنْ عِلْمِهِ وَالصَّبْرُ عَلَى كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلَبِهِ وَإِخْلَاصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي إدْرَاكِ عِلْمِهِ نَصًّا وَاسْتِنْبَاطًا وَالرَّغْبَةُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعَوْنِ عَلَيْهِ. (١)

الْأَنْبِيَاءُ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَالدَّرَجَةُ التَّالِيَةُ لِدَرَجَةِ الْأَنْبِيَاءِ هِيَ الْعِلْمُ، ونشره.

❁ قَالَ حِبَّانُ بْنُ مُوسَى: عُوتِبَ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِيمَا يُفَرِّقُ الْمَالَ فِي الْبُلْدَانِ، وَلَا يَفْعَلُ فِي أَهْلِ بَلَدِهِ، فَقَالَ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ مَكَانَ قوم، لَهُمْ فَضْلٌ وَصَدْقٌ، وطَلَبُوا الْحَدِيثَ فَأَحْسَنُوا الطَّلَبَ لِلْحَدِيثِ، حَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْهِمْ شَدِيدَةٌ وَقَدِ احْتَاجُوا، فَإِنْ تَرَكْنَاهُمْ ضَاعَ عِلْمُهُمْ، وَإِنْ أَغْنَيْنَاهُمْ بَثُّوا الْعِلْمَ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، **فَلَا أَعْلَمُ بَعْدَ النُّبُوَّةِ دَرَجَةً أَفْضَلَ مِنْ بَثِّ الْعِلْمِ**». (٢)

فَلَا تُفَوِّتْ عَلَى نَفْسِكَ الْخَيْرَ أَبَدًا، بَلْ كُنْ حَرِيصاً عَلَيهِ مَا دُمْتَ حَيًّا.

---

(١) "مقدمة المجموع" (صـ: ١٤٥-١٤٦).

(٢) أخرجه البيهقي في "الشعب" (١٦٢٦)، والخطيب في "تاريخ بغداد" (١١/٣٨٨)، وابن عساكر من طريق البيهقي في "تاريخ دمشق" (٣٢/٤٥٦)، مِنْ طريقِ الفَتْحِ بْنِ شَخْرَف الْعَابِد، حَدَّثَنِي عَبَّاسُ بْنُ يَزِيدَ، حدثنا حِبَّانُ بْنُ مُوسَى، قَالَ: عُوتِبَ ابْنُ الْمُبَارَكِ ...، وفيه الفَتْحُ بنُ شُخْرُف، قال الخطيب: وكان قليل المسانيد كثير الحكايات. قال الإمام أحمد: ما أخرجت خراسان مثل فتح بن شخرف. "تاريخ بغداد" (١٢/ ٣٨٠و٣٨٢)،

لَـقَـدْ صَـــاحَـبْـتَ أَعْـلامًـا كـبَـارًا وَلَمْ أَرَكَ اقْـتَـدَيْـتَ بِـمَـنْ صَـــحِـبْـتَـا

يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقْتَدِيَ بِأَهْلِ العِلْمِ وَيَعْرِفَ لَهُمْ فَضْلَهُمْ وَلَا يُسابقهم، وَلَا يَتَقَدَّمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ.

وَالبَعْضُ رُبَّمَا مِمَّنْ يَنْتَمِي لِلْعِلْمِ، وَيَتَلَقَّى العِلْمَ رُبَّمَا يَظَلُّ فَتْرَةً وَيَرَى نَفْسَهُ مُجْتَهِدًا مُؤَهَّلًا فَيَتَقَدَّمُ بَيْنَ يَدَيْ عُلَمَائِهِ، وَيُسَابِقُهُمْ، وَلَا يَعْرِفُ لَهُمْ مَكَانَتَهُمْ حَتَّى رُبَّمَا يُؤَدِّي بِهِ ذَلِكَ إِلَى سُلُوكِ طَرِيقٍ مُخَالِفٍ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي السَّابِقِ، وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ.

الطَّرِيقَةُ هذه طَرِيقٌ لِلنِّزَاعِ وَالخِلَافِ وَالشَّرِّ، عِيَاذًا بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَأَصْبَحَ هَذَا فِي أَوْسَاطِ النَّاسِ كَثِيرًا، فَحَصَلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَا حَصَلَ من الخلافِ والنزاعِ، والشقاقِ.

البيت رقم٧٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَنَادَاكَ الْكِتَابُ فَلَمْ تُجِبْهُ ... وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا

شرح البيت رقم ٧٢

أولاً: الْإِنْسَانُ إذا حرصَ عَلى العلمِ، وتَحَصَّلَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ يَنْبَغِي أَنْ يَصُونَ هَذَا الْعِلْمَ وَلَا يُضَيِّع نَفْسَهُ.

❁ قَالَ رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ عِنْدَهُ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ يُضَيِّعُ نَفْسَهُ».(١)

❁ قَالَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيُّ:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا(٢)

❁ وقَبْلَ هذهِ الأبيات:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

---

(١) علقه البخاري في "صحيحه" ووصله البخاري نفسه في "التاريخ الكبير" (٣/٢٨٦)، والخطيب في "أخلاق الراوي"(٧٢٦)، والبيهقي في "المدخل"(٦٨٧)، من طريق عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حدثنا مَالِكٌ: كَانَ ربيعة يَقُولُ لابْنِ شِهَابٍ: إِنَّ حَالَتِي لَيْسَ تُشْبِهُ حَالَكَ، أَنَا أَقُولُ بِرَأْيِي مَنْ شَاءَ أَخَذَهُ وَأَنْتَ تُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فَتَحْفَظُ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ عِنْدَهُ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ يُضَيِّعُ نَفْسَهُ. وسنده صحيح.

(٢) "الجامع لأخلاق الراوي"(١/٨٥٤)، (٨٥٤)، ومن طريقه ابن الجوزي في "المنتظم"(١٥/٣٥)،

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدُمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

ثَانِيًا: نَادَاكَ الْكِتَابُ وَدَعَاكَ فَلَمْ تُجِبْهُ؟ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ أَمَرَكَ أَنْ تَتُوبَ إِلَيْهِ، وَأَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَأَنْ تَسْتَقِيمَ عَلَى هَذَا الدِّينِ الْقَوِيمِ.

وَالنِّدَاءَاتُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ، الَّتِي نَادَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَنَادَى بِهَا النَّاسَ أَيْضًا عُمُومًا.

مِنْهَا: أولُ نِداءٍ للنَّاسِ دَعاهُمْ فيه لِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيْدِهِ

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة [٢١].

وَمنها: دعوته للمؤمنين أن يتوبوا إلى الله تعالى، وَأَنْ يتقوه، ويتقوا عذابه ويحذروا من أكل الربا، وأن يكونوا مَعَ الصادقين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ التحريم [٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الحشر [١٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ التحريم [٦].

ناداكَ الكتابُ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة [٢٧٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ التوبة [١١٩].

كُلُّهَا وَأَمْثَالُهَا كَثِيرٌ، دَعَوَاتٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنِدَاءَاتٌ لِعِبَادِهِ أَنْ يُسَارِعُوا إِلَيْهِ وَأَنْ يَتُوبُوا وَأَنْ يَحْذَرُوا مِنْ أَسْبَابِ الْوُقُوعِ فِي الْعَذَابِ، وأَنْ يَسْتَجِيْبُوا لِله ولرسولهِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال [٢٤].

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ الشورى [٤٧].

فَهَذَا النِّدَاءُ قَدْ حَصَلَ، فَأَيْنَ الِاسْتِجَابَةُ؟ ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يونس [٢٥]. ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ البقرة [٢٢١].

فَلَمْ تُجِبْهُ، حَصَلَ مِنْكَ الْعِصْيَانُ، أَوِ التَّقْصِيرُ.

وَالَّذِي يَنْبَغِي الْمُسَارَعَةُ وَتَلْبِيَةُ الدَّعْوَةِ وَالنِّدَاءِ، فَإِنَّ هَذَا فِيهِ حَيَاةُ الْإِنْسَانِ الدِّينِيَّة، وَالدُّنْيَوِيَّة، وَالْأُخْرَوِيَّة﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الأنفال [٢٤].

وَعَدَمُ الاستجابة دليلٌ على اتباع الهوى وذلك سببٌ للعذاب

فقال اللهُ تعالى:﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ القصص [٥٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ الرعد [١٨].

وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا" أَيْ: قَدْ حَلَّ بِكَ الْشيبُ، وظَهَرَتْ عَلَيْكَ عَلَامَاتُ الْمَشِيبِ، فَمَا تَذَكَّرْتَ، وَلَا أَفَقْتَ، وَلَا عُدْتَ إِلَى رَبِّكَ جَلَّ وَعَلَا.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ فاطر [٣٧].

النَّذِيرُ هُنَا قِيلَ: هُوَ الشَّيْبُ، وَقِيلَ: الْقُرْآنُ، وَقِيلَ: الرَّسُولُ، وَقِيلَ: مَوْتُ الْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ، وَقِيلَ: كَمَالُ الْعَقْلِ، وَقِيلَ: الْحُمَّى.(١)

❁ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَدْرَكْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ بِبَلَدِنَا وَهُمْ يَطْلُبُونَ الدُّنْيَا وَالْعِلْمَ وَيُخَالِطُونَ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ لِأَحَدِهِمْ أَرْبَعُونَ سَنَةً، فَإِذَا أَتَتْ عَلَيْهِمُ اعْتَزَلُوا النَّاسَ وَاشْتَغَلُوا بِالْقِيَامَةِ حَتَّى يَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ.(٢)

❁ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: «إِذَا بَلَغَ أَحَدُكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَلْيَأْخُذْ حِذْرَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَه».(٣)

❁ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَالشَّيْبُ وَالْحُمَّى وَمَوْتُ الْأَهْلِ كُلُّهُ إِنْذَارٌ بِالْمَوْتِ...وَالشَّيْبُ نَذِيرٌ أَيْضًا، لِأَنَّهُ يَأْتِي فِي سِنِّ الِاكْتِهَالِ، وَهُوَ عَلَامَةٌ لِمُفَارَقَةِ سِنِّ الصِّبَا الَّذِي هُوَ سِنُّ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ... وَأَمَّا مَوْتُ الْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَالْأَصْحَابِ وَالْإِخْوَانِ فَإِنْذَارٌ بِالرَّحِيلِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانٍ، وَحِينٍ وَزَمَانٍ.(٤)

وَكَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَبِيِّهِ زَكَرِيَّا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ مريم [٤].

---

(١) "تفسير القرطبي". فاطر، آية٣٧.

(٢) ذكره ابن بطال في "شرحه صحيح البخاري" (١٠/ ١٥٢)، والقرطبي في "تفسيره" (١٤/ ٣٥٣).

(٣) أخرجه أحمد في "الزهد" (٢٠٤٢)، وابن جرير في "تفسيره" (١٩/ ٣٨٤)، من طريق هُشَيْم، عَنْ مُجَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ... فذكره. ومجالد، ضعيف.

(٤) "تفسير القرطبي". فاطر، آية٣٧.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ الروم [٥٤].

❁ وَكَمَا قِيلَ:

رَأَيْتُ الشَّيْبَ مِنْ نُذُرِ الْمَنَايَا ... لِصَاحِبِهِ وَحَسْبُكَ مِنْ نَذِيرِ[١]

❁ وَقَالَ مُحَمَّدُ المعروف بابنِ أَبِي زَمَنِين:[٢]

الْمَوْتُ فِي كُلِ حِينٍ يَنْشُرُ الْكَفَنَا ... وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِنَا
لا تَطْمِئِنَّ إلى الدُنيا وزُخْرُفِها ... وإنْ تَوَشَّحْتَ مِنْ أَثْوَابِهَا الحَسَنا
أَيْنَ الأَحِبَّةُ والجِيرانُ ما فَعَلُوا ... أينَ الذين هُمُ كانُوا لَنا سَكَنَا
سَقَاهُمُ الموتُ كأسًا غيرَ صَافِيَةٍ ... فَصَيَّرَتْهُمْ لأَطْبَاقِ الثَّرَى رَهَنَا

❁ وَقَالَ آخَرُ:

فَقُلْتُ لَهَا الْمَشِيبُ نَذِيرُ عُمْرِي ... وَلَسْتُ مُسَوِّدًا وَجْهَ النَّذِيرِ[٤]

❁ قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ: مَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِثَلَاثٍ لَمْ يَتَّعِظْ بِشَيْءٍ: الْإِسْلَامُ، وَالْقُرْآنُ، وَالْمَشِيبُ.[٥]

---

(١) "تفسير القرطبي". فاطر، آية٣٧، وأخرجه الدينوري في "المجالسة" (١٣٦٤)، (٣٣٥٦)، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ، نا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْمُقَدَّمِيُّ، نا حُصَيْنُ بْنُ نُمَيْرٍ، نا بَكَّارُ بْنُ مَالِكٍ، مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ فاطر [٣٧]، قَالَ: الشَّيْبُ. ثُمَّ أَنْشَدَ حُصَيْنٌ، فذكره، وليس في الموضع الثاني (ثم أنشد حصين)، والدينوري، فيه ضعف، ورجاله ثقات، وبكار لم أجد له ترجمه.

(٢) "تاريخ الإسلام" ت بشار (٨/ ٨٠٧).

(٣) "تاريخ الإسلام" ت بشار (٨/ ٨٠٧).

(٤) "تفسير القرطبي" فاطر، آية ٣٧.

(٥) "العمر والشيب" لابن أبي الدنيا (صـ: ٦١)، (٤٠)، وفيه من لم يُسم.

❁ وَكَمَا قِيلَ:

وَدِّعْ سُـلَيْمَى إِنْ تَجَهَّزْتَ غَـازِيَـا كَفَى الشَّـيْبُ وَالْإِسْـلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

❁ وَكَمَا قِيلَ أَيْضاً:

مَـنَـعَ الْهَـوَى مِـنْ كَـاعِـبٍ ومـدَام نُورُ الْمَشِـيبِ وَوَاعِظُ الْإِسْـلَام (٢)

❁ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِلَى كَمْ يَا ذَا الْمَشِيبِ، أَمَا الأَمْرُ مِنْكَ قَرِيبٌ، كَمْ تَعِبَ فِي وَعْظِكَ خَطِيبٌ، كَمْ عَالَجَكَ طَبِيبٌ. إِنَّهُ لَمَرَضٌ عَجِيبٌ، إِنَّهُ لَدَاءٌ غَرِيبٌ عَظْمٌ وَاهِنٌ وَقَلْبٌ صَلِيبٌ، يَا هَذَا لا شَيْءَ أَقَلُّ مِنَ الدُّنْيَا وَلا أَعَزُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَهَا أَنْتَ تُنْفِقُ أَنْفَاسَ النَّفَسِ النَّفِيسَةَ عَلَى تَحْصِيلِ الدُّنْيَا الْخَسِيسَةِ، مَتَى يُقْنِعُكَ الْكَفَافُ، مَتَى يَرُدُّكَ الْعَفَافُ مَتَى يُقَوِّمُكَ الثِّقَافُ، إِنَّكَ لَتَأْبَى إِلا الْخِلافَ، مَقَالِيدُكَ ثِقَالٌ وَرَكَعَاتُكَ خفاف، يا قبيح الخصال يا سيء الأَوْصَافِ، يَا مُشْتَرِيًا بِسِنِي الْخَصْبِ السِّنِينَ الْعِجَافَ، قِفْ مُتَدَبِّرًا لِحَالِكَ فَالْمُؤْمِنُ وَقَّافٌ، وَتَذَكَّرْ وَعِيدَ الْعُصَاةِ وَيْحَكَ أَمَا تَخَافُ. (٣)

---

(١) أخرجه معمر بن راشد في "جامعه" (٢٠٥٠٨)، والبخاري في "الأدب المفرد" (١٢٣٨)، والبيهقي في "الزهد الكبير" (٦٥٣)، وحسنه الألباني، في "الأدب المفرد" وأخرجه الدينوري في "المجالسة" (١٣٦٥)، (٣٣٥٧)، عَنْ أَبِي حُصَيْنٍ: أَنَّهُ تَمَثَّلَ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، وَهُمَا لِعَبْدِ بَنِي الْحَسْحَاسِ: هُرَيْرَةُ وَدِّعْ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيًا...

وجاء أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، كان يتمثل بهذا البيت، عند ابن سعد في "الطبقات"(١/ ٢٩٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" عند آية ٦٨ من سورة يس، والثعلبي في "تفسيره"، وغيرهم، وهو من مراسيل الحسن، وفيه علي بن زيد بن جدعان، ضعيف، وانظر "الضعيفة" (٣٠٨٥).

(٢) "ذم الدنيا" لابن أبي الدنيا، قال: أَنشدني صاحبٌ لنا...فذكره، وفي " تفسير ابن رجب الحنبلي "(١/ ٩٠).

(٣) "التبصرة" لابن الجوزي (٢/ ٢٥٢). وَ (الثِّقَافُ) مَا تُسَوَّى بِهِ الرِّمَاحُ. "مختار الصحاح" (صـ: ٤٩).

❁ وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

وَأَرَاكَ تَحْمِلُهُمْ وَلَسْتَ تَرُدُّهُمْ ... فَكَأَنَّنِي بِكَ قَدْ حُمِلْتُ فَلَمْ تُرَدَّ (١)

❁ وَقَالَ بعضُ السَّلَفِ: مَنْ لم يَرْدعْهُ القرآنُ والموتُ، لو تناطحتِ الجبالُ بين يديهِ لم يرتدعْ. (٢)

❁ قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تَأْخِيرُ التَّوْبَةِ فِي حَالِ الشَّبَابِ قَبِيحٌ، فَفِي حَالِ الْمَشِيبِ أَقْبَحُ وَأَقْبَحُ (٣).

❁ قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ:

نَعَى لَكَ ظِلَّ الشَّبَابِ الْمَشِيبُ ... وَنَادَتْكَ بِاسْمِ سِوَاكَ الْخُطُوبُ
فَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِدَاعِي الْمَنُونِ ... فَكُلُّ الَّذِي هُوَ آتٍ قَرِيبُ
أَلَسْنَا نَرى شَهواتِ النُفُوس ... تَفْنَى وَتَبْقَى عليها الذُّنُوب
وَقَبْلَكَ دَاوَى الْمَرِيضَ الطَّبِيبُ ... فَعَاشَ الْمَرِيضُ وَمَاتَ الطَّبِيبُ
يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مَنْ يَتُوبُ ... فَكَيْفَ بِحَالَةِ مَنْ لَا يَتُوبُ (٤)

"وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَ". نَبَّهَكَ الْمَشِيبُ، أَنْذَرَكَ، خُذْ حذرَكَ، انْتَبِهْ.

أَنْتَ رَاحِلٌ مِنَ الدُّنْيَا، أَنْتَ قَادِمٌ عَلَى اللَّهِ، خُذِ الْعُدَّةَ وَالزَّادَ لِآخِرَتِكَ.

وَقَدْ يَأْتِي عَلَيْكَ الموت قَبْلَ ذَلِكَ، فَلْيَكُنِ الْإِنْسَانُ مُسْتَعِدًّا طَوَالَ حَيَاتِهِ.

---

(١) "تفسير القرطبي" (١٤/ ٣٥٤)، و"التذكرة" (صـ:٢٠٤).

(٢) "تفسير ابن رجب" (١/ ٩٠).

(٣) "لطائف المعارف" لابن رجب (صـ: ٣٤٤).

(٤) "عيون الأخبار" لابن قتيبة الدينوري (٢/ ٣٥٢)، و"بغية الطلب في تاريخ حلب" (٤/ ١٧٩٨)، و"الآداب الشرعية" (٣/ ١١٩)، وفي "تاريخ بغداد" ط العلمية (٢٠/ ٦٩)، "المنتظم" (١٠/ ١٨٤)، من قول أبي حفص الشطرنجي، وفي "المجالسة وجواهر العلم" (٦٢٩)، قال الدينوري: وَأَنْشَدَنِي إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ...

البيت رقم٧٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

شرح البيت رقم ٧٣

قَبِيحٌ مِنَ الْفَتَى الشَّابِّ أَنْ يَفْعَلَ أَفْعَالَ الصِّبْيَانِ.

يَقْبُحُ مِنَ الشَّاب أَنْ يَفْعَلَ أَفْعَالَ الصِّبْيَانِ مِنَ الْجَهَالَةِ، وَالطَّيْشِ، وَاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَالْمِزَاحِ الْمُفْرِطِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

هَذَا قَبِيحٌ مِنَ الشَّابِّ أَنْ يَلْهُوَ بِمَا يَلْهُو بِهِ الصَّبِيُّ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ الْقُرْطُبِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالشَّيْبُ نَذِيرٌ أَيْضًا، لِأَنَّهُ يَأْتِي فِي سِنِّ الِاكْتِهَالِ، وَهُوَ عَلَامَةٌ لِمُفَارَقَةِ **سِنِّ الصِّبَا الَّذِي هُوَ سِنُّ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ.**(١)

فَقَبِيحٌ بِالْفَتَى أَنْ يَفْعَلَ فِعْلَ الصِّبْيَانِ مِنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، لَا يَنْظُرُ فِي الْعَوَاقِبِ، لَا يَتَأَمَّلُ فِيهَا، لَا يُفَكِّرُ فِيهَا.

وَهَذَا عَجِيبٌ الْيَوْمَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْفِتْيَانِ، يُضَيِّعُونَ شَبَابَهُمْ وَيَلْتَهُونَ بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ، مِنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ.

صَارَ بَعْضُ الشَّبَابِ الْيَوْمَ كَالصِّبْيَانِ فِي لَهْوِهِمْ وَلَعِبِهِمْ، يَلْعَبُ بِالْجَوَّالِ، أَوْ كُرَةِ الْقَدَمِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وربما ضيعوا الصلوات، يَلْهُو كَمَا يَلْهُو الصِّبْيَانُ وَيَلْعَبُ كَمَا يَلْعَبُ الصِّبْيَانُ.

وَهَذَا قَبِيحٌ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، وأنْ تكونَ هذه هي همتُهُ اللعب بالجوال، والكُرة وغير ذلك ، بَلِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ وَاسِعَ الْفِكْرِ، قَوِيَ الهمة، يَنظُرُ في العَاقِبَةِ، وَيُحافِظُ عَلَى وَقْتِهِ؛ فَإِنَّهُ سَيُسْأَلُ عَنْ عُمْرِهِ عُمُومًا، وَعَلَى وَقْتِ شَبَابِهِ خُصُوصًا، «لَا تَزُولُ قَدَمَا الْعَبْدِ

---

(١) "تفسير القرطبي" فاطر، آية ٣٧.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ، عَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ كَيْفَ عَمِلَ فِيهِ». (١)

الشَّبَابُ هُوَ سِنُّ القُوَّةِ وَالِانْدِفَاعِ إِلَى الطَّاعَاتِ وَالعِبَادَاتِ،

"وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى"، أَقْبَحُ مِمَّا يَفْعَلُهُ الشَّابُّ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ قَدْ صَارَ كَبِيرًا فِي السِّنِّ ثُمَّ يَفْعَلُ فِعْلَ الفِتْيَانِ، بَلْ رُبَّمَا الصِّبْيَانِ. قَبِيحٌ بِالشَّابِّ أَنْ يَفْعَلَ أَفْعَالَ الصِّبْيَانِ، وَقَبِيحٌ بِمَنْ كَانَ قَدْ كَبُرَ سِنُّهُ أَنْ يَفْعَلَ أَفْعَالَ أَصْحَابِ الطَّيْشِ أَوْ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الشَّبَابِ فِي وَقْتِ شَبَابِهِمْ.

---

(١) أخرجه البزار في "مسنده" (٢٦٤٠)، والطبراني في "الكبير" (١١١)، والبيهقي في "المدخل" (٤٩٣)، وفي "الشعب" (١٦٤٨)، وغيرهم مرفوعاً، وأخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٤٦٩٤)، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (١٢٠٨)، وغيرهم موقوفاً، قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والرفع هو الصواب لهذه الشواهد. وقد روي من حديث ابن عباس وزاد في آخره: "وعن حبنا أهل البيت". وهو بهذه الزيادة باطل، ولذلك خرجته في الكتاب الآخر (١٩٢٢). "الصحيحة" (٩٤٦)، وحسنه في "صحيح الترغيب" (١٧٢٦)،

وجاء عن أبي برزة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، والبيهقي في "المدخل" (٤٩٤)، وأبو يعلى في "مسنده" (٧٤٣٤)، والدارمي في "سننه" (٥٥٤)، وغيرهم، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٠٠ـ ٢٥٣١)

وجاء عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرجه الترمذي (٢٤١٦)، والبزار في "مسنده" (١٤٣٥)، والطبراني في "الصغير" (٧٦٠)، وغيرهم، وحسنه الألباني بشواهده "الصحيحة" (٩٤٦)، وفي "صحيح الجامع" (٧٢٩٩ـ ٢٥٣٠).

وجاء عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٤٧١٠)، ومن طريقه أبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٥٢٩٢)، وفيه عبد الله بن حكيم أبو بكر الداهري، قال أبو حاتم: ضعيف الحديث، وقال مرة: ذاهب الحديث "الجرح والتعديل" (٥/ ٤١)، يرويه عن محمد بن سعيد الشامي، وهو منكر الحديث، صُلِبَ على الزندقة "تهذيب التهذيب" (٩/ ١٨٥).

وجاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرجه المروزي في "تعظيم قدر الصلاة" (٨٤٧)، وفيه عطية العوفي، ضعيف. "تهذيب التهذيب" (٧/ ٢٢٥).

والذي يجب على الشاب أن يستغل شبابه في طاعة ربه، «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ اعْمَلُوا، فَإِنَّمَا الْعَمَلُ فِي الشَّبَابِ».(١)

❁ قَالَ الْجُنَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ: كَانَ السَّرِيُّ يَقُولُ لَنَا وَنَحْنُ حَوْلَهُ: «أَنَا لَكُمْ عِبْرَةٌ، يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، اعْمَلُوا فَإِنَّمَا الْعَمَلُ فِي الشَّبِيبَةِ».(٢)

وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى، و«المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»(٣) يَفْتَخِرُ بما ليس عندهُ، وَهَكَذَا مَن يُظْهِرُ نَفْسَهُ بِمَظْهَرِ الفَتَى الشَّابِّ، وَهُوَ كَبِيرٌ فِي السِّنِّ وَنَحْوَ ذَلِكَ. لِذَلِكَ نُهِيَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ أَنْ يُظْهِرَ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِمَظْهَرِ الشَّابِّ الجَلِدِ القَوِيِّ وَهُوَ كَبِيرٌ فِي السِّنِّ قد صَارَ ضَعِيفاً هَزِيلاً.

وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ خِضَابِ الشَّعْرِ بِالخِضَابِ الأَسْوَدِ، وَقَالَ: لَا يَجِدُ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، لَا يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الجَنَّةِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّغْرِيرِ وَالتَّشَبُّعِ بِمَا لَمْ يُعْطَ، وَنَحْوَه.

---

(١) أخرجه الخطيب في "اقتضاء العلم العمل" (١٩٠)،عن حفصة بنت سيرين، وفيه محمد بن كثير بن أبي عطاء، ضعفه أحمد جداً، ولينه البخاري، ووثقه ابن معين، وابن سعد، وقال الحافظ: صدوق كثير الغلط. "تهذيب الكمال"(٢٦/٣٣٢)، و"تهذيب التهذيب"(٩/٤١٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٠/١٢٦)، والبيهقي في "الزهد الكبير" (٤٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠)، عن أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وجاء عند مسلم (٢١٢٩)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَكُونُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَخْضِبُونَ بِهَذَا السَّوَادِ - قَالَ حُسَيْنٌ كَحَوَاصِلِ الْحَمَامِ - لَا يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ».

رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ. (١)

❁ قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه للحديث: قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَاهُ الْمُتَكَثِّرُ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ بِأَنْ يَظْهَرَ أَنَّ عِنْدَهُ ما ليس عِنْدَهُ يَتَكَثَّرُ بِذَلِكَ عِنْدَ النَّاسِ وَيَتَزَيَّنُ بِالْبَاطِلِ، فهو مذموم كَمَا يُذَمُّ مَنْ لَبِسَ ثَوْبَيْ زُورٍ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَآخَرُونَ هُوَ الَّذِي يَلْبَسُ ثِيَابَ أَهْلِ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْوَرَعِ؛ وَمَقْصُودُهُ أَنْ يُظْهِرَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِتِلْكَ الصِّفَةِ، وَيُظْهِرَ مِنَ التَّخَشُّعِ وَالزُّهْدِ أَكْثَرَ مِمَّا فِي قَلْبِهِ، فَهَذِهِ ثياب زُورٍ وَرِيَاءٍ وَقِيلَ هُوَ كَمَنْ لَبِسَ ثَوْبَيْنِ لِغَيْرِهِ وَأَوْهَمَ أَنَّهُمَا لَهُ...الخ.

وَجَاءَ فِي مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أُتِيَ بِأَبِي قُحَافَةَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَرَأْسُهُ وَلِحْيَتُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «غَيِّرُوا هَذَا بِشَيْءٍ، وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ». (٢)

يُجَنَّبُ السَّوَادُ لِأَنَّهُ يُظْهِرُ الإِنْسَانَ فِي مَظْهَرِ الشَّابِّ الَّذِي لَا يَزَالُ صَغِيرًا، وَهَذَا لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ.

❁ قَالَ القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد عُلِّل ذلك: بأنه من باب التدليس على النساء. (٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٠)، وأبو داود (٤٢١٢)، والنسائي (٥٠٧٥)، والبيهقي في "الشعب" (٥٩٩٧)، وأبو يعلى في "مسنده" (٢٦٠٣)، وهو في "الصحيح المسند" (٦٣٥) للوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ، وله رسالة بعنوان: (تحريم الخضاب بالسواد).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٠٢).

(٣) "المفهم" (٥/٤١٩).

قَالَ ابْنُ الوَرْدِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعْـتَـزِلْ ذِكْـرَ الأغـاني والـغَـزَلْ ... وقُـلِ الفَصْـلَ وجانـب من هَزَلْ
وَدَعِ الـذِّكْـرَى لأيَّـام الصِّـبَـا ... فَـلأيَّـام الصِّـبـا نَـجْـمٌ أَفَـلْ

قَدْ ذَهَبَ نَجْمُهَا وَغَابَ، فَلَا تفعلْ فِي شَبَابِكَ أَفْعَالَ الصِّبْيَانِ، أَوْ تَتَذَكَّرُ تِلْكَ الذِّكْرَيَاتِ، وَتُضَيِّعُ وَقْتَكَ بها، أَوْ فِي وَقْتِ كِبَرِكَ تَعْمَلُ عملَ الفَتَى الشَّابّ المعرض.

فَلِأَيَّامِ الصِّبَا نَجْمٌ أَفَلَ، وَلِأَيَّامِ الشَّبَابِ نَجْمٌ أَفَلَ، ذَهَبَ وَوَلَّى، وَلَنْ يَعُودَ، غَابَ وَذَهَبَ.

كَمَا قِيلَ:

فَـدَعِ الصِّـبـا فَلَقَـد عَـدَاكَ زَمَـانُـهُ ... وازْهَـدْ فَعُـمْرُكَ مَر مِنـهُ الأَطْيَـبُ
ذهـبَ الشـبـابُ فما لـه من عَوْدَةٍ ... وأتى المشـيـبُ فـأين منه المهربُ
دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ فَاتَ فِي زَمَنِ الصِّـبَا ... وَاذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكِهَا يَا مُذْنِبُ

فَاحْذَرْ أَيُّهَا الشَّابُّ أَنْ تَفْعَلَ فِعْلَ الصِّبْيَانِ، فَأَنْتَ مَسْؤُولٌ عَنْ شَبَابِكَ، فَإِنَّ زَمَنَ الشَّبَابِ هُوَ بَاكُورَةُ الحَيَاةِ، وَهُوَ زَمَنُ القُوَّةِ وَالنَّشَاطِ، فَلَا تُضَيِّعْ وَقْتَكَ بِاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَبِكَثْرَةِ الضَّحِكِ وَالمِزَاحِ، سَوَاءٌ كَانَ بِكُرَةِ القَدَمِ أَوْ بِالجَوَّالَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، تَلْهُو وَتَلْعَبُ. ابْتَعِدْ، صِرْتَ اليَوْمَ شَابًّا مُكَلَّفًا مَسْؤُولًا عَنْ وَقْتِكَ وَعَنْ دَقَائِقِكَ وَلَحَظَاتِكَ. وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى، فَقَبِيحٌ مِنَ الشَّيْخِ أَوِ الكَهْلِ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلَ الفِتْيَانِ وَأَنْ يُجَارِيَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ من الباطل والضياع، بَلِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَزَوَّدَ مِنَ الخَيْرَاتِ وَالطَّاعَاتِ وَالعِبَادَاتِ.

بَعْضُهم رُبَّمَا وَصَلَ عُمْرُهُ إِلَى الأَرْبَعِينَاتِ إِلَى الخَمْسِينَاتِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَإِذَا بِهِ يَفْعَلُ أَفْعَالَ أَهْلِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، أَوْ أَفْعَالَ الطَّائِشِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذَا قَبِيحٌ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ» (١)، وَالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ بِالطَّاعَةِ وَالعِبَادَةِ أَكْثَرَ، وَأَنْ يُقْبِلَ عَلَى الخَيْرِ وَالعِلْمِ وَالذِّكْرِ وَالاسْتِغْفَارِ، فَإِنَّهُ قَادِمٌ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الأَصْلُ أَنَّ مَنْ تَقَدَّمَ بِهِ السِّنُّ عِنْدَهُ مِنَ الرَّزَانَةِ وَالرَّوِيَّةِ وَالتَّأَنِّي مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِ.

❁ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: (٢)

إِنَّ الأُمُـورَ إِذَا الأَحْـدَاثُ دَبَّـرَهَـا ... دُونَ الشُّـيُوخِ تَرَى فِي بَعْضِـهَا خَلَلاَ
إِنَّ الشَّـبَـابَ هُمْ فِي الأَمْرِ مُعَجِّلَـةٌ ... وَلِـلشُّـيُـوخِ أَنَـاةٌ تَـدْفَـعُ الـزَلَـلَ

هَذِهِ العَجَلَةُ تَجِدُهَا عِنْدَ بَعْضِ الشَّبَابِ وَعِنْدَ الصِّغَارِ، وَالعَجَلَةُ هِيَ طَرِيقُ النَّدَامَةِ.

❁ قَالَ ابْنُ حِبَّانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: العجلةُ موكلٌ بها الندم وما عجل أحدٌ إلا اكتسب ندامةً واستفاد مذمةً لأن الزلل مع العجلِ والإقدامُ على العملِ بعد التأني فيه أحزمُ من الإمساكِ عنه بعد الإقدام عَلَيْهِ ولا يكونُ العجولُ محموداً أبدا. (٣)

فاستغل شبابَك وقوتك قبل عجزِك وعجزِ مداركك وقوتِك

يَسُـــرُّ الْفَتَى طُولُ السَّـلَامَةِ وَالْبَقَا ... فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّـلَامَـةِ يَفْعَـلُ
يَرُدُّ الْفَتَى بَعْـدَ اعْتِـدَالٍ وَصِـحَّـةٍ ... يَـنُـوءُ إِذَا رَامَ الْـقِـيَـامَ وَيُحْـمَـلُ (٤)

رُبَّمَا سَقَطَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الكِبَرِ وَيُحْمَلُ. فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَبِرَ بِحَالِهِ وَإِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى هَذِهِ المَرْحَلَة، ولا تكن أعمالُهُ أعمالَ الصبيانِ والفتيان.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٨٠)، (١٧٦٩٨)، والترمذي (٢٣٢٩). "الصحيحة" (١٨٣٦).

(٢) "طبقات الشعراء" لابن المعتز (صـ: ٤٤٣)، "الإنصاف في مسائل الخلاف" (٢/ ٦٣٢).

(٣) "روضة العقلاء" (صـ: ٢١٧).

(٤) "بهجة المجالس" (صـ: ٢٢٤)، "الفتح" (١١/ ٢٣٠)، ونسبه في البهجة إلى النمر بن تولب.

البيت رقم٧٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَنَفْسَكَ ذُمَّ لاَ تَذْمُمْ سِوَاهَا ... لِعَيْبٍ فَهْيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا

شرح البيت رقم ٧٤

وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ: "بِعَيْبٍ".

وَجِّهْ الذَّنْبَ إِلَى نَفْسِكَ قَبْلَ أَنْ توجهه إلى غَيْرِكَ، وَوَجِّهْ العِتَابَ وَاللَّوْمَ إِلَى نَفْسِكَ قَبْلَ غَيْرِكَ، فَكُنْ مُنْصِفًا مَعَ نَفْسِكَ وغيرك، وهذا من الأهمية بمكان أن يكون الشخصُ منصفاً، وسأذكرُ شيئاً من ذلك من باب التذكير والإشارة، عسى اللهُ أن ينفعَ بذلكَ.

❁ قَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الاقْتَارِ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ. عَلَّقَهُ البخاري، وَوَصَلَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَرُوِيَ مَرْفُوعًا، وَلَا يَصِحُّ رَفْعُهُ. (١)

❁ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد جمعَ في هذه الكلمات الثلاث خيراتِ الآخرة والدنيا، فإنَّ الإنصافَ: يقتضي أن يؤدّي إلى الله تعالى جميع حقوقه وما أمره به، ويجتنب جميع ما نهاه

---

(١) أخرجه وكيع في "الزهد" (٢٤١)، ومن طريقه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣١٠٨٠)، وفي "الإيمان" (١٣١)، ومن طريقه أيضاً الخلال في "السنة"(١٦١٥)، وأخرجه البيهقي في "الشعب" (١٠٧٢٦)، موقوفاً، وروي مرفوعا ولا يصح رفعه. قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا الأثر معروف من رواية أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن عمار، رواه عنه الثوري وشعبة وإسرائيل وغيرهم. وروي عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق مرفوعا. خرجه البزار وغيره، **ورفعه وهم**، قال أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان، وتردد أبو حاتم هل الخطأ منسوب فيه إلى عبد الرزاق أو معمر، ومعمر ليس بالحافظ لحديث العراقيين كما ذكر ابن معين وغيره. وقد روي مرفوعا من وجهين آخرين ولا يثبت واحد منهما. وإنما ذكر البخاري قول عمار في باب " إفشاء السلام من الإسلام " لأنه لا يفرق بين الإسلام والإيمان. "فتح الباري" لابن رجب (١/ ١٣٤)

عنه، وأن يؤدي للناس حقوقهم، ولا يطلب ما ليس له، وأن ينصف أيضاً نفسه فلا يوقعها في قبيح أصلاً. وأما بذلُ السلام للعالم: فمعناه لجميع الناس، فيتضمن أن لا يتكبر على أحد، وأن لا يكون بينه وبين أحد جفاء يمتنع بسببه من السلام عليه بسببه.

وأما الإنفاق من الإقتار: فيقتضي كمال الوثوق بالله تعالى والتوكل عليه والشفقة على المسلمين، إلى غير ذلك، نسأل الله تعالى الكريم التوفيق لجميعه.(١)

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ أُصُولَ الْخَيْرِ وَفُرُوعَهُ، فَإِنَّ الْإِنْصَافَ يُوجِبُ عَلَيْهِ أَدَاءَ حُقُوقِ اللَّهِ كَامِلَةً مُوَفَّرَةً، وَأَدَاءَ حُقُوقِ النَّاسِ كَذَلِكَ...وَالْمَقْصُودُ أَنَّ قَوْلَ عمار: ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ، كَلَامٌ جَامِعٌ لِأُصُولِ الْخَيْرِ وَفُرُوعِهِ.(٢)

❁ وَقَالَ الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَيَا لَهَا مِنْ كَلِمَاتٍ مَا أَجْمَعَهَا لِلْخَيْرِ.(٣)

❁ وَقَالَ الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأقول هذه الكلمات جامعة لخصال الإيمان كلها؛ لأنها إما مالية، أو بدنية، والإنفاق، إشارة إلى المالية المتضمنة للوثوق بالله تعالى والزهادة في الدنيا. والبدنية، إما مع الله تعالى، أي: التعظيم لأمر الله، وهو الانصاف، أو مع الناس، أي: الشفقة على خلق الله تعالى، وهو بذل السلام.(٤)

---

(١) "الأذكار" للنووي ت الأرنؤوط (صـ: ٢٤٣).

(٢) "زاد المعاد"(٢/ ٣٧٢ـ٣٧٤).

(٣) "سبل السلام" (٢/ ٦١١).

(٤) "الكواكب الدراري" (١/ ١٣٣). ونقله المناوي في "فيض القدير" (٣/ ٢٩٥)، وعنده، (والإنفاق إشارة إلى المالية المتضمنة للوثوق بالله والزهد في الدنيا والبدنية، إما مع الله وهو التعظيم لأمر الله وإما مع الناس وهو الانصاف والشفقة على الخلق وبذل السلام).

❁ وَقَالَ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت قد جمع رضي الله عنه في هذه الكلمات خيرات الآخرة والدنيا، وعلى هذه مدار الإسلام؛ لأن من أنصف من نفسه، فيما لله تعالى وللخلق عليه ولنفسه من نصيحتها أو صيانتها، فقد بلغ الغاية في الطاعة. (١)

❁ قال أبو الزناد بن سرج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جمع عمار في هذه الألفاظ الثلاث الخير كله، لأنك إذا أنصفته من نفسك، فقد بلغت الغاية بينك وبين خالقك، وبينك وبين الناس، ولم تضيع شيئًا. (٢)

❁ ونقل كلامه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعلق عليه: قَالَ أَبُو الزِّنَادِ بْنُ سِرَاجٍ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا كَانَ مَنْ جَمَعَ الثَّلَاثِ مُسْتَكْمِلًا لِلْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ مَدَارَهُ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا اتَّصَفَ بِالْإِنْصَافِ، لَمْ يَتْرُكْ لِمَوْلَاهُ حَقًّا وَاجِبًا عَلَيْهِ إِلَّا أَدَّاهُ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا مِمَّا نَهَاهُ عَنْهُ إِلَّا اجْتَنَبَهُ، وَهَذَا يَجْمَعُ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ،

وَبَذْلُ السَّلَامِ يَتَضَمَّنُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَالتَّوَاضُعَ وَعَدَمَ الِاحْتِقَارِ، وَيَحْصُلُ بِهِ التَّآلُفُ وَالتَّحَابُبُ وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ يَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْكَرَمِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَنْفَقَ مَعَ الِاحْتِيَاجِ كَانَ مَعَ التَّوَسُّعِ أَكْثَرَ إِنْفَاقًا، وَالنَّفَقَةُ أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ عَلَى الْعِيَالِ وَاجِبَةً وَمَنْدُوبَةً، أَوْ عَلَى الضَّيْفِ وَالزَّائِرِ، وَكَوْنُهُ مِنَ الْإِقْتَارِ يَسْتَلْزِمُ الْوُثُوقَ بِاللَّهِ وَالزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا وَقِصَرَ الْأَمَلِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مُهِمَّاتِ الْآخِرَةِ، وَهَذَا التَّقْرِيرُ يُقَوِّي أَنْ يَكُونَ الْحَدِيثُ مَرْفُوعًا، لِأَنَّهُ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَالله أعلم. (٣)

---

(١) "بستان العارفين" للنووي (صـ: ٣٩).

(٢) كما في "شرح صحيح البخاري" لابن بطال (١/ ٨٤)، و"عمدة القاري" (١/١٩٨).

(٣) "فتح الباري" لابن حجر (١/ ٨٣).

❁ قَالَ ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو من أعز الخصال، ومعناه: أن يعرف الإنسان الحق على نفسه ويوفيه من غير طلب.(١)

❁ قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولكن الإنصاف عقبة كئود، لا يجوزها إلا من فتح الله له أبواب الحق وسهل عليه الدخول منه.(٢)

❁ قَالَ القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: سَمِعْتُ ابْنَ هُرْمُزَ يَقُولُ: يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يُورِثَ جُلَسَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ لَا أَدْرِي حَتَّى يَكُونَ أَصْلًا فِي أَيْدِيهِمْ، فَإِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَمَّا لَا يَدْرِي قَالَ: لَا أَدْرِي.

❁ وَذَكَرَ الْهَيْثَمُ بْنُ جَمِيلٍ قَالَ: شَهِدْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ، سُئِلَ عَنْ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ مَسْأَلَةً فَقَالَ فِي اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ مِنْهَا: لَا أَدْرِي. قُلْتُ: وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَفُقَهَاءِ الْمُسْلِمِينَ. وَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ الرِّيَاسَةُ وَعَدَمُ الْإِنْصَافِ فِي الْعِلْمِ.

❁ قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: مِنْ بَرَكَةِ الْعِلْمِ وَآدَابِهِ الْإِنْصَافُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يُنْصِفْ لَمْ يَفْهَمْ وَلَمْ يَتَفَهَّمْ.

❁ رَوَى يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ وَهْبٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ يقول: ما في زماننا شي أَقَلُّ مِنَ الْإِنْصَافِ.

❁ قُلْتُ: هَذَا فِي زَمَنِ مَالِكٍ فَكَيْفَ فِي زَمَانِنَا الْيَوْمَ الَّذِي عَمَّ فِينَا الْفَسَادُ وَكَثُرَ فِيهِ الطُّغَامُ! وَطُلِبَ فِيهِ العلم للرئاسة لَا لِلدِّرَايَةِ، بَلْ لِلظُّهُورِ فِي الدُّنْيَا وَغَلَبَةِ الْأَقْرَانِ بِالْمِرَاءِ

---

(١) "فتح الباري" لابن رجب (١/ ١٣٥).

(٢) "السيل الجرار" (صـ: ٧٤٢).

وَالْجِدَالِ الَّذِي يُقْسِي الْقَلْبَ وَيُورِثُ الضَّغَنَ، وَذَلِكَ مِمَّا يُحْمَلُ عَلَى عَدَمِ التَّقْوَى وَتَرْكِ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. (١)

طريقة الإنصاف لمن أراد سلوكها

❁ قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أَرَادَ الْإِنْصَاف فليتوهم نَفسه مَكَان خَصمه فَإِن يلوح لَهُ وَجه تعسفه. (٢)

❁ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالْإِنْصَاف: أَنْ تَكْتَال لِمُنَازِعِك بِالصَّاعِ الَّذِي تَكْتَال بِهِ لِنَفْسِك، فَإِنَّ فِي كُلّ شَيْء وَفَاء وَتَطْفِيفًا. (٣)

وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَاَللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ الْإِنْصَافَ، بَلْ هُوَ أَفْضَلُ حِلْيَةٍ تَحَلَّى بِهَا الرَّجُلُ، خُصُوصًا مَنْ نَصَّبَ نَفْسَهُ حَكَمًا بَيْنَ الْأَقْوَالِ وَالْمَذَاهِبِ... (٤)

فانظر لحالك أولاً، وأصلح نفسك، وكن منصفاً مع نفسك، ومع غيرك.

❁ قَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ مُولَعًا بِعُيُوبِ النَّاسِ نَاسِيًا لِعَيْبِهِ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مُكِرَ بِهِ». (٥)

---

(١) "تفسير القرطبي" (١/ ٢٨٦).

(٢) "الأخلاق والسير في مداواة النفوس" (صـ: ٨٢).

(٣) "تهذيب السنن" (١/ ٨٧).

(٤) "إعلام الموقعين" (٣/ ٧٨).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصمت" (١٩٩)، وفي "ذم الغيبة والنميمة" (٦٢)، من طريق الْمُفَضَّلِ بْنِ غَسَّان، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَذَكَرَهُ، ورجاله ثقات. وغسان، مات في سنة تسع عشرة ومائتين. "تاريخ بغداد" (١٤/٢٨٣)، وبكر بن عبد الله، مات سنة ست ومئة، وقيل: مات سنة ثمان ومئة. "تهذيب الكمال" (٤/٢١٨). فهو منقطع.

❁ كَمَا قِيلَ:

قَبِيحٌ مِن الإِنْسَـــانِ يَنْسَـى عُيُوبَـهُ ... وَيَـذْكُرْ عَيْبًـا فِي أَخِيـهِ قَـدْ اخْتَفَى
وَلَوْ كَـانَ ذَا عَقْـلٍ لَمَـا عَـابَ غَيْرَهُ ... وَفِيـهِ عُيُوبٌ لَوْ رَآهَـا بِهَـا اكْتَفَى

❁ وقال آخر:

وَمَطْرُوفَـةٍ عَيْنَـاهُ عَنْ عَيْـبِ نَفْسِـــهِ ... وَإِنْ بَانَ عَيْبٌ مِنْ أَخِيهِ تَبَصّـــــرَا

❁ ويقولُ آخر:

وتـعـذِر نـفسَـــك إذا مـا أسـاتَ ... وغـيرَك بـالـعـذرِ لا تـعـذِر
أَتَبُصـــرُ فِي الْعَيْنِ مِنّيْ الْقَذَا ... وَفِي عَيْنِكَ الْجِذْعُ لا تُبْصـــرُ[1]

❁ وَقَالَ محمدُ بنُ سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُنَّا نُحَدِّثُ أَنَّ أَكْثَرَ، النَّاسِ خَطَايَا، أَفْرَغُهُمْ لِذِكْرِ خَطَايَا النَّاسِ».[2]

وأخرجه أيضاً في "مدارة الناس" (١٤٤)، من طريق مُحَمَّدِ بْنِ بَشِيرٍ، حَدَّثَنَا جُمَيْعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْهُجَيْمِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ مُوكَلًا بِذُنُوبِ النَّاسِ، نَاسٍ لِذُنُوبِهِ، فاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مُكِرَ بِهِ»، ومحمد بن بشير، فيه ضعف، قال يحيى بن معين: ليس بثقة. وقال الدارقطني: ليس بالقوي في حديثه. وقال البغوي: صدوق" لسان الميزان"(٥/٩٤)، وقال الذهبي: جائز الحديث. "تاريخ الإسلام" (٥/٩٠٩). وجميع هذا الذي يظهر أنه ابن عبد العزيز كما في ترجمة عبد الله بن بكر من "تهذيب الكمال" (١٤/٣٤٤)، ولم أقف له على ترجمة.

(١) "عيون الأخبار" (٣/١١٤).

(٢) صحيح، أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصمت" (١٣٨)، حَدَّثَنِي الْعَبَّاسُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْوَلِيدِ، قَالَ: سَمِعْتُ الْفَضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، فذكره، العباس بن جعفر بن عبد الله بن الزبرقان، قال أبو حاتم: صدوق، ووثقه ولده، وغيره، "تهذيب الكمال" (١٤/٢٠٤). وهاشم بن الوليد بن خالد أبو طالب الهروي، قال الخطيب: وكان ثقة. "تاريخ بغداد" (١٦/١٠١). وبقية رجاله ثقات.

❁ قَالَ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَا أَحْسِبُ الرَّجُلَ يَنْظُرُ فِي عُيُوبِ النَّاسِ إِلَّا مِنْ غَفْلَةٍ قَدْ غَفَلَهَا عَنْ نَفْسِهِ».(١)

❁ قَالَ زَكَرِيَّا بْنُ أَبِي خَالِدٍ: قَالَ رَجُلٌ: " تَعَبَدْتُ بِبَيْتِ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ:(٢)

لِنَفْسِي أَبْكِي لَسْتُ أَبْكِي لِغَيْرِهَا ... لِنَفْسِي فِي نَفْسِي عَنِ النَّاسِ شَاغِلُ

❁ وقال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الوَاجِبُ عَلَى العَاقِلِ لُزُومُ السَّلَامَةِ بِتَرْكِ التَّجَسُّسِ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، مَعَ الاشْتِغَالِ بِإِصْلَاحِ عَيْبِ نَفْسِهِ، فَإِنَّ مَنْ اشْتَغَلَ بِعُيُوبِهِ عَنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ أَرَاحَ بَدَنَهُ وَلَمْ يُتْعِبْ قَلْبَهُ، فكلَّما اطلَّع على عيبِ نفسِهِ هَانَ عليه ما يَرَى مثله من أخيه، وإنَّ من اشتغل بعيوبِ الناسِ عن عيوبِ نفسِهِ عمي قلبُهُ وتَعِبَ بَدنُهُ وتعذَّر عليه ترك عيوب نفسه. وإن من أعجز الناس من عاب الناسَ بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه. من عاب الناس عابوه.(٣)

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التجسُّس من شعب النفاق، كما أنَّ حسنَ الظنِّ من شعب الإيمان،

---

(١) حسن، أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصمت"(٧٤٦)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٨٨/٤٧)، من طريقِ فَضْل بْنِ إِسْحَاق، حَدَّثَنَا أَبُو قُتَيْبَةَ، عَنِ الْمَسْعُودِيِّ، عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فذكره، وأبو قتيبة هو سلم بن قتيبة

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في "محاسبة النفس" (١٠٤)، ومن طريقه البيهقي في "الشعب" (٧١٥٧)، وفيه محمد بن الحسين، وهو البرجلاني. قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أرجو أن يكون لا بأس به، ما رأيت فيه توثيقا، وَلا تجريحا، لكن سئل عنه إبراهيم الحربي فقال: ما علمت إلا خيرا... وقد ذكره ابنُ حِبَّان في الثقات.. كان صاحب حكايات ورقائق. وقال ابن أَبِي حاتم، عَن أبيه: ذكر لي أن رجلا سأل أحمد بن حنبل عن شيء من حديث الزهد فقال: عليك بمحمد بن الحسين البرجلاني. "لسان الميزان" (١٣٧/٥).

وذكر ابنُ عساكر هذا البيت عن بكار بن قتيبة "تاريخ دمشق"(٣٧١/١٠).

(٣) "روضة العقلاء" (صـ:١٣٧).

والعاقل يحسن الظنَّ بإخوانه، وينفرد بغمومه وأحزانه كما أنَّ الجاهلَ يسيء الظنَّ بإخوانه، ولا يُفكر في جناياته وأشجانه.(١)

❁ قال أَبُو حاتم بن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الواجب على العاقل مباينة العام في الأخلاق والأفعال بلزوم ترك التجسس عَن عيوب الناس؛ لأن من بحث عَن مكنون غيره بحث عَن مكنون نفسه، وربما طم مكنونه على مَا بحث من مكنون غيره، وكيف يستحسن مسلمٌ ثلب مسلم بالشيء الذي هو فيه.

❁ وأنشدني المنتصر بْن بلال الأنصاري:

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا ... فيهتك الناس سترا من مساويكا

واذكر محاسن مَا فيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحدا عيبا بما فيكا(٢)

❁ وَقَالَ بعضُهم:

إذَا أنتَ عِبْتَ الناسَ عَابُوا وأكثَرُوا ... عليك وأبدَوْا منكَ ما كان يُستَرُ

وقدْ قالَ في بعضِ الأقاويلِ قائلٌ ... لـه منطقٌ فيهِ كلامٌ محبَّرُ

إذا ما ذكرتَ الناسَ فاتركْ عيوبَهُمْ ... فلا عيبَ إلا دُونَ ما مِنكَ يُذكرُ

فإنْ عبتَ قومًا بالذي ليسَ فيهمُ ... فذلك عندَ اللهِ والناسِ أكبرُ

وإنْ عِبْتَ قومًا بالذِي فيكَ مِثْلُهُ ... فكيفَ يعيبُ العُورَ مَن هُو أعْورُ

وكيفَ يعيبُ الناسَ مَن عيبُ نفسِهِ ... أشَدُّ إذا عَدَّ العيوبَ وأنكرُ

متَى تلتمِسْ للناسِ عيبًا تجِدْ هُمُ ... عيُوبًا لكِنِ الذي فيكَ أكثرُ

---

(١) "روضة العقلاء"(صـ:١٢٦).

(٢) "روضة العقلاء"(صـ: ١٢٨).

فســـالمْهُمْ بـالكَفِّ عنهم فـإنهم بعيبِكَ مِن عَيْنَيْكَ أَهْدَى وأبصـرُ[١]

❁ قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَفَى بِالْمَرْءِ خِيَانَةً أَنْ يَكُونَ أَمِينًا لِلْخَوَنَةِ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ شَرًّا أَنْ لَا يَكُونَ صَالِحًا وَيَقَعُ فِي الصَّالِحِين».[٢]

عَجِبْت لِمَنْ يَبْكِي عَلَى مَوْتِ غَيْرِهِ دُمُوعًا وَلَا يَبْكِي عَلَى مَوْتِهِ دَمَا
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنْ يَرَى عَيْبَ غَيْرِهِ عَظِيمًا وَفِي عَيْنَيْهِ عَنْ عَيْبِهِ عَمَى[٣]

فَهَذَا قَبِيحٌ بِالإِنْسَانِ أَنْ يَتَنَاسَى مَا عِنْدَهُ مِنَ العُيُوبِ، وَيَذْكُرَ عُيُوبَ إِخْوَانِهِ، مَعَ أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ أَحْيَانًا مَخْفِيَّةً غَيْرَ ظَاهِرَةٍ، وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ رَاجِحٍ وَرَزَانَةٍ لَمَا عَابَ غَيْرَهُ، وَنَسِيَ مَا بِهِ مِنْ عُيُوبٍ، فَيَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ أَوَّلًا.

وَللأسفِ أَنَّ البَعْضَ منهم إِذَا اخْتَلَفَ مَعَ أَخِيهِ فِي شَيْءٍ، يُخْرِجُ عَلَيْهِ مَا فِيهِ وَزِيَادَة. الإِنْسَانُ لَا يَخْلُو مِنْ عَيْبٍ، مِنَ الأَخْطَاءِ وَمِنَ المَعَاصِي، كَمَا فِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ».[٤]

---

(١) أكثر هذه الأبيات في "تاريخ دمشق" (٥١/٢٦١)، وكاملة في "روضة العقلاء" (١٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في "الزهد" (١٨٨٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢/٣٧٣)، والبيهقي في "الشعب" (٨٩٨٤)، وأخرجه بتمامه ابن حمكان في "الفوائد والأخبار" (٩٥)، وابن الجوزي في "القصاص" (١٢٣)، كلهم من طريق سَيَّار، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكًا، فذكره. وسيار بن حاتم، رجح الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الصحيح المسند" ضعفه، وجعفر بن سليمان وإن كان من رجال الصحيح إلا أن فيه ضعف، وغالب ما أخرج له عن ثابت. قال الحاكم: في أحاديثه بعض المناكير. وقال العقيلي: أحاديثه مناكير. "التهذيب" (٤/٢٩٠). وقال ابن المديني: أكثر عن ثابت، وبقية أحاديثه مناكير. (٢/٩٧).

(٣) "الفروع ومعه تصحيح الفروع" لابن مفلح (٣/٤٠٠).

(٤) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وَلَا مَعْصُومَ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ.

❁ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ النَّضْرِ: ذُكِرَ رَجُلٌ عِنْدَ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ فَقَالَ: «مَا أَنَا عَنْ نَفْسِي بِرَاضٍ فَأَتَفَرَّغَ مِنْهَا إِلَى ذَمِّ غَيْرِهَا، إِنَّ الْعِبَادَ خَافُوا اللهَ عَلَى ذُنُوبِ غَيْرِهِمْ وَأَمِنُوهُ عَلَى ذُنُوبِ أَنْفُسِهِمْ». (١)

قَدْ جَاءَ حَدِيثٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعاً: «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيوبِ النَّاسِ، وَأَنْفَقَ مَالًا كَسِبَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ، وَجَانَبَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَعْصِيَةِ، طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، طُوبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ وَلَمْ يُعِدْهَا إِلَى الْبِدْعَةِ». (٢)

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "محاسبة النفس"(١٠٣)، ومن طريقه البيهقي في "الشعب" (٧١٥٦)، وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٨/ ٢٢٠)، من طريق محمد بن النضر الحارثي، سكت عنه البخاري، وابن أبي حاتم، وذكره ابن حبان في ((الثقات)) وقال: (من عُبَّاد أهل الكوفة، وقرائهم، والحافظين ألسنتهم في أحوالهم، وأوقاتهم، ما له حديث مسند يرجع إليه، إنما له الحكايات في الرقائق). "المعجم الصغير لرواة الطبري" (٢/ ٥٣٤). قَالَ بن مهْدي: مَا رَأَيْت مثله فِي الصّلاح. "العلل" لأحمد (٢/ ٣٣٠).

(٢) قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: أخرجه ابن عدي في "الكامل" (١/ ٣٨٤)، وعنه البيهقي في "الشعب" (٧/ ٣٥٥)، والديلمي (٢/ ٢٦١) عن محمد بن الحسن بن قتيبة: حدثنا محمد ابن [أبي] السري: حدثنا عبد العزيز بن عبد المجيد: حدثنا أبان، عن أنس مرفوعاً. قلت: وهذا إسناد ضعيف جداً؛ أبان هو ابن أبي عياش؛ متروك. وابن أبي السري - وهو محمد بن المتوكل أبو عبد الله بن أبي السري -؛ ضعيف من قبل حفظه. "الضعيفة" (٣٨٣٥)، وأخرجه البزار في "مسنده" (٦٢٣٧)، وقال الصنعاني: موضوع. "الفوائد المجموعة" (صـ: ٢٥٦)، وجاء عن عائشة، وعن الحسن بن علي، وعن جابر وعن ركب المصري وغيرهم رضي الله عنهم. وانظر "الموضوعات" لابن الجوزي (٣/ ١٧٨)، و "اللآلىء المصنوعة" (٢/ ٣٠٠) للسيوطي.

وجَاءَ عَنْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ».(١)

❁ وَجَاءَ عَنْ الْحَسَنَ رَحِمَهُ اللَّهُ أنهُ قال: «يَا ابْنَ آدَمَ، تُبْصِرُ الْقَذَى فِي عَيْنِ أَخِيكَ، وَتَدَعُ الْجِذْلَ مُعْتَرِضًا فِي عَيْنِكَ».(٢)

❁ قال الجوهري: الجِذْلُ، واحد الأَجْذالِ، وهي أصول الحطَب العظامُ.(٣)

❁ قَالَ ابنُ الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: بِالْكَسْرِ والفَتْح: أصلُ الشَّجرة يُقْطع، وَقَدْ يُجْعل العُود جِذْلًا.(٤)

❁ قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ:

يَا وَاعِظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْت مُتَّهَمًا ... إذْ عِبْت مِنْهُمْ أُمُورًا أَنْتَ آتِيهَا
كَالْمُلْبِسِ الثَّوْبَ مِنْ عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ ... لِلنَّاسِ بَادِيَةٌ مِنْ أَنْ يُوَارِيهَا
وَأَعْظَمُ الْإِثْمِ بَعْدَ الشِّرْكِ تَعْلَمُهُ ... فِي كُلِّ نَفْسٍ عَمَاهَا عَنْ مُسَاوِيهَا
عِرْفَانُهَا بِعُيُوبِ النَّاسِ تُبْصِرُهَا ... مِنْهُمْ وَلَا تُبْصِرُ الْعَيْبَ الَّذِي فِيهَا(٥)

---

(١) صحيح، أخرجه ابن المبارك في "الزهد والرقائق" (٢١٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٥٧٦١)، وأبو نعيم في "الحلية" (٤/٩٩) والقضاعي في "مسند الشهاب" (٦١٠)، من طريق جَعْفَرِ بْنِ بُرْقَانَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعاً، وروي موقوفاً، ورجح الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ الرفع. "الصحيحة" (٣٣).

(٢)صحيح، أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (٢١١)، وابن أبي شيبة في "المصنف"(٣٥٢٩٠)، (٣٥٦٣٣)، وأحمد في "الزهد"(١٦٤٨).

(٣) "الصحاح"(٤/ ١٦٥٤).

(٤) "النهاية"(١/ ٢٥١).

(٥) "جامع بيان العلم" (١١٨٠)، (١/٦٧١)، و (٢١٧٤). وعنده أن أبا العتاهية قالها في منصور بن عمار، وذكر ابن مفلح أنه قالها فِي ابْنِ السَّمَّاكِ الْوَاعِظِ. "الآداب الشرعية" (١/١٨٥).

وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَتَبُّعِ العَوْرَاتِ، عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ» فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَلِمَةٌ سَمِعَهَا مُعَاوِيَةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا».(١) فَإِذَا سَمِعَ الإِنْسَانُ مِثْلَ هَذِهِ الأحاديث وَنَحْوَهَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْتَفِعَ بِذَلِكَ.

وَهَذَا مَعْلُومٌ مُشَاهَدٌ أَنَّ مَنْ تَتَبَّعَ العَوْرَاتِ يُفْسِدُ أَوْ يَكَادُ أَنْ يُفْسِدَ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يُفْسِدُهُمْ، وَيُفْسِدُ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَوْ يَكَادُ، يُفْسِدُ عَلَى النَّاسِ مَعَايِشَهُمْ وَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ، لَا سِيَّمَا مَعَ عَدَمِ الِالْتِزَامِ بِالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَقَالَ أَبُو الْحَارِثِ: سَمِعْت أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (أحمد بن حنبل) غَيْرَ مَرَّةٍ يَقُولُ: مَا تَكَلَّمَ أَحَدٌ فِي النَّاسِ إِلَّا سَقَطَ وَذَهَبَ حَدِيثُهُ قَدْ كَانَ بِالْبَصْرَةِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الْأَفْطَسُ كَانَ يَرْوِي عَنْ الْأَعْمَشِ وَالنَّاسِ، وَكَانَتْ لَهُ مَجَالِسُ وَكَانَ صَحِيحَ الْحَدِيثِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَا يَسْلَمُ عَلَى لِسَانِهِ أَحَدٌ فَذَهَبَ حَدِيثُهُ وَذِكْرُهُ.

وَقَالَ فِي رِوَايَةِ الْأَثْرَمِ وَذَكَرَ الْأَفْطَسَ وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَمَةَ قَالَ: إِنَّمَا سَقَطَ بِلِسَانِهِ فَلَيْسَ نَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُهُ.ا.هـ.(٢)

❁ قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا تَكَلَّمَ فِي النَّاسِ وَعَابَهُمْ إِلَّا سَقَطَ. وَهَذَا كَلَامٌ جَمِيلٌ مِنَ الإِمَامِ أَحْمَدَ. ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ عن الميانجي فِي "أَمَالِيهِ".

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٨٨).

(٢) كما في "الآداب الشرعية" لابن مفلح (٢/ ١٤٠).

❁ وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ: كُنْتُ عِنْدَ إِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ تَخَوَّفْتُ إِنْ قُمْتُ مِنْ عِنْدِهِ أَنْ يَقَعَ فِيَّ، قَالَ: فَجَلَسْتُ حَتَّى قَامَ، فَلَمَّا ذَكَرْتُهُ لِإِيَاسٍ، قَالَ: فَجَعَلَ يَنْظُرُ فِي وَجْهِي فَلَا يَقُولُ لِي شَيْئًا حَتَّى فَرَغْتُ، فَقَالَ لِي: " أَغَزَوْتَ الدَّيْلَمَ؟ " قُلْتُ: لَا. قَالَ: " فَغَزَوْتَ السِّنْدَ؟ " قُلْتُ: لَا. قَالَ: " فَغَزَوْتَ الْهِنْدَ؟ " قُلْتُ: لَا. قَالَ: " فَغَزَوْتَ الرُّومَ؟ " قُلْتُ: لَا. قَالَ: " فَسَلِمَ مِنْكَ الدَّيْلَمُ، وَالسِّنْدُ، وَالْهِنْدُ، وَالرُّومُ وَلَيْسَ يَسْلَمُ مِنْكَ أَخُوكَ هَذَا " فَلَمْ يَعُدْ سُفْيَانُ إِلَى ذَلِكَ.(١)

وَسُبْحَانَ اللَّهِ، كَانَتْ تُؤَثِّرُ فِيهِمُ الْمَوَاعِظُ وَالنَّصَائِحُ، أَمَّا الْيَوْمَ فَرُبَّمَا بَعْضُهُمْ يَسْمَعُ عَشَرَاتِ الْخُطَبِ وَالْمُحَاضَرَاتِ، بَلْ رُبَّمَا يَكُونُ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ وَيَحْفَظُهَا بِنَفْسِهِ وَرُبَّمَا يَخْطُبُ بِهَا وَيُحَاضِرُ بِهَا، وَإِذَا بِهِ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ عِيَاذًا بِاللَّهِ.

❁ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَدْرَكْتُ بِهَذِهِ الْبَلْدَةِ -يَعْنِي الْمَدِينَةَ- أَقْوَامًا لَمْ تَكُنْ لَهُمْ عُيُوبٌ، فَعَابُوا النَّاسَ فَصَارَتْ لَهُمْ عُيُوبٌ. وَأَدْرَكْتُ بِهَا أَقْوَامًا لَهُمْ عُيُوبٌ، فَسَكَتُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ فَنُسِيَتْ عُيُوبُهُمْ.(٢)

---

(١) أخرجه الفسوي في "المعرفة والتاريخ" (٢/٩٥)، ومن طريقه البيهقي في "الشعب" (٦٣٥١)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق"(١٠/١٨)، والمزي في "تهذيب الكمال"(٣/٤١٢)، من طريق سُلَيْمَان بْنِ حَرْبٍ، نا عُمَرُ بْنُ عَلِيُّ بْنُ مُقَدَّمٍ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ حُسَيْنٍ، فذكره، وسنده حسن إن شاء الله، عمر بن علي من رجال الصحيحين، وكان يدلس.

قال الذهبي: قُلْتُ: قَدِ احْتَمَلَ أَهْلُ الصِّحَاحِ تَدْلِيْسَهُ، وَرَضُوا بِهِ. "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (٨/ ٥١٤).

وقال الحافظ: أثنى عَلَيْهِ أَحْمد، وبن معِين وَغَيرهمَا، وعابوه بِكَثْرَة التَّدْلِيس، وَأما أَبُو حَاتِم فَقَالَ: لَا يحْتَج بِهِ. وَأوردهُ بن عدي فِي الْكَامِل، **وَلم أر لَهُ فِي الصَّحِيح إِلَّا مَا توبع عَلَيْهِ وَاحْتج بِهِ الْبَاقُونَ**. "مقدمة الفتح"(صـ:٤٣١).

(٢) أخرجه الحميدي في "التذكرة" (١٠)، (صـ:٣٨١)، بسندٍ حسن. وأخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في "عيوب النفس" (صـ: ١٢)، قَالَ سَمِعت مُحَمَّد بن عبد الله بن شَاذان يَقُول سَمِعت: زَاذَان المدايني. ومحمد بن عبد الله،

وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ». جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١)، وَجَاءَ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢)، وَجَاءَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣)، وَجَاءَ عِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ، عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عند الترمذي، وغيره، (٤) وَجَاءَ عَنْ غيرهم.

إِذَا شِئْتَ أَن تَحْيَا ودينُك سالِمٌ ... وحظُّك موفورٌ وعِرْضُكَ صَيِّنُ
لِسَانُك لَا تَذكرْ بِهِ عَورة امرئٍ ... فكلك عوراتٌ وللناسِ ألسُنُ
وعينُك إن أبدتْ إليكَ مساوئًا ... فصُنْها، وقل يا عينُ للناس أعين (٥)

❁ ويُنسَبُ لِلشافِعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَا هَاتِكًا حُرَمَ الرِّجَالِ وَتَابِعًا ... طُرُقَ الفَسَادِ عِشْتَ غَيرَ مُكَرَّمِ
لَو كُنتَ حُرًّا مِن سُلَالَةِ مَاجِدٍ ... مَا كُنتَ هَتَّاكًا لِحُرمَةِ مُسْلِمِ
مَن يَزْنِ فِي قَومٍ بِأَلفَيْ دِرْهَمٍ ... فِي أَهْلِهِ يُزْنَى بِرُبُعِ الدِّرْهَمِ

قَالَ الذهبي: صاحب تيك الحكايات المنكرة. روى عنه الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي أوابد وعجائب. وهو متهم. طعن فيه الحاكم... وقال الحاكم: انتسب إلى محمد بن أيوب، ومحمد لم يعقب، قال: فأتيته وزجرته فانزجر. "الميزان" (٣/٦٠٦). وأخرجه الديلمي في "مسند الفردوس" عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَانَ بِالْمَدِينَةِ أَقوام لَهُم عُيُوب فَسَكَتُوا عَن عُيُوب النَّاس فأسكت الله النَّاس عَنْهُم عيوبهم فماتوا وَلَا عُيُوب لَهُم وَكَانَ بِالْمَدِينَةِ أَقوام لَا عُيُوب لَهُم فتكلموا فِي عُيُوب النَّاس فأظهر الله عيوبا لَهُم فَلم يزَالُوا يعْرفُونَ بهَا إِلَى أَن مَاتُوا. قال السخاوي في "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ": ومن العجيب إيراد الديلمي، بسنده له في مسنده، عن ابن عمر مرفوعاً.

(١) رواه البخاري (١٠)، (٦٤٨٤)، ومسلم (٤٠).

(٢) رواه مسلم (٤١).

(٣) رواه البخاري (١١)، مسلم (٤٢).

(٤) رواه أحمد (٢٣٩٦٧)، وفيه رشْدِينُ بْنُ سَعْد، وقد توبع عنده (٢٣٩٥٨). وأبي هريرة، عند الترمذي (٢٦٢٧).

(٥) "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" (٥/ ٣٢٥).

إِنَّ الـزِّنَـا دَيْـنٌ فَـإِنْ أَقْـرَضْـتَـهُ كَـانَ الوَفَا مِنْ أَهلِ بَيتِكَ فَاعْلَم[١]

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ خَيْرًا بَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ، فَمَنْ كَانَتْ لَهُ بَصِيرَةٌ لَمْ تَخْفَ عَلَيْهِ عُيُوبُهُ، وَإِذَا عَرَفَ العُيُوبَ أَمْكَنَهُ العِلَاجُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ جَاهِلُونَ بِعُيُوبِهِمْ، يَرَى أَحَدُهُمُ القَذَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَلَا يَرَى الجِذْعَ فِي عَيْنِهِ.[٢] كَالمَرِيضِ الَّذِي يَذْهَبُ عِنْدَ الأَطِبَّاءِ. حِينَ لَا يَهْتَدِي لِمَرَضِهِ يَتْعَبُ، لَكِنْ إِذَا عَرَفَ المَرَضَ يُمْكِنُ بَعْدَ ذَلِكَ العِلَاجُ.

وَلَا يُخْلطُ بَيْنَ تَتَبُّعِ العُيُوبِ وَذَمِّ النَّاسِ بِعُيُوبِهِمْ، وَبَيْنَ مَسْأَلَةِ الجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

فَالجَرْحُ وَالتَّعْدِيلُ أَصْلٌ أَصِيلٌ دَلَّتْ عَلَيْهِ أَدِلَّةُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالعَدْلِ وَالإِنْصَافِ مَعَ التَّقْوَى وَالوَرَعِ وَالخَوْفِ وَالخَشْيَةِ. فَإِنَّ هَذَا لَهُ أَهْلُهُ، وَلَهُ كَذَلِكَ عُلَمَاءُ أَجِلَّاءُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

فَفَرْقٌ بَيْنَ تَتَبُّعِ العَوْرَاتِ وَتَتَبُّعِ المَسَاوِئِ وَالزَّلَّاتِ، وَبَيْنَ الجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

فَبِالجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ تُصَانُ العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ، وَيُصَانُ المَنْهَجُ القَوِيمُ.

بِالجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ يُحَافَظُ عَلَى الدِّينِ، وَعَلَى المَبَادِئِ الإِسْلَامِيَّةِ الغَرَّاءِ.

يُحَافَظُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَعَلَى سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، يُحَافَظُ عَلَى سِيرِ السَّلَفِ، يُحَافَظُ كَذَلِكَ عَلَى الأَفْهَامِ الصَّحِيحَةِ لأَدِلَّةِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

يُحَذِّرُ النَّاسَ مِنِ اتِّبَاعِ الهَوَى وَالضَّلَالِ وَأَهْلِ البِدَعِ وَالخُرَافَاتِ.

فَهَذَا أَصْلٌ أَصِيلٌ لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ ذَوِي الهَوَى.

وَلَا يَصْلُحُ الخَلْطُ بَيْنَ تَتَبُّعِ العُيُوبِ، وَمَنْهَجِ الجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

---

(١) كما في الديوان المنسوب إليه، ونسبها العجلوني للعلامة المقري كما في "كشف الخفاء" (١٧٣٧)، (٢/ ٧١).

(٢) "مختصر منهاج القاصدين" (صـ:١٥٦).

وَأَهْلُ السُّنَّةِ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى هَذَا المَنْهَجِ بِغيرِ خَلْطٍ وَلَا لَبْسٍ وَلَا تَلاعُبٍ، هَذَا هُوَ الأَصْلُ، وَلَا عِبْرَةَ بَمن يَخْلِطُ بينَ هذا وهَذَا. وَقَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِعُلَمَاء أَجِلَّاء يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الأَبْوَابِ، وَنَحْوِهَا.

والتحلي بالإنصاف عزيز جدا

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتعرَّ مِن ثوبَين مَنْ يلبسُهُمَا ... يلقَ الرَّدَى بمذَمَّةٍ وهَوَان

ثوبِ مِنَ الجَهْلِ المُرَكَّبِ فَوْقَهُ ... ثَوْبُ التَّعَصُّبِ بِئْسَتِ الثَّوْبَانِ

وَتَحَلَّ بالإِنْصَافِ أَفْخَرَ حُلَّةٍ ... زِيْنَتْ بِهَا الأَعْطَافُ والكَتِفَانِ

واجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ مَعْ ... نُصْحِ الرسول فَحَبَذَا الأَمْرَانِ

وتَمَسَّكَنَّ بحَبْلِهِ وبِوَحْيِهِ ... وَتَوَكَّلَنَّ حَقِيْقَةَ التُّكْلَانِ

ومن باب الفائدة عموماً، وتتمة لما سبق: قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَاعْلَم أَن سَبَب الْخُرُوج عَن دَائِرَة الْإِنْصَاف، والوقوع فِي موبقات التعصب كَثِيرَة جدا فَمِنْهَا:

ـ **النشوء فِي بلد متمذهب بِمذهب معِين**، وَهُوَ أَكْثرهَا وقوعا وأشدها بلَاء أَن ينشأ طَالب الْعلم فِي بلد من الْبلدَانِ الَّتِي قد تمذهب أَهلهَا بِمذهب معِين وَاقْتَدوا بعالم مَخْصُوص، وَهَذَا الدَّاء قد طبق فِي بِلَاد الْإِسْلَام وَعم أَهلهَا، وَلم يخرج عَنهُ إِلَّا أَفْرَاد، قد يُوجد الْوَاحِد مِنْهُم فِي الْمَدِينَة الْكَبِيرَة، وَقد لَا يُوجد؛ لِأَن هَؤُلَاءِ الَّذين ألفوا هَذِه الْمذَاهب قد صَارُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا هِيَ الشَّرِيعَة وَأَن مَا خرج عَنْهَا خَارج عَن الدّين مباين لسبيل الْمُؤمنِينَ...

ـ **حب الشّرف وَالْمَال**، وَمن جملَة الْأَسْبَاب الَّتِي يتسبب عَنْهَا ترك الْإِنْصَاف ويصدر عَنْهَا الْبعد عَن الْحق وكتم الْحجَّة وَعدم مَا أوجبه الله من الْبَيَان حب الشّرف وَالْمَال اللَّذين هما أعدى على الْإِنْسَان من ذئبين ضاريين...

ـ **الْجِدَال والمراء وَحب الِانْتِصَار والظهور**.

ـ حب الْقَرَابَة والتعصب للأجداد.

ـ صعوبة الرُّجُوع إِلَى الْحق الَّذِي قَالَ بِخِلَافِهِ.

ـ أَن يكون المنافس الْمُتَكَلّم بِالْحَقِّ صَغِير السن أَو الشَّأْن، وَمن الْآفَات الْمَانِعَة عَن الرُّجُوع إِلَى الْحق، أَن يكون الْمُتَكَلّم بِالْحَقِّ حدث السن، بِالنِّسْبَةِ إِلَى من يناظره، أَو قَلِيل الْعلم أَو الشُّهْرَة فِي النَّاس، وَالْآخر بعكس ذَلِك؛ فَإِنَّهُ قد تحمله حمية الْجَاهِلِيَّة والعصبية الشيطانية على التَّمَسُّك بِالْبَاطِلِ أَنَفَة من الرُّجُوع إِلَى قَول من هُوَ أَصْغَر مِنْهُ سنا، أَو أقل مِنْهُ علما، أَو أخْفى شهرة ظنا مِنْهُ أَن فِي ذَلِك عَلَيْهِ مَا يحط مِنْهُ وَينْقص مَا هُوَ فِيهِ.

وَهَذَا الظَّن فَاسد، فَإِن الْحَط وَالنَّقْص، إِنَّمَا هُوَ فِي التصميم على الْبَاطِل والعلو والشرف فِي الرُّجُوع إِلَى الْحق بيد من كَانَ وعَلى أَي وَجه حصل.

ـ وَمن الْآفَات مَا يَقع تَارَة من الشُّيُوخ وَأُخْرَى من تلامذتهم فَإِن الشَّيْخ قد يُرِيد التظهر لمن يَأْخُذ عَنهُ بِأَنَّهُ بِمحل من التَّحْقِيق وبمكان من الإتقان فيحمله ذَلِك على دفع الْحق إِذا سبق فهمه إِلَى الْبَاطِل لِئَلَّا يظنّ من يَأْخُذ عَنهُ أَنه يُخطئ ويغلط، وَهُوَ لَو عرف مَا عِنْد ذَلِك الَّذِي يَأْخُذ عَنهُ الْعلم أَن رُجُوعه عَن الْخَطَأ إِلَى الصَّوَاب، أعظم فِي عينه وَأجل عِنْده وزاده ذَلِك رَغْبَة فِيهِ ومحبة لَهُ وَإِذا اسْتمرّ على الْغَلَط وصمم على الْخَطَأ كَانَ عِنْده دون منزلَة الرُّجُوع إِلَى الْحق بمنازل، وَهَكَذَا التلميذ قد يخْطر بِبَالِهِ التزين لشيخه والتجمل عِنْده، بِأَنَّهُ قوي الْفَهم، سريع الْإِدْرَاك، صَادِق التَّصَوُّر؛ فيحمله ذَلِك على الْوُقُوف على مَا قد سبق إِلَى ذهنه من الْخَطَأ والتشبث بِمَا دفع لَهُ من الغلط.

ـ وَمن جملَة أَسبَاب التعصب الَّتِي لَا يشْعر بهَا كثير من المشتغلين بالعلوم مَا يذكرهُ كثير من المصنفين من أَنه يرد مَا خَالف الْقَوَاعِد المقررة...

ـ وَمن الْأَسْبَاب الْمَانِعَة من الْإِنْصَاف مَا يَقع من المنافسة بَين المتقاربين فِي الْفَضَائِل أَو فِي الرِّئَاسَة الدِّينِيَّة أَو الدُّنْيَوِيَّة، فَإِنَّهُ إِذا نفخ الشَّيْطَان فِي أنفهما وترقت المنافسة بلغت إِلَى حد

يحمل كل وَاحِد مِنْهُمَا على أَن يرد مَا جَاءَ بِهِ الآخر إِذا تمكن من ذَلِك وَإِن كَانَ صَحِيحا جَارِيا على مَنْهَج الصَّوَاب، وَقد رَأينَا وَسَمعنَا من هَذَا الْقَبِيل عجائب... (١)

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن الداخل في طلب العلم كثير، والسعيد قليل، **وعدم الإنصاف خطب جليل**، وكم من حاضر بعرفة من غير معرفة، ونازل بمنى وما نال مني، وكم قارئ في بغداد خرج وما ظفر بزاد... (٢)

وَقَالَ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ...وَمَنْ أَحَالَكَ عَلَى غَائِبٍ لَمْ يُنْصِفْكَ، فَكَيْفَ بِمَنْ أَحَالَ عَلَى مُسْتَحِيلٍ؟! **وَالإِنْصَافُ عَزِيْزٌ** - فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الجَهْلِ وَالهَوَى -. (٣)

قَالَ المتنبي:

وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإِنْصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرِّجَالِ وَإِنْ كَانُوا ذَوِي رَحِم

---

(١) "أدب الطلب"، وهو كتاب جميل، تجدرُ العناية بمطالعته.

(٢) كما في "حاشية، قانون التأويل" (صـ: ٦٤٦).

(٣) "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (١٣/ ١٢٠).

البيت رقم٧٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي ... وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ لَمَا نَطَقْتَا

شرح البيت رقم ٧٥

أَحَقُّ بِاللَّوْمِ وَالتَّفْنِيدِ. والتَّفْنِيدُ: اللَّوْمُ وَتَضْعِيفُ الرَّأْيِ.(١) يَعْنِي انْتَ أَولَى أن تَعُودَ عَلَى نَفْسِكَ بِالذَّمِّ وَاللَّوْمِ وَالعِتَابِ، وَلَوْ كُنْتَ لَبِيبًا لَمَا نَطَقْتَ بِعُيُوبِ غَيْرِكَ وَنَسِيتَ مَا عِنْدَكَ مِنْ عُيُوبٍ.

وَكَمَا تَقَدَّمَ، بِأَنَّ مِنَ الطُّرُقِ الفَاسِدَةِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ شَيْءٌ مِنَ الصُّحْبَةِ وَالمَعْرِفَةِ. فَإِذَا حَدَثَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِيمَا يَخُصُّهُمْ وَنَحْو ذَلِكَ، أَوْ أَخْطَأَ أَحَدُهُمْ عَلَى الآخَرِ، ذَاكَ يُخْرِجُ مَا عِنْدَ أَخِيهِ مِنْ عُيُوبٍ. يُخْرِجُ جَمِيعَ مَا عِنْدَهُ مِنْ عُيُوبٍ حَتَّى أَشْيَاءَ أَحْيَانًا مُتَعَلِّقَة بِأَشْيَاءَ أُسَرِيَّةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَهَذَا خَطَأٌ، وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ.

وَيَنْبَغِي لِلصَّاحِبِ أَنْ يَصُونَ صُحْبَةَ صَاحِبِهِ وَإِنِ اخْتَلَفَ مَعَهُ، مَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ يَمَسُّ المَنْهَجَ، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْصَحَ لَهُ، أَوْ أَنْ يُحِيلَ الأَمْرَ إِلَى أَهْلِهِ وَحَمَلَتِهِ وَإِلَى أَهْلِ العِلْمِ مِمَّنْ يَعْرِفُونَ الأُمُورَ وَيَضْبِطُونَهَا، وَلَا يَكُونُ سَبَبًا لِلشَّرِّ وَالفَسَادِ.

وَيَنْصَحُ إِذَا رَأَى مَا يُخِلُّ بِالمَنْهَجِ وَالعَقِيدَةِ، يَنْصَحُ لَهُ ذَلِكَ وَيُبَيِّنُ لَهُ الخَطَأَ وَلَا يَسْكُتُ حَتَّى إِذَا اخْتَلَفَ مَعَهُ أَخْرَجَ كل ما يَعرِفُ عَنْهُ. هَذَا مِنَ الخَطَأِ، وَمِنَ الكِتْمَانِ، وَعَدَمِ النُّصْحِ أَنْ يَرَى مِنْهُ الأَخْطَاءَ المُخَالِفَةَ المَنْهَجِيَّةَ لِلطَّرِيقَةِ السَّلَفِيَّةِ السَّوِيَّةِ الصَّافِيَةِ، ثُمَّ إِذَا اخْتَلَفَ مَعَهُ أَخْرَجَ ذَلِكَ وَبَثَّهَا وَنَشَرَهَا عَبْرَ مَوَاقِعِ التَّوَاصُلِ. أَيْنَ أَنْتَ مِنْ قَبْلُ؟ لِمَاذَا لَمْ تَنْصَحْ لَهُ؟

---

(١) "مختار الصحاح" (صـ:٢٤٣).

لِمَاذَا لَمْ تُبَيِّنْ لَهُ؟ لِمَاذَا لَمْ تَرْفَعْ أَمْرَهُ إِلَى أَهْلِ العِلْمِ الَّذِينَ هُمْ مَرْجِعٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ؟ وَهُمْ حَمَلَتُهَا، حَمَلَةُ العِلْمِ وَالدِّينِ.

وَهُمْ قَادَةُ هَذِهِ الأُمَّةِ حَقًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النحل [٤٣]. وَهُمْ يَعْرِفُونَ وَيُقَدِّرُونَ المَصَالِحَ وَالمَفَاسِدَ بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ نُورِ العِلْمِ وَبَصِيرَتِهِ. وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ.

"وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي"، وَمِنَ التَّفْنِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ يوسف [٩٤]. وَلَهُمْ فِي مَعَانِيهَا أَقْوَالٌ. قِيلَ المَعْنَى: لَوْلَا أَنْ تُسَفِّهُونِ. وَقِيلَ: لَوْلَا أَنْ تُكَذِّبُونِ. وَالْفَنَدُ الْكَذِبُ.

وَقِيْلَ: لولا أن تضعفوا رأي. وَالْفَنَدُ ضَعْفُ الرَّأْيِ مِنْ كِبَرٍ. وَقِيْلَ: تُضَلِّلُونَ.

❁ وَقَالَ الْأَخْفَشُ: تَلُومُونِي، وَالتَّفْنِيدُ اللَّوْمُ وَتَضْعِيفُ الرَّأْيِ. وَقِيْلَ: تُهَرِّمُونَ.

❁ قَالَ القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَكُلُّهُ مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى التَّعْجِيزِ وَتَضْعِيفِ الرَّأْيِ، يُقَالُ: فَنَّدَهُ تَفْنِيدًا إِذَا أَعْجَزَهُ، كَمَا قَالَ: أَهْلَكَنِي بِاللَّوْمِ وَالتَّفْنِيدِ. (١) وَقِيْلَ: تُجَهِّلونِ.

❁ قَالَ السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَعْنَاهُ: لَوْلَا أَن تضعفوا رَأْي، وَقيل: لَوْلَا أَن تسفهوني، وَقيل: لَوْلَا أَن تنسبوني إِلَى الْخَوْف وَالْجهل. (٢)

❁ قَالَ ابْنُ الجَوْزِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَقْوَالُ المُفَسِّرِينَ تَتَقَارَبُ مَعَانِيهَا. (٣)

❁ قَالَ ابْنُ جَرِير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لولا أن تعنّفوني، وتعجّزوني، وتلوموني، وتكذبوني...

---

(١) "تفسير القرطبي" للآية المذكورة.

(٢) "تفسير السمعاني".

(٣) "زاد المسير.

وَقَالَ: وقد بينا أَنَّ أَصْلُ التَّفْنِيدِ الإِفْسَادُ. وإذا كان ذلك كذلك فالضعف والهرم والكذب وذهاب العقل وكل معاني الإفساد تدخل في التفنيد، لأن أصل ذلك كله الفساد والفساد في الجسم: الهرمُ وذهاب العقل والضعف. وَفِي الفعل: الكذب واللوم بالباطل.(١)

وَقَالَ بَعدَ ذِكْرِهِ لعَددٍ مِنْ الأَقْوَالِ: متقاربةُ المعاني، محتملٌ جميعَها ظاهرُ التنزيل، إذ لم يكن في الآية دليلٌ على أنه معنيٌّ به بعض ذلك دون بعض.(٢)

فمعنى ذلك يجب عليك أولاً أن تلوم نفسك، وأن تعاتبها، وأن تُصْلِحها، قبل لومِ غيرك.

ذَكَرَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يَقِفُ بِهَا الإِنْسَانُ عَلَى عُيُوبِهِ.

❁ فَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **فَمَنْ أَرَادَ الوُقُوفَ عَلَى عَيْبِ نَفْسِهِ فَلَهُ أَرْبَعُ طُرُقٍ**

الطَّرِيقَةُ الأُولَى: أَنْ يَجْلِسَ بَيْنَ يَدَيْ شَيْخٍ بَصِيرٍ بِعُيُوبِ النَّفْسِ، يَعْرِفُ عُيُوبَ نَفْسِهِ وَطُرُقَ عِلَاجِهَا. وَهَذَا قَدْ عَزَّ فِي هَذَا الزَّمَانِ وُجُودُهُ. فَمَنْ وَقَعَ بِهِ فَقَدْ وَقَعَ بِالطَّبِيبِ الحَاذِقِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُفَارِقَهُ.

وَلَا يَنْبَغِي إِنْسَانٌ أَنْ يَتَأَفَّفَ. بَعْضُهُمْ يَتَضَجَّرُ، أَوْ يَتَأَفَّفُ، إِذَا نَصَحَ لَهُ بَعْضُ إِخْوَانِهِ بِشَيْءٍ. فَمَنْ رَأَى فِي أَخِيْهِ بَعْضَ المُخَالَفَاتِ، وَالعُيُوبِ، يَنْصَحُ لَهُ لَا عَلَى سَبِيلِ التَّعْيِيرِ، إِنَّمَا عَلَى سَبِيلِ النُّصْحِ وَالوُدِّ وَالإِخَاءِ مِنْ بَابِ (**الدِّينُ النَّصِيحَةِ**). تَرَى بَعْضَ المَنْصُوحِينَ رُبَّمَا يَتَضَايَق، يَتَأَفَّفُ، رُبَّمَا يَزْعَلُ مِنْكَ، وَأَنْتَ مَا تُرِيدُ لَهُ إِلَّا الخَيْرَ، وَالمُسْلِمُ مِرْآةُ أَخِيهِ المُسْلِمِ.

قَدْ يَرَى فِيهِ مَا لَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ ولا يتنبه لذلك، وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ.

---

(١) "تفسير الطبري"

(٢) "تفسير الطبري"

والذي على الإِنْسَانِ أَنْ يَتَقَبَّلَ النُّصْحَ بِصَدْرٍ رَحْبٍ وَيُحْسِنَ الرَّدَّ لِلنَّاصِحِ. إِنْ كَانَ العَيْبُ فِيكَ، فَقُلْ لَهُ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، وَاسْعَ فِي إِصْلَاحِ نَفْسِكَ وَعِلَاجِهَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنِ العَيْبُ فِيكَ، فَقُلْ لَهُ أَيْضًا: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، وَاسْتَفِدْ تِلْكَ النَّصِيحَةَ وَوَجِّهها لِغَيْرِكَ حَتَّى إِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ العَيْبُ مَوْجُودًا فِيكَ، ولكَ أن تُبينَ له بأُسلوبٍ مُؤَدبٍ بأنَّ مَا بَلَغَهُ عَنْكَ ليسَ بِصَحِيحٍ. وَمَنْ الَّذِي يَسْلَمُ مِنَ العَيْبِ؟

مَـــن الـــذِّي مَـــا سَـــاءَ قَـــطْ وَمَـــنْ لَـــهُ الْحُسْـــنَـى فَـقَـطْ

وَأَيْضًا يَنْبَغِي لِلنَّاصِحِ أَنْ تَكُونَ نَصِيحَتُهُ بِرِفْقٍ وَلِينٍ، وَبِحُسْنِ خِطَابٍ، وَحُسْنِ كَلَامٍ، إِلَّا إِذَا اضْطُرَّ لِمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ. كَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى. وَقَدْ لَا يَنْقَلِعُ الْوَسَخُ إِلَّا بِنَوْعٍ مِنْ الْخُشُونَةِ؛ لَكِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ مِنْ النَّظَافَةِ وَالنُّعُومَةِ مَا نَحْمَدُ مَعَهُ ذَلِكَ التَّخْشِينَ. (١)

الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَطْلُبَ صَدِيقًا صَدُوقًا بَصِيرًا مُتَدَيِّنًا، وَيَنْصِبَهُ رَقِيبًا عَلَى نَفْسِهِ، لِيُنَبِّهَهُ عَلَى المَكْرُوهِ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَأَفْعَالِهِ... وهذا لِأَنَّ كَل مَن عَلَتْ مرتبتُهُ في اليقظة زَادَ اتهامُهُ لِنفْسِهِ، إلا أَنهُ عزَّ في هَذا الزمان وجودُ صديقٍ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، لَأَنهُ قَل في الأصدقاءِ مَنْ يَتْرُكُ المداهنة، فَيُخبِرُ بالعيبِ أَوْ يتركُ الحسد، فَلا يزيد على قَدرِ الواجبِ.

وقد كان السلف يحبونَ من يُنبههم على عيوبِهم، ونحنُ الآن في الغالبِ أَبغَضُ الناسِ إلينا مَن يُعرفنا عيوبنا.

---

(١) "مجموع الفتاوى" (٢٨/ ٥٤).

وهذا دليلٌ على ضعفِ الإيمان، فإنَّ الأخلاقَ السيئة كالعقارب، لو أن منبهاً نبهنا على أن تحت ثوبِ أحدنا عقرباً لتقلدنا له مِنةً، واشتغلنا بقتلِها، والأخلاقُ الرديئة أعظمُ ضرراً من العقربِ على ما لا يخفى.

الطَّرِيقَةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ يَسْتَفِيدَ مَعْرِفَةَ نَفْسِهِ مِنْ سِنَّةِ أَعْدَائِهِ؛ فَإِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِئَ.

وَانْتِفَاعُ الإِنْسَانِ بِعَدُوٍّ مُشَاجِرٍ يَذْكُرُ عُيُوبَهُ أَكْثَرُ مِنْ انْتِفَاعِهِ بِصَدِيقٍ مُدَاهِنٍ يُخْفِي عَنْهُ عُيُوبَهُ.

لَمَّا يَكُونُ لِلشَّخْصِ أَعْدَاء يُخْرِجُون مَا عِنْدَهُ مِنْ أَخْطَاءٍ، أَوْ إِنْسَانٌ مُتَرَصِّدٌ، تَرَى بَعْضَهُمْ يَجْرُدُ الكُتُبَ لِغَيْرِهِ، يجردُ كُتُبَ غَيْرِهِ وَالصَّوْتِيَّاتِ لِغَيْرِهِ لِيَتَتَبَّعَ الأَخْطَاءَ وَمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ هَفَوَاتٍ وَزَلَّاتٍ.

فِيْ هذا الحَال يَنْبَغِي لِلشَّخْصِ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ عَدُوِّهِ وَمِنْ خَصْمِهِ الَّذِي يَجْمَعُ مَا عِنْدَهُ مِنْ أَخْطَاءٍ، فَيُصْلِحُ، وتُصْلِحُ مَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنْ خَطَأٍ. أَوْقَفَكَ عَلَى أَخْطَائِكَ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ مِنْكَ. فَلِذَلِكَ كَمَا يُقَالُ: (يُقَمِّشُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفَتِّشَ). وَلَوْ فَتَّشَ لَوَجَدَ مُخَالَفَاتٍ كَبِيرَةً وَكَثِيرة. لَكِنْ إِذَا وَجَدْتَ خَصْمًا لَكَ يُفَتِّشُ عَنْ عُيُوبِكَ فِي كُتُبِكَ، فِي صَوْتِيَّاتِكَ، فِي غَيْرِ ذَلِكَ، اسْتَغِلَّ ذَلِكَ وَعَدِّلْ مَا عِنْدَكَ مِنْ مُخَالَفَاتٍ وَأَخْطَاءٍ وَلَا يَحْمِلُ الإِنْسَانَ الكِبْرَ.

إذا نُبِهتَ على الخَطَأِ مِنْ عَدُوِّكَ وَمِنْ خَصْمِك، أو من غيره، فَلَم تُعْدِلْ ذَلِكَ الخَطَأَ أَوْ لم تَتبْ مِنْ ذَلِكَ الخَطَأِ. فَهَذَا خَطَأٌ أَكْبَر إِلَى جَانِبِ الخَطَأِ الأَوَّلِ.

قَالَ: " **وَانْتِفَاعُ الإِنْسَانِ بِعَدُوٍّ مُشَاجِرٍ يَذْكُرُ عُيُوبَهُ أَكْثَرَ مِنْ انْتِفَاعِهِ بِصَدِيقٍ مُدَاهِنٍ يُخْفِي عَنْهُ عُيُوبَهُ**". بَلْ رُبَّمَا يُبَرِّرُ لَهُ العَيْبَ، لَا، قَوْلُكَ صَوَابٌ بِدَلِيلِ كَذَا وَكَذَا، وَلَا يَكُونُ عَوْنًا لَهُ عَلَى تَرْكِ العَيْبِ، أَوْ تَرْكِ الخَطَأِ، وَالتَّرَاجُعِ عَنِ الخَطَأِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ. وهذا التبريرُ آفةٌ خَطِيْرَةٌ، عَوَاقِبُهُ وَخِيْمَةٌ. وَمَنْ أَحبكَ فَقَد نَصَحك، وَمَن دَاهَنَكَ فَقَد غَشكَ.

فَيَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ بِعَدُوِّهِ أَحْيَانًا، الَّذِي يَتَتَبَّعُ مَا عِنْدَهُ مِنْ عُيُوبٍ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْتَفِعُ مِنَ الصَّدِيقِ الَّذِي يُبَرِّرُ لَهُ الأَخْطَاءَ.

الطَّرِيقَةُ الرَّابِعَةُ: أَنْ يُخَالِطَ النَّاسَ، فَكُلُّ مَا يَرَاهُ مَذْمُومًا فِيمَا بَيْنَهُمْ يَجْتَنِبُهُ. (١)

وَلَيْسَ هَذَا عَلَى إِطْلَاقِهِ، فَقَدْ يَذُمُّونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ المَشْرُوعَ. فَمَثَلًا، غَالِبُ النَّاسِ يَذُمُّونَ مَنْ يَتَزَوَّجُ بِغَيْرِ أَغَانِيٍّ أَوْ مُخَالَفَاتٍ، غَالِبِيَّةُ النَّاسِ مِن العَوَامِّ وَغيرهم، وأَشياء كثيرة يذمونها وهي من الشرع والدين.

إِلَّا إِذَا كَانَ يَقْصُدُ بِالنَّاسِ أَهْلَ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، وهذا هو الذي يظهر أن المراد بهم من كان من ذوي الرزانة والصلاح والعقلاء.

وعموماً هَذَا كَلَامٌ جَمِيلٌ وَمُفِيدٌ، يُسْتفادُ.

وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ لَمَا نَطَقْتَا

اللَّبِيبُ: الْعَاقِلُ وَجَمْعُهُ (أَلِبَّاءُ) بِوَزْنِ أَشِدَّاءَ.

لَوْ كُنْتَ عَاقِلاً لَمَا نَطَقْتَ بِلَوْمِ غَيْرِكَ، وَأَنْتَ وَاقِعٌ فِيمَا لُمْتَهُ بِهِ.

وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ: "**وَلَوْ سَكَتَ المُسِيءُ لَمَا نَطَقْتَا**". أَيْ: لِأَنَّكَ مُسِيءٌ وَوَاقِعٌ فِي المُخَالَفَاتِ، فَمَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْطِقَ بِذَمِّ غَيْرِكَ وَتَقْبِيحِهِمْ وَأَنْتَ مُسِيءٌ. وَإِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَسْعَى فِي إِصْلَاحِ نَفْسِكَ قَبْلَ إِصْلَاحِ غَيْرِكَ.

---

(١) "مُخْتَصَرِ مَنْهَاجِ القَاصِدِينَ" (صـ:١٥٦ ـ ١٥٧).

البيت رقم٧٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفاً ... لِذَنْبِكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتَا

شرح البيت رقم ٧٦

أَيْ: لَوْ بَكَتْ عَيْنَاكَ دَمًا خَوْفًا مِنْ ذُنُوبِكَ، لَمْ أَقُلْ بِأَنَّكَ صِرْتَ آمِنًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ.

❁ كَمَا قِيلَ:

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقَّ لَهَا بُكَاهَا ... وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ[1]

وَالبكاءُ من خشيةِ اللهِ، والندمُ على ما ارتكبه، مما دل عليهِ الشرعُ، ولا يكفي بغير توبةٍ.

❁ قَالَ ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَمْ يَوْمٍ غَابَتْ شَمْسُهُ وَقَلْبُكَ غَائِبٌ، وَكَمْ ظَلامٍ أَسْبَلَ سِتْرَهُ وَأَنْتَ فِي عَجَائِبَ، وَكَمْ أُسْبِغَتْ عَلَيْكَ نعمه وأنت للمعاصي توائب، وَكَمْ صَحِيفَةٍ قَدْ مَلأَهَا بِالذُّنُوبِ الْكَاتِبُ، وَكَمْ يُنْذِرُكَ سَلْبُ رَفِيقِكَ وَأَنْتَ لاعِبٌ، يَا مَنْ يَأْمَنُ الإِقَامَةَ قَدْ زُمَّتِ الرَّكَائِبُ، أَفِقْ مِنْ سكرتك قبل حسرتك عَلَى الْمَعَايِبِ، وَتَذَكَّرْ نُزُولَ حُفْرَتِكَ وَهُجْرَانَ الأَقَارِبِ، وانهض على بِسَاطِ الرُّقَادِ وَقُلْ: أَنَا تَائِبٌ، وَبَادِرْ تَحْصِيلَ الْفَضَائِلِ قَبْلَ فَوْتِ الْمَطَالِبِ، فَالسَّائِقُ حَثِيثٌ وَالْحَادِي مُجِدٌّ وَالْمَوْتُ طَالِبٌ.

❁ قَالَ أَبُو العَتَاهِيَة:

لأَبْكِيَنَّ عَلَى نَفْسِي وَحَقَّ لِيَهْ ... يَا عَيْنُ لا تَبْخَلِي عَنِّي بِعَبْرَتِيَهْ
لأَبْكِيَنَّ لِفِقْدانِ الشَّبابِ وَقَدْ ... جَدَّ الرَّحِيلُ عَنِ الدُّنْيَا بِرِحْلَتِيَهْ
يَا نَأْيَ مُنْتَجَعِي يَا هَوْلَ مُطَّلَعِي ... يَا ضِيقَ مُضْطَجَعِي يَا بُعْدَ شُقَّتِيَهْ

(١) "سيرة ابن هشام "ت السقا (٢/ ١٦٢)، وَنسبت لعبدِ الله بنِ رواحة، ولكعب بن مالك.

الْمَـالُ مَـا كَـانَ قُـدَّامِـي لآخِـرَتِي مَـا لا أُقَـدِّمُ مِـنْ مَـالِي فَـلَـيْـسَ لِـيَـهْ[١]

أَسَفًا لِغَافِلٍ لا يَفِيقُ بِالتَّعْرِيضِ حَتَّى يَرَى التَّصْرِيحَ، وَلا تَبِينُ لَهُ جَلِيَّةُ الْحَالِ إِلا فِي الضَّرِيحِ، كَأَنَّهُ وَقَدْ ذَكَّرَهُ الْمَوْتُ فَأَفَاقَ ، فَانْتَبَهَ لِنَفْسِهِ وَهُوَ فِي السِّبَاقِ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْكَرْبُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ، وَتَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ وَضَاقَ الْخِنَاقُ، وَصَارَ أَكْبَرَ شَهَوَاتِهِ تَوْبَةٌ مِنْ شِقَاقٍ، هَيْهَاتَ مَضَى بِأَوْزَارِهِ الثَّقِيلَةِ، وَخَلا بِأَعْمَالِهِ وَاسْتَوْدَعَ مَقِيلَهُ، وَغُيِّبَ فِي الثَّرَى وَقِيلَ لا حِيلَةَ، وبات الندم يَلْزَمُهُ وَبِئْسَ اللاحِي لَهُ.[٢]

الْبُكَاءُ بِمُفْرَدِهِ، وَلَوْ كان دَمًا، لَا يَكْفِي، لَا بُدَّ مِنَ التَّوْبَةِ الصادقة، وَرَدِّ الْحُقُوقِ إِلَى ذَوِيهَا.

وَكَانَ السَّلَفُ يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ.

❁ قَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي موعِظَتِهِ: الْمُبَادَرَةَ عِبَادَ اللهِ، الْمُبَادَرَةَ، فَإِنَّمَا هِيَ الْأَنْفَاسُ لَوْ قَدْ حُبِسَتِ انْقَطَعَتْ عَنْكُمْ أَعْمَالُكُمُ الَّتِي تَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، رَحِمَ اللهُ امْرَأً نَظَرَ لِنَفْسِهِ وَبَكَى عَلَى ذُنُوبِهِ، ثُمَّ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ مريم [٨٤]. ثُمَّ يَبْكِي وَيَقُولُ: آخِرُ الْعَدَدِ خُرُوجُ نَفْسِكَ، آخِرُ الْعَدَدِ فِرَاقُ أَهْلِكَ، آخِرُ الْعَدَدِ دُخُولُكَ فِي قَبْرِكَ.[٣]

❁ وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وَهُوَ يَبْكِي وَيَذْكُرُ ذُنُوبَهُ.[٤]

---

(١) "أهوال القبور" (صـ: ١٣٢).

(٢) "التبصرة" لابن الجوزي (١/ ٩٠).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في "قصر الأمل"(١٤٦)، والبيهقي "الشعب" (١٠٣٠٠)، وفيه عَامِر بْنِ عَبد اللَّهِ بْنِ يَسَاف، قال ابنُ عَديَ: منكر الحديث عَن الثقات. "الكامل"(٦/ ١٥٨).

(٤) "تاريخ الإسلام" ت بشار (٣/ ٣٠٩).

❁ وَقَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَا صَاحِبُ الْخَطَايَا أَيْنَ الدُّمُوعُ الْجَارِيَةُ، يَا أَسِيرَ الْمَعَاصِي ابْكِ عَلَى الذُّنُوبِ الْمَاضِيَةِ، يَا مُبَارِزًا بِالْقَبَائِحِ أَتَصْبِرُ عَلَى الْهَاوِيَةِ؟! يَا نَاسِيًا ذُنُوبَهُ وَالصُّحُفُ لِلْمُنْسَى حَاوِيَةٌ، أَسَفًا لَكَ إِذَا جَاءَكَ الْمَوْتُ وَمَا أَنَبْتَ وَاحَسْرَةً لَكَ إِذَا دُعِيتَ إِلَى التَّوْبَةِ فَمَا أَجَبْتَ كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا نُودِيَ بِالرَّحِيلِ وَمَا تَأَهَّبْتَ، أَلَسْتَ الَّذِي بَارَزْتَ بِالْكَبَائِرِ وَمَا رَاقَبْتَ:

قَدْ مَضَى فِي اللَّهْوِ عُمْرِي ... وَتَنَاهَى فِيهِ أَمْرِي
شَمَّرَ الأَكْيَاسُ وَأَنَا ... وَاقِفٌ قَدْ شِيبَ أَمْرِي
بَانَ رِبْحُ النَّاسِ دُونِي ... وَلِحِينِي بَانَ خُسْرِي
لَيْتَنِي أَقْبَلُ وَعْظِي ... لَيْتَنِي أَسْمَعُ زَجْرِي
كُلَّ يَوْمٍ أَنَا رَهْنٌ ... بَيْنَ آثَامِي وَوِزْرِي
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى لِي ... هِمَّةً فِي فَكِّ أَسْرِي
أَوْ أُرَى فِي ثَوْبِ صِدْقٍ ... قَبْلَ أَنْ أَنْزِلَ قَبْرِي
وَيْحَ قَلْبِي مِنْ تَنَاسِيهِ ... مَقَامِي يَوْمَ حَشْرِي
وَاشْتِغَالِي عَنْ خَطَايَا ... أَثْقَلَتْ وَاللَّهِ ظَهْرِي[1]

فَكَانَ السَّلَفُ يَبْكُونَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ وَعَلَى مَا أَسْلَفُوا مِنْ ذَلِكَ، وَكَانُوا يَخَافُونَ مِنْهَا خَوْفًا شَدِيدًا أَنْ تُوبِقَهُمْ، وَأَنْ تُغْرِقَهُمْ، وَأَنْ تُبْعِدَهُمْ، أَوْ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا فِي شَقَاوَتِهِمْ.

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ: كَانَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ إِذَا أَقَامَ فِي مِحْرَابِهِ قَالَ: «يَا رَبِّ قَدْ عَرَفْتَ سَاكِنَ الْجَنَّةِ وَسَاكِنَ النَّارِ فَفِي أَيِّ الدَّارَيْنِ مَالِكٌ»،

---

(١) "التبصرة"(صـ:٣٧).

ثُمَّ بَكَى.[١] فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَذَكَّرَ وَيَعُودَ، وَلِرَبِّهِ يُؤُوبُ وَيَتُوبُ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَأَهِّبًا لِرَحِيلِهِ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ وَذَكَرَ منهم: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».[٢]

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».[٣]

وَفِيْ الحديث: «ثَلَاثَةٌ لَا تَرَى أَعْيُنُهُمُ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ حَرَسَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».[٤]

❁ وَفِيْ "تفسير ابنِ رجب" (١/ ٥١٥).

من استغنى باللهِ أمِنَ من العدم ... ومن لَزِمَ البابَ أُثْبِتَ في الخَدَم
ومن أكثرَ ذكر الموتِ أكثرَ من الندم ... تنقَضي الدُّنيا والفتى فيها معنًّا
ليسَ في الدنيا نعيمٌ ولا عيشٌ مهنًّا ... يا غنيًّا بالدنانيرِ فحبُّ اللهِ أغنى

والتعبيرُ بالخدمة في عبادة الله تعبيرٌ غيرُ صحيح، وقد تقدم التنبيه على ذلك.

---

(١) "حلية الأولياء"(٢/ ٣٨٣)، وفيه سليمان الشاذكوني، كذبه ابن معين، وقال أبو حاتم: متروك. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال البخاريّ: هو أضعف عندي من كلّ ضعيف. "تاريخ الإسلام" ت بشار (٥/ ٨٢٩)، و"الميزان" (٢/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، (١٤٢٣)، (٦٤٧٩)، (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٣٩)، وهو في "صحيح الجامع" (٤١١٢).

(٤) قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: روي من حديث معاوية بن حيدة وعبد الله بن عباس وأبي ريحانة وأبي هريرة وأنس بن مالك، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ...وبالجملة فالحديث بهذه الطرق صحيح على الراجح. والله أعلم. "الصحيحة" (٢٦٧٣).

البيت رقم٧٧

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَنْ لَكَ بِالأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ أُمِرْتَ فَمَا ائْتَمَرْتَ وَلاَ أَطَعْتَا

شرح البيت رقم ٧٧

بعدَ أَنْ ذكرَ أَنَّ مُجَرَّدَ البُكَاءِ إِذَا حَصَلَ ذَلِكَ مِنْكَ، لَا أَسْتَطِيعُ القَوْلَ لَكَ بِأَنَّكَ قَدْ صِرْتَ فِي أَمَانٍ مِنَ العَذَابِ وَالعِقَابِ.

"وَمَنْ لَكَ بِالأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ"، مِنْ أَيْنَ لَكَ الأَمَانُ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ لَكَ الأَمَانُ؟ وَأَنْتَ عَبْدٌ أُمِرْتَ فَمَا ائْتَمَرْتَ وَلَا أَطَعْتَ.

كَيْفَ يَكُونُ لَكَ الأَمَانُ؟ وَأَنْتَ مُفَرِّطٌ عَاصٍ مُبْتَعِدٌ عَنْ دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الأعراف [٩٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل [٤٥-٤٧].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الأعراف [٩٦-٩٩].

لَا يَأْمَنُ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور [٦٣]. فِتْنَةٌ فِي قُلُوبِهِمْ بِكُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ شُبْهَةٍ أَوْ بِدْعَةٍ، فِتْنَةٌ مِنْ تَسَلُّطِ الظَّلَمَةِ، فِتْنَةٌ قِيلَ بِشِرْكٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ. أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَيُّ فِتْنَةٍ، لِيَحْذَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ يُصَابُوا بِفِتْنَةٍ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ أَوْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

❁ قَالَ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ: عَنْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، سبيله هو وَمِنْهَاجُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَسُنَّتُهُ وَشَرِيعَتُهُ، فَتُوزَنُ الْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ بِأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ، فَمَا وَافَقَ ذَلِكَ قُبِلَ، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ مَرْدُود عَلَى قَائِلِهِ وَفَاعِلِهِ، كَائِنًا مَا كَانَ... أَيْ: فَلْيَحْذَرْ وليخْشَ مَنْ خَالَفَ شَرِيعَةَ الرَّسُولِ بَاطِنًا أَوْ ظَاهِرًا {أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} أَيْ: فِي قُلُوبِهِمْ، مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ بِدْعَةٍ، {أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أَيْ: فِي الدُّنْيَا، بِقَتْلٍ، أَوْ حَد، أَوْ حَبْسٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.ا.هـ. "تفسيره" للآية.

وَالْفِتْنَةُ هُنَا الْقَتْلُ، وَقِيْلَ: الزَّلَازِلُ وَالْأَهْوَالُ. وَقِيْلَ: سُلْطَانٌ جَائِرٌ يُسَلَّطُ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: الطَّبْعُ عَلَى الْقُلُوبِ بِشُؤْمِ مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ. كما في "تفسير القرطبي" للآية.

فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَفِرَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَأْمَنَ مِنْ مَكْرِهِ. ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ الذاريات [٥٠]. وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ذَنْبٌ عَظِيمٌ، خَطَرُهُ جَسِيمٌ وَعِقَابُهُ شَدِيدٌ.

❁ قَالَ الطَّحَاوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالأَمْنُ وَالإِيَاسُ، يَنْقُلَانِ عَنِ الإِسْلَامِ، وَسَبِيلُ الحَقِّ بَيْنَهُمَا لِأَهْلِ القِبْلَةِ. "العقيدة الطحاوية"

❁ قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالْمَعْصِيَةُ نَوْعَانِ: كَبَائِرُ، وَصَغَائِرُ.

فَالْكَبَائِرُ: كَالرِّيَاءِ، وَالْعُجْبِ، وَالْكِبْرِ، وَالْفَخْرِ، وَالْخُيَلَاءِ، وَالْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بِأَذَى الْمُسْلِمِينَ، وَالشَّمَاتَةِ بِمُصِيبَتِهِمْ، وَمَحَبَّةِ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِيهِمْ، وَحَسَدِهِمْ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَتَمَنِّي زَوَالِ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَتَوَابِعِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنَ الزِّنَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ، وَلَا صَلَاحَ لِلْقَلْبِ وَلَا لِلْجَسَدِ إِلَّا بِاجْتِنَابِهَا، وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا، وَإِلَّا فَهُوَ قَلْبٌ فَاسِدٌ، وَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ فَسَدَ الْبَدَنُ. وَهَذِهِ الْآفَاتُ إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنَ الْجَهْلِ بِعُبُودِيَّةِ الْقَلْبِ، وَتَرْكِ الْقِيَامِ بِهَا.(١)

❁ وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ ﴾ الأعراف [٩٩].

هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ فِيهَا مِنَ التَّخْوِيفِ البَلِيغِ عَلَى أَنَّ العَبْدَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ آمِنًا عَلَى مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمَانِ، بَلْ لَا يَزَالُ خَائِفًا وَجِلًا أَنْ يُبْتَلَى بِبَلِيَّةٍ تَسْلُبُ مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمَانِ، وَأَنْ لَا يَزَال دَاعِيًا بِقَوْلِهِ: يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَأَنْ يَعْمَلَ وَيَسْعَى، فِيْ كُلِ سَبَبٍ يُخلصُهُ مِنْ الشَّرِ، عِنْدَ وقوعِ الفتن، فَإِنَّ العبدَ - وَلَو بَلَغَتْ بِهِ الحَالُ مَا بَلَغَتْ - فَلَيْسَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ السلامة.ا.هـ.

فَلَا يَأْمَنُ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ تَرْكِ دِيْنَهَ، وَتَغْيِيرِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، وَلَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ ارْتَقَى فِي المَرَاتِبِ وَصَارَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالبَنَانِ، ثُمَّ تَقَهْقَرَ وَرَجَعَ عَلَى عَقِبَيْهِ، بَلْ رُبَّمَا كَفَرَ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، بَلْ بَعْضُهُمْ كَانَ عَالِمًا يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي العِلْمِ، حَافِظًا ذَكِيًّا، ثُمَّ

(١) "مدارج السالكين"(١/ ١٣٣).

تَأَثَّرَ بِالأُمُورِ فَانْقَلَبَ وَارْتَدَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَصَارَ يُؤَلِّفُ فِي الإِسْلَامِ وَالطَّعْنِ فِيهِ وَبَثِّ الشُّبُهَاتِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، كَمَا يُسَمَّى بِـ(عبد الله القصيمي).

وَذَلِكَ الكَاتِبُ الَّذِي كَانَ يَكْتُبُ عند النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى كَتَبَ بَعْضَ السُّوَرِ، ثُمَّ حَصَلَ أَنِ ارْتَدَّ، وَصَارَ نَصْرَانِيًّا، فَدُفِنَ فَلَفَظَتْهُ الأَرْضُ.

قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ، وَقَرَأَ البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَعَلِمُوا: أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ، فَأَلْقَوْهُ.(١)

وَجَاءَ عندَ أَحْمَدَ في مسنده، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ كَانَ قَرَأَ: الْبَقَرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ: الْبَقَرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ، جَدَّ فِينَا - يَعْنِي عَظُمَ -الحديث.(٢) قَدْ كَتَبَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. الشَّاهِدُ أَنَّهُ ارْتَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ.

فَلَا يَأْمَنُ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يَغْتَرُّ بِأَنَّهُ صَارَ مَعَهُ إِيمَانٌ، وَأَنَّهُ صَارَ عَلَى السُّنَّةِ وَالاسْتِقَامَةِ، بَلْ لَابُدَّ أَنْ يَسْلُكَ سُبُلَ الثَّبَاتِ وَالنَّجَاةِ، وَمِنْ ذَلِكَ: الدُّعَاءُ، وَأَلَّا يَأْمَنَ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٧)، ومسلم (٢٧٨١).

(٢) (١٢٢١٥)، (١٢٢١٦).

مَكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ مِمَّا يَحْصُلُ مِنْهُ مِنْ ذُنُوبٍ، وَأَنْ يَحْذَرَ مِنْ العُجْبِ والغُرورِ والتعَالِي، واحتِقَارِ الآخَرِين، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَنْ يُلَازِمَ التقوى والورع والخشية لله تعالى، وَأَنْ لَا يَزَالَ دَاعِيًا بِقَوْلِهِ: يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، وَأَنْ يَعْمَلَ وَيَسْعَى فِي كُلِّ سَبَبٍ يُخَلِّصُهُ مِنَ الشَّرِّ عِنْدَ وُقُوعِ الفِتَنِ. فَإِنَّ العَبْدَ وَلَوْ بَلَغَ بِهِ الحَالُ مَا بَلَغَتْ، فَلَيْسَ عَلَى يَقِينٍ مِنَ السَّلَامَةِ.

كم مِن صاحبِ علمٍ كَانَ عِنْدَهُ مَا عِنْدَهُ، كَانَ عِنْدَهُ بَاعٌ فِي عِلْمِ الحَدِيثِ، ثُمَّ تَغَيَّرَ حَالُهُ وَفَارَقَ مَا كَانَ عَلَيهِ مِنَ التَّمَسُّكِ بِمَنْهَجِ السَّلَفِ. فَصَارَ يَتَنَكَّرُ لِطَرِيقِهِ الَّتِي سَلَكَهَا وَيَحْتَقِرُ مَنْ كَانَ ثَابِتًا عَلَيْهَا، وَصَارَ يَخُوضُ فِيمَا يَخُوضُ فِيهِ مِنَ البِدَعِ وَالمُخَالَفَاتِ وَالقَوَاعِدِ الفَاسِدَةِ، فَلَمْ تَعُدْ لَهُ تِلْكَ المَكَانَةُ وَلَا المَنْزِلَةُ بِسَبَبِ بُعْدِهِ عَنِ التَّمَسُّكِ بِالمَنْهَجِ القَوِيمِ. ومثلُ هذا كَثِيرٌ، حَتَّى كَانَ بَعْضُهُمْ أَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ مُسْنَدَ أَحْمَدَ، وَالآنَ كَمَا قِيْلَ: لَا مُسْنَدَ أَحْمَدَ وَلَا مُسْنَدَ صَالِحٍ، صَارَ بَعْضُهُمْ مَعَ الجَمْعِيَّاتِ وَمَعَ التحزبات، وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ.

وَالقُلُوبُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ. وَبَعْضُهُمْ قَدْ دَرَسَ عِنْدَ الإِمَامِ الوَادِعِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَمَا نَفَعَهُمْ ذَلِكَ، لِمَا لَمْ يَثْبُتُوا عَلَى المَنْهَجِ القَوِيمِ، عَلَى الطريقةِ الصَّافِيَةِ النَّقِيَّةِ، ونسألُ اللهَ الثبات على دينه.

فلا تأمن على نفسك من الفتن، ولا من عذابِ اللهِ وعقابِهِ

كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ. وَقَدْ رَأَوْا قَوْمَ العَذَابِ فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا.(١)

(١) رواه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩)، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الأَنْبِيَاءُ يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ عَذابِ اللهِ، وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يُكثِرُ من قولِ: يا مُقلِّبَ القلوبِ، ثبِّتْ قلبي على دينِك، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ».(١) قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِي البَابِ عَنْ عَائِشَةَ، وَالنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، وَأَنَسٍ، وَجَابِرٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَنُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ.

يقولُ أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ». رواه أحمدُ، والتِّرمذيُّ.(٢)

والأنبياءُ يومَ القيامةِ حينَ يتَّجهُ الناسُ إليهم ليشفعوا لهم إلى ربِّهم، كلُّ نبيٍّ يقولُ كما ذُكِرَ ذلك في حديثِ الشَّفاعةِ: نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري.(٣) يخافُ على نفسِهِ، وأيضًا حينَ يجوزونَ الصِّراطَ، في الحديث: «وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وغيره، وهو في "الصحيحة"(٢٠٩١).

(٢) رواه أحمد (١٢١٠٧)، (١٣٦٩٦)، والترمذي (٢١٤٠)، وغيرهم. وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "المشكاة" (١٠٢).

(٣) رواه البخاري (٣٣٣٩)، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه البخاري (٣٣٤٠)، (٣٣٦١)، (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

سَلِّمْ».[١] يخافونَ على أنفسِهم، فما بالكَ بغيرِهم؟ ينبغي أن يخافَ على نفسِهِ من بابٍ أولى، لا سيَّما وهو في الدُّنيا يخافُ على نفسِهِ من عذابِ اللهِ وعقابِهِ أو من أن يُفتنَ، فابتعدْ من الفتن وطرقها.

عَنْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ».[٢]

❁ قَالَ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَرَوَى: ابْنُ الْمُبَارَكِ، عَنِ ابْنِ شُبْرُمَةَ، قَالَ: عَجِبتُ لِلنَّاسِ يَحْتَمُوْنَ مِنَ الطَّعَامِ مَخَافَةَ الدَّاءِ، وَلاَ يَحتَمُوْنَ مِنَ الذُّنوبِ مَخَافَةَ النَّارِ.[٣]

---

(١) رواه البخاري (٨٠٦)، (٦٥٧٣)، (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه مسلم (١٨٣)، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٣) كما في "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (٦/ ٣٤٨). والمزي في "تهذيب الكمال" (١٥/ ٨٠). وأخرجه عن ابن شبرمة، مسنداً محمد بن خلف البغدادي، في "أخبار القضاة" (٣/ ١٢٣)، فيه نعيم بن حماد، وفيه محمد بن مهاجر، الراوي عن نعيم ولم أقف عليه.

وله طريق أخرى عن الدينوري في "المجالسة" (١٧٥)، وسنده صحيح، إلا أن المصنف نفسه فيه ضعفٌ.

وعزاه صاحب "ربيع الأبرار" (٥/ ٧٠)، (٢٢٧)، إلى مالك بن دينار.

وأخرجه الشجري في " ترتيب الأمالي الخميسية" (٢٨٥٧)، عن بشر بن الحارث، وفي سنده من لم أقف عليه.

البيت رقم٧٨

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى ... لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا

شرح البيت رقم ٧٨

الإنسانُ يثقلُ في الدُّنيا بسببِ الذُّنوبِ، ويومَ القيامةِ هذا الثِّقلُ يصيرُ في الميزانِ خفيفًا. تخِفُّ موازينُه بسببِ تلكَ الذُّنوب التي أثقلتْه في الدُّنيا عن الطَّاعاتِ، صارَ ثقيلًا فلا يتحرَّكُ إلى العبادة، ثقيلاً فلا يستطيعُ القيامَ إلى الصَّلاةِ، إلى قيام الليل، إلى كثيرٍ من الأمورِ.

فالذُّنوبُ لها ثقلٌ، قال اللهُ: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الشرح [٢، ٣].

وقال: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ العنكبوت [١٣].

فالذُّنوبُ لها حملٌ وثقلٌ، فَثِقَلُكَ في الدُّنيا بالمعاصي والمنكراتِ يُخِفُّ ميزانكَ يومَ القيامةِ.

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ النحل [٢٥].

❁ لذلك قال:

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى ... لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا

أي: بِسببِ جهلك لا تخشى يومَ القيامةِ أن يخفَّ ميزانُكَ، وتخفَّ أنتَ كذلكَ مع أنك ثقيل بالذنوب.

الميزانُ يوم القيامةِ يَثقلُ بالحسناتِ وَيَخِفُّ بالسَّيِّئاتِ، وَميزانُ الدُّنيا يثقلُ بالفواكهِ أو بغيرِها، وميزانُ الآخرةِ إنَّما يثقلُ بالطَّاعاتِ، ويخفُّ بالمعاصي والمنكراتِ. ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الأعراف [٨].

ثَقُلَتْ بِالطَّاعَاتِ، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف [٩]. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، خَفَّتْ بِالْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ الَّتِي أَثْقَلَتْهُ فِي الدُّنْيَا، وَتَحَمَّلَهَا فِي الدُّنْيَا، مَا يُثْقِلُكَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمُنْكَرَاتِ يَكُونُ سَبَبًا لِخِفَّةِ مِيزَانِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ القارعة [٦-١١].

وَقَالَ: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ المؤمنون [١٠٢-١٠٤]. وَالَّذِينَ تَخِفُّ مَوَازِينُهُمْ تَغْشَاهُمُ النَّارُ.

فَثِقْلُ الْمِيزَانِ يومَ القيامةِ بِالطَّاعَاتِ، بذكرِ الله تعالى، وبكلِ عملٍ صالح.

فِي حَدِيثِ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا».(١)

(١) رَوَاهُ مُسْلِم (٢٢٣).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ».(١) فَالْمِيزَانُ يَثْقُلُ بِالطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا.

أَمَّا الْمُعْرِضُ عَنْ دِينِ اللهِ أَوِ الْكَافِرُ مَهْمَا عَمِلَ مِنَ الصَّالِحَاتِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ تَذْهَبُ هَبَاءً مَنْثُورًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ الفرقان [٢٣].

وَقَالَ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ الكهف [١٠٥].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا».

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ».(٢)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَءُوا فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا».(٣) لَيْسَ لَهُ مِيزَانٌ وَلَا يَثْقُلُ بِهِ الْمِيزَانَ وَلَا يُسَاوِي شَيْئًا فِي الْمِيزَانِ. بَيْنَمَا الْمُسْتَقِيمُ الصَّالِحُ يَثْقُلُ مِيزَانُهُ بِوَزْنِ حَسَنَاتِهِ، بِوَزْنِ صَحَائِفِ أَعْمَالِهِ، بِوَزْنِهِ هُوَ أَيْضًا. لِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٦)، (٦٦٨٢)، (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨٠٨).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ».(١) تَعَجَّبَ الصَّحَابَةُ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، قَالَ: مِمَّا تَضْحَكُونَ؟ قَالُوا: مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ. قَالَ: لَهُمَا أَثْقَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ أُحُدٍ. وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ الْبَطِينِ السَّمِينِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. إِنَّمَا ثَقُلَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى خَيْرٍ يَثْقُلُ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَخَفَّ ذَلِكَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ الْبَطِينُ بِسَبَبِ بُعْدِهِ عَنْ دِيْنِ اللهِ تَعَالَى.

❁ قَالَ ابنُ حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُ السَّلَفِ عَنْ سَبَبِ ثِقَلِ الْحَسَنَةِ وَخِفَّةِ السَّيِّئَةِ فَقَالَ لِأَنَّ الْحَسَنَةَ حَضَرَتْ مَرَارَتُهَا وَغَابَتْ حَلَاوَتُهَا فَثَقُلَتْ فَلَا يَحْمِلَنَّكَ ثِقَلُهَا عَلَى تَرْكِهَا وَالسَّيِّئَةُ حَضَرَتْ حَلَاوَتُهَا وَغَابَتْ مَرَارَتُهَا فَلِذَلِكَ خَفَّتْ فَلَا يَحْمِلَنَّكَ خِفَّتُهَا عَلَى ارْتِكَابِهَا.(٢)

تَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ لَا يَجِدُ لِلْعِلْمِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لَذة، بل يَجِدُ الْإِنْسَانُ مَرَارَةً وَصُعُوبَةً فِي الطَّاعَاتِ، يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ وَالضِّيقِ وَالثِّقَلِ لِأَنَّ مَرَارَتَهَا حَاضِرَةٌ. يَحْتَاجُ فِي الْبِدَايَةِ إِلَى تَعَبٍ، فَلَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُ الْعِلْمِ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ، فَيَجِدُ شَيْئًا مِنَ الْمَرَارَةِ وَالتَّعَبِ. بَيْنَمَا إِذَا انْهَمَكَ فِي الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا، يَرَى أَنَّ لَهَا حَلَاوَةً وَلَذَّةً وَمُتْعَةً، وَكُلُّ هَذَا زَائِلٌ وَيَعْقُبُهُ الْعَذَابُ إِذَا كَانَ مُعْرِضاً عَنْ دِينِ اللهِ.

---

(١) رواه أحمد (٣٩٩١).

(٢) "فتح الباري" لابن حجر (١٣/ ٥٤١).

وَإِذَا دَخَلَ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا، يَصْعُبُ عَلَيْهِ الْخُرُوج مِنْهَا، إِذَا أَدْخَلَ الْقَدَمَ الْأُولَى، فَإِنَّهُ يُتْبِعُهَا الْأُخْرَى، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَصْعُبُ الْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ. قَلِيلٌ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الدُّنْيَا وَتَمَكَّنُوا مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا. الدُّنْيَا تَسْحَبُ الْإِنْسَانَ إِلَيْهَا وَتَخْطَفُهُ، وَلَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَالِثٌ، وَلَنْ يَمْلَأَ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَاب، وَجَاءَ مِنْ مَالٍ.(١)

جَاءَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ».(٢)

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي المَالُ».(٣) الْمَالُ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ.

فَالْحَسَنَةُ حَضَرَتْ مَرَارَتُهَا وَغَابَتْ حَلَاوَتُهَا، فَثَقُلَتْ فَلَا يَحْمِلَنَّكَ ثِقْلُهَا عَلَى تَرْكِهَا.

لَا تَسْتَثْقِلِ الْحَسَنَةَ وَإِنْ رَأَيْتَ لَهَا مَرَارَةً وَثِقَلًا، انْظُرْ إِلَى عَاقِبَتِهَا. وَالسَّيِّئَةُ حَضَرَتْ حَلَاوَتُهَا وَغَابَتْ مَرَارَتُهَا، فَلِذَلِكَ خَفَّتْ، النَّاسُ يَرَوْنَهَا خَفِيفَةً وَسَهْلَةً وَيَسِيرَةً.

فَتَجَنَّبْ الشَّهَوَاتِ وَاحْذَرْ أَنْ تَكُونَ لَهُ قَتِيلَا

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٦)، (٦٤٣٧)، ومسلم (١٠٤٩) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا و(٦٤٣٨)، عن ابنِ الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه مسلم (١٠٥٠) عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٣) رواه أحمد (١٧٤٧١)، والترمذي (٢٣٣٦).

فَـلَـرُبَّ شَـــهْـوَةِ سَـــاعَـةٍ قَـدْ أَوْرَثَـتْ حُـزْنًـا طَـوِيـلَا[١]

يَتَلَذَّذُ بِهَا فَتْرَةً ثُمَّ تُورِثُهُ الْحُزْنَ الطَّوِيلَ. فَلَا يَحْمِلَنَّكَ خِفَّةُ السَّيِّئَةِ عَلَى ارْتِكَابِهَا.

تـذكـر يـومَ تـأتي الله فـردًا وقد نصـبت موازين القضـاء
وهتكت السـتور عن المعاصي وجاء الذنب مكشـوف الغطاء[٢]

❁ وَقَالَ بعضُهم:

يَـا جَـامع المَـال يَرْجُو أَن يَـدُوم لَـهُ كُلْ مَا اسْـتَطَعْت وَقدم للموازين
وَلَا تَكُن كَالَّذي قَدْ قَالَ إِذْ حضـرتْ وَفَـاتُـهُ ثـلـث مَـالي لـلْـمَسَـاكِين

❁ وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعْلَمُوا يَا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمِيزَانَ إِذَا نُصِبَ لِلْعَبْدِ فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَهْوَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. الْعَبْدُ إِذَا نَظَرَ إِلَى مِيزَانِهِ، انْخَلَعَ فُؤَادُهُ وَكَثُرَتْ خُطُوبُهُ وَعَظُمَتْ كُرُوبُهُ. لَا تَهْدَأُ رَوْعَةُ الْعَبْدِ حَتَّى يَرَى أَيَثْقُلَ مِيزَانُهُ أَمْ يَخِفُّ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ فَقَدْ سَعِدَ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا، وَإِنْ خَفَّ مِيزَانُهُ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا وَلَقِيَ مِنَ الْعَذَابِ أَمْرًا عَظِيمًا.[٣]

❁ وَكَمَا قِيلَ:

دَعُونِي عَلَى نَفْســـي أَنُوحُ وَأَنْدُبُ بِـدِمْـعٍ غَـزِيـرٍ وَاكِـفٍ يَـتَصَـبَّبُ
دَعُونِي عَلَى نَفْســـي أَنُوحُ لِأَنَّنِي أَخَافُ عَلَى نَفْســي الضَّعِيفَةِ تُعْطَبُ
فَمَنْ لِي إِذَا نَادَى الْمُنَادِي بِمَنْ عَصَـا إِلَى أَيْـنَ أَلْجَـأُ أَمْ إِلَى أَيْـنَ أَذْهَـبُ
فَيَا طُولَ حُزْنِي ثَمَّ يَا طُولَ حَسْـرَتِي إِذَا كُـنْـتُ فِي نَـارِ الْجَحِيمِ أُعَـذَّبُ

(١) نسبها الدينوري في "المجالسة" (١٦٩٣)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٥/٢٠)، لسابق البربري. وفي "الديباج" للختلي(١١٧)، قال: أَنْشَدَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقَيْنُ، قَالَ: أَنْشَدَنِي العتبي، فذكرها.

(٢) "التذكرة" للقرطبي (صـ: ٧٢٥).

(٣) "بستان الواعظين" (صـ:٥٢).

وَقَدْ ظَهَرَتْ تِلْكَ القَبَائِحُ كُلُّهَا ... وَقَدْ قُرِّبَ الْمِيزَانُ وَالنَّارُ تَلْهَبُ
وَلَكِنَّنِي أَرْجُو الإِلَهَ لَعَلَّهُ ... بِحُسْنِ رَجَائِي فِيهِ لِي يَتَوَهَّبُ
وَيُدْخِلَنِي دَارَ الْجِنَانِ بِفَضْلِهِ ... فَلَا عَمَلٌ أَرْجُو بِهِ أَتَقَرَّبُ
سِوَى حُبِّ النَّبِي الهاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ ... وَأَصْحَابِهِ وَالآلِ مَنْ قَدْ تَرَهَّبُوا(١)

الذُّنُوبُ تُثْقِلُ الْإِنْسَانَ وَتُخِفُّ الميزان، لَا تَأْمَنْ مَنْ عَذَابِ اللهِ وعقابِهِ، وَأَنْتَ قَدْ ثَقُلَ جِسْمُكَ فِي الدُّنْيَا بِالْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ وَتَحَمَّلْتَ الْأَوْزَار.

ثَقِلْ مِيْزَانَكَ بالطاعة، وَخففْ عن كاهِلك أَثْقَالَ المعاصي، والبدع، وسائر المخالفات.

ما يَثْقُلُ المِيزانُ إلا بامْرِئٍ ... قَد خَفَّ كاهِلُهُ مِنَ الأَثْقالِ
فَخُذِ الكَفافَ ولا تَكُن ذا فضْلَةٍ ... فالفَضْلُ تُسْأَلُ عَنْهُ أَيَّ سُؤالِ
ودَعِ المَطارفَ والمَطِيَّ لأَهْلِهَا ... واقنَعْ بأَطْمارٍ ولُبْسِ نِعالِ
فَهُمُ وأَنْتَ وفَقْرُنا وغِناهُم ... لا يَسْتَقِرُّ ولا يَدُومُ بِحَالِ(٢)

فَلَيْسَ لَكَ الأَمَانُ مِنَ العَذَابِ إِلَّا إِذَا وَصَلْتَ إِلَى جَنَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُنَاكَ تَأْمَنُ، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَلَسْتَ بِمَأْمن لَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الانْقِلَابِ عَلَى عَقِبَيْكَ، وَلَا عِنْدَ المَوْتِ، وَلَا فِي القَبْرِ، وَلَا فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ، وَلَا عِنْدَ الحَوْضِ، وَلَا عِنْدَ المِيزَانِ، وَلَا عِنْدَ الصِّرَاطِ، وَلَا عِنْدَ القَنْطَرَةِ. وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

---

(١) "بحر الدموع" (صـ:٢٨).

(٢) "ديوان" أبي إسحاق الإلبيري (صـ: ٤١).

البيت رقم ٧٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى المَعَاصِي ... وَتَرْحَمُهُ وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا

شرح البيت رقم ٧٩

مَعْنَى هَذَا: أَنْتَ أَحَقُّ بِالإِشْفَاقِ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ إِشْفَاقِكَ عَلَى غَيْرِكَ، إِشْفَاقُكَ عَلَى نَفْسِكَ أَوْلَى مِنْ إِشْفَاقِكَ عَلَى غَيْرِكَ.

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تعالى أَهْلَ الإيمانِ بالخوفِ والإشفاق من عذابه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ المؤمنون [٥٧].

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ الطور [٢٥-٢٧].

❁ قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره": أَيْ خَائِفِينَ وَجِلِينَ، فَتَرَكْنَا مِنْ خَوْفِهِ الذُّنُوبَ وَأَصْلَحْنَا لِذَلِكَ العُيُوبَ.ا.هـ.

❁ وَقَالَ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الأضواء": وَقَدْ ذَكَرَ - جَلَّ وَعَلَا - أَنَّ الْإِشْفَاقَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ مَنْطُوقُ آيَةِ الطُّورِ هَذِهِ. ا.هـ.

وَقَالَ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ الأنبياء [٤٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ المعارج [٢٧، ٢٨].

❁ قَالَ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ: لَا يَأْمَنُهُ أَحَدٌ مِمَّنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ إِلَّا بِأَمَانٍ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.ا. هـ.

❁ وَقَالَ القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقِيلَ: لَا يَأْمَنُهُ أَحَدٌ، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَخَافَهُ وَيُشْفِقَ مِنْهُ.ا. هـ.

وَقَالَ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ الأنبياء [٤٩].

❁ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَصَفَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِالْمَخَافَةِ وَالْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ وَالشَّفَقَةِ فِي الدُّنْيَا فَأَعْقَبَهُمْ بِهِ النَّعِيمَ وَالسُّرُورَ فِي الْآخِرَةِ، وَقَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ الطور [٢٦، ٢٧].

❁ قَالَ: وَوَصَفَ أَهْلَ النَّارِ بِالسُّرُورِ فِي الدُّنْيَا وَالضَّحِكِ فِيهَا وَالتَّفَكُّهِ. فَقَالَ: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ الانشقاق [١٣]. (١)

❁ قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَنْبَغِي لِمَنْ لَمْ يَحْزَنْ أَنْ يَخَافَ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ قَالُوا: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ. وَيَنْبَغِي لِمَنْ لَمْ يَشْفِقْ أَنْ يَخَافَ أَلَّا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّا كُنَّا فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ. (٢)

فَالإِنْسَانُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْفِقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَنْ يَخَافَ عَلَيْهَا مِنْ عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْ يَرْحَمَهَا بِابْتِعَادِهِ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ، فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ الزمر [٤٧].

---

(١) "التذكرة" (صـ: ٩٢٩)، و "تفسير القرطبي" (١٩/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الهم والحزن" (٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢١٥)، والبيهقي في "الشعب" (٨٧٣)، من طريق أَحْمَد بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ بِشْرِ بْنِ سَلْمٍ الْكُوفِيِّ، عَنْ مِسْعَرَ، عَنْ بُكَيْرٍ، أَوْ أَبِي بُكَيْرٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، فذكره. وبِشْرِ بْنِ سَلْمٍ الْكُوفِيِّ، قال أبو حاتم: هو منكر الحديث. "الجرح والتعديل" لابنه (٢/ ٣٥٨).

❁ جَاءَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ: أَنَّهُ جَزِعَ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ تَجْزَعُ؟ فَقَالَ: أَخْشَى آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ الزمر [٤٧]. وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَبْدُوَ لِي مِنَ اللهِ مَا لَمْ أَكُنْ أَحْتَسِبُ.(١)

فَيَنْبَغِي عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ حَذِرًا مِنْ ذُنُوبِهِ، فَمَا زَالَتْ نِعْمَةٌ إِلَّا بِسَبَبِهَا، وَمَا حَلَّتْ نِقْمَةٌ إِلَّا بِسَبَبِهَا.

❁ قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ: أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ، وَتُحِلُّ النِّقَمَ، فَمَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا حَلَّتْ بِهِ نِقْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ.(٢)

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ، وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ الْحَاضِرَةَ، وَتَقْطَعُ النِّعَمَ الْوَاصِلَةَ، فَتُزِيلُ الْحَاصِلَ، وَتَمْنَعُ الْوَاصِلَ، فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا وَآفَةً، سَبَبًا يَجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعَمِهِ الْجَالِبَةِ لَهَا طَاعَتَهُ، وَآفَاتِهَا الْمَانِعَةَ مِنْهَا مَعْصِيَتَهُ، فَإِذَا أَرَادَ حِفْظَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَلْهَمَهُ رِعَايَتَهَا بِطَاعَتِهِ فِيهَا، وَإِذَا أَرَادَ زَوَالَهَا عَنْهُ خَذَلَهُ حَتَّى عَصَاهُ بِهَا.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣/١٤٦)، ومن طريق ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٥٦/٦٧)، من طريق أَبي الْفَرَجِ أَحْمَد بْن جَعْفَرٍ النَّسَائِيُّ قَالَ: ثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفِرْيَابِيُّ، ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمَّارٍ، ثَنَا عَتِيقُ بْنُ سَالِمٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، فذكره. وشيخ أبي نعيم، قال البرقاني: كتبت عَنْهُ شيئا يسيرا. ولا أعرف حاله. وقال ابنُ الفرات: كان غير ثقة لا أكتب عنه شيئا. كما في "تاريخ بغداد" ط العلمية (٤/ ٢٩٢)، وعتيق تصحف من عفيف. وأخرجه الثعلبي في "تفسيره" (٨/٢٤٠)، وشيخ الثعلبي الحسين بن محمد بن فَنْجَوَيْه، كَانَ ثِقَةً صَدُوْقاً، كَثِيْرَ الرِّوَايَةِ لِلْمَنَاكِيرِ. (١٧/ ٣٨٢)، وفيه عبيد الله بن محمد بن شنبه، لم أقف له على ترجمة.

(٢) "الجواب الكافي" (صـ:٧٤).

وَمِنَ الْعَجَبِ عِلْمُ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مُشَاهَدَةً فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَسَمَاعًا لِمَا غَابَ عَنْهُ مِنْ أَخْبَارِ مَنْ أُزِيلَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَنْهُمْ بِمَعَاصِيهِ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَأَنَّهُ مُسْتَثْنًى مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، أَوْ مَخْصُوصٌ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ، وَكَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَارٍ عَلَى النَّاسِ لَا عَلَيْهِ، وَوَاصِلٌ إِلَى الْخَلْقِ لَا إِلَيْهِ، فَأَيُّ جَهْلٍ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ ظُلْمٍ لِلنَّفْسِ فَوْقَ هَذَا؟ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.(١)

❁ وَقَالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فما أُزيلت نعم الله بغير معصيته...فآفتك من نفسك، وبلاؤك من نفسك، وأَنت في الحقيقة الذي بالغت في عداوتك، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك،

❁ كما قيل:

مَا يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ(٢)

❁ قَالَ ابْنِ الْمُبَارَكِ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
هَلْ بَدَّلَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا(٣)

---

(١) "الجواب الكافي"(صـ: ١٠٦).

(٢) "طريق الهجرتين" (صـ: ٦٤).

(٣) أخرجها ابن المقرئ في "معجمه" (١٢٠٥)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٦٧/٣٢)، من طريق عَبَّاسٌ بن محمد بن الحسن، ثنا أَبُو عُمَيْرٍ عِيسَى بْنُ مُحَمَّدٍ النَّحَّاسُ، ثنا أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الْمُبَارَكِ، فذكره وأخرجها البيهقي في "الشعب" (٦٩١٨)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٦٨/٣٢)، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (١١٠٠)، وأبو نعيم في "الحلية"(٢٧٩/٨)، من طريق يُونُس بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ: أَنْشَدَنِي

"وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا"، يَنْبَغِي أَنْ تَرْحَمَ نَفْسَكَ وَأَنْ تَشْفِقَ عَلَيْهَا مِنْ عَذَابِ اللهِ.

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحُطْهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَا ... دِ فَرَبُّ الْعِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمْ
وَإِيَّاكَ وَالظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْ ... تَ فَظُلْمُ الْعِبَادِ شَدِيدُ الْوَخَمْ

فَالْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا خَائِفٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ، مُشْفِقٌ أَنْ يُعَاقَبَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِ، بِخِلَافِ الْمُعْرِضِ، فَهُوَ فِي الدُّنْيَا فِي سُرُورٍ، فِي لَهْوٍ، فِي ضَحِكٍ، فِي لَعِبٍ، كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ الانشقاق [١٣]. قَالَ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره" للآية: أَيْ: فَرِحًا لَا يُفَكِّرُ فِي الْعَوَاقِبِ، وَلَا يَخَافُ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَعْقَبَهُ ذَلِكَ الْفَرَحُ الْيَسِيرُ الْحُزْنَ الطَّوِيلَ.ا.هـ.

فَهُمْ فِي لَعِبٍ، وَاسْتِهْزَاءٍ، وَضَحِكٍ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ المطففين [٢٩-٣٢].

وَالمُؤْمِنُ مُشْفِقٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ، خَائِفٌ مِنْ عِقَابِهِ، مُبْتَعِدٌ عَنِ المَعَاصِي وَالمُنْكَرَاتِ، مُقْبِلٌ عَلَى اللهِ. ويَوْمَ القِيَامَةِ بِالعَكْسِ، المُؤْمِنُ يَفْرَحُ، يَذْهَبُ حُزْنُهُ وَخَوْفُهُ، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ فاطر [٣٤، ٣٥].

سَلْمٌ الْخَوَّاصُ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، فذكره. والخواص، قال العقيلي: حدث بمناكير لا يتابع عليها. وقال أبو حاتم: لا يكتب حديثه. وانظر "الميزان" (٢/١٨٧). وله طرق أخرى.

وأخرجه الدينوري في "المجالسة" (١٧٧)، عن إبراهيم بن أدهم.

وَالمُعْرِضُ يَكُونُ فِي حُزْنٍ، وَعِقَابٍ وَعَذَابٍ شَدِيدٍ مُؤْلِمٍ مُسْتَمِرٍّ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ المَعَاصِي، فَإِنَّهُ بِقَدْرِ مَعْصِيَتِهِ، ثُمَّ يَؤُولُ أَمْرُهُ إِلَى جَنَّةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا. وَقَدْ يُغْفَرُ لَهُ فَلا يَدْخلُ النار.

المعاصي تُزيلُ النعم، وَتُحِلُ النِقم.

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبدٌ ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ الرعد [١١].

وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها.

❁ وقال بعض السلف: أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل سنة. وقال آخر: أذنبت ذنباً فحرمت فهم القرآن.

❁ وفي مثل هذا قيل:

إِذا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ المعاصِي تُزِيلُ النِّعَم

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب، عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته. (١)

وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى المَعَاصِي ... وَتَرْحَمُهُ وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا

.

(١) "طريق الهجرتين" (صـ:٢٧١).

البيت رقم ٨٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوَا ... لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لما رَجَعْتَا

شرح البيت رقم ٨٠

"رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى"، رَجَعْتَ إِلَى الخَلْفِ، حَصَلَ تَرَاجُعٌ، تَقَهْقُرٌ، تَأَخُّرٌ. تَقَدَّمْتَ فِي الخَيْرِ قَلِيلًا، ثُمَّ تَأَخَّرْتَ، فَرَجَعْتَ إِلَى المَعَاصِي وَالمُنْكَرَاتِ.

"وَخَبَطْتَ عَشْوَا"، أَيْ: تَخبِطُ كَمَا تَتَخَبَّطُ النَّاقَةُ العَمْيَاءُ، أَوِ الَّتِي ضَعُفَ بَصَرُهَا.

❁ قَالَ زُهيرٌ:

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

وَمن أمثالهم السائرة: هُوَ يخبِط خَبْط عشواء، يُضرب مثلا للسادر الَّذِي يركب رَأسه وَلَا يهتم لعاقبته، كالناقة العشواء الَّتِي لَا تبصر، فَهِيَ تخبط بِيَدَيْهَا كل مَا مرَّت بِهِ، وشَبَّه زُهَيْر المنايا بخبط عشواء لِأَنَّهَا تعمّ الكلّ وَلَا تخصّ.(١) السَّادِرُ: الْمُتَحَيِّرُ. وَيَقُولُونَ: السَّادِرُ هُوَ الَّذِي لَا يُبَالِي مَا صَنَعَ، وَلَا يَهْتَمُّ بِشَيْءٍ.(٢)

النَاقَةُ العَشْوَاءِ: هِيَ النَّاقَةُ الَّتِي ضَعُفَ بَصَرُهَا، تَتَخَبَّطُ فِي سَيْرِهَا.

وهكذا كلُ من تقهقر، وعَمِيَ عن الحق، يخبِطُ يمنةً ويسرة، فهو حائر لا يهتدي للحق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ ق [٥].

---

(١) "تهذيب اللغة" (٣/ ٣٦).

(٢) "مقاييس اللغة" (٣/ ١٤٨).

❁ قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره" للآية: أي: مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك: إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وكذلك جعلوا القرآن عضين، كل قال فيه، ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا، **كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدري له وجهة ولا قرار**. ا.هـ. وفي نسخة (وجه، ولا قرار).

❁ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَكُلَّمَا كَانَتْ الْفُرْقَةُ عَنْ الْحَدِيثِ أَبْعَدَ كَانَ اخْتِلَافُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ أَشَدَّ وَأَكْثَرَ، **فَإِنَّ مَنْ رَدَّ الْحَقَّ مَرَجَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَاخْتَلَطَ عَلَيْهِ وَالْتَبَسَ عَلَيْهِ وَجْهُ الصَّوَابِ فَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ يَذْهَبُ**.(١)

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ الذاريات [٨، ٩].

فالقول المختلف أقوالهم في القرآن، وفي النبي وهو خرص كله فإنهم لما كذبوا بالحق؛ اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب، كما قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ ق [٥]. أي: مختلط ملتبس.(٢)

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ.

واللهُ تعالى يقول: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الأنعام [١١٠].

---

(١) "إعلام الموقعين" (٢/ ١٧٣).

(٢) "التبيان في أقسام القرآن" (صـ: ٢٨٨).

فائدة: حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك فإنك تعاقب بتقليب القلب، ورد ما يرد عليك من الحق رأسا ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الأنعام [١١٠]. **فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.**

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ التوبة [٨٣]. **فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة.**(١)

فمِنْ أَسْبَابِ التَّقَهْقُرِ، والخبط مخالفة الحق ورده كما في الآيات السابقة.

ومنها: المَيْلُ إِلَى الدُّنْيَا، وَالدُّخُولُ فِيهَا مع الانشغال عن ذكر اللهِ وطاعتهِ. فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ فُتِنَ بِسَبَبِهَا؟ وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ زَاغَ بِسَبَبِهَا؟ وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ كَفَرَ بِسَبَبِهَا؟ وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ تَرَكَ السُّنَّةَ بِسَبَبِهَا؟ فَهِيَ سَبَبٌ لِذُلِّ القُلُوبِ وقسوتها، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَلِذَلِكَ خَشِيَ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْهَا مَا لَمْ يَخْشَهُ عَلَيْهَا مِنَ الفَقْرِ.

وَقَالَ: «فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».(٢)

---

(١) "بدائع الفوائد" (٣/ ١٨٠ ـ ١٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٨)، (٤٠١٥)، (٦٤٢٥)، ومسلم (٢٩٦١)، عن عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجاء عند البخاري (٤٠٤٢)، بنحوه عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَمَا جَاءَ عند ابنِ ماجه مِنْ حَديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْفَقْرَ وَنَتَخَوَّفُهُ، فَقَالَ: «آلْفَقْرَ تَخَافُونَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُصَبَّنَّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا، حَتَّى لَا يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاغَةً إِلَّا هِيهْ، وَايْمُ اللَّهِ، لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ».

❁ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: صَدَقَ وَاللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «تَرَكَنَا وَاللَّهِ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ».(١) فَيَحْذَرُ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهَا، واللهُ يَقُولُ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ الصف [٥]

وَذَلِكَ العَالِمُ الَّذِي أَتَاهُ اللهُ الآيَات، فانْسَلَخَ مِنْهَا، كَانَ مِنْ أَسْبَابِ انْسِلَاخِهِ المَيْلُ إِلَى الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۡۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأعراف [١٧٥، ١٧٦].

وَمِمَّا يُزِيغُ القُلُوبَ وَيَكُونُ سَبَبًا لِلتَّقَهْقُرِ: الشُّبُهَاتُ.

قَالَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ».(٢)

---

(١) رواه ابن ماجه (٥)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيحة" (٦٨٨)

(٢) رواه البخاري (٥٢)، (٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).

❁ قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَكْثَرُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ عَلَى هَذَا التَّحذِيرِ، يَرَوْنَ أَنَّ القُلُوْبَ ضَعِيْفَةٌ، وَالشُّبَهُ خَطَّافَةٌ.(١)

وَمِنْهَا: الشَّهَوَاتُ، تُسَبِّبُ الانْتِكَاسَاتِ. قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ: أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَخْذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَاتِمَةِ الْحُسْنَى. وَاعْلَمْ أَنَّ سُوءَ الْخَاتِمَةِ - أَعَاذَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا - لَا تَكُونُ لِمَنِ اسْتَقَامَ ظَاهِرُهُ وَصَلُحَ بَاطِنُهُ، مَا سُمِعَ بِهَذَا وَلَا عُلِمَ بِهِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ لَهُ فَسَادٌ فِي الْعَقْدِ، أَوْ إِصْرَارٌ عَلَى الْكَبَائِرِ، وَإِقْدَامٌ عَلَى الْعَظَائِمِ، فَرُبَّمَا غَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْزِلَ بِهِ الْمَوْتُ قَبْلَ التَّوْبَةِ، فَيَأْخُذُهُ قَبْلَ إِصْلَاحِ الطَّوِيَّةِ، وَيَصْطَلِمُهُ قَبْلَ الْإِنَابَةِ فَيَظْفَرُ بِهِ الشَّيْطَانُ عِنْدَ تِلْكَ الصَّدْمَةِ، وَيَخْتَطِفُهُ عِنْدَ تِلْكَ الدَّهْشَةِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.(٢) ناقلا عن غيره.

وَمِنْهَا: العُجْبُ، **وَمِنْهَا**: الكِبْرُ، **وَمِنْهَا**: الغُرُورُ، **وَمِنْهَا**: التَّعَالِي، **وَمِنْهَا**: التَّأَلِّي عَلَى اللهِ، ونحو هذه الأشياء وقد تكون خفيَة.

❁ قالَ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَوْلُهُ: "**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**" إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بَاطِنَ الْأَمْرِ يَكُونُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، **وَأَنَّ خَاتِمَةَ السُّوءِ تَكُونُ بِسَبَبِ دَسِيسَةٍ بَاطِنَةٍ لِلْعَبْدِ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ، إِمَّا مِنْ جِهَةِ عَمَلٍ سَيِّئٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَتِلْكَ الْخَصْلَةُ الْخَفِيَّةُ تُوجِبُ سُوءَ الْخَاتِمَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ،** وَكَذَلِكَ قَدْ يَعْمَلُ الرَّجُلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَفِي بَاطِنِهِ خَصْلَةٌ خَفِيَّةٌ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ، فَتَغْلِبُ عَلَيْهِ تِلْكَ الْخَصْلَةُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، فَتُوجِبُ لَهُ حُسْنَ الْخَاتِمَةِ.(٣)

---

(١) "السير" ط الرسالة (٧/ ٢٦١).

(٢) "الجواب الكافي" (ص: ١٦٧).

(٣) "جامع العلوم والحكم" ت الأرنؤوط (١/ ١٧٢). وقوله (فيما يبدو للناس)، رواه البخاري (٢٨٩٨)، (٤٢٠٢)، (٤٢٠٧)، ومسلم (١١٢)، عن سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَمِنْهَا صُحْبَةُ الأَشْرَارِ وَالجُلَسَاءِ المُفْسِدِينَ. قَدْ يَكُونُ هَذَا الجَلِيسُ مِمَّنْ يُحِبُّ الخَيْرَ، لَكِنْ يُسَهِّلُ لَكَ البُعْدَ عَنِ العِلْمِ، وَالمَيْلَ إِلَى الدُّنْيَا، فاحذرْ مِنْ ذَلِكَ.

كَذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ التَّقَهْقُرِ: النِّيَّةُ الفَاسِدَةُ، وَفِي الجَسَدِ مُضْغَةٌ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ.

أَيْضًا مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ: عَدَمُ أَخْذِ هَذَا الدِّينِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، يَأْخُذُ جَانِبًا وَيَتْرُكُ الجَانِبَ الآخَرَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ الحج [١١]. لِأَنَّهُ عَبَدَ اللهَ عَلَى حَرْفٍ، جَانِبٍ مِنَ الدِّينِ، أَخَذَ بَعْضَ الأَدِلَّةِ، فَتَمَسَّكَ بِهَا، وَتَرَكَ البَعْضَ الآخَرَ. هَذَا سَبَبٌ لِلتَّغَيُّرِ وَالتَّقَهْقُرِ.

وَأنكرَ اللهُ تعالى على من آمن ببعض الكتاب وترك البعض، ﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ البقرة [٨٥].

واللهُ يقولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ البقرة [٢٠٨]. أَيْ: خُذُوا الإِسْلَامَ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، خُذُوا الدِّينَ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ.

يَقُولُ اللهُ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ مريم [٧٦]. صَاحِبُ الهِدَايَةِ يَزِيدُهُ اللهُ، وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللهِ وَتَضَرَّعَ زَادَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ. وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (أَسْأَلُكَ إِيمَانًا لَا يَرْتَدُّ)، كَمَا جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعَبْدُ اللَّهِ يُصَلِّي، فَافْتَتَحَ النِّسَاءَ فَسَحَلَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ» ، ثُمَّ تَقَدَّمَ سْأَلْ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ» ، فَقَالَ: فِيمَا سَأَلَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَانًا لَا يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي أَعْلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ. قَالَ: فَأَتَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ عَبْدَ اللَّهِ لِيُبَشِّرَهُ، فَوَجَدَ أَبَا بَكْرٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَدْ سَبَقَهُ، فَقَالَ: إِنْ فَعَلْتَ، لَقَدْ كُنْتَ سَبَّاقًا بِالْخَيْرِ.(١) .لَا يَرْتَدُّ، لَا يَذْهَبُ.

"لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لما رَجَعْتَا"، لو وصلت إلى الإيمان، وذقت حلاوته، وخالط بشاشة قلبك فانشرح به؛ لما رجعتَ عَنْهُ.

قالَ هرقل لأبي سفيان: وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ.(٢) فَالإِيمَانُ إِذَا خَالَطَتْ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ، يَثْبُتُ وَيَزِيدُ. وإذا وَجَدَ العَبْدُ لِلإِيمَانِ حَلَاوَةً، وَخَلَا مِنْ مُفْسِدَاتِ القَلْبِ

(١) رواه أحمد (٣٦٦٢)، (٣٧٩٧)، (٤١٦٥)، (٤٢٥٥)، وابن أبي شيبة في "مسنده"(٣٩٨)، والطبراني في "الكبير" (٨٤١٦)، (٨٤١٧)، والحاكم (١٩٢٨)، وغيرهم، وهو في "الصحيحة" (٢٣٠١).

(٢) رواه البخاري (٧)، (٥١)، (٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣).

كَالشَّهَوَاتِ، وَالعُجْبِ، وَالغُرُورِ، وَالتَّعَالِي عَلَى اللهِ، وَالكِبْرِ، وَنَحْوِ هَذِهِ الأَمْرَاضِ، فَإِنَّهُ بِإِذْنِ اللهِ يَثْبُتُ عَلَى الإِيمَانِ، مَعَ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ.

وقوله: **"لَعَمْرُكَ"**، استعمال هذا اللفظة، هناك كلام جميل للشيخ بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتابه الماتع "معجم المناهي اللفظية" حيثُ قالَ:

❁ قال القرطبي – رحمه الله تعالى – في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الحجر [٧٢]. (كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان: لعمري؛ لأن معناه: وحياتي...وقال قتادة: هو من كلام العرب...

قلت: القسم بـ لعمرك، و: لعمري، ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها كثير.

❁ قال النابغة:

لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ ... لَقَدْ نَطَقَتْ بُطْلًا عَلَيَّ الْأَقَارِعُ

❁ وآخر:

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا ... عَمْرَكَ اللَّهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ

وللشيخ حماد الأنصاري المدني رسالة باسم (**القول المبين في أن لعمري ليست نصاً في اليمين**).

والتوجيه أن يقال: إن أراد القسم منع، وإلا فلا، كما يجري على اللسان من الكلام مما لا يراد به حقيقة معناه، كقوله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ – لعائشة – رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا –: ((عقرى حلقى)) الحديث. والله أعلم.[1]

---

(١) "معجم المناهي اللفظية" (صـ: ٤٥٦)، وقد تقدم كلامه كاملا عند البيت رقم ٣٦

البيت رقم ٨١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَـوْ وَافَـيْـتَ رَبَّـكَ دُونَ ذَنْـبٍ وَنُوقِشْـتَ الْحِسَـابَ إِذاً هَلَكْتَا

شرح البيت رقم ٨١

أَيْ: لَوْ قَدَّمْتَ عَلَى اللهِ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ ذُنُوبٌ، وَنُوقِشْتَ الحِسَابَ، إِذَا هَلَكْتَ. عُمُومًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ الكهف [٤٩]. وَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء [٤٠].

وَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ يونس [٤٤]. وَقَالَ تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ طه [١١٢].

وَلَا يُعَذِّبُ أَحَدًا بِدُونِ ذَنْبٍ أَبَدًا. وَإِنَّمَا إِذَا دُقِّقَ فِي حِسَابِ الإِنْسَانِ، فَإِنَّ عِنْدَهُ مُخَالَفَات، وَعِنْدَهُ تَقْصِيرٌ فِي الأَوَامِرِ، رُبَّمَا وَقَعَ فِي بَعْضِ النَّوَاهِي، هُنَاكَ نِعَمٌ كَثِيرَةٌ لَمْ يَقُمْ بِشُكْرِ اللهِ عَلَيْهَا، مَا وَفَّاهَا حَقًّا مِنْ شُكْرِ اللهِ عَلَيْهَا. وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الإِنْسَانَ بِلَا ذَنْبٍ. فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عُذِّبَ» فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ الانشقاق [٨] ؟ فَقَالَ: «لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ».(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

❁ وَقَالَ الحَافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مِنَ الْمُنَاقَشَةِ وَأَصْلُهَا الِاسْتِخْرَاجُ وَمِنْهُ نَقَشَ الشَّوْكَةَ إِذَا اسْتَخْرَجَهَا، وَالْمُرَادُ هُنَا: الْمُبَالَغَةُ فِي الِاسْتِيفَاءِ وَالْمَعْنَى أَنَّ تَحْرِيرَ الْحِسَابِ يُفْضِي إِلَى

(١) رواه البخاري (١٠٣)، (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

اسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ حَسَنَاتِ الْعَبْدِ مَوْقُوفَةٌ عَلَى الْقَبُولِ وَإِنْ لَمْ تَقَعِ الرَّحْمَةُ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْقَبُولِ لَا يحصل النجَاة.(١)

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هُوَ مِنَ النَّقْشِ وَهُوَ اسْتِخْرَاجُ الشَّوْكَةِ، وَالْمُرَادُ بِالْمُنَاقَشَةِ الِاسْتِقْصَاءُ فِي الْمُحَاسَبَةِ وَالْمُطَالَبَةُ بِالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ وَتَرْكِ الْمُسَامَحَةِ يُقَالُ انْتَقَشْتُ مِنْهُ حَقِّي أَيِ اسْتَقْصَيْتُهُ. وَمِنْهُ نَقْشُ الشَّوْكَةِ إِذَا اسْتَخْرَجَهَا، وَالْمُرَادُ هُنَا الْمُبَالَغَةُ فِي الِاسْتِيفَاءِ.(٢)

❁ وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَعْنَى نُوقِشَ: اسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ. قال الْقَاضِي: وَقَوْلُهُ: "**عُذِّبَ**" لَهُ مَعْنَيَانِ: **أَحَدُهُمَا**: أَنَّ نَفْسَ الْمُنَاقَشَةِ وَعَرْضَ الذُّنُوبِ وَالتَّوْقِيفَ عَلَيْهَا هُوَ التَّعْذِيبُ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّوْبِيخِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ مُفْضٍ إِلَى الْعَذَابِ بِالنَّارِ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ، فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى **هَلَكَ** مَكَانَ **عُذِّبَ** هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي وَهَذَا الثَّانِي هُوَ الصَّحِيحُ وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّقْصِيرَ غَالِبٌ فِي الْعِبَادِ فَمَنِ اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَامَحْ هَلَكَ وَدَخَلَ النَّارَ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْفُو وَيَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ لِمَنْ يَشَاءُ.(٣)

فَقَوْلُهُ: "**وَنُوقِشْتَ الْحِسَابَ إِذاً هَلَكْتَا**"، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ صَرِيحُ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: (مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ)، اسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ، لَمْ يُسَامَحْ، لَمْ يُعْفَ عَنْهُ، لَمْ يُغْفَرْ لَهُ. مَنْ نَقَشَ الشَّوْكَةَ يَحْتَاجُ إِلَى دِقَّةٍ فِي نَقْشِهَا وَاسْتِخْرَاجِهَا.

---

(١) "فتح الباري" لابن حجر (١/ ١٩٧).

(٢) "فتح الباري" لابن حجر (١١/ ٤٠١).

(٣) "شرح النووي على مسلم" (١٧/ ٢٠٩).

البيت رقم٨٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَمْ يَظْلِمْكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِنْ عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتَا

شرح البيت رقم ٨٢

أَيْ: هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي تُعَذَّبُ بِهِ إِنَّمَا هُوَ بِتَقْصِيرٍ مِنْكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَلَّفَكَ بِأُمُورٍ، وَعَسِيرٌ رُبَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَقُومَ بِجَمِيعِ مَا كُلِّفْتَ بِهِ، فَيَقَعُ مِنْكَ التَّقْصِيرُ وَالْخَلَلُ.

فَإِذَا نُوقِشَتِ الْحِسَابَ وَعَذَّبَكَ اللَّهُ؛ فَبِسَبَبِ ذُنُوبِكَ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا».(١)

"وَلَمْ يَظْلِمْكَ فِي عَمَلٍ"، لَا يَظْلِمُ اللَّهُ أَحَدًا مِنَ الْعِبَادِ أَبَدًا،

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ق [٢٩]. ﴿ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فصلت [٤٦]. ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الزخرف [٧٦].

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ النحل [١١٨]. ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ هود [١٠١].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وفي قولِ الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ الرعد [٢١]. في سوء الحساب ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها المناقشة بالأعمال، وقال النخعي: هو أن يحاسَب بذنبه كله، فلا يُغفر له منه شيء.

والثاني: أن لا تُقبل منهم حسنة، ولا يُتجاوز لهم عن سيئة.

والثالث: أنه التّوبيخ والتّقريع عند الحساب. (١)

❁ قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سُوءُ الْحِسَابِ الِاسْتِقْصَاءُ فِيهِ وَالْمُنَاقَشَةُ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ. (٢)

كأنكم بالقيامةِ قَدْ قَامَتْ وَبِالنَّفْسِ الأَمَارَةِ بِالسوءِ قَدْ لَامَتْ وَانْفَتَحَتْ عُيُونٌ طَالَ مَا نَامَتْ وَتَحيَرَتْ قُلُوبُ العُصَاةِ وَهَامَتْ

غَـدًا تُوَفَّى النُّفُوسُ مَا كَسَبَتْ ... وَيَحْصُدُ الزَّارِعُونَ مَا زَرَعُوا
إِنْ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا لأَنْفُسِهِمْ ... وَإِنْ أَسَاءُوا فَبِئْسَ مَا صَنَعُوا (٣)

❁ وَكَمَا قِيلَ:

مَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا المَغْرُوْرُ ... يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُوْرُ
قَدْ كُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وأُضْعِفَتْ ... حَرّاً عَلَى رُؤُوسِ العِبَادِ تَفُوْرُ
وَإِذَا الجِبَالَ تَعَلّقَتْ بِأُصُوْلِهَا ... فَرَأَيْتَهَا مِثْلَ السَّحَابِ تَسِيْرُ
وَإِذَا النُّجُومُ تَسَاقَطَتْ وَتَنَاثَرَتْ ... وَتَبَدَّلَتْ بَعْدَ الضِّيَاءِ كَدُوْرُ

---

(١) "زاد المسير" لابن الجوزي،

(٢) "تفسير القرطبي" للآية المذكورة.

(٣) "المدهش" لابن الجوزي (صـ:٤٨١).

وَإِذَا العِشَـــارُ تَعَطَّلَتْ عَنْ أَهْلِهَا ... خَـلَـتِ الـدِّيَـارُ فَـمَا بِهَا مَـعْـمُـوْرُ
وَإِذَا الوُحُوْشُ لَدَى القِيَامَةِ أُحضِـرتْ ... وَتَـقُـوْلُ لِـلأَمْـلاَكِ أَيْـنَ نَسِـيْرُ
فَيُقَالُ سِـيْرُوْا تَشْـهَدُوْنَ فَضَـائِحاً ... وَعَجَائِباً قَدْ أُحْضِـــرَتْ وَأُمُوْرُ
وَإِذَا الْجَـنِـينُ بِـأُمِّـهِ مُـتَـعَـلِّـقٌ ... خَوْفَ الحِسَـابِ وَقَلْبُهُ مَـذْعُوْرُ
هَـذَا بِـلَا ذَنْـبٍ يَخَـافُ لِهَـوْلِـهِ ... كَيْفَ المُقِيْمُ عَلَى الذُّنُوْبِ دُهُوْرُ[1]

❁ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَيْفَ يَفْرَحُ مَنْ عَلِمَ قُرْبَ الْحِسَابِ؟ كَيْفَ يَلْهُو مَنْ عَرَفَ تَقْلِيبَ الْقُلُوبِ؟ كَيْفَ يَأْمَنُ؟ [2]

فَالْإِنْسَانُ لَا يَعْنِي أَنَّهُ إِذَا مَاتَ انْتَهَى الْأَمْرُ، لَا، هُنَاكَ حِسَابٌ، هُنَاكَ عِقَابٌ، هُنَاكَ أَهْوَالٌ، هُنَاكَ ظُلُمَاتٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُنْقَادًا إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

❁ كَمَا قِيْلَ:

وَلَـوْ أَنَّـا إِذَا مُـتْـنَـا تُـرِكْـنَـا ... لَـكَـانَ الْـمَـوْتُ رَاحَـةَ كُـلِّ حَـيِّ
وَلَـكِـنَّـا إِذَا مُـتْـنَـا بُـعِـثْـنَـا ... وَنُسْـأَلُ بَـعْـدَ ذَا عَـنْ كُـلِّ شَيِّ[3]

قوله: "عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتَا"، مَا تَحَمَّلْتَهُ مِنَ الذُّنُوبِ عَسِيرٌ عَلَيْكَ، أَوْ مَا تَحَمَّلْتَهُ وَمَا حُمِلْتَهُ أَيْضًا مِنَ الْقِيَامِ بِأُمُورِ الْعِبَادَاتِ قَدْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَيْكَ ثِقْلٌ.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ الأحزاب [٧٢]. فَقِيَامُ الْإِنْسَانِ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ قَدْ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقَعُ فِي شَيْءٍ مِنَ الزَّلَلِ، ثُمَّ يَتَحَمَّلُ بَعْضَ الذُّنُوبِ وَالْأَوْزَارِ

---

(١) "بستان الواعظين" (صـ: ٤٠).

(٢) المدهش (صـ: ٥٠٠).

(٣) المدهش (صـ: ٥٠٠).

فَيَثْقُلُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَالْأَصْلُ عُمُومًا هُوَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ». الحديث (١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ». (٢)

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى اليَمَنِ قَالَ: «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا». (٣)

فلم يظلم الله تعالى العباد ولن يظلمهم، وما كلف الله العباد وإن وجد الإنسان فيه شيء من المشقة فهي محتملة و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة [٢٨٦]. «اكْلَفُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ» (٤)، وفي لفظٍ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ» (٥).

---

(١) رواه أحمد (٢٢٠١٦)، (٢٢٠٦٨)، والنسائي في "الكبرى (١١٣٣٠)، وغيرهم، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب"(٧٣٩).

(٢) رواه البخاري (٣٩).

(٣) رواه البخاري (٣٠٣٨)، (٤٣٤١)، (٤٣٤٤)، (٦١٢٤)، (٧١٧٢)، ومسلم (١٧٣٣).

(٤) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رواه البخاري في مواضع منها: (٦٤٦٥)، ومسلم بنحوه، وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه البخاري (١٩٦٦)، ومسلم (١١٠٣).

(٥) رواه البخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وله ألفاظ بنحوه.

البيت رقم٨٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْـــرِ فَرْداً وَأَبْصَـــرْتَ المنـازِلَ فِيهِ شَـتَّى

شرح البيت رقم ٨٣

أَيْ: لَوْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ، يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ فِي صعيد واحد، يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمُفْرَدِكَ، وَأَبْصرتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى، مُتَغَايِرَةُ الدَّرَجَاتِ مُخْتَلِفَةٌ الْمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَهْ، كَيْفَ سَيَكُونُ حَالُكَ؟

فالدرجات بعضُها أرفعُ من بعض، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ ﴾ المجادلة [١١].

وقَالَ: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء [٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنعام [٨٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ النساء [٩٦].

اختلفت الدرجات وتنوعت المنازل، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ».(١)

وَالنَّاسُ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْمَنَازِلِ، وَفِي الدَّرَجَاتِ، وَفِي الْأَعْمَالِ.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨١٣).

وَمِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَكُونُ فِي ظِلِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يُصَابُ بِحَرِّ الشَّمْسِ وَلَا الْعَرَقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ إِلَى كَعْبَيْهِ، يَخْتَلِفُونَ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ(١). ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ آل عمران [١٦٢، ١٦٣].

وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءُ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ، يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، يَعْرِفُهُ النَّاسُ.

صَاحِبُ الْغَدْرِ صَاحِبُ الْخِيَانَةِ، يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ رَايَةٌ، يَعْرِفُ النَّاسُ بِأَنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ غَادِرٌ خَائِنٌ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ». (٢)

مَثِّلْ وقُوفَكَ يَوْمَ الْعَرْضِ عُرْيَانَا ... مُسْتَوْحِشًا قَلِقَ الْأَحْشَاءِ حَيْرَانَا
وَالنَّارُ تَلْهَبُ مِنْ غَيْظٍ وَمِنْ حَنَقٍ ... عَلَى الْعُصَاةِ وَرَبُّ الْعَرْشِ غَضْبَانَا
اقْرَأْ كِتَابَكَ يَا عَبْدِي عَلَى مَهْلٍ ... فَهَلْ تَرَى فِيهِ حَرْفًا غَيْرَ مَا كَانَ
فَلَمَّا قَرَأْتَ وَلَمْ تُنْكِرْ قِرَاءَتَهُ ... إِقْرَارَ مِمَّنْ عَرَفَ الْأَشْيَاءَ عِرْفَانَا
نَادَى الْجَلِيلُ(٣) خُذُوهُ يَا مَلَائِكَتِي ... وامْضُوا بِعَبْدٍ عَصَى لِلنَّارِ عَطْشَانَا

---

(١) رواه البخاري (٤٩٣٨)، (٦٥٣١)، ومسلم (٢٦٦٤)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري (٦٥٣٢)، ومسلم (٢٨٦٣)، عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (٢٨٦٤)،

(٢) رواه البخاري (٦١٧٧)، (٦١٧٨)، ومسلم (١٧٣٥)، وجاء عند مسلم، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١٧٣٦)، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (١٧٣٧)، وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (١٧٣٨).

(٣) ولا يثبت بأنه من أسماء الله تعالى، والله أعلم.

الْمُشْـــرِكُونَ غَدًا فِي النَّارِ يَلتهبُوا وَالْمُؤْمِنُونَ بِـدَارِ الْخُلْدِ سُـكَّـانًا (١)

❁ فائدة: قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مستدلاً بهذه الآيات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ الإسراء [١٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ الانشقاق [٧، ٨].

فدل على أن المحاسبة تكون عند إتيان الكتب، لأن الناس إذا بعثوا لا يكون ذاكرين لأعمالهم. (٢)

❁ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَشَمْسُ الْمُنِيَّةِ قَدْ أَزِفَ إِشْرَاقُهَا، وَأَعِدُّوا لِيَوْمِ الْحِسَابِ صَوَابَ الْجَوَابِ. فَإِنَّمَا يُحَاسِبُ الْخَلِيقَةَ خَلَّاقُهَا. واغوثاه بِاللَّه من ثقل هَذَا الرماد، مَا أخوفنا أَن تستمر غفلتنا إِلَى يَوْم التناد، أعظم الْأَسْبَاب فِي توليد الْغَفْلَة أَمْرَانِ:

أَحدهمَا: امتلاء الْبُطُون، وَالْآخر: معاشرة الباطلين، فَعَلَيْك بِالْجُوعِ وَالْعُزْلَة، إِن أردْت الْعتْق من رق الْغَفْلَة، إِذا أردْت أَن يعتزلك النَّاس فاصمت عَن محادثتهم، فَإِن أَكثر مواصلات النَّاس بَينهم بالْكَلَام، فَمن صمت عَنْهُم اعتزلوه.

لَا أضرّ على العَبْد من أَمريْن، غفلته عَن ذكر الله، وَمُخَالفَة لأمر الله.

الْغَفْلَة تحرم الرِّبْح، وَالْمَعْصِيَة توجب الخسران. الْغَفْلَة تغلق أَبْوَاب الْجنَّة، وَالْمَعْصِيَة تفتح أَبْوَاب النَّار. (٣)

---

(١) "التذكرة" (صـ: ٦٢٠).

(٢) "التذكرة" (صـ: ٦١٩).

(٣) "التذكرة في الوعظ" (صـ: ١٠٣).

❁ وَكَمَا قِيلَ:

يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَوْ عَلِمْتَ بِهَوْلِهِ ... لَفَرَرْتَ مِنْ أَهْلٍ وَمِنْ أَوْطَانِ
يَوْمٌ تَشَقَّقَتِ السَّمَاءُ لِهَوْلِهِ ... وَتَشِيبُ مِنْهُ مَفَارِقُ الْوِلْدَانِ
يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ شَرُّهُ ... فِي الْخَلْقِ مُنْتَشِرٌ عَظِيمُ الشَّانِ
وَالجَنَّةُ العُلْيا وَنَارُ جَهَنَّم ... دَارَانِ لِلْخَصْمَيْنِ دَائِمَتَانِ
يَومٌ يَجِيءُ المُتَّقونَ لِرَبِّهِم ... وَفداً عَلى نُجُبٍ مِنَ العِقْيانِ
وَيَجِيءُ فيهِ المُجرِمونَ إِلى لَظى ... يَتَلَمَّظُونَ تَلَمُّظَ الْعَطْشَانِ
وَدُخولُ بَعضِ المُسلمينَ جَهَنَّم ... بِكَبائِرِ الآثامِ وَالطُّغيانِ
وَاللهُ يَرْحَمُهُم بِصِحَّةِ عَقْدِهِم ... وَيُبَدِّلوا مِنْ خَوْفِهِم بِأَمانِ
وَشَفيعُهُم عِنْدَ الخُروجِ مُحَمَّدٌ ... وَطُهورُهُمْ في شاطِيءِ الحَيَوانِ
حَتّى إِذا طَهَرو هُنالِكَ أُدْخِلوا ... جَنّاتِ عَدنٍ وَهي خَيرُ جِنانِ
فَاللهُ يَجْمَعُنا وَإِيّاهُمْ بِها ... مِن غَيرِ تَعْذيبٍ وَغَيرِ هَوانِ[1]

"وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْداً، وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْدًا، أَيْ كَيْفَ سَيَكُونُ حَالُكَ؟ الإِنْسَانُ يُلَاقِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمُفْرَدِهِ،

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ مريم [٩٣-٩٥].

(١) "نونية القحطاني".

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ الأنعام [٩٤].

وَكَمَا فِي حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». (١)

لَوْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ بِمُفْرَدِكَ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، ورأيتَ التنوعَ في المنازلِ والدرجات، كَيْفَ سَيَكُونُ حَالُكَ ذَلِكَ الْيَوْمَ؟ سَتَعْظُمُ النَّدَامَةُ وَالْحَسْرَةُ وَالْحُزْنُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ مريم [٣٩].

وَنَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُسَلِّمَنَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَشَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

(١) رواه البخاري (٣٥٩٥)، (٦٥٣٩)، (٧٤٤٣)، (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

البيت رقم ٨٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفاً عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَا

شرح البيت رقم ٨٤

أَيْ إِذَا جِئْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْحَشْرِ بِمُفْرَدِكَ، وَحِيدًا، فَرِيدًا، عُرْيَانًا، حَافِيَ الْقَدَمَيْنِ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ اخْتَلَفَتْ مَنَازِلُهُمْ، مِنْهُمْ فِي الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ، وَمِنْهُمْ فِي مَنَازِلَ أَدْنَى، لَعَظُمَتِ النَّدَامَةُ، سَتُصَابُ بِالنَّدَامَةِ.

الدَّرَجَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَنَازِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى حَسَبِ الِاجْتِهَادِ فِي الدُّنْيَا، وَكَمَا فِي الدُّنْيَا النَّاسُ فِي الْإِيمَانِ دَرَجَاتٌ، وَفِي الِاسْتِقَامَةِ دَرَجَاتٌ، وَالْعِلْمِ دَرَجَاتٌ، كَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ دَرَجَاتٌ، تَفَاوُتُهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى تَفَاوُتِهِمْ فِي الدَّرَجَاتِ فِي الدُّنْيَا. وَأَنْتَ اتَّخِذْ لَكَ طَرِيقًا، وَارْسِمْ لَكَ مَنْزِلَةً لِتَسِيرَ إِلَيْهَا، إِمَّا أَنْ تَقْنَعَ بِالدُّونِ وَبِالْقَلِيلِ فَيَكُونَ كَذَلِكَ جَزَاؤُكَ، وَإِمَّا تَكُونَ مِنَ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، أَيْضًا جَزَاؤُكَ فِي الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ.

فَيَنْبَغِي عليك أَنْ تَسْتَحْضِرَ هَذَا الْأَمْرَ، وَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ نَصْبَ عَيْنَيْكَ.

إِيمَانُكَ، اسْتِقَامَتُكَ، اجْتِهَادُكَ، عِلْمُكَ على حسب ذلك، تَكُونُ مَنْزِلَتُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَبِحَسَبِ بُعْدِكَ وَإِعْرَاضِكَ وَهُرُوبِكَ مِنْ هَذَا الدِّينِ وَالِاسْتِقَامَةِ، يَكُونُ جَزَاؤُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ

ابْنِ مَنْزِلَكَ وَدَرَجَتَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْيَوْمِ، ابْنِ لَكَ مَنْزِلًا فِي الْجَنَّةِ، ابْنِ لَكَ دَرَجَاتٍ فِي جَنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ لَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَلَا تَزَالُ عِنْدَكَ قُدْرَةٌ لِلتَّحَرُّكِ لِلْعَمَلِ لِلْبِنَاءِ الْمَعْنَوِيِّ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ لِلْبِنَاءِ الْحِسِّيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِذَلِكَ جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا».(١). قَوْلُهُ: **"لأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفاً"**، أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيومُ القيامة، يَوْمُ النَّدَامَةِ، يَوْمُ الْحَسْرَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ مريم [٣٩].

حِينَ تُعْرَضُ أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتُعْرَضُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ، يَجِدُ الْحَسْرَةَ يَوْمَئِذٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ الحاقة [١٨].

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ غافر [١٥، ١٦]

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ غافر [١٨، ١٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ سبأ [٣٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ يونس [٥٤]. أي: أَظْهَرُوا النَّدَامَةَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦٧٩٩)، وأبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وغيرهم، وهو في "الصحيحة" (٢٢٤٠) للألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و"الصحيح المسند" (٧٩٢) للوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

"لَهْفاً"، التَّلَهُّف، قال الفراهيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التَّلَهُّفُ على الشَّيءِ هو التَّحَسُّرُ عليهِ، إذا فاتَكَ، وقد كنتَ أَشْرَفْتَ عليهِ. تَتَحَسَّرُ على شَيءٍ فاتَكَ وقد كنتَ أَشْرَفْتَ على الحُصولِ عليهِ.(١)

❁ قَالَ عبد الكريم بنُ هَوازِن:

الدَّهْرُ سَاوَمَنِي عُمْرِي فَقُلْت لَهُ ... لَا بِعْت عُمْرِي بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
ثُمَّ اشْتَرَاهُ تَفَارِيقًا بِلَا ثَمَنٍ ... تَبًّتْ يَدَا صَفْقَةٍ قَدْ خَابَ شَارِيهَا(٢)

ذَهَبَ ذلكَ العُمُرُ بالتَّجزِئَةِ، على مَراحِلَ مُتَفَرِّقَةٍ. ثمَّ اشتراهُ تَفَارِيقًا بلا ثَمَنٍ.

❁ (وَمِمَّنْ كَانَ يَحْفَظُ اللَّحَظَاتِ، عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَيْسِيُّ، قَالَ لَهُ رَجُلٌ: أُكَلِّمُك فَقَالَ أَمْسِكْ الشَّمْسَ. وَكَانَ دَاوُد الطَّائِيُّ، يَسْتَفُّ الْفَتِيتَ وَيَقُولُ بَيْنَ سَفِّ الْفَتِيتِ وَأَكْلِ الْخُبْزِ: قِرَاءَةُ خَمْسِينَ آيَةً.

❁ وَأَوْصَى بَعْضُ السَّلَفِ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: إذَا خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِي فَتَفَرَّقُوا لَعَلَّ أَحَدَكُمْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي طَرِيقِهِ، وَمَتَى اجْتَمَعْتُمْ تَحَدَّثْتُمْ.(٣)

❁ وَاعْلَمْ أَنَّ الزَّمَانَ أَشْرَفُ مِنْ أَنْ يَضِيعَ مِنْهُ لَحْظَةٌ فَكَمْ يَضِيعُ لِلْآدَمِيِّ مِنْ سَاعَاتٍ يَفُوتُهُ فِيهَا الثَّوَابُ الْجَزِيلُ، وَهَذِهِ الْأَيَّامُ مِثْلُ الْمَزْرَعَةِ، وَكَأَنَّهُ قَدْ قِيلَ: لِلْإِنْسَانِ كُلَّمَا بَذَرْت

---

(١) "العين" (٤/ ٥٢).

(٢) "مرآة الزمان في تواريخ الأعيان" (١٩/ ٢٦٦).

(٣) أخرجه أبو سعيد في "جزء حديث أبي سعيد الأشج" (صـ:٢٥٤)، ومن طريقه أبو نعيم في "الحلية" (٥/ ٩١)، وابن الجوزي في "المنتظم" (٧/ ٣٢٣)، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْأَجْلَحِ: كَانَ أَبُو سِنَانٍ ضِرَارُ بْنُ مُرَّةَ يَقُولُ لَنَا: «لَا تَجِيئُونِي جَمَاعَةً، لِيَجِيءِ الرَّجُلُ وَحْدَهُ، فَإِنَّكُمْ إِذَا اجْتَمَعْتُمْ تَحَدَّثْتُمْ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَدْرُسَ حِزْبَهُ، أَوْ يَذْكُرَ رَبَّهُ»، وسنده حسن.

حَبَّةً أَخْرَجْنَا لَك أَلْفًا، هَلْ تَرَى يَجُوزُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ الْبَذْرِ أَوْ يَتَوَانَى؟ وَالَّذِي يُعِينُ عَلَى اغْتِنَامِ الزَّمَانِ الِانْفِرَادُ وَالْعُزْلَةُ مَهْمَا أَمْكَنَ وَالِاخْتِصَارُ عَلَى السَّلَامِ أَوْ حَاجَةٍ مُهِمَّةٍ لِمَنْ يَلْقَى، وَقِلَّةُ الْأَكْلِ فَإِنَّ كَثْرَتَهُ سَبَبُ النَّوْمِ الطَّوِيلِ وَضَيَاعِ اللَّيْلِ، وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ وَآمَنَ بِالْجَزَاءِ بَانَ لَهُ مَا ذَكَرْته).[1] إذا كنتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُمْسِكَ الشَّمْسَ، فَمُمْكِنٌ أَنْ أَتَكَلَّمَ مَعَكَ، وإِلَّا لَنْ أُضَيِّعَ وَقْتِي ولَنْ أُذْهِبَ عُمُرِي.

الحياةُ هي عِبَارَةٌ عن دَقَائِق وثَوَان.

دقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له ... إنَّ الحياة دقائقٌ وثوانِ

إذا ذَهَبَتِ الثَّوَانِي ذَهَبَتِ الدَّقَائِقُ، وبِذَهَابِ الدَّقَائِقِ ذَهَابٌ للسَّاعَاتِ، وبِذَهَابِ السَّاعَاتِ ذَهَابٌ اللياليِ والأيَّامِ.

❁ قالَ ابنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَاغْتَنِمْ رَحِمَك اللَّهُ حَيَاتَك النَّفِيسَةَ، وَاحْتَفِظْ بِأَوْقَاتِك الْعَزِيزَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مُدَّةَ حَيَاتِك مَحْدُودَةٌ، وَأَنْفَاسَك مَعْدُودَةٌ، فَكُلُّ نَفَسٍ يَنْقُصُ بِهِ جُزْءٌ مِنْك، وَالْعُمْرُ كُلُّهُ قَصِيرٌ، وَالْبَاقِي مِنْهُ هُوَ الْيَسِيرُ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهُ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ لَا عَدْلَ لَهَا وَلَا خُلْفَ مِنْهَا، فَإِنَّ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْيَسِيرَةِ خُلُودُ الْأَبَدِ فِي النَّعِيمِ، أَوْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَإِذَا عَادَلْت هَذِهِ الْحَيَاةَ بِخُلُودِ الْأَبَدِ عَلِمْت أَنَّ كُلَّ نَفَسٍ يَعْدِلُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ عَامٍ فِي نَعِيمٍ لَا خَطَرَ لَهُ أَوْ خِلَافَ ذَلِكَ، وَمَا كَانَ هَكَذَا فَلَا قِيمَةَ لَهُ. فَلَا تُضَيِّعْ جَوَاهِرَ عُمْرِك النَّفِيسَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَلَا تُذْهِبُهَا بِغَيْرِ عِوَضٍ، وَاجْتَهِدْ أَنْ لَا يَخْلُوَ نَفَسٌ مِنْ أَنْفَاسِك إلَّا فِي عَمَلِ طَاعَةٍ أَوْ قُرْبَةٍ تَتَقَرَّبُ بِهَا. فَإِنَّك لَوْ كَانَتْ مَعَك جَوْهَرَةٌ مِنْ جَوَاهِرِ الدُّنْيَا لَسَاءَك

---

(١) "صيد الخاطر" (صـ: ٤٩٣). ونقله عنه ابن مفلح في "الآداب الشرعية" (٣/ ٤٧٤).

ذَهَابُهَا فَكَيْفَ تُفَرِّطُ فِي سَاعَاتِك وَأَوْقَاتِك؟ وَكَيْفَ لَا تَحْزَنُ عَلَى عُمْرِك الذَّاهِبِ بِغَيْرِ عِوَضٍ؟.(١)

أعمارُ الأُمةِ من سِتِّينَ سَنَةً إلى سَبْعِينَ سَنَةً. فَكِّرْ كَمْ قد مَضَى من عُمُرِكَ إلى الآنَ؟

وكَمْ يَمْضِي عَلَيْكَ في كُلِّ يَوْمٍ من الوقت؟ تُذْهِبُ جُزْءًا من عُمُرِكَ في النَّوْمِ، وجُزْءًا من عُمُرِكَ في المَأْكَلِ والمَشْرَبِ، وجُزْءًا من عُمُرِكَ في الحَدِيثِ والكَلَامِ وتَبَادُلِ أَطْرَافِ الكَلَامِ. فَمَاذَا أَبْقَيْتَ للعِبَادَةِ، للعِلْمِ، للذِّكْرِ، للاستِغْفَارِ، لِطَلَبِ العِلْمِ؟ كَمْ تَصْرِفُ فيهِ من وَقْتٍ؟ أَرْبَعَةٌ وعِشْرُونَ سَاعَةً في اليَوْمِ واللَّيْلَةِ، كَمْ من هذا الوَقْتِ؟ كَمْ من هذهِ السَّاعَاتِ التي هي سَاعَاتٌ خَالِصَةٌ صَافِيَةٌ في العِبَادَةِ والعِلْمِ؟ رُبَّمَا البَعْضُ سَاعَةٌ، والبَعْضُ أَقَلُّ، والبَعْضُ سَاعَتَانِ، والبَعْضُ ثَلَاثٌ، وقد يَصِلُ البَعْضُ إلى خَمْسِ ساعات. أَيْنَ بَقِيَّةُ السَّاعَاتِ؟ في مَاذَا أَذَهَبْتَهَا؟ وهكذا تَمْضِي الأَيَّامُ، وهكذا تَمْضِي الشُّهُورُ، وهكذا تَمْضِي الأَعْوَامُ، كما تَمْضِي اليَوْمَ، وبَعْضُهَا أَشَدُّ.

❁ قَالَ أَبُو الْوَلِيدِ سُلَيْمَانُ بْنُ خَلَفِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْدَلُسِيُّ الباجي:

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا ... بِأَنَّ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَةِ
فَلِمَ لَا أَكُونُ ضَنِينًا عليها ... وَأَجْعَلُهَا فِي صَلَاحٍ وَطَاعَةِ(٢)

❁ قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِضَاعَةُ الوَقْتِ أَشَدُّ من المَوْتِ؛ لأنَّ إِضَاعَةَ الوَقْتِ تَقْطَعُكَ عن اللهِ، والدَّارِ الآخِرَةِ، والمَوْتُ يَقْطَعُكَ عن الدُّنْيَا وأَهْلِهَا.

الدُّنْيَا من أَولهَا إِلَى آخرهَا لَا تَسَاوِي غم سَاعَة، فَكيف بغم الْعُمر. مَحْبُوب الْيَوْم يعقب الْمَكْرُوه غَدا، ومكروه الْيَوْم يعقب المحبوب غَدا.

---

(١) "الوصية" لابن قدامة (صـ: ٤٠ ـ ٤١).

(٢) "اقتضاء العلم العمل" للخطيب البغدادي (صـ: ١٠٦).

أعظم الرِّبْح فِي الدُّنْيَا أَن تشغل نَفسك كل وَقت بِمَا هُوَ أولى بهَا وأنفع لَهَا فِي معادها. كَيفَ يكون عَاقِلا من بَاعَ الْجنَّة بِمَا فِيهَا بِشَهْوَة سَاعَة يخرج الْعَارِف من الدُّنْيَا وَلم يقْض وطره من شَيْئَيْنِ بكاؤه على نَفسه وثناؤه على ربّه.(١)

الموتُ يقطعُكَ عنِ الدُّنيا وأهلِها، وقطعُكَ عنِ اللهِ والدَّارِ الآخرةِ أعظمُ وأشدُّ حسرةً، وهو طريقُ الخسارةِ. أمَّا قطعُكَ عنِ الدُّنيا وأهلِها ليسَ بخسارةٍ، بل قد يكونُ هوَ الرِّبحَ، بل هوَ الرِّبحُ أن تبتعدَ عنِ الدُّنيا، وعن أهلِ الدُّنيا.

إذا أَماتكَ اللهُ عزَّ وجلَّ وأنتَ حتَّى في العشرينَ من عمرِكَ، أتاكَ الأجلُ وأنتَ على خيرٍ وصلاحٍ وتُقى، أفضلُ بل بلا مقارنةٍ من أن تُعمَّرَ تسعينَ سنةٍ مضيِّعًا لوقتِكَ ليلاً ونهاراً، لأنَّ ذاكَ ما عسى أن يكونَ إلَّا أنَّكَ مُتَّ وقُطعتَ عنِ الدُّنيا وأهلِها. أمَّا إذا عُمِّرتَ طويلًا وقُطعتَ عنِ اللهِ وعنِ الدَّارِ الآخرةِ، هذهِ هيَ الخسارةُ الحقيقيَّةُ.

۞ قالَ الحسنُ عليهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ: أَمَا أَمْسِ فَقَدْ ذَهَبَ بِمَا فِيهِ، وَأَمَّا غَدًا فَلَعَلَّكَ لَا تُدْرِكُهُ، وَالْيَوْمُ فَاعْمَلْ فِيهِ.(٢)

---

(١) "الفوائد" لابن القيم (صـ: ٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الزهد" (٤٥٨)، وفي "كلام الليالي والأيام" (٦١)، ومن طريقه البيهقي في "الزهد الكبير" (٤٧٧)، من طريق أَبُي عَبْدِ اللَّهِ الْعِجْلِيُّ، قَالَ: ثنا عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَنْقَزِيُّ، قَالَ: ثنا إِسْرَائِيلُ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ نَاجِيَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، فذكره. وسلمة لم أقف له على ترجمة. وأخرجه أيضاً ابن أبي الدنيا في "الزهد" (٤٥٩)، وفي "كلام الليالي والأيام" (٦٣)، حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ خِدَاشٍ، قَالَ: ثنا أَشْعَثُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زُبَيْدٍ، قَالَ: ثنا حَمَّادٌ، شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، فذكره، وأشعث، قال أبو زرعة: "ليس بالقوي"، وقال أبو حاتم: "محله الصدق"، وقال النسائي: "ليس بثقة ولا يكتب حديثه"، وقال ابن عدي: "أفرط النسائي في أمره وقد تبحرت حديثه فلم أر له حديثا منكرا" "تهذيب التهذيب" (١/٣٥٦). وحماد أيضاً لم أقف له على ترجمه.

❁ وقالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كَانَ أَحَدُهُمْ أَشَحَّ عَلَى عُمُرِهِ مِنْهُ عَلَى دَرَاهِمِهِ وَدَنَانِيرِهِ». والشُّحُّ شدَّةُ الحرصِ على الشَّيءِ.(١)

❁ وَقَالَ أَبُو نُعَيْمٍ أَنْشَدَنِي أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدُ بنُ مقسم قال أنشدني أَبِي:

تُجِدُّ الليالي بالفتى وهو يلعبُ ... وتَصدقُه الأيامُ والنَّفسُ تكذِبُ
وفي كلِّ يوم يفقدُ المرءُ بعضَه ... ولا بُدَّ أن الكلَّ منه سيذهبُ(٢)

ولو تفكَّرَ الإنسانُ في ذهابِ أيَّامِهِ وانقضائِها، لبكى حسرةً عليها وندمًا، واستغلَّ بقيَّةَ أوقاتِهِ.

❁ قالَ الشَّاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهذَا زَمَانُ الصَّبْرِ مَنْ لَكَ بِالَّتِي ... كَقَبْضٍ عَلَى جَمْرٍ فَتَنْجُو مِنَ الْبلَا
وَلَوْ أَنَّ عَيْناً سَاعَدتْ لتَوَكَّفَتْ ... سَحَائِبُهَا بِالدَّمْعِ دِيْماً وَهُطَّلَا
وَلكِنَّها عَنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ قَحْطُهاَ ... فَيَا ضَيْعَةَ الأَعْمَارِ تَمْشِي سَبَهْلَلَا

فيتحسَّرُ الإنسانُ من ذلكَ جدًّا. لو تفكَّرَ فيها يجدُ حسرةً، وما يتحسَّرُ من تحسَّرَ يومَ القيامةِ إلَّا بضياعِ هذهِ الأوقاتِ في الدُّنيا بتضييعِهِ لها وبذهابِها فِيْ غيرِ طاعةِ اللهِ.

فمدارُ الحسرةِ، ومدارُ النَّدامةِ يومَ القيامةِ على ضياعِ الأوقاتِ في الدُّنيا بغيرِ طاعةِ اللهِ

مَدَارُ الحَسْرَةِ، مَدَارُ الخَسَارَةِ عَلَى ضِيَاعِ الأَوْقَاتِ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ طَاعَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا. ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾. لَمْ يَسْتَغِلَّ الوَقْتَ فِي طَاعَةِ اللهِ، لَمْ يُعَمِّرْ وَقْتَهُ فِي ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "العمر والشيب"(٩١)، وفي "الزهد" لابن المبارك (٨)، وفيه من لم يسم.

(٢) "أحاديث عوال من مسموعات ابن هامل. (صـ: ٤٠).

غافل عن الله وعن الدار الآخرة عن الموت والاستعداد له ضيع وقته في غير ذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ق [٢٢].

قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَتَأَمَّلْ هَذَا الكَلَامَ الجَمِيلَ الآتي، وَخُذْ مِنْهُ عِبْرَةً، وَلْيَكُنْ دَرْسًا لِي وَلَكَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ.

❁ قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَعَصَمَنِي اللهُ مِنْ عُنْفُوَانِ الشَّبِيبَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ العِصْمَةِ، وَقَصَرَ مَحَبَّتِي عَلَى العِلْمِ وَأَهْلِهِ، فَمَا خَالَطْتُ لَعَّابًا قَطُّ، وَلَا عَاشَرْتُ إِلَّا أَمْثَالِي مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ. (١)

انْظُرْ بِمَاذَا عَصَمَهُ اللهُ، انْظُرْ لِمَاذَا انْتَفَعَ، وَارْتَفَعَ؟ لَمْ يُخَالِطْ لَعَّابًا، لَمْ يُجَالِسْ أَهْلَ اللهْوِ وَاللَّعِبِ.

احْذَرْ مِنْ مُجَالَسَةِ اللَّاعِبِينَ، احْذَرْ مِنْ مُجَالَسَةِ اللَّعَّابِ وَلَوْ كَانَ على صلاحٍ، لَا تُجَالِسْهُ وتُلازِمُهُ، وَأَنْتَ تُرِيدُ العِلْمَ وَتَحْرِصُ عَلَيْهِ، وَتُرِيدُ أَنْ تَنْبُغَ فِيهِ، لَا يَكُنْ جَلِيسًا لَكَ، سَيُضَيِّعُ عَلَيْكَ الوَقْتَ، سَيُضَيِّعُ عَلَيْكَ العُمْرَ، سَيُضَيِّعُ عَلَيْكَ اللَّيْلَ، سَيُضَيِّعُ عَلَيْكَ النَّهَارَ، سَيُضَيِّعُ عَلَيْكَ السَّاعَاتِ الطِّوَالَ بِالكَلَامِ وَاللهْوِ وَاللَّعِبِ.

قَالَ: فَمَا خَالَطْتُ لَعَّابًا قَطُّ، فَهَذَا كَلَامٌ جَمِيلٌ، وَالصَّاحِبُ سَاحِبٌ، وَأَدِلَّةُ هَذَا كَثِيرَةٌ. مَنْ جَالَسَ اللَّاعِبَ يَصِيرُ مِثْلَهُ، مَنْ جَالَسَ أَصْحَابَ الكُرَةِ المُشْغِفِينَ بِهَا يَصِيرُ مِثْلَهُمْ، وَمَنْ جَالَسَ أَصْحَابَ الجَوَّالَاتِ وَاللَّعِبِ بِهَا يَصِيرُ مِثْلَهُمْ، وَمَنْ جَالَسَ أَهْلَ اللَّعِبِ فِي العِلْمِ لَا يَهْتَمُّ بِالعِلْمِ وَلَا يُبَالِي بِالعِلْمِ وَلَيْسَ لَهُ هِمَّة فِي العِلْمِ يَصِيرُ مِثْلَهُمْ، وَرُبَّمَا أَشَدُّ، وَيَجُرُّ بَعْضُهُمْ

(١) "المنتظم"(١٧/ ١٨١).

بَعْضًا إِلَى المَعَاصِي وَالمُنْكَرَاتِ، وَيَدْفَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى اللهْوِ إِلَى اللَّعِبِ، إِلَى قَضَاءِ الأَوْقَاتِ فِي التَّنَزُّهَاتِ وَاللَّعِبِ بِالجَوَّالَات.

لَيْسَ عِنْدَهُ اهْتِمَامٌ بِالعِلْمِ، وَلَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ فِي العِلْمِ، أَنْتَ مُجَالَسَتُكَ لَهُ فِي ذَلِكَ ضَيَاعٌ لَكَ. أَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَتَعَلَّمَ، تُرِيدُ أَنْ تَحْفَظَ، تُرِيدُ أَنْ تَفْهَمَ، تُرِيدُ أَنْ تَصِيرَ إِمَامًا، مُهَذَّبًا، مُتَعَلِّمًا، مُعَلِّمًا، مُرَبِّيًا، ابْتَعِدْ عَنْ مَنْ كَانَ لَعَّابًا وَلَوْ كَانَ فِي الصَّفِّ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ وَعَلَى المَنْهَجِ الَّذِي أَنْتَ تَسْلُكُهُ، المَنْهَجِ الصَّافِي النَّقِيّ. وَالنَّاسُ لَا يَسْتَوُونَ، فَسَيَكُونُ أَثَرُهُ عَلَيْكَ مِنْ جِهَةِ الهِمَّةِ، مِنْ جِهَةِ الاهْتِمَامِ بِالأَوْقَاتِ، وَالحِرْصِ. فَيُسْتَفَادُ مِثْلُ هَذَا الكَلَامِ، تُرِيدُ العِلْمَ، جَالِسْ أَهْلَ العِلْمِ، جَالِس صَاحِبَ العِلْمِ الَّذِي لَهُ هِمَّةٌ فِي العِلْمِ، الَّذِي يَطْلُبُ العِلْمَ، الَّذِي يَجْتَهِدُ فِي العِلْمِ وَلَيْسَ الذي يُضَيِّعُ وَقْتَهُ.

أَمَّا غَيْرُ أَهْلِ الاسْتِقَامَةِ من أهلِ المعاصي، فَلَا يُجالَسون ولا يُخالطون إلا لغرض النصيحة، والتذكير، ونحو ذلك على ضوء ما دل عليه الشرع.

وَأَهْلُ البِدَعِ وَالضَّلَالِ ابْتَعِدْ عَنْهُمْ أَكْثَرَ، مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى.

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ لَا يَنْدَمَ عَلَى أَوْقَاتِهِ، وَلَا يَتَحَسَّرَ عَلَى فَوَاتِهَا فَلَا يُجَالِسْ أَهْلَ اللَّعِبِ، وَلَوْ كُنْتَ أَنْتَ وَإِيَّاهُمْ فِي نَفْسِ المَسْجِدِ، وَفِي نَفْسِ المَكَان، لَا تُجَالِسْهُمْ.

كَمْ مِنْ طَالِبٍ لِلْعِلْمِ يُجَالِسُ بَعْضَ مَنْ يُحْسِنُ بِهِمُ الظَّنَّ، أَحْيَانًا فِي نَفْسِ المكان الَّذِي هُوَ فِيهِ، لَكِنَّ ذَاكَ ضَعِيفُ الهِمَّةِ، تَمِيلُ نَفْسُهُ إِلَى الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا فَيَتْرُكُ طَلَبَ العِلْمِ بِسَبَبِهِ، وَرُبَّمَا يُفْتَنُ، وَيَتْرُكُ السُّنَّةَ مِنْ أَصْلِهَا، وَلَيْسَ العِلْمِ فَحَسْبُ، يَتْرُكُ العِلْمَ رُبَّمَا، وَيَتْرُكُ السُّنَّةَ بِسَبَبِهَا.

الجَلِيسُ يَتَأَثَّرُ بِجَلِيسِهِ وَلَا بُدَّ، وَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ الجَلِيسَ الصَّالِحَ الحَرِيصَ عَلَى العِلْمِ.

❁ قَالَ أَبو إِسْحَاق الشِّيرَازِيّ:

سَـــأَلْـتُ الـنَّـاسَ عَـنْ خِـلٍّ وَفِيٍّ ... فَـقَـالُـوا مَـا إِلَى هَـذَا سَـــبِـيـلُ
تَمَسَّـــكْ إِنْ ظَـفِـرْتَ بِـذَيْـلِ حُـرٍّ ... فَـإِنَّ الْحُـرَّ فِي الـدُّنْـيَـا قَـلِـيـلُ[1]

الَّذِي تَسْتَفِيدُ مِنْهُ تَمَسَّكْ بِهِ وَيَكُونُ عَوْنًا لَكَ عَلَى الخَيْرِ وَالعِلْمِ.

فَمِمَّا عَصَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ فِي عُنْفُوَانِ شَبَابِهِ أَنَّهُ لَمْ يُجَالِسِ اللَّاعِبِينَ.

مُجَالَسَةُ الجَوَّالَاتِ مَعَ اللهْوِ، اللَّعِبِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، كُلُّ هَذَا مُضَيِّعَةٌ، الالْتِهَاءُ بِالجَوَّالِ، اللَّعِبُ فِيهِ مُضَيِّعَةٌ الأَوْقَاتِ، يَأْكُلُ الوقتَ أَكْلًا، وَالجَوَّالُ أَصْبَحَ بَلِيَّةً عَظِيمَةً، لَا يَقِلُّ خَطَرًا عَنْ خَطَرِ الجَلِيسِ، بَلْ هُوَ مِنْ أَسْوَأِ الجُلَسَاءِ، مِنْ أَسْوَأِهِمْ وَأَخْطَرِهِمْ وَأَشَدِّهِمْ. الجَوَّالُ، احْذَرْ مِنْ مُجَالَسَةِ اللَّاعِبِينَ، احْذَرْ مِنْ مُجَالَسَةِ الجَوَّالِ، احْذَرْ مِنَ الانْشِغَالِ بِهِ، أَنْ يُشْغِلَكَ عَنِ العِلْمِ، عَنِ الطَّاعَةِ، عَنِ العِبَادَةِ، فَتُضَيِّعَ الأَوْقَاتِ، ثُمَّ تَتَنَدَّمَ، لَكِنْ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ. ذَهَبَ وَقْتُ القُوَّةِ، وَقْتُ النَّشَاطِ، وَقْتُ الفُتُوَّةِ، وَقْتُ فَرَاغِ الذِّهْنِ، تَتَحَسَّرُ بَعْدَ ذَلِكَ وَتَتَنَدَّمُ.

كُنْ عَاقِلًا حَرِيصًا عَلَى وَقْتِكَ، وَلَا تُجَالِسْ أَهْلَ اللهْوِ وَلَا الَّذِينَ يَقْضُونَ أَوْقَاتَهُمْ بِالغَفْلَةِ، وَبِكَثْرَةِ المِزَاحِ وَالضَّحِكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ تَقْطَعُكَ عَنِ الأَوْقَاتِ الثَّمِينَةِ وَتَصْرِفُكَ عَنْ الخَيْرِ، وَرُبَّمَا عَنِ الاسْتِقَامَةِ.

---

(١) "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" (١٦/ ٢٣٠).

الأَوْقَاتُ ثَمِينَةٌ، مَا هُوَ العُمْرُ؟ إِنَّمَا هُوَ وَقْتُكَ الثَّمِينُ، هُوَ الدَّقَائِقُ، هُوَ الثَّوَانِي، هُوَ الأَيَّامُ، هُوَ اللَّيَالِي. إِلَى مَتَى نَظَلُّ نَمْضِي الأَيَّامَ وَاللَّيَالِي؟

إِلَى مَتَى نَظَلُّ نَمْضِي السَّاعَاتِ وَالثَّوَانِي فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ، فِي غَيْرِ العِلْمِ، فِي غَيْرِ الاسْتِقَامَةِ؟

إِلَى مَتَى نَظَلُّ نَمْضِيهَا بِتَبَادُلِ أَطْرَافِ الحَدِيثِ وَالكَلَامِ، وَكَذَلِكَ الأُضْحُوكَاتِ وَاللهْوِ وَاللَّعِبِ، وَالذِّكْرَيَاتِ الفَارِغَةِ الَّتِي لَا نَنْتَفِعُ بِهَا؟

فَيَنْبَغِي وَاللهِ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَسَّرَ عَلَى وَقْتِهِ وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْهُ.

وَلَوْ أَنَّ دَمْعَ الإِنْسَانِ حَاضِرٌ لَبَكَى عَلَى أَوْقَاتِهِ وَتَنَدَّمَ وَلَتَقَطَّعَ أَسَفًا وَحَسْرَةً.

❁ كَمَا قَالَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَاللهِ لَمْ تُخْرَجْ إِلَى الدُّنْيَا لِلَّذْ ... ةِ عَيْشِهَا أَوْ لِلْحُطَامِ الْفَانِي

لَكِنْ خَرَجْتَ لِكَيْ تُعِدَّ الزَّادَ لِلْ ... أُخْرَى فَجِئْتَ بِأَقْبَحِ الْخُسْرَانِ

أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ بَلْ ... فَاتَ الَّذِي أَلْهَاكَ عَنْ ذَا الشَّانِ

وَاللهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ سَلِيمَةٌ ... لِتَقَطَّعَتْ أَسَفًا مِنَ الْحُرْمَانِ

لَكِنَّهَا سَكْرَى بِحُبِّ حَيَاتِهَا الدُّ ... نْيَا وَسَوْفَ تَفِيقُ بَعْدَ زَمَانِ

والنظر في سير السلف واجتهادهم وحرصهم مفيد جدا.

❁ قَالَ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ في سماعِ أخبارِ الأخيارِ مقويًّا للعزائم ومُعينًا على اتِّباع تلك الآثارِ. وقال بعضُ العارفينَ: الحكاياتُ جندٌ من جنودِ اللَّه، تقوى بها قلوبُ المريد.

ثم تلا قول اللَّهِ عزَّ وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ

ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هود [١٢٠].(١)

وَغَالِبًا هَذِهِ مأخوذة مِنْ كلماتِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ كلمة (العارف)، و(المريد) ونحوها. وَلَكِنْ عَلَى أَيِّ حَالٍ، فَإِنَّ قِصَصَ الأَنْبِيَاءِ وَالأَئِمَّةِ الصحيحة الثابتة فِي ذَلِكَ حَافِزٌ وَتَثْبِيتٌ، كَمَا في الآية السابقة. فَيَحْرِصُ الإِنْسَانُ على معرفة سيرهم، وَيَأْخُذُ مِنْ أَخْبَارِهِمُ الفائدة، ومن ذلك كيف كان الواحد منهم يَسْتَغِلُّ أَوْقَاتَهُ فِي طَلَبِ العِلْمِ وَفِي تَلَقِّيهِ.

❁ ذُكِرَ عَنْ شُعْبَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ بَاعَ قُدُورَاً مِنْ أَجْلِ أن يَطْلُبَ العِلْمَ وَيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى طَلَبِ العِلْمِ.

❁ قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَمَّا سَعَادَةُ العِلْمِ فَلَا يُورِثُكَ إِيَّاهَا إِلَّا الوُسْعُ وَصِدْقُ الطَّلَبِ وَصِحَّةُ النِّيَّةِ.

❁ وَقد أحسن الْقَائِل فِي ذَلِك:

فَقُلْ لِمُرَجِّي مَعَالِي الأُمُور ... بِغَيْرِ اجْتِهَادٍ رَجَوتَ المُحَالا

❁ وَقَالَ الآخر:

لَوْلَا المَشَقَّة سَاد للنَّاس كلهم ... الجُود يفقر والإقدام قتال

ومن طمَحَت همَّته إلى الأمور العَلِيَّة، فواجبٌ عليه أن يَسُدَّ على همَّته الطُّرقَ الدنيَّة.

وهذه السعادةُ وإن كانت في ابتدائها لا تنفكُّ عن ضربٍ من المشقَّة والكَرْه والتأذِّي، فإنها متى أُكرِهَت النفسُ عليها، وسِيقَت طائعةً وكارهةً إليها، وصبرَت على لأوائها وشدَّتها، أفضتْ منها إلى رياضٍ مُونِقَة، ومقاعدِ صدقٍ ومقامٍ كريم، تجدُ كلَّ لذَّةٍ دونها كلذَّة لعب الصَّبيِّ بالعصفور بالنسبة إلى لذَّة الملوك؛ فحينئذٍ حالُ صاحبها،

(١) "تفسير" ابن رجب الحنبلي (١/ ٥٧٢).

❁ كما قيل:

وكنتُ أرى أنْ قد تناهى بيَ الهوى ... إلى غايةٍ ما بعدَها ليَ مذهبُ
فلمَّا تلاقينا وعايَنْتُ حُسْنها ... تيقَّنتُ أني إنما كنتُ ألعبُ

فالمكارمُ مَنُوطةٌ بالمكاره، والسعادةُ لا يُعْبَرُ إليها إلا على جسر المشقّة، ولا تُقْطَعُ مسافتُها إلا في سفينة الجدِّ والاجتهاد...

وَلَوْلَا جَهْلُ الأَكْثَرِينَ بِحَلَاوَةِ هَذِهِ اللَّذَّةِ لَتَجَالَدُوا عَلَيْهَا بِالسُّيُوفِ. وَلَكِنْ حُفَّتْ بِحِجَابٍ مِنَ المَكَارِهِ وَحُجِبُوا عَنْهَا بِحِجَابٍ مِنَ الجَهْلِ؛ ليختص الله لَهَا من يَشَاء من عباده وَالله ذُو الْفضل الْعَظِيم.(١)

وَهَكَذَا ذَكَرُوا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّهُ كَانَ رُبَّمَا بَاعَ بعض الأشياء مِنْ أَجْلِ العِلْمِ.

❁ قَالَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بنُ سُلَيْمَانَ الرَّبَعِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ الفَيْضِ الغَسَّانِيُّ، سَمِعْتُ هِشَامَ بنَ عَمَّارٍ، يَقُوْلُ: بَاعَ أَبِي بَيتاً لَهُ بِعِشْرِيْنَ دِيْنَاراً، وَجَهَّزَنِي لِلْحَجِّ، فَلَمَّا صِرتُ إِلَى المَدِيْنَةِ، أَتَيتُ مَجْلِسَ مَالِكٍ، وَمَعِيَ مَسَائِلُ أُرِيْدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا.

فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ جَالِسٌ فِي هَيْئَةِ المُلُوْكِ، وَغِلمَانٌ قِيَامٌ، وَالنَّاسُ يَسْأَلُوْنَهُ، وَهُوَ يُجِيْبُهُم.

فَلَمَّا انْقَضَى المَجْلِسُ، قَالَ لِي بَعْضُ أَصْحَابِ الحَدِيْثِ: سَلْ عَنْ مَا مَعَكَ؟

فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا تَقُوْلُ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ: حَصَلْنَا عَلَى الصِّبْيَانِ، يَا غُلاَمُ، احْمِلْهُ. فَحَمَلَنِي كَمَا يُحمَلُ الصَّبِيُّ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلاَمٌ مُدْرِكٌ، فَضَرَبَنِي بِدِرَّةٍ مِثْلِ دِرَّةِ المُعَلِّمِيْنَ سَبْعَ عَشْرَةَ دِرَّةٍ، فَوَقَفتُ أَبْكِي. فَقَالَ لِي: مَا يُبْكِيْكَ؟ أَوْجَعَتْكَ هَذِهِ الدِّرَّةُ؟

قُلْتُ: إِنَّ أَبِي بَاعَ مَنْزِلَهُ، وَوَجَّهَ بِي أَتَشَرَّفُ بِكَ، وَبِالسَّمَاعِ مِنْكَ، فَضَرَبْتَنِي؟

---

(١) "مفتاح دار السعادة"(١/١٠٨ـ١٠٩).

فَقَالَ: اكتُبْ. قَالَ: فَحَدَّثَنِي سَبْعَةَ عَشَرَ حَدِيْثاً، وَسَأَلْتُهُ عَمَّا كَانَ مَعِي مِنَ المَسَائِلِ، فَأَجَابَنِي.

❁ قَالَ يَعْقُوْبُ بنُ إِسْحَاقَ الهَرَوِيُّ، عَنْ صَالِحِ بنِ مُحَمَّدٍ الحَافِظِ:

سَمِعْتُ هِشَامَ بنَ عَمَّارٍ يَقُوْلُ: دَخَلْتُ عَلَى مَالِكٍ، فَقُلْتُ لَهُ: حَدِّثْنِي.

فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: لاَ، بَلْ حَدِّثْنِي. فَقَالَ: اقْرَأْ.

فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: يَا غُلاَمُ، تَعَالَ اذْهَبْ بِهَذَا، فَاضْرِبْهُ خَمْسَةَ عَشَرَ.

فَذَهَبَ بِي، فَضَرَبَنِي خَمْسَ عَشْرَةَ دِرَّةً، ثُمَّ جَاءَ بِي إِلَيْهِ، فَقَالَ: قَدْ ضَرَبْتُهُ.

فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ ظَلَمْتَنِي؟ ضَرَبتَنِي خَمْسَ عَشْرَةَ دِرَّةً بِغَيْرِ جُرمٍ، لاَ أَجعَلُكَ فِي حِلٍّ.

فَقَالَ مَالِكٌ: فَمَا كَفَّارَتُهُ؟ قُلْتُ: كَفَّارَتُهُ أَنْ تُحَدِّثَنِي بِخَمْسَةَ عَشَرَ حَدِيْثاً.

قَالَ: فَحَدَّثَنِي بِخَمْسَةَ عَشَرَ حَدِيْثاً. فَقُلْتُ لَهُ: زِدْ مِنَ الضَّرْبِ، وَزِدْ فِي الحَدِيْثِ.

فَضَحِكَ مَالِكٌ، وَقَالَ: اذهَبْ. (١)

❁ وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ المُرَادِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جَاوَرْتُ الحَافِظَ المُنْذِرِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثِنْتَي عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمْ أَسْتَيْقِظْ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ اللَّيْلِ إِلَّا وَجَدْتُ ضَوْءَ المِصْبَاحِ فِي بَيْتِهِ، وَهُوَ مُشْتَغِلٌ بِالعِلْمِ، حَتَّى كَانَ فِي حَالِ الأَكْلِ وَالكُتُبُ عِنْدَهُ يَشْتَغِلُ فِيهَا. (٢)

❁ قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال شيخنا: وَلَمْ أَرَ وَلَمْ أسمعْ أحداً أكثر اجتهاداً مِنْهُ فِي الاشتغالِ، كَانَ دَائم الاشتغال في الليلِ والنهارِ.

---

(١) "تهذيب الكمال" (٣٠/ ٢٥١)، "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (١١/ ٤٢٨).

(٢) "بستان العارفين" للنووي (صـ: ٧٩).

❁ وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَسَبِيلُ طَالِبِ الْكَمَالِ فِي الْعِلْمِ، الِاطِّلَاعُ عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي قَدْ تَخَلَّفَتْ مِنَ الْمُصَنَّفَاتِ، فَلْيُكْثِرْ مِنَ الْمُطَالَعَةِ، فَإِنَّهُ يَرَى مِنْ عُلُومِ الْقَوْمِ وَعُلُوِّ هِمَمِهِمْ مَا يُشَحِّذُ خَاطِرَهُ وَيُحَرِّكُ عَزِيمَتَهُ لِلْجِدِّ، وَمَا يَخْلُو كِتَابٌ مِنْ فَائِدَةٍ. وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم! لا نرى فيهم ذا همة غالية؛ فيقتدي به المبتدئ، ولا صاحب ورع، فيستفيد منه الزاهد.(١)

وَذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ طَالَعَ فِي أَيَّامِ الطَّلَبِ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفَ مُجَلَّدٍ فِي الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ.

فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَحْرِصَ عَلَى الْعِلْمِ وَعَلَى نَيْلِهِ وَتَحْصِيلِهِ وَتَصْبِرَ عَلَى مَا تَجِدُ مِنَ الْقِلَّةِ وَالْفَقْرِ.

قَالَ النَّظْرُ بْنُ شُمَيْلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَا يَجِدُ الرَّجُلُ لَذَّةَ الْعِلْمِ حَتَّى يَجُوعَ وَيَنْسَى جُوعَهُ(٢).

وَذَكَرُوا عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ سمعت عبد الرحمن بن يوسف بن خراش الحافظ يقولُ: شَرِبْتُ بَوْلِي فِي هَذَا الشَّأْنِ خَمْسَ مَرَّاتٍ. يَعْنِي أَنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ فِي الْأَسْفَارِ فِي طَلَبِهِ الْحَدِيثَ.(٣)

مُضْطَرًّا لِذَلِكَ لَا مُخْتَارًا، مَعَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ شُرْبُهُ؛ لِأَنَّهُ نَجِسٌ، اضْطُرَّ لِذَلِكَ. وَبِلَا شَكٍّ،

❁ قال وراق البُخَارِيّ: سمعته(البخاري) يَقُول: خرجت إِلَى آدم بن أبي إِيَاس فتأخرت نفقتي حَتَّى جعلت أتناول حشيش الأَرْض فَمَا كَانَ فِي الْيَوْم الثَّالِث أَتَانِي رجل

---

(١) "صيد الخاطر" (صـ: ٤٥٣).

(٢) "تذكرة الحفاظ" (١/ ٢٢٩)، تقدم.

(٣) "تاريخ بغداد" ت بشار (١١/ ٥٧١)، "المنتظم"(١٢/ ٣٦٣)، "تاريخ دمشق" لابن عساكر (٣٦/ ١٠٩).

لَا أعرفهُ فَأَعْطَانِي صرة فِيهَا دَنَانِير قَالَ وسمعته يَقُول كنت أستغل فِي كل شهر خَمْسمِائَة دِرْهَم فأنفقها فِي الطّلب وَمَا عِنْد الله خير وَأبقى. ا.هـ. (١)

تَأَخَّرَتْ نَفَقَتُهُ وَلَمْ يَجِدْ مَالًا حَتَّى أَكَلَ وَرَقَ الشَّجَرِ فِي نَيْلِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ وَالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ. فَلَمْ يَتْرُكُوا الْعِلْمَ وَيُقْبِلُوا عَلَى الدُّنْيَا بِحُجَّةِ أَنَّ الأُمُورَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ، بَلْ صَبَرُوا عَلَى الْعِلْمِ وَعَلَى تَحْصِيلِهِ. فَالْإِنْسَانُ يَصْبِرُ وَيَحْرِصُ عَلَى أَوْقَاتِهِ وَيَتَحَمَّلُ مَا يُلَاقِي فِي هَذَا الطَّرِيقِ مِنْ مَشَاقٍّ وَمِنْ مَتَاعِبَ.

تَقَدَّمَ مَعَنَا قَوْلُ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ. (٢)

❁ وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمَنْ لَمْ يُغْلِبْ لَذَّةَ إِدْرَاكِهِ الْعِلْمَ وَشَهْوَتَهُ عَلَى لَذَّةِ جِسْمِهِ وَشَهْوَةِ نَفْسِهِ، لَمْ يَنَلْ دَرَجَةَ الْعِلْمِ أَبَدًا.

فَإِذَا صَارَتْ شَهْوَتُهُ فِي الْعِلْمِ وَلَذَّتُهُ فِي كُلِّ إِدْرَاكِهِ، رُجِيَ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ أَهْلِهِ. (٣)

❁ كَانَ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَنْ يُنَالَ حَتَّى يُذَاقَ فِيهِ طَعْمُ الْفَقْرِ، وَذَكَرَ مَا نَزَلَ بِرَبِيعَةَ مِنَ الْفَقْرِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ حَتَّى بَاعَ خَشَبَ سَقْفِ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَحَتَّى كَانَ يَأْكُلُ مَا يُلْقَى عَلَى مَزَابِلِ الْمَدِينَةِ مِنَ الزَّبِيبِ وَعُصَارَةِ التَّمْرِ». (٤)

❁ قال أحمد بن عمر الزبيدي الشافعي:

قلت لِلْفَقْرِ أَيْنَ أَنْتَ مُقِيمٌ قال لي: في محابر العلماء

---

(١) "فتح الباري" لابن حجر (١/ ٤٨٠).

(٢) تقدم في البيت رقم (١٨).

(٣) "مفتاح دار السعادة"(١/ ١٤٢).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (٥٩٦)، بسند صحيح، وذكر بعضه في "ترتيب المدارك" (٢/٦٨).

إِنَّ بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَـهُـمْ لِإِخَـاء وعـزيـز عـلـيّ قـطـع الإخـاء[١]

❁ قال ابن القاسم: «أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه، ثم مالت عليه الدنيا بعد».[٢] ثُمَّ دَارَتِ الأَيَّامُ وَيَسَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مِنْ رِزْقِهِ، وَهَيَّأَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ خَيْرًا. صَبَرُوا مِنْ أَجْلِ الْعِلْمِ، تَحَمَّلُوا مِنْ أَجْلِهِ الأَتْعَابَ، وَالأَسْفَارَ، وَالْمَشَاقَّ، وَقَطَعُوا الْفَيَافِيَ وَالْقِفَارَ، وَصَبَرُوا عَلَى الْقِلَّةِ مِنْ أَجْلِ الْعِلْمِ وَمِنْ أَجْلِ تَحْصِيلِهِ.

فَطَالِبُ العلمِ يَصْبِرُ مِنْ أَجْلِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، وَيَحْرِصُ عَلَى أَوْقَاتِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

❁ ذَكَرُوا عَنِ الإِمَامِ الأَلْبَانِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ بَابٌ إِلَى الْمَكْتَبَةِ، وَكَانَتْ فَتْحَةُ هَذَا الْبَابِ مِنْ جِهَةٍ أَطْوَلَ أَوْ تَسْتَدْعِي أَنْ يَخْطُوَ خُطُوَاتٍ أَكْثَرَ، وَلَوْ حَوَّلَ فَتْحَةَ الْبَابِ مِنَ الْجِهَةِ الأُخْرَى أَقَلَّ بِخُطْوَةٍ أَوْ خُطْوَتَيْنِ أوْ نحو هذا، فَاسْتَدْعَى وَأَمَرَهُ أَنْ يُحَوِّلَ اتِّجَاهَ الْبَابِ؛ لِيُقَلِّلَ الْخُطَى إِلَى الْمَكْتَبَةِ، فَيَدْخُلَ إِلَى الْمَكْتَبَةِ سَرِيعًا، وَيُرِيدُ كَمَا يُقَالُ أَنْ يُوَفِّرَ خُطْوَتَيْنِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ.

نَحْنُ الْيَوْمَ، تَمْشِي السَّاعَةَ وَالسَّاعَتَيْنِ وَالثَّلَاثَ وَالأَرْبَعَ، بل الأيام، نُرِيدُ أَنْ نُوَفِّرَ السَّاعَاتِ، نُرِيدُ أَنْ نُوَفِّرَ الْمَسَافَاتِ الطَّوِيلَةَ مِنْ أَجْلِ الْعِلْمِ.

فِي الْحَقِيقَةِ ضَعُفَتِ الْهِمَمُ وَفَتَرَتِ الْهِمَمُ إِلَّا عِنْدَ مَنْ رَحِمَ اللهُ.

بَلْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَثْنَاءَ الأَكْلِ يَجْعَلُ جَارِيَةً لَهُ تَقْرَأُ وَهُوَ يَأْكُلُ حَتَّى لَا يُضَيِّعَ ذَلِكَ الْوَقْتَ.

بَلْ ذَكَرُوا عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ كَانَ حَتَّى إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ يَجْعَلُ مَنْ يَقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجِ

---

(١) "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" (١٠/ ٢٣٦).

(٢) "ترتيب المدارك" (١/ ١٣٠).

الْكَنِيفِ، لِكَيْ يَسْمَعَ الْخَيْر، وَالْعِلْم ويستغل الوقت. هَكَذَا كَانَ حِرْصُهُمْ عَلَى الْعِلْمِ وَعَلَى تَلَقِّيهِ.

فَلْنَحْرِصْ عَلَى تَقْوِيَةِ هِمَمِنَا فِي الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَتَلَقِّيهِ. يُنَشِّطُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي تَلَقِّي الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ، وَالْحِرْصِ عَلَيْهِ.

أُنْظُرْ أَيْضًا فِي سِيَرِ الأَوَّلِينَ، كَانَ بَعْضُهُمْ يُؤَلِّفُ الْكُتُبَ فِي الطَّرِيقِ، يُؤَلِّفُونَ كُتُبًا وَهُمْ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، وَيُخْرِجُونَهَا لِلنَّاسِ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ، أَوْ بَعْضُهُمْ على السِّرَاجُ وَنَحْو ذَلِكَ، اليومَ أَحَدُنَا يَعْجِزُ أَنْ يَذْكُرَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُجَرَّدَ ذِكْرٍ بِلِسَانِهِ أَثْنَاءَ الْمَشْيِ. وَهَذِهِ وَاللهِ حَسْرَةٌ أَنْ تَضِيعَ الأَوْقَاتُ وَتَمْضِي عَلَيْنَا هَكَذَا بِغَيْرِ أَنْ نَسْتَغِلَّهَا فِي الْخَيْرِ وَفِي الْعِلْمِ.

اسْتَغِلَّ الأَوْقَاتَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَكَ اللهُ وَيَنْفَعَكَ.

وَلا تَكْسَلْ وَلا تَلْتَفِتْ إِلَى غَيْرِكَ وَلا تَنْشَغِلْ بِغَيْرِكَ. غَيْرُكَ ذَهَبَ، أَوْ جَلَسَ، اجْتَهَدَ، أَوْ لَمْ يَجْتَهِدْ، لا تَنْشَغِلْ بِهِ أَبَدًا. أَقْبِلْ عَلَى مَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَلا تَنْشَغِلْ بِغَيْرِكَ، وانصحْ له إذا تمكنتْ فإن قبلها فهو المطلوب، وإن لم فقد أديت ما عليك.

البيت رقم٨٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تَـفِـرُّ مِـنَ الْـهَـجِـيرِ وَتَـتَّـقِـيـهِ فَـهَـلَّا مِـنْ جَـهَـنَـمَ قَـدْ فَـرَرْتَـا

شرح البيت رقم ٨٥

"تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ"، الهَجِيرُ هُوَ وَسَطُ النَّهَارِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الحَرِّ، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ بِالْهَاجِرَةِ. (وَالهَاجِرَةُ وَالهَجِيرُ نِصْفُ النَّهَارِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الحَرِّ).(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ التوبة [٨١، ٨٢].

لَا تَنْفِرُوا فِيهَا لِلْجِهَادِ تعذروا بذلك.

"تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ"، أَنْتَ فِي الدُّنْيَا تَفِرُّ مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ، إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ مِنْهُ، تَفِرُّ اليَوْمَ إِلَى المُكَيِّفَاتِ، تَفِرُّ إِلَى المَرَاوِحِ، تَفِرُّ اليَوْمَ إِلَى تَبْرِيدِ الجِسْمِ بِالاغْتِسَالِ، تَفِرُّ أَيْضًا إِلَى شُرْبِ الأَشْيَاءِ البَارِدَةِ؛ لِتُخَفِّفَ عَلَى نَفْسِكَ شِدَّةَ الحَرَارَةِ. رُبَّمَا إِذَا كُنْتَ فِي الطَّرِيقِ مَاشِياً تَسْتَظِلُّ لَا تُوَاصِلُ المَشْيَ، حَتَّى رُبَّمَا تَجِدُ بَعْضَ أَصْحَابِ المَرَاكِبِ وَالسَّيَّارَاتِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الحَرِّ، حَرَارَةِ الجَوِّ، حَرَارَةِ الطَّرِيقِ، يُضْطَرُّ أَحْيَانًا أَنْ يَقِفَ مُدَّةً يَسِيرَةً مِنَ الزَّمَنِ، يَقُولُ: حَتَّى تَبْرُدَ السَّيَّارَةُ وَغَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ تَبْرُدَ مَاكِينَةُ السَّيَّارَةِ. تَفِرُّ مِنَ الهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ، تَهْرُبُ مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ وَتَتَّقِيهَا بِأَنْوَاعِ الاتِّقَاءِ، إِمَّا بِالظِّلِّ، إِمَّا تَحْتَ السُّقُوفِ، إِمَّا بِالمَرَاوِحِ وَالمُكَيِّفَاتِ أو يستظل تحت الأشجار، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الاتِّقَاءِ.

ثُمَّ ذَكَّرَ بِأَمْرٍ أَوْلَى أَنْ يُتَّقَى، وَبِأَمْرٍ أَوْلَى أَنْ يُفَرَّ مِنْهُ وَيُهْرَبَ "فَهَلَّا مِنْ جَهَنَمَ قَدْ فَرَرْتَا" الَّتِي حَرُّهَا شَدِيدٌ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾

(١) "مختار الصحاح" (صـ: ٣٢٤).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ المؤمنون [١٠٣، ١٠٤].

تَحْرِقُهَا إِحْرَاقًا شَدِيدًا. الْكَالِحُ: هُوَ الَّذِي تَقَلَّصَتْ شَفَتَاهُ حَتَّى بَدَتْ أَسْنَانُهُ، وَالنَّارُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَحْرِقُ شِفَاهَهُمْ، حَتَّى تَتَقَلَّصَ عَنْ أَسْنَانِهِمْ، كَمَا يُشَاهَدُ مَثَلُهُ فِي رَأْسِ الشَّاةِ الْمَشْوِيِّ فِي نَارٍ شَدِيدَةِ الْحَرِّ.(١)

جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «قَالَتِ النَّارُ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأْذَنْ لِي أَتَنَفَّسْ، فَأْذِنْ لَهَا بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ بَرْدٍ، أَوْ زَمْهَرِيرٍ فَمِنْ نَفَسِ جَهَنَّمَ، وَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ حَرٍّ، أَوْ حَرُورٍ فَمِنْ نَفَسِ جَهَنَّمَ»، وفي لفظٍ: «اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ».(٢)

أَشَدُّ مَا تَجِدُ مِنْهُ هُوَ نَفَسٌ مِنْ أَنْفَاسِ جَهَنَّمَ. فَكَيْفَ بِهَا؟ إِذَا كَانَ أَشَدُّ مَا يُوجَدُ مِنْ حَرِّ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ هَذِهِ الأَرْضِ مُجَرَّدُ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِهَا، فَكَيْفَ بِهَا؟ وَكَيْفَ بِأَنْفَاسٍ مُتَعَدِّدَةٍ؟ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ: «فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا».(٣)

---

(١) "أضواء البيان"(٥/ ٣٥٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٠)، مسلم (٦١٧).

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٥)، مسلم (٢٨٤٣).

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ المعارج [١٥، ١٦]. تَشْوِي الوُجُوهَ، تَشْوِي الجُلُودَ، تَصِيرُ الجُلُودُ مَشْوِيَّةً كَمَا يُشْوَى اللَّحْمُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا. وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ النساء [٥٦]. وَقَالَ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ الكهف [٢٩]

ذَلِكَ المَاءُ الَّذِي يُقَرَّبُ إِلَيْهِمْ لِيَشْرَبُوا مِنْهُ، بِمُجَرَّدِ مَا يُقَرِّبُونَهُ يَشْوِي وُجُوهَهُمْ وَيَتَسَاقَطُ ذَلِكَ اللَّحْمُ مِنْ وُجُوهِهِمْ مِنْ شِدَّةِ حَرَارَةِ ذَلِكَ المَاءِ. ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ الكهف [٢٩]. وَقَالَ: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ محمد [١٥]

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ الحج [١٩، ٢٠].

❁ قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَيَنْبَغِي لِمَنْ كَانَ فِي حَرِّ الشَّمْسِ أَنْ يَتَذَكَّرَ حَرَّهَا فِي المَوْقِفِ. فَإِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو مِنْ رُؤُوسِ العِبَادِ يَوْمَ القِيَامَةِ. وَيَنْبَغِي لِمَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى حَرِّ الشَّمْسِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَجْتَنِبَ مِنَ الأَعْمَالِ مَا يَسْتَوْجِبُ صَاحِبُهُ بِهِ دُخُولَ النَّارِ، مَا يَسْتَوْجِبُ صَاحِبُهُ بِهِ دُخُولَ النَّارِ، فَإِنَّهُ لَا قُوَّةَ لِأَحَدٍ عَلَيْهَا وَلَا صَبْرَ. (١)

وَكَمَا قِيلَ:

نَسِيتَ لَظَى عِنْدَ ارْتِكَابِكَ لِلْهَوَى ... وَأَنْتَ تُوَقَّى حَرَّ شَمْسِ الْهَوَاجِرِ
كَأَنَّكَ لَمْ تَدْفِنْ حَمِيمًا وَلَمْ تَكُنْ ... لَهُ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ يَوْمًا بِحَاضِرِ (٢)

---

(١) "لطائف المعارف" لابن رجب (صـ: ٣٢١).

(٢) "التوبة" لابن أبي الدنيا (صـ: ٥٤)، "لطائف" المعارف لابن رجب (صـ: ٣٢١).

"فَهَلَّا مِنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَ"، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ الفرقان [١٢].

وَشِدَّةُ الحَرِّ، والحمى كَمَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ الكَثِيرَة مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ. «إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلاَةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ».(١) وَ«الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ».(٢).

❁ نَظَرَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ فِي جِنَازَةٍ، إِلَى قَوْمٍ قَدْ تَلَثَّمُوا مِنَ الْغُبَارِ وَالشَّمْسِ، وَانْحَازُوا إِلَى الظِّلِّ، فَبَكَى وَأَنْشَدَ:

مَنْ كَانَ حِينَ تُصِيبُ الشَّمْسُ جَبْهَتَهُ ... أَوِ الْغُبَارُ يَخَافُ الشَّيْنَ وَالشَّعَثَا
وَيَأْلَفُ الظِّلَّ كَيْ تَبْقَى بَشَاشَتُهُ ... فَسَوْفَ يَسْكُنُ يَوْمًا رَاغِمًا جَدَثَا
فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ غَبْرَاءَ مُوحِشَةٍ ... يُطِيلُ فِي قَعْرِهَا تَحْتَ الثَّرَى لُبْثَا
تَجَهَّزِي بِجَهَازٍ تَبْلُغِينَ بِهِ ... يَا نَفْسُ قَبْلَ الرَّدَى لَمْ تُخْلَقِي عَبَثَا(٣)

الْجَدَثُ: الْقَبْرُ.

---

(١) عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رواه البخاري (٥٣٣)، (٣٢٦٤)، (٥٧٢٣)، ومسلم (٢٢٠٩)، وعن وَأَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه البخاري (٥٣٥)، (٥٣٩)، (٦٢٩)، (٣٢٥٨)، ومسلم (٦١٦)، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (٥٣٦)، ومسلم (٦١٥)، وعن أبي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه البخاري (٥٣٨)، (٣٢٥٩)، ومسلم ()

(٢)عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رواه البخاري (٣٢٦١)، وَعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رواه البخاري (٣٢٦٣)، (٥٧٢٥)، ومسلم (٢٢١٠)، وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رواه البخاري (٥٧٢٣)، ومسلم (٢٢٠٩)، وعن أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، في مسلم (٢٢١١)، وعن رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسلم (٢٢١٢).

(٣) "البداية والنهاية" ط هجر (١٢/ ٧٠٦).

البيت رقم٨٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَسْـــتَ تُـطِـيـقُ أَهْـوَنَهَـا عَـذَابًـا وَلَـوْ كُـنْـتَ الْحَـدِيـدَ بِهَـا لَـذُبْـتَـا

شرح البيت رقم ٨٦

إِذَا دَخَلَتَ النَّارَ عِيَاذًا بِاللهِ، لا تُطِيقُ أَنْ تَتَحَمَّلَ مَا يَتَحَمَّلُهُ أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا.

جَاءَ فِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ، تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ، يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ».(١) هَذَا أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا.

وَلفظُ مسلم: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِ الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا».(٢)

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ».(٣)

وَجَاءَ التصريح به عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ،

جَاءَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ».(٤)

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦١)، (٦٥٦٢).

(٢) رواه مسلم (٢١٣).

(٣) رواه مسلم (٢١١).

(٤) رواه مسلم (٢١٢).

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ». (١)، وجاء بنحوه عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (٢)

إِذَا كَانَ الإِنْسَانُ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَضَعَ جُزْءًا مِنْ جَسَدِهِ أَوْ مِنْ أَصَابِعِهِ فِي النَّارِ، فَكَيْفَ بِنَارِ جَهَنَّمَ؟ إِذَا كَانَتْ بَعْضُ نَارِ الدُّنْيَا يُفَخِّرُ بِهَا الْحَدِيدُ وَيُذَابُ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، فَكَيْفَ بِنَارِ جَهَنَّمَ؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ التحريم [٦].

النَّاسُ حَطَبُهَا وَالْحِجَارَةُ حَطَبُهَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴾ الجن [١٥]. ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ الأنبياء [٩٨].

أَيْ: حَطَبُ جَهَنَّمَ، يَصِيرُونَ وُقُودًا لِجَهَنَّمَ وَحَطَبًا لَهَا.

❁ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعَلَيْهِ فَتَكُونُ الْحِجَارَةُ وَالنَّاسُ وَقُودًا لِلنَّارِ، وَذُكِرَ ذَلِكَ تَعْظِيمًا لِلنَّارِ أَنَّهَا تُحْرِقُ الْحِجَارَةَ مَعَ إِحْرَاقِهَا النَّاسَ. (٣)

❁ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْمُرَادُ بِالْحِجَارَةِ هَاهُنَا: هِيَ حِجَارَةُ الْكِبْرِيتِ الْعَظِيمَةُ السَّوْدَاءُ الصَّلْبَةُ الْمُنْتِنَةُ، وَهِيَ أَشَدُّ الْأَحْجَارِ حَرًّا إِذَا حَمِيَتْ، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا. (٤)

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٣)، (٦٢٠٨) ومسلم (٢٠٩).

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٥)، (٦٥٦٤)، مسلم (٢١٠).

(٣) "تفسير القرطبي" (١/ ٢٣٥).

(٤) "تفسير ابن كثير" ت سلامة (١/ ٢٠١).

وَخُصَّتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَزِيدُ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْجَارِ بِخَمْسَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ: سُرْعَةِ الِاتِّقَادِ، نَتْنِ الرَّائِحَةِ، كَثْرَةِ الدُّخَانِ، شِدَّةِ الِالْتِصَاقِ بِالْأَبْدَانِ، قُوَّةِ حَرِّهَا إِذَا حَمِيَتْ.(١)

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ الليل [١٤-١٦].

۞ قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاللهِ مَا أَنْذَرَ الْعِبَادَ بِشَيْءٍ قَطُّ أَدْهَى مِنْهَا.(٢)

وَقَالَ: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ الزمر [١٦].

"وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا"، لَوْ كُنْتَ حَدِيدًا، وَلَوْ كَانَ جِسْمُكَ حَدِيدًا صَلْبًا لَذُبْتَ مِنْ شِدَّةِ حَرَارَةِ جَهَنَّمَ. لِذَلِكَ تَذُوبُ تِلْكَ الْجُلُودُ، ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ النساء [٥٦].

فِيهَا غِلَاظٌ شِدَادٌ مِنْ مَلَائِكَةٍ ... قُلُوبُهُمْ شِدَّةً أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ
لَهُمْ مَقَامِعُ لِلتَّعْذِيبِ مُرْصَدَةٌ ... وَكُلُّ كَسْرٍ لَدَيْهِمْ غَيْرُ مُنْجَبِرِ
سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ شَعْثَاءُ مُوحِشَةٌ ... دَهْمَاءُ مُحْرِقَةٌ لَوَّاحَةُ الْبَشَرِ
فِيهَا الْجَحِيمُ مُذِيبٌ لِلْوُجُوهِ مَعَ الْـ ... أَمْعَاءِ مِنْ شِدَّةِ الْإِحْرَاقِ وَالشَّرَرِ
فِيهَا الْغِسَاقُ الشَّدِيدُ الْبَرْدِ يَقْطَعُهُمْ ... إِذَا اسْتَغَاثُوا بِحَرٍّ ثُمَّ مُسْتَعِرِ
فِيهَا السَّلَاسِلُ وَالْأَغْلَالُ تَجْمَعُهُمْ ... مَعَ الشَّيَاطِينِ قَسْرًا جَمْعَ مُنْقَهِرِ
فِيهَا الْعَقَارِبُ وَالْحَيَّاتُ قَدْ جُعِلَتْ ... جُلُودُهُمْ كَالْبِغَالِ الدُّهْمِ وَالْحُمُرِ
وَالْجُوعُ وَالْعَطَشُ الْمَضْنِي لِأَنْفُسِهِمْ ... فِيهَا وَلَا جَلَدٌ فِيهَا لِمُصْطَبِرِ
لَهَا إِذَا مَا غَلَتْ فَوْرٌ يُقَلِّبُهُمْ ... مَا بَيْنَ مُرْتَفِعٍ مِنْهَا وَمُنْحَدِرِ(٣)

---

(١) "تفسير القرطبي" (١/ ٢٣٥).

(٢) كما في "تفسير ابن رجب الحنبلي" (٢/ ٥١٢)، وقال: خرَّجَه ابنُ أبي حاتم. ولم أره في تفسيره.

(٣) "ديوان ابن مشرف" (صـ: ٣٣٩).

البيت رقم٨٧

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلاَ تُـنْـكِـرْ فَـإِنَّ الأَمْـرَ جِـدٌّ وَلَـيْسَ كَـمَا حَسِـبْـتَ وَلاَ ظَـنَنْتَـا

شرح البيت رقم ٨٧

لا تَنْكِرْ هَذِهِ الْحَقَائِقَ، فَهِيَ حَقَائِقٌ يَقِينِيَّةٌ لا شكَ فيها، وَالأَمْرُ جِدٌّ وَلَيْسَ بِالْهَزْلِ، ولا بِالظَّنِّ، وَهُوَ فَوْق مَا يَتَخَيَّلُ الإِنْسَانُ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعِقَابِ، وَالنَّارِ الْمُحْرِقَةِ وَإِذَابَةِ الْجُلُودِ. فَإِنَّ الأَمْرَ جِدٌّ، يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ هَذَا الأَمْرِ وَأَنْ يَجِدَّ وَيَجْتَهِدَ، ويَسْتَعد.

أَنْ يَجِدَّ الإِنْسَانُ فِي الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَالطَّاعَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾ مريم [١٢].

﴿ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ ﴾ الأعراف [١٤٥]. خُذِ الأَمْرَ مَأْخَذَ الْجِدِّ وَلَيْسَ الْهَزْل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ النحل [١]. جَعَلَهُ فِي حُكْمِ الَّذِي قَدْ أَتَى، إِنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، وَكَأَنهُ فِي حُكْمِ الْمَاضِي مِنْ شِدَّةِ وُقُوعِهِ. فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُعِدَّ الْعُدَّةَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ بِالْجِدِّ فِي هذه الدُّنْيَا بالْخَيْرِ وَالْعِلْمِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴾ المرسلات [٧]. فما وعد الله به فلا شك في وقوعه، وكذلك عذابه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴾ الطور [٧، ٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ الأنعام [١٣٤].

"وَلَيْسَ كَمَا حَسِبْتَ وَلاَ ظَنَنْتَا"، الأمرُ جِدٌّ، وليس كما تظن وتحسب إن كنت في شكٍ من ذلك.

هَذِهِ أَشْيَاءُ وَاقِعَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا، سَتَحْصُلُ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ وَلَا مِرْيَةَ مِنَ الأَهْوَالِ، مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَمِنْ عَرَصَاتِهَا وَمِنَ الْعَذَابِ لِأَهْلِ الإِعْرَاضِ، وَالنَّعِيمِ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ.

فَكَمَا أَنَّ الأَمْرَ جِدٌّ وَيَقِينٌ، فَأَنْتَ تَمَسَّكْ مِنَ الْيَوْمِ، وَكُنْ مُجِدًّا بِالْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ يس [٦٣، ٦٤].

مَا كُنْتُمْ تُخَوَّفُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وتُحذرون منه، هَا هُوَ الْيَوْمَ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ، تَحُسُّونَهُ بِأَجْسَادِكُمْ وَتَدْخُلُونَ فِيهِ، عِيَاذًا بِاللهِ.

وَقَالَ اللهُ عَنْ أَهْلِ الْخَيْرِ: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ الأنبياء [١٠٣].

حَقَائِقُ وَاقِعِيَّةٌ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، حَقَائِقُ وَاقِعِيَّةٌ يَقِينِيَّةٌ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلِأَهْلِ النَّارِ مِنَ النَّعِيمِ وَمِنَ الْعَذَابِ.

وَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فصلت [٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ الذاريات [٥].

البيت رقم٨٨

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي ... وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا

شرح البيت رقم ٨٨

يَقُولُ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لِمَنْ كَانَ يَنْصَحُ لَهُ سَابِقًا بِمَنْ كَنَاهُ بِأَبِي بَكْرٍ، بِأَنَّهُ لَمْ يَكْشِفْ مِنْ عُيُوبِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ، وَلَمْ يُظْهِرْ مِنْهَا إِلَّا اليسير، وَإِلَّا فَالذُّنُوبُ كَثِيرَةٌ وَعَظِيمَةٌ مَسْتُورَةٌ، وَهَذَا مِنْ تَوَاضُعِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ السَّلَفُ عُمُومًا، وَقَلَّ مَنْ يَسْلَمُ. وَكُلَّمَا كَانَ الإِنْسَانُ مَسْتُورًا كُلَّمَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى عَافِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ».(١)

إِلَهِي لا تُعَذِّبني فَإِنّي ... مُقِرٌّ بِالَّذي قَد كانَ مِنّي
وَما لي حيلَةٌ إِلّا رَجائي ... وَعَفوُكَ إِن عَفَوتَ وَحُسنُ ظَنّي
فَكَم مِن زِلَّةٍ لي في البَرايا ... وَأَنتَ عَلَيَّ ذو فَضلٍ وَمَنِّ
إِذا فَكَّرتُ في نَدَمي عَلَيها ... عَضَضتُ أَنامِلي وَقَرَعتُ سِنّي
يَظُنُّ الناسُ بي خَيرًا وَإِنّي ... لَشَرُّ الناسِ إِن لَم تَعفُ عَنّي
يَظُنُّ النَّاسُ بي خَيْرًا ... وَإِنِّي لَشَرُّ النَّاسِ إِنْ لَمْ تَعْفُوا عَنِّي

❁ قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَوْلَا سِتْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا جَالَسَنَا أَحَدٌ.(٢)

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩).

(٢) أخرجه البيهقي في "الشعب" (٤٢٠٣)، وفيه أَحْمَد بْن خَالِدِ بْنِ أَحْمَدَ الْقَاضِي، لم أجد له ترجمه.

❁ وقال مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَوْ كَانَ يُوجَدُ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَدْنُوَ مِنِّي مِنْ نَتْنِ رِيحِي» (١)

❁ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ المَازِنِيِّ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي، مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا آخِذٌ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ هود [١٨].(٢)

فَالإِنْسَانُ لَهُ ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ مَسْتُورَةٌ يَسْتُرُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، مَا دَامَ وَهُوَ مُسْتَتِرٌ بِسِتْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، غَيْرَ مُجَاهِرٍ، وَلَا مُسْتَخِفٍّ بِالمَعَاصِي وَالمُنْكَرَاتِ، فَهُوَ فِي سِتْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَكَانَ مِنْ هَدْيِ السَّلَفِ أَنَّهُمْ يَسْتُرُونَ العُصَاةَ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْوُزَرَاءِ الصَّالِحِينَ لِبَعْضِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ: اجْتَهِدْ أَنْ تَسْتُرَ الْعُصَاةَ، فَإِنَّ ظُهُورَ مَعَاصِيهِمْ عَيْبٌ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَأَوْلَى الْأُمُورِ سَتْرُ الْعُيُوبِ.(٣)

❁ وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَوْ كَانَ لِلْخَطَايَا رِيحٌ لَافْتَضَحَ النَّاسُ وَلَمْ يَتَجَالَسُوا.

❁ فَأَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فَقَالَ:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية"(٢/ ٣٤٩)، ومن طريقه ابن الجوزي في "المنتظم" (٧/ ٢٠٥)، بسندٍ صحيح.
وله طريق أخرى عند ابن أبي الدنيا في "المحاسبة"(٣٧)، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُلَيَّةَ، قَالَ: بَلَغَنِي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ، قَالَ: «لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ مَا قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَجْلِسَ إِلَيَّ»، وهو ثابت بالطريق الأولى.

(٢) رواه البخاري (٢٤٤١)، (٤٦٨٥)، (٦٠٧٠)، (٧٥١٤)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٣) "جامع العلوم والحكم" ت الأرنؤوط (٢/ ٢٩٢).

أَحْسَنَ اللهُ بِنَا أَنْ الخَطَايَا لَا تَفُوحُ
فَإِذَا المُسْتُورُ مِنَّا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ فَضُوحُ[١]

❁ قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان السلف يجتهدون في أعمال الخير ويعدون أنفسهم من المقصرين المفرطين المذنبين، ونحن مع إساءتنا نعد أنفسنا من المحسنين![٢]

❁ كَانَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ فَتُفٌّ لِي ثُمَّ تُفٌّ.[٣]

❁ وَقَالَ أَيُّوبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ كُنْتُ عَنْهُمْ بِمَعْزِلٍ.[٤]

❁ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنِّي لَأَعُدُّ مِائَةَ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ مَا أَعْلَمُ أَنَّ فِي نَفْسِي وَاحِدَةً مِنْهَا».[٥]

فَالإِنْسَانُ لَا يَزَالُ فِي سِتْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا إِذَا جَاهَرَ أَوْ تَعَدَّى وَانْتَهَكَ، وَاسْتَهَانَ بِحُرُمَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَكُنْ مُعَظِّمًا لِلَّهِ، وَلَا مُعْتَرِفًا بِذَنْبِهِ، وَلَا طَالِبًا مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمَغْفِرَةَ

---

(١) أدب الدنيا والدين (صـ: ١٢٥).

(٢) "مجموع رسائل ابن رجب" (١/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٦/٢٨٨)، من طريق أبي بكر، ثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا زيد بن الحباب، ثنا جعفر، قال: سمعت مالك بن دينار فذكره، وأبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي، فيه كلام يسير، كما ذكر الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في "الضعيفة" (١٤/٩٢٣)، (٦٨٩٦). وعبد الله هو ابن أحمد بن حنبل، وجعفر بن سليمان، أخرج له مسلم، عن ثابت، وعن غيره، وفيه كلام. وسنده حسن إن شاء الله تعالى.

(٤) أخرجه يعقوب بن سفيان الفسوي في "المعرفة والتاريخ" (٢/ ٢٤٠)، وأبو نعيم في "الحلية" (٣/٥)، من طريق سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ وَهِيبًا، يَقُولُ: سَمِعْتُ أَيُّوبَ، يَقُولُ...فذكره. وسنده صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في "المحاسبة" (٣٤)، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ الْمُقَدَّمِيُّ، ثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ، بَلَغَنِي عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ، قَالَ...فذكره، وفيه من لم يسم، مع أن يونس بن عبيد من شيوخ سعيد بن عامر إلا أنه قال بلغني.

❁ قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّكَ إِنْ بَلَوْتَ أَخْبَارَنَا هَتَكَتْ أَسْتَارَنَا، إِنَّكَ إِنْ بَلَوْتَ أَخْبَارَنَا فَضَحْتَنَا. (١)

❁ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ النَّضْرِ الْحَارِثِيُّ: ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ نَفَعَنِي اللهُ بِهِنَّ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ كُنْتَ مِنْهُمْ بِمَعْزِلٍ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَا يَسْتَقِيمُ طَلَبُ الْآخِرَةِ إِلَّا بِالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّمَا تَنْتَظِرُونَ ثَلَاثًا فَمَا يُجْلِسُكُمْ عَنِ الْعَمَلِ: إِمَّا نِعْمَةٌ تَزُولُ، وَإِمَّا مُصِيبَةٌ تَنْزِلُ، وَإِمَّا مَنِيَّةٌ تُقْضَى. (٢)

❁ قال القحطاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَاللهِ لَو عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي ... لَأَبَى السَّلَامَ عليَّ مَنْ يَلْقَانِي
ولَأَعْرَضُوا عَنِّي ومَلُّوا صُحْبَتِي ... وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كرامةٍ بِهَوَانِ
لَكِنْ سَتَرتَ مَعَايِبِي ومثَالِبِي ... وحَلُمْتَ عَنْ سَقَطِي وعَنْ طُغْيَانِي
فَلَكَ المحَامِدُ والمدَائِحُ كُلُّهَا ... بَخوَاطِرِي وَجَوَارِحِي وَلِسَانِي
وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَيَّ رَبِّ بِأَنْعُمٍ ... مَا لِي بِشُكْرِ أقلِّهِنَّ يَدَانِ

---

(١) أخرجه البيهقي في "الشعب"(٩٦٦٨)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٨/ ٤١٠)، وفيه مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ أبو علي المُذَّكر، قال المزي: أحد الضعفاء الكذابين المعروفين بسرقة الأحاديث، وانظر "الروض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم" (٢/ ١١٦٠)، ومحمد بن يزيد السلمي، قال الدارقطني: ضعيف. "موسوعة أقوال أبي الحسن الدارقطني"(٢/ ٦٣٨)، وله طريق أخرى عند أبي نعيم في "الحلية" (٨/ ١١٠)، وفيه داود بن حماد بن فرافصة، قال ابن القطان: مجهول. وقال ابن حبان: وكان ضابطا صاحب حديث يغرب. "لسان الميزان"(٢/ ٤١٦).

(٢) أخرجه الدينوري في "المجالسة" (٣٢٣)، ومن طريقه ابن جماعة في " مشيخة ابن جماعة" (صـ: ٣٧٧)، وفيه محمد بن بشير بن مروان الكندي الواعظ، قال يحيى: ليس بثقة. وقال الدارقطني: ليس بالقوي في حديثه. "ميزان الاعتدال" (٣/ ٤٩١)، والدينوري صاحب "المجالسة" نفسه فيه كلام.

البيت رقم ٨٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي ... وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا

شرح البيت رقم ٨٩

وهذا أيضاً من تواضُعِهُ، وينبَغِي للإنسانِ أنْ يَتواضَعَ لِرَبِّهِ وأنْ يَقِرَّ بِذُنُوبِهِ وبِحُصُولِ المعاصِي مِنهُ والذُّنوبِ، ولا يَحمِلُهُ ذلكَ على الاستخفافِ باللهِ عزَّ وجلَّ، والاستهانة بالمعاصي.

❁ وكما قِيلَ:

مَا عَاتَبَ الحُرَّ الكَرِيمَ كَنَفسِهِ ... وَالمَرءُ يُصلِحُهُ الجَلِيسُ الصَالِحُ

يُعاتِبُ الإِنسَانُ نَفسَهُ ويُحاسِبُها، ويَعلَمُ أَنَّهُ خَطَّاءٌ، ويَقَعُ فِي الخَطَأِ فِي اللَّيلِ والنَّهارِ.

وَقَد كَانَ مِنْ هَدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، تعليمه لأمته الإقرار بالزلل، وطلب المغفرة. فَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي، قَالَ: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ».(١) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (٢)

---

(١) رواه البخاري (٨٣٤)، (٦٣٢٦)، (٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٢) رواه البخاري (٦٣٩٨)، (٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩)، عن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

❁ قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ: أَنَا مُتَّصِفٌ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ اغْفِرْهَا لِي.

❁ قِيلَ: قَالَهُ تَوَاضُعًا وَعَدَّ عَلَى نَفْسِهِ فَوَاتَ الْكَمَالِ ذُنُوبًا،

❁ وَقِيلَ: أَرَادَ مَا كَانَ عَنْ سَهْوٍ،

❁ وَقِيلَ: مَا كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مَغْفُورٌ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَدَعَا بِهَذَا وَغَيْرِهِ تَوَاضُعًا؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَة. (١)

والإنسَانُ يَقَعُ مِنهُ الخَطَأُ لا مَحالَةَ، إِلَّا مَن عَصَمَهُ الله، سَواء كانَ في كَلامِهِ، أَوْ في أَفعالِهِ، أَوْ في كِتاباتِهِ، أَوْ تَصرُّفاتِهِ، وفي سائِرِ أُمورِهِ، فَهُوَ لا يَبلُغُ دَرَجَةَ العصمة إِلَّا من بلغه الله.

❁ وَكَما قال الحريري في ملحته: (٢)

وَإِنْ تَجِدْ عَيْبًا فَسُدَّ الْخَلَلَا ... فَجَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا

وبِلا شَكٍّ أَنَّ العَيبَ في الكِتابَةِ، في التَّأليفِ، في الكَلامِ، في التَّصرُّفاتِ، وهذا لا بُدَّ مِنهُ.

❁ وكما قِيلَ:

فاذا ظفرت بزلة فأفتح لها ... باب التسامح فالتسامح أجدر
ومن المحال بأن ترى أحداً حوى ... كل الكمال وذا هو المتعذر
وَالنَّقْصُ فِي أَصْلِ الطَّبِيعَةِ كَامِنٌ ... فَبَنُو الطَّبِيعَةِ نَقْصُهُمْ لَا يُجْحَدُ (٣)

وقول "فَبَنُو الطَّبِيعَةِ"، إِنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ الإِنسَانَ مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ، فَكُلُّ مَا كَانَ مَخْلُوقًا مِنَ التُّرَابِ فَنَقْصُهُ لا يُنْكَرُ وَمُتَأَصِّلٌ فِيهِ، فَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ، وكأنهُ أراد هذا، واللهُ أعلم.

وَإِنْ أَرَادَ بِذَلِكَ مَا يَنْسِبُهُ الفَلَاسِفَةُ وَغَيْرُهُمْ، مِنْ نِسْبَةِ الأَشْيَاءِ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ

---

(١) "شرح النووي على مسلم" (١٧/ ٤٠)، عند الحديث السابق.

(٢) ذكرها الخطيب في "تاريخ بغداد" (٢٢/ ٢٤).

(٣) "الأجوبة الكافية عن الأسئلة الشامية"

مِمَّا يُدَنْدِنُونَ بِهِ، فَغَيْرُ صَحِيحٍ.

❁ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكره للبيت الأخير: وَكَيْفَ يُعْصَمُ مِنَ الْخَطَأِ مَنْ خُلِقَ ظَلُومًا جَهُولًا، وَلَكِنْ مَنْ عُدَّتْ غَلَطَاتُهُ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ مِمَّنْ عُدَّتْ إِصَابَاتُهُ.(١)

فلذلك يحتاج الإنسان إلى التوبة، والرجوع، والاستغفار، فلا يخلو من ذنب ومخالفة.

❁ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَتَوْبَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِغْفَارُهُمْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ حَسَنَاتِهِمْ وَأَكْبَرِ طَاعَاتِهِمْ وَأَجَلِّ عِبَادَاتِهِمْ الَّتِي يَنَالُونَ بِهَا أَجَلَّ الثَّوَابِ وَيَنْدَفِعُ بِهَا عَنْهُمْ مَا يَدْفَعُهُ مِنْ الْعِقَابِ.(٢)

❁ وقالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَظُنَّ اسْتِغْنَاءَهُ عَنْ التَّوْبَةِ إلَى اللَّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ الذُّنُوبِ؛ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إلَى ذَلِكَ دَائِمًا.(٣)

❁ وقَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْمُبَادَرَةَ إلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ فَرْضٌ عَلَى الْفَوْرِ، وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهَا، فَمَتَى أَخَّرَهَا عَصَى بِالتَّأْخِيرِ، فَإِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ بَقِيَ عَلَيْهِ تَوْبَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ تَوْبَتُهُ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ، وَقَلَّ أَنْ تَخْطُرَ هَذِهِ بِبَالِ التَّائِبِ، بَلْ عِنْدَهُ أَنَّهُ إِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ شَيْءٌ آخَرُ، وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ، وَلَا يُنْجِي مِنْ هَذَا إِلَّا تَوْبَةٌ عَامَّةٌ، مِمَّا يَعْلَمُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُ، فَإِنَّ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ فِي عَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ بِهَا جَهْلُهُ إِذَا كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنَ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ عَاصٍ بِتَرْكِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَالْمَعْصِيَةُ فِي حَقِّهِ أَشَدُّ.(٤)

---

(١) "مدارج السالكين"(٣/ ٤٨٢).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١٥/ ٥٣).

(٣) "مجموع الفتاوى" (١١/ ٢٥٥).

(٤) "مدارج السالكين" (١/ ٢٨٣).

البيت رقم ٩٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَهْمَا عِبْتَنِي فِلِفَرْطِ عِلْمِي بِبَاطِنِهِ كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا

شرح البيت رقم ٩٠

أَيْ: لِعِلْمِي بِنَفْسِي وَمَا عِنْدِي مِنَ الخَلَلِ وَالمَعَاصِي، كَأَنَّكَ مَدَحْتَنِي بِقَوْلِكَ هَذَا، لأَنَّكَ لَمْ تَقُلْ إِلَّا حَقًّا، وَلَمْ تَقُلْ إِلَّا صِدْقًا وَصَوَابًا.

ولا يَعْنِي هَذَا أَنَّ الإِنسَانَ يُعَيِّرُ غَيْرَهُ بِالمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، فَإِنَّ هَذَا لا يَجُوزُ.

وَإِنَّمَا هَذَا مِنْهُ اعْتِرَافٌ بِمَعَاصِيهِ وَبِمَا يَحْدُثُ مِنْهُ مِنْ تَقْصِيرٍ وَخَلَلٍ، لا إِقْرَارَ التَعْيِير بِالمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ.

فَإِنَّ هَذَا لا يَجُوزُ التَّعْيِيرُ بِالمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، وَمَنْ عَيَّرَ بِذَلِكَ فقد عرض نفسه لأَنْ يَبْتَلِيَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا يُعَيِّرُ غَيْرَهُ بِهِ.

وَيَنْبَغِي لِلإِنسَانِ أَنْ يَكُونَ مُعْتَرِفًا لِرَبِّهِ بِذَنْبِهِ، فَإِنَّهُ مِنَ التَّوْبَةِ أَنْ يَعْتَرِفَ الإِنسَانُ بِذُنُوبِهِ.

يَا مَنْ عَدَا ثُمَّ اعْتَدَى ثُمَّ اقْتَرَفْ ثُمَّ انْتَهَى ثُمَّ ارْعَوَى ثُمَّ اعْتَرَفْ
أَبْشِرْ بِقَوْلِ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفْ

قَدْ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: (فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثم تَابَ إلى الله تَابَ اللهُ عَلَيْهِ).

وفي حديث سيد الاستغفار: (وأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي). (١)

---

(١) وقد تقدم في البيت رقم: (٥٩).

البيت رقم ٩١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَلاَ تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهْوَ عَارٌ عَظِيمٌ يُورِثُ الْمَحْبُوبَ مَقْتَا

شرح البيت رقم ٩١

أَيْ لا تَرْتَضِ المَعَاصِي وَالمُنْكَرَاتِ، وَلا تُقِرَّهَا، فَإِنَّ الرِّضَا بِهَا وَالإِقْرَارَ بِهَا، جَالِبٌ لِلْمَقْتِ.

❁ قَالَ ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **لا يَنَالُ لَذَّةَ المَعَاصِي إِلَّا سَكْرَ الغَفْلَةِ، فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَإِنَّهُ لا يَلْتَذُّ .لا يَنَالُ لَذَّةَ المَعَاصِي إِلَّا سَكْرَانُ الغَفْلَةِ، فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَإِنَّهُ لا يَلْتَذُّ** ـ أَيْ: لا يَتَلَذَّذُ بالمَعَاصِي وَالمُنْكَرَاتِ حَتَّى وَإِنْ وَقَعَ فِيهَا، لا يَكُنْ مُسْتَلَذًّا لَهَا وَلا رَاضِيًا بِهَا، بَلْ يَكْرَهُهَا وَيَمْقُتُهَا وَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ مِنْهَا وَيَعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ ـ

فإنه لا يلتذ؛ لأنه عند التذاذه يقف بإزائه علم التحريم، وحذر العقوبة. فإن قويت معرفته، رأى بعين علمه قرب الناهي، فيتنغص عيشه في حال التذاذه.(١)

والرِّضَا بِالمَعَايِبِ مِنَ العَارِ عَلَى الإِنسَانِ وَمِنَ الخَطَأِ وَالذَّنْبِ عَلَيْهِ.

الوُقُوعُ فِي الذَّنْبِ ذَنْبٌ، وَالرِّضَا بِهِ وَالإِقْرَارُ بِهِ أَيْضًا ذَنْبٌ آخَرُ. أَمَا إِذَا اسْتَحَلَّهُ فَهَذَا ذَنْبٌ أَعْظَمُ. اسْتِحْلَالُ المَعَاصِي كُفْرٌ بِاللهِ جَلَّ وَعَلا. إِنَّمَا المَرَادُ أَنَّهُ لا يَرْضَى بِهَا وَلا يُقِرُّهَا.

وإِقْرَارُهَا وَالرِّضَا بِهَا وَعَمَلُهَا عَارٌ عَظِيمٌ، وَيُورِثُ المَحْبُوبَ مَقْتًا. الَّذِي كَانَ مَحْبُوبًا يَصِيرُ مَمْقُوتًا، مَكْرُوهًا لِرِضَاهُ بِالمَعَاصِي وَالمُنْكَرَاتِ.

فَالمَعَاصِي تُورِثُ المَقْتَ، تُورِثُ البُغْضَ، تُورِثُ الكُرْهَ عِنْدَ اللهِ، وَعِنْدَ مَلَائِكَةِ اللهِ، وَعِنْدَ الخِيَارِ مِنْ عِبَادِ اللهِ جَلَّ وَعَلا

(١) "صيد الخاطر" (صـ: ١٤٤).

تورثُ المقتَ عندَ اللهِ، وعندَ ملائكتِهِ، وعندَ عبادِ اللهِ جلَّ وعلا، كما في حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ».[1] ولا يحبُّ اللهُ إلا المطيعَ المقبلَ على الطاعةِ والعبادةِ.

وإذا أبغضَ اللهُ عبدًا، وإنما يبغضُهُ اللهُ بالمعاصي والمنكراتِ، الوقوعِ فيما حرَّمَ اللهُ عليهم، بالإعراضِ عن دينِ اللهِ.

فالمعاصي والرضا بها وإقرارُها يورثُ العداوةَ، **"يُورِثُ الْمَحْبُوبَ مَقْتًا"**، يصيرُ المحبوبُ ممقوتًا، مبغوضًا.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٠٩)، (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧).

البيت رقم٩٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَيَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا وَيُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَا

شرح البيت رقم ٩٢

الذنوبُ والمعاصي والمعايبُ والمنكراتُ، الرضا بها، فعلُها، إقرارُها يهوي بالوجيهِ من الثريا، ويُبدلُه مكانَ الفوقِ إلى الأسفل، يكونُ في منزلةٍ عليا رفيعةٍ، فيقعُ فيما حرَّمَ اللهُ عليه، يبتعدُ عن الاستقامةِ؛ فيسقطُ ويهوى بعدَ أنْ كانَ في درجةٍ عاليةٍ يصيرُ في درجةٍ سفلى.

❁ قالَ سليمانُ التيميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السِّرِّ فَيُصْبِحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ».(١)

كم من إنسانٍ كانَ يُشارُ إليهِ بالبنانِ في أمورِ الدينِ والدنيا، يَرتكبُ بعضَ الأمورِ، ثم بعد ذلك كما يُقالُ يُحبُّ أنْ يُغطيَ وجهَهُ من الأرضِ، لا يُحبُّ أنْ يراهُ أحدٌ ولا يلتقيَ بأحدٍ، ربما بعضُهم ينتقلُ من البلادِ التي يسكنُها أو التي يعملُ فيها.

وربما صاحبُ منصبٍ، صاحبُ وزارةٍ، صاحبُ مرتبةٍ، فيقعُ في بعضِ الذنوبِ والمعاصي والمنكراتِ، فتكونُ سببًا في ذلتِهِ وسببًا في سفولِهِ بعدَ أنْ كانَ وجيهًا في أوساطِ الناسِ، له مكانةٌ، ولهُ أيضًا الناسُ يتطلعونَ. فإذا وقعتْ منه مثلُ هذهِ الأمورِ، كلُّهم

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "التوبة" (١٩٥)، و "العقوبات" (٦٧)، والبيهقي في "الشعب" (٦٨٣٩)، وأبو نعيم في "الحلية" (٣/ ٣١)، من طريق الْأَصْمَعِيُّ، عَنِ الْمُعْتَمِرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِيهِ، فذكره، وسنده حسن.

يبغضونَهُ، فيهربُ منهم وربما يختفي. ذهبتْ رتبتُهُ وزَالتْ، أو نقَصَتْ، كانتْ رتبةً في الدينِ أو الدنيا.

قَالَ أَبُو الْفَضْلِ الْخَزَّازُ: سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ، فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَقُولُ: «أَصْلِحُ مَا أَكُونُ أَفْقَرُ مَا أَكُونُ، وَإِنِّي لَأَعْصِي اللهَ فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ حِمَارِي وَخَادِمِي».(١)

يرى أثرَ معصيتِهِ في خلقِ دابتِهِ، في تصرفِها، في مشيِها، في مطاوعتِها له، وفي أخلاقِ امرأتِهِ. من أهانَهُ اللهُ فليسَ له من يُكرمُهُ أبدًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ الحج [١٨].

❁ قال ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن ضيعَ اللهَ ضيَّعَهُ اللَّهُ بين خلْقِهِ، حتى يدخلَ عليه الضررُ ممنْ كانَ يرجو أن ينفعَهُ، ويصيرَ أخصُّ أهلِه به وأرفقهُم به يؤذِيهِ ـ وذكر الأثر السابق ـ وَقَالَ: يعني: أن خادمه يسوءُ خلقُهُ عليه ولا يطيعُه، وحماره يستعصي عليه فلا يواتيه لركوبِهِ. فالخيرُ كلُّه مجموعٌ في طاعةِ اللَّهِ والإقبالِ عليه. والشر كلُّهُ مجموع في معصيةِ اللَّهِ والإعراضِ عنه.(٢)

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ المجادلة [٢٠، ٢١].

وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ المجادلة [٥].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٨/ ١٠٩)، وفيه صالح أبو الفضل الخزاز، لم أجد له ترجمة، وذكرهُ ابنُ عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٨/ ٣٨٣)، ولم يسنده. وأخرجه القزويني في "التدوين في أخبار قزوين" (٤/ ٣٣)، وفيه يوسف بن يعقوب النيسابوري، كذبه أبو علي النيسابوري الحافظ. "ميزان الاعتدال" (٤/ ٤٧٥).

(٢) "تفسير ابن رجب" (١/٥٧٩).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ يونس [٢٧].

وفي الحديث: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.(١)

❁ قالَ ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الحذرَ الحذرَ من المعاصي، فإنَّ عواقبَها سيئةٌ، وَكَمْ مِنْ مَعْصِيَةٍ لا يَزَالُ صَاحِبُهَا فِي هُبُوطٍ أَبَدًا، مَعَ تَعَثُّرِ أَقْدَامِهِ وَشِدَّةِ فَقْرِهِ، وَحَسَرَاتِهِ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَاحَسْرَةً لِمَنْ نَالَهَا...وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الذُّنُوبِ، خُصُوصًا ذُنُوبِ الْخَلَوَاتِ. وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الذُّنُوبِ، خُصُوصًا ذُنُوبِ الْخَلَوَاتِ، فَإِنَّ الْمُبَارِزَ لِلَّهِ تَعَالَى تَسْقُطُ الْعَبْدَ مِنْ عَيْنِهِ.(٢)

❁ قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الْمَعَاصِي، كَمْ سَلَبَتْ مِنْ نِعَمٍ، وَكَمْ جَلَبَتْ مِنْ نِقَمٍ؟ وَكَمْ؟(٣)

❁ وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ، أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ تَضُرُّ، وَلَا بُدَّ أَنَّ ضَرَرَهَا فِي الْقَلْبِ كَضَرَرِ السُّمُومِ فِي الْأَبْدَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا فِي الضَّرَرِ، وَهَلْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ وَدَاءٌ إِلَّا سَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي،

---

(١) رواه أحمد (٥١١٤)، (٥١١٥)، (٥٦٧٦)، وغيره، وعلقه البخاري في: باب ما قيل في الرماح. وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٨٣١).

(٢) "صيد الخاطر" (صـ: ٢٠٧).

(٣) "لطائف المعارف" لابن رجب (صـ: ١٤٦).

فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ، دَارِ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ وَالْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ إِلَى دَارِ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمَصَائِبِ؟

وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ، وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ فَجَعَلَ صُورَتَهُ أَقْبَحَ صُورَةٍ وَأَشْنَعَهَا، وَبَاطِنَهُ أَقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأَشْنَعَ، وَبُدِّلَ بِالْقُرْبِ بُعْدًا، وَبِالرَّحْمَةِ لَعْنَةً، وَبِالْجَمَالِ قُبْحًا، وَبِالْجَنَّةِ نَارًا تَلَظَّى، وَبِالْإِيمَانِ كُفْرًا، وَبِمُوَالَاةِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ، أَعْظَمَ عَدَاوَةٍ وَمُشَاقَّةٍ، وَبِزَجَلِ التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّهْلِيلِ زَجَلَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالْفُحْشِ، وَبِلِبَاسِ الْإِيمَانِ لِبَاسَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، فَهَانَ عَلَى اللَّهِ غَايَةَ الْهَوَانِ، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ غَايَةَ السُّقُوطِ، وَحَلَّ عَلَيْهِ غَضَبُ الرَّبِّ تَعَالَى فَأَهْوَاهُ، وَمَقَتَهُ أَكْبَرَ الْمَقْتِ فَأَرْدَاهُ، فَصَارَ قَوَّادًا لِكُلِّ فَاسِقٍ وَمُجْرِمٍ، رَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالْقِيَادَةِ بَعْدَ تِلْكَ الْعِبَادَةِ وَالسِّيَادَةِ، فَعِيَاذًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِكَ وَارْتِكَابِ نَهْيِكَ.

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ حَتَّى عَلَا الْمَاءُ فَوْقَ رَأْسِ الْجِبَالِ؟

وَمَا الَّذِي سَلَّطَ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عَلَى قَوْمِ عَادٍ حَتَّى أَلْقَتْهُمْ مَوْتَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ، وَدَمَّرَتْ مَا مَرَّ عَلَيْهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَحُرُوثِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَدَوَابِّهِمْ، حَتَّى صَارُوا عِبْرَةً لِلْأُمَمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ حَتَّى قَطَعَتْ قُلُوبَهُمْ فِي أَجْوَافِهِمْ وَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟

وَمَا الَّذِي رَفَعَ قُرَى اللُّوطِيَّةِ حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ أَتْبَعَهُمْ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَمْطَرَهَا عَلَيْهِمْ،

فَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا لَمْ يَجْمَعْهُ عَلَى أُمَّةٍ غَيْرِهِمْ، وَلِإِخْوَانِهِمْ أَمْثَالُهَا، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ؟...(١)

❁ قَالَ الْحَسَنُ عَلَيْهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقْطَقَتْ بِهِمْ بَغَالٌ وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ، إِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ. (٢)

فَقَوْلُهُ: "**وَيَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا**"، يَهْوِي أَيْ: يَسْقُطُ. وَالْوَجِيهُ: ذُو الْجَاهِ، ذُو الْمَنْزِلَةِ وَالْمَكَانَةِ. الثُّرَيَّا الْمُرَادُ بِهِ: نَجْمٌ.

وَالْمُرَادُ هُنَا يَهْوِي بِالْوَجِيهِ: أَنْ يَسْقُطَ صَاحِبُ الْجَاهِ وَالْمَكَانَةِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْعَلِيَّةِ، يَسْقُطُهُ وَيُبَدِّلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَا مَكَانَ الرِّفْعَةِ سُفُولًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ التين [٤-٦].

فَالذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي تَهْوِي بِالْوَجِيهِ وَتَسْقُطُهُ، وَهِيَ عَارٌ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَهِيَ تَسْقُطُهُ، وَتَذْهَبُ بِجَاهِهِ، وَمَكَانَتِهِ وَمَنْزِلَتِهِ، وَلَوْ كَانَ فِي الِارْتِفَاعِ يُعَانِقُ الثُّرَيَّا.

---

(١) "الجواب الكافي" (صـ:٤٢ ـ ٤٣)

(٢) أخرجه الطبري في "تاريخه" (٦٣٨/١١)، بلفظ: أما والله انهم وإن ركبوا البراذين وصعدوا المنابر، إن ذل المعاصي لفي أعناقهم، ابى الله تعالى إلا أن يذل من عصاه، ما زال الله يريهم في أنفسهم العبر، ويرى المؤمنين فيهم المعتبر.. وفيه العباس بن الفضل بن العباس العبدي، قال ابن معين: كذاب خبيث. كما في "تاريخ بغداد" (١٥/١٤).

وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٤٩/٢)، بلفظ: «أَمَا وَاللهِ لَئِنْ تَدَفْدَقَتْ بِهِمُ الْهَمَالِيجُ وَوَطِئَتِ الرِّحَالُ أَعْقَابَهُمْ، إِنَّ ذَلَّ الْمَعَاصِي لَفِي قُلُوبِهِمْ وَلَقَدْ أَبَى اللهُ أَنْ يَعْصِيَهُ عَبْدٌ إِلَّا أَذَلَّهُ»، فيه من لا يعرف، وفيه أبو حفص عمر بن حفص العبدي، تركه أحمد. وقال النسائي: متروك. وضعفه الدارقطني. "ميزان الاعتدال" (٣/ ١٨٩).

وأخرجه ابن الجوزي في "ذم الهوى" (صـ: ١٨٢)، بلفظ: مَا عَصَى اللَّهَ عَبْدٌ إِلا أَذَلَّهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وفي سنده ضعفٌ، عبد الله بن السندي، لم يوثقه سوى ابن حبان، وفيه بعض الرواة أيضا ضعف.

وجاء عن سفيان، عند أبي بكر المروذي في "أخبار الشيوخ وأخلاقهم" (٢٥٢)، أنه قال: إِنَّهُمْ وَإِنْ دَقْدَقَتْ بِهِمْ بَرَاذِينُهُمْ فَإِنَّ ذُلَّ الْمَعَاصِي فِي قُلُوبِهِمْ. وفيه محمد بن يزيد الرفاعي، قَالَ النَّسَائِيُّ: ضَعِيفٌ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: رَأَيْتُهُم مُجْمِعِيْنَ عَلَى ضَعْفِهِ. "سير أعلام النبلاء" ط الحديث (٩/ ٥١٣).

لَوِ ارْتَفَعَ صَاحِبُ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ إِلَى الثُّرَيَّا، وَاشْتَهَرَ شُهْرَةً عَظِيمَةً، وَعَانَقَتْ شُهْرَتُهُ النُّجُومَ، فَإِنَّ هَذِهِ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِي تُؤَثِّرُ عَلَيْهِ.

❁ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ قُبْرُصُ فُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا فَبَكَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَرَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟ قَالَ: «وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ مَا أَهْوَنَ الْخَلْقِ عَلَى اللهِ إِذَا هُمْ تَرَكُوا أَمْرَهُ، بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى». (١) أَيْ مَنْ كَانَ مُضَيِّعًا لِلدِّينِ وَلِأَوَامِرِهِ يَكُونُ هَيِّنًا لَيْسَ لَهُ قِيمَةٌ، وَلَا مَنْزِلَةٌ بَلْ فِي مَهَانَةٍ، ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ الحج [١٨].

فِي هَذِهِ الْأَدِلَّةِ وَمَا مرَّ مَعَنَا عِبْرَةٌ لِلْإِنْسَانِ وَعِظَةٌ، فَانْكُفَّ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ.

زَالَتْ أُمَمٌ وَدُوَلٌ وَشُعُوبٌ بِذُنُوبِهَا وَظُلْمِهَا وَفَسَادِهَا،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ العنكبوت [٤٠].

وَقَالَ تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ الأنبياء [١١].

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْعِزَّ قَرِينَ طَاعَتِهِ، وَالذُّلَّ قَرِينَ مَعْصِيَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المنافقون [٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران [١٣٩]. (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في "الزهد" (٧٦٣)، وسعيد بن منصور في "سننه" (٢٦٦٠)، وابن أبي الدنيا في "العقوبات" (٢)، ومن طريق أحمد، أبو نعيم في "الحلية" (١/٢١٦)، وغيرهم. بسندٍ صحيح.

(٢) "الجواب الكافي" (صـ:١٧٩).

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْمَعْصِيَةَ تُورِثُ الذُّلَّ وَلَا بُدَّ؛ فَإِنَّ الْعِزَّ كُلَّ الْعِزِّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ فاطر [١٠]. أَيْ: فَلْيَطْلُبْهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُهَا إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

❁ وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ بَعْضِ السَّلَفِ: اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ وَلَا تُذِلَّنِي بِمَعْصِيَتِكَ.(١)

❁ وَقَالَ شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَلِهَذَا كَانَ فِي كَلَامِ الشُّيُوخِ: النَّاسُ يَطْلُبُونَ الْعِزَّ بِأَبْوَابِ الْمُلُوكِ وَلَا يَجِدُونَهُ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ.(٢)

❁ قَالَ ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد يهان الشيخ في كبره حتى ترحمه القلوب، ولا يدري أن ذلك لإهماله حق الله تعالى في شبابه! فمتى رأيت معاقبًا؛ فاعلم أنه لذنوبٍ.(٣)

---

(١) "الجواب الكافي" (صـ:٥٩).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١٥/ ٤٢٦).

(٣) "صيد الخاطر" (صـ: ٣٠).

البيت رقم٩٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي ... وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا

شرح البيت رقم ٩٣

الْمَعَاصِي تُسْقِطُ الْوَجِيهَ، صَاحِبَ الْمَكَانَةِ تُسْقِطُهُ، وَصَاحِبَ الرِّفْعَةِ الْعَالِيَةِ تُسْقِطُ رِفْعَتَهُ، وَالطَّاعَاتُ تُقَرِّبُ الْبَعِيدَ، وَتَرْفَعُ الْإِنْسَانَ الْمَنَازِلَ وَالرُّتَبَ الْعَالِيَةَ مَهْمَا كَانَ حَسَبُهُ مَهْمَا كَانَ نَسَبُهُ، لِذَلِكَ التَّفَاضُلُ بِالتَّقْوَى وَأَكْرَمُ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ هُمُ الْأَتْقِيَاءُ،

وَالدَّرَارِي: قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: وَأَفْرَادُ النُّجُومِ: الدَّرَارِيُّ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ.(١)

قَالَ الفرّاءُ: وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الكواكِبَ العِظامَ الَّتِي لَا تُعرف أَسماؤُها: الدَّرارِيَّ.(٢)

"وَيَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا"، أَيْ: يَسْقُطُ صَاحِبُ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ مِنَ الْأَمَاكِنِ الْعَالِيَةِ وَلَوْ عَانَقَتْ مَكَانَتُهُ الثُّرَيَّا بالذنوب، وَصَاحِبُ الطَّاعَاتِ بِطَاعَاتِهِ وَإِخْلَاصِهِ يَرْتَفِعُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيُعَانِقُ بِذَلِكَ النُّجُومَ وَالثُّرَيَّا. ذَاكَ يَسْقُطُ وَذَاكَ يَرْتَفِعُ. فَالطَّاعَاتُ سَبَبٌ لِلرِّفْعَةِ. عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».(٣)

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة [١١].

---

(١) "مقاييس اللغة" (٤/ ٥٠٠).

(٢) "لسان العرب" (١/ ٧٣).

(٣) رواه مسلم (٨١٧).

قَدْ جَاءَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ».(١)

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرْفَةَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ».(٢)

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْمَعْنَى أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ تَتَفَاوَتُ مَنَازِلُهُمْ بِحَسَبِ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْفَضْلِ حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا لَيَرَاهُمْ مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُمْ كَالنُّجُومِ...

قَوْلُهُ: (الدُّرِّيُّ): هُوَ النَّجْمُ الشَّدِيدُ الْإِضَاءَةِ وَقَالَ الْفَرَّاءُ هُوَ النَّجْمُ الْعَظِيمُ الْمِقْدَارِ.(٣)

فَالطَّاعَاتُ تُبَلِّغُ الْإِنْسَانَ هَذِهِ الْمَنَازِلَ.

"كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي"، الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ، الرَّفِيعَةَ جِدًّا. وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا».(٤) أَيْ: إِلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ أَوْ مَرَاتِبِ الْقُرْبِ.(٥)

---

(١) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٣٨٣١).

(٢) رواه البخاري (٦٥٥٥)، ومسلم (٣٨٣٠).

(٣) "الفتح" (٦/٣٢٧).

(٤) أخرجه أحمد (٦٧٩٩)، وأبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وغيرهم، وهو في "الصحيحة" (٢٢٤٠) للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، و"الصحيح المسند" (٧٩٢) للوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٥) "مرقاة المفاتيح" (٤/ ١٤٦٩).

فَالْقُرَّاءُ يَتَصَاعَدُونَ بِقَدْرِهَا.(١)

❁ قَالَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جَاءَ فِي الْأَثَرِ، أَنَّ عَدَدَ آيِ الْقُرْآنِ عَلَى قدر درج الجنة في الاخرة. فيقال للقاري: ارْقَ فِي الدَّرَجِ عَلَى قَدْرِ مَا كُنْتَ تَقْرَأُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ، فَمَنِ اسْتَوْفَى قِرَاءَةَ جَمِيعِ الْقُرْآنِ اسْتَوْلَى عَلَى أَقْصَى دَرَجِ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ قَرَأَ جُزْءًا مِنْهُ كَانَ رُقِيُّهُ فِي الدَّرَجِ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ فَيَكُونُ مُنْتَهَى الثَّوَابِ عِنْدَ مُنْتَهَى الْقِرَاءَةِ(٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَالطَّاعَاتُ رِفْعَةٌ لِلْإِنْسَانِ.

والحديث الذي إليه أشار إليه: (عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فَقُلْتُ: مَا فَضْلُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى مَنْ لَمْ يَقْرَأْهُ مِمَّنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ؟، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «إِنَّ عَدَدَ دَرَجِ الْجَنَّةِ عَلَى عَدَدِ آيِ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِمَّنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَفْضَلَ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ».(٣)

قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجملةُ القول: أنَّ إسناد هذا الأثر ضعيف. والله أعلم.(٤)

❁ قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن المراد بقوله: "صاحب القرآن" حافظه عن ظهر قلب على حد قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ " يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله.. "، أي: أحفظهم، فالتفاضل في درجات الجنة إنما هو على حسب الحفظ في الدنيا، وليس على حسب قراءته يومئذ واستكثاره منها كما توهم بعضهم، ففيه فضيلة ظاهرة لحافظ القرآن، لكن بشرط

---

(١) "عون المعبود" (٤/ ٣٣٨).

(٢) "معالم السنن" (١/ ٢٩٠).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٢٩٩٥٢)، من طريق مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّدُوسِيُّ، عَنْ مِعْفَسِ بْنِ عِمْرَانَ، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ...فذكره. ومحمد مجهول، وكذلك معفس.

(٤) "الصحيحة" (٥/٢٨٣)، رقم الحديث: (٢٢٤٠).

أن يكون حفظه لوجه الله تبارك وتعالى، وليس للدنيا والدرهم والدينار، وإلا فقد قال صلى الله عليه وسلم: " أكثر منافقي أمتي قراؤها ". وقد مضى تخريجه برقم (٧٥٠).(١)

وَجَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ اقْرَأْ وَاصْعَدْ، فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ».(٢)

قَالَ مَعْدَانُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيُّ: لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي اللهُ بِهِ الْجَنَّةَ؟ أَوْ قَالَ قُلْتُ: بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ، فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلْتُهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً» قَالَ مَعْدَانُ: ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ لِي: مِثْلَ مَا قَالَ لِي: ثَوْبَانُ (٣)

❁ قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهًا ... وَكِدتُّ بِأَخْمَصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا(٤)

---

(١) "الصحيحة" (٥/ ٢٨٤).

(٢) رواه أحمد (١١٣٦٠)، وابن ماجه (٣٧٨٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، وفيه عطية العوفي، ضعيف، ولم يتفرد به كما ذكر الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، "الصحيحة" (٢٢٤٠)، و"صحيح الجامع" (٨١٢١).

(٣) رواه مسلم (٤٨٨).

(٤) "حاشية البجيرمي" العلمية (١/ ١٦).

وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ: الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، يُعَدُّ فِينَا عَظِيمًا. رَوَاهُ أَحْمَدُ.(١)

قِيلَ: الْمُرَادُ بِهَذَا الرَّجُلِ بِأَنَّهُ كَمَا تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ الَّذِي كَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيَ ثُمَّ تَنَصَّرَ، كَمَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، وَهُوَ الَّذِي لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ.

وَالْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ بِغَيْرِ ذِكْرِ هَذَا، لَكِنْ عَلَى أَيِّ حَالٍ، مَنْ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ يَصِيرُ لَهُ مَكَانَةٌ عِنْدَهُمْ، يَصِيرُ رَفِيعًا عِنْدَهُمْ وَلِمَا فِيهِمَا مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، قَالَ أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ».

قَالَ مُعَاوِيَةُ بن سلَّام: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ.(٢)

وَعَنْ مَالِك؛ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، مَكَثَ عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ، ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا.(٣)

لِأَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ أَوْ يَحْفَظُ، وَيَتَدَبَّرُ مَا يَحْفَظُ وَيَفْهَمُ مَا يَحْفَظُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❁ قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ كَانَ يَتَعَلَّمُهَا بِأَحْكَامِهَا وَمَعَانِيهَا وَأَخْبَارُهَا فَكَذَلِكَ طَالَ مُكْثُهُ فِيهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ حِفْظُ الْقُرْآنِ وَيُفْتَحُ لَهُ فِي غَيْرِهِ.(٤)

فالعباداتُ تَرْفَعُ الْإِنْسَانَ، "**وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا**"، وَلَوْ كُنْتَ بَعِيدًا فَإِنَّكَ تَقْرُبُ بِالطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ.

---

(١) رواه أحمد (١٢٢١٥)، (١٢٢١٦)، وغيره. وسنده صحيح.

(٢) رواه مسلم (٨٠٤).

(٣) "موطأ مالك" (٦٩٥)، وكما تراه قال مالكٌ: بلغني.

(٤) "الاستذكار" (٢/ ٥٠٢).

البيت رقم٩٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتَنْشُـــرُ عَنْـكَ فِي الـدُّنْيَـا جَمِيلًا وَتَلْقَى الْبِرَّ فِيهَـا حَيْـثُ شِـئْتَـا

شرح البيت رقم ٩٤

أَنْ يَكُونَ ذِكْرُكَ حَسَنًا، الطَّاعَاتُ فَيْهَا نَشْرٌ لِذِكْرِكَ وَلِخَيْرِكَ، وشرفٌ لك.

"وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلًا"، هَذِهِ الطَّاعَاتُ تَنْشُرُ فَضْلَكَ وَتَنْشُرُ خَيْرَكَ بَانْتِشَارِ عِلْمِكَ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَأَيْنَمَا يَتَوَجَّهُ يَلْقَى الْخَيْرَ وَالْبِرَّ وَالتَّيْسِيرَ.

"وَتَلْقَى الْبِرَّ فِيهَا حَيْثُ شِئْتَا"، أَي مَكَانٍ ذَهَبَ وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ يَجِدُ الْبِرَّ وَيَجِدُ الْخَيْرَ.

فِي أَيِّ مَكَانٍ تَوَجَّهَ، تَوَجَّهَ إِلَى الْجِبَالِ، أَوْ إِلَى الْبَرَارِي وَالْقِفَارِ، أَوْ إِلَى الْوِدْيَانِ، أَوْ إِلَى الشِّعَابِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ، مَعَ الْعَمَلِ بِالْأَسْبَابِ. وَلَوْ كَانَ فِي كُهُوفِ الْجِبَالِ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ النَّفَرُ الَّذِينَ أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، وَجَدُوا خَيْرَ أَعْمَالِهِمْ، وَجَدُوا فَضْلَ أَعْمَالِهِمْ، وَجَدُوا صَلَاحَ أَعْمَالِهِمْ، وجدوا نَفَعَ ذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْكَهْفِ.(١) يَلْقَى بِخَيْرِهِ وَبِصَلَاحِهِ وَبِاسْتِقَامَتِهِ الْخَيْرَ وَالْبِرَّ، وَلَوِ اشْتَدَّتْ بِهِ الْأُمُورُ وَضَاقَتْ، وَلَوْ كَانَ فِي الْبِحَارِ أَوْ فِي كُهُوفِ الْجِبَالِ، فَإِنَّهُ يَجِدُ خَيْرَ ذَلِكَ. يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ كَانَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ الطَّائِعِينَ، نَفَعَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ وَهُوَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَفِي ظُلْمَةِ الْحُوتِ، وَفِي ظُلْمَةِ الْبَحْرِ، وَأَخْرَجَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ طَائِعًا ذَاكِرًا لِرَبِّهِ مُسَبِّحًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ الصافات [١٣٩-١٤٦].

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٢)، (٢٣٣٣)، (٥٩٧٤)، ومسلم (٢٧٤٣)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَ تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الأنبياء [٨٧، ٨٨].

فَإِنَّمَا تَوَجَّهَ الْإِنْسَانُ وَلَوْ كَانَ فِي ظُلُمَاتِ الْبِحَارِ، أَوْ فِي كُهُوفِ الْجِبَالِ لَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ. «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ»، «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ».(١) فِي أَيِّ مَكَانٍ. إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُلْقِيَ بِهِ إِلَى النَّارِ فَحَفِظَهُ اللَّهُ، وَوَجَدَ خَيْرَ أَعْمَالِهِ وَطَاعَتِهِ وَهُوَ فِي تِلْكَ النَّارِ الَّتِي جَمَعُوهَا وَأَوْقَدُوهَا، وَدَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ شَرَّهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ الأنبياء [٦٨-٧٠]. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الطَّاعَاتِ وَعَلَى عَظِيمِ أَثَرِهَا.

الطَّائِعُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ، مَهْمَا تَكَالَبَ عَلَيْهِ الْأَعْدَاءُ، وَمَهْمَا ضَاقَتْ بِهِ الْأُمُورُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ الطلاق [٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ الطلاق [٤]. مَخْرَجٌ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ، مِنْ كُلِّ بَلِيَّةٍ، مِنْ كُلِّ ضَائِقَةٍ، مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ، يُيَسِّرُ اللَّهُ لَه، ويُسهلُ، مَا تَعَسَّرَ عَلَيهِ.

"وَتَلْقَى الْبِرَّ فِيهَا حَيْثُ شِئْتَا"، تَجِدُ الْبِرَّ وَالْخَيْرَ فِيهَا فِي أَيِّ مَكَانٍ كُنْتَ، أَيْنَمَا تَوَجَّهْتَ. وَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ دَعَا قَوْمَهُ فَأَبَوْا، فَدَعَا عَزَّ وَجَلَّ، فَنَزَلَتِ الْأَمْطَارُ وَتَفَجَّرَتِ الْأَنْهَارُ، وَارتفع الْمَاءُ فِيْ الْأَرْضِ حَتَّى عَانَقَ الْجِبَالَ. وَنَجَّى اللَّهُ نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ فِي تِلْكَ السَّفِينَةِ، سَفِينَةَ صَنَعَهَا بِنَفْسِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ، وَكَانَت سبباً لِنَجَاتِهِ مِنْ تِلْكَ الْمِيَاهِ الْعَظِيمَةِ الْمُغْرِقَةِ الَّتِي عَلَتْ عَلَى الْجِبَالِ وَارْتَفَعَتْ عَلَى الْجِبَالِ، وَرَسَتِ السَّفِينَةُ بَعْدَ ذَلِكَ فَنَجَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَغْرَقَ غَيْرَهُ مِمَّنْ كَانُوا عَلَى شَرٍّ وَفَسَادٍ، حَتَّى ولدَهُ، صَارَ غَرِيقًا بِبُعْدِهِ وَإِعْرَاضِهِ،

---

(١) رواه أحمد (٢٦٩٦)، (٢٧٦٣)، (٢٨٠٣) والترمذي (٢٥١٦)، وغيرهم. وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، "صحيح الجامع" (٧٩٥٧)

أَغْرَقَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا. ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ هود [٤٣].

لَمْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَغْرَقَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا.

وهذا موسى عليه السلام نجاه الله وسلمه، هو ومن آمن معه، وأغرقَ اللهُ فرعون ومن معهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الشعراء [٦١-٦٨].

البيت رقم٩٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتَمْشِـــــي فِي مَنَـاكِبِـهَـا عَـزِيـزًا وَتَجْنِي الْحَمْدَ فِيمَا قَدْ غَرَسْـتَـا

شرح البيت رقم ٩٥

"وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا عَزِيزًا"، فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الملك [٢٢].

وَالْمَنَاكِبُ: هِيَ أَطْرَافُ الْأَرْضِ، وطرقُها، وَفِجَاجُهَا وَنَوَاحِيهَا، وقيلَ: جِبَالُها.

"وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا"، أَيْ: تَسِيرُ فِي أَطْرَافِهَا وَفِجَاجِهَا وَنَوَاحِيهَا.

صَاحِبُ الطَّاعَةِ هُوَ عَزِيزٌ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَيْسَ بِذَلِيلٍ، وَإِنْ حَصَلَ لَهُ ضَعْفٌ، قَدْ يَحْصُلُ ضَعْفٌ مِنْ غَيْرِ ذِلَّةٍ، الَّتِي هِيَ ذِلَّةُ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ.

صُاحِبُ الطَّاعَةِ عَزِيْزٌ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا، تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: «أَوَّهْ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ».(١)

---

(١) رواه الحاكم (٢٠٧).

❁ قَالَ أبو برزة الأسلمي: «إِنَّكُمْ يَا مَعْشَرَ العَرَبِ، كُنْتُمْ عَلَى الحَالِ الَّذِي عَلِمْتُمْ مِنَ الذِّلَّةِ وَالقِلَّةِ وَالضَّلاَلَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ أَنْقَذَكُمْ بِالإِسْلاَمِ وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى بَلَغَ بِكُمْ مَا تَرَوْنَ». (١) فَالْمُسْتَقِيمُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ بِالْخَيْرِ وَالسُّنَّةِ. أَنْتَ أَيُّهَا الْمُسْتَقِيمُ، أَنْتَ يَا صَاحِبَ السُّنَّةِ وَالطَّاعَةِ، ارْفَعْ رَأْسَكَ بِالسنة، فَأَنْتَ عَزِيزٌ وَلَسْتَ بِذَلِيلٍ، أَنْتَ مُكَرَّمٌ وَلَسْتَ مُهَانًا، أَنْتَ مُشَرَّفٌ وَلَسْتَ مُحْتَقَرًا، مُشَرَّفٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعند الصالحين.

إِنْ حَقَّرَكَ إِنْسَانٌ لِدِيْنك فَهُوَ الْمُحْتَقَرُ، وَإِنْ أَهَانَكَ إِنْسَانٌ، أَوَ أَرَادَ أَنْ يُهِينَكَ فَهُوَ الْمُهَانُ بِإِذْنِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَمَنْ أَهَانَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ، «إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ». وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا عَزِيزًا، فِي عِزَّةٍ، فِي رِفْعَةٍ، فِي مَكَانَةٍ.

"وَتَجْنِي الْحَمْدَ فِيمَا قَدْ غَرَسْتَا"، قال ابن فارس: (جَنَيَ) الْجِيمُ وَالنُّونُ وَالْيَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَخْذُ الثَّمَرَةِ مِنْ شَجَرِهَا، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ، تَقُولُ جَنَيْتُ الثَّمَرَةَ أَجْنِيهَا، وَاجْتَنَيْتُهَا. (٢) النَّاسُ يَذْكُرُونَكَ بِالْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ جَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ». (٣)

❁ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ هَذِهِ الْبُشْرَى الْمُعَجَّلَةُ لَهُ بِالْخَيْرِ وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى رِضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ فَيُحَبِّبُهُ إِلَى الْخَلْقِ كَمَا سَبَقَ فِي الْحَدِيثِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ هَذَا كُلُّهُ إِذَا حَمِدَهُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ مِنْهُ لِحَمْدِهِمْ وَإِلَّا فَالتَّعَرُّضُ مَذْمُومٌ. (٤)

---

(١) رواه البخاري (٧١١٢).

(٢) "مقاييس اللغة" (١/ ٤٨٢).

(٣) رواه "مسلم"(٢٦٤٢).

(٤) "شرح النووي على مسلم عند الحديث (٢٦٤٢).

"فِيمَا قَدْ غَرَسْتَا"، مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، وَتَجْنِي الحمد أَيْ: تنالُ الْحَمْدَ، تَجِدُ الثَّنَاءَ مِنَ النَّاسِ عَلَى فِعْلِكَ الْجَمِيلِ، وَقَوْلِكَ، عَلَى صِفَاتِكَ الْحَمِيدَةِ، وَأَفْعَالِكَ الْحَسَنَةِ، يُثْنَى عَلَيْكَ بِذَلِكَ فِيمَا قَدْ غَرَسْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَالطَّاعَاتِ وَالصَّلَاحِ وَالْعِلْمِ، وَأَثْمَرْتَ ذَلِك، بغير تتطلع. فَإِنَّ التَّطَلُّعَ مَذْمُومٌ، وَالتَّطَلُّعُ مَذْهَبٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْخَيْرِ.

لِتَكُنْ مُعْتَزًّا بِالسُّنَّةِ، عَزِيزًا بِهَا، شَامِخًا، رَافِعًا لِرَأْسِكَ، لَا تَتَضَعْضَعْ، وَلَا تَجْزَعْ، وَلَا تَقْلَقْ، بَلْ أَنْتَ فِي خَيْرٍ وَعِزَّةٍ، (فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ)، أَنْتَ عَزِيزٌ بِدِينِ اللهِ تعالى، الْعِزَّةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَهْلِ الْإِيمَانِ يُعِزُّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِاسْتِقَامَتِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ النساء [١٣٩]. ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ ﴾ يونس [٦٥].

وَإِنْ ادَّعَى أَهْلُ الْبَاطِلِ أَنَّهُم فِي عِزَّةٍ وَرِفْعَةٍ، فَدَعْوَى عَارِيَةٌ عَنِ الْحَقِيقَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعِزُّ أَحَدًا بِالنِّفَاقِ وَلَا بِالْكُفْرِ وَلَا بِالذُّنُوبِ، بَلْ هِيَ طَرِيقُ الذِّلَّةِ. وَلِذَلِكَ لَمَّا قَالَ أُولَئِكَ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ ﴾ المنافقون [٨].

يُرِيدُونَ بِذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ومن معهُ وَأَنَّهُ ذَلِيلٌ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الْأَعِزَّة، ابنُ أَبِي ومَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ، فَرَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَهْلُ النِّفَاقِ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَلَا يَفْقَهُونَ ذَلِكَ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ المنافقون [٨].

فَكُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى نِفَاقٍ وَكُفْرٍ، فَإِنَّهُمْ فِي ذِلَّةٍ، وَإِنْ أَظْهَرَ، أَوْ كَانَتْ لَهُ بَعْضُ الْقُوَّةِ المادية، وَكُلُّ مَنْ كَانَ فِي طَاعَةٍ وَبِرٍّ وَاسْتِقَامَةٍ فَهُوَ فِي عِزَّةٍ، وَإِنْ كَانَ فِي ضَعْفٍ مِنْ حَيْثُ الْقُوَّةِ وَمِنْ حَيْثُ الْمَكْنَةِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُمْ فِي عِزَّةٍ وَفِي شُمُوخٍ بِإِذْنِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا. فَلِذَلِكَ ارْفَعْ رَأْسَكَ بِالسُّنَّةِ، وَكُنْ عَزِيزًا شَامِخًا قَوِيًّا، لَا تَتَزَحْزَحْ وَلَا تَتَزَعْزَعْ وَلَا يَدْخُلَكَ الشَّكُّ مِنْ هَذَا الدِّينِ وَالِاسْتِقَامَةِ.

البيت رقم٩٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَنْـتَ الآنَ لَمْ تُـعْـرَفْ بِـعَـيْـبٍ وَلاَ دَنَّسْـــتَ ثَـوْبَـكَ مُـذْ نَشَـــأْتَـا

شرح البيت رقم ٩٦

أَنْتَ نَشَأتَ عَلَى الْخَيْرِ مُنْذُ الصِّغَرِ؟ مُنْذُ الطُّفُولَةِ نَشَأت عَلَى الْعِبَادَةِ، «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ».(١)

نَشَأَ عَلَى الْعِبَادَةِ مُنْذُ الصِّغَرِ، وَهَذا مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَنْشَأَ الْإِنْسَانُ عَلَى الْخَيْرِ مُنْذُ صِغَرِهِ.

❁ قَالَ ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَكَانَ السَّلَفُ إِذَا نَشَأَ لِأَحَدِهِمْ وَلَدٌ شَغَلُوهُ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ وَسَمِعَ الْحَدِيثَ فَيَثْبُتُ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ.(٢)

❁ قَالَ أَيوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ مِنْ سَعَادَةِ الْحَدَثِ وَالْأَعْجَمِيِّ أَنْ يُوَفِّقَهُمَا اللَّهُ لِعَالِمٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ».(٣) ولا يثبت عنه، ومعناهُ صحيح.

❁ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَوْذَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الشَّابِّ إِذَا تَنَسَّكَ أَنْ يُوَاخِيَ صَاحِبَ سُنَّةٍ يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا». وَعَنْهُ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى: «مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الشَّابِّ وَالْأَعْجَمِيِّ إِذَا نَسَكَا أَنْ يُوَفَّقَا لِصَاحِبِ سُنَّةٍ يَحْمِلُهُمَا عَلَيْهَا، لِأَنَّ الْأَعْجَمِيَّ يَأْخُذُ فِيهِ مَا سَبَقَ إِلَيْهِ».(٤)

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣٠).

(٢) "صيد الخاطر" (صـ:٤٩١).

(٣) أخرجه اللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة"(١/٦٦)، ومن طريقه ابن الجوزي في "تلبيس إبليس" (صـ:١١)، وفيه الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الطَّبَرِيُّ، لم أقف له على ترجمة.

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ وَهْبٍ الدِّينَوَرِيُّ، متروك، كان يضع الحديث. قاله الدارقطني "الميزان" (٢/٤٩٥).

(٤) صحيح، وله ثلاث طرق، **الأولى**: أخرجها اللالكائي في "اعتقاد أهل السنة"(٣٠)، (١/٦٦)، وابن الجوزي في "تلبيس إبليس" (صـ:١١)، وفيه أحمد بن محمد بن حسنون، لم أجد له ترجمة.

فمن السعادة أن يتعلم الطالبُ عند صاحب سنة، فَيَتَرَبَّى عَلَى الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، هَذَا خَيْرٌ عَظِيمٌ.

❁ قَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الشَّابِّ أَنْ يُرَافِقَ صَاحِبَ سُنَّةٍ يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا. (١)

❁ عَمْرَو بْنَ قَيْسٍ الْمُلَائِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِذَا رَأَيْتَ الشَّابَّ أَوَّلَ مَا يَنْشَأُ مَعَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَارْجُهُ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ مَعَ أَهْلِ الْبِدَعِ، فَايْأَسْ مِنْهُ، فَإِنَّ الشَّابَّ عَلَى أَوَّلِ نَشْئِهِ».

❁ قَالَ: وَسَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ قَيْسٍ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّابَّ لَيَنْشَأُ، فَإِنْ آثَرَ أَنْ يُجَالِسَ أَهْلَ الْعِلْمِ كَادَ أَنْ يَسْلَمَ، وَإِنْ مَالَ إِلَى غَيْرِهِمْ كَادَ أَنْ يَعْطَبَ». قَالَ الشَّيْخُ: فَرَحِمَ اللَّهُ أَئِمَّتَنَا السَّابِقِينَ، وَشُيُوخَنَا الْغَابِرِينَ ، فَلَقَدْ كَانُوا لَنَا نَاصِحِينَ ، وَجَمَعَنَا وَإِيَّاهُمْ مَعَ النَّبِيِّينَ ، وَالصِّدِّيقِينَ ، وَالشُّهَدَاءِ ، وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ، وَلَا جَعَلَنَا مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ ، وَلَا مِمَّنْ خَلَفَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُمَّتِهِ بِمُخَالَفَتِهِ ، وَجَاهَدَهُ لِمُحَارَبَتِهِ ، وَالطَّعْنِ عَلَى سُنَّتِهِ ، وَشَتْمِ صَحَابَتِهِ ، وَدَعَا النَّاسَ بِالْغِشِّ لَهُمْ إِلَى الضَّلَالِ ، وَسُوءِ الْمَقَالِ. (٢)

وأحمد بن محمد بن مسروق، أبو العباس الطوسي، قال الدارقطني: ليس بالقوي، يأتي بالمعضلات. "الميزان"(١/ ١٥٠).

الثانية: أخرجها ابن بطة في "الإبانة"(٤٣)، بسندٍ حسن

الثالثة: أخرجها أيضاً ابن بطة في "الإبانة"(٥١٧)، وفيه أيوب بن سويد الرملي، ضعيف.

(١) أخرجه الزهري في "أحاديث أبي الفضل" (٤٠٠)، (٤١٨)، بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٤٤)، (٥١٨)، حَدَّثَنَا الْقَافْلَائِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو هَمَّامٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ قَيْسٍ الْمُلَائِيَّ، يَقُولُ...فذكره، وسنده حسن.

وأبو همام: هو الوليد بن شجاع بن الوليد بن قيس السكوني.

❁ قَالَ ابنُ مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَرْبَهَارِيُّ مِنْ أَصْحَابِنَا الْمُتَقَدِّمِينَ- رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي كِتَابِهِ "شَرْحِ السُّنَّةِ": وَإِذَا رَأَيْت الرَّجُلَ رَدِيءَ الطَّرِيقِ وَالْمَذْهَبِ فَاسِقًا فَاجِرًا صَاحِبَ مَعَاصٍ ظَالِمًا وَهُوَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فَاصْحَبْهُ وَاجْلِسْ مَعَهُ فَإِنَّك لَنْ تَضُرَّك مَعْصِيَتُهُ وَإِذَا رَأَيْت عَابِدًا مُجْتَهِدًا مُتَقَشِّفًا مُتَحَرِّفًا بِالْعِبَادَةِ صَاحِبَ هَوًى فَلَا تَجْلِسْ مَعَهُ وَلَا تَسْمَعْ كَلَامَهُ وَلَا تَمْشِ مَعَهُ فِي طَرِيقٍ، فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ تَسْتَحْلِيَ طَرِيقَتَهُ فَتَهْلِكَ مَعَهُ.

❁ وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ الشِّيرَازِيُّ مِنْ أَصْحَابِنَا- رَحِمَهُ ٱللَّهُ - فِي كِتَابِ "التَّبْصِرَةِ" لَهُ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - وَإِذَا رَأَيْت الشَّابَّ أَوَّلَ مَا يَنْشَأُ مَعَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَأَرْجِهْ وَإِذَا رَأَيْته مَعَ أَصْحَابِ الْبِدَعِ فَايئَسْ مِنْهُ فَإِنَّ الشَّابَّ عَلَى أَوَّلِ نُشُوئِهِ. انْتَهَى كَلَامُهُ.

❁ وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِهِ "السِّرِّ الْمَكْتُومِ" لَمَّا ذَكَرَ الْمُعْتَزِلَةَ وَغَيْرَهُمْ وَالْفَلَاسِفَةَ قَالَ: اللَّهَ اللَّهَ مِنْ مُصَاحَبَةِ هَؤُلَاءِ، وَيَجِبُ مَنْعُ الصِّبْيَانِ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ لِئَلَّا يَثْبُتَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَاشْغَلُوهُمْ بِأَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ - لِتُعْجَنَ بِهَا طَبَائِعُهُمْ انْتَهَى كَلَامُهُ.

❁ وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي رِسَالَتِهِ إلَى مُسَدَّدٍ: وَلَا تُشَاوِرْ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فِي دِينِك، وَلَا تُرَافِقْهُ فِي سَفَرِك.

❁ وَكَانَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - يَنْهَى عَنْ مُخَالَطَةِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا وَعَنْ النَّظَرِ إلَيْهِمْ وَالِاجْتِمَاعِ بِهِمْ، وَيَأْمُرُ بِالِاشْتِغَالِ بِالْعِلْمِ وَمُخَالَطَةِ الصَّالِحِينَ.ا.هـ.[1]

---

(١) "الآداب الشرعية" (٣/ ٥٧٧ ـ ٥٧٨).

❁ قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الرَّجُلَ يُصَاحِبُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِثْلَهُ، وَشِكْلَهُ، فَصَاحِبُوا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ أَنْ تَكُونُوا مَعَهُمْ، أَوْ مِثْلَهُمْ».(١)

❁ وَقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ومن لطفه بعبده أن يقدر له أن يتربى في ولاية أهل الصلاح، والعلم، والإيمان، وبين أهل الخير؛ ليكتسب من أدبهم،** وتأديبهم؛ ولينشأ على صلاحهم وإصلاحهم كما أمتن الله على مريم في قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ﴾ آل عمران [٣٧]. إلى آخر قصتها.

ومن ذلك إذا نشأ بين أبوين صالحين وأقارب أتقياء، أو في بلد صلاح، أو وفقه الله لمقارنة أهل الخير وصحبتهم، أو لتربية العلماء الربانيين، فإن هذا من أعظم لطفه بعبده فإن صلاح العبد موقوف على أسباب كثيرة منها بل من أكثرها وأعظمها نفعاً هذه الحالة.

ومن ذلك إذا نشأ العبد في بلد أهله على مذهب أهل السنة والجماعة فإن هذا لطف له وكذلك إذا قدر الله أن يكون مشايخه الذين يستفيد منهم الأحياء منهم والأموات أهل سنة وتقي فإن هذا من اللطف الرباني. (٢)

---

(١) أخرجه ابن بطة في "الإبانة" (٥١١)، وفيه يوسف بن عطية، متروك الحديث. قال بن حبان: يقلب الأخبار، ويلزق المتون الموضوعة بالأسانيد الصحيحة، لا يجوز الاحتجاج به. "تهذيب التهذيب" (١١/ ٤١٩).

(٢) "تفسير أسماء الله الحسنى" للسعدي (صـ: ٢٢٨ ـ ٢٢٩).

لِذَلِكَ أَرْشَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى العناية بالأولاد، وتربيتهم على الدين والصلاح. بِقَوْلِهِ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ». (١)

وبقوله: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ». (٢)

عَلَى حَسَبِ تَرْبِيَةِ الْوَالِدِ، يَنْشَأُ الْوَلَدُ. إِمَّا يَنْشَأُ عَلَى الْخَيْرِ، عَلَى الْعِلْمِ، عَلَى الْعِبَادَةِ، عَلَى الْقُرْآنِ، عَلَى التَّوَاضُعِ، عَلَى الِاسْتِقَامَةِ، عَلَى الِاسْتِكَانَةِ، عَلَى مَحَبَّةِ الْخَيْرِ، وَإِما أَنْ يَشَأَ عَلَى الْمَعَاصِي، عَلَى الْمُنْكَرَاتِ، عَلَى الْكِبْرِ، عَلَى التَّعَالِي، عَلَى الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَمِنْ سَعَادَةِ الْوَلَدِ أَنْ يَتَرَبَّى بَيْنَ أَبَوَيْنِ عَلَى خَيْرٍ وَاسْتِقَامَةٍ، وَيَدْفَعُ بِهِ إِلَى مجالسِ الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَالِاسْتِقَامَةِ.

وَأَنْتَ الآنَ لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ وَلاَ دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا

أَنْتَ الْآنَ فِي مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ، لم يُعرَفْ عنكَ العيوب، ولم يُعرَفْ عنكَ المعاصي ولا المُنكَرات. وهذا طريقُ العِزَّةِ، طريقُ الرِّفْعَةِ.

فاحذَرْ بعدَ ذلكَ أنْ تَقَعَ في المعايبِ والمعاصي.

"وَلاَ دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا"، أيْ: لم تُدنِّسْ بدنَكَ، ولم تُدنِّسْ قلبَكَ، ولا بدنَكَ بالمعاصي والمُنكَرات والشرك، فلا تدنس نفسك بما حرم الله عليك.

---

(١) أخرجه أحمد (٦٧٥٦)، وأبو داود (٤٩٥)، وغيرهم، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بن العاص، وجاء عن سَبْرَة بن معبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "الإرواء" (٢٤٧). وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في "صحيح الجامع" (٤٠٢٦).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (١٣٥٨)، (١٣٨٥)، (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البيت رقم٩٧

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلاَ سَـــابَـقْـتَ فِي مَـيْـدَانِ زُورٍ وَلاَ أَوْضَـــعْـتَ فِـيـهِ وَلاَ خَـبَـبْـتَـا

شرح البيت رقم ٩٧

"وَلاَ سَابَقْتَ فِي مَيْدَانِ زُورٍ"، ميدانُ الزورِ: الكَذِبُ، الباطِلُ، اللهوُ.

الزورُ: قد يُرادُ بِهِ الكَذِبُ، شهادةُ الزورِ، وقد يُرادُ بِهِ ما هوَ أعمُّ، الذي هوَ الباطِلُ.

وَالمرادُ بالزورِ هنا الباطِلُ، وأماكنُ اللهوِ، والشَّرِّ، والفَسادِ على سبيلِ العمومِ.

من بابِ قولِهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ الفرقان [٧٢].

❁ قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره": أَيْ: لَا يَحْضُرُونَ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ وَلَا يُشَاهِدُونَهُ. وَالزُّورُ كُلُّ بَاطِلٍ زُوِّرَ وَزُخْرِفَ، وَأَعْظَمُهُ الشِّرْكُ وَتَعْظِيمُ الْأَنْدَادِ.ا. هـ.

❁ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واللغو في اللغة: كل ما يلغى ويطرح، والمعنى: لا يحضرون مجالس الباطل، وإذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه أو يميلوا إليه. ويدخل في هذا: أعياد المشركين، كما فسرها به السلف، والغناء، وأنواع الباطل كلها.(١)

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولم يقل: بالزور، لأن يشهدون بمعنى: يحضرون. فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلم به، وفعله؟ والغناء من أعظم الزور.

والزور: يقال على الكلام الباطل، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها... فالزور: ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولاً وفعلاً.(٢)

---

(١) "إغاثة اللهفان" (١/ ٢٤١).

(٢) "إغاثة اللهفان"(١/ ٢٤٢).

"وَلاَ سَابَقْتَ فِي مَيْدَانِ زُورٍ"، لم تَخُضْ في ميادينِ الباطلِ والشَّرِّ والفَسادِ، وتنافَسْتَ مع الشبابِ على المعاصي والمُنكراتِ. لم تَكُنْ أنتَ من أهلِ هذا الصِّنفِ.

"وَلاَ أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلاَ خَبَبْتَا"، أيْ لم تُسرِع إلى ميادين الشر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ ﴾ التوبة [٤٧]. أيْ: لأسرعوا.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ فَإِنَّ البِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاعِ».(١)

أيْ: ليسَ بالإسراعِ.

❁ قَالَ الحافظ ابنُ حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: أَيِ: السَّيْرِ السَّرِيعِ، وَيُقَالُ: هُوَ سَيْرٌ مِثْلُ الْخَبَبِ فَبَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّ تَكَلُّفَ الْإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ أَيْ مِمَّا يُتَقَرَّبُ بِهِ.(٢)

❁ وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسيره": الْمَعْنَى: لَأَسْرَعُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ بِالْإِفْسَادِ.

وَالْإِيضَاعُ، سُرْعَةُ السَّيْرِ.

❁ وَقَالَ الرَّاجِزُ:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ

قال ابنُ منظور: والوَضْعُ: أَهْوَنُ سَيْرِ الدوابِّ والإبل، وَقِيلَ: هُوَ ضَرْبٌ مِنَ سَيْرِ الإبل دُونَ الشَّدِّ، وَقِيلَ: هُوَ فَوْقَ الخَبَب.(٣)

"ولا خَبَبْتَا"، الخبب: أيضًا السُّرعةُ في المَشي. قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: الإيضاعُ سَيْرٌ مِثْلُ الخَبَبِ.(٤)

وَقالَ بعضُهم: الوَضْعُ فوقَ الخَبَبِ.

---

(١) رواه البخاري (١٦٧١).

(٢) "فتح الباري" (٣/ ٥٢٢).

(٣) "لسان العرب" (٨/ ٣٩٨)، والبيت التي ذكرها القرطبي نسبت في "اللسان" لِدُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ.

(٤) كما في "لسان العرب" (٨/ ٣٩٨).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمَشْيِ خَلْفَ الْجَنَازَةِ؟ قَالَ: «مَا دُونَ الْخَبَبِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا عَجَّلْتُمُوهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَلَا يُبْعَدُ إِلَّا أَهْلُ النَّارِ، الْجَنَازَةُ مَتْبُوعَةٌ وَلَا تَتْبَعُ، وَلَيْسَ مِنْهَا مَنْ تَقَدَّمَهَا».(١)

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا طَافَ بِالْبَيْتِ الطَّوَافَ الْأَوَّلَ، خَبَّ ثَلَاثًا وَمَشَى أَرْبَعًا».(٢)

❁ قَالَ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: هُوَ الرَّمَلُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَالْمِيمِ فَالرَّمَلُ وَالْخَبَبُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ وَهُوَ إِسْرَاعُ المشى مع تقارب الخطا وَلَا يَثِبُ وَثْبًا. (٣)قال ابن الأثير: الْخَبَبُ: ضَرْبٌ مِنَ العَدْو.(٤)

فالمعنى: لم تَكُنْ داخِلًا في المعاصي والبَاطِلِ واللهوِ، وَلَا مُسرِعًا فِي ذلكَ.

لا مُسرِعًا في المعاصي والمُنكراتِ مهرولاً، ولا ماشِيًا فيها، وإنَّما بَعيدٌ عن كلِ ذلكَ،

فينبغي للإنسانِ أنْ يبتَعِدَ عن المعاصي والمُنكراتِ، ولا يَدخل في ميادينِها، لا تَكُنْ داخِلًا في الشَّرِّ، لا بالسُّرعةِ ولا بالبُطءِ، بل اجتَنِبِ المعاصي والمُنكراتِ والمرادُ من هذا أنَّه لا ينبغي للشخصِ أنْ يَدخُلَ في المعاصي والمُنكراتِ، ولا يُسابِقَ على المعاصي والمُنكراتِ، وإنما يُسابِقُ على الخيرِ ويُنافِسُ عليه قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ ﴾ المائدة [٤٨].

وقال: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الحديد [٢١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ المطففين [٢٦].

---

(١) ضعيف، رواه أحمد (٣٧٣٤)، وأبو داود (٣١٨٤)، والترمذي (١٠١١)، فيه يَحْيَى بن عَبد اللَّهِ الجابر، ويُقال: المجبر. ضعيف الحديث. "تهذيب الكمال"(٣١/ ٤٠٤)، وفيه أبو ماجد، رجل من بني حنيفة، مجهول.

(٢) رواه البخاري (١٦٤٤)، ومسلم (١٢٦١).

(٣) شرح مسلم عند هذا الحديث.

(٤) "النهاية" (٢/ ٣)

البيت رقم٩٨

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَإِن لَمْ تَنْأَ عَنْهُ نَشِبْتَ فِيهِ وَمَنْ لَكَ بِالْخَلاَصِ إِذَا نَشِبْتَا

شرح البيت رقم ٩٨

"فَإِن لَمْ تَنْأَ عَنْهُ"، النَّأيُ: البُعْدُ، أيْ: إنْ لم تبتَعِدْ عن الزورِ والبَاطِلِ واللهوِ والشَّرِّ، "نَشِبْتَ فِيهِ"، أيْ: دَخَلْتَ ووقَعْتَ فيهِ.

❁ قالَ ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ونَشِبَ بعضُهم فِي بَعْضٍ: أَيْ دَخَل وتَعَلَّق. يُقَالُ: نَشِبَ فِي الشَّيْءِ، إِذَا وَقَع فِيمَا لَا مَخْلَصَ لَهُ مِنْهُ. وَلَمْ يَنْشَبْ أَنْ فَعَل كَذَا: أَيْ لَمْ يَلْبَث. وحقيقتُه: لَمْ يتعلَّق بشيءٍ غيرِه، وَلَا اشْتَغَل بِسِوَاهُ.(١)

فالمعنى بأنَّكَ إذا لم تبتَعِدْ عن الباطلِ بجميعِ أنواعِهِ، نَشِبْتَ فيهِ، أيْ دَخَلْتَ فيهِ، دَخَلْتَ في ميدانِ الزورِ، في ميدانِ الباطلِ، في ميدانِ الذنوبِ، في ميدانِ الفسادِ.

"وَمَنْ لَكَ بِالْخَلاَصِ إِذَا نَشِبْتَا"، إذا دَخَلْتَ في ميدانِ الشَّرِّ وفي مكانِ الشَّرِّ، مَنْ لكَ بالخَلاصِ؟ كيفَ لكَ بالخَلاصِ؟ كيفَ سيُمكِّنُك الخروج من الذنوب وآثارها؟

❁ قالَ مَحْمُودٌ الْوَرَّاقُ:

تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرَكَ الْجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَابِدِ
وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ(٢)

فالذنوبُ تُفسِدُ الأجسامَ، وتُميتُ القلوبَ، وتَجعَلُ عليهِ الظُّلمةَ، ويَعلو عليهِ الرَّانُ

---

(١) "النهاية" (٥/٥٢).

(٢) ابن أبي الدنيا في "العقوبات" (١١٠)، ومن طريقه الدينوري في "المجالسة" (٢٣٥٦)، وأيضاً الخطيب في "الزهد والرقائق" (٣١)، قَالَ: أَنْشَدَنِي مَحْمُودٌ الْوَرَّاقُ، فذكرها. وعزيت لأبي نواس كما في "تاريخ دمشق" (١٣/ ٤٦٠).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين [١٤].

❁ قَالَ ابنُ جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: غَلَبَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَغَمَرَهَا، وَأَحَاطَتْ بِهَا الذُّنُوبُ فَغَطَّتْهَا؛ يُقَالُ مِنْهُ: رَانَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَقْلِهِ، فَهِيَ تَرِينُ عَلَيْهِ رَيْنًا، وَذَلِكَ إِذَا سَكِرَ، فَغَلَبَتْ عَلَى عَقْلِهِ. (١)

❁ قالَ الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَدْرُونَ مَا الْإِرَانَةُ؟ الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ، وَالذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ، حَتَّى يَمُوتَ الْقَلْبُ»، وفي لفظ: (هو الذنبُ على الذنبِ، حتى يسود القلب). (٢)

❁ وَقَالَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَبْيَضُ نَقِيٌّ مَجْلِيٌّ مُحَلًّى مِثْلَ الْمِرْآةِ، فَلَا يَأْتِيهُ الشَّيْطَانُ مِنْ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي بِشَيْءٍ مِنَ الْمَعَاصِي إِلَّا نَظَرَ إِلَيْهِ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ فِي الْمِرْآةِ، فَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ مُحِيَتِ النُّكْتَةُ مِنْ قَلْبِهِ وَانْجَلَى، وَإِنْ لَمْ يَتُبْ وَعَاوَدَ أَيْضًا، وَتَتَابَعَتِ الذُّنُوبُ، ذَنْبٌ بَعْدَ ذَنْبٍ، نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ نُكْتَةٌ حَتَّى يَسْوَدَّ الْقَلْبُ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

---

(١) "تفسير ابن جرير الطبري" عند آية المطففين [١٤].

(٢) صحيح، أخرجه ابن أبي الدنيا في "التوبة"(١٩٦)، حَدَّثَنِي سُرَيْجُ بْنُ يُونُسَ، ثنا عَبَّادُ بْنُ الْعَوَّامِ، عَنْ عَاصِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤] ...فذكره، وعاصم الذي يظهر هو ابن كليب. وأخرجه باللفظ الثاني، أبو عبيد القاسم بن سلام في "غريب الحديث" (٤/ ١٧٠)، من طريق عباد بن العوام، عن عاصم، عن الحسن. وهذا سند حسن إن شاء الله.

وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره من ثلاث طرق:

الأولى: وفيه خليد بن دعلج السدوسي، ضعيف. ولفظه: (الذنب على الذنب حتى يموت قلبه).

والثانية: حدثني يعقوب، قال: ثنا ابن علية، عن أبي رجاء، عن الحسن، وأبو رجاء الظاهر بأنه محمد بن سيف الأزدي أبو رجاء البصري، وسنده صحيح. ولفظه: (الذنب على الذنب حتى يَعمى القلب فيموت).

الثالثة: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن الحسن، به. ومهران هو ابن أبي عمر، وابن حميد، هو محمد بن حميد بن حيان التميمي الرازي، وفيه ضعف. ولفظه: (هو الذنب حتى يموت القلب).

المطففين [١٤]. قَالَ: الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ، حَتَّى يَسْوَدَّ الْقَلْبُ فِي إِبْطَاءٍ، مَا نَجَعَ فِي هَذَا الْقَلْبِ الْمَوَاعِظُ، فَإِنْ تَابَ إِلَى اللهِ قَبِلَهُ اللهُ وَانْجَلَى عَنْ قَلْبِهِ كَجَلْيِ الْمِرْآةِ».(١)

وقالَ المفسرون: لَمَّا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ أَحَاطَتْ بِقُلُوبِهِمْ.(٢)

❁ قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العبد يعمل بالذنوب فتحيط بالقلب، ثم ترتفع، حتى تغشى القلب.(٣)

❁ قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الذُّنُوبَ إِذَا تَكَاثَرَتْ طُبِعَ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهَا، فَكَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ...وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ الْقَلْبَ يَصْدَأُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا زَادَتْ غَلَبَ الصَّدَأُ حَتَّى يَصِيرَ رَانًا، ثُمَّ يَغْلِبُ حَتَّى يَصِيرَ طَبْعًا وَقُفْلًا وَخَتْمًا، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ فِي غِشَاوَةٍ وَغِلَافٍ، فَإِذَا حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ بَعْدَ الْهُدَى وَالْبَصِيرَةِ انْعَكَسَ فَصَارَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، فَحِينَئِذٍ يَتَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ وَيَسُوقُهُ حَيْثُ أَرَادَ.(٤)

❁ قَالَ قَتَادَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ، حَتَّى يَرِينَ عَلَى الْقَلْبِ فَيَسْوَدَّ».(٥)

---

(١) أخرجه البيهقي في "الشعب" (٦٨١٢)، وفيه إبراهيم بن نصر المنصوري مجهول حال، وإبراهيم بن بشار بن محمد صاحب إبراهيم بن أدهم، مجهول حال أيضاً.

(٢) "زاد المسير"، و"تفسير القرطبي" عند الآية المذكورة، وعزاه ابن القيم للفراء، كما في "شفاء العليل" (صـ: ٩٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في "تفسير الآية السابقة" (٢٤/٢٨٧)، حدثني يحيى بن طلحة اليربوعي، قال: ثنا فضيل بن عياض، عن منصور، عن مجاهد، به. ويحيى اليربوعي، لين الحديث، وقال النسائي: ليس بشيء. "تهذيب التهذيب" (١١/٢٣٤).

(٤) "الجواب الكافي" (صـ: ٦٠).

(٥) "تفسير عبد الرزاق" (٣/ ٤٠٤)، من طريق معمر عن قتادة به، وأخرجه ابن جرير في "تفسيره" حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة، به. ورواية معمر، عن قتادة فيها ضعف.

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعمال السوء، أي، والله ذنب على ذنب، وذنب على ذنب حتى مات قلبه واسودّ». (١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين [١٤] ». (٢)

❁ وَقَالَ أَبُو مُعَاذٍ النَّحْوِيُّ: الرَّيْنُ: أَنْ يَسْوَدَّ الْقَلْبُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالطَّبْعُ: أَنْ يُطْبَعَ عَلَى الْقَلْبِ، وَهَذَا أَشَدُّ مِنَ الرَّيْنِ، وَالْإِقْفَالُ أَشَدُّ مِنَ الطَّبْعِ، وَهُوَ أَنْ يُقْفَلَ عَلَى القلْبِ. (٣)

أيْ: يَعلو الرَّانُ على القلبِ، فيُحيطُ بالقلبِ، ويزداد شيئاً فشيئاً حَتَى يَصيرَ القلبُ كلُّهُ مُسوَدًّا، يَسودُّ القلبُ كلُّهُ، بسببِ تلكَ المعاصي والمُنكراتِ، هذا هوَ الرَّانُ، الذنوبُ التي تَعلو على القلبِ، الذنوبُ التي تُسوِّدُ القلبَ. تُعرَضُ الفِتَنُ على القلوبِ كعَرْضِ الحصيرِ، عودًا عودًا. فإذا القلبُ أُشرِبَ تلكَ الفتنةَ، أو تلكَ الذنوبَ، يُنْكتُ فيهِ نُكتةً سوداءَ، حتى تَتَغَلَّبَ على قلبِهِ، فلا يَعرِفُ معروفًا ولا يُنكِرُ مُنكرًا، كالكوزِ مُجَخِّيًا، كالكوزِ المائلِ أو الكوزِ المقلوبِ. وإذا رَدَّها القلبُ، لم يَقبَلْها، وَابتَعَدَ عنها، وإذا حَصَلَ شيءٌ تابَ واستغفرَ، صُقِلَ قلبُهُ، صَقَلَ قلبَهُ. نُكِتَ في قلبِهِ نُكتةٌ بيضاءُ، وكلما زادَ من الاستغفارِ والتوبةِ وابتَعَدَ، يَبيَضُّ القلبُ. وكلما وقَعَ في المعاصي، ازدادَ سوادُ القلبُ.

---

(١) أخرجه ابن جرير في "تفسيره"(٢٤/٢٨٨)، بسند صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٥٢)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والترمذي (٣٣٣٤)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في "صحيح الجامع" (١٦٧٠).

(٣) ذكره الأزهري "تهذيب اللغة" (١٥/ ١٦٢)، وذكره ابن القيم في "شفاء العليل"(صـ:٩٤).

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ، قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: أَنْتَ لِلَّهِ أَبُوكَ قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»، قَالَ حُذَيْفَةُ: وَحَدَّثْتُهُ، «أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ»، قَالَ عُمَرُ: أَكَسْرًا لَا أَبَا لَكَ؟ فَلَوْ أَنَّهُ فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ، قُلْتُ: «لَا بَلْ يُكْسَرُ»، وَحَدَّثْتُهُ «أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ» قَالَ أَبُو خَالِدٍ: فَقُلْتُ لِسَعْدٍ: يَا أَبَا مَالِكٍ، مَا أَسْوَدُ مُرْبَادٌّ؟ قَالَ: «شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ»، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا الْكُوزُ مُجَخِّيًا؟ قَالَ: «مَنْكُوسًا».[1]

(١) رواه مسلم (١٤٤)

البيت رقم٩٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تُـدَنِّـسُ مَـا تَـطَـهَّـرَ مِـنْـكَ حَـتَّـى كَـأَنَّـكَ قَـبْـلَ ذَلِـكَ مَـا طَـهَـرْتَـا

شرح البيت رقم ٩٩

"**تُدَنِّسُ مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى**"، بالذنوبِ والمعاصي تُدَنَّسُ القلوب، كانَ القلبُ طاهرًا فتَدَنَّسَ بالمعاصي والمُنكراتِ، طَغى الشَّرُّ، طالَ فسادُكَ، تُغطي الذنوبُ على القلبِ، "**كَأَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا طَهَرْتَا**"، بعد ما دنست نفسك، صِرتَ كَأنك لَمْ تَكُنْ طاهرًا ولا مُتَطَهِّرًا من المعاصي والمُنكراتِ.

فالإنسانُ ينبغي لهُ أنْ يُطَهِّرَ قلبَهُ ويَحرِصَ على بياضِهِ، ويَحذَرَ من فسادِهِ وسوادِهِ، يَحرِصَ على سلامَتِهِ، ويَحذَرَ من مرضِهِ، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء [٨٨، ٨٩]. سليمٍ من الشِّركِ، سليمٍ من البِدَعِ والخُرافاتِ، سليمٍ من المعاصي والمُنكراتِ. هذا الذي يَنتَفِعُ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ويَرتَفِعُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام [١٢٢]. كانَ ميتَ القلبِ بالمعاصي والمُنكراتِ، فأحياهُ اللهُ بالعلمِ، بالطاعةِ، بالعبادةِ؛ لأنَّ المعاصي والمُنكراتِ والجَهلَ تُميتُ القلبَ، وَالطاعاتُ، والعلمُ تُنَوِّرُ القلبَ وتُحيي القلبَ.

"**تُدَنِّسُ مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى**"، إذا كانَ عندكَ ثوبٌ أبيضُ، إذا أَهمَلْتَ هذا الثوبَ يَتَّسِخُ، بلْ رُبَّما يَصيرُ كالأَسْوَدِ من شِدَّةِ ما يَعلوهُ من الغُبارِ والأوساخِ، والزَيْت، وما شابَهَ ذلكَ من هذهِ الأمورِ، حتى يَصيرَ رُبَّما مُسوَدًّا. وكانَ قبلَ ذلكَ أبيضَ ناصِعًا، لكنْ كلما حَصَلَ عليهِ شيءٌ يُغَيِّرُ فيهِ، حتى النُّقطةِ الصغيرةِ السَّوداءِ تَظهَرُ عليهِ. فإذا لم تَعتنِ بهِ ولمْ تَقمْ بتنظيفِهِ، اسْوَدَ كامِلًا ذلكَ الثَّوبُ، وإذا حَرَصْتَ عليهِ، يَصيرُ نَظيفًا.

فيجبُ عليكَ أنْ تُطَهِّرَ نفسَكَ من المعاصي، وأنْ تُطَهِّرَ قلبَكَ كما تَحرِصُ على نَظافةِ ثَوبِكَ الأبيضِ، احرِصْ عَلى نَظافةَ قلبِكَ، كما تَحرِصُ على صَفاءِ ثَوبِكَ، احرِصْ على صَفاءِ قلبِكَ أشدَّ وأعظمَ، في الليلِ والنَّهارِ. الثَّوبُ رُبَّما، لا سيَّما الأبيضُ، لا تَلبَسُهُ إلا اليومَ أو اليومينِ أو الثلاثَ بالكثيرِ، وتَحتاجُ أنْ تغسِلَهُ بعدَ ذلكَ. قلبُكَ بحاجةٍ أنْ تَتَعاهَدَهُ في الليلِ والنَّهارِ، وأنْ تُداوِمَ على ذِكرِ اللهِ حتى يَصفو القلبُ، وحتى يكونَ طَيِّبًا نَظيفًا سَليمًا نَقيًّا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا».(١)

هلْ يَبقى من آثارِ الوَسَخِ على الجَسَدِ؟ لا يَبقى مِنْ وَسَخِهِ شيءٌ.

الخَطايا التي تكونُ على القلبِ، والسَّوادُ الذي يكونُ على القلبِ، بالصَّلاةِ في بيوتِ اللهِ، بذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، تَذهبُ ويَصفو القلبُ، كما يَصفو ذلكَ الجَسَدُ بالاغتِسالِ في اليومِ خمسَ مرَّاتٍ. فَأنتَ بحاجةٍ أنْ تَغسِلَ قلبَكَ، أنْ تُصَفِّيَهُ، أنْ تُهَذِّبَهُ من الخَطايا، من الذنوبِ والشبهات.

وشُبِّهَ أثَرُ الذَّنبِ عَلَى القَلبِ، بأثر الوسخ على الثَّوبُ، كانَ صافيًا نَقيًّا مُبَيَّضًا، ثمَّ أنتَ تُدَنِّسُهُ بالمعاصي، فيَحرِصُ الإنسانُ على طَهارتِهِ الحِسِّيَّةِ والمَعنويَّةِ، الطَّهارةِ الباطنةِ والظَّاهرةِ، والطَّهارةِ الباطنةِ أعظمُ، وأهمُّ، وأنفَعُ.

---

(١) رواه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

البيت رقم١٠٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَصِرْتَ أَسِـــيرَ ذَنْـبِـكَ فِي وَثَـاقٍ وَكَيْفَ لَـكَ الْفَكَـاكُ وَقَـدْ أُسِرْتَـا

شرح البيت رقم ١٠٠

"وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنْبِكَ فِي وَثَاقٍ"، يَصيرُ أسيرًا مُقَيَّدًا، لا يَستطيعُ التَّحرُّكَ، أسيرَ تلكَ الجِنايةِ وضَحِيَّتَها، كذلكَ صاحبُ سائرِ الذنوبِ والمعاصي. "وصِرتَ أسيرَ ذَنبِكَ في وِثَاقٍ" في وِثاقٍ، أيْ في قَيْدٍ. الوِثاقُ القَيْدُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ محمد [٤].

❁ قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّ الْعَاصِيَ دَائِمًا فِي أَسْرِ شَيْطَانِهِ، وَسِجْنِ شَهَوَاتِهِ، وَقُيُودِ هَوَاهُ، فَهُوَ أَسِيرٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ، وَلَا أَسِيرَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ أَسِيرٍ أَسَرَهُ أَعْدَى عَدُوٍّ لَهُ، وَلَا سِجْنَ أَضْيَقُ مِنْ سِجْنِ الْهَوَى، وَلَا قَيْدَ أَصْعَبُ مِنْ قَيْدِ الشَّهْوَةِ، فَكَيْفَ يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ قَلْبٌ مَأْسُورٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ؟ وَكَيْفَ يَخْطُو خُطْوَةً وَاحِدَةً؟

وَإِذَا قُيِّدَ الْقَلْبُ طَرَقَتْهُ الْآفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِحَسَبِ قُيُودِهِ، وَمَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الطَّائِرِ، كُلَّمَا عَلَا بَعُدَ عَنِ الْآفَاتِ، وَكُلَّمَا نَزَلَ اسْتَوْحَشَتْهُ الْآفَاتُ وَفِي الْحَدِيثِ: «الشَّيْطَانُ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ».(١)

(١) ضعيف، أخرجه أحمد (٢٢٠٢٩)، (٢٢١٠٧)، والطبراني في "الكبير" (٣٤٤)، (٣٤٥)، والبيهقي في "الشعب" (٢٦٠٠)، وغيرهم، عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ». وقد كان الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صححه ثم تراجع عن ذلك حيث قال: ثم تبين لي أن فيه علة تقدح في صحته، ألا وهي الانقطاع بين العلاء بن زياد ومعاذ؛ فإنه لم يسمع منه؛ كما قال المنذري في "الترغيب" (١/ ١٣٢)، والهيثمي في "المجمع" (٢/ ٢٣)، وقد كنت غفلت عن هذه العلة حين خرجت "شرح العقيدة الطحاوية"، فصححته فيه (٥١٦)، جرياً على ظاهر إسناده، والآن قد رجعت عنه، والله تعالى هو الموفق، وأستغفره من كل زلل. "الضعيفة" رقم (٣٠١٦).

وَكَمَا أَنَّ الشَّاةَ الَّتِي لَا حَافِظَ لَهَا وَهِيَ بَيْنَ الذِّئَابِ سَرِيعَةُ الْعَطَبِ، فَكَذَا الْعَبْدُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللَّهِ فَذِئْبُهُ مُفْتَرِسُهُ وَلَا بُدَّ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللَّهِ بِالتَّقْوَى، فَهِيَ وِقَايَةٌ وَجُنَّةٌ، حَصِينَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذِئْبِهِ، كَمَا هِيَ وِقَايَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُقُوبَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الشَّاةُ أَقْرَبَ مِنَ الرَّاعِي كَانَتْ أَسْلَمَ مِنَ الذِّئْبِ، وَكُلَّمَا بَعُدَتْ عَنِ الرَّاعِي كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْهَلَاكِ، فَأَسْلَمُ مَا تَكُونُ الشَّاةُ إِذَا قَرُبَتْ مِنَ الرَّاعِي، وَإِنَّمَا يَأْخُذُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْغَنَمِ، وَهِيَ أَبْعَدُ مِنَ الرَّاعِي.

وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ: أَنَّ الْقَلْبَ كُلَّمَا كَانَ أَبْعَدَ مِنَ اللَّهِ كَانَتِ الْآفَاتُ إِلَيْهِ أَسْرَعَ، وَكُلَّمَا قَرُبَ مِنَ اللَّهِ بَعُدَتْ عَنْهُ الْآفَاتُ.

وَالْبُعْدُ مِنَ اللَّهِ مَرَاتِبُ، بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، فَالْغَفْلَةُ تُبْعِدُ الْقَلْبَ عَنِ اللَّهِ، وَبُعْدُ الْمَعْصِيَةِ أَعْظَمُ مِنْ بُعْدِ الْغَفْلَةِ، وَبُعْدُ الْبِدْعَةِ أَعْظَمُ مِنْ بُعْدِ الْمَعْصِيَةِ، وَبُعْدُ النِّفَاقِ وَالشِّرْكِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ. (١)

قالَ: "**وصِرتَ أسيرَ ذَنبِكَ**"، أيْ إذا لم تَنْأَ عن الذنوبِ والمعاصي والمُنكراتِ، دَخَلْتَ فيها، "**ومن لكَ بالخَلاصِ**"؟ لا تَستطيعُ الخَلاصَ بعدَ ذلكَ. إذْ كيفَ يكونُ لكَ الخَلاصُ وقد دَنَّسْتَ قلبَكَ الذي كانَ قبلَ ذلكَ طاهرًا سليمًا؟ وكيفَ يكونُ لكَ ذَلِكَ؟ أيضًا الفتاةُ لا تَستطيعُ أنْ تَنفَكَّ من قَيْدِ الذنوبِ والمعاصي والمُنكراتِ، ولا تَتَخَلَّصُ من سِجنِ المعاصي والشهواتِ إلا أنْ يَشاءَ اللهُ بالتوبةِ والرُّجوعِ.

"**وصِرتَ أسيرَ ذَنبِكَ**"، لما بعضُهم شَكى عدمَ القُدرةِ على قيامِ الليلِ، قالَ: قَيَّدَتْكُم خَطاياكُم.

---

(١) "الجواب الكافي "(صـ: ٧٩).

❁ عن الحجاج الصواف قال: قيل لعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما نستطيع قيام الليل؟ قال: أقعدتكم ذنوبكم».(١)

❁ وَقَالَ الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَحْرُومٌ مُكَبَّلٌ كَبَّلَتْكَ خَطِيئَتُكَ».(٢)

❁ قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُحْرَمُ بِهِ قِيَامَ اللَّيْلِ».(٣)

❁ قَالَ بعضهم: كم من أكلة منعت قيام الليل، وكم من نظرة حرمت قراءة سورة وإن العبد ليأكل الأكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة.

❁ قال الثوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: حُرمتُ قيامَ الليلِ خمسةَ أشهرٍ بذنبٍ أذنبتُه، قيل: وما ذاك الذنبُ؟ قال: رأيتُ رجلاً يبكي فقلت في نفسي: هذا مراء.(٤)

❁ قال رجلٌ للحسنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أبا سعيدٍ إني أبيتُ معافى، وأحبُّ قيامَ الليلِ وأعدُّ طَهوري فمالي لا أقومُ؟ فقال: ذنوبُك قيَّدتْك.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "التهجد وقيام الليل" (٣٥٨)، وسنده منقطع، وفيه أبو جزي، ويقال: جري، ويقال: جزء نصر بن طريف، ضعيف.

(٢) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٨/٩٦)، ومن طريقه ابن الجوزي في "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" (٩/ ١٤٨)، وفيه إسحاق بن إبراهيم الطبري، منكر الحديث. "الميزان" (١/١٧٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في "التهجد" (٣٦٠)، والدينوري في "المجالسة" (٤٠٠)، (٣٣٨١)، من طريق صالح المري عن الحسن، وصالح بن بشر المري، ضعفه ابن معين، والدارقطني، وقال البخاري: منكر الحديث. "الميزان" (٢/٢٨٩). ويرويه عن صالح في "المجالسة" داود بن المحبر، وهو منكر الحديث، وقال الدارقطني: متروك. "الميزان" (٢/٢٠).

(٤) لم أقف عليه مسندا. وانظر/ "الغنية" (٢/ ١٥٥)، و"مختصر منهاج القاصدين" (صـ:٦٧).

❁ قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب.(١)

وهذه الآثار وإن كانت لا تخلو من ضعف، فإن هذا هو الواقع، وتدل عليه الأدلة، فإن الذنوب تؤثر على أصحابها. وقد تقدم قول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيثُ قَالَ: فما أذنب عبدٌ ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد [١١]، وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها.

❁ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَذْنَبْت ذَنْبًا فَحُرِمْت بِهِ قِيَامَ اللَّيْلِ سنة. وقال آخر: أذنبت ذنباً فحرمت فهم القرآن. وفي مثل هذا قيل:

إِذا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ المعاصِي تُزِيلُ النِّعَم

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب، عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.(٢) فالذنوبُ هيَ التي قَيَّدَتْكَ، فأصبَحْتَ لا تَقوى ولا تَستطيعُ، فأنت أسيرٌ مُقَيَّدٌ، لا تَتمكَّنُ من الصَّلاةِ في بيوتِ اللهِ، لا تَتمكَّنُ من الخيرِ، لا تَتمكَّنُ من قيام الليل، ولا من الاستقامةِ. يُريدُ ذلكَ ولكنهُ يَشعُرُ بأنَّهُ مُقَيَّدٌ، يُريدُ يَذهبُ إلى المسجدِ، يَشعُرُ أنَّهُ مُقَيَّدٌ، يُريدُ يَطلُبُ العلمَ، يَشعُرُ بأنَّهُ مُقَيَّدٌ، يُريدُ يَقومُ الليلَ، يَشعُرُ بأنَّهُ مُقَيَّدٌ، يُريدُ يَعملُ الأعمالَ الصالحةَ، يجدُ نفسه كالمقيد. هذا المُقَيَّدُ، مُقَيَّدُ القلبِ، وكيفَ يَسيرُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ والدَّارِ الآخرةِ وقد صار قلبهُ أسيراً للذنوب مقيداً بالمعاصي؟

---

(١) "الغنية" (٢/ ١٥٥).

(٢) "طريق الهجرتين" (صـ: ٢٧١).

"وَكَيْفَ لَكَ الْفَكَاكُ وَقَدْ أُسِرْتَا"، كيف لك الخلاص وقد صرت أسيراً؟

لا خلاص إلا بالتوبة الصادقة النصوح، بترك ما حرم الله عليه، والندم على ذلك، ورد المظالم والحقوق إلى أهلها، أو العفو منهم.

❁ قَالَ الْحَسَنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ، يُحَاسِبُ نَفْسَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّمَا خَفَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا شَقَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَفْجَأُهُ الشَّيْءَ يُعْجِبُهُ، فَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَشْتَهِيكَ، وَإِنَّكَ لَمِنْ حَاجَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا مِنْ صِلَةٍ إِلَيْكَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَيَفْرُطُ مِنْهُ الشَّيْءُ فَيَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَقُولُ: مَا أَرَدْتُ إِلَى هَذَا، مَا لِي وَلِهَذَا، وَاللَّهِ لَا أَعُودُ إِلَى هَذَا أَبَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمٌ أَوْثَقَهُمُ الْقُرْآنُ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَلَكَتِهِمْ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَسِيرٌ فِي الدُّنْيَا يَسْعَى فِي فِكَاكِ رَقَبَتِهِ، لَا يَأْمَنُ شَيْئًا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ، يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَلَيْهِ فِي سَمْعِهِ، فِي بَصَرِهِ، فِي لِسَانِهِ، فِي جَوَارِحِهِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ».(١)

عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَجُلٌ مَرَّةً وَأَنَا شَابٌّ: «خَلِّصْ رَقَبَتَكَ مَا اسْتَطَعْتَ فِي الدُّنْيَا مِنْ رِقِّ الْآخِرَةِ فَإِنَّ أَسِيرَ الْآخِرَةِ غَيْرُ مَفْكُوكٍ أَبَدًا» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَمَا نَسِيتُهَا بَعْدُ.(٢)

---

(١) "أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (٣٠٧)، ومن طريقه ابن أبي شيبة في "مصنفه (٣٥٢٠٩)، ومن طريقه أيضاً ابن أبي الدنيا في "محاسبة النفس" (١٧)، وابن قدامه في "الرقة والبكاء" (١٥٥)، وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٥٧/٢)، من طريق مَعْمَر، عَنْ يَحْيَى بْنِ الْمُخْتَارِ، عَنِ الْحَسَنِ، به. ويحيى بن المختار الصنعاني، مستور "التقريب" (صـ:٥٩٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في "محاسبة النفس" (١٠٨)، وأبو نعيم في "الحلية" (٣٠٤/٨)، وفيه محمد بن الحسين، هو البرجلاني لم يوثقه سوى ابن حبان، وإبراهيم بن رستم، قال الذهبي: ما عرفت فيه مقالا. "لسان الميزان" (٥٨/١). وأخرجه ابن الجوزي في "صفة الصفوة" (٩٥/٢)، وفيه إبراهيم بن رستم الخياط.

البيت رقم١٠١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُمْ كَمَا تَخْشَ الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَنْتَى

شرح البيت رقم ١٠١

"فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُمْ"، أيْ: خف من شَرِّهم، ومن فَسادِهم، لا تُسايِرْهم على ما هم فيهِ من الشَّرِّ والبَاطِلِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف [٦٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ الفرقان [٢٧-٢٩].

المُقارِنُ من أبناءِ جِنسِكَ، الأقرانِ، الأصحاب، ونحوهم، قد يكونونَ سببًا لصدِّكَ عن الخيرِ والاستقامةِ والصَّلاحِ. وما فَسَدَ من فَسَدَ من الكثيرِ من الناسِ إلا بسببِ أقرانِهم، زُملائِهم من أبناءِ جِنسِهم، كانوا السببَ في فَسادِهم وإبعادِهم. فيكونُ الإنسانُ على حَذَرٍ منهم، كما تَقدَّمَ معنا في قولِ ابنِ عقيلٍ الحنبليِّ، مما عَصَمَهُ اللهُ بهِ أنَّهُ لم يُجالِسْ لَعَّابًا قَطُّ، قولُهُ: "كَمَا تَخْشَ الضَّرَاغِمَ"، الضراغمُ، مُفردُها ضرغامٌ، وهوَ الأسدُ الضار الشديد.(١)

ابْتَعِدْ منهم كَابْتِعَادِكَ مِنَ الأسود الضارية المؤذية.

"وَالسَّبَنْتَى"، قال الخليل الفراهيدي: السبنتى: الجريء المُقدِم من كلّ شيء. والسبنتى: النمر.(٢)

---

(١) "جمهرة اللغة" (٢/ ١٢٠١)، و "معجم اللغة العربية المعاصرة" (٢/ ١٣٦٠).

(٢) "العين" (٧/ ٣٤٢).

قَالَ اِبْنُ مَنْظُورٍ: والسَّبَنْتَى: النَّمِرُ، ويُشْبِهُ أَن يكونَ سُمِّيَ بِهِ لجُرْأَتِه؛ وَقِيلَ: السَّبَنْتَى الأَسَدُ.(١)

قَالَ بَعْضُهُمْ "السبنتى والسبندى": هُوَ الْجَرِيءُ الْمِقْدَامُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ والياء للالحاق لا للتأنيث.(٢) والسَّبنتى، من الرِّجالِ: الخبيثُ البَطّالُ.(٣)

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ وَفَاتُهُ بِكَفَّيْ سَبَنْتَى أَزْرَقِ الْعَيْنِ مُطْرِقِ(٤)

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا أَنَّكَ كُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكَ، وَفِرَّ مِنْهُمْ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأُسُودِ وَالنُّمُورِ، مِنَ السِّبَاعِ الضَّارِيَةِ الْمُتَوَحِّشَةِ.

وفي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أُنَاسًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ الحديث، وفيه: «حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ، أَوْ فَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ العَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، فَيُقَالُ: مَاذَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: **فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ**، وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: لاَ نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا».(٥)

❁ قَالَ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ (قَالُوا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ) مَعْنَى قَوْلِهِمْ: التَّضَرُّعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كَشْفِ هَذِهِ الشِّدَّةِ عَنْهُمْ وَأَنَّهُمْ لَزِمُوا

---

(١) "لسان العرب" (٢/ ٣٩).

(٢) "الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية" (١/ ٢٥١).

(٣) "معجم ديوان الأدب" (٢/ ٩٠).

(٤) "مقاييس اللغة" (٣/ ١٦٢).

(٥) رواه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣).

طَاعَتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَفَارَقُوا فِي الدُّنْيَا النَّاسَ الَّذِينَ زَاغُوا عَنْ طَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانُوا يَحْتَاجُونَ فِي مَعَايِشِهِمْ وَمَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ إِلَى مُعَاشَرَتِهِمْ؛ لِلِارْتِفَاقِ بِهِمْ وَهَذَا كَمَا جَرَى لِلصَّحَابَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَغَيْرِهِمْ وَمَنْ أَشْبَهَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ فَإِنَّهُمْ يُقَاطِعُونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ حَاجَتِهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ إِلَى الِارْتِفَاقِ بِهِمْ وَالِاعْتِضَادِ بِمُخَالَطَتِهِمْ فَآثَرُوا رِضَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ.(١)

فَأَهْلُ الْخَيْرِ وَالْإِيمَانِ مِمَّا يَذْكُرُونَهُ أَنَّهُ فَارَقُوا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا، لَمْ يُصَاحِبُوهُمْ، لَمْ يُجَالِسُوهُمْ، لَمْ يُعَاشِرُوهُمْ، لَمْ يَكُونُوا مَعَهُمْ. النَّاسُ الْمُرَادُ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ السُّوءِ، مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ. فَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى اسْتِقَامَتِهِ وَعَلَى خَيْرِهِ وَصَلَاحِهِ فَلْيَبْتَعِدْ عَنِ الْجُلَسَاءِ الْفَاسِدِينَ. لَا يَقْرَبْهُمْ أَبَدًا.

أُنْظُرْ إِذَا أَقْبَلَتْ حَيَّةٌ جهتَكَ كَيْفَ سَتَفِرُّ مِنْهَا؟ حَيَّةٌ، ثُعْبَانٌ، أَسَدٌ، نَمِرٌ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ مُفْتَرِسٍ، أَوْ مما تَخَافُ، كَيْفَ سَتَفِرُّ مِنْهُ؟ كَذَلِكَ فِرَّ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكَ.

احْذَرْ مِنْ شَرِّهِمْ، احْذَرْ مِنْ فَسَادِهِمْ، احْذَرْ مِنْ مُجَالَسَتِهِمْ، فَمُجَالَسَتُهُمْ ضَرَرٌ. وَالصَّاحِبُ سَاحِبٌ، وَالصَّاحِبُ يَتَأَثَّرُ بِصَاحِبِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَتَأَثَّرُ. وَمِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَبْيَاتِ:

❁ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الفَقِيهُ الشَّافِعِيُّ المَرَاغِيُّ:(٢)

إِذَا رَأَيْتَ شَبَابَ الْحَيِّ قَدْ نَشَئُوا ... لَا يَحْمِلُونَ قِلَالَ الْخِبْرِ وَالْوَرَقَا

وَلَا تَرَاهُمْ لَدَى الْأَشْيَاخِ فِي حِلَقٍ ... يَعُونَ مِنْ صَالِحِ الْأَخْبَارِ مَا اتَّسَقَا

فَعَدِّ عَنْهُمْ وَدَعْهُمْ إِنَّهُمْ هَمَجُ ... قَدْ بَدَّلُوا بِعُلُوِّ الْهِمَّةِ الْحُمُقَا

---

(١) "شرح مسلم" للنووي عند الحديث السابق.

(٢) "أدب الإملاء والاستملاء" (صـ: ١٥٣)، "تاريخ دمشق" لابن عساكر (٥٢/ ٣٤٣)، "نشر طي التعريف"(صـ:٢١٢) وفي بعض المصادر أنشدها للشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

اُتْرُكْهُمْ، لَا تَجْلِسْ إِلَيْهِم، وَلَا تَرْكَنْ إِلَيْهِمْ.

وَهَذَا أَمْرٌ مُهِمٌّ، وَلَفْتَةٌ مُهِمَّةٌ، وَهِيَ الْحَذَرُ مِنْ مُجَالَسَةِ أَبْنَاءِ جِنْسِكَ وَمُعَاشَرَتِهِمْ وَمُسَايَرَتِهِمْ وَالْجُلُوسِ مَعَهُمْ أي: من الأشرار منهم، فَإِنَّ هَذَا سَبَبٌ لِلْفَسَادِ، سَبَبٌ لِابْتِعَادِ الْإِنْسَانِ عَنِ الْاِسْتِقَامَةِ وَالْخَيْرِ وَإِذَا اضْطررْتَ إِلَى مُجَالَسَتِهِمْ، كُنْ نَاصِحًا مُبَيِّنًا، مُحَذِّرًا، مُعَلِّمًا، مُرْشِدًا، ثُمَّ اذْهَبْ. إِذَا اجْتَمَعْتَ مَعَهُمْ فِي مَجْلِسٍ، بَيِّنْ، انْصَحْ، عِظْ، وَجِّهْ، حَذِرْ مِنَ الشَّرِّ، وَادْعُ إِلَى الْخَيْرِ، ثُمَّ اذْهَبْ، أَمَّا أَنْ تُجَالِسَهُمْ الْيَوْمَ الْأَوَّلَ، وَالثَّانِيَ، وَالثَّالِثَ، وَهُمْ جُلَسَاؤُكَ، مَجَالِسُ الْقَاتِ، مَجَالِسُ السَّبِّ، الشَّتْمِ، اللَّعْنِ، الْفُسُوقِ، الشَّاشَاتِ، الْمُنْكَرَاتِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، مَاذَا سَتَتَوَقَّعُ مِنْ ذَلِكَ؟ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ جُلُوسَكَ مَعَهُمْ يُعْتَبَرُ إِقْرَارًا مِنْكَ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَهَذَا بِمُفْرَدِهِ ذَنْبٌ.

الثَّانِي: أَنَّ الْجُلُوسَ مَعَ أَهْلِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرِ أَيْضًا ذَنْبٌ، لِأَنَّ الشَّرْعَ أَمَرَ بِتَرْكِهِمْ، وَعَدَمِ مُجَالَسَتِهِمْ.

الثالث: في ذلك تغريرٌ، فكل من يراك معهم يغترُ بذلك، وربما اقتدى بك، وفهم جواز فِعْلِكَ.

الرابع: التأثر، فالجليس يتأثر بجليسه، ونحو ذلك من المحاذير.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنعام [٦٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ ﴾ الأنعام [٧٠].

دَعْهُمْ، لَا تُجَالِسْهُمْ، لَا تَبْقَ مَعَهُمْ، لَا تُجَالِسْ فِي مجالِسِ الْقَاتِ، لَا تَجْلِسْ فِي مَجَالِسِ الشَّاشَاتِ، الْأَفْلَامِ، الْمُسَلْسَلَاتِ، مَجَالِسِ الْغِيبَةِ، النَّمِيمَةِ، مَجَالِسِ مَنْ يَطْعَنُونَ فِي التَّوْحِيدِ، فِي الْقُرْآنِ، وَيَضْرِبُونَ بَعْضَ الْآيَاتِ بِبَعْضٍ: عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ».(١)

حَتَّى لَا يَقَعَ الشَّكُّ فِي آيَاتِ اللَّهِ، أَوْ تِلْكَ الشُّبَهُ التي يَتَأَثَّرُ بِهَا الْبَعْضُ، أَوْ يَحْصُلُ خِلَافٌ، فَقُومُوا.

الْإِنْسَانُ يَكُونُ عَلَى حَذَرٍ مِنَ الْجُلَسَاءِ، وَيَبْتَعِدُ عَنْهُمْ، وَلَا يُجَالِسُ إِلَّا الْأَخْيَارَ، وَلَابُدَّ أَنَّ الْجَلِيسَ يَتَأَثَّرُ بِجَلِيسِهِ، مَنْ قَالَ: "أَنَا لَا أَتَأَثَّرُ"، فَقَوْلُهُ غَيْرُ صَحِيحٍ، وَهُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ.

قَدْ تَأَثَّرَ دُعَاةٌ إلى الله، وَأَئِمَّةٌ أَعْلَام، جَالَسُوا أُنَاسًا فَتَأَثَّرُوا بِجُلوسِهِمْ، وَتَأَثَّرُوا بِمَا يُظْهِرُونَهُ مِنَ الْوَرَعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَتَأَثَّرُوا بِبَعْضِ مَبَادِئِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ، كَمَا ذَكَرُوا عَنِ عددٍ من أهل العلم والصلاح، قَالُوا: وَكَانَ فِيهِ كَذَا وَكَذَا بِسَبَبِ الْمُجَالَسَةِ أو ميلٌ لكذا.

فَمَا بَالُكَ بِأَمْثَالِنَا الْيَوْمَ إِذَا جَالَسْنَا الْأَشْرَارَ، مِنْ أَهْلِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْخُرَافَاتِ؟ فَإِنَّ هَذَا يُؤَثِّرُ عَلَى الْقُلُوبِ، يُؤَثِّرُ عَلَى الْعَقَائِدِ، يُؤَثِّرُ عَلَى مَبَادِئِكَ، يُؤَثِّرُ عَلَى اسْتِقَامَتِكَ، يُؤَثِّرُ عَلَى خَيْرِكَ، عَلَى نَشَاطِكَ، عَلَى طَلَبِكَ لِلْعِلْمِ.

❁ وَكَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ متمثلاً بهذه الأبيات:

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَى ... وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

عَوَى الذِّئْبُ، أَصْدَرَ صَوْتًا، وَهُوَ صَوْتُ الذِّئْبِ، قَالَ: فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَى، اِسْتَأْنَسَ بِصَوْتِ الذِّئْبِ، "وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ"، سَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانٍ، قَالَ: "فَكِدْتُ أَطِيرُ" فَزِعَ مِنْ صَوْتِهِ وَخَشِيَ مِنْهُ. فَأَحْيَانًا مُجَالَسَةُ السِّبَاعِ وَالذِّئَابِ أَهْوَنُ مِنْ مُجَالَسَةِ الذِّئَابِ

(١) رواه البخاري (٥٠٦٠)، (٥٠٦١)، (٧٣٦٤)، (٧٣٦٥)، ومسلم (٢٦٦٧).

الْبَشَرِيَّةِ. مُجَالَسَةُ الذِّئَابِ وَالسِّبَاعِ الْحَيَوَانِيَّةِ أَهْوَنُ مِنْ مُجَالَسَةِ السِّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ. تِلْكَ حَتَّى لَوْ أَثَّرَتْ عَلَيْكَ، غايةُ عملِها سَتَأْكُلُ الْجَسَدَ، ودينُكَ، وقلبُك سليمٌ.

أَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَأْكُلُونَ الْقَلْبَ ثُمَّ الْجَسَدَ. يَأْكُلُونَ الْقَلْبَ أَوَّلًا، يُفْسِدُونَ الْقَلْبَ، يُفْسِدُونَ الْعَقِيدَةَ، يُفْسِدُونَ الْمَبَادِئَ، يُفْسِدُونَ الْأَخْلَاقَ، يُفْسِدُونَ صَدْرَكَ وَفُؤَادَكَ وَعَقْلَكَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُفْسِدُونَ جَسَدَكَ. إِمَّا بِبَعْضِ الْمُنْكَرَاتِ، وَإِمَّا بِفِتَنٍ مِنَ الْفِتَنِ، فَتُقْتَلُ فِي سَبِيلِهَا. مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي تَهْوِي بِهَا فِي الشَّرِّ وَالْعَذَابِ.

فَمُجَالَسَةُ السِّبَاعِ الحيوانية، أَهْوَنُ مِنْ مُجَالَسَةِ السِّبَاعِ وَالذِّئَابِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْفُسُوقِ، من أهلِ الْبِدَعِ، الضَّلَالِ، الْاِنْحِرَافِ، الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ. فَلْيَكُنِ الْإِنْسَانُ عَلَى حَذَرٍ، عَلَى عَقِيدَتِهِ، عَلَى مَبَادِئِهِ، عَلَى اِسْتِقَامَتِهِ، عَلَى صَلَاحِهِ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَقْرِبَائِكَ.

أَحْيَانًا تَجِدُ الشَّخْصَ عَلَى خَيْرٍ، عَلَى اسْتِقَامَةٍ، عَلَى صَلَاةٍ، طَالِبًا لِلْعِلْمِ، يُجَالِسُ بَعْضَ أَقْرِبَائِهِ وَهُمْ أَهْلُ دُنْيَا، فَيَتَأَثَّرُ بِهِمْ وَبِدُنْيَاهُمْ، وَلَا تَدْرِي إلا وَقَدْ صَارَ يُفَكِّرُ فِي الدُّنْيَا، يُرِيدُ العمل، وَيُفَكِّرُ فِي الْمَشَارِيعِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ مع أَنَّهُ ربما ميسور الحال، يَتْرُكُ الْعِلْمَ، ثُمَّ لَا يَتَحصلُ عَلَى الْمَشَارِيعِ الَّتِي زَعَمَ وَأَرَادَ، وَلَمْ يَسْلَمْ لَهُ الْعِلْمُ الَّذِي قَدْ تَحَصَّلَ عَلَيْهِ، وَلَا تِلْكَ الْاِسْتِقَامَةُ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهَا. لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ. فَوَّتَ الدِّينَ وَلَمْ يَتَحَصَّلْ عَلَى الدُّنْيَا.

❁ وَمَا أَجْمَلَ وَاللَّهِ هذا الْبَيْت:

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا ... فَلَا يَبْقَى دِينُنَا وَلَا مَا نُرَقِّعُ

لَا يَبْقَى الدِّينُ وَلَا تَبْقَى الدُّنْيَا الَّتِي تُرِيدُ تَرْقَعُهَا. كُلَّمَا رَقَعْتَهَا مِنْ جِهَةٍ، تقطعت عَلَيْكَ مِنْ جِهَةٍ، تُرْقِعُهَا وَهِيَ تَتَقَطَّعُ عَلَيْكَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى بِشَكْلٍ أَوْسَعَ، وَهَكَذَا حَتَّى يَذْهَبَ الدِّينُ وَالدُّنْيَا، ونسألُ اللهَ السلامة.

البيت رقم١٠٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُمْ حِذَارًا وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا

شرح البيت رقم ١٠٢

"وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُمْ حِذَارًا"، خَالِطْهُمْ إِذَا احْتَجْتَ إِلَى الْمُخَالَطَةِ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهَا: الْبَيْعِ، الشِّرَاءِ، وَمَا شَابَهَ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَتَضْطَرُّ لِلْمُخَالَطَةِ فِي الْبَيْعِ، فِي الشِّرَاءِ، فِي بعضِ الأعمالِ، وَمَا شَابَهَ ذَلِكَ، بِقدرِ الحاجة فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ

"وَزَايِلْهُمْ" كُنْ عَلَى حَذَرٍ، خَالِطْهُمْ وَفَارِقْهُمْ، خَالِطْهُمْ وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ شَرِّهِمْ، مِنْ فَسَادِهِمْ، مِنْ شُبُهَاتِهِمْ، مِنْ مُخَالَفَاتِهِمْ، مِنْ انْحِرَافَاتِهِمْ. فَإِنَّ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ تَحْتَاجُ إِلَيْهَا وَلَابُدّ.﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الفتح [٢٥] التزايل: التباين.

❁ قال السمعاني في "تفسيره": أَي: لَو تميزوا. أَي: لَو فَارق الْمُسلمُونَ الْكَافرين.

❁ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**خَالِطِ النَّاسَ وَزَايِلْهُمْ وَصَاحِبْهُمْ بِمَا يَشْتَهُونَ، وَدِينَكَ لَا تَثْلَمَنَّهُ**»، وفي رواية الخطابي: «**خَالِطِ النَّاسَ وَزَايِلْهُمْ وَدِينَكَ لَا تَكْلِمَنَّهُ**»، وفي رواية للطبراني، وابن أبي شيبة: «**خَالِطُوا النَّاسَ وَزَايِلُوهُمْ وَصَافِحُوهُمْ وَدِينُكُمْ لَا تَكْلِمُونَهُ**».(١)

---

(١) أخرجه وكيع في "الزهد" (٥٣١)، وأبو داود في "الزهد" (١٦٢)، والخطابي في "العزلة" (صـ:٩٩)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (٢٦٢٢١)، و"الأدب" (٢٠)، والطبراني في "الكبير" (٩٧٥٧)، من طرق عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَابَاهَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، فذكره، ورجاله ثقات، وظاهر سنده الصحة.

قال الحافظُ: وقد أغفل المزي ذكر عبد الله بن مسعود في شيوخ عبد الله بن باباه. "تهذيب التهذيب" (٥/ ١٥٣).

قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت: وإسناده صحيح لولا عنعنة حبيب؛ فإنه مدلس. "الضعيفة" (١١٨٧).

❁ قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يُرِيدُ خَالِطْهُمْ بِبَدَنِكَ وَزَايِلْهُمْ بِقَلْبِكَ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ النِّفَاقِ وَلَكِنَّهُ مِنْ بَابِ الْمُدَارَاةِ. (١)

❁ وَقَالَ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «خَالِطُوا النَّاسَ بِمَا يُحِبُّونَ، وَزَايِلُوهُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَجِدُّوا مَعَ الْعَامَّةِ». (٢)

❁ وجاء عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُونُوا فِي النَّاسِ كَالنَّحْلَةِ فِي الطَّيْرِ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الطَّيْرِ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ يَسْتَضْعِفُهَا، وَلَوْ يَعْلَمُ الطَّيْرُ مَا فِي أَجْوَافِهَا مِنَ الْبَرَكَةِ، لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ بِهَا، خَالِطُوا النَّاسَ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَأَجْسَادِكُمْ، وَزَايِلُوهُمْ بِأَعْمَالِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ، فَإِنَّ لِلْمَرْءِ مَا اكْتَسَبَ، وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». (٣)

وعلقه البخاري في "صحيحه" باب: الانبساط إلى الناس. من كتاب الأدب.

وأخرجه أبو داود في "الزهد" (١٦١)، وابن أبي الدنيا في "مدارة الناس" (٢٨)، والطبراني في "الكبير" (٩٧٥٦)، من طريق سَلَمَة بْنِ كُهَيْلٍ، عَنْ أَبِي الزَّعْرَاءِ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «خَالِطُوا النَّاسَ وَزَائِلُوهُمْ»، وأبو الزعراء هو: عَبد اللهِ بْن هانئ الكوفي، قال البخاري: وَلا يُتابَعُ في حَدِيثِهِ. "التاريخ الكبير"(٥/ ٢٢١)، وعامة روايته عن ابن مسعود، وقد أثبت سماعه منه البخاري وانظر: "تهذيب التهذيب" (٦/ ٦١).

(١) "العزلة" (صـ:٩٩).

(٢) أخرجه معمر في "جامعه" (٢٠١٥٢)، من طريق قتادة عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولم يسمع منه، قال أحمد بن حنبل: ما أعلم قتادة سمع من أحد من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلا من أنس بن مالك قيل له فعبد الله بن سرجس، فكأنه لم يره سماعا. "جامع التحصيل" (صـ: ٢٥٥).

(٣) أخرجه الدارمي في "السنن" (٣٢٠)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٢/ ٥٠٩)، والبيهقي في "الزهد الكبير" (١٨٩)، وفيه الْحَارِث بْنِ حَصِيرَةَ، فيه كلام، قال أبو حاتم: لولا أن الثوري روى عن الحارث ابن حصيرة لترك حديثه. "الجرح والتعديل"(٣/ ٧٣)، وقال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وثقه الجمهور، وضعفه العقيلي وابن عدي، وقال الحافظ في "التقريب": صدوق يخطئ، ورمي بالرفض. "الصحيحة"(٧/ ٥٧٦)، (٣١٨٩)، وقال في سند الدارمي لهذا الحديث: قلت: وإسناده حسن. "الضعيفة" (١١٨٧).

وَمِنْ حَدِيْثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَسَلَّمَ خَطِيبًا، فَكَانَ مِنْ خُطْبَتِهِ أَنْ قَالَ: «**أَلَا إِنِّي أُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ فَيَلِيكُمْ عُمَّالٌ مِنْ بَعْدِي، يَقُولُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا يَعْرِفُونَ، وَطَاعَةُ أُولَئِكَ طَاعَةٌ، فَيَلْبَثُونَ كَذَلِكَ دَهْرًا، ثُمَّ يَلِيكُمْ عُمَّالٌ مِنْ بَعْدِهِمْ، يَقُولُونَ مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَيَعْمَلُونَ مَا لَا يَعْرِفُونَ، فَمَنْ نَاصَحَهُمْ، وَوَازَرَهُمْ، وَشَدَّ عَلَى أَعْضَادِهِمْ فَأُولَئِكَ قَدْ هَلَكُوا، خَالِطُوهُمْ بِأَجْسَادِكُمْ، وَزَايِلُوهُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَاشْهَدُوا عَلَى الْمُحْسِنِ بِأَنَّهُ مُحْسِنٌ، وَعَلَى الْمُسِيءِ بِأَنَّهُ مُسِيءٌ**». (١)

وجاء من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعاً: «**صَبْرًا صَبْرًا، خَالِقُوا النَّاسَ بِأَخْلَاقِهِمْ، وخَالِفُوهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ**». (٢)

"**وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا**"، السَّامِرِيُّ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ: ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ طه [٩٧].

❁ قَالَ القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسيره للآية": أَيْ: لَا أُمَسُّ وَلَا أَمَسُّ طُولَ الْحَيَاةِ. فَنَفَاهُ مُوسَى عَنْ قَوْمِهِ وَأَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يُخَالِطُوهُ وَلَا يَقْرَبُوهُ وَلَا يُكَلِّمُوهُ عُقُوبَةً لَهُ...

---

(١) أخرجه البيهقي في "الزهد الكبير" (١٩١)، والطبراني في "الأوسط" (٦٩٨٨)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "الصحيحة" (٤٥٧).

(٢) ضعيف، أخرجه البزار في "مسنده"(٤١٦٥)، والعقيلي في "الضعفاء" (٤/٣٧٦)، عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٠)، والحاكم (٥٤٦٤)، عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث من طريق يَزِيد بْنِ رَبِيعَةَ، قال البخاري: أحاديثه مناكير، وقال النسائي: متروك. "الميزان" (٤/٤٢٢)، قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد انقلب اسمه في " المستدرك " إلى " ربيعة بن يزيد "، وجعله من مسند " أبي ذر " لا من مسند " ثوبان "! ولست أدري أذلك من المؤلف أم الراوي أم الناسخ. "الضعيفة" (١١٨٧).

❁ قَالَ الْحَسَنُ: جَعَلَ اللَّهُ عُقُوبَةَ السَّامِرِيِّ أَلَّا يُمَاسَّ النَّاسَ وَلَا يُمَاسُّوهُ عُقُوبَةً لَهُ وَلِمَنْ كَانَ مِنْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَدَّدَ عَلَيْهِ الْمِحْنَةَ، بِأَنْ جَعَلَهُ لَا يُمَاسُّ أَحَدًا وَلَا يُمَكَّنُ مِنْ أَنْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ، وَجَعَلَ ذَلِكَ عُقُوبَةً لَهُ فِي الدُّنْيَا. وَيُقَالُ: ابْتُلِيَ بِالْوَسْوَاسِ وَأَصْلُ الْوَسْوَاسِ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: بَقَايَاهُمْ إِلَى الْيَوْمِ يَقُولُونَ ذَلِكَ- لَا مِسَاسَ- وَإِنْ مَسَّ وَاحِدٌ مِنْ غَيْرِهِمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حُمَّ كِلَاهُمَا فِي الْوَقْتِ.ا.هـ.(١)

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي نَفْيِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْمَعَاصِي، وَهُجْرَانِهِمْ، وَأَلَّا يُخَالَطُوا، وَقَدْ فَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ بِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَالثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا. وَمَنِ التَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ وَعَلَيْهِ قَتْلٌ لَا يُقْتَلُ عِنْدَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ، وَلَكِنْ لَا يُعَامَلُ وَلَا يُبَايَعُ وَلَا يُشَارَى، وَهُوَ إِرْهَاقٌ إِلَى الْخُرُوجِ. وَمِنْ هذا القبيل التغريب في حد الزنى.ا.هـ.

الْوَسْوَاسُ من ذلك الوقت، وَفِي هَذَا الْكَلَامِ نَظَرٌ.

وَالْمَعْنَى: ابْتَعِدْ عَنِ الرِّفْقَةِ الْفَاسِدَةِ، السَّيِّئَةِ. لَا تُجَالِسْهُمْ، وَلَا تَمَسَّهُمْ وَلَا يَمَسُّونَكَ.

❁ قَالَ الشَّيْخُ بَكْرُ بْنُ عبد الله أَبو زَيْدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: احْذَرْ قَرِينَ السَّوءِ: كما أَنَّ العِرْقَ دَسَّاسٌ فإنَّ أَدَبَ السَّوءِ دَسَّاسٌ، إذ الطَّبيعةُ نَقَّالَةٌ، والطِّباعُ سَرَّاقَةٌ، والناسُ كأسرابِ الْقَطَا مَجْبولون على تَشَبُّهِ بعضِهم ببعضٍ، فاحْذَرْ مُعاشَرَةَ مَن كان كذلك؛ فإنه العَطَبُ، والدفعُ أَسْهَلُ من الرفعِ. وعليه فتَخَيَّر للزَّمالةِ والصداقةِ مَن يُعينُك على مَطْلَبِكَ، ويُقَرِّبُك إلى رَبِّكَ، ويُوافِقُكَ على شَريفِ غَرَضِكَ، ومَقْصِدِكَ، **وَخُذْ تَقْسِيمَ الصَّدِيقِ فِي أَدَقِّ الْمَعَايِيرِ:**

صَدِيقُ مَنْفَعَةٍ،

صَدِيقُ لَذَّةٍ،

---

(١) أثر قتادة، أخرجه ابن جرير الطبري في "تفسيره" (١٨/ ٣٦٤)، بسندٍ صحيح.

صَدِيقُ فَضِيلَةٍ،

فَالْأَوَّلَانِ مُنْقَطِعَانِ بِانْقِطَاعِ مُوجِبِهِمَا الْمُنْفَعَةُ فِي الْأَوَّلِ، وَاللَّذَّةُ فِي الثَّانِي.

أَمَّا الثَّالِثُ فَالتَّعْوِيلُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي بَاعِثُ صَدَاقَتِهِ تَبَادُلُ الِاعْتِقَادِ فِي رُسُوخِ الْفَضَائِلِ لَدَى كُلٍّ مِنْهُمَا.

وَصَدِيقُ الْفَضِيلَةِ هَذَا عُمْلَةٌ صَعْبَةٌ يَعِزُّ الْحُصُولُ عَلَيْهَا. (١)

❁ قَالَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: مَا بَقِيَ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا شَيْءٌ إِلَّا أَخٌ أَرْفَعُ مُؤْنَةَ التَّحَفُّظِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ. (٢). يَأْتَمِنُهُ عَلَى أَسْرَارِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

❁ وَكَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

واحْذَرْ مُصَاحَبَةَ اللئِيْمِ فإِنَّهُ يُعْدِيْ كَمَا يُعْدِي الصَّحِيْحَ الأَجْرَبُ

❁ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَوَارِحَ كَالسَّوَاقِي تُوصِلُ إِلَى الْقَلْبِ الصَّافِي وَالْكَدِرِ، فَمَنْ كَفَّهَا عَنِ الشَّرِّ جَلَّتْ مَعِدَةُ الْقَلْبِ بِمَا فِيهَا مِنَ الأَخْلاطِ فَأَذَابَتْهَا وَكَفَى بِذَلِكَ حِمْيَةٌ، فَإِذَا جَاءَ الدَّوَاءُ صَادَفَ مَحَلا قَابِلا.

وَمَنْ أَطْلَقَهَا فِي الذُّنُوبِ أَوْصَلَتْ إِلَى الْقَلْبِ وَسَخَ الْخَطَايَا وَظُلَمَ الْمَعَاصِي، فَلَوْ وُضِعَ الدَّوَاءُ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَلْبِ حِجَابٌ، فَلا تَكَادُ الْجَوَارِحُ تَسْلَمُ مِنَ الْخَطَايَا إِلا بِالْعُزْلَةِ، فَمَنْ أَمْكَنَهُ فَمَا أَحْسَنَهُ، وَمَنْ لَمْ يُمْكِنْهُ تَحَفَّظَ فِي مُخَالَطَتِهِ لِلْخَلْقِ تَحَفُّظَ الْمُجَاهِدِ فِي الْحَرْبِ. (٣)

---

(١) "حلية طالب العلم"

(٢) أخرجه الدينوري في "المجالسة" (٢٧٤١)، وفيه محمد بن عبد العزيز الدينوري، منكر الحديث، ضعيف. "لسان الميزان"(٥/ ٢٦٠)، والدينوري، نفسه صاحب المجالسة، فيه ضعف.

(٣) "التبصرة" (٢/ ٢٠٨).

وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**». (١)

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِلَفْظِ: «**الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**». (٢)

فِي هَذَا الزَّمَن الْمُخَالَطَة فيها صعوبة وقل من يسلم من ضررها.

وَمَنْ اُضْطُرَّ فَخَالَطَهُمْ وَتَحَمَّلَ مَا تُلَاقِي منهم، يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْذَرَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ عَلَى دِينِهِ، عَلَى عَقِيدَتِهِ، وَأَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَالْعُزْلَةُ فِي هَذَا الزَّمَنِ مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ.

وَالْعُزْلَةُ، عُزْلَةٌ لِلْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ. وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ.

عُزْلَةٌ لِأَهْلِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ.

عُزْلَةٌ لِأَمَاكِنِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ. هَذَا مِنَ الْعُزْلَةِ.

بَوَّبَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، بَابٌ: الْعُزْلَةِ رَاحَةٌ مِنْ خُلَّاطِ السُّوءِ.

وَذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَرَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ: يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ». (٣)

---

(١) رواه أحمد (٥٠٢٢)، (٢٣٠٩٨)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وغيرهم، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، صححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيحة" (٩٣٩).

(٢) "التبصرة" (٢/ ٢٠٨).

(٣) (٢٥٠٧).

❁ وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَذَا زَمَانُ السُّكُوتِ، وَلُزُومِ الْبُيُوتِ». (١)

❁ وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَا هَذَا حِصْنُ السَّلَامَةِ الْعُزْلَةُ. (٢)

❁ وَقَالَ أَيْضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْعُزْلَةُ رَأْسُ الْحِمْيَةِ مِنَ الدُّنْيَا. (٣)

❁ قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لا تُخَالِطَ فِي زَمَانِكَ هَذَا أَحَدًا فَافْعَلْ. (٤)

❁ وَقَالَ الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالْعُزْلَةُ عِنْدَ الْفِتْنَةِ، سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَعِصْمَةُ الْأَوْلِيَاءِ، وَسِيرَةُ الْحُكَمَاءِ الْأَلِبَّاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، فَلَا أَعْلَمُ لِمَنْ عَابَهَا عُذْرًا، لَاسِيَّمَا فِي هَذَا الزَّمَانِ الْقَلِيلِ خَيْرُهُ الْبَكِيءُ دَرُّهُ، وَبِاللَّهِ نَسْتَعِيذُ مِنْ شَرِّهِ وَرَيْبِهِ. (٥)

❁ قَالَ أَبو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**نِعْمَ صَوْمَعَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ بَيْتُهُ، يَحْفَظُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ وَسَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، وَإِيَّاكُمْ وَمَجَالِسَ السُّوقِ؛ فَإِنَّهَا تُلْهِي وَتُطْغِي**». (٦)

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "العزلة والانفراد" (٩٧)، من طريق محمد بن صبيح بن السماك، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: أَوْصِنِي، فذكره، وابن السماك، قال الألباني: صدوق متكلم فيه. "الضعيفة" (٥٠٩٦)، وانظر: "لسان الميزان" (٥/٢٠٤). وابن أبي الدنيا بينه وبين ابن السماك مدة.

وأخرجه الخطابي في "العزلة"(صـ:١٩)، وفيه عبد الله بن خبيق، فيه جهالة، ويوسف بن أسباط، فيه ضعف.

(٢) "المدهش" (صـ: ٣٨٠).

(٣) "اللطائف" (صـ: ٢٩).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في العزلة والانفراد" (٣٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (٧/٧)، وفيه من لا يعرف بجرح ولا تعديل.

(٥) "العزلة" للخطابي (صـ: ٨).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في "العزلة والانفراد" (٢٦)، وابن المبارك في "الزهد" (١٤)، ورجاله ثقات.

❁ قال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الواجب على العاقل لزوم الاعتزال عن الناس عامّاً، مع توقي مخالطتهم؛ إذ الاعتزال من الناس لو لم يكن فيه خَصْلة تُحمد إلا السلامة من مقارفة المأثم لكان حقيقاً بالمرء أن لا يُكَدِّر وجود السلامة بلزوم السبب المؤدي إلى المناقشة.(١)

❁ وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَا أَعْرِفُ لِلْعَالِمِ قَطُّ لَذَّةً، وَلَا عِزًّا، وَلَا شَرَفًا، وَلَا رَاحَةً وَسَلَامَةً أَفْضَلَ مِنْ الْعُزْلَةِ، فَإِنَّهُ يَنَالُ بِهَا سَلَامَةَ بَدَنِهِ وَدِينِهِ وَجَاهِهِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعِنْدَ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ يَهُونُ عَلَيْهِمْ مَنْ يُخَالِطُهُمْ وَلَا يُعَظَّمُ عِنْدَهُمْ قَوْلُ الْمُخَالِطِ لَهُمْ، وَلِهَذَا عَظُمَ عَلَيْهِمْ قَدْرُ الْخُلَفَاءِ؛ لِاحْتِجَابِهِمْ. وَإِذَا رَأَى الْعَوَامُّ أَحَدَ الْعُلَمَاءِ مُتَرَخِّصًا فِي أَمْرٍ هَانَ عِنْدَهُمْ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ صِيَانَةُ عِلْمِهِ وَإِقَامَةُ قَدْرِ الْعِلْمِ عِنْدَهُمْ. فَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُنَّا نَمْزَحُ وَنَضْحَكُ فَإِذَا صِرْنَا يُقْتَدَى بِنَا فَمَا أُرَاهُ يَسَعُنَا ذَلِكَ.(٢)

❁ قَالَ يُونُسَ بْنَ عَبْدِ الْأَعْلَى الصَّدَفِيُّ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ، يَقُولُ: «يَا يُونُسُ؛ الِانْقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ، مَكْسَبَةٌ لِلْعَدَاوَةِ، وَالِانْبِسَاطُ إِلَيْهِمْ مَجْلَبَةٌ لِقَرَنَاءِ السُّوءِ، فَكُنْ بَيْنَ الْمُنْقَبِضِ وَالْمُنْبَسِطِ».(٣)

❁ وجاء هذا عن أَكْثَم بْنُ صَيْفِيّ.(٤) فابتعد عن أهل الشر، وعن مجالسهم، وإذا كانت لك حاجة في مخالطة الناس فكن على حذر على دينك، وعقيدتك.

---

(١) "روضة العقلاء" (صـ: ٨١).

(٢) "صيد الخاطر" (صـ: ٢٤٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم (١٢٢/٩)، وفيه أبو عمرو عثمان بن محمد بن عثمان العثماني، قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حد الضعفاء...أكثر عنه أبو نُعَيم الحافظ في تواليفه، وهو بصري صاحب حديث لكنّه راوية للموضوعات والعجائب. "تاريخ الإسلام" ت بشار (٨/ ٢٤٣).

(٤) أخرجه الخطابي في "العزلة" (صـ:٩٨). وفيه شاكر بن عبد الله المصيصي، مجهول حال، وقد قال الخطيب: ما علمت من حاله إلّا خيرًا. "تاريخ بغداد" ت بشار (١٠/ ٤٠٨).

البيت رقم١٠٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيكَ فَقُلْ سَلَامٌ لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا

شرح البيت رقم ١٠٣

"**وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيكَ فَقُلْ سَلَامٌ**"، هَؤُلَاءِ الْأَقْرَانُ الَّذِينَ قَالَ لَكَ: "فخفَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُمْ". ثُمَّ قَالَ: "وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُمْ". قَالَ: "وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيكَ فَقُلْ سَلَامٌ" لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا. قَدْ تَسْلَمُ مِنْهُمْ وَقَدْ لَا تَسْلَمُ، حَتى وَإِنْ سَالَمْتَهُمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ الفرقان [٦٣]. أَيْ: يُقَابِلُونَ ذَلِكَ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ.

❁ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي "تفسيره لآية": هَذِهِ الْآيَةُ كَانَتْ قَبْلَ آيَةِ السَّيْفِ، نُسِخَ مِنْهَا مَا يَخُصُّ الْكَفَرَةَ وَبَقِيَ أَدَبُهَا فِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَذَكَرَ سِيبَوَيْهِ النَّسْخَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي كِتَابِهِ، وَمَا تَكَلَّمَ فِيهِ عَلَى نَسْخٍ سِوَاهُ، رَجَّحَ بِهِ أَنَّ الْمُرَادَ السَّلَامَةُ لَا التَّسْلِيمُ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يُؤْمَرُوا قَطُّ بِالسَّلَامِ عَلَى الْكَفَرَةِ. وَالْآيَةُ مَكِّيَّةٌ فَنَسَخَتْهَا آيَةُ السَّيْفِ. قَالَ النَّحَّاسُ: وَلَا نَعْلَمُ لِسِيبَوَيْهِ كَلَامًا فِي مَعْنَى النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ... فَلَا حَاجَةَ إِلَى دَعْوَى النَّسْخِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ا.هـ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الأعراف [١٩٩]. ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ القصص [٥٥]

❁ قَالَ القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره": وليس من التحية في شيء.ا. هـ.

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَاكِرًا لِمَا جَرَى بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَوَالِدِهِ: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ مريم [٤٦-٤٨]. قِيلَ: هَذَا سَلَامُ هِجْرَانٍ وَمُفَارَقَةٍ. وَقِيلَ: سَلَامُ بِرٍّ وَلُطْفٍ وَهُوَ جَوَابُ الْحَلِيمِ لِلسَّفِيهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ الفرقان [٦٣]. (١)

❁ وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ: إِذَا سَفه عَلَيْهِمُ الْجُهَّالُ بِالسَّيِّئِ، لَمْ يُقَابِلُوهُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ، بَلْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ، وَلَا يَقُولُونَ إِلَّا خَيْرًا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا. (٢)

❁ وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حُلَمَاءُ لَا يَجْهَلُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنْ جُهِلَ عَلَيْهِمْ حَلِمُوا يُصَاحِبُونَ عِبَادَ اللَّهِ نَهَارَهُمْ مِمَّا تَسْمَعُونَ ثُمَّ ذَكَرَ لَيْلَهُمْ خَيْرَ لَيْلٍ. (٣)

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ الفرقان [٧٢].

❁ قَالَ مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِذَا أُوذُوا صَفَحُوا. (٤)

---

(١) "تفسير السمعاني" لآية ٤٦ من مريم، و"تفسير البغوي".

(٢) "تفسير ابن كثير" للآية (رقم:٦٣)، من الفرقان.

(٣) صحيح، أخرجه ابن جرير في "تفسيره"(١٩/ ٢٩٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره للآية"، والبيهقي في "الشعب" (٨٠٩٤)، بسند حسن، وكيع في "الزهد" (٤١٧)، وهناد بن السري في "الزهد" (١٢٩١)، وأحمد في "الزهد" (١٥٨٢)، ومن طريقه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (٢/ ٥٣)، من طرق صحيحة بمجموعها.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في "مداراة الناس" (٢٥)، والبيهقي في "الشعب" (٧٧٣٤)، من طريق ابن المبارك قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ الفرقان [٧٢]، قَالَ: إِذَا أُوذُوا صَفَحُوا.

بِهَذَا وَصَفَ اللَّهُ عِبَادَ الرَّحْمَنِ بِالصَّفْحِ، بِالْعَفْوِ، بِالصَّبْرِ، بِالتَّحَمُّلِ، وَعَدَمِ مُقَابَلَةِ الْأَذِيَّةِ بِأَذِيَّةٍ، بَلْ يُقَابِلُونَ ذَلِكَ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ.

❁ وَكَمَا قِيلَ:

يُخَاطِبُنِي السَّفِيهُ بِكُلِّ قُبْحٍ ... فَأَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ مُجِيبَا
يَزِيدُ سَفَاهَةً فَأَزِيدُ حِلْمًا ... كَعُودٍ زَادَهُ الْإِحْرَاقُ طِيبَا[1]

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ الحجر [٨٥]. وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ الزخرف [٨٩].

❁ قَالَ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره": أَيْ: لَا تُجَاوِبْهُمْ بِمِثْلِ مَا يُخَاطِبُونَكَ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، وَلَكِنْ تَأَلَّفْهُمْ وَاصْفَحْ عَنْهُمْ فِعْلًا وَقَوْلًا. ا. هـ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ». [2]

❁ قَالَ الهروي في "المرقاة" (٧/٣٠٨٧): (وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ)، أَيْ: بِالْجَوْرِ وَالْجَفَاءِ.

(وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ) أَيْ: بِالْعَفْوِ وَالتَّحَمُّلِ. (وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ) أَيْ: بِالسَّبِّ وَالْغَضَبِ...

❁ كَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي ... وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا
إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لُحُومَهُمْ ... وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ ... وَإِنْ هُمْ هَوَوا غَيِّي هَوِيتُ لَهُمْ رُشْدَا

وابن جريج ثقة مدلس، قال ابن معين: ثقة في كل ما روى عنه من الكتاب. "تهذيب التهذيب" (٦/ ٤٠٤).

(١) "ديوان الشافعي"، ويُعزى للنَّوَاجِيّ.

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٨).

❁ وَقَالَ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالْجَهْلُ هُنَا: الْقَبِيحُ مِنَ الْقَوْلِ وَمَعْنَاهُ: كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الْحَارَّ، وَهُوَ تَشْبِيهٌ لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْأَلَمِ بِمَا يَلْحَقُ آكِلَ الرَّمَادَ الْحَارَّ مِنَ الْأَلَمِ وَلَا شيء عَلَى هَذَا الْمُحْسِنِ، بَلْ يَنَالُهُمُ الْإِثْمُ الْعَظِيمُ فِي قَطِيعَتِهِ وَإِدْخَالِهِمُ الْأَذَى عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ تُخْزِيهِمْ وَتُحَقِّرُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ؛ لِكَثْرَةِ إِحْسَانِكَ وَقَبِيحِ فِعْلِهِمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْحَقَارَةِ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَمَنْ يُسَفُّ الْمَلَّ.

وَقِيلَ: ذَلِكَ الَّذِي يَأْكُلُونَهُ مِنْ إِحْسَانِكَ كَالْمَلِّ يُحَرِّقُ أَحْشَاءَهُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (١)

❁ فقولُهُ:

وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيكَ فَقُلْ سَلَامٌ ... لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا

أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَلَا تَلْتَفِتْ، وَلَا تُشْغِلْ نَفْسَكَ بِهِمْ أَبَدًا، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوا فَضْلَكَ وَلَا قَدْرَكَ، بَلْ أَسَاءُوا إِلَيْكَ، فَقُلْ سَلَامٌ. مُتاركة، مُسَالَمَةٌ، أَظْهِرْ الصفح الْجَمِيلَ، أَيْ: وَمَعَ هَذَا قَدْ تَسْلَمُ وَقَدْ لَا تَسْلَمُ مِنْ شَرِّهِمْ، وَمِنْ كَلَامِهِمْ.

❁ قَالَ عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ
سَكَتُّ عَنْ السَّفِيهِ فَظَنَّ أَنِّي ... عَيِيتُ عَنْ الْجَوَابِ وَمَا عَيِيتُ (٢)

❁ ونسبت للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما في ديوانه البيت الأولى، والثانية هي:

فَإِنْ كَلَّمْتَه فرجتَ عَنْه ... وَإِنْ خَلَّيْتَه كَمَداً يَمُوتُ

---

(١) "شرح النووي" على مسلم (١٦/ ١١٥).

(٢) "أدب الدنيا والدين" (صـ:٢٥٣)، ونسبت لسالم بن ميمون الخواص "روضة العقلاء" (صـ:١٤٠). والبيت الأول نسب لمُؤَمَّل الشَّاعِر، كما في "الحلم" (٢٤)، لابن أبي الدنيا، ومن طريقه البيهقي في "الشعب" (٨١٧٦).

البيت رقم١٠٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ فِي زَمَانٍ ... تَنَالُ الْعِصْمَ إِلَّا إِنْ عُصِمْتَا

شرح البيت رقم ١٠٤

"وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ فِي زَمَانٍ"، مِنْ أَيْنَ لَكَ السَّلَامَةُ؟ كَيْفَ لَكَ السَّلَامَةُ؟ كَيْفَ تَسْلَمُ فِي هَذَا الزَّمَانِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَهَذَا فِي زَمَنِهِمْ وَفِي زَمَنِنَا أَعْظَمُ وَأَشَدُّ. كَيْفَ تَسْلَمُ؟ كَيْفَ تَسْتَطِيعُ النَّجَاةَ وَالْخَلَاصَ؟ إِلَّا أَنْ يَعْصِمَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ آفَاتِ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، مِنْ آفَاتِ أَهْلِ الزَّمَانِ.

"تَنَالُ الْعِصْمَ[1]"، **أي:** الْعِصْمَةَ وَالسَّلَامَةَ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْجَهَالَةِ، إِلَّا إِنْ عُصِمْتَ. أَيْ: كَيْفَ تَسْلَمُ وَتُعْصَمُ مِنْ شَرِّهِمْ.

"إِلَّا إِنْ عُصِمْتَا"، أَيْ: إِلَّا أَنْ يَعْصِمَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

❁ قَالَ هارونُ الواثقُ باللهِ بن جعفر:

تَنَحَّ عَنِ الْقَبِيحِ وَلَا تُرِدْهُ ... وَمَنْ أَوْلَيْتَهُ حُسْنًا فَزِدْهُ

سَتُكْفَى مِنْ عَدُوِّكَ كُلَّ كَيْدٍ ... إِذَا كَادَ الْعَدُوُّ وَلَمْ تَكِدْهُ[2]

فَالْمُرَادُ، أَنَّهُ قَلَّ مَنْ يَسْلَمُ فِي أَزْمِنَةِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ وَالْفِتَنِ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَسَلَّمَهُ وَوَفَّقَهُ، فَأَخَذَ بِأَسْبَابِ السلامة، وَتَجَنَّبَ أَسْبَابَ الضَّلَالِ وَالْوُقُوعِ فِي الْغَوَايَةِ.

---

(١) وَفِي الْأَصْلِ: (الْعُصْمُ) بِالضَّمِّ، وَالْمُثْبَتُ مِنْ طَبْعَةِ الشَّمْرَانِيِّ، وَعَلَّقَ فِي الْهَامِشِ بِقَوْلِهِ: (الْعُصْمُ) بِالضَّمِّ جَمْعُ أَعْصَمَ، وَهُوَ مِنَ الظِّبَاءِ وَالْوُعُولِ، مَا فِي ذِرَاعَيْهِ أَوْ إِحْدَاهُمَا بَيَاضٌ، وسائره سَوْدُ أَوْ أَحْمَرُ وَأَرَادَ مُطْلَقَ الْوُعُودِ لِأَنَّهَا تَسْكُنُ الْجِبَالَ. كما في حاشية التائية الناشر لها أبو محمد النجدي. وينظر/ "لسان العرب" (١٢/٤٠٦).

(٢) أخرجه الخطيب في " تاريخ بغداد" (١٦/٢٢)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٧٣/٣٢٦)، وابن الجوزي في "المنتظم" (١١/١٢١).

عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ايْمُ اللَّهِ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا» (١) فَوَاعَجَبًا لَهُ كيفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَصْبِرَ فِي خِضَمِّ الْفِتَنِ وَسَلِمَ مِنْهَا وَمِنْ شَرِّهَا.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ». (٢)

فِي الْحَقِيقَةِ الْمُبْعِدَاتُ كَثِيرَةٌ، وَالصَّوَارِفُ عَنِ الْخَيْرِ كَثِيرَةٌ جِدًّا. فَتَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ، وَفِي بَعْضِ الْقُرَى، مُتَمَسِّكًا بِدِينِهِ كَمَا يُقَالُ بِالْقُوَّةِ، كُلَّمَا كَادَ أَنْ يَسْقُطَ يُمَاسِكُ نَفْسَهُ، بِسَبَبِ كَثْرَةِ الشَّرِّ وَالْفِتَنِ وَالْفَسَادِ.

❁ وكما قَالَ الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهذَا زَمَانُ الصَّبْرِ مَنْ لَكَ بِالَّتِي ... كَقَبْضٍ عَلَى جَمْرٍ فَتَنْجُو مِنَ الْبلَا

❁ وكما قال ابن الوردي في لاميته:

ليس يَخلُو المرءُ مِن ضِدٍّ وَلَوْ ... حاوَلَ العُزْلةَ فِي رأس جَبَلْ

وفي حديث العرباض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ». (٣)

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٦٣)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيحة" (٩٧٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٢٦٠)، وابن بطة في "الإبانة" (٣١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيحة" (٩٥٧).

(٣) رواه أحمد (١٧١٤٢)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، (٤٣)، وحسنه الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" (٩٢١).

البيت رقم١٠٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلاَ تـلْـبَـثْ بِـحَـيٍّ فِـيـهِ ضَـــيْـمٌ ... يُـمِـيـتُ الْـقَـلْـبَ إِلَّا إِنْ كُـبِـلْـتَـا

شرح البيت رقم ١٠٥

"**وَلاَ تلْبَثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ**"، أَيْ: لَا تَمْكُثْ بِحَيٍّ، بِمَكَانٍ، بِقَرْيَةٍ، فِيهَا ظُلْمٌ.

"**ضَيْمٌ**"، قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: الضَّادُ وَالْيَاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ كَالْقَهْرِ وَالِاضْطِهَادِ. يُقَالُ: ضَامَهُ يَضِيمُهُ ضَيْمًا. فَهُوَ اسْمٌ وَمَصْدَرٌ. وَالرَّجُلُ الْمَضِيمُ: الْمَظْلُومُ.(١)

ومنه حديث «لَا تَضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِه».(٢) يُروى بالتَّشديد وَالتَّخْفِيفِ، فَالتَّشْدِيدُ مَعْنَاهُ: لَا يَنْضَمّ بَعضُكم إِلَى بَعْض وتَزْدَحِمون وقتَ النَّظَر إِلَيْهِ، ويجوزُ ضمُّ التاءِ وَفَتْحُهَا عَلَى تُفَاعِلون، وتَتَفاعلون. وَمَعْنَى التَّخْفِيفِ: لَا يَنَالُكم ضَيمٌ فِي رُؤْيتِه، فَيرَاه بعضُكم دُونَ بعضٍ، والضَّيْمُ: الظُّلْم.(٣)

❁ وقال ابن الأنباري: أي: لا يَقَعُ لك في الرُّؤْيَةِ ضَيْمٌ، وهو الذُّلُّ والصِّغارُ.(٤)

لا تَمْكُثْ في بَلَدٍ أو قَرْيَةٍ فيها ضَيْمٌ، تكونُ فيها مَقْهورًا مُضَيَّقًا عليك، فيها ما يُؤْذيك، فلا تَمْكُثْ في هذا البَلَدِ، وإنَّما اخْرُجْ منه.

❁ قَالَ ابنُ الوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

دارِ جِـارَ الســوْءِ بـالصَّــبرِ فـإِن ... لم تَجِـدْ صــبْرًا فـما أحـلى الـنُّـقَـلْ

---

(١) "مقاييس اللغة" (٣/ ٣٨٣).

(٢) رواه البخاري (٥٥٤)، (٤٨٥١)، (٧٤٣٤)، (٧٤٣٦)، ومسلم (٦٣٣)، عن جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) "النهاية" (٣/ ١٠١).

(٤) "تفسير غريب ما في الصحيحين" (صـ: ٢٣١)، لمحمد بن فتوح الحميدي.

جانِبِ السُّلْطَان واحْذَرْ بَطْشَهُ ... لاَ تُعَانِدْ مَنْ إِذا قالَ فَعلْ

الجارُ المُؤْذِي يُدَارى بالصبرِ، فإنْ لم تَجِدْ صَبْرًا فما أحْلَى النَّقْلَ. ولذلك يُقالُ: الجارُ قبلَ الدَّارِ، ويُقال: الرَّفِيقُ قبلَ الطَّرِيقِ.

يَلُومُونَنِي إِنْ بِعْتُ بِالرُّخْصِ مَنْزِلِي ... وَلَمْ يَعْلَمُوا جَارًا هُنَاكَ يُنَغَّصُ

فَقُلْتُ لَهُمْ كُفُّوا الْمَلامَ فَإِنَّمَا ... بِجِيرَانِهَا تَغْلُوا الدِّيَارُ وَتَرْخُصُ

❁ وَقَالَ آخَرُ:

اطْلُبْ لِنَفْسِكَ جِيرَانًا تُجَاوِرُهُمْ ... لَا تَصْلُحُ الدَّارُ حَتَّى يَصْلُحَ الْجَارُ

❁ وَقَالَ آخر:

يَقُولُونَ قَبْلَ الدَّارِ جَارٌ مُوَافِقٌ ... وَقَبْلَ الطَّرِيقِ النَّهْجِ أُنْسُ رَفِيقِ

"يُمِيتُ الْقَلْبَ إِلَّا إِنْ كُبِلْتَا"، أي: مُنِعْتَ وقُيِّدْتَ، التكْبِيلُ التَّقْيِيدُ والمَنْعُ والحَبْس.

أي لا تَمْكُثْ في هذا البَلَدِ إلا إذا قُيِّدْتَ وحُبِسْتَ ومُنِعْتَ، وإلا فلا تَمْكُثْ.

❁ قَالَ أحمد بنُ فارس: الْكَافُ وَالْبَاء واللَّامُ، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى حَبْسٍ وَمَنْعٍ. مِنْ ذَلِكَ الْكَبْلُ: الْقَيْدُ الضَّخْمُ. (١)

ولذلك شُرِعَتِ الهِجْرَةُ من بَلَدِ الشِّرْكِ إلى بَلَدِ الإسلامِ، من بَلَدِ البِدْعَةِ إلى بَلَدِ السُّنَّةِ، من بَلَدِ المَعاصِي والمُنْكَرَاتِ إلى بَلَدِ الطَّاعَاتِ والعِباداتِ. وأنْ يَهْجُرَ الإنسانُ أماكِنَ الشَّرِّ والفَسادِ.

(١) "مقاييس اللغة"(٥/١٥٥).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ النساء [١٠٠].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ العنكبوت [٥٦].

يَضِيقُ عليك في بَلَدٍ لم تَتَمَكَّنْ من إقامَةِ الدِّينِ، فأرْضُ اللهِ واسِعَةٌ. إلا المَعْذُورَ المُكَبَّلَ المُقَيَّدَ المَمْنُوعَ المَحْبُوسَ المُسْتَضْعَفَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ النساء [٩٧-٩٩].

فالإنسانُ إذا كان مَظْلُوما مَقْهورا في بلده لا يَتَمَكَّنُ من الخَيْرِ والعلم، يَخْرُجُ من هذا البَلَدِ ويَخْرُجُ من قَرْيَتِهِ، رُبَّما يُجالِسُ الأَصْحابَ والزُّمَلاءَ والأَصْدِقاءَ فيُبْعِدُونَهُ رُبَّما عن الخَيْرِ

فاخْرُجْ من هذه القَرْيَةِ إذا كنتَ في قَرْيَتِكَ مَظْلُومًا مُضْطَهَدًا مَقْهورًا، لا تَتَمَكَّنُ من إقامَةِ الدِّينِ، ولا تَتَمَكَّنْ من طَلَبِ العِلْمِ في قَرْيَتِكَ.

البيت رقم١٠٦

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَغَرِّبْ فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ ... وَشَرِّقْ إِنْ بِرِيقِكَ قَدْ شَرِقْتَا

شرح البيت رقم ١٠٦

"وَغَرِّبْ فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ"، اخْرُجْ من هذا البلد الذي تُقهرُ فيه، وتُذلُ، ولا تُقِيْمُ فِيْهِ.

❁ قَالَ الْمُتَلَمِّسُ:

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُسَامُ بِهِ ... إِلَّا الْأَذَلَّانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتِدُ
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَرْثِي لَهُ أَحَدُ[1]

❁ قَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ارْحَلْ بِنَفْسِكَ مِنْ أَرْضٍ تُضَامُ بِهَا ... وَلَا تَكُنْ مِنْ فِرَاقِ الْأَهْلِ فِي حُرَقِ
فَالعَنبَرُ الخَامُ رَوْثٌ فِي مَوَاطِنِهِ ... وَفِي التغرُّبِ مَحْمُولٌ عَلَى العُنُقِ
وَالكحْلُ نوْعٌ مِنَ الأَحْجَارِ تنظرُهُ ... فِي أَرضِهِ وَهْوَ مَرْمِيٌّ عَلَى الطرُقِ
لَمَّا تغرَّبَ حَازَ الفضْلَ أَجْمَعَهُ ... فصَارَ يُحْمَلُ بَيْنَ الجَفنِ و الحَدَقِ[2]

العنبرُ في مكانه أشبه بالروث، وإذا فارق موطنه فإنه يُحملُ، ويكونُ له قيمة، ومِثْلُهُ الْكُحْلُ فِي مَكَانِهِ مِنَ الْأَحْجَارِ المَرْمِيَّة، فَإِذَا خَرَجَ وَفَارَقَ الْمَوْطِنَ الَّذِي هُوَ فِيهِ، يُحْمَلُ عَلَى الْعُيُونِ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْحَدَقِ. فَأَنْتَ فِي قَرْيَتِكَ رُبَّمَا لَا تَتَمَكَّنُ مِنَ الْخَيْرِ وَلَيسَ لَكَ كَبِيرُ مِقْدَارٍ، لَكِنْ اخْرُجْ مِنْ قَرْيَتِكَ سَتَجِدُ خيراً.

---

(١) "أدب الدنيا والدين" (صـ:٢١٤)، ويذكرونه في الأمثال "جمهرة الأمثال" (١/ ٩٠)

(٢) "ديوان الشافعي".

❁ قَالَ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَرْبَعَةٌ لَا يُؤْنَسُ مِنْهُمْ رُشْدًا: حَارِسُ الدَّرْبِ وَمُنَادِي الْقَاضِي، وَابْنُ الْمُحَدِّثِ، وَرَجُلٌ يَكْتُبُ فِي بَلَدِهِ وَلَا يَرْحَلُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ. (١)

هَذَا الْكَلَامُ لَا يَعْنِي أَنَّهُ عَلَى إِطْلَاقِهِ. كَمْ هُنَاكَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُحَدِّثِينَ صَارُوا مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ؟ كَمْ تَعَدَّدَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُحَدِّثِينَ مَنْ صَارُوا مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ؟ يُوجَدُ فِيهِمْ مَنْ يَصِيرُ عَالِمًا مُحَدِّثًا إِمَامًا جَلِيلًا، هُوَ إِمَامٌ وَأَبُوهُ إِمَامٌ وَجَدُّهُ ربما إِمَامٌ. بل قد يُقَالُ: الْبَيْتُ بَيْتُ فِقْهٍ وَعِلْمٍ وَحَدِيثٍ.

"**وَغَرِّبْ فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ**"، اخْرُجْ مِنْ بلدك إِذَا لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْخَيْرِ، لَا سِيَّمَا فِي أماكن الْقَاتِ، أو غيرها من الأماكن، اخْرُجْ مِنْ أَوْسَاطِ بِيئَتِكَ. لَا تَكُنْ مُلَازِمًا لِلْوِدْيان كَمُلَازَمَةِ الْمَلْبَسِ لِجَسَدِكَ كحالِ البعض، فِي النَّهَارِ مَعَ الْقَاتِ، وَفِي اللَّيْلِ مَعَ الْقَاتِ، يُغَيِّرُ أَفْكَارَهُمْ وَيُغَيِّرُ رُبَّمَا مواقفهم.

وَبَعْضُهُمْ يَدَّعِي بِأَنَّهُ إِذَا خَزَّنَ يَحْفَظُ أَكْثَرَ، يَفْهَمُ أَكْثَرَ وهذا من تلبيس الشيطان.

وَتَجِدُ بَعْضَ الْمُخَزِّنِينَ لَا يَحْفَظُ، وَلَا يَفْهَمُ، لَا هُوَ مِنْ أَهْلِ الْحِفْظِ، وَلَا هُوَ مِنْ أَهْلِ الْفَهْمِ، إِنَّمَا يُضَيِّعُ وَقْتَهُ، فاجْتَنِب الْقَات وَأَهْلَ الْقَاتِ.

---

(١) ضعيف، أخرجه الخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" (١٦٨٥)، قال: أَخْبَرَنِي أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْمَرْوَرُّوذِيُّ نا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، بِنَيْسَابُورَ حَدَّثَنِي أَبُو عُمَرَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الْقُرَشِيُّ، نا أَبِي، نا جَعْفَرٌ الطَّيَالِسِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ، فذكره، وفيه شيخ الخطيب أبو بكر أحمد بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد المنكدري، قال عنه الخطيب: كان فاضلا أديباً شاعراً، "تاريخ بغداد" ت بشار (٦/ ٢١٥)، وعبدالواحد بن أحمد بن محمد، لا يعرف بجرح ولا تعديل، ووالده أحمد بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن، قَالَ الحاكم: لَهُ أفراد وعجائب يضعفه بذلك. "تاريخ الإسلام" ت بشار (٧/ ٢٧٩).

❁ (فَائِدَةٌ) مِمَّا نُقِلَ عَنْ الْإِمَامِ (مالك) أَنَّهُ أَوْصَى الشَّافِعِيَّ عِنْدَ فِرَاقِهِ لَهُ فَقَالَ لَهُ: **لَا تَسْكُنْ الرِّيفَ؛ يَذْهَبْ عِلْمُك**، وَاكْتَسِبْ الدِّرْهَمَ، لَا تَكُنْ عَالَةً عَلَى النَّاسِ. وَاتَّخِذْ لَك ذَا جَاهٍ ظَهْرًا؛ لِئَلَّا تَسْتَخِفَّ بِك الْعَامَّةُ. وَلَا تَدْخُلْ عَلَى ذِي سَلْطَنَةٍ إلَّا وَعِنْدَهُ مَنْ يَعْرِفُك. وَإِذَا جَلَسْتَ عِنْدَ كَبِيرٍ فَلْيَكُنْ بَيْنَك وَبَيْنَهُ فُسْحَةٌ؛ لِئَلَّا يَأْتِيَ إلَيْهِ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ مِنْك فَيُدْنِيَهُ وَيُبْعِدَك فَيَحْصُلَ فِي نَفْسِك شَيْءٌ. (١)

بَعْضُ النَّاسِ رُبَّمَا عَلَى سُنَّةٍ وَاسْتِقَامَةٍ، وَمَا تَجِدُهُ يَحْضُرُ فِي مَرَاكِزِ الْعِلْمِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ، وَتَجِدُ أماكن العلم بِجَانِبِهِ، وَهُوَ مُبْتَعِدٌ عَنْهَا وَمُنْشَغِلٌ، حَتَّى رُبَّمَا فِي الْمُحَاضَرَاتِ الْأُسْبُوعِيَّةِ لَا تَرَاهُ يُقْبِلُ عَلَيْهَا، أَوْ فِي بَعْضِ الدُّرُوسِ مَثَلًا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا الْعَامَّةُ. مَعَ إمْكَانِهِ، وَهَذَا مِنَ الْحِرْمَانِ، وَاللهِ.

احْرِصْ أَخِي عَلَى الْخَيْرِ، وَاجْتَهِدْ فِيهِ. وَالْأَيَّامُ تَتَغَيَّرُ وَالْأَوْضَاعُ تَتَقَلَّبُ، لَعَلَّكَ تَسْمَعُ فَائِدَةً تَنْتَفِعُ بِهَا، وَتَبْتَعِدُ عَنْ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ. اخْرُجْ مِنْ قَرْيَتِكَ، أَقْبِلْ عَلَى الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ، وَاحْضُرْ الدُّرُوسَ الْعَامَّةَ. إنْ عَجَزْتَ عَنِ الدُّرُوسِ الخاصة.

فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ ونفعٌ مع تحري الأماكن الطيبة القائمة على الخير والعلم.

ما في المَقام لِذي عَقلٍ وَذي أَدَبٍ ... مِن راحَةٍ فَدَعِ الأَوطانَ وَاغتَرِبِ

سافِر تَجِد عِوَضاً عَمَّن تُفارِقُهُ ... وَانصَبْ فَإِنَّ لَذيذَ العَيشِ في النَصَبِ

إِنّي رَأَيتُ وُقوفَ الماءِ يُفسِدُهُ ... إِن ساحَ طابَ وَإِن لَم يَجرِ لَم يَطِبِ

وَالأُسدُ لَولا فِراقُ الأَرضِ ما افتَرَسَت ... وَالسَهمُ لَولا فِراقُ القَوسِ لَم يُصِبِ

وَالشَمسُ لَو وَقَفَت في الفُلكِ دائِمَةً ... لَمَلَّها الناسُ مِن عُجمٍ وَمِن عَرَبِ

وَالتِبرُ كَالتُربِ مُلقىً في أَماكِنِهِ ... وَالعودُ في أَرضِهِ نَوعٌ مِنَ الحَطَبِ

(١) "شرح مختصر خليل" للخرشي (١/ ٣٥).

فَإِن تَغَرَّبَ هَذا عَزَّ مَطلَبُهُ وَإِن تَغَرَّبَ ذاكَ عَزَّ كَالذَهَبِ[١]

لَوْ خَرَجْتَ مِنْ دِيَارِكَ مِنْ قَرْيَتِكَ لَوَجَدْتَ خَيْرًا أَمَّا أَنْ تَبْقَى فِيهَا خَامِلًا سَاكِنًا تُصَابُ بِالضعْفِ، وَتَتَأَثَّرُ بِأَقْرَانِكَ إِلَّا أَذَا كُنْتَ مِمَّنْ يُقِيمُ الدِينَ، ويَدْعُو إِلَى اللَّهِ فَهَذَا فِيهِ خَيْرٌ.

❁ وَقَالَ ابْنُ الْوَرْدِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حُبُّكَ الأوطانَ عجزٌ ظاهِرٌ فاغْتَرِبْ تَلْقَ عَنِ الأَهْلِ بَدَلْ
فَبِمُكْثِ الماءِ يبقى آسِنًا وسُرَى البدْرِ بِهِ البدرُ اكْتَمَلْ

❁ وَمِمَّا يُعْزَى إِلَى الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تَغَرَّبْ عَنْ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَا وَسَافِرْ فَفِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
إِزَالَةُ هَمٍّ وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَةُ مَاجِدِ
فَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ ذُلٌّ وَمِهْنَةٌ وَقَطْعُ الْفَيَافِي وَارْتِكَابُ الشَّدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ بِدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ

إِذَا كُنْتَ فِي بَلَدِكَ مُضِيقٌ عَلَيْكَ تَخْشَى عَلَى نَفْسِكَ وَدِينِكَ فَكَمَا قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ فِي البيت (٥٦): "وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا" وَلَوْ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ بَلَدِكَ.

❁ وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ مُجِيبًا لِلشَّافِعِيِّ: [٢]

تَخَلَّفَ عَنِ الْأَسْفَارِ إِنْ كُنْتَ طَالِبًا نجاة فَفِي الْأَسْفَارِ سَبْعُ عَوَائِقِ
تَنَكُّرُ أَخْوَانٌ وَفَقْدَ أَحْبَةٌ وَتَشَتُّتُ أَمْوَالٌ وَخَيْفَةُ سَارِقِ
وَكَثْرَةُ أَيْحَاشٍ وَقِلَّةُ مَؤْنَسٍ وَأَعْظَمُهَا يَا صَاحِ سُكْنَى الْفَنَادِقِ
فَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ كَسْبُ مَعِيشَةٍ وَعِلْم وَآدَابٍ وَصُحْبَةِ فَائِقِ

---

(١) "ديوان الشافعي"

(٢) تُنْسَبُ لِلْقَاضِي الطَّرْطُوشِيِّ

فَقُلْ ذَاكَ دَهْرٌ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَاعْقَبَهُ دَهْرٌ كَثِيرُ الْعُوَائِقِ
وَهَذَا مَقَالِي وَالسَّلَامُ مُؤَبَّدٌ وَجَرِبْ فَفِي التَّجْرِيبِ عِلْمُ الْحَقَائِقِ

وَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى الْأَطْلَاقِ، لَكِنْ مِنْ تَمَكَّنَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَرَحَلَ إليه وَحَرَصَ عَلَيْهِ فَفِي ذَلِكَ خَيْرٌ عظيم، وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فَمِنْهُمْ مَنْ يَرْحَلُ مِنْ بِلَدِهِ وَيُصَاحِبُ الْأَخْيَارَ يُرْزَقُ صَحْبَةَ الْأَخْيَارِ وَتَتَيَسَّرَ عَلَيْهِ أُمُورُ الْمَعَاشِ وَمِنْهُمْ بِالْضِّدِ مِنْ ذَلِكَ

❁ وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

وَإِذَا الْبِلَادُ تَغَيَّرَتْ عَنْ حَالِهَا فَدَعِ المقام وَبَادِرِ التَّحْوِيلَا
لَيْسَ الْمُقَامُ عَلَيْكَ فَرْضًا وَاجِبًا فِي بَلْدَةٍ تَدَعُّ الْعَزِيزَ ذَلِيلَا

❁ قَوْلُهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ:

وَغَرِّبْ فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ وَشَرِّقْ إِنْ بِرِيقِكَ قَدْ شَرِقْتَا

فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ أَيْ: عليك بالغربة حتى وإِنْ اتَّجَهْتَ جَهَةَ الْغَرْبِ.

"**وَشَرِّقْ**"، أَيْ: اتَّجِهْ جَهَةَ الشَّرْقِ، بِمَعْنَى اخرجْ مِنْ بلَدِكَ وَلَوْ أَنَّ تَذْهَبُ إِلَى الشَّرْقِ أَوِ الْغَرْبِ.

"**إِنْ بِرِيقِكَ قَدْ شَرِقْتَا**"، أَيْ: بِلْعَابِكَ، شَرِقَتْ بِهِ يُقَالُ شَرِقَ فلانٌ بريقه، وَكَذَلِكَ غَصَّ بِرِيقِهِ، أَيْ: غَصَّةٌ والشَّرَقُ بِالْمَاءِ كَالْغَصِ بالطَّعَامِ، وَهُوَ أَنْ يَقَعَ فِي غَيْرِ مَسَاغِهِ، يُقَالُ: أَخَذْتُهُ شَرْقَهُ فَكَادَ يَمُوتُ. وشَرِقَ شَرَقاً إذا اشتدت حمرته بدمٍ أو بحسن لون أحمر. (١)

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي

وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ "**فَالْغَرِيبُ لَهُ نَفَاقٌ**" أَيْ يَنْفُقُ فِي غَيْرِ بلَدِهِ.

---

(١) "العين" (٥/ ٣٨).

❁ وَإِنْ كانت البلدة محبوبة إلى النفوس كما قَالَ بَعْضُهُمْ:

بِـلاَدِي وإِنْ جَـارَتْ عَـلَيَّ عَـزِيـزَةٌ وَأَهْـلِي وَإِنْ ضَـنُّـوا عَـلَيَّ كِـرَامُ

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ». (١)

وَقَالَ آخر:

وَإِذا رَأَيـتَ الـرِزقَ ضـاقَ بِبَلـدَةٍ وَخَشـيتَ فيها أَن يَضـيقَ المَكسَـبُ
فَارحَل فَأَرضُ اللَهِ واسِـعَةُ الفَضـا طُولاً وَعَرضـاً شَرقُها وَالمَغرِبُ

❁ وَقال آخر:

بِـلادُ اللهِ واسِـعَـةٌ فَضـاهـا وَرِزْقُ اللهِ فِي الـدُنـيـا فَسِـيـحُ
فَـقُـلْ لِّـلـقـاعِـدِيـنَ عَـلى هَـوانٍ إذا ضـاقَـتْ بكُمْ أرْضٌ فَسِـيحُوا

❁ وقال الثعالبي: مِنْ فَضَائِلِ السَّفَرِ أَنَّ صَاحِبَهُ يَرَى مِنْ عَجَائِبِ الأَمْصَارِ وَمِنْ بَدَائِعِ الأَقْطَارِ وَمَحَاسِنِ الآثَارِ مَا يَزِيدُهُ عِلْمًا بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى.

وقال المأمون: لا شيء ألذّ من السفر في كفاية؛ لأنك كل يوم تحل محلة لم تحلها، وتعاشر قومًا لم تعاشرهم.

❁ وقال عنترة: السفر يشدُّ الأبدان، وينشط الكسلان، ويشهي الطعام. (٢)

وفي أثناءِ السفر قد يجد التعب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ، فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ». (٣)

---

(١) رواه الترمذي (٣٩٢٦)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "مشكاة المصابيح" (٢٧٢٤).

(٢) كما في "الغرر السافر فيما يحتاج إليه المسافر" (صـ: ٧)، للزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) رواه البخاري (١٨٠٤)، (٣٠٠١)، (٥٤٢٩)، ومسلم (١٩٢٧).

البيت رقم١٠٧

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا ... لأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهِدْتَا

شرح البيت رقم ١٠٧

❁ قَالَ الخَلِيلُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخامِلُ: الخَفِيُّ، وخَمَلَ يخمُلُ خُمُولاً، وقَوْلٌ خَامِلٌ: خفيٌّ. ويقال: هو خامِل الذِّكرِ والأَمْر أي: لا يُعْرَف.(١)

❁ وقال ابنُ منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخامِل: الخَفِيُّ السَّاقِطُ الَّذِي لَا نَباهة لَهُ. يُقَالُ: هُوَ خَامِل الذِّكْرِ والصوتِ.(٢)

❁ وَقَالَ ابن فَارِسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْخَاءُ وَالْمِيمُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى انْخِفَاضٍ وَاسْتِرْسَالٍ وَسُقُوطٍ. يُقَالُ خَمَلَ ذِكْرُهُ يَخْمُلُ خُمُولًا. وَالْخَامِلُ: الْخَفِيُّ ؛ يُقَالُ: هُوَ خَامِلُ الذِّكْرِ ؛ وَالْأَمْرُ الَّذِي لَا يُعْرَفُ وَلَا يُذْكَرُ. وَالْقَوْلُ الْخَامِلُ: الْخَفِيضُ.(٣)

"فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا"، لَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا منقصة وَلَا مَذْمَةٍ وَلَا ضَعْفٍ وَلَا سُقُوطٍ، وَالزُّهْدُ: تَرْكُ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الآخِرَةِ، وَالمَذْمُومُ مِنَ الخُمُولِ مَا كَانَ ضَعْفًا فِي الدِّينِ وَالعِلْمِ، وَمَا كَانَ أَشْبَهَ بِالْكَسَلِ وَالْفُتُورِ عَنِ الْخَيْرِ.

❁ وَكَمَا قِيلَ:

قصِّـــر الآمالَ في الدُّنيا تَفُزْ ... فَدليلُ العَقْلِ تَقْصيرُ الأملْ

---

(١) "العين" (٤/ ٢٧٣).

(٢) "لسان العرب" (١١/ ٢٢١).

(٣) "مقاييس اللغة" (٢/ ٢٢٠).

تَقْصِيرُ الأَمْلِ دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ الْعَقْلِ أَنْ يُقَصِّرَ الْإِنْسَانُ أَمَلَهُ وَلَا يَبْنِيَ عَلَى الأَمْلِ الْبِنَايَاتِ وَالأَمَانِيِّ الْوَاسِعَةِ الْبَعِيدَةِ، يَكْسَلُ عَنِ الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ فَقَدْ يُحْرَمُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ بِحِجَةِ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالدُّنْيَا عَلَى الْعِلْمِ فَتَفُوتُهُ الدُّنْيَا وَيَفُوتُهُ الْعِلْمُ، وَقَدْ جَاءَ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ». (١) وَبَعْضُهُمْ يَظُنُّ أَنَّ الزُّهْدَ أَلَّا يَحْمِلَ الْمَالَ فِي يَدِهِ، أَوْ أَنْ يَذُمَّ الدُّنْيَا فَقَطْ، وَقَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا فِي قَلْبِهِ، لَيْسَ هَذَا هُوَ الزُّهْد.

يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْتَزِعَ مَحَبَّةَ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِكَ أَوَّلًا، إِنْ كَانَتْ قَدْ دَخَلَتِ الْقَلْبَ.

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَلَيْسَ الزُّهْدُ أَنْ تَتْرُكَ الدُّنْيَا مِنْ يَدِكَ وَهِيَ فِي قَلْبِكَ، وَإِنَّمَا الزُّهْدُ أَنْ تَتْرُكَهَا مِنْ قَلْبِكَ وَهِيَ فِي يَدِكَ، وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل مع أن خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولا يزيده ذلك إلا زهداً فيها. (٢)

أَي: حَتَّى وَلَوْ كَانَ عِنْدَكَ مَالٌ، لا يُنَافِي الزهد، لَا تُضَيِّعُ الدِّينَ مِنْ أَجْلِهِ، وإنما تُنْفِقُ مِنْهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، تَفْعَلُ الْخَيْرَ بِهَذَا الْمَالِ. أَمَّا أَنْ تَكُونَ شَحِيحًا حَرِيصًا عَلَى الْمَالِ، كَانَ لَدَيْكَ مَالٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ، فَمَحَبَّةُ الْمَالِ فِي قَلْبِكَ مُتَأَصِّلَةٌ، هَذَا لَيْسَ بِزُهْدٍ. قَالَ: وَإِنَّمَا الزُّهْدُ أَنْ تَتْرُكَهَا مِنْ قَلْبِكَ وَهِيَ فِي يَدِكَ، أي: حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ فِي يَدِكَ.

---

(١) ابن ماجه (٤١٠٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، في "الصحيحة" (٩٤٤).

(٢) "طريق الهجرتين" (صـ:٢٥٢).

وَالزُّهْد، قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا، وقَدْ يَكُونُ مُسْتَحَبًّا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وانظر: كلام ابن القيم في "طريق الهجرتين" (صـ: ٢٥٠ وما بعده).

❁ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل"، وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم وهو معرفة مفاتيح الخير والشر لا يوفق لمعرفته ومراعاته إلا من عظم حظه وتوفيقه فإن الله سبحانه وتعالى جعل لكل خير وشر مفتاحا.(١)

❁ وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمِفْتَاحُ الرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا.(٢) وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَسْرَعُ الْمَطَايَا إِلَى الْجَنَّةِ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا، وَأَسْرَعُ الْمَطَايَا إِلَى النَّارِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ.(٣)

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ طه [١٣١]. لَا تَلْتَفِتْ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا.

"**لأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهِدْتَا**"، تَكُونُ كَالْمُلُوكِ إِذَا زَهَدْتَ فِي الدُّنْيَا. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ».(٤)

❁ وَجَاءَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وَسَأَلَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: «أَلَكَ امْرَأَةٌ

---

(١) "حادي الأرواح" (صـ: ٦٩).

(٢) "حادي الأرواح" (صـ: ٦٨).

(٣) "روضة المحبين" (صـ: ٤٨١).

(٤) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

تَأْوِي إِلَيْهَا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَلَكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ»، قَالَ: فَإِنَّ لِي خَادِمًا، قَالَ: «فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ»، قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: وَجَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَأَنَا عِنْدَهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّا، وَاللهِ مَا نَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، لَا نَفَقَةٍ، وَلَا دَابَّةٍ، وَلَا مَتَاعٍ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا شِئْتُمْ، إِنْ شِئْتُمْ رَجَعْتُمْ إِلَيْنَا فَأَعْطَيْنَاكُمْ مَا يَسَّرَ اللهُ لَكُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَكَرْنَا أَمْرَكُمْ لِلسُّلْطَانِ، وَإِنْ شِئْتُمْ صَبَرْتُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا» قَالُوا: فَإِنَّا نَصْبِرُ، لَا نَسْأَلُ شَيْئًا. (١)

فأنت تكون بمقام الأمراء والملوك إذا كنت زاهداً في الدنيا مقتنعاً بما يسرَ اللهُ تعالى.

(١) رَوَاهُ مُسْلِم (٢٩٧٩).

البيت رقم١٠٨

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَـوْ فَـوْقَ الأَمِـيرِ تَـكُـونُ فِـيـهَـا سُـمُـوًّا وَارْتِـفَـاعًـا كُـنْـتَ أَنْـتَـا

شرح البيت رقم ١٠٨

إِذَا زَهَدْتَ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ تَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَلَمْ تَنْشَغِلْ بِهَا، سَتَكُونُ كَالْأَمِيرِ، بَلْ لَوْ كَانَ هُنَاكَ فَوْقَ الْأَمِيرِ فِي السُّمُوِّ وَالارْتِفَاعِ، لَكُنْتَ أَنْتَ.

العلمُ والعملُ، والزهدُ في الدنيا طريق الرفعة،

❁ وانظر على سبيل المثال إلى ابنِ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، كيف رفعه الله تعالى:

❁ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ» قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴾ النصر [١، ٢] حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ النصر [٣]. قَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ».(١)

❁ أَقْبَلَ على العلمِ فَأَقْبَلَ اللهُ بِقُلُوبِ الناسِ عَلَيْهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يَا فُلاَنُ هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ». فَقَالَ: واعجبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ،

---

(١) رواه البخاري (٤٢٩٤)، (٤٩٧٠).

أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ، وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَرَى؟ فَتَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ، وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي التُّرَابَ، فَيَخْرُجُ، فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ. فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ. قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَآنِي، وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ، فَقَالَ: «كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي». (١)

❁ **وهذا مولى من الموالي رفعهُ الله بالعلم**، عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ». (٢)

❁ **وَهذا ابنُ المبارك، كان جامعاً لكثيرٍ من خصالِ الخير، رفعه الله، بالعلم والعبادة.**

❁ قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ: مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِثْلُهُ، وَمَا أَعْلَمُ خَصْلَةً مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا وَقَدْ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي ابْنِ الْمُبَارَكِ، وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَصْحَابِي أَنَّهُمْ صَحِبُوهُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ، فَكَانَ يُطْعِمُهُمُ الْخَبِيصَ، وَهُوَ الدَّهْرَ صَائِمٌ.

❁ وَقَدِمَ مَرَّةً إِلَى الرَّقَّةِ، وَبِهَا هَارُونُ الرَّشِيدُ، فَلَمَّا دَخَلَهَا انْجَفَلَ النَّاسُ يُهْرَعُونَ إِلَى ابْنِ الْمُبَارَكِ، وَازْدَحَمَ النَّاسُ حَوْلَهُ، فَأَشْرَفَتْ أُمُّ وَلَدٍ لِلرَّشِيدِ مِنْ قَصْرٍ هُنَاكَ فَقَالَتْ: مَا لِلنَّاسِ؟ فَقِيلَ لَهَا: قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ عُلَمَاءِ خُرَاسَانَ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ. فَانْجَفَلَ

---

(١) رواه الدارمي في "مسند" (٥٩٠).

(٢) رواه مسلم (٨١٧).

النَّاسُ إِلَيْهِ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: هَذَا هُوَ الْمُلْكُ، لَا مُلْكَ هَارُونَ الرَّشِيدِ الذي يَجْمَعُ النَّاسَ عَلَيْهِ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ.(١)

❁ قَالَ بعضُهمْ:

إذا سار عبد الله من مرو ليلة ... فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأخيار من كلّ بلدة ... فهم أنجم فيها وأنت هلالها

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ المجادلة [١١].

فالعلمُ طريقُ الرفعةِ، وهو المُلك الحقيقي، والحياةُ الحقيقية، والسعادة،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة [٢٤٧].

❁ قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَرَدَّ اللهُ سُبْحَانَهُ قَولَهم، وَأَخْبَرَ سبحانهُ أنَّ الفضلَ ليسَ بالمالِ كَما تَوَهمُوهُ، وأَنَّ الفَضْلَ بالعلمِ لا بالمالِ.(٢)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ النحل [٩٧].

❁ قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَدْ فُسِّرَتِ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ بِالْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا، وَالرِّزْقِ الْحَسَنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالصَّوَابُ: أَنَّهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ وَنَعِيمُهُ، وَبَهْجَتُهُ وَسُرُورُهُ بِالْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةُ اللَّهِ،

---

(١) "البداية والنهاية" ط هجر (١٣/ ٦١٠).

(٢) "عدة الصابرين" (صـ: ١٨٣).

وَمَحَبَّتُهُ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا حَيَاةَ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةِ صَاحِبِهَا، وَلَا نَعِيمَ فَوْقَ نَعِيمِهِ إِلَّا نَعِيمَ الْجَنَّةِ. (١)

❁ قَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ: إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِي أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ. (٢)

❁ قالَ بعضُهمْ:

قسما بربك إن لذةَ طاعةٍ ... لَتَفُوقُ لذاتِ الحُطامِ الفاني
ما المالُ ما الأبناءُ ما جَاهٌ وما ... مُلكٌ وكأسٌ واحتضانُ غواني

❁ قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ بَشَّارٍ الصُّوفِيُّ: خَرَجْتُ أَنَا وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ، وَأَبُو يُوسُفَ الْغَسُولِيُّ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ السِّنْجَاوِيُّ نُرِيدُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ، فَمَرَرْنَا بِنَهْرٍ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْأُرْدُنِّ فَقَعَدْنَا نَسْتَرِيحُ، وَكَانَ مَعَ أَبِي يُوسُفَ كُسَيْرَاتٍ يَابِسَاتٍ، فَأَلْقَاهُنَّ بَيْنَ أَيْدِينَا فَأَكَلْنَا وَحَمِدْنَا اللَّهَ، فَقُمْتُ أَسْعَى أَتَنَاوَلُ مَاءً لِإِبْرَاهِيمَ، فَبَادَرَ إِبْرَاهِيمُ فَدَخَلَ النَّهْرَ حَتَّى بَلَغَ الْمَاءُ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ بِكَفَّيْهِ فِي الْمَاءِ فَمَلَأَهُمَا ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَشَرِبَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ مِنَ النَّهْرِ فَمَدَّ رِجْلَيْهِ، قَالَ: يَا أَبَا يُوسُفَ لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ لَجَالَدُونَا بِالسُّيُوفِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ وَقِلَّةِ التَّعَبِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، طَلَبَ الْقَوْمُ الرَّاحَةَ وَالنَّعِيمَ فَأَخْطَئُوا الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ " فَتَبَسَّمَ ثُمَّ قَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْكَلَامُ. (٣)

(١) "مدارج السالكين"(٣/ ٢٤٣).

(٢) ذكره شيخ الإسلام، وابن القيم في مواضع منها: "مجموع الفتاوى" (١٠/٦٤٧)، (٢٨/٣١)، و"مدراج السالكين"(١/٤٥٢)، (٢/٦٧)، (٣/٢٤٣).

(٣) أخرجه البيهقي في "الزهد الكبير" (٨٠)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦/ ٣٠٢)، (١/٣٦٥)، وأبو نعيم في الحلية" (٧/٣٧٠)، وأخرجه الخطيب في "الزهد والرقائق"(١١٥)، وفيه سنده مجاهيل، إبراهيم بن نصر المنصوري، وإبراهيم بن بشار.

❁ وَكَمَا قِيلَ:

أَنا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدِمُ قوتاً ... وإذا مِتُ لَسْتُ أَعْدِمُ قَبْراً
هِمَّتي هِمَّةُ المُلوك وَنَفْسي ... نَفْسُ حُرٍّ تَرى المَذَلَّةَ كُفْراً [١]

❁ **وهذا أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ**، رفعه اللهُ بالعلم

❁ **قال يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف**: توفي أبي وخلفني صغيراً في حجر أمي، فأسلمتني إلى قصَار أخدمه، فكنت أدع القصار وأمر إلى حلقة أبي حنيفة، فأجلس فأستمع، وكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي، وتذهب بي إلى القصار، وكان أبو حنيفة يعنى بي، لما يرى من حرصي على التعلم، فلما كثر ذلك على أمي قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد غيرك، هذا صبي يتيم لا كسب له، وأنا من أطعمه من مغزلي، وآمل انه يكسب دانقاً يعود به على نفسه. فقال لها أبو حنيفة: مُري يا رعناء، ها هوذا يتعلم أكل الْفَالُوذَجُ [٢] بدهن الفستق. فانصرفت وقالت له: أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك. **ثم لزمته، فنفعني الله بالعلم، ورفعني حتى تقلدت القضاء**، وكنت أجالس الرشيد، معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قدَّم إليَّ هارون فالوذجة بدهن.

فقال لي هارون: يا يعقوب، كل منه، فليس كل يوم يعمل لنا مثله. فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه فالوذجة بدهن، الفستق، فضحكت. فقال لي: مم تضحك؟ قلت: خيراً، أبقى الله أمير المؤمنين. فقال: لتخبرني. وألحَّ عليَّ، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فتعجب من ذلك، **وقال: لعمري إن العلم يرفع وينفع دنيا وآخرة.**

وترحم على أبي حنيفة، وقال: كان ينظر بعين عقله ما لا يرى بعين رأسه. [٣]

---

(١) "ديوان الشافعي" (صـ: ٤٧).

(٢) حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل. "التوضيح لشرح الجامع الصحيح" (٢٧/ ١٨٩).

(٣) أخرجه الخطيب في "تاريخ بغداد" (١٦/ ٣٥٩)، ومن طريقه ابن الجوزي في "المنتظم" (٩/ ٧٢). قَالَ الْخَطِيب: فِي حَدِيثه مَنَاكِير بأسانيد مَشْهُورَة، وَقَالَ البرقاني: كل حَدِيث النقاش مَنَاكِير لَيْسَ فِي تَفْسِير حَدِيث صَحِيح. وذكر

❁ وهذا الحسنُ بنُ علي بن إسحاق بن العباس، الملقب نِظامُ الملك، كان مُجِّلاً للعلماءِ

❁ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان مجلس الحسن بن علي بن العباس الملقب نظام الملك: عامرًا بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل التدين حتى كانوا يشغلونه عن مهمات الدولة، فقال له بعض كتابه: هذه الطائفة من العلماء قد بسطتهم في مجلسك حتى شغلوك عن مصالح الرعية ليلاً ونهارًا، فإن تقدمت أن لا يوصل أحد منهم إلا بإذن، وإذا وصل جلس بحيث لا يضيق عليك مجلسك.

فقال: **هذه الطائفة أركان الإسلام، وهم جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلست كلاً منهم على رأسي لاستقللت لهم ذلك.** (١)

فكن قوي الهمة معانقاً بها النجوم ولا تقتصر على الدون.

❁ وقال المتنبي:

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَروم فلا تَقْنَعْ بِما دونَ النُّجوم
فَطَعْمُ المَوْتِ في أمْرٍ صَغيرٍ كَطَعْم المَوْتِ في أمْرٍ عَظيم

❁ وهذا المأمون على ما عنده كان يُجِلُ أهل العلم عموماً

كان المأمون قد وَكَّل الفراء يُلَقن ابنيه النحو، فلما كَانَ يومًا أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء يُقدمانه لَهُ، فتنازعا أيهما يقدمه، ثُمَّ اصطلحا عَلَى أن يُقدم كل واحد منهما فردًا، فقدماها.

وكان المأمون لَهُ عَلَى كل شيء صاحب، فرفع ذَلِكَ إِلَيْهِ فِي الخبر، فوجه إلى الفراء فاستدعاه، فلما دخلَ عَلَيْهِ، قَالَ لَهُ: من أعز الناس؟ قَالَ: ما أعرفُ أعز من أمير المؤمنين، قَالَ: بلى، من إذا نهض تقاتل عَلَى تقديم نعليه وليَّا عهد المسلمين، حتى رضي كل واحد أن يقدم لَهُ فردًا، قَالَ: يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهُما عَن ذَلِكَ، ولكن خشيت أن

النقاش عند طلحة بن محمد بن جعفر، فقال: كان يكذب في الحديث، والغالب عليه القصص. "وفيات الأعيان" (٤/ ٢٩٨).

(١) "المنتظم" (١٦/ ٣٠٣).

أدفعهما عَن مكرمة سبقا إليها، أو أكسر نفوسهما عَن شريفة حرصا عليها، وقد يُروى عَن ابن عَبَّاس: أَنَّهُ أمسك للحسن والحسين ركابيهما حين خرجا من عنده، فقال لَهُ بعضُ من حضر: أتمسكُ لهذين الحدثين ركابيهما، وأنت أسن منهما؟ قَالَ لَهُ: اسكت يا جاهل، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذو الفضل.

قَالَ لَهُ المأمون: لو منعتهما عَن ذَلِكَ لأوجعتك لومًا وعتبًا، وألزمتك ذنبًا، وما وضع ما فعلاهُ من شرفهما، بل رفع من قدرهما، وبين عَن جوهرهما ولقد ثبتت لي مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبرُ الرجل، وإن كَانَ كبيرًا، عَن ثلاث: عَن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم.

وقد عوضتهما مما فعلاهُ عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم عَلَى حسن أدبك لَهما. (١)

❁ قَالَ أَبُو الحُسَيْنِ أَحْمَدُ بنُ فَارِسَ اللُّغَوِيُّ: سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ ابنَ العَمِيْدِ يَقُوْلُ: **مَا كُنْتُ أَظنُّ أَنَّ فِي الدُّنْيَا حَلاَوَةً أَلَذَّ مِنَ الرِّئَاسَةِ وَالوزَارَةِ الَّتِي أَنَا فِيْهَا، حَتَّى شَاهدتُ مذَاكرَةَ أَبِي القَاسِمِ الطَّبَرَانِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ الجِعَابِيِّ بحضرتِي،** فَكَانَ الطَّبَرَانِيُّ يغلِبُ أَبَا بَكْرٍ بكَثْرَةِ حِفْظِهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يغلبُ بِفطنَتِهِ وَذكَائِهِ حَتَّى ارتفعتْ أَصواتُهُما، وَلاَ يكَادُ أَحدُهُمَا يغلبُ صَاحبَهُ، فَقَالَ الجِعَابِيُّ: عِنْدِي حَدِيْثٌ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا إِلاَّ عِنْدِي، فَقَالَ: هَاتِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو خَلِيْفَةَ الجُمَحِيُّ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بنُ أَيُّوْبَ، وَحَدَّثَ بِحَدِيْثٍ، **فَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ: أَخْبَرَنَا**

---

(١) أخرجه الخطيب في "تاريخ بغداد"(١٦/٢٢٤)، ومن طريقه ابن الجوزي في "المنتظم" (١٠/١٧٩) قال الخطيب: أَخْبَرَنَا القاضي أَبُو العلاء الواسطي، قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر بْن مُحَمَّد بْن هارون التميمي، بالكوفة، قَالَ: حَدَّثَنَا الْحَسَن بْن داود، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَر عقدة، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بُديل الوضَّاحي، قَالَ: أمرَ أمير المؤمنين المأمون الفراء...، فذكره، فيه أبو العلاء محمد بن علي القاضي الواسطي، ضعيف، وأبو جعفر عقدة، وأبو بديل الوضاحي، لم أقف لهما على ترجمة.

سُلَيْمَانُ بنُ أَيُّوبَ، وَمِنِّي سَمِعَهُ أَبُو خَلِيْفَةَ، فَاسمعْ مِنِّي حَتَّى يَعلُو فِيْهِ إِسنَادُكَ، فَخجلَ الجِعَابِيُّ، فَوَدِدْت أَنَّ الوزَارَةَ لَمْ تكنْ، وَكُنْتُ أَنَا الطَّبَرَانِيَّ، وَفرحتُ كفرحِهِ، أَوْ كَمَا قَالَ.(١)

❁ وهذا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ، رفع اللهُ من شأنِهِ، والقصة مشهورة، وفيها كلام.

❁ وَقَدْ رُوِيَ مِنْ طُرُقٍ ذَكَرَهَا الصُّولِيُّ وَالْجُرَيْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ حَجَّ فِي خِلَافَةِ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ الْوَلِيدِ فَطَافَ بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَلِمَ الْحَجَرَ لَمْ يَتَمَكَّنْ حَتَّى نُصِبَ لَهُ مِنْبَرٌ، فَاسْتَلَمَ وَجَلَسَ عَلَيْهِ، وَقَامَ أَهْلُ الشَّامِ حَوْلَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْحَجَرِ؛ لِيَسْتَلِمَهُ تَنَحَّى عَنْهُ النَّاسُ إِجْلَالًا لَهُ وَهِيبَةً وَاحْتِرَامًا، وَهُوَ فِي بِزَّةٍ حَسَنَةٍ، وَشَكْلٍ مَلِيحٍ، فَقَالَ أَهْلُ الشَّامِ لِهِشَامٍ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: لَا أَعْرِفُهُ. لِئَلَّا يَرْغَبَ فِيهِ أَهْلُ الشَّامِ. فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ وَكَانَ حَاضِرًا: أَنَا أَعْرِفُهُ. فَقَالُوا: وَمَنْ هُوَ؟

❁ فَأَنْشَأَ الْفَرَزْدَقُ يَقُولُ:

هَـذَا الَّـذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْـبَـيْـتُ يَـعْـرِفُـهُ وَالْحِـلُّ وَالْحَـرَمُ

هَـذَا ابْـنُ خَـيْرِ عِـبَـادِ اللَّهِ كُـلِّـهِـمُ ... هَـذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

إِذَا رَأَتْـهُ قُـرَيْـشٌ قَـالَ قَـائِـلُـهَـا ... إِلَى مَـكَـارِمِ هَـذَا يَـنْـتَـهِـي الْـكَـرَمُ

يُنْمَى إِلَى ذُرْوَةِ الْعِزِّ الَّتِي قَصُـــرَتْ ... عَنْ نَيْلِهَا عَرَبُ الْإِسْـلَامِ وَالْعَجَمُ

يَـكَـادُ يُـمْسِـكُـهُ عِـرْفَـانَ رَاحَـتِـهِ ... رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَـا جَـاءَ يَسْـتَـلِمُ

يُغْضِـي حَيَاءً وَيُغْضَـى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَـمَا يُـكَـلَّـمُ إِلَّا حِـينَ يَـبْـتَـسِـمُ

بِـكَـفِّـهِ خَـيْـزُرَانٌ رِيحُـهَـا عَـبِـقٌ ... مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَـمَـمُ

مُشْـتَـقَّـةٌ مِنْ رَسُـولِ اللَّهِ نَبْعَتُـهُ ... طَـابَتْ عَنَاصِرُهَـا وَالْخِيمُ وَالشِّـيَمُ

يَنْجَـابُ نُورُ الْهُـدَى مِنْ نُورِ غُرَّتِـهِ ... كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الْقَتَمُ

حَمَّـالُ أَثْـقَـالِ أَقْـوَامٍ إِذَا فُـدِحُـوَا ... حُـلْـوُ الشَّـمَـائِـلِ تَحْلُو عِـنْـدَهُ نَـعَـمُ

---

(١) "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (١٦/ ١٢٤)، "تذكرة الحفاظ" (٣/ ٨٧) "الوافي بالوفيات" (١٥/ ٢١٤).

هَـذَا ابْنُ فَـاطِمَـةٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بِـجَـدِّهِ أَنْـبِـيَـاءُ اللَّهِ قَـدْ خُـتِـمُـوا
اللَّهُ فَضَّـلَـهُ قِـدْمًـا وَشَرَّفَـهُ ... جَرَى بِـذَاكَ لَـهُ فِي لَـوْحِـهِ الْـقَـلَـمُ
مَنْ جَـدُّهُ دَانَ فَضْـلُ الْأَنْبِيَاءِ لَـهُ ... وَفَضْـلُ أُمَّـتِـهِ دَانَـتْ لَهَا الْأُمَـمُ
عَمَّ الْبَرِّيَّةَ بِالْإِحْسَـانِ فَانْقَشَـعَتْ ... عَنْهَا الْغَيَابَةُ وَالْإِمْلَاقُ وَالظُّلَمُ
كِـلْتَا يَـدَيْـهِ غِـيَـاثٌ عَـمَّ نَـفْـعُـهُـمَا ... يَسْـتَـوْكِـفَـانِ وَلَا يَعْرُوهُمَا الْـعَـدَمُ
سَـهْـلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخْشَـى بَوَادِرُهُ ... يَزِينُـهُ اثْـنَـانِ حُسْـنُ الْخُلْقِ وَالْكَرَمُ
لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ مَيْمُونٌ نَقِيبَتُهُ ... رَحْـبُ الْـفِـنَـاءِ أَرِيـبٌ حِينَ يَعْتَزِمُ
مِنْ مَعْشَـــرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وَبُغْضُـهُمُ ... كُفْرٌ وَقُرْبُهُمْ مَنْجَى وَمُعْتَصَـمُ
يُسْـتَـدْفَعُ السُّـوءُ وَالْبَلْوَى بِحُبِّهِمُ ... وَيُسْـتَـرَبُّ بِـهِ الْإِحْسَـانُ وَالنِّعَمُ
مُـقَـدَّمٌ بَـعْـدَ ذِكْـرِ اللَّهِ ذِكْـرُهُـمُ ... فِي كُـلِّ حُكْـمٍ وَمَخْتُومٌ بِـهِ الْـكَـلِـمُ
إِنْ عُـدَّ أَهْـلُ التُّقَى كَـانُوا أَئِمَّتَهُمْ ... أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ قِيلَ هُمُ
لَا يَسْـتَـطِيعُ جَوَادٌ بُعْـدَ غَـايَتِهِمْ ... وَلَا يُـدَانِـيـهِـمُ قَـوْمٌ وَإِنْ كَـرُمُـوا
هُـمُ الْـغُـيُـوثُ إِذَا مَـا أَزْمَـةٌ أَزَمَـتْ ... وَالْأُسْـدُ أُسْـدُ الشَّرَى وَالْبَأْسُ مُحْتَدِمُ
يَـأْبَى لَهُمْ أَنْ يَحِـلَّ الـذَّمُّ سَـاحَتَهُمْ ... خِـيمٌ كَـرِيـمٌ وَأَيْـدٍ بِـالنَّـدَى هُضُـمُ
لَا يَنْقُصُ الْعُسْـرُ بَسْطًا مِنْ أَكُفِّهِمُ ... سِـيَّـانَ ذَلِـكَ إِنْ أَثْرَوْا وَإِنْ عَـدِمُوا
أَيُّ الْخَلَائِقِ لَـيْسَـتْ فِي رِقَـابِهِـمُ ... لِأَوَّلِـيَّـةِ هَـذَا أَوْ لَـهُ نِـعَـمُ
فَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هَـذَا بِضَـائِرِهِ ... الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ
مَـنْ يَـعْـرِفِ اللَّهَ يَـعْـرِفْ أَوَّلِـيَّـةَ ذَا ... فَـالـدِّينُ مِنْ بَيْتِ هَـذَا نَـالَـهُ الْأُمَمُ

قَالَ: فَغَضِبَ هِشَامٌ مِنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِحَبْسِ الْفَرَزْدَقِ بِعُسْفَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ بَعَثَ إِلَى الْفَرَزْدَقِ بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَأَرْسَلَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ أَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ الْيَوْمَ غَيْرُهَا، فَرَدَّهَا الْفَرَزْدَقُ، وَقَالَ: إِنَّمَا قُلْتُ مَا قُلْتُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنُصْرَةً لِلْحَقِّ،

وَقِيَامًا بِحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَلَسْتُ أَعْتَاضُ عَنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ يَقُولُ: قَدْ عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ نِيَّتِكَ فِي ذَلِكَ، وَأَقْسَمْتُ لَتَقْبَلَنَّهَا. فَقَبِلَهَا مِنْهُ ثُمَّ جَعَلَ يَهْجُو هِشَامًا، فَكَانَ مِمَّا قَالَ فِيهِ:

يُحَبِّبُنِي بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالَّتِي ... إِلَيْهَا قُلُوبُ النَّاسِ يَهْوِي مُنِيبُهَا

يُقَلِّبُ رَأْسًا لَمْ يَكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ ... وَعَيْنَيْنِ حَوْلَاوَيْنِ بَادٍ عُيُوبُهَا (١)

❁ وهذا عطاء ابن أبي رباح، رفعه الله وأعلى منزلته

❁ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْحَرْبِيُّ: كَانَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَبْدًا أَسْوَدَ لِامْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَكَانَ أَنْفُهُ كَأَنَّهُ بَاقِلَاةٌ قَالَ: وَجَاءَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَطَاءٍ هُوَ وَابْنَاهُ فَجَلَسُوا إِلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلَمَّا صَلَّى انْفَتَلَ إِلَيْهِمْ فَمَا زَالُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ

(١) أخرجه الطبراني في "الكبير" (٢٨٠٠)، وفي سنده من لا يعرف بجرحٍ ولا تعديل،

وأخرجه ابن عساكر في "تاريخه" (٤١/ ٤٠٠)، وفيه الحسن بن محمد بن يحيى العلوي، قال النجاشي في "رجاله": روى عن المجاهيل أحاديث منكرة، رأيت أصحابنا يضعفونه، له كتاب "المثالب" وكتاب "الغَيْبَة". وقال الفضائري: إنه كان كذابًا يضع الحديث، ويدعي رجالًا غربًا لا يعرفون، ويعتمد مجاهيل لا يُذكرون، وما تطيب النفس عن روايته، ولا فيما يرويه من كتب جده التي رواها عنه غيره. " الروض الباسم" (١/ ٤٣٠).

وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣/ ١٣٩)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤١/ ٤٠٠)، وابن المغازلي في "مناقب علي" (صـ: ٤٥٨) والسبكي في "طبقات الشافعية" (١/ ٢٩١)، وأبو الفرج الأصبهاني في "الأغاني" (١٥/ ٢١٧)، من طريق مُحَمَّدَ بْنَ زَكَرِيَّا، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ عَائِشَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: " حَجَّ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ...فذكره، ومحمد بن زكريا بن دينار، أَبُو جَعْفَر الغلابي البَصْرِيّ الإخباري، وَهُوَ في عداد الضُّعفاء، وأما ابن حبان فذكره في " الثقات" وَقَالَ: يُعتبر بحديثه إِذَا رَوَى عن ثقة. قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ: بصري يضع. وَقَالَ ابن منده: تُكُلّم فيه. "تاريخ الإسلام" (٦/ ٨٠٣).

وأخرجه أبو الفرج الأصبهاني في "الأغاني" (٢١/ ٢٤٦)، قال: أخبرنا عبد الله بن علي بن الحسن الهاشمي، عن حيان ابن علي العنزي، عن مجالد، عن الشعبي، قال حج الفرزدق بعد ما كبر...فذكره، ومجالد بن سعيد، ضعيف "تهذيب التهذيب" (١٠/ ٤٠)

وأخرج القصة الفاكهي في "أخبار مكة" (٢/ ١٥٩)، على أن الفرزدق قال هذه الأبيات في علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وفيه أَبُو سَعِيدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ شَبِيبٍ الربعي الأخباري، قال الحاكم: ذاهب الحديث.

قال ابن حبان: يقلب الاخبار ويسرقها. "ميزان الاعتدال "(٢/ ٤٣٨).

مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَقَدْ حَوَّلَ قَفَاهُ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ لِابْنَيْهِ: «قُومَا» ، فَقَامَا، فَقَالَ: «يَا بَنِيَّ لَا تَنِيَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَإِنِّي لَا أَنْسَى ذُلَّنَا بَيْنَ يَدَيْ هَذَا الْعَبْدِ الْأَسْوَدِ».

وهذا محمد الأوقص

❁ وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْقَصُ عُنُقُهُ دَاخِلًا فِي بُدْنِهِ، وَكَانَ مِنْكَبَاهُ خَارِجَيْنِ كَأَنَّهُمَا زَجَّانِ، **فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: يَا بُنَيَّ لَا تَكُونُ فِي قَوْمٍ، إِلَّا كُنْتَ الْمَضْحُوكَ مِنْهُ الْمَسْخُورَ بِهِ، فَعَلَيْكَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَرْفَعُكَ قَالَ: فَطَلَبَ الْعِلْمَ قَالَ: فَوَلِيَ قَضَاءَ مَكَّةَ عِشْرِينَ سَنَةً قَالَ: فَكَانَ الْخَصْمُ إِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَرْعَدُ حَتَّى يَقُومَ** قَالَ: وَمَرَّتْ بِهِ امْرَأَةٌ يَوْمًا وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْتِقْ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ: يَا ابْنَ أَخٍ وَأَيُّ رَقَبَةٍ لَكَ؟.(١)

❁ أَنْشَدَنِي بَعْضُهم فِي مَالِكِ بْنِ أَنَس رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَدَعُ الجوابَ فلا يُراجِعُ هَيْبَةً ... وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ
أَدَبُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى ... فَهُوَ الْمُطَاعُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

❁ وفي بعضِ المصادر:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَمَا يُرَاجِعُ هَيْبَةً ... وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ
أَدَبُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى ... فَهُوَ الْأَمِيرُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

❁ قال أَبُو أَحْمَدَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ إِدْرِيسَ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْجَزِيرِيِّ:

---

(١) ظاهرُ سندِهِ الصحة، أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (١/ ١٤٠)، قال: أنا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ الْقَطِيعِيُّ، نا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْخَزَّازُ، نا أَبُو أَيُّوبَ سُلَيْمَانُ بْنُ إِسْحَاقَ الْجَلَّابُ، قَالَ: قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْحَرْبِيُّ...فذكره، والقطيعي هو أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك، وثقه الدارقطني، والحاكم، وغيرهم، وتغير في آخره. "الدليل المغني لشيوخ الإمام أبي الحسن الدارقطني" (صـ: ٨٢). ومحمد بن العباس بن محمد المعروف بابن حيويه أبو عمر الخزاز وثقه الخطيب "تاريخ بغداد" (٣/ ٣٣٧)، والجلاب، وثقه الخطيب، "تاريخ الإسلام" ت بشار (٧/ ٦٧٨)،

والحربي، وثقه الخطيب، "تاريخ بغداد" ت بشار (٦/ ٥٢٢).

وَالأوقص نفسه، قال العقيلي: يخالف في حديثه. وقال أبو القاسم بن عساكر: ضعيف. "ميزان الاعتدال" (٣/ ٦٢٥).

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ أَرْفَعُ رُتْبَةٍ ... وَأَجَلُّ مُكْتَسَبٍ وَأَسْنَى مَفْخَرِ
فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْمُقْتَفِينَ لَهُ تَسُدْ ... إِنَّ السِّيَادَةَ تُقْتَنَى بِالدَّفْتَرِ
وَالْعَالِمُ الْمَدْعُوُّ حَبْرًا إِنَّمَا ... سَمَّاهُ بِاسْمِ الْحَبْرِ حَمْلُ الْمَحْبَرِ
وَالْعِلْمُ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرْبَابَهُ ... مَا لَمْ يُفِدْ عَمَلًا وَحُسْنَ تَبَصُّرِ
فَاعْمَلْ بِعِلْمِكَ تُوفِ نَفْسَكَ وَزْنَهَا ... لَا تَرْضَ بِالتَّضْيِيعِ دُونَ الْمُخْسَرِ
سِيَّانُ عِنْدِيَ عِلْمُ مَنْ لَمْ يَسْتَفِدْ ... عَمَلًا بِهِ وَصَلَاةُ مَنْ لَمْ يَطْهُرِ[١]

❁ قَالَ ابنُ عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَنْشَدَنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَلَذُّ مَا طَلَبَ الْفَتَى بَعْدَ التُّقَى ... عِلْمٌ هُنَاكَ يَزِينُهُ طَلَبُهُ
وَلِكُلِّ طَالِبِ لَذَّةٍ مُتَنَزِّهٍ ... وَأَلَذُّ نُزْهَةِ عَالِمٍ كُتُبُهِ[٢]

وَمِمَّا يُحْفَظُ قَدِيمًا:

نِعْمَ الْمُحَدِّثُ وَالْجَلِيسُ كِتَابُ ... تَخْلُو بِهِ إِنْ مَلَّكَ الْأَصْحَابُ
لَا مُفْشِيًا سِرًّا وَلَا مُتَكَبِّرًا ... وَتُفَادُ مِنْهُ حِكْمَةٌ وَصَوَابُ[٣]

❁ قَالَ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدُّنْيَا كُلُّهَا ظُلْمَةٌ إِلَّا مَجَالِسَ الْعُلَمَاءِ».[٤]

❁ قَالَ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات. خصوصا العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماما للناس، بحسب حاله ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشي بعلمه في ظلمة ديجوره.[٥]

---

(١) "تقييد العلم" للخطيب البغدادي (صـ: ١٣٠). وفي "وجامع بيان العلم وفضله"(٢٤٢٧)

(٢) في "وجامع بيان العلم وفضله"(٢٤٢٠).

(٣) في "وجامع بيان العلم وفضله"(٢٤١٩).

(٤) ذكره ابن عبد البر في "وجامع بيان العلم وفضله"(٢٦٤). من طريق صالح المري، وهو ضعيف. ولم يذكر سنده كاملا موصولاً.

(٥) "تفسير سورة الأنعام" آية ٨٣.

❁ وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جاء في كثير من الآثار أن درجات العلماء تتلو درجات الأنبياء، ودرجات أصحابهم، والعلماء ورثة الأنبياء، وإنما ورثوا العلم وبينوه للأمة، وذبوا عنه، وحموه من تخريف الجاهلين وانتحال المبطلين. (١)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه [١١٤]

❁ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَاضِحُ الدَّلَالَةِ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بِطَلَبِ الِازْدِيَادِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنَ الْعِلْمِ وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ الَّذِي يُفِيدُ مَعْرِفَةَ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ مِنْ أَمْرِ دينه فِي عِبَادَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ وَالْعِلْمُ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ وَتَنْزِيهِهِ عَنِ النَّقَائِصِ وَمَدَارُ ذَلِكَ عَلَى التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَقَدْ ضَرَبَ هَذَا الْجَامِعُ الصَّحِيحُ فِي كُلٍّ مِنَ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ بِنَصِيبٍ فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ مُصَنِّفِهِ وَأَعَانَنَا عَلَى مَا تَصَدَّيْنَا لَهُ مِنْ تَوْضِيحِهِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ. (٢)

وأدلةُ فضل العلم وشرفه، وشرف حملته ورفعتهم، كثيرة جداً وكلام أهل العلم أيضا وإنما المراد التذكير والإشارة إلى ذلك.

---

(١) "شرح صحيح البخاري" لابن بطال (١/ ١٣٣).

(٢) "فتح الباري" لابن حجر (١/ ١٤١).

البيت رقم١٠٩

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَإِنْ فَارَقْتَهَا وَخَرَجْتَ مِنْهَا ... إِلَى دَارِ السَّلَامِ فَقَدْ سَلِمْتَا

شرح البيت رقم ١٠٩

"فَإِنْ فَارَقْتَهَا وَخَرَجْتَ مِنْهَا"، أَيْ: فَارَقْتَ الدُّنْيَا، وَخَرَجْتَ مِنْهَا إِلَى دَارِ السَّلَامِ.

وَدَارُ السَّلَامِ: الْجَنَّةُ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يونس [٢٥]. ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام [١٢٧].

وَسُمِّيَتِ الْجَنَّةُ دَارَ السَّلَامِ لِأَنَّ مَنْ دَخَلَهَا سَلِمَ مِنَ الْآفَاتِ.

❁ قَالَ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ عَطَبِهَا وَزَوَالِهَا، رغَّب فِي الْجَنَّةِ وَدَعَا إِلَيْهَا، وَسَمَّاهَا دَارَ السَّلَامِ أَيْ: مِنَ الْآفَاتِ، وَالنَّقَائِصِ وَالنَّكَبَاتِ. (١)

❁ قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَمَّا نَفَّرَ عِبَادَهُ عَنِ الْمَيْلِ إِلَى الدُّنْيَا بِمَا ضَرَبَهُ لَهُمْ مِنَ الْمَثَلِ السَّابِقِ رَغَّبَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ بِإِخْبَارِهِمْ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَارِ السَّلَامِ. (٢)

❁ وَكَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٣)

هِيَ جَنَّةٌ طَابَتْ وَطَابَ نَعِيمُهَا ... فَنَعِيمُهَا بَاقٍ وَلَيْسَ بِفَانِ

دَارُ السَّلَام وَجَنَّةُ الْمَأْوَى وَمَنْ ... زُلُ عَسْكَرِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

---

(١) "تفسير ابن كثير" ت سلامة (٤/ ٢٦١).

(٢) "فتح القدير" للشوكاني (٢/ ٤٩٨).

(٣) "نونية ابن القيم"

فَالدَّارُ دَارُ سَلَامَةٍ وَخِطَابُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاسْمُ ذِي الْغُفْرَانِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الحشر [٢٣].

فَالسَّلَامُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، واسمٌ للجنةِ، وهو تحيةُ أهلِ الإسلام

عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». قَالَ الْوَلِيدُ: فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ: " كَيْفَ الْاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ".(١)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلاَةِ، قُلْنَا: السَّلاَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلاَمُ عَلَى فُلاَنٍ وَفُلاَنٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تَقُولُوا السَّلاَمُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلاَمُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ، فَيَدْعُو».(٢)

---

(١) رواه مسلم (٥٩١)، وجَاءَ عِنْدَهُ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، (٥٩٢).

(٢) رواه البخاري (٨٣١)، (٨٣٥)، (٦٢٣٠)، (٦٣٢٨)، (٧٣٨١) ومسلم (٤٠٢).

البيت رقم ١١٠

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ أَكْرَمْتَهَا وَنَظَرْتَ فِيهَا لِإِكْرَامِ فَنَفْسَكَ قَدْ أَهَنْتَا

شرح البيت رقم ١١٠

أَيْ: إِنْ أَكْرَمْتَ الدُّنْيَا وَعَظَّمْتَهَا، وَنَظَرْتَ لَهَا بِمَنْظَرِ الْإِجْلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَالْإِعْظَامِ، فَقَدْ أَهَنْتَ نَفْسَكَ؛ لِأَنَّهَا دَارُ الزَّوَالِ وَالنَّكَدِ وَالتَّعَاسَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».(١)

فَقَوْلُهُ: تَعِسَ التَّعَاسَةُ ضِدُّ السَّعَادَةِ. التَعْسُ: الهلاكُ ؛ وأصله الكَبُّ، (الْمُرَاد هُنَا هلك، وَقَالَ ابن الْأَنْبَارِيِّ: التَّعْسُ الشَّرُّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ محمد [٨]. أَرَادَ أَلْزَمَهُمُ الشَّرَّ وَقِيلَ: التَّعْسُ الْبُعْدُ، أَيْ: بُعْدًا لَهُمْ.(٢)

قَوْلُهُ: عَبْدُ الدِّينَارِ، أَيْ: طَالِبُهُ الْحَرِيصُ عَلَى جَمْعِهِ الْقَائِمُ عَلَى حِفْظِهِ فَكَأَنَّهُ لِذَلِكَ خَادِمُهُ وَعَبْدُهُ: قَالَ الطِّيبِيُّ: قِيلَ: خُصَّ الْعَبْدُ بِالذِّكْرِ؛ لِيُؤْذَنَ بِانْغِمَاسِهِ فِي مَحَبَّةِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا كَالأسير الَّذِي لا يجد خَلَاصًا، وَلَمْ يَقُلْ مَالِكُ الدِّينَارِ، وَلَا جَامِعُ الدِّينَارِ؛ لِأَنَّ الْمَذْمُومَ مِنَ الْمِلْكِ وَالْجَمْعِ الزِّيَادَةُ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ.

وَقَوْلُهُ: وَانْتَكَسَ، أَيْ: عَاوَدَهُ الْمَرَضُ، فَعَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَفْسِيرِ التَّعْسِ بِالسُّقُوطِ يَكُونُ الْمُرَادُ: أَنَّهُ إِذَا قَامَ مِنْ سَقْطَتِهِ عَاوَدَهُ السُّقُوطُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: بِانْتَكَسَ بَعْدَ تَعِسَ انْقَلَبَ عَلَى رَأْسِهِ بَعْدَ أَنْ سَقَطَ، ثُمَّ وَجَدْتُهُ فِي شَرْحِ الطِّيبِيِّ قَالَ فِي قَوْلِهِ: تَعِسَ وَانْتَكَسَ،

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٦)، (٢٨٨٧)، (٦٤٣٥).

(٢) "الزاهر في معاني كلمات الناس" (٢/ ٢٤٨).

فِيهِ التَّرَقِّي فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَعِسَ انْكَبَّ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا انْتَكَسَ انْقَلَبَ عَلَى رَأْسِهِ. وَقِيلَ: التَّعْسُ: الْخَرُّ عَلَى الْوَجْهِ وَالنَّكْسُ: الْخَرُّ عَلَى الرَّأْسِ وَقَوْلُهُ: **وَإِذَا شِيكَ**، أَيْ: إِذَا دَخَلَتْ فِيهِ شَوْكَةٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُخْرِجُهَا بِالْمِنْقَاشِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: **فَلَا انْتَقَشَ**، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ: لَمْ يَقْدِرِ الطَّبِيبُ أَنْ يُخْرِجَهَا، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الدُّعَاءِ عَلَيْهِ بِمَا يُثَبِّطُهُ عَنِ السَّعْيِ وَالْحَرَكَةِ، وَسَوَّغَ الدُّعَاءَ عَلَيْهِ كَوْنُهُ قَصَرَ عَمَلَهُ عَلَى جَمْعِ الدُّنْيَا وَاشْتَغَلَ بِهَا عَنِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ مِنَ التَّشَاغُلِ بِالْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ).[(١)]

❁ قال ابنُ الأثير: أَي: انقلب عَلَى رأسِه. وَهُوَ دُعاءٌ عَلَيْهِ بالخَيْبة؛ لأنَّ مَنِ انتكسَ فِي أمْره فَقَدْ خَابَ وخَسِر.[(٢)]

"لِإِكْرَامِ فَنَفْسَكَ قَدْ اهَنْتَا"، وفي نسخة (بإجلالِ)، أَي، إِذَا عَظَّمْتَ الدُّنْيَا وَأَكْرَمْتَهَا، فَإِنَّهَا تَكُونُ سَبَبًا لِإِهَانَتِكَ.

❁ قَالَ بَعْضُهُمْ:

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ ... عَذَابًا كُلَّمَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِينُ الْمُكْرِمِينَ لَهَا بِصُغْرِ ... وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
إِذَا اسْتَغْنَيْتُ عَنْ شَيْءٍ فَدَعْهُ ... وَخُذْ مَا كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ[(٣)]

---

(١) "فتح الباري" لابن حجر (١١/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

(٢) "النهاية" (٥/ ١١٥).

(٣) أخرجها ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٥/ ٤٠٦)، وأبو الفتوح الطائي في "الأربعين الطائية" (صـ: ١٦٠) من طريق أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد السراج، أنا أبو عمرو بن مطر، نا أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروي، نا محمد بن إدريس الحنظلي، نا عمرو بن أسلم العابد، قال سمعت سلم بن ميمون العابد، فذكره ومحمد بن المنذر بن سعيد، ذكره الذهبي فقال: الإِمَامُ، العَالِمِ، الحَافِظُ المُتْقِنُ، قال ابن عساكر: أبو عبد الرحمن، ويقال أبو جعفر

البيت رقم١١١

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا حَيَاتَكَ فَهْيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَا

شرح البيت رقم ١١١

جَمَعَ لَهُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ نَصَائِحَ عَدِيدَةً، وَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ النَّصَائِحُ عَلَى بَيَانِ سُرْعَةِ مُرُورِ الْأَيَّامِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ ذَهَابِهَا وَانْقِضَائِهَا وَاللَّهْوِ فِي اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ.

ثُمَّ اشْتَمَلَتْ عَلَى دَعْوَتِهِ لِأَبِي بَكْرٍ، وَالْخِطَابُ عَامٌّ، لَهُ وَلِغَيْرِهِ. دَعَاهُ إِلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ وَبَيَّنَ لَهُ فَضْلَ الْعِلْمِ وَحَلَاوَةَ الْعِلْمِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَسْئُولٌ عَنْ عِلْمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ.

ثُمَّ بَيَّنَ لَهُ أَيْضًا ضَرَرَ الْجَهْلِ، وَفَضْلَ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ، ثُمَّ دَعَاهُ إِلَى الْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، وَدَعَاهُ إِلَى الْخُضُوعِ، وَتَعْجِيلِ التَّوْبَةِ، ثُمَّ جَعَلَ نَفْسَهُ مِثَالًا وَكَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ عَادَ إِلَيْهِ نَاصِحاً، زَاجِرًا لَهُ، ثُمَّ عاد إلى من مخاطبة أبي بكرٍ، وَحَذَّرَهُ مِنَ الخلود إِلَى الدُّنْيَا وَنِسْيَانِ الْآخِرَةِ، وَدَعَاهُ إِلَى تَذَكُّرِ الْحِسَابِ وَالِاعْتِرَافِ بِالذُّنُوبِ.

السلمي الهروي، المعروف بشكر محدث مشهور صاحب رحلة وتصانيف. وقال الدارقطني، من حفاظ الحديث،" السير "(١٤/٢٢٢)، "تاريخ دمشق" (٥٦/٣١ و٣٣) "رجال الحاكم" (٢/٢٩٦)،

وأخرجها أبو نعيم في الحلية (٨/٢٧٨)، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عِمْرَانَ، ثنا أَبُو حَاتِمٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ خَالِدٍ، سَمِعْتُ سَالِمَ بْنَ مَيْمُونٍ، فذكرها، فيه محمد بن عمران، ابن الجنيد أبو بشر مجهول حال، وعمرو بن خالد الذي يظهر بأنه عمرو بن أسلم، وسلم بن ميمون الخواص الزاهد، قال العقيلي: حدث بمناكير لا يتابع عليها، وقال أبو حاتم: لا يكتب حديثه. "لسان الميزان" (٣/٦٦). فالأثر محتمل التحسين والله أعلم.

وأخرجها ابن أبي الدنيا في "الزهد" (٥١٣)، و "ذم الدنيا" (٤٣٨)، قال: حَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ سَعِيدٍ الْقَوَارِيرِيُّ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَلْتَقِطُ النَّوَى، وَيَتَمَثَّلُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ:

وأخرجها أبو الفرج الأصبهاني في "الأغاني" (٤/٢٩٨)، عن أبي العتاهية ونسبها إليه أيضاً الماوردي في " أدب الدنيا والدين" (صـ:١٦٦).

وَحَذَّرَهُ مِنْ رُفَقَاءِ السُّوءِ وَأَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ وَقُرَنَائِهِ، وَأَنْ يَحْذَرَ مِنْهُمْ وَيَبْتَعِدَ، وَيَرْحَلَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي لَا يَتَمَكَّنُ فِيهَا مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ، أَوْ يَكُونُ مَقْهُورًا فِيهَا، وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى بَيَانِ فَضْلِ الْعِلْمِ وَالْحَذَرِ مِنَ الدُّنْيَا وَتَعْظِيمِهَا، وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ جَمَعَ لَهُ النَّصَائِحَ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ، وأكثرَ منْ عِتَابِهِ؛ لكسلِهِ وبَطالتِهِ، واعترف له بتقصيرِهِ وأنه لا يغتر بذلك من باب قولهم: خذ بنصحي ولا يضرك تقصيري، ثم ختم الأبيات بالصلاة على رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وعلى آله.

وَالنَّاسُ تَغَيَّرَتْ عِنْدَهُمُ الْمَوَازِينُ وَاخْتَلَّتْ عِنْدَهُمُ الْمَفَاهِيمُ، فَصَارَ النَّاصِحُ يُكَذَّبُ وَلَا يُصَدَّقُ، وَصَارَ الْمُخَادِعُ الْمُزَخْرِفُ الْمُزَيِّنُ لِكَلَامِهِ وَلَوْ بِالْخِدَاعِ يُصَدَّقُ.

❁ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

أَطَاعُوا ذَا الْخِدَاع وَصَدَّقُوهُ ... وَكَمْ نَصَحَ النَّصِيحُ فَكَذَّبُوهُ[1]

❁ وقال آخر:

واحْذَرْ مِنَ المَظْلُوم سَهْما صائبا ... واعلم بأن دعاءه لا يحجب
وإذا رَأَيْتَ الرِّزْقَ ضاق بِبَلْدَة ... وخشيت فيها أن يضيق المكسب
فارْحَلْ فأَرْضُ اللهِ واسِعَةُ الفَضَا ... طُولاً وعِرْضا شَرْقُها والمَغْرِبُ
فَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتي ... وَالنُّصْحُ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

النُّصْحُ هُوَ طَرِيقُ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ،

قَالَ اللهُ تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف [٦٢].

---

(١) "التبصرة" لابن الجوزي (١/ ٢٦١).

وَقَالَ تعالى عن صالحٍ عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الأعراف [٧٩].

وَقَالَ عَنْ شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ الأعراف [٩٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ القصص [٢٠].

وَدِينُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَائِمٌ عَلَىٰ النصِيْحَة.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ». (١)

(١) رواه مسلم (٥٥)، عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البيت رقم١١٢

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَطَوَّلْتُ الْعِتَابَ وَزِدْتُ فِيهِ ... لأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَا

شرح البيت رقم ١١٢

❁ قَالَ الخَلِيلُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَقِيقَةُ الْعِتَابِ مُخَاطَبَةُ الْإِدْلَالِ وَمُذَاكَرَةُ الْمَوْجِدَةِ.(١)

❁ وَقَالَ الخليلُ، وَابْنُ فَارِسٍ: وَكَذَلِكَ الْمُعَاتَبَةُ، إِذَا لَامَكَ وَاسْتَزَادَكَ قُلْتَ عَاتَبَنِي.(٢)

❁ وَكَمَا قِيلَ:

أُعاتِبُ ذَا المَودَّةِ مِنْ صَديقٍ ... إِذا مَا رَابَني مِنْهُ اجْتِنابُ

إِذا ذَهَبَ العِتابُ، فَلَيْسَ وُدٌّ ... وَيَبْقَى الوُدُّ مَا بَقِيَ العِتابُ(٣)

وَالعِتَابُ يكونُ بِمِقْدارِ الحاجةِ

❁ كَمَا قِيلَ:

فَدَعِ العِتابَ فَرُبَّ شَرٍّ ... هاجَ أَوَّلُهُ العِتابُ(٤)

❁ قَالَ المَاوَرْدِيْ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّ كَثْرَةَ الْعِتَابِ سَبَبٌ لِلْقَطِيعَةِ وَإِطْرَاحَ جَمِيعِهِ دَلِيلٌ عَلَى قِلَّةِ الِاكْتِرَاثِ بِأَمْرِ الصَّدِيقِ. وَقَدْ قِيلَ: عِلَّةُ الْمُعَادَاةِ قِلَّةُ الْمُبَالَاةِ. بَلْ تُتَوَسَّطُ حَالَتَا تَرْكِهِ وَعِتَابِهِ فَيُسَامِحُ بِالْمُتَارَكَةِ وَيُسْتَصْلَحُ بِالْمُعَاتَبَةِ، فَإِنَّ الْمُسَامَحَةَ وَالِاسْتِصْلَاحَ إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَثْ مَعَهُمَا نُفُورٌ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُمَا وَجْدٌ.

❁ وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا تُكْثِرَنَّ مُعَاتَبَةَ إِخْوَانِك، فَيَهُونَ عَلَيْهِمْ سَخَطُك.

---

(١) "مجمل اللغة" لابن فارس (صـ: ٦٤٦).

(٢) "العين" (٢/ ٧٦)، "مقاييس اللغة" (٤/ ٢٢٧).

(٣) "لسان العرب" (١/ ٥٧٧).

(٤) "تهذيب اللغة" (٢/ ١٦٥).

❁ وَقَالَ مَنْصُورٌ النَّمَرِيُّ:

أَقْلِلْ عِتَابَ مَنْ اسْتَرَبْتَ بِوُدِّهِ ... لَيْسَتْ تُنَالُ مَوَدَّةٌ بِعِتَابِ

❁ وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا ... صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ
فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ ... مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهْ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَذَى ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ[1]

ثُمَّ إِنَّ مِنْ حَقِّ الْإِخْوَانِ أَنْ تَغْفِرَ هَفْوَتَهُمْ، وَتَسْتُرَ زَلَّتَهُمْ؛ لِأَنَّ مَنْ رَامَ بَرِيئًا مِنَ الْهَفَوَاتِ، سَلِيمًا مِنَ الزَّلَّاتِ، رَامَ أَمْرًا مُعْوِزًا، وَاقْتَرَحَ وَصْفًا مُعْجِزًا. وَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: أَيُّ عَالِمٍ لَا يَهْفُو، وَأَيُّ صَارِمٍ لَا يَنْبُو، وَأَيُّ جَوَادٍ لَا يَكْبُو. وَقَالُوا: مَنْ حَاوَلَ صَدِيقًا يَأْمَنُ زَلَّتَهُ وَيَدُومُ اغْتِبَاطُهُ بِهِ، كَانَ كَضَالِّ الطَّرِيقِ الَّذِي لَا يَزْدَادُ لِنَفْسِهِ إِتْعَابًا إِلَّا ازْدَادَ مِنْ غَايَتِهِ بُعْدًا.[2]

❁ وَقَالَ آخر:

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا ... كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

❁ وَقَالَ ابنُ الوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتَغَافَلْ عَنْ أُمُورٍ إِنَّهُ ... لَمْ يَفُزْ بِالْحَمْدِ إِلا مَنْ غَفَلْ

❁ وَقَالَ بعضُهمْ:

أخاكَ أخاكَ فهو أجَلُّ ذُخْرِ ... إِذا نابَتْكَ نائبةُ الزمانِ
وإن رابتْ إساءتُه فَهبْهَا ... لما فيه من الشِّيَمِ الحِسَانِ
تُريدُ مهذَّباً لا عَيْبَ فيهِ ... وهل عُودٌ يفوحُ بلا دُخَانِ

---

(١) أخرجه البيهقي في "الزهد" (٨٠٠٥)،

(٢) "أدب الدنيا والدين" (صـ: ١٧٨)

❁ وَقَالَ بعضُهُمْ:

أُغْمِضُ عَيْنِي عَنْ صَـــدِيقِي تَكَرُّمًا ... كَـأَنِّي بِمَا يَـأْتِي مِنَ الْجَهْلِ جَاهِلُ
وَمَـا بِيَ مِنْ جَهْـلٍ وَلَكِنْ خَلِيقَتِي ... تُطِيقُ احْتِمَالَ الْكُرْهِ فِيمَا يُحَمِّلُ
وَإِنْ أَقْطَعِ الْإِخْوَانَ فِي كُـلِّ عَثْرَةٍ ... بَقِيتُ وَحِيدًا لَمْ أَجِدْ مَنْ أُوَاصِـلُ[١]

❁ قال ابن حِبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه، وترك التوقع لما يأتون من المحبوب كان إلى تكدير عيشه أقرب منه إلى صفائه، وإلى أن يدفعه الوقت إلى العداوة والبغضاء أقرب منه أن ينال منهم الوداد وترك الشحناء، ومن لم يدار صديق السوء كما يداري صديق الصدق ليس بحازم،

❁ ولقد أحسن الذي يقول:

تجنبْ صـديقَ السـوءِ واصرمْ حبالَه ... وإن لم تجدْ عـنـه مَحيصـاً فـدارِهِ
واحببْ حبيبَ الصدق واحذر مراءَه ... تنلْ منه صـفوَ الودِ ما لم تُمارِهِ[٢]

وانظر إلى حالِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عند المعاتبةِ.

قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ سَبَّابًا وَلَا فَحَّاشًا وَلَا لَعَّانًا. كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ: «مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ». [٣]

قَوْلُهُ: "مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ"،

❁ قَالَ الْخَطَّابِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: خَرَّ لِوَجْهِهِ فَأَصَابَ التُّرَابُ جَبِينَهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ: دُعَاءً لَهُ بِالْعِبَادَةِ كَأَنْ يُصَلِّي فَيَتْرَبُ جَبِينُهُ وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ؛ لِأَنَّ الْجَبِينَ لَا يُصَلَّى عَلَيْهِ. قَالَ ثَعْلَبٌ: الْجَبِينَانِ يَكْتَنِفَانِ الْجَبْهَةَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ الصافات [١٠٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في "الزهد" (٨٠١٩).

(٢) "روضة العقلاء" (صـ: ٧٢).

(٣) رواه البخاري (٦٠٣١)، (٦٠٤٦).

أَيْ: أَلْقَاهُ عَلَى جَبِينِهِ قُلْتُ: وَأَيْضًا فَالثَّانِي بَعِيدٌ جِدًّا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةِ اسْتَعْمَلَهَا الْعَرَبُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفُوا وَضْعَ الْجَبْهَةِ بِالْأَرْضِ فِي الصَّلَاةِ. وَقَالَ الدَّاوُدِيُّ: قَوْلُهُ: تَرِبَ جَبِينُهُ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا الْعَرَبُ جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَهِيَ مِنَ التُّرَابِ أَيْ: سَقَطَ جَبِينُهُ لِلْأَرْضِ وَهُوَ كَقَوْلِهِمْ (رَغِمَ أَنْفُهُ) وَلَكِنْ لَا يُرَادُ مَعْنَى قَوْلِهِ: تَرِبَ جَبِينُهُ، بَلْ هُوَ نَظِيرُ مَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: "تَرِبَتْ يَمِينُكَ"، أَيْ: إِنَّهَا كَلِمَةٌ تَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ وَلَا يُرَادُ حَقِيقَتُهَا.(١) العِتَابُ يَنْتَفِعُ بِهِ الإِنْسَانُ، العِتَابُ مَعَ النُّصْحِ، عِتَابٌ مَعَ نُصْحٍ صَحِيحٍ مِنْ غَيْرِ رَوَغَانٍ وَلَا مُخَادَعَةٍ.

وَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ النَّاصِحَ مِنْ غَيْرِ النَّاصِحِ، النَّاصِحَ مِنَ المُخَادِعِ، وَالصَّادِقَ مِنَ الكَاذِبِ. كَمْ مِنْ إِنْسَانٍ عَسَلُ اللِّسَانِ حَسَنُ الأَلْفَاظِ، وَلَكِنْ يَبِيتُ مِنْ وَرَاءِ تِلْكَ الأَلْفَاظِ الشَّرُّ وَالمَكْرُ وَالسُّوءُ. فَلَا يَغْتَرَّ الإِنْسَانُ بِالكَلَامِ المُعَسَّلِ وَلَا بِالِابْتِسَامَاتِ العَرِيضَةِ وَلَا بِالأَقْوَالِ المُزَخْرَفَةِ وَلَا العِبَارَاتِ المُنَمَّقَةِ. لَا تَغْتَرَّ بِبَعْضِ النَّاسِ، رُبَّمَا يُعْرَفُ مِنْ حَالِ بَعْضِ الأَشْخَاصِ مِنْ مَكْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَشَرِّهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ تَجِدُ مَنْ يَذُوبُ عِنْدَ بَعْضِ الأَلْفَاظِ المُزَخْرَفَةِ المُزَيَّنَةِ. وَلَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا لِيَكُنِ الإِنْسَانُ عَلَى حَذَرٍ.

❁ وَكَمَا قِيلَ:(٢)

لَا خَيْرَ فِي وُدِّ امْرِئٍ مُتَمَلِّقٍ ... حُلْوِ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ ... وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ العَقْرَبُ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً ... وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ
وَاخْتَرْ قَرِينَكَ وَصَفِيَّهُ تَفَاخُرًا ... إِنَّ القَرِينَ إِلَى المُقَارِنِ يُنْسَبُ

---

(١) "فتح الباري" لابن حجر (١٠/ ٤٥٣).

(٢) "التوقيف على مهمات التعاريف" (صـ: ٧٩).

يَتَمَلَّقُ حُلْوَى اللِّسَانِ، طَيِّبُ الأَلْفَاظِ، وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ، يَحْمِلُ الحِقْدَ وَالعَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ. وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ العَقْرَبُ، وَمَا أَكْثَرَ العَقَارِب فِي هَذِهِ الأَيَّامِ، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يُلْسَعُ مِنْ هَؤُلَاءِ العَقَارِبِ، بَلْ بِلَسْعَاتٍ مُتَكَرِّرَةٍ.

فَاحْذَرْ عَلَى نَفْسِكَ مِنَ العَقَارِبِ البَشَرِيَّةِ، فَلَا تَكُنْ صَيْدًا ثَمِينًا وَلَا فَرِيسَةً تَقَعُ فِي مَخَالِبِهِم. فَمَا أَكْثَرَهُمْ، ـ لَا كَثَّرَهُمُ اللهُ ـ مَا أَكْثَرَ الثَّعَالِبَ وَالعَقَارِبَ وَالذِّئَابَ البَشَرِيَّةَ الَّذِينَ يَفْتَرِسُونَ مِنْكَ الدِّينَ وَالعَقِيدَةَ وَالصَّلَاحَ وَالاسْتِقَامَةَ وَالخَيْرَ وَالأَدَبَ وَالتَّوَاضُعَ وَالعِلْمَ.

"لأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَا"، أَيْ: طَوَّلْتُ عَلَيْكَ العِتَابَ وَزِدْتُ فِي العِتَابِ. لِمَاذَا؟ لِأَنَّكَ أَنْتَ فِي البَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَ، وَالبِطَالَةُ يُرَادُ بِهَا تَرْكُ العَمَلِ؛ لِأَنَّ الأَحْوَالَ تُبْطِلُ بِذَلِكَ،[١] عَدَمُ تَوَفُّرِ العَمَلِ والأشغال.

والتَّبطُّلُ: فِعْلُ البَطالة، وهو اتّباعُ اللهو والجَهالة.[٢]

وَهَذَا المَرَادُ، لِأَنَّكَ فِي البِطَالَةِ، أَيْ فِي اللَّهْوِ وَالجَهَالَةِ، قَدْ أَطَلْتَ. أَكْثَرْتَ مِنَ الجَهَالَاتِ وَالغَفْلَةِ وَالإِعْرَاضِ. وَلَيْسَ المَرَاد هُنَا بِالبِطَالَةِ عَدَمُ تَوَفُّرِ العَمَلِ.

---

(١) "العين" (٧/ ٤٣١).

(٢) "العين" (٧/ ٤٣١).

البيت رقم١١٣

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلاَ يَغْرُرْكَ تَقْصِيرِي وَسَهْوِي ... وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِنْ رَشَدْتَا

شرح البيت رقم ١١٣

أَيْ: خُذْ بِنَصِيحَتِي، وَلَا تَنْظُرْ إِلَى تَقْصِيرِي وَسَهْوِي، فَأَنَا مُقَصِّرٌ وَاقِعٌ فِي السَّهْوِ وَالتَّقْصِيرِ، فَلَا تَغْتَرَّ بِذَلِكَ، وَخُذِ النَّصَائِحَ الثَّمِينَةَ وَالتَّوْجِيهَاتِ النَّافِعَةَ، لِأَنَّهُ قَلَّ مَنْ يَسْلَمُ مِنَ الخَطَأِ وَالتَّقْصِيرِ. وَكَمَا يُقَالُ: خُذْ بِنُصْحِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي،

وَتَجِدُ كَثِيرًا مِنَ السَّلَفِ كَمَا تَقَدَّمَ الإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ، يَعْتَرِفُونَ بِتَقْصِيرِهُمْ،

❁ وَكَمَا قَالَ القَحْطَانِيُّ:

وَاللهِ لَو عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي ... لَأَبَى السَّلَامَ عليَّ مَنْ يَلْقَانِي

ولَأَعْرَضُوا عَنِّي ومَلُّوا صُحْبَتِي ... وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كرامةٍ بِهَوَانِ

فَالإِنْسَانُ مُعَرَّضٌ لِلسَّهْوِ وَالتَّقْصِيرِ وَالغَفْلَةِ، تَقَعُ مِنْهُ المَعَاصِي وَلَابُدَّ، لَكِنْ لَا يُصِرُّ عَلَى ذَلِكَ. المُؤْمِنُ يَتُوبُ وَيَسْتَغْفِرُ وَيَعُودُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَرْجِعُ.

"**وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِنْ رَشَدْتَا**"، أَيْ: إِذَا أَرَدتَ أن يُوَفِّقَكَ اللهُ لِلرُّشْدِ وَعَرَفْتَ طَرِيقَ الرشد، وَهَذَا خَيْرٌ لَكَ، فَخُذْ بِمِثْلِ هَذِهِ الوَصِيَّةِ.

وَالرَّاشِدُ هُوَ الطَّائِعُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ. «مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ».

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ الحجرات [٧].

وَالإِنْسَانُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ عَلَى خَيْرٍ وَاسْتِقَامَةٍ، وَيَتَّعِظَ بِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ وَمَوْتِهِمْ.

❁ وَكَمَا قِيلَ:

أَلَا مَنْ لِي بِمِثْلِكَ يَا أُخَيَّا ... وَمَنْ لِي أَنْ أَبُثَّكَ مَا لَدَيَّا
طَوَتْكَ خُطُوبُ دَهْرِكَ بَعْدَ نَشْرٍ ... كَذَاكَ خُطُوبُهُ نَشْرًا وَطَيَّا
فَلَوْ نَشَرَتْ طَوَاكَ لِي الْمَنَايَا ... شَكَوْتُ إِلَيْكَ مَا صَنَعَتْ إِلَيَّا
بَكَيْتُكَ يَا عَلِيُّ بَدْرَ عَيْنِي ... فَلَمْ يُغْنِ الْبُكَاءُ عَلَيْكَ شَيَّا
كَفَى حَزَنٌ بِدَفْنِكَ ثُمَّ إِنِّي ... نَفَضْتُ تُرَابَ قَبْرِكَ عَنْ يَدَيَّا
وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ ... فَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيَّا[1]

فإِذَا أَرَدْتَ طَرِيقَ الرَّشَادِ فَخُذْ بِمِثْلِ هَذِهِ الوَصَايَا وَالتَّوْجِيهَاتِ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَى تَقْصِيرِ النَاصِحِ وَسَهْوِهِ، فَلَا يَخْلُو مِنَ التَّقْصِيرِ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ

وَأَمَّا سَائِرُ البَشَرِ فَهُمْ مُعَرَّضُونَ، لِلنَّقْصِ، لِلتَّقْصِيرِ، لِلسَّهْوِ، للزلل.

(١) "العين" (٧/ ٤٣١).

البيت رقم١١٤

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَدْ أَرْدَفْتُهَا تِسْعًا حِسَانًا وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا مِائَةً وِسِتَّا

شرح رقم ١١٤

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَقَدْ أَرْدَفْتُهَا تِسْعًا حِسَانًا"، أتبعها بتسعة أبيات.

"وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا مِائَةً وِسِتَّا"، كَانت مِائَةً وَسِتة أَبْيَاتٍ، مَعَ زِيَادَةِ التِّسْعِ يَكُونُ المَجْمُوعُ مِائَةً وَخَمْسَةَ عَشَرَ.

وَعَلَى نُسْخَةٍ "وَقَدْ أَرْدَفْتُهَا سِتاً حِسَانًا"، وَمَعَ إِضَافَةِ السِّتِّ يَكُونُ المَجْمُوعُ مِائَة وَاثْنَيْ عَشَرَ.

والأبيات الزائدة هي:

❁ الأولى:

وَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحاً وَمِلتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا

❁ الثانية

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا لأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهِدْتَا

❁ الثالثة

وَصَلِّ عَلَى تَمَامِ الرُّسْلِ رَبِّي وَعِتْرَتِهِ الْكَرِيمَةِ مَا ذُكِرْتَا

البيت رقم١١٥

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَصَـــلِّ عَـلَى تَمَـام الـرُّسْـــلِ رَبِّي وَعِـتْرَيـهِ الْـكَـرِيـمَـةِ مَـا ذُكِـرْتَـا

شرح البيت رقم ١١٥

الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لَهَا فَضْلٌ عَظِيمٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ الأحزاب [٥٦].

قَدْ جَاءَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ». (١)

وَجَاءَ مِنْ حَدِيثِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ، ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ». (٢)

فَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عَظِيمَةُ الفَضْلِ كَثِيرَةُ الأَجْرِ، وَلَهَا عِدةُ مَوَاطِن وَفَضَائِلُهَا كَثِيرَةٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤).

(٢) رواه أحمد (١٧٣٦)، والترمذي (٣٥٤٦)، والطبراني في "الكبير" (٢٨٨٥)، والحاكم (٢٠١٥). وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في "الإرواء" (٣). وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رواه البيهقي في "الشعب" (١٤٦٤)، وهو في "الضعيفة" (٧٠٧٠).

"وَصَلِّ عَلَى تَمَامِ الرُّسْلِ رَبِّي"، الرُّسُلُ: جَمْعُ رَسُولٍ، وَعِنْدَ الجُمْهُورِ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.

"وَعِتْرِيهِ الْكَرِيمَةِ مَا ذُكِرْتَا"، الْعِتْرَةَ: هُمْ بَنُو هَاشِمٍ كُلُّهُمْ: وَلَدُ الْعَبَّاسِ، وَوَلَدُ عَلِيٍّ، وَوَلَدُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَسَائِرُ بَنِي أَبِي طَالِبٍ، وَغَيْرُهُمْ، وَعَلِيٌّ وَحْدَهُ لَيْسَ هُوَ الْعِتْرَةَ، وَسَيِّدُ الْعِتْرَةِ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ عُلَمَاءَ الْعِتْرَةِ كَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ لَمْ يَكُونُوا يُوجِبُونَ اتِّبَاعَ عَلِيٍّ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ، وَلَا كَانَ عَلِيٌّ يُوجِبُ عَلَى النَّاسِ طَاعَتَهُ فِي كُلِّ مَا يُفْتِي بِهِ، وَلَا عُرِفَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ - لَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَلَا غَيْرِهِمْ - قَالَ: إِنَّهُ يَجِبُ اتِّبَاعُ عَلِيٍّ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ.(١)

❁ قَالَ ابنُ الأثير: عِتْرَة الرَّجُلِ: أخَصُّ أقَارِبه. وعِتْرَة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: بَنُو عَبْد المُطَّلب. وَقِيلَ: أهلُ بيتِه الأقْرَبُون، وَهُمْ أوْلادُه وعليٌّ وأوْلادُه. وَقِيلَ: عِتْرَتُه الأقْرَبُون والأبْعدُون مِنْهُمْ.(٢)

❁ قَالَ ابنُ منظور: وَالْمَشْهُورُ الْمَعْرُوفُ أَن عترَته أَهلُ بَيْتِهِ، وَهُمُ الَّذِينَ حُرِّمَت عَلَيْهِمُ الزَّكَاةُ وَالصَّدَقَةُ الْمَفْرُوضَةُ، وَهُمْ ذَوُو الْقُرْبَى الَّذِينَ لَهُمْ خُمُسُ الخُمُسِ الْمَذْكُورُ فِي سُورَةِ الأَنفال.(٣)

---

(١) "منهاج السنة النبوية" (٧/ ٣٩٥-٣٩٦).

(٢) "النهاية" (٣/ ١٧٧).

(٣) "لسان العرب" (٤/ ٥٣٨).

❁ وَقَالَ الطَّحَاوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العِتْرَةُ: هُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى دِينِهِ. وَعَلَى التَّمَسُّكِ بِأَمْرِهِ. وَعَلَى التَّمَسُّكِ بِأَمْرِهِ.(١)

قَدْ جَاءَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي».(٢) وَجَاءَ لَهُ شَوَاهِدٌ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَعَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ (٣) قَالَ الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَفِي البَابِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، وَحُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

❁ قَالَ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأهل بيته في الأصل هم: نساؤه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وفيهن الصديقة عائشة رضي الله عنهن، جميعا كما هو صريح قوله تعالى في الأحزاب [٣٣]. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، بدليل الآية التي قبلها والتي بعدها: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ الأحزاب [٣٢-٣٤]. (وذكر، بأن تخصيص) (أهل البيت) في الآية، بعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، دون نسائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من تحريفهم لآيات الله تعالى؛ انتصارا

(١) نقله الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في "الصحيحة" (٤/ ٣٦٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٨٦) والطبراني في "الكبير" (٢٦٨٠)، وهو في "صحيح الجامع" (٢٧٤٨) وفي "الصحيحة"(١٧٦١)، للألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفي الحديثِ ضعفٌ، قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لكن الحديث صحيح، فإن له شاهدا من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ،

(٣) ذكرها الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في "الصحيحة"(١٧٦١).

لأهوائهم كما هو مشروح في موضعه، وحديث الكساء، وما في معناه غاية ما فيه، توسيع دلالة الآية ودخول علي، وأهله فيها كما بينه الحافظ ابن كثير وغيره،

وكذلك حديث "العترة" قد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أن المقصود أهل بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالمعنى الشامل لزوجاته، وعلي، وأهله. (١)

فيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ نِسَاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِقَوْلِهِ: (عِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي). قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. فَأَزْوَاجُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلْنَ فِيْ ذَلِكَ.

❁ قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ: عِتْرَةُ الرَّجُلِ أَهْلُ بَيْتِهِ وَرَهْطُهُ الْأَدْنَوْنَ، وَلِاسْتِعْمَالِهِمُ الْعِتْرَةَ عَلَى أَنْحَاءٍ كَثِيرَةٍ بَيَّنَهَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ – بِقَوْلِهِ: أَهْلَ بَيْتِي، لِيُعْلَمَ أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ نَسْلَهُ وَعِصَابَتَهُ الْأَدْنَيْنَ وَأَزْوَاجَهُ اهـ. (٢)

❁ وَقَالَ الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْمُرَادُ بِالْأَخْذِ بِهِمُ التَّمَسُّكُ بِمَحَبَّتِهِمْ وَمُحَافَظَةُ حُرْمَتِهِمْ وَالْعَمَلُ بِرِوَايَتِهِمْ وَالِاعْتِمَادُ عَلَى مَقَالَتِهِمْ، وَهُوَ لَا يُنَافِي أَخْذَ السُّنَّةِ مِنْ غَيْرِهِمْ لِقَوْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ –: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ». (٣)

وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأنبياء [٧]، وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: التَّمَسُّكُ بِالْكِتَابِ الْعَمَلُ بِمَا فِيهِ وَهُوَ الِائْتِمَارُ بِأَوَامِرِ اللَّهِ وَالِانْتِهَاءُ بِنَوَاهِيهِ، وَمَعْنَى التَّمَسُّكِ بِالْعِتْرَةِ مَحَبَّتُهُمْ وَالِاهْتِدَاءُ بِهَدْيِهِمْ وَسِيرَتِهِمْ. زَادَ السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ: إِذَا لَمْ يَكُنْ

---

(١) "الصحيحة" (٤/٣٥٩ـ ٣٦٠).

(٢) كَمَا "مرقاة المفاتيح" (٩/ ٣٩٧٤).

(٣) موضوع، وانظر: "الضعيفة" (٥٨)، وبنحوه، (٥٩)، و (٦١).

مُخَالِفًا لِلدِّينِ. قُلْتُ: بِإِطْلَاقِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - إِشْعَارٌ بِأَنَّ مَنْ يَكُونُ مِنْ عِتْرَتِهِ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَكُونُ هَدْيُهُ سِيرَتُهُ إِلَّا مُطَابِقًا لِلشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ.(١)

❁ قَالَ الهَرَوي رَحِمَهُ اللَّهُ: الْأَظْهَرُ هُوَ أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ غَالِبًا يَكُونُونَ أَعْرَفَ بِصَاحِبِ الْبَيْتِ وَأَحْوَالِهِ، فَالْمُرَادُ بِهِمْ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْهُمُ الْمُطَّلِعُونَ عَلَى سِيرَتِهِ، الْوَاقِفُونَ عَلَى طَرِيقَتِهِ، الْعَارِفُونَ بِحُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَلِهَذَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونُوا مُقَابِلًا لِكِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا قَالَ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ البقرة [١٢٩].(٢)

وَجَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الآخَرِ: كِتَابَ اللهِ، حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي. إِلَّا أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ».(٣) وفي حديثِ زيدِ بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ خَلِيفَتَيْنِ: كِتَابُ اللهِ وَأَهْلُ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ جَمِيعًا».(٤)

وللحديث شواهد.

---

(١) كَمَا "مرقاة المفاتيح" (٩/ ٣٩٧٤).

(٢) "مرقاة المفاتيح"(٩/ ٣٩٧٥).

(٣) أخرجه أحمد (١١١٠٤)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٠٠٨١) والطبراني في "الصغير" (٣٦٣) وفي "الأوسط" (٣٤٣٩)، وفي "الكبير" (٢٦٧٨)، وأبي يعلى في "مسنده" (١٠٢٧)، (١١٤٠)، وفيه ضعف. وقولُهُ: «وَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ جَمِيعًا»، هَذِهِ الزيادة فيها كلامٌ، كما في "تحقيق مسند أحمد"، ط. الرسالة. واللهُ أعلم.
وَقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: وهو إسناد حسن في الشواهد. "الصحيحة" (٤/ ٣٥٧). "صحيح الجامع" (٧٨٧٧)

(٤) رواه أحمد (٢١٥٧٨)، (٢١٦٥٤)، و"السنة" لابن أبي عاصم (٧٥٤)، (١٥٤٨)، ٠(١٥٤٩)، والطبراني في "الكبير" (٤٩٢٢)، وغيرهم، قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: وإنما صححته؛ لأن له شواهد تقوية، فراجع "تخريج المشكاة" و"الأحاديث الصحيحة" (١٧٦١) و"الروض النضير" (٩٧٧)، (٩٧٨). "السنة" لابن أبي عاصم ومعها "ظلال الجنة" للألباني (٢/ ٣٥١)، و"صحيح الجامع" (٢٤٥٧)

وَقَدْ جَاءَ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بنِ أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»، فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ.(١) وفي رواية: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ، وَأَخَذَ بِهِ، كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ، ضَلَّ»، وَفِي روايةٍ لهُ أيضاً: «أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ " وَفِيهِ فَقُلْنَا: مَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ نِسَاؤُهُ؟ قَالَ: لَا، وَايْمُ اللهِ إِنَّ الْمَرْأَةَ تَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ الْعَصْرَ مِنَ الدَّهْرِ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا فَتَرْجِعُ إِلَى أَبِيهَا وَقَوْمِهَا أَهْلُ بَيْتِهِ أَصْلُهُ، وَعَصَبَتُهُ الَّذِينَ حُرِمُوا الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ». وَفِيهِ بَيَانُ مَنْ هُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ القَوْلِ بِأَنَّهُمْ خَمْسَةٌ فَقَطْ، بَلْ شَامِلٌ لِكُلِّ مَنْ كَانَ مِنْ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ.

وَقَدْ جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ».(٢)

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه الحاكم (٣١٩)، والبيهقي في "الكبرى" (٢٠٣٣٧) وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، "صحيح الجامع" (٢٩٣٧)، وورد بلفظ: (خَلَّفْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ).

❁ قَالَ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قِيلَ: سَمَّاهُما ثَقَلَيْنِ، لأَنَّ الأَخْذَ بِهِمَا، وَالْعَمَلَ بِهِمَا ثَقِيلٌ، وَقِيلَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ المزمل [٥]، أَيْ: أَوَامِرَ اللَّهِ، وَفَرَائِضِهِ، وَنَوَاهِيهِ، لَا تُؤَدَّى إِلا بِتَكَلُّفِ مَا يُثْقِلُ، وَقِيلَ: قَوْلا ثَقِيلا، أَيْ: لَهُ وَزْنٌ، وَسُمِّيَ الْجِنُّ وَالإِنْسُ ثَقَلَيْنِ؛ لأَنَّهُمَا فُضِّلا بِالتَّمْيِيزِ عَلَى سَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَزْنٌ وَقَدْرٌ يُتَنَافَسُ فِيهِ، فَهُوَ ثَقَلٌ. (١)

❁ وَقَالَ الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيِ: الْأَمْرَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ، سَمَّى كِتَابَ اللَّهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ بِهِمَا؛ لِعِظَمِ قَدْرِهِمَا؛ وَلِأَنَّ الْعَمَلَ بِهِمَا ثَقِيلٌ عَلَى تَابِعِهِمَا. قَالَ صَاحِبُ الْفَائِقِ: الثَّقَلُ الْمَتَاعُ الْمَحْمُولُ عَلَى الدَّابَّةِ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ: الثَّقَلَانِ؛ لِأَنَّهُمَا ثَقَالُ الْأَرْضِ فَكَأَنَّهُمَا ثَقَلَاهَا، وَقَدْ شَبَّهَ بِهِمَا الْكِتَابَ وَالْعِتْرَةَ فِي أَنَّ الدِّينَ يُسْتَصْلَحُ بِهِمَا وَيَعْمُرُ كَمَا عَمُرَتِ الدُّنْيَا بِالثَّقَلَيْنِ. (٢)

❁ قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سَمَّاهُما ثَقَلَيْن؛ لِأَنَّ الأخْذ بِهِمَا والعمَل بِهِمَا ثَقِيل. وَيُقَالُ لكلِّ خَطِيرٍ [نَفِيسٍ] ثَقَل، فسَمَّاهُما ثَقَلَين إِعْظَامًا لقدرهما وتفخيما لشأنهما. (٣)

❁ قَالَ الأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المَقْصُودُ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ إِنَّمَا هُمُ العُلَمَاءُ الصَّالِحُونَ مِنْهُمْ وَالمُتَمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. (٤)

---

(١) "شرح السنة" للبغوي (١٤/ ١١٨).

(٢) "مرقاة المفاتيح" (٩/ ٣٩٦٧).

(٣) "النهاية" (١/ ٢١٦).

(٤) "الصحيحة" (٤/ ٣٦٠).

❁ وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت: والحاصل أن ذكر أهل البيت في مقابل القرآن في هذا الحديث، كذكرِ سنةِ الخلفاء الراشدين مع سنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في قوله: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ...». قال الشيخ القاريء (١ / ١٩٩): فإنهم لم يعملوا إلا بسنتي، فالإضافة إليهم، إما لعملهم بها، أو لاستنباطهم واختيارهم إياها. (١)

❁ قَالَ الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وبقي: من هم أهل بيت النبوة؟

إنّهم: آل علي، وآل عقيل، وآل عباس، ومن حرمت عليهم الصدقة، فإن قال قائل: فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: ((اللّٰهمّ هؤلاء أهل بيتي)) وأشار إلى فاطمة، وعلي، والحسن، والحسين، فهذا يدل على منْزلتهم الرفيعة، ولكنه لا يدل على أن الآخرين ليسوا من أهل البيت، ونساؤه أيضًا داخلات في أهل البيت؛ لأنّهن في السياق ...

وهذه الفضائل المتقدمة هل هي تشمل من لم يكن مستقيمًا؟

فإما أن يكون مبغضًا للسنة، وإما أن يكون هاشميًا وقد أصبح شيوعيًا، أو بعثيًا، أو مرتشيًا، أو مديرًا للضرائب والجمارك، أو موظفا في البنك الربوي، فهل يشمله هذا؟

فأقول: إننا لا نستطيع أن ننفي نسبه إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، لكن الفضيلة لا تشمله. بل الفضيلة للمتمسكين بكتاب الله وبسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من أهل بيت النبوة، وأسعد الناس من كان من أهل بيت النبوة وهو من أهل السنة.

فنحن ندعوهم إلى سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ. (٢)

فَمَنْ كَانَ مِنْ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ وَالعِلْمِ وَالاسْتِقَامَةِ، فَهَذَا يَزِيدُهُ شَرَفًا.

(١) "الصحيحة" (٤/٣٦١).
(٢) "تحفة المجيب" (صـ:١٣ ـ ١٤).

وَمَنْ كَانَ مِنْ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَكُنْ عَلَى اسْتِقَامَةٍ وَلَمْ يَكُنْ مُتَمَسِّكًا بِسُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَلَا بِطَرِيقَةِ آلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ، فَلَا يُفِيدُهُ ذَلِكَ النَّسَبُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ المؤمنون [١٠١]. تَنْقَطِعُ الأَنْسَابُ، وَتَذْهَبُ، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا سَبَبِي وَنَسَبِي».(١)

❁ قَالَ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسيره": أَيْ: لَا تَنْفَعُ الْأَنْسَابُ يَوْمَئِذٍ، وَلَا يَرْثِي وَالِدٌ لِوَلَدِهِ، وَلَا يَلْوِي عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ المعارج [١٠، ١١].

أَيْ: لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ وَهُوَ يُبْصِرُهُ، وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْزَارِ مَا قَدْ أَثْقَلَ ظَهْرَهُ، وَهُوَ كَانَ أَعَزَّ النَّاسِ عَلَيْهِ -كَانَ-فِي الدُّنْيَا، مَا الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَلَا حَمَلَ عَنْهُ وَزْنَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ عبس [٣٤-٣٧]. ا.هـ.

❁ قَالَ الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما حديث: «كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا سَبَبِي وَنَسَبِي»، وظاهره التعارض مع قول الله عز وجل: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ المؤمنون [١٠١]، **وهو حديث صحيح، وقد كنت أقول بضعفه، لأنني لم أستوعب طرقه. وهذا الحديث يدل على أن من كان مستقيمًا في هذا الزمن، فإنه يشمله هذا الحديث، وليس مجرد زهد، وهو يختلس أموال الناس بالحروز، والعزائم.**

فنريد أن نسلك مسلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وفاطمة الزاهدة التقية، وهكذا الحسن، والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والذي يسب الصحابة ليس له نصيب في هذه الفضيلة، يقول الله سبحانه وتعالى في شأن الصحابة: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ الحديد [١٠].

(١) روي من حديث عبد الله بن عباس، وعمر بن الخطاب، والمسور بن مخرمة، وعبد الله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، "الصحيحة" (٢٠٣٦).

فلا يشغلوك بمعاوية، ولا بفلان، وفلان، بل اشتغل بنفسك، فهل أنت راض عن نفسك؟

❁ ولقد أحسن من قال:

لَعَمْرُكَ إِنَّ فِي ذَنْبِي لَشُغْلًا ... بِنَفْسِي عَنْ ذُنُوبِ بَنِي أُمَيَّه

عَلَى رَبِّي حِسَابُهُمُ تَنَاهَى ... إِلَيْهِ عِلْمُ ذَلِكَ لا إِلَيَّه

وَلَيْسَ بِضَائِرِي مَا قَدْ أَتَوْهُ ... إِذَا مَا اللهُ يَغْفِرُ مَا لَدَيَّه[1]

❁ قَالَ الشيخُ عبد المحسن بن حمد العبادُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القولُ الصحيحُ في المرادِ بآل بيت النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ هم مَن تَحرُم عليهم الصَّدقةُ، وهم أزواجُه وذريَّتُه، وكلُّ مسلمٍ ومسلمةٍ من نَسْل عبد المطلب، وهم بنُو هاشِم بن عبد مَناف؛ قال ابن حزم في "جمهرة أنساب العرب" (صـ:١٤): وُلِد لهاشم بن عبد مناف: شيبةُ، وهو عبد المطلب، وفيه العمود والشَّرف، ولَم يبْقَ لهاشم عَقِبٌ إلاَّ مِن عبد المطلب فقط... فأمَّا دخول أزواجه رضي الله عنهنَّ في آلِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فيدلُّ لذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ الأحزاب [٣٣]. فإنَّ هذه الآيةَ تدلُّ على دخولِهنَّ حتماً؛ لأنَّ سياقَ الآيات قبلها وبعدها خطابٌ لهنَّ، ولا يُنافي ذلك ما جاء في صحيح الإمام مسلم (٢٤٢٤) عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنَّها قالت: " خرج النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّل من شَعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثمَّ جاء الحُسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمةُ فأدخلها، ثمَّ جاء عليٌّ فأدخله، ثمَّ قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ الأحزاب [٣٣] ؛ لأنَّ

---

(١) "تحفة المجيب" (صـ: ١٦).

الآيةَ دالَّةٌ على دخولِهنَّ؛ لكون الخطابِ في الآيات لهنَّ، ودخولُ عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الآيةِ دلَّت عليه السُّنَّةُ في هذا الحديث، وتخصيصُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لهؤلاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذا الحديث لا يدلُّ على قَصْرِ أهل بيته عليهم دون القرابات الأخرى، وإنَّما يدلُّ على أنَّهم مِن أخصِّ أقاربه.(١)

وَعَمُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ غَضِبَ لَهُ وَدَافَعَ عَنْهُ، وَمَا أَفَادَهُ ذَلِكَ، وَهُوَ عَمُّهُ، مَعَ أَنَّهُ دَافَعَ عَنْهُ حَتَّى مَاتَ، وَشَفَعَ لَهُ مِنْ كَوْنِهِ فِي أَسْفَلِ النَّارِ إِلَى ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ. عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».(٢)

وهذا والدُ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ»، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ».(٣)

وَهَذِهِ والدتُهُ، اسْتَأْذَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِأُمِّهِ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَاسْتَأْذَنَ أَنْ يَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لَهُ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي»، رواه مسلم، وفي روايةٍ لهُ: زَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى

---

(١) "فضل أهل البيت وعلو مكانتهم عند أهل السنة والجماعة" (صـ: ٧ ـ ٨).

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٣)، (٦٢٠٨) ومسلم (٢٠٩).

(٣) رواه مسلم (٢٠٣).

وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ». (١)

وهكذا من أعمامِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، من كان ضد دعوتِهِ، ونزل القرآن في بيان ذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ المسد [١-٥].

❁ قَالَ القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسيره": وَأَبُو لَهَبٍ اسْمُهُ عَبْدُ الْعُزَّى، وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَامْرَأَتُهُ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ، أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَكِلَاهُمَا، كَانَ شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.ا.هـ.

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، قَالَ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسيره": الْأَوَّلُ دُعَاءٌ عَلَيْهِ، وَالثَّانِي خَبَرٌ عَنْهُ، فَأَبُو لَهَبٍ هَذَا هُوَ أَحَدُ أَعْمَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَاسْمُهُ: عَبْدُ العُزّى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو عُتبة. وَإِنَّمَا سُمِّيَ "أَبَا لَهَبٍ" لِإِشْرَاقِ وَجْهِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْأَذِيَّةِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَالْبُغْضَةِ لَهُ، وَالِازْدِرَاءِ بِهِ، وَالتَّنَقُّصِ لَهُ وَلِدِينِهِ... فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، أَيْ: خَسِرَتْ وَخَابَتْ، وَضَلَّ عَمَلُهُ وَسَعْيُهُ، {وَتَبَّ}، أَيْ: وَقَدْ تَبَّ تَحَقُّقُ خَسَارَتِهِ وَهَلَاكِهِ. ا.هـ.

فَالشَّاهِدُ أَنَّ قُرْبَ النَّسَبِ، بِغَيْرِ اسْتِقَامَةٍ لَا يَنْفَعُ أَبَدًا، وَالتَّفَاخُرُ بِالأَحْسَابِ، وَالأَنْسَابِ مِنْ أُمُورِ الجَاهِلِيَّةِ.

---

(١) رواه مسلم (٩٧٦).

فَقَوْلُهُ: "وَعِتْرَتِهِ الْكَرِيمَةِ مَا ذُكِرْتَا"، أَيْ: صَل عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَى آلِهِ، مِمَّنْ يَدْخُلُونَ فِي عِتْرَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الكَرِيمَةِ الذين أَكْرَمَهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَرَفِ النَّسَبِ والتمسك بهذا الدينِ القويم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ الشرح [٤].

❁ قَالَ الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: فلا أُذْكَرُ إلا ذُكِرْتَ معي، وذلك قول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. (١)

❁ قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرتَ مَعِي: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. (٢)

❁ وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: رَفَعَ اللهُ ذكره فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مُتشهد وَلَا صاحبُ صَلَاةٍ إِلَّا يُنَادِي بِهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. (٣)

❁ وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يَقُولُ لَهُ لَا ذُكِرْتُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِي فِي الْأَذَانِ، وَالْإِقَامَةِ وَالتَّشَهُّدِ، وَيَوْمَ الْجُمُعَةَ عَلَى الْمَنَابِرِ، وَيَوْمَ الفطر، ويوم الأضحى: وأيام التشريق، وَيَوْمَ عَرَفَةَ، وَعِنْدَ الْجِمَارِ، وَعَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَفِي خُطْبَةِ النِّكَاحِ، وَفِي

(١) "تفسير الطبري"(٢٤/ ٤٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في "تفسيره" (٢٤/ ٤٩٤)، وأبو بكر الخلال في "السنة" (٣١٧)، وغيرهم، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه الطبري في "تفسيره" (٢٤/ ٤٩٤)، وسنده صحيح.

مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا عَبَدَ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وصدق بالجنة والنار وكل شي، وَلَمْ يَشْهَدْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ وَكَانَ كَافِرًا. (١)

❁ قَالَ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ...فَهَذَا هُوَ الشَّرَفُ، وَهَذِهِ هِيَ الرِّفْعَةُ، وَهَذَا هُوَ التَّكْرِيمُ وَالتَّنْوِيهُ وَالْإِشْهَارُ وَالتَّقْدِيمُ وَالْعُلُوُّ وَالْعَظَمَةُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ.

وَأَمَّا رَفْعُ ذِكْرِهِ فِي الْآخِرِينَ، فَإِنَّ دِينَهُ بَاقٍ نَاسِخٌ لِكُلِّ دِينٍ، وَلَا يُنْسَخُ هُوَ أَبَدَ الْآبِدِينَ، وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالنِّدَاءُ بِالْأَذَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. وَهَكَذَا كُلُّ خَطِيبٍ يَخْطُبُ لَا بُدَّ أَنْ يَذْكُرَهُ فِي خُطْبَتِهِ،

❁ وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ حَسَّانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ

وَضَمَّ الْإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

---

(١) كما في "تفسير القرطبي" (٢٠/ ١٠٧)، قال العلائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان شعبة ينكر أن يكون لقي بن عباس، وروى عن يونس بن عبيد، أنه قال: ما رأى بن عباس قط. وعن عبد الملك بن ميسرة، أنه لم يلقه إنما لقي سعيد بن جبير بالري فأخذ عنه التفسير. وروى شعبة أيضا عن مشاش أنه قال: سألت الضحاك لقيت بن عباس قال: لا. وقال الأثرم سمعت أحمد بن حنبل: يسأل الضحاك لقي بن عباس قال: ما علمت، قيل: فمن سمع التفسير، قال: يقولون سمعه من سعيد بن جبير، وقال بن حبان: أما رواياته عن أبي هريرة وابن عباس وجميع من روى عنه ففي ذلك كله نظر وإنما اشتهر بالتفسير. "جامع التحصيل. (صـ: ١٩٩).

وَشَــقَّ لَـهُ مِـنَ اسْــمِـهِ لِـيُـجِـلَّـهُ فَـذُو الْـعَـرْشِ مَـحْـمُـودٌ وَهَـذَا مُـحَـمَّـدُ

❁ وَقَالَ الصَّرْصَرِيُّ، وَهُوَ حَسَّانُ وَقْتِهِ:

لَا يَصِــحُّ الْأَذَانُ فِي الْـفَـرْضِ إِلَّا بِـاسْــمِـهِ الْـعَـذْبِ فِي الْفَمِ الْمُرْضِيِّ

❁ وَقَالَ أَيْضًا:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّـا لَا يَصِــحُّ أَذَانُـنَـا وَلَا فَـرْضُــنَـا إِنْ لَمْ نُكَرِّرْهُ فِيهِمَا[1]

فَهَذِهِ الأَبْيَاتُ أَبْيَاتٌ طَيِّبَةٌ جِدًّا، فِيهَا خَيْرٌ عَظِيمٌ وَذِكْرَى وَمَوْعِظَةٌ. ونظمُها نظمٌ مباركٌ مفيد، فَهِيَ مَنْظُومَةٌ طَيِّبَةٌ جميلةٌ، اشْتَمَلَتْ عَلَى حِكَمٍ وَمَوَاعِظ طَيِّبَةٍ جِداً، تُحْفَظُ، ويُعتنى بها.

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.

كان الانتهاء من التعديل عليها، في ماوية ـ قرية المنعامة ـ حبيل محمد ـ ظهر يوم الخميس/١٩/ ربيع الأول/ ١٤٤٧هجرية على صاحبها أفضلُ الصلاة وأتم التسليم



(١) البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٣٧٣ـ ٣٤٧).

الفهـرس

المقدمة..... ٢
ترجمة الناظم رحمه الله..... ٣
نص المنظومة التائية..... ٨
أهمية الأدب..... ١٤
البيت رقم ١..... ٢٣
شرح البيت رقم١..... ٢٣
البيت رقم ٢..... ٢٨
شرح البيت رقم٢..... ٢٨
البيت رقم ٣..... ٣٠
شرح البيت رقم ٣..... ٣٠
البيت رقم ٤..... ٣٣
شرح البيت رقم ٤..... ٣٣
البيت رقم ٥ و٦..... ٤٠
شرح البيت رقم ٥و٦..... ٤٠
البيت رقم ٧..... ٤١
شرح البيت رقم ٧..... ٤١
البيت رقم ٨ و٩..... ٤٧
شرح البيت رقم ٨ و ٩..... ٤٧
البيت رقم ١٠..... ٥٠
شرح اليت رقم ١٠..... ٥٠

البيت رقم ١١و١٢ ..... ٥٧
شرح البيت رقم ١١ و ١٢ ..... ٥٧
البيت ١٣ ..... ٦١
شرح البيت رقم ١٣ ..... ٦١
البيت ١٤ ..... ٦٦
شرح البيت رقم ١٤ ..... ٦٦
البيت ١٥ ..... ٧٣
شرح البيت رقم ١٥ ..... ٧٣
البيت رقم ١٦ ..... ٧٦
شرح البيت رقم ١٦ ..... ٧٦
البيت ١٧ ..... ٧٨
شرح البيت رقم ١٧ ..... ٧٨
البيت رقم ١٨ ..... ٨٣
شرح البيت رقم ١٨ ..... ٨٣
البيت رقم ١٩ ..... ٩٠
شرح البيت رقم ١٩ ..... ٩٠
البيت رقم ٢٠ ..... ٩٤
شرح البيت رقم ٢٠ ..... ٩٤
البيت رقم٢١ ..... ١٠١
شرح البيت رقم ٢١ ..... ١٠١
البيت رقم٢٢ ..... ١٠٧
شرح البيت رقم ٢٢ ..... ١٠٧

البيت رقم ٢٣..... ١٠٩
شرح البيت رقم ٢٣..... ١٠٩
البيت رقم ٢٤..... ١١٢
شرح البيت رقم ٢٤..... ١١٢
البيت رقم ٢٥..... ١١٥
شرح البيت رقم ٢٥..... ١١٥
البيت رقم ٢٦..... ١٢٢
شرح البيت رقم ٢٦..... ١٢٢
شرح البيت رقم ٢٧ و ٢٨..... ١٢٧
شرح البيت رقم ٢٨..... ١٣١
البيت رقم ٣٠..... ١٣٥
شرح البيت رقم ٣٠..... ١٣٥
البيت رقم ٣١..... ١٤٣
شرح البيت رقم ٣١..... ١٤٣
البيت رقم ٣٢..... ١٤٦
شرح البيت رقم ٣٢..... ١٤٦
البيت رقم ٣٣..... ١٤٨
شرح البيت رقم ٣٣..... ١٤٨
البيت رقم٣٤..... ١٤٩
شرح البيت رقم ٣٤..... ١٤٩
البيت رقم ٣٥..... ١٥١
شرح البيت رقم ٣٥..... ١٥١

البيت رقم ٣٦..... ١٥٦
شرح البيت رقم ٣٦..... ١٥٦
البيت رقم٣٧..... ١٦٩
شرح البيت رقم ٣٧..... ١٦٩
البيت رقم ٣٨..... ١٧٤
شرح ٣٨..... ١٧٤
البيت رقم ٣٩..... ١٧٧
شرح البيت رقم ٣٩..... ١٧٧
البيت رقم ٤٠..... ١٨٠
شرح البيت رقم ٤٠..... ١٨٠
البيت رقم٤١..... ١٨١
شرح البيت رقم ٤١..... ١٨١
البيت رقم٤٢..... ١٨٣
شرح البيت رقم ٤٢..... ١٨٣
البيت رقم٤٣..... ١٨٧
شرح البيت رقم ٤٣..... ١٨٧
البيت رقم٤٤..... ١٩١
شرح البيت رقم ٤٤..... ١٩١
البيت رقم٤٥..... ١٩٧
شرح البيت رقم ٤٥..... ١٩٧
البيت رقم ٤٦..... ٢٠١
شرح البيت رقم ٤٦..... ٢٠١

البيت رقم ٤٧..... ٢٠٥
شرح البيت رقم ٤٧..... ٢٠٥
البيت رقم ٤٨..... ٢١٠
شرح البيت رقم ٤٨..... ٢١٠
البيت رقم ٤٩..... ٢١٦
شرح البيت رقم ٤٩..... ٢١٦
البيت رقم ٥٠..... ٢٢٥
شرح البيت رقم ٥٠..... ٢٢٥
البيت رقم٥١..... ٢٣٠
شرح البيت رقم ٥١..... ٢٣٠
البيت رقم ٥٢..... ٢٤٤
شرح البيت رقم ٥٢..... ٢٤٤
شرح البيت رقم ٥٣..... ٢٤٩
البيت رقم ٥٤..... ٢٥٥
شرح البيت رقم ٥٤..... ٢٥٥
البيت رقم٥٥..... ٢٥٨
شرح البيت رقم ٥٥..... ٢٥٨
البيت رقم٥٦..... ٢٦١
شرح البيت رقم ٥٦..... ٢٦١
البيت رقم٥٧..... ٢٧٠
شرح البيت رقم ٥٧..... ٢٧٠
البيت رقم ٥٨..... ٢٧٥

شرح البيت رقم ٥٨..... ٢٧٥
البيت رقم٥٩..... ٢٧٩
شرح البيت رقم ٥٩..... ٢٧٩
البيت رقم ٦٠..... ٢٨٧
شرح البيت رقم ٦٠..... ٢٨٧
البيت رقم ٦١..... ٢٩٣
شرح البيت رقم ٦١..... ٢٩٣
البيت رقم ٦٢..... ٣٠٢
شرح البيت رقم ٦٢..... ٣٠٢
البيت رقم ٦٣..... ٣١٣
شرح البيت رقم ٦٣..... ٣١٣
البيت رقم٦٤..... ٣١٨
شرح البيت رقم ٦٤..... ٣١٨
البيت رقم ٦٥..... ٣٢٢
شرح البيت رقم ٦٥..... ٣٢٢
البيت رقم ٦٦..... ٣٢٩
شرح البيت رقم ٦٦..... ٣٢٩
البيت رقم٦٧..... ٣٣٥
شرح البت رقم ٦٧..... ٣٣٥
البيت رقم ٦٨..... ٣٤١
شرح البيت رقم ٦٨..... ٣٤١
البيت رقم٦٩..... ٣٥٣

شرح البيت رقم ٦٩..... ٣٥٣
البيت رقم ٧٠..... ٣٥٥
شرح البيت رقم ٧٠..... ٣٥٥
البيت رقم٧١..... ٣٦٠
شرح البيت رقم ٧١..... ٣٦٠
البيت رقم٧٢..... ٣٦٩
شرح البيت رقم ٧٢..... ٣٦٩
البيت رقم٧٣..... ٣٧٦
شرح البيت رقم ٧٣..... ٣٧٦
البيت رقم٧٤..... ٣٨٢
شرح البيت رقم ٧٤..... ٣٨٢
البيت رقم٧٥..... ٤٠٠
شرح البيت رقم ٧٥..... ٤٠٠
البيت رقم٧٦..... ٤٠٦
شرح البيت رقم ٧٦..... ٤٠٦
البيت رقم٧٧..... ٤١٠
شرح البين رقم ٧٧..... ٤١٠
البيت رقم٧٨..... ٤١٧
شرح البيت رقم ٧٨..... ٤١٧
البيت رقم٧٩..... ٤٢٤
شرح البيت رقم ٧٩..... ٤٢٤
البيت رقم ٨٠..... ٤٣٠

شرح البيت رقم ٨٠ ..... ٤٣٠
البيت رقم٨١ ..... ٤٣٨
شرح البيت رقم ٨١ ..... ٤٣٨
البيت رقم٨٢ ..... ٤٤٠
شرح البيت رقم ٨٢ ..... ٤٤٠
البيت رقم٨٣ ..... ٤٤٤
شرح البيت رقم ٨٣ ..... ٤٤٤
البيت رقم ٨٤ ..... ٤٤٩
شرح البيت رقم ٨٤ ..... ٤٤٩
البيت رقم٨٥ ..... ٤٦٧
شرح البيت رقم ٨٥ ..... ٤٦٧
البيت رقم٨٦ ..... ٤٧١
شرح البيت رقم ٨٦ ..... ٤٧١
البيت رقم٨٧ ..... ٤٧٤
شرح البيت رقم ٨٧ ..... ٤٧٤
البيت رقم٨٨ ..... ٤٧٦
شرح البيت رقم ٨٨ ..... ٤٧٦
البيت رقم٨٩ ..... ٤٨٠
شرح البيت رقم ٨٩ ..... ٤٨٠
البيت رقم ٩٠ ..... ٤٨٣
شرح البيت رقم ٩٠ ..... ٤٨٣
البيت رقم٩١ ..... ٤٨٤

شرح البيت رقم ٩١ ..... ٤٨٤
شرح البيت رقم ٩٢ ..... ٤٨٦
البيت رقم٩٣ ..... ٤٩٣
شرح البيت رقم ٩٣ ..... ٤٩٣
البيت رقم٩٤ ..... ٤٩٨
شرح البيت رقم ٩٤ ..... ٤٩٨
البيت رقم٩٥ ..... ٥٠١
شرح البيت رقم ٩٥ ..... ٥٠١
البيت رقم٩٦ ..... ٥٠٤
شرح البيت رقم ٩٦ ..... ٥٠٤
البيت رقم٩٧ ..... ٥٠٩
شرح البيت رقم ٩٧ ..... ٥٠٩
البيت رقم٩٨ ..... ٥١٢
شرح البيت رقم ٩٨ ..... ٥١٢
البيت رقم٩٩ ..... ٥١٧
شرح البيت رقم ٩٩ ..... ٥١٧
شرح البيت رقم ١٠٠ ..... ٥١٩
البيت رقم١٠١ ..... ٥٢٤
شرح البيت رقم ١٠١ ..... ٥٢٤
البيت رقم١٠٢ ..... ٥٣٠
شرح البيت رقم ١٠٢ ..... ٥٣٠
البيت رقم١٠٣ ..... ٥٣٨

شرح البيت رقم ١٠٣..... ٥٣٨
البيت رقم١٠٤..... ٥٤٢
شرح البيت رقم ١٠٤..... ٥٤٢
البيت رقم١٠٥..... ٥٤٤
شرح البيت رقم ١٠٥..... ٥٤٤
البيت رقم١٠٦..... ٥٤٧
شرح البيت رقم ١٠٦..... ٥٤٧
البيت رقم١٠٧..... ٥٥٣
شرح البيت رقم ١٠٧..... ٥٥٣
البيت رقم١٠٨..... ٥٥٧
شرح البيت رقم ١٠٨..... ٥٥٧
البيت رقم١٠٩..... ٥٧٠
شرح البيت رقم ١٠٩..... ٥٧٠
البيت رقم١١٠..... ٥٧٢
شرح البيت رقم ١١٠..... ٥٧٢
البيت رقم١١١..... ٥٧٤
شرح البيت رقم ١١١..... ٥٧٤
البيت رقم١١٢..... ٥٧٧
شرح البيت رقم ١١٢..... ٥٧٧
البيت رقم١١٣..... ٥٨٢
شرح البيت رقم ١١٣..... ٥٨٢
شرح رقم ١١٤..... ٥٨٤

البيت رقم١١٥.....٥٨٥
شرح البيت رقم ١١٥.....٥٨٥
الفهرس.....٦٠٠


الدرر الناجية
في شرح
القصيدة التائية
للإمام أبي إسحاق الإلبيري ت ٤٦٠ هـ